



إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

ن. ب. محفوظ

عند منتصف الليل استيقظت ، كما اعتادت أن تستيقظ في هذا الوقت من كل ليلة بلا استعانة من منبه أو غيره ، ولكن بإيحاء من الرغبة التي تبثت عليها فتواظب على إيقاظها في دقة وأمانة . وظلت لحظات على شك من استيقاظها فاختلطت عليها رؤى الأحلام وهمسات الاحساس ، حتى بادرها القلق الذي يلم بها قبل أن تفتح جفניה من خشية أن يكون النوم خانها ، فهزت رأسها هزة خفيفة وفتحت عينيها على ظلام الحجرة الدامس . لم يكن ثمة علامة تستدل بها على الوقت ، فالطريق تحت حجرتها لا ينام حتى مطلع الفجر ، والأصوات المتقطعة التي تترامى إليها أول الليل من سمار المقاهي وأصحاب الحوانيت هي التي تترامى عند منتصفه وإلى ما قبيل الفجر ، فلا دليل تطمئن إليه إلا احساسها الباطن - كأنه عقرب ساعة واع - وما يشمل البيت من صمت ينم عن أن بعلمها لم يطرق بابه بعد ولم تضرب طرف عصاه على درجات سلمه .

هي العادة التي توقظها في هذه الساعة ، عادة قديمة صاحبت شبابها منذ مطلعها ولا تزال تستأثر بكمولتها ، تلقتها فيما تلقت من آداب الحياة الزوجية ، أن تستيقظ في منتصف الليل لتنتظر بعلمها حين عودته من سهرته فتقوم على خدمته حتى ينام . وجلست في الفراش بلا تردد لتتغاب على أغراء النوم الدافئ وبسملت ثم انزلت من تحت الغطاء إلى أرض الحجرة ، ومضت تتلمس الطريق على هدى عمود السرير وضلفة الشباك حتى بلغت الباب ففتحته ، فانساب إلى الداخل شعاع خافت ينبعث

من مصباح قائم على الكونصول في الصالة ، فدلفت منه وحملته وعادت به الى الحجرة وهو يعكس على السقف من فوهة زجاجية دائرة مهتزة من الضوء الشاحب تحف بها حاشية من الظلال ، ثم وضعته على خوان قائم بازاء الكنبة . وأضاء المصباح الحجرة فبدت برقعتهما المربعة الواسعة وجدرانها العالية وسقفها بعمده الأفقية المتوازية ، الا أنها لاحت كريمة الأثاث ببساطها الشرازي وفراشها الكبير ذى العمد النحاسية الأربعة والصوان الضخم والكنبة الطويلة المفظة بسجاد صغير المقطع مختلف النقوش والألوان . واتجهت المرأة الى المرأة وألقت على صورتها نظرة فرأت منديل رأسها البنى منكمشا متراجعا وقد تشعبت خصلات من شعرها الكستنائى فوق الجبين ، فمدت أصابعها الى عقدته فحلتها وسوته على شعرها وعقدت طرفيه في أناة وعناية ، ومسحت براحتيها على صفحتي وجهها كأنما لتزيل عنه ما علق به من آثار النوم . كانت في الأربعين ، متوسطة القامة ، تبدو كالنحيفة ولكن جسمها بض مملىء في حدوده الضيقة لطيف التنسيق والتبويب ، أما وجهها فمائل الى الطول مرتفع الجبين دقيق القسمات ، ذو عيني صغيرتين جميلتين تلوح فيهما نظرة عسلية حاملة ، وأنف صغير دقيق يتسع قليلا عند فتحته ، وفم رقيق الشفتين ينحدر تحتها ذقن سديب ، وبشرة قمحية صافية تلوح عند موضع الوجنة منها شامة سوادها عميق نقي . وقد بدت وهى تتلفع بخمارها كالمتعجلة ، واتجهت صوب باب المشربية ففتحته ودخلت ، ثم وقفت في قفصها المعلق تردد وجهها يمنة ويسرة ملقية نظراتها من الثقوب المستديرة الدقيقة التى تملأ أضلاعها المغلقة الى الطريق .

كانت المشربية تقع أمام سبيل بين القصرين ، ويلتقى تحتها شارع النحاسين الذى ينحدر الى الجنوب وبين القصرين الذى يصعد الى الشمال ، فبدأ الطريق الى يسارها ضيقا ملتويا متلفعا

بظلمة تكشف في أعاليه حيث تطل نوافذ البيوت النائمة ، وتخف في أسافله بما يلقي اليه من أضواء مصابيح عربات اليد وكلوبات المقاهى وبعض الحوانيت التى تواصل السهر حتى مطلع الفجر ، وإلى يمينها التف الطريق بالظلام حيث يخلو من المقاهى . وحيث توجد المتاجر الكبيرة التى تغلق أبوابها مبكرا ، فلا يلتفت النظر به الا ما ذن قلاوون وبرقوق لاحت كأطياف من المردة ساهرة تحت ضوء النجوم الزاهرة . منظر ألقته منها العينان ربع قرن من الزمان ولكنها لم تسأمه ، ولعلها لم تدر ما السأم طوال حياتها على رتابتها ، وعلى العكس وجدت فيه أنيسا لوحشتها وأليفها لوحدتها عهدا طويلا عاشته وكأنه لا أنيس ولا أليف لها . كان ذلك قبل أن يأتى الأبناء الى هذا الوجود ، فلم يكن يحوى هذا البيت الكبير - بفنائه الترب وبثره العميقة وطابقه وحجراته الواسعة العالية الأسقف - سواها ، أكثر النهار والليل . وكانت حين زواجها فتاة صغيرة دون الرابعة عشرة من عمرها ، فسرعان ما وجدت نفسها . عقب وفاة حماتها وسيدها الكبير ربة للبيت الكبير ، تعاونها على أمره امرأة عجوز تغادرها عند جثوم الليل لتنام في حجرة القرن بالفناء تاركة إياها وحيدة في دنيا الليل الحافلة بالأرواح والأشباح ، تغفو ساعة وتأرق أخرى حتى يعود الزوج العتيد من سهرة طويلة .

ولكى يطمئن قلبها اعتادت أن تطوف بالحجرات مصطحبة خادمتها مادة يدها بالمصباح امامها فتلقى في أركانها نظرات متفحصة خائفة ثم تغلقها بأحكام ، واحدة بعد أخرى ، مبتدئة بالطابق الأول مشية بالطابق الأعلى ، وهى تتلو ما تحفظ من سور القرآن دفعا للشياطين ، ثم تنتهى الى حجرتها فتغلق بابها وتندس في الفراش ولسانها لا يمسك عن التلاوة حتى يغلبها النوم . ولشد ما كانت تخاف الليل في عهدها الأول بهذا البيت ، فلم يغب عنها - هى التى عرفت عن عالم الجن أضعاف ما تعرفه عن عالم الانس - أنها

لا تعيش وحدها في البيت الكبير ، وأن الشياطين لا يمكن أن تضل
طويلا عن هذه الحجرات القديمة الواسعة الخالية ، ولعلها آوت إليها
قبل أن تحمل هي إلى البيت ، بل قبل أن ترى نور الدنيا ، فكم
دب إلى أذنيها همساتهم وكم استيقظت على لفحات من
أنفاسهم ، وما من مغيث إلا أن تتلو الفاتحة والصمدية أو أن تهرع
إلى المشربة فتمد بصرها الزائع من ثوبها إلى أنوار العربات
والمقاهي وترهف السمع لانتقاط ضحكة أو سيلة تسترد بها
أنفاسها .

ثم جاء الأبناء تبعاً ولكنهم كانوا أول عهدهم بالدنيا لمحا طربا
لا يبدد خوفا ولا يطمئن جانباً ، وعلى العكس ضاعف من خوفها
بما أثار في نفسها المتهافنة من أشفاق عليهم وجزع أن يحسم سوء .
فكانت تحويهم بذراريها وتغمرهم بأنفاس العطف وتحيطهم في
اليقظة والنام بدرج من السور والأحجية والرقا والتعاويد ، أما
الطمأنينة الحققة فلم تكن لتذوقها حتى يعود الغائب من سهرته .
ولم يكن غريباً ، وهي منفردة بطفلها تنومه وتلاظمه ، أن تضمه إلى
صدرها فجأة ثم تتصنت في وجل وانزعاج ثم يعلو صوتها هاتفة
وكانها تخاطب شخصا حاضراً : « أبعد عنا ، ليس هذا مقامك ،
نحن قوم مسلمون موحدون » ثم تتلو الصمدية في عجلة ولهوجة .
وعند ما طالت بها معايشة الأرواح بتقدم الزمن تخلفت من مخاوفها
كثيراً واطمأنت للدرجة إلى دعاباتهم التي لم تجر عليها سوءاً قط
فكانت إذا ترامى إليها حس طائف منهم قالت في نبرات لا تخلو
من دالة : « ألا تحترم عباد الرحمن ! . الله بيننا وبينك فاذهب
عنا مكرماً » . ولكنها لم تكن تعرف الطمانينة الحققة حتى يعود
الغائب . أجل كان مجرد وجوده بالبيت - صاحباً أو نائماً - كفيلاً
ببث السلام في نفسها ، فتحت الأبواب أم أغلقت ، اشتعل المصباح
أم خمد . وقد خطر لها مرة ، في العام الأول من معاشرته ، أن
تعلم نوعاً من الاعتراض المؤدب على سهره المتواصل فما كان منه

إلا أن أمسك بأذنيها وقال لها بصوته الجهورى في لهجة حازمة :
« أنا رجل ، الأمر الناهى ، لا أقبل على سلوكى أية ملاحظة ، وما
عليك إلا الطاعة ، فحاذرى أن تدفعينى إلى تادييبك » ، فتعلمت من
هذا الدرس وغيره مما لحق به أنها تطبق كل شيء - حتى معايشة
العفاريث - إلا أن يحمر لها عين الغضب ، فعليها الطاعة بلا قيد
ولا شرط ، وقد أطاعت ، وتفانت في الطاعة حتى كرهت أن تلومه
على سهره ولو في سرها ، ووقر في نفسها أن الرجولة الحققة
والاستبداد والسهر إلى ما بعد منتصف الليل صفات متلازمة
لجوهر واحد ، ثم انقلبت مع الأيام تباهى بما يصدر عنه سواء
ما يسرها أو يحزنها ، وظلت على جميع الأحوال الزوجة المحبة
المطيعة المستسلمة ، ولم تأسف يوماً على ما ارتضت لنفسها من
السلامة والتسليم ، وأنها تستعيد ذكريات حياتها في أى وقت
تشاء فلا يطالها إلا الخير والغبطة ، على حين تلوح لها المخاوف
والأحزان كالأشباح البخاوية فلا تستحق إلا ابتسامة رثاء ، ألم
تعاشر هذا الزوج بعلاته ربع قرن من الزمان فجنّت من معاشرته
إبناء هم قرّة عينها وبيتاً مترعاً بالخير والبركة وحياة ناضجة
سعيدة .. بلى ، أما مخالطة العفاريث فقد مرت كما تمر كل ليلة
بسلام ، وما امتدت يد أحدهم إليها أو إلى أحد من أبنائها بسوء
اللهم إلا ما هو بالمزاح والمداميات أشبه ، فلا وجه للشكوى ،
ولكن الحمد كل الحمد لله الذى بكلامه اطمأن قلبها وبرحمته
استقامت حياتها .

حتى ساعة الانتظار هذه ، على ما تقطع عليها من لذيد المنام
وما تستأديها من خدمة كانت خليقة بأن تنتهى بزوال النهار ،
أحببتها من أعماق قلبها ، فضلاً عن أنها استحالت جزءاً لا يتجزأ
من حياتها ، ومازجت الوفير من ذكرياتها ، فانها كانت ولم تزال
الرمز الحى لحدها على بعلمها وتغانيها في أسعاده ، واشعاره ليلة بعد
أخرى بهذا التفانى وذالك الحذب . لهذا امتلات ارتياحاً وهى واقفة

في المشربة ، وراحت تنقل بصرها خلال نقوبها مرة الى سبيل بين القصرين ومرة الى منعطف الخرنفش وأخرى الى بوابة حمام السلطان ورابعة الى الماذن ، او تسرحه بين البيوت المتكاكئة على جانبي الطريق في غير انتظام او تناسق كأنها طابور من الجندي وقفة راحة تخفف فيها من قسوة النظام . وابتسمت للمنظر الذي تحبه ، هذا الطريق الذي تنام الطرق والحواري والأزقة ويبقى ساهرا حتى مطلع الفجر ، فكم سلى أرقها وأنس وحشتها وبدد مخاوفها لا يغير الليل منه الا أن يفشى ما يحيط به من أحياء بالصمت العميق فيهيء لأصواته جوا تعلو فيه وتوضح كأنه الظلال التي تملأ أركان اللوحة فتضفى على الصورة عمقا وجلاء ، لهذا ترن الضحكة فيه فكانها تنطلق في حجرتها ، ويسمع الكلام العادي فتميزه كلمة كلمة ، ويمتد السعال ويخشوشن فيترامى لها منه حتى خائفته التي تشبه الأنين ، ويرتفع صوت النادل وهو ينادي : « تعميرة نادية » كهتاف المؤذن فتقول لنفسها في سرور : « الله هؤلاء الناس .. حتى هذه الساعة يطلبون مزيدا من التعميرة » ، ثم تذكر بهم زوجها الغائب فتقول : « ترى أين يكون سيدي الآن ؟ .. وماذا يفعل .. فلتصحبه السلامة في الحل والترحال » أجل قيل لها مرة أن رجلا كالسيد أحد عبد الجواد في يساره وقوته وجماله - مع سهره المتواصل - لا يمكن أن تخلو حياته من نساء ، يومها تسمت بالغيرة وربها حزن شديد ، ولما لم تواتها شجاعته على مشافهته بما قيل أفضت بحزنها الى أمها ، فجعلت الأم تسكن خاطرها بما وسعها من حلو الكلام ، ثم قالت لها : « لقد تزوجك بعد أن طلق زوجته الأولى ، وكان بوسعك أن يستردها لو شاء ، أو أن يتزوج غيرك ثانية وثالثة ورابعة ، وقد كان أبوه مزواجا : فاحمدى ربنا على أنه أبقاك زوجة وجيدة » . ولو أن حديث أمها لم يجد مع حزنها وقت اشتداده الا انها مع الأيام سلمت بما فيه من حق ووجاهة ، فليكن ما قيل حقا فلعله من صفات الرجولة

كالسهر والاستبداد ، وشر على أى حال خير من شرور كثيرة ، وليس من الهين أن تسمح لوسواس بأن يفسد عليها حياتها الطبية المليئة بالهناء والرغد ، ثم لعل ما قيل بعد هذا كله أن يكون وهما أو كذبا . ووجدت أن موقفها من الغيرة ، شأنها حيال المتاعب التي تعترض سبيل حياتها ، لا يعدو التسليم بها كقضاء نافذ لا تملك حياله شيئا ، فلم تهتد الى وسيلة في مقاومتها الا أن تنادى الصبر وتستعدى مناعتها الشخصية ، ملاذها الأوحى في مغالبة ما تكره ، فانقلبت الغيرة وأسبابها ، كطباغ زوجها الأخرى ، وكعاشرة العفاريث ، مما تحتمل .

جعلت تنظر الى الطريق وتنصت الى السمار حتى ترامى اليها وقع سنابك جواد فعطفت رأسها صوب النحاسين فرائت « حنطورا » يقترب ويبدأ ومصباحه يسطعان في الظلام ، فتنهلت في ارتياح وغمغمت « أخيرا .. » . ها هو « حنطور » أحد أصدقائه يوصله بعد السهرة الى باب البيت الكبير ثم يمضي كالعادة الى الخرنفش حاملا صاحبه ونفرا من الأصدقاء الذين يقطنون هذا الحى . ووقف « الحنطور » امام البيت ، وارتفع صوت زوجها وهو يقول في نبرات ضاحكة :
- استودعكم الله ..

وكانت تنصت الى صوت زوجها وهو يودع أصحابه بشغف ودهشة ، ولولا انها تسمعه كل ليلة في مثل هذه الساعة لآتكرته ، فما عهدت منه - هي وأبنائها - الا الحزم والوقار والتمت ، فمن أين له بهذه النبرات الطروبة الضحكة التي تسيل بشاشة ورقة ! . وكان صاحب « الحنطور » أراد أن يمازحه فقال له :
- أما سمعت ماذا قال الجواد لنفسه بعد نزولك من العربة ؟ . قال انه من المؤسف أن أوصل هذا الرجل كل ليلة الى بيته وهو لا يستحق أن يركب الا حمارا ..

وانفجر الرجال بالعربة ضاحكين فانتظر السيد حتى عادوا الى السكون ثم قال يجيبه :

- أما سمعت بماذا أجابته نفسه ؟ .. قالت اذا لم توصله أنت فسيركب البك صاحبنا ..
وضج الرجال ضاحكين مرة أخرى ، ثم قال صاحب العربة :
- فلنؤجل الباقي الى سهرة الغد ..

وتحركت العربة الى شارع بين القصرين واتجه السيد نحو الباب فغادرت المرأة المشربية الى الحجرة ، وتناولت المصباح ومضت الى الصالة ، ومنها الى الدهليز الخارجى حتى وقفت في رأس السلم . وترامت اليها صفقة الباب الخارجى وهو يفلق ، وانزلاق المزلاج ، وتخيلته وهو يقطع الفناء بقامته المديدة مستردا هيبته ووقاره ، خالعا مزاحه الذى لولا استراق السمع لظننته من مستحيل المستحيلات ، ثم سمعت وقع طرف عصاه على درجات السلم فمدت يدها بالمصباح من فوق الدرابزين لتتير له سبيله .

- ٢ -

وانتهى الرجل الى موقفها فراحت تتقدمه رافعة المصباح ، فتبعها وهو يشتم :
- مساء الخير يا أمينة .

فقالت بصوت خفيض ينم عن الأدب والخضوع :

- مساء الخير يا سيدى .

وفي ثوان احتوتهما الحجرة ، فانجهت أمينة الى الخوان لتضع المصباح عليه ، في حين علق السيد عصاه بحافة شبك السرير وخلع الطربوش ووضع على الوسادة التى تتوسط الكنبه ، ثم

اقتربت المرأة منه لتتزع عنه ملابسه . وبدأ في وقفته طويل القامة عريض المنكبين ضخم الجسم ذا كرش كبيرة مكتنزة اشتملت عليها جميعا جبة وقططان في اناقة وبجبة دلنا على رفاهة ذوق وسخاء ، ولم يكن شعره الأسود المنبسط من مفرقه على صفحتى رأسه في عناية بالغة ، وخاتمته ذو الفص الماسى الكبير ، وساعته الذهبية ، الا لتؤكد رفاهة ذوقه وسخاءه . أما وجهه فمستطيل الهيئة مكتنز الأديم قوى التعبير واضح الملامح ، يدل في جملته على بروز الشخصية والجمال بعينه الزرقاوين الواسعتين ، وأنفه الكبير الأشم المتناسق على كبره مع بسطة الوجه ، وفمه الواسع بشفتيه المتثلثتين ، وشاربه الفاحم الغليظ المفتول طرفاه بدقة لا مزيد عليها . ولما تدانست المرأة منه بسط ذراعيه فخلعت الجبة عنه وأطبقتها بعناية ثم وضعتها على الكنبه ، وعادت اليه ففكت حزام القفطان ونزعته وجعلت تدرجه بالعناية نفسها لتضعه فوق الجبة ، على حين تناول السيد جلبابه فارثاه ثم طاقيته البيضاء فلبسها ، وتمطى وهو يتنأب وجلس على الكنبه ومد ساقيه مسندا قذاله الى الحائط . وانتهت المرأة من ترتيب ملابسه فقعدت عند قدميه الممدودتين وراحت تخلع حذاءه وجوربيه ، ولما كشف قدمه اليمنى بدأ أول عيب في هذا الجسم الهائل الجميل في خنصره التى تاكلت من توالى الكشط بالموسى في موضع كاللومزمن . وغادرت أمينة الحجرة فغابت دقائق ثم عادت بطست وأبريق ، فوضعت الطست عند قدمى الرجل ووقفت والأبريق في يدها على أهبة الاستعداد ، فاستوى السيد في جلسته ومد لها يديه فصبت له الماء ففصل وجهه ومسح على رأسه وتمضمض طويلا ، ثم تناول المنشفة من فوق مسند الكنبه ومضى يجفف رأسه ووجهه ويديه بينما حملت المرأة الطست وذهبت به الى الحمام . كانت هذه الخدمة آخر ما تؤدى من خدمات في البيت الكبير ، وقد اظليت عليها ربع قرن من الزمان بهمة لا يعترها الكلال ، بل في سرور وانشراح ، وبنفس

الحماس الذى يستفزها الى النهوض بواجبات البيت الأخرى من قبيل مطلع الشمس حتى مغيبها ، فاستحقت من أجله أن يطلق عليها جاراتها اسم « النحلة » لدأبها ونشاطها المتواصلين .

وعادت الى الحجرة فأغلقت الباب وسحبت من تحت السرير شلثة فوضعتها أمام الكنية وتربعت عليها اذ لم تكن ترى لنفسها الحق في أن تجلس الى جانبه تأدبا ، ومضى الوقت وهى ملازمة الصمت حتى يدعواها الى الكلام فتتكلم . وتراخى ظهر السيد الى مسند الكنية ، وبدا عقب سهرته الطويلة متعبا فنقل جفناه اللذان جرى في اطرافهما احمرار طارئ من اثر الشرب ، وجعل يزفر أنفاسا ثقيلة مخمورة . ومع أنه كان يعاقر الخمر كل ليلة ، الى افراط في الشرب حتى السكر ، الا أنه لم يكن ليقرر العودة الى بيته حتى تزايله سورة الخمر ويستعيد سيطرته على نفسه حرصا منه على وقاره والمظهر الذى يجب أن يبدو به في بيته . وكانت زوجته الشخص الوحيد من آل بيته الذى يلقاه في أعقاب سهرته ، ولكنها لم تلمس من آثار الشراب الا رائحته ، ولم تلاحظ على سلوكه شذوذا مرييا ، الا ما كان يبدو منه أول عهده بزواجها وقد تناسته ، وعلى العكس من المنتظر جنت من مصاحبتها له في هذه الساعة اقبالا منه في الحديث وتبسطا في فنونه قل أن تظفر بمثله في اوقات افاقة الكاملة . وانها لتذكر كم ارتعبت يوم أدركت أنه يعود من سهرته ثملا ، واستدعت الخمر الى ذهنها ما يقترب بها من وحشية وجنون ومخالفة الدين وهى الأفطع ، فتقرزت نفسها وركبها الذعر وعانت لدى عودته كلما عاد الا ما لا قبل لها بها . وبمضى الأيام والليالي ثبت لها أنه حين عودته من سهرته يكون اللطف منه في جميع الاوقات ، فيتخفف من صرامته ، وترق ملاحظته ، ويستترسل في الحديث ، فاستأنست اليه واطمأنت وان لم تنس أن تضرع الى الله أن يغفر له معصيته ويتوب عليه . وكم تمنى لو يتطبع بنفس اللين النسبى وهو صاح منتبه ، وكم

عجبت لهذه المعصية التى ترقق حواشيه ، وتحيرت طويلا بين ما تجد نحوها من كراهية دينية موروثة وبين ما تجنى منها من راحة وسلام ، ولكنها دفنت أفكارها في أعماق نفسها ، ودارتها مداراة من لا يطيق أن يعترف بها ولو فيما بينه وبين نفسه . اما السيد فكان أحرص ما يكون على وقاره وحزمه ، وما يصدر عنه من لطف فخلصة يصدر ، وربما جرت على شفثيه ابتسامة عريضة - في جلسته هذه - لذكرى طافت به من ذكريات سهرته السعيدة فسرعان ما ينتبه الى نفسه ، ويطبق شفثيه ، ويسترق الى زوجه نظرة فيجدها كعادتها بين يديه خافضة العينين ، فيطمئن ويعود الى ذكرياته . والحق ان سهرته لم تكن تنتهى بعودته الى بيته ، ولكنها تواصل حياتها في ذكرياته ، وفي قلبه الذى يجذبها اليه بقوة نهم الى مسرات الحياة لا يروى ، وكأنه لا يزال يرى مجلس الأانس تزينه النخبة المختارة من أصدقائه واصفيائه ، ويتوسطه بدر من البدور التى تطلع في سماء حياته حينما من بعد حين ، وما برحت تطن في أذنيه الدعابات واللطائف والنكات التى تجود قريحته بدررها اذا هزه السكر والطرب ، وهذه الملح خاصة يراجعها في عناية واهتمام ينضحان بالعجب والزهو ، ويتذكر اثرها في النفوس وما لاقت من نجاح وابتهاج جعلاه الحبيب الأول لكل نفس ، ولا عجب فانه كثيرا ما يشفر بأن الدور الذى يلعبه في سهرته من الخطورة كأنه أمل الحياة المنشود ، وكان حياته العملية بجملتها ضرورة يؤديها في سبيل الفوز بساعات مترعة بالشراب والضحك والغناء والعشق يقضيها بين ضجبه وخلصائه . وبين هذا وذاك تسجع في باطنه أنغام حلوة لطيفة مما تردد في المجلس السعيد فذهب معها وجاء وهتف وراءها من أعماق قلبه : « آه . . . الله أكبر » ، هذا الغناء الذى يحبه كما يحب الشراب والضحك والصحاب والبدور ، فلا يطيق أن يخلو منه مجلسه ، ولا يابه للشقة البعيدة يقطعها الى اطراف

القاهرة لسمع الحامولى أو عثمان أو المنىلاوى حيثما تكون مغانيهم ، حتى آوت انغامهم الى نفسه السخية كما تأوى البلب الى شجرة مورقة ، فاكسب دراية بالنغم والمذاهب وتوج حجة في السمع والطرب ، وكان يحب الغناء بروحه وجسمه ، أما روحه فتطرب وتغمرها الأريحية ، وأما جسمه فتهتاج حواسه وترقص اطرافه خاصة الرأس واليدان ، ولهذا احتفظت نفسه لبعض المقاطع الغنائية بذكريات روحية وجسدية لا تنسى ، مثل : « وليه بقى تلاويك وهجر ك » أو : « يا ما بكره تعرف .. وبعده نشوف » أو « اسمح بقى وتعالى اما اقول لك » وكان حسبه ان تهفو اليه نغمة من هذه النغمات معانقة حواسيها من الذكريات كى تهيج موطن السكر من نفسه فيهرز رأسه طربا وترق على شفتيه ابتسامة اشواق ويفرقع بأصابعه وقد يشدو مترنما اذا كان الى نفسه خاليا . ومع هذا فلم يكن الغناء هوى منفردا يجذبه لذاته فحسب ، ولكنه كان زهرة في طاقة يحلو بها وتحلو به ، أهلا به ومرحبا بين الصديق الصافي والحبيب الوفي والشراب المعتق والملحة العذبة ، أما أن يصفو له وحده - كما يتلقى في البيوت عن الفونوغراف - فهو جميل حبيب بلا شك ، ولكنه غاب عن جوه وبيئته وملابسائه ، وهيئات أن يقنع به القلب ، انه يتوق الى أن يفصل بين النغمة والنغمة بنكتة تهتز لها النفوس ، وان يسابق التردد بالنهل من كأس مترعة ، ويرى اثر التطريب في وجه الصديق وعين الحبيب ، ثم يتعاونون جميعا على التهليل والتكبير . بيد أن السهرة لم يقتصر أثرها على بعث الذكريات ، فمن مزاياها أيضا أنها تهيش في اعقابها لاسلوب طيب من الحياة هو الذى تلهف عليه زوجه الطيبة المستسلمة حين تجد نفسها بين يدي رجل حلو العشر يتسبط معها في الحديث ويقضى اليها بما في طويته على نحو يشعرها ولو الى حين بأنها ليست جارية فحسب ولكنها شريكة حياته أيضا . وهكذا راح يحدثها عن

شؤون البيت فأنبأها بأنه أوصى بعض التجار من معارفه على شراء خزين البيت من السمن والقمح والحب ، وجعل يحمل على ارتفاع الأسعار واختفاء المواد الضرورية بسبب هذه الحرب التى تطحن العالم منذ ثلاثة أعوام ، وكما دته كلما ذكر الحرب اندفع يلعن الجنود الأستراليين الذين ينتشرون في المدينة كالجراد ويعيثون في الأرض الفساد . والحق أنه كان يحق على الأستراليين لسبب خاص به وهو أنهم يجبروتهم حالوا بينه وبين مجالى اللهو والطرب في الأريكية فارتد عنها مغلوبا على أمره - الا في القليل النادر من مختلس الغرض - لانه لم يكن يسعه أن يعرض نفسه للجنود الذين يسلبون الناس منافعهم جهارا ويتسلون بصب ألوان الاعتداء والاهانة عليهم بغير رادع . ثم مضى يسأل عن حال « الأولاد » كما يدعوهم بلا تفرقة بين كبيرهم الكاتب بمدرسة النحاسين وصغيرهم التلميذ بمدرسة خليل اغا ثم تساءل بلهجة ذات معنى : - وكمال ؟! اياك وأن تتستري على شيطنته !

فذكرت المرأة ابنها الصغير الذى تتستر عليه حقا فيما لا خطر له من اللعب البرى ، وان كان السيد لا يعترف ببراءة أى لون من ألوان اللعب واللهو ، وقالت بصوتها الخاشع : - انه يلتزم أوامر أبيه .

وصمت السيد قليلا فبدأ كالشارد ، وعاد يقطف من ذكريات ليلته السعيدة ، ثم تراجع مؤثر ذاكرته الى ما سبق سهرته من أحداث يومه فذكر فجأة أنه كان يوما حافلا ، ولما كان في حال لا يستحب معها كتمان شيء مما يطفو على سطح الومى فقد قال وكأنه يخاطب نفسه :

- يا له من رجل كريم الأمير كمال الدين حسين ! أما علمت بما فعل ؟ . . . ابى أن يعتلى عرش أبيه المتوفى في ظل الانجليز . ومع أن المرأة علمت بوفاة السلطان حسين كامل أمس الا أنها كانت تسمع اسم ابنه لأول مرة ، ولم تجد ما تقول ولكنها

- مدفوعة بعواطف الاجلال للمتكلم - كانت تخاف 'لا تعلق على كل كلمة يقولها بما يرضيه فقالت :
- رحم الله السلطان واكرم ابنه .
فاستطرد السيد قائلا :

- وقبل العرش الامير احمد فؤاد او السلطان فؤاد كما سيدعى من الآن فصاعدا ، وقد تم الاحتفال بتوليته اليوم فانطلق في موكبه من قصر البستان الى سراى عابدين .. وسبحان من له الدوام .

واصغت ائمة اليه باهتمام وسرور ، اهتمام يستثيره في نفسيها اى نبأ يجرى من العالم الخارجى الذى تكاد لا تعرف عنه شيئا ، وسرور يبعثه ما تجد في حديث بعلمها معها عن هذه الشؤون الخطيرة من لفظة عطف تزدهيها ، الى ما في الحديث نفسه من ثقافة يلد لها ان تعيدها على مسمع من ابنائها وخاصة فتياتها اللتين تجهلان مثلها العالم الخارجى جهلا تاما . ولم تجد لتجزيه عن كريم عطفه خيرا من ان تردد على مسمعيه دعاء تعلم مقدما بمقدار ارتياحه اليه كما ترتاح اليه هي من اعماقها فقالت :
- ربنا قادر على ان يعيد الينا ائمتنا عباس .

فهز الرجل راسه وتمتم قائلا :

- متى ؟ متى ؟ علم هذا عند ربى .. ما نقرأ في الجرائد الا عن انتصارات الانجليز ، فهل ينتصرون حقا او ينتصر الالمان والترك في النهاية ؟ اللهم استجب .

وأغمض الرجل عينيه اعياء ، وتشاءب ، ثم تمطى وهو يقول :
- اخرجى المصباح الى الصالة .

ونهضت المرأة قائمة وذهبت الى الخوان فتناولت المصباح ومضت الى الباب ، وقبل ان تجوز العتبة سمعت السيد وهو يتجشأ فتمتمت :

- صحة وعافية .

- ٣ -

وفي هدوء الصباح الباكر ، وذبول الفجر لا تزال ناشبة في أسهم الضياء ، تعالى صوت العجين من حجرة الفرن بالفناء في ضربات متتابعة كدوى الطبل . وكانت ائمة قد غادرت الفراش قبل هذا بنحو نصف ساعة . فتوضأت وصلت ثم نزلت الى حجرة الفرن فايقظت أم حنفى - امرأة في الأربعين خدمت وهى صبية بالبيت وفارقتة للزواج ثم عادت اليه بعد طلاق - وبينما نهضت الخادم لتعجن عكفت ائمة على اعداد الفطور . وكان للبيت فناء متسع ، في اقصاه الى اليمين بئر سدت فوهتها بعارض خشبى مذبت اقدام الصغار على الأرض وما تبع هذا من ادخال مواسير المياه ، وفي اقصى اليسار على كسب من مدخل الحرم حجرتان كبيرتان اقيمت للفرن في احدهما واستعملت بالتالى مطبخا ، واعدت الاخرى مخزنا . وكان لحجرة الفرن على عزلتها علاقة بقلبيها لا تهن ، فلو حسب الزمن الذى قضته بين جدرانها لكان عمرا ، الى ما تتزين به الحجرة من مباهج المواسم عند حلولها حين تتطلع اليها القلوب الهاشة لافراح الحياة ، وتتطلب الافواه لآوان الطعام الشهية التى تقدمها موسما بعد موسم كخشاف رمضان وقطائفه ، وكعك عيد الفطر وفطائره ، وخروف عيد الاضحى الذى يسمن ويدال ثم يذبح على مشهد من الأبناء فلا يعدم دمة رثاء وسط بهجة شاملة ، هنالك تبدو عين الفرن المقوسة يلوح في اعماقها وهج النار كجذوة السرور المشتعلة في السرائر وكأنها زينة العيد وبشائره . واذا كانت ائمة تشعر بانها في أعلى البيت سيدة بالنيابة وممثلة لسلطان لا تملك منه

شيئا ، فهي في هذا المكان ملكة لا شريك لها في ملكها ، فهذه
الفرن تموت وتحيا بأمرها ، وهذا الوقود من فحم وخطب في
الركن اليمين يتوقف مصيره على كلمة منها ، والكانون الذي يحتل
الركن المقابل تحت رفوف الحلل والأطباق والصينية النحاسية
ينام أو يزغرد بالسنة اللهب بإشارة منها . هي هنا الأم والزوجة
والاستاذة والفنانة التي يترقب الجميع والثقة ملء قلوبهم ما تقدم
يذاها ، وآية ذلك أنها لا تفوز باطراء سيدها إذا تفضل باطرائها
الا عن لون من الطعام أحكمت صنعه وطهيه . وأم حنفي كانت
اليد اليمنى في هذه المملكة الصغيرة ، سواء تصدت أمينة للإدارة
والعمل أم تخلت عن مكانها لاحدى فتاتها لتتفرس بفنها تحت
إشرافها ، وهي امرأة بدينة في غير تنسيق ولا تفصيل ، نما لحمها
نموا سخيا فراعى في نموه السمينة فحسب وأهمل اعتبارات
الجمال ، بيد أنها رضية عنه كل الرضا لأنها كانت تعد السمينة
في ذاتها الجمال كل الجمال . ولا عجب فقد كان كل عمل لها في
البيت يكاد يعد ثانويا بالقياس الى واجبها الأول وهو تسمين
الأسرة - أو بالأحرى ائانها - بما تعد لهن من « بلابيع » سحرية
هي رقية الجمال وسره المكنون ، ومع أن أثر البلابيع لم يكن
ناجعا دائما الا أنه برهن على جدارته في أكثر من مرة فاستحق
ما يناط به من آمال وأحلام . فليس عجيبا بعد هذا أن تسمن
أم حنفي ، على أن سميتها لم تقلل من نشاطها ، فما أن أيقظتها
سيدتها حتى نهضت بنفس متفتحة للعمل ، وخفت الى « ماجور »
المعجين . وتعالى صوت المعجين الذي يؤدي وظيفة جرس المنبه
في هذا البيت ، فترامى الى الأبناء في الدور الأول ، ثم تصاعد الى
الأب في الدور الأعلى ، منذرا الجميع بأن وقت الاستيقاظ قد
أزف . وتقلب السيد أحمد عبد الجواد على جنبه ثم فتح
عينيه ، وسرعان ما قطب حانقا على الصوت الذي أزعج منامه ،
ولكنه كظم حنقه لأنه كان يعلم أنه يجب أن يستيقظ ، وتلقى أول

إحساس يتلقاه عادة عقب استيقاظه وهو ثقل الرأس فقاومه
بقوة إرادته وجلس في فراشه وان كانت تغلبه الرغبة في معاودة
النوم . ولم تكن لياليه الصاخبة لتنسيه واجب النهار ، فهو
يستيقظ في هذه الساعة الباكرة مهما تأخر به وقت النوم حتى
يتسنى له الذهاب الى متجره قبيل الثامنة ، ثم له في القيلولة
فسحة من وقت يعتاض بها عما فاتته من نوم ، ويستعيد نشاطه
للسهرة الجديدة . لهذا كان وقت استيقاظه أسوأ أوقات يومه
جميعا ، يفادر الفراش مترنحا من الاعياء والدوار ، ويستقبل
حياة عاطلة من حلو الذكريات ولطيف المشاعر وكأنها تستحيل
دقا في الدماغ والجفون .

* وتوالت دقات المعجين على رعوس النائمين بالدور الأول
فاستيقظ فهمي ، وكان استيقاظه يسيرا على رغم سهره عاكفا
على كتب القانون ، فاذا استيقظ فأول إحساس يبادره صورة
وجه مستدير تتوسط صفحته العاجية عينان سوداوان فيهمس
باطنه قائلا : « مريم » . ولو أذعن لسلطان الأغراء للبث تحت
الغطاء طويلا ، خاليا الى الخيال الزائر الذي جاء يصحبه بالطف
الهنوي ، فيرنو اليه ما دعاه الشوق ويبادلته الحديث ويبوح به
بأسرار وأسرار ، ويتداني اليه بجسارة لا تتأتى في غير هذا الرقاد
الدافئ في مطلع الصباح . ولكنه كمادته أجل نجواه الى صباح
الجمعة وجلس في فراشه ، ثم مد بصره الى أخيه النائم في
الفراش الذي يليه وهتف :

« ياسين .. ياسين .. اصح .

فانقطع شخير الشاب ، ونفخ فيما يشبه الضيق وتمتم من
أنفه :

« صاح .. استيقظت قبلك .

فانتظر فهمي مبتسما حتى عاود الآخر شخيره فصاح به :

« اصح ..

فتقلب ياسين في فراشه متدمرا فانحسر القطاء عن جانب من جسمه الذى يضاهى جسم والده ضخامة وبدانة ، ثم فتح عينين محمرتين تلوح فيهما نظرة غائبة ارتسمت فوقها تقطبية تنطق بالتدمير « أف .. كيف طلع الصبح بهذه السرعة !.. لماذا لا ننام حتى نشبع .. النظام .. دائما النظام .. كأننا عساكر » ، ونهض معتمدا على يديه وركبتيه وهو يحرك رأسه لينفض عنه النعاس فلاحته منه التفاتة الى الفراش الثالث حيث يقطن كمال في نومه الذى ان ينتزعه منه أحد قبل نصف ساعة فقبضه عليه « يا له من غلام سعيد ! » . ولما أفاق قليلا تربيع على الفراش وأسند رأسه الى يديه ، ورغب في معاينة الخواطر اللذيذة التى تحلو بها احلام اليقظة ولكنه كان يستيقظ - كآبئه - على حال من ثقل الراس تتعطل معها الاحلام ، ولاحته لمخيلته زنوبة المودة فلم تترك في حساسيته اثرا مما تترك في صحوه وان افترت شفتاه عن ابتسامة ..

وفي الحجرة المجاورة كانت خديجة قد غادرت الفراش دون حاجة الى منبه العجيين ، كانت أشبه الأسرة بأماها في نشاطها ويقظتها أما عائشة فتستيقظ عادة على الحركة التى تنبعث في السرير من نهوض شقيقتها والنزلاقها الى أرض الحجرة في عنف متعمد يجر وراءه جدلا وملاحاة انقلبا مع التكرار نوعا من الدعابة الغظة ، فاذا استيقظت وفرغت من النكار لم تنهض ، ولكنها تستسلم لحلم طويل من احلام اليقظة السعيدة قبل أن تغادر فراشها .

ثم دبت الحياة فشملت الدور الأول كله ، فتحت النوافذ وتدفق النور الى الداخل وعلى اثره هفا الهواء حاملا صلصلة عجلات سوارس واصوات العمال ونداء بائع البليلة ، وتواصلت الحركة ما بين غرفتى النوم والحمام وبدا ياسين في جلبابه الفضفاض بلحمه المتكتل ، وفهمى بطوله الفارع وقده النحيل وكان -

فيما عدا نحافته - صورة من آبيه . وهبطت الفتاتان الى الفناء لتلحقا بأماهما في حجرة الفرن ، وكان في صورتيهما اختلاف قل ان يوجد مثله في الأسرة الواحدة ، خديجة سمراء وفي قسمات وجهها تنافر ملحوظ ، وعائشة شقراء تشع هالة من حسن ورواء .

ومع ان السيد كان في الدور الأعلى بمفرده إلا ان أمينة لم تدعه في حاجة الى انسان ، وجد على الخوان طبق فنجان مملوءا حلبة ليغير ريقه عليها ، وذهب الى الحمام فتطابرت الى لافه عرف البخور الطيب ، والفتى على الكرسي ثيابا نظيفة مرتبة في عناية ، فاستحم بالماء البارد كعادته كل صباح - عادة لا ينقطع عنها صيفا أو شتاء - ثم عاد الى حجرته مستجدا حيوية ونشاطا . ثم جاء بسجادة الصلاة - وكانت مطوية على مسند الكبة - فبسطها وادى فريضة الصبح ، صلى بوجه خاشع ، وهو غير الوجه البسام المشرق الذى يلقي به أصحابه ، وغير الوجه الجازم الصارم الذى يواجه به آل بيته ، هذا وجه خافض الجناح تقطر التقوى والحب والرجاء من قسماته المتراخية التى الانها التزلزل والتودد والاستغفار . لم يكن يصلى صلاة آلية قوامها التلاوة والقيام والسجود ، ولكن صلاة عاطفة وشعور واحساس يؤديها بنفس الحماس الذى ينفضه على ألوان الحياة التى يتقلب فيها جميعا ، كما يعمل فيتفانى في عمله ، ويصادق فيفرط في مودته ، ويعشق فيذوب في عشقه ، ويسكر فيفرق في سكره ، مخلصا صادقا في كل حال ، هكذا كانت الفريضة حجة روحية يطوف فيها برحاب المولى ، حتى اذا انفتل من صلاته تربيع وبسط راحتيه وراح يدعو الله أن يكلاه برعايته ويغفر له ويبارك في ذريته وتجارته .

وفرغت الام من تجهيز الفطور فتركت للفتاتين اعداد الصينية وطلعت الى حجرة الاخوة حيث وجدت كمالا ما زال يغط في

نومه ، فأقبلت عليه باسمه وحطت راحتها على جبينه وتلت
الفاتحة ، وجعلت تناديه وتهزه برفق حتى فتح عينيه ، ولم تدعه
حتى فارق الفراش . ودخل فهمى الحجرة فلما رآها ابتسم اليها
وحياها تحية الصباح فردت عليه قائلة ونظرة الحب تترقق في
عينها :

— صباح النور يا نور العين ..

وبنفس الرقة صبحت على ياسين « ابن » زوجها فرد عليها
بمودة خليقة بالمرأة التى تنزل من نفسه منزلة الأم الحديرة
بهذا الاسم . ولما عادت خديجة من حجرة الفرن تلقاها فهمى
وياسين — وياسين خاصة — بما يفمرانها به عادة من دعابة .
وكانت مثار دعابة سواء بصورتها المتنافرة أو بلسانها الحاد رغم
ما لها من نفوذ على الأخوين بما تتعهد من شؤونهما بمهارة فائقة
يندر أن تجود بمثلها عائشة التى تلوح وسط الأسرة كالرمز
الجميل رواء وجاذبية وعدم فائدة . وبأدبها ياسين قائلاً :

— كنا نتحدث عنك يا خديجة ، وكنا نقول أنه لو كان
النساء جميعاً على شاكلتك لارتاح الرجال من متاعب القلوب ..
فقلت على البدهة :

— ولو كان الرجال على شاكلتك لارتاحوا جميعاً من متاعب
الرؤوس ..

عند ذلك هتفت الأم قائلة :

— أعد الفطور يا سادة ...

— ٤ —

كانت حجرة الطعام بالدور الأعلى حيث توجد حجرة نوم
الوالدين ، وكان بنفس الدور غير هاتين الحجرتين أخرى للجلوس
وأربع خالية إلا من بعض أدوات اللعب التى يلهو بها كمال في أوقات
فراغه . وكان السماط قد أعد وصفت حوله الشلت ، ثم جاء
السيد فتصدره متربعا ، ودخل الأخوة الثلاثة تباعا فجلس ياسين
الى يمين أبيه ، وفهمى الى يساره ، وكمال قبالة . جلس الأخوة
في أدب وخشوع ، خافضى الرؤس كأنهم في صلاة جامعة ،
يستوى في هذا كاتب مدرسة النحاسين وطالب مدرسة الحقوق
وتلميذ خليل أغا ، فلم يكن أحد منهم ليجتريء على التحديق في
وجه أبيه . وأكثر من هذا كانوا يتجنبون في محضرة تباين النظر
أن يغلب أحدهم الابتسام لسبب أو لآخر فيعرض نفسه لرجرة
مخيفة لا قبل له بها . ولم يكن يجمعهم بأبيهم إلا مجلس الفطور لأنهم
يعودون الى البيت عصرا بعد أن يكون السيد قد غادره الى دكانه
عقب تناول الغداء والقيلولة ، ثم لا يعود اليه إلا بعد منتصف
الليل ، وكانت الجلسة على قصر مدتها شديدة الوطأة على نفوسهم
بما يلتزمون فيها من أدب عسكرى ، الى ما يركبهم من رهبة تضاعف
من حساسيتهم وتجعلهم عرضة للهفوات بطول تفكيرهم في تعاميلها ،
فضلاً عن أن الفطور نفسه يتم في جو يفسد عليهم تذوقه
واستلذازه . ولم يكن غريباً أن يقطع السيد الفترة القصيرة التى
سبق مجيء الأم بصينية الطعام في تفحص أبنائه بعين ناقدة حتى
إذا عثر على خلل واو تافه في هيئة أحدهم أو بقعة في ثوبه انهال
عليه نهرا وتأنيباً ، وربما سأل كمال بغلظة : « غسلت يديك؟ » فإذا

اجابه بالايجاب قال له امرا : « ارنيهما » فيسبط الغلام كفيه وهو يزدد ريقه فرقا ، وبدلا من ان يشجعه على نظافته يقول له مهذبا : « اذا نسيت مرة ان تغسلهما قبل الاكل قطعتهما وارحتك منهما » . او يسال فهمى قائلا : « ايدكر ابن الكلب دروسه ام لا ؟ » ويعرف فهمى بالبداهة من معنى لان « ابن الكلب » عند السيد كناية عن كمال فيجيب بانه يحفظ دروسه جيدا ، والحق ان شطارة الغلام - التى استوجب عليها حق ابيه - لم تقعد به عند الجد والاجتهاد كما يدل عليهما نجاحه وتفوقه ، ولكن السيد كان يطلب ابناءه بالطاعة العمياء الامر الذى لا يطيقه غلام اللعب احب اليه من الطعام ، ولهذا يعلق على اجابة فهمى قائلا بامتعاض : « الادب مفضل عن العلم » . ثم يلتفت الى كمال ويستطرد بحدة : « سامع يا ابن الكلب ! » .

وجاءت الام حاملة صنية الطعام الكبيرة فوضعتها فوق السماط وتقهقرت الى جدار الحجرة على كعب من خوان وضعت عليه « قلة » ، ووقفت متأهبة لتلبية اية اشارة . وكان يتوسط الصنية النحاسية اللامعة طبق كبير يضاوى امتلا بالمدمن القلى بالسمن والبيض ، وفي احد طرفيها تراكت الارغفة الساخنة ، وفي الطرف الاخر صفت اطباق صغيرة بالجبن ، والليمون والفلفل المخللين ، والشطة والملح والفلفل الاسود ، فهاجت بطون الاخوة بشهوة الطعام ، ولكنهم حافظوا على جمودهم متجاهلين المنظر البهيج الذى انزل عليهم كانه لم يحرك فيهم ساكنا ، حتى مد السيد يده الى رغيف فتناوله ثم شطره وهو يتمم « كلوا » ، فامتدت الايدي الى الارغفة في ترتيب يتبع السن ، ياسين فهمى ثم كمال واقبلوا على الطعام ملتزمين اديهم وحياءهم . ومع ان السيد كان يلتهم طعامه في وفرة وعجلة وكان فكيه شطرا آلة قاطعة تعمل في سرعة وبلا توقف ، ومع انه كان يجمع في لقمة كبيرة واحدة من شتى الالوان المقدمة - الفول والبيض والجبن

والفلفل والليمون المخللين - ثم ياخذ في طعنهما بقوة وسرعة واصابعه تعد اللقمة التالية ، الا انهم كانوا ياكلون متمهلين في اناة بالرغم مما يحملهم تمهلهم من سبر لا يتفق وطبيعتهم الحامية ، فلم يكن ليغيب عن أحدهم ما قد يتعرض له من ملاحظة شديدة او نظرة قاسية اذا تهاون او ضعف فنسى نفسه وغفل بالتالى عما ياخذها به من التانى والادب . وكان كمال اشدهم نبهما لانه كان اعظمهم تخوفا من ابيه ، واذا كان اكثر ما يتعرض له احد اخويه نهرة او زجرة فاقبل ما يتعرض له هو وكلة او لكمة ، فلذلك كان يتناول طعامه في حذر وضيق ، مسترقا النظر بين آونة واخرى الى المتبقى من الطعام الذى يتناقض سريعا ، وكلما تناقص اشتد قلقه ، وانتظر في جزع ان يصدر عن ابيه ما يدل على فراغه من طعامه فيخلو له الجو ليملأ بطنه . وعلى رغم سرعة ابيه في الالتهام وضخامة لقمته وتشبعها بشتى الاضناف كان يعلم بالتجربة ان ما يتهدد الطعام - وما يتهذده هو بالتالى - من ناحية اخويه اشد وانكى ، لان السيد كان سريع الاكل سريع الشبع ، اما اخواه فكانا يبدعان المعركة حقا عقب جلاء السيد عن السفرة ، ثم لا يتخليان عنها حتى تخلو الأطباق من كل شهى يؤكل ، ولهذا فما كاد السيد ينهض قائما ويفارق الحجرة حتى شمر عن ساعديه وهجم على الطبق كالمجنون مستغلا يديه الاثنتين ، يدا للطبق الكبير ، ويذا للأطباق الصغيرة ، بيد ان اجتهاده بدا قليل الجدوى فيما انبعث من نشاط الاخوين فلجأ الى الحيلة التى يستغيث بها كلما هدد سلامته مهدد في مثل هذه الحال ، وهى ان يعطس في الطبق عامدا متعمدا ، وعطس ، فراجع الاخوان ، ونظرا اليه جانتين ، ثم غادرا المائدة وهما يغرقان في الضحك ، فتحقق له حيلم الصباح وهو ان يجد نفسه وحيدا في الميدان .

وعاد السيد الى حجرته بعد ان غسل يديه فلحقته به امينة ويدها قدح مزجت به ثلاث بيضات نيئة بقليل من اللبن وقدمته

له فتجرعه ثم جلس ليحسو قهوة الصبح . وهذا القدر الدسم خاتمة فطوره ، وهو «وصفة» من وصفات يداوم عليها بعد الوجبات أو فيما بينها - كزيت السمك ، والجوز واللوز والبندق المسكرة - رغبة لصحة بدنه الضخم ، وتعويضا له عما تستهلكه منه الإهواء ، إلى اقتصاره على اللحم بأنواعها والأغذية المشهورة بدسمها حتى ليعد الأكلة الخفيفة بل والعادية « لعبا » و « تضييع وقت » لا يجملان بمثله . وقد وصف له الحشيش كفاتح للشهية - إلى فوائد الأخرى - فجربه ولكنه لم يألوه وانصرف عنه غير آسف وقد ساء به ظنه لما يورث من ذهول وقور مشبع بالهدوء مبال للصمت مشعر بالانفراد ولو بين الصفاة من الأصدقاء ، فنفر من امراضه تلك التي تتجافى مع سجيته المولعة بصبوات المرح ونشوات الهياج ولذات الاندماج في النفوس ووثبات المزاج والقهقهة . ولكيلا يفقد مزاياه الضرورية لفحول العشاق اعتاض عنه بنوع غفيس من الخزل اشتهر به محمد العجمي بائع الكسكسي عند مطلع الصباح ضاحكة ، وكان بعده خاصة لصفوة زبائنه من التجار والسياسيين ، ولم يكن السيد من مدمني الخزل ولكنه كان يلم به بين حين وآخر كلما استقبل هوى جديدا خاصة اذا كانت العشوقة امرأة خبيرة بالرجال واحوالهم . فرغ السيد من حسو قهوته ثم نهض إلى المرأة وراح يرتدى ملابسه التي قدمتها اليه امينة قطعة قطعة ، والتقى على صورة هندامه نظرة متفحصة ، ومشط شعره الأسود المرسل على صفحتي رأسه ، ثم سوى شاربه وقتله ، وتفرس في هيئة وجهه ثم عطفه رويدا إلى اليمين ليرى جانبه الأيسر ، ثم إلى اليسار ليرى جانبه الأيمن ، حتى اذا انفتح إلى منظره مد يده إلى زوجه فناولته زجاجة الكولونيا التي عباها له عم حسنين الحلاق ففصل يديه ووجهه ونضج صدر قفطانة ومنديله ، ثم وضع الطربوش على رأسه وأخذ عصاه وغادر الحجرة ناشرا بين يديه ومن خلفه عرفا طيبا . ذلك العرف المظفر من شتى الأزهار

يعرفه أهل البيت جميعا ، واذا تشقه أحدهم تمثل له منيه السيد بوجهه الوقور الحارم ، فينبعث في قلبه - مع الحب - الاجلال والخوف ، الا ان انتشاره في هذه الساعة من الصباح كان اذنا بدهاب السيد ، فالنفوس تتلقاه بارتياح غير منكور على براءته ، كارتياح الأسير إلى صليل السلاسل وهي تنفك عن يديه وقدميه ، ويعلم كل بأنه سيسترد حريته عما قليل في الكلام والضحك والغناء والحركة دون ثمة خطر . وكان ياسين وفهمي قد فرغا من ارتداء ملابسهما ، أما كمال فقد هرع إلى الحجرة عقب خروج أبيه مباشرة ليشتبع رغبته في محاكاة حركاته التي يختلس النظر إليها من زيق الباب الموارب ، فوقف أمام المرأة ينظر إلى صورته بامعان وارتياح ثم قال مخاطبا أمه بلهجة أمرة وهو يلفظ نبرات صوته « زجاجة الكولونيا يا امينة » ، وكان يعلم انها لا تلبى هذا النداء ولكنه جعل يمسح على وجهه وجاكتيته وينظونه القصير بيديه كأنه يبلها بالكولونيا ، ومع ان أمه كانت تغالب الضحك الا انه ثابر على التظاهر بالجد والصرامة ، وراح يستعرض وجهه في المرأة من جانبه الأيمن إلى الأيسر ، ثم مضى يسوى شاربه الوهمي ويفتل طرفيه ، ثم تحول عن المرأة وتجشأ ، ونظر صوب أمه ، ولما لم يجد منها الا الضحك قال لها محتجا : « لماذا لا تقولين لي صحة وعافية ؟ » فغمضت المرأة ضاحكة : « صحة وعافية يا سيدى » ، هنالك غادر الحجرة مقلدا مشية أبيه محركا يمينه كأنه يتوكأ على عصاه ..

وبادرت الأم والفتاتان إلى المشربية ووقفن وراء شباكها المظلل على النحاسين ليرين من ثقبه رجال الأسرة في الطريق ، وبدأ السيد وهو يسير في تودة ووقار يحف به الجلال والجمال رافعا يديه بالتحية بين حين وآخر وقد وقف له عم حسنين الحلاق والحاج درويش بائع الفول والفول واللبن وبيومى الشربلى ، فاتبعنه أعينا مترعة بالحب والزهو . وتلاه فهمي في مشيته

المتعجلة ، ثم ياسين في جسم الثور وأناقة الطاووس ، وأخيرا
ظهر كمال فلم يكذب يخطو خطوتين حتى استدار ورفع بصره الى
الشباك الذى يعلم أن أمه وشقيقه مستخفيات وراءه ،
وابتسم ، ثم واصل سيره متابعا حقيقة كتبه منقبا في الأرض
عن زلطة ليركلها ..

كانت هذه الساعة من أسعد أوقات الأم ، بيد أن اشفاقها
من شر الأعين على رجالها لم يقف عند حد ، فلم تكن تمسك عن
تلاوة : « ومن شر حاسد اذا حسد » حتى يغيبوا عن عينيها ..

- ٥ -

وغادرت الأم المشربية ، وتبعها خديجة ، على حين تلكأت
عائشة حتى خلا لها الجو فانتقلت الى جانب المشربية المطل على
بين القصرين . ومدت بصرها من ثقب الشباك في اهتمام ولهفة .
بدا من لمعة عينيها وعضها على شفتيها أنها تنتظر . ولم يطل بها
الانتظار فقد مرق من عطفة الخرنفش ضابط بوليس شاب ومضى
مقبلا متمهلا في طريقه الى قسم الجمالية ، عند ذلك غادرت الفتاة
المشربية في عجلة الى حجرة الاستقبال ، واتجهت الى نافذتها
الجانبية وأدارت اكرتها ففرجت مصراعيها عن زيق ووقفت وراءه
وقلها يبعث ضربات بالغة العنف من العاطفة والخوف معا . ولما
اقترب الضابط من البيت رفع عينيها في حذر دون أن يرفع رأسه
- فلم يكن أحد يرفع رأسه في مصر وقتذاك - فأضاءت أساريره
بنور ابتسامة متوارية انعكست على وجه الفتاة اشراقا مורدة
بالحياء فتنهدت ، ثم أغلقت النافذة وهى تشد عليها بعصبية
- كأنها تخفى آثار جريمة دامية - وتراجعت عنها مغمضة

العينين من شدة الانفعال ، فأسلمت نفسها الى مقعد والسندت
رأسها الى يدها وساحت في جو مشاعرها اللانهائى . لم تكن
سعادة خالصة ، ولم يكن خوفا خالصا ، كأن قلبها موزعا بين هذا
وتلك فهما يتجاذبان بلا رحمة ، اذا استنامت الى نشوة الفرح
وسحره قرعت قلبها مطرقة الخوف محذرة موعدة فلا تدرى أيخمل
بها أن تفلح عن مغامرتها أم تتمادى في مطاوعة قلبها ، كلا الحب
والخوف شديد . ولبثت في تهويمها كثيرا أو قليلا ، فاستكتكت
هوائف الخوف والتائب ، ومضت تنعم بسكرة الحلم في ظل سلام ،
وذكرت - كما يلذ لها أن تذكر دائما - كيف كانت تنفض الستارة
المسدلة على النافذة يوما فلاحت منها نظرة الى الطريق من النافذة
التي فتحت نصف فتحة أطرد الغبار فوقعت عليه وهو يتطلع
الى وجهها في دهشة مقرونة بالاعجاب ، فتراجعت فيما يشبه
الذعر ، ولكنه لم يذهب قبل أن يترك في مخيلتها أثرا باقيا من
منظر نجمته الذهبية وشريطه الأحمر ، منظر يخلب اللب ويسرق
الخيال ، فظل يتخايل لعينيها طويلا . وفي نفس الساعة من اليوم
التالى - والأيام التالية - راحت تقف وراء الخصاص دون أن
يرأها ، ولمست في فرجة ظافرة كيف يتطلع بعينيها الى النافذة
المغلقة باهتمام وتشوق ، ثم كيف أخذ يستبين شبحها وراء
الخصاص فتشغ أساريره ضياء البهجة ، وقليلها المشبوب - الذى
يتمطى مستيقظا لأول مرة - ينتظر هذه اللحظة في لهقة ويذوقها
في سعادة ويودعها فيما يشبه الحلم ، حتى دار الشهر وعاد يوم
التنفيض مرة أخرى فانبرت الى الستارة تنفضها وراء النافذة
المواربة متعمدة - هذه المرة - أن ترى ، وهكذا يوما بعد يوم ،
وشهرا بعد شهر ، حتى غلب التعطش للمزيد من الحب والخوف
الجائم فخطت خطوة - جنونية - وفرجت مصراعى النافذة
ووقفت وراءها وقلها يبعث ضربات بالغة العنف من العاطفة

والخوف معا ، كأنها تعلن حبها له ، بل كانت كمن يقذف بنفسه
من علو ساحق ليتقى نارا مستمرة تحيط به .

استكننت عواطف الخوف والتأنيب ومضت تنعم بسكرة الحلم
في ظل سلام ، ثم أفاق من حلمها ، وصممت على أن تتحلى
الخوف الذى ينفض عليها صفوها فجعلت تقول لنفسها
استندارا للطمأنينة : « لم ترزل الأرض وممر كل شيء بسلام ،
لم يرنى أحد ولن يرانى أحد ، ثم انى لم أقترب انما ! » ونهضت
قائمة ، ولكى توهم نفسها بخلو البال ترنمت - وهى تغادر
الحجرة - بصوت عذب : « يا ابو الشريط الأحمر ياللى أسرتنى
لوجه ذلى » ، ورددها مرة ومرة حتى جاءها صوت أختها خديجة
من حجرة الطعام وهى تزرق في تهكم :

- يا ست منيرة يا مهدية ، تفضلى ، أعدت لك خادمك
السفرة .

وأناها صوت أختها الى نفسها تماما فيما يشبه الرجفة فهوت
من عالم المثال الى عالم الواقع مرتعبة بعض الشيء لسبب غير
ظاهر - ما دام كل شيء قد مر بسلام كما قالت لنفسها - ولكن
اعتراض صوت أختها - بالذات - لغنائها وخواطرها أزعجها ،
ربما لأن خديجة كانت تقف منها موقف المنتقد ، بيد أنها
طاردت هذا القلق الطارئ وأجابتها بضحكة مقتضبة ثم جرت
الى حجرة الطعام فوجدت السماط معدا حقا وأما مقبلة
بالصينية . وقالت لها خديجة بحدة حال دخولها :

- تتلكنين بعيدا حتى أمد كل شيء وحدى .. كفاية لنا
الفناء ..

ومع أنها كانت تتلطف معها في الحديث تفاديا من حدة لسانها

الا أن اصرار الأخرى على قرصها بلسانها كلما سنحت فرصة
جعلها تتعلق أحيانا بإغاضتها فقالت مصطنعة الجد :

- ألم نتفق على تقسيم العمل بيننا في البيت ؟ فعليك هذا
الواجب وعلى الفناء ..

فنظرت خديجة الى أمها وقالت متهمكة وهى تعنى الأخرى :

- يمكن ناوية تكون عالة !
ولم تغضب عائشة ، وبالعكس قالت باهتمام مصطنع أيضا :

- وماله !.. أنا صوتى كالكروان .
ومع أن قولها السابق لم يستشر غيظها لأنه كان بين الدعابة

الا أن كلامها الأخير استثاره لأنه كان واضح الحق ، ولأنها تنفس
عليها جمال صوتها فيما تنفس عليها من مزايا فقالت في تهجم :

- اسمعى يا ست هانم ، هذا بيت رجل شريف لا يعيب بناته
أن تكون أصواتهن كصوت الحمير ولكن يعيبهن أن يكن كالصورة
لا فائدة منهن ولا نفع .

- لو كان صوتك جميلا كصوتى ما قلت هذا !
- طبعاً !.. كنت تغنين وأرد عليك ، تقولين يا ابو الشريط

الأحمر يا اللى فأقول لك أسرتنى أرحم ذلى ، وتركك للست
« مشيرة الى أمها » الكنس والمسح والطبخ .

وكانت الأم - التى الفت هذا النكار - قد اتخذت مجلسها
فقالت برجاء :

- امسكا بالله وأجلسا لناكل فطورنا بسلام ..
وأقبلتا على السماط وجلستا وخديجة تقول :

- أنت يا نينة لا تصلحين لتربية أحد ..
فتمتمت الأم في هدوء :

- سامحك الله ، سأترك لك أمر التربية على ألا تنسى نفسك
.. « ثم مدت يدها الى الطبق » .. بسم الله الرحمن الرحيم ..

كانت خديجة في العشرين من عمرها ، وهى كبرى أختها

فيما عدا ياسين - اخاها من الاب - الذي ناهز عامه الواحد والعشرين ، وكانت قوية معتلة - والفضل لام حنفى - مع ميل الى القصر ، اما وجهها فقد قبس من قسمات الوالدين على نهج لم يراع فيه الانسجام ، ورثت عن امها عينيها الصغيرتين الجميلتين ، وعن ابيها انفه العظيم ، او صورة مصغرة منه ولكن ليس الى القدر الذي يغتر له ، ومهما يكن من شأن هذا الانف في وجه الاب الذي يناسبه ويكسبه جلالة ملحوظا فقد لعب في وجه الفتاة دورا مختلفا ^{كما ان هذا الذي كان في صدره من قوة} اما عائشة فكانت في السادسة عشرة من ربيعها ، صورة من مميزات

بديع الحسن ، رشيق القد والقوام - وان عد هذا في محيط اسرتها من العيوب المتروك علاجها لام حنفى - ووجه بدرى تزينه بشرة بيضاء مشربة بحمرة ، وعينان زرقاوان احسنت اختيارهما من الاب مع أنف الام الصغير ، الى شعر ذهبي دللها به قانون الوراثة فخصها به وحدها من ميراث جدتها لابيها . وطبيعي لم تدرك خديجة ما يقوم بينها وبين شقيقتها من فوارق ، ولم تكن براعتها الفارقة في التدبير المنزلي والتطريز ولا نشاطها الدائب الذي لا يكل ولا يمل بمغنيين عنها شيئا ، فوجدت على الغالب نحوها غيرة لم تراع اخفاءها مما حمل الفتاة الحسنة على البرم بها في كثير من الاحايين . ولكن من سوء الحظ ان هذه الغيرة الطبيعية لم تترك رواسب سوداء في النفس ، وكفاها ان تروح عن حداثتها بسخرية اللسان وسلطته . واكثر من هذا ان كانت الفتاة رغم مشكلتها الطبيعية اما كلفطرة عامرة القلب بالحنو نحو الاسرة التي لا تعفى افرادها من مرارة تهكمها ، فلم تكن غيرتها الا نوبات تطول او تقصر ولكنها لم تنحرف بسجيبتها الى الخقد او البغضاء ، بيد ان دأبها على السخرية - الذي اقتصر في الاسرة على الدعابة - خلق منها فيما وراء ذلك من الجيران والمعارف عيابة من الدرجة الاولى ، لا تقع عينها من الناس الا على مناقصهم

كعقرب البوصلة المنجذب الى القطب ابدا ، واذا توارت المناقص تمحلت في الكشف عنها وتكبرها ، ثم راحت تطلق على ضحاياها اوصافا تناسب عيوبهم كادت تغلب عليهم في محيط اسرتها ، فهذه حرم المرحوم شوكت اقدم صديقة نوالديها تدعوها « المدفع الرشاش » لتناثر ريقها اثناء الحديث ، وهذه الست ام مريم جارتهم بالبيت الملاصق لبيتهم تسميها « الله يا اسياى » لاستعارتها بعض الادوات المنزلية من بيتهم بين حين وآخر ، كما قدعو شيخ كتاب بين القصرين « شر ما خلق » لترديده هذه الآية ضمن سورتها كثيرا بحكم وظيفته مع قبح وجهه ، وبائع الفول « الأقرع » لصلعه ، واللبان « الأعور » لضعف بصره ، الى تسميات تخففه بعض الشيء خست بها اسرتها ، فامها « المؤذن » لتكبرها في الاستيقاظ ، وفهمى « عمود السرير » لنحافته ، وعائشة « البوصلة » للسبب نفسه ، وياسين « بمبة كثر » لسمنته واناقته . ولم تكن سلاطة لسانها من وحى السخرية فحسب ، فالحق انها لم تخل من قسوة على من عدا اهلها من الخلق ، وهكذا اتسم نقدتها للناس بالعنف ، وتجاوى عن التسامح والعفو ، كما غلب عليها عدم الاكتراث للأحزان التي تلم بالناس يوما بعد يوم ، وتبدت هذه الغلظة في البيت في معاملة ام حنفى معاملة لا تلقاها من احد سواها ، بل في معاملة الحيوان الاليف كالقطط التي تحظى من عائشة باعزاز يفوق الوصف . وكانت معاملتها لام حنفى مثار خلاف بينها وبين امها ، فالأم تعامل الخدم كما تعامل اهل بيتها سواء بسواء ، وكان ظننها بالناس انهم ملائكة فلم تدر كيف تسيء الظن باحد ، على حين دأبت خديجة على سوء الظن بالمرأة تمشيا مع طبيعتها التي تسيء الظن بالناس جميعا ، ولم تخف تخوفها من بيتها غير بعيد من غرفة الحزين فقالت لامها : « من أين تجيئها هذه السمينة المفرطة ؟ » . من الوصفات التي تصنعها ؟! كلنا

تتعاطى وصفاتها فلا نسمن سمنتها ، ولكنه السمن والعسل اللدان تطفح منهما بغير حساب ونحن نيام » .

ولكن الأم دافعت عن أم حنفى ما وسعها الدفاع ، ولما ضاقت بالحاح ابتنها قالت : « فلبتأكل ما تشاء ، الخير كثير ، وبطنها له حد لا يتعداه فلن نجوع على أى حال » ، ولم يعجبها قولها وراحت تفحص صفائح السمن وللايص العسل كل صباح وأم حنفى ترى هذا باسمة لأنها كانت تحب الأسرة كلها أكراما لستها الطيبة . وعلى النقيض من هذا كان حنان الفتاة حبال أهلها جميعا فلم يكن يهدأ لها بال إذا أصابت أحدهم وعكة ، ولما مرض كمال بالحصبة أبت الا أن تشاركه فراشه ، حتى عائشة نفسها لم تكن تطيق أن يلم بها أهون سوء ، فلم يكن مثل قلبها لا في بروده ولا في رجته . وباتخاذها مجلسها من السماط تناسلت ما نشب بينها وبين عائشة من تقار وأقبلت على الفول والبيض بشهية كانت مضرب الأمثال في الأسرة . وكان للطعام بينهم - الى فائدته الغذائية - غاية جمالية عليا بصفته الدعامة الطبيعية للسمنة ، فكان يتناولونه في ثودة واهتمام ، ويبالغن في سحقه وطحنه ، فاذا شبعن لم يسكنن ولكن يستردن منه حتى يمتلئن ، على تفاوت تبعاً لطاقتهم ، فكانت الأم أسرعهم الى الانتهاء ، تليها عائشة ، ثم تنفرد خديجة ببقايا المائدة فلا تتخلى عنها الا وهى اطباق مفسولة . ولم تكن نحافة عائشة لتتناسب مع اجتهادها في الاكل فضلا عن عصيانها لسحر البلايع ، مما دعا خديجة للسخرية منها والقول بان المكر السيئ هو الذى يجعلها تربة غير صالحة للبذور الطيبة التى تلقى فيها ، كما كان يطيب لها أن تعلل نحافتها بضعف دينها فتقول لها : « كلنا نصوم رمضان الا أنت ، تتظاهرين بالصوم ، وتندسين في حجرة الخزين كالفارة وتملئين بطنك بالجوز واللوز والبندق ، ثم تفطرين معنا بنهم يحسدك عليه الصائمون ولكن الله لا يبارك لك » . وكانت ساعة الفطور من الاوقات النادرة التى يخلين فيها الى

انفسهن ، فكانت اخلق الاوقات بالمكاشفة ونفض السرائر خاصة في الامور التى يدعو الى كتمانها عادة الحياء البالغ الذى تتسم به مجالس الأسرة الحاوية للجنسين . وكان لدى خديجة ما تقوله رغم انهماكها في الاكل فقالت بصوت هادىء يختلف كل اختلاف عن الصوت الذى كانت تزعق به منذ حين قصير .

- نينة .. حملت حلما غريبا ..

فقالت الأم قبل أن تزدد لقمته مبالغة في اكرام ابنتها المخيفة :

- خير يا بنتى ان شاء الله ..

فقالت خديجة باهتمام مضاعف :

- رأيت كائى امشى على سور سطح ، ربما كان سطح بيتنا او غيره ، واذا بشخص مجهول يدفعنى فاهوى صارخة ..

وامسكت امينة عن تناول طعامها في اهتمام جدى فلازمته الفتاة الصمت قليلا لتستأثر بأكبر قدر من الاهتمام حتى تمتت الأم :

- اللهم اجعله خيرا ..

وقالت عائشة وهى تغالب ابتسامة :

- لم اكن انا الشخص المجهول الذى دفعك .. اليس كذلك!

وخافت خديجة أن يفسد الجو بالمزاح فصاحت بها :

- انه حلم وليس لعبا فكفى عن هذرك « ثم مخاطبة أمها »

.. هويت صارخة ولكنى لم ارتطم بالأرض كما توقعت بل وقعت على جواد ، حملنى وطار ..

وتنهدت امينة في ارتياح كأنما أدركت ما وراء الحلم واطمأنت اليه ، وعادت الى طعامها مبتسمة ، ثم قالت :

- من يدري يا خديجة لا .. لعله العريس .. !

لم يكن يباح الكلام عن « العريس » الا في هذه الجلسة ، وفي ايجاز بالإشارة أشبه ، ووجب قلب الفتاة الذى لم يكرهه شىء كما

- أتودين حقا أن أتزوج أم تتمنين أن يخلو لك السبيل
فتتزوجي ! ..
فقالت عائشة ضاحكة !...
- الاثنين معا ...

- ٦ -

ولما فرغن من الفطور قالت الأم :
- عليك يا عائشة الفسيل اليوم ، وعلى خديجة تنظيف
البيت . ثم تلحقان بى في حجرة القرن ..
كانت أمينة توزع بينهما العمل عقب الفطور مباشرة ، ومع
أنهما يرضيان بحكمها ، وترضى به عائشة بلا مناقشة ، إلا
أن خديجة تكلف بتوجيه الملاحظات على سبيل الاستعلاء أو على
سبيل المشاكسة ، فلهذا قالت :
- أنزل لك عن التنظيف إذا كنت تستثقلين الفسيل ، أما
التمحك بالفسيل للبقاء في الحمام حتى ينتهى العمل في المطبخ
فعدر مرفوض مقدما ..
وتجاهلت الفتاة ملحوظتها ومضت الى الحمام وهى تدندن
فقالت خديجة متهمكة :
- يا بختك بالحمام يرن فيه الصوت كما يرن في نغير
الفونوغراف فغنى وسمى الجيران ..
وغادرت الأم الحجرة الى الدهليز ثم الى السلم وورقته الى
السطح لتجول فوقه جولتها الصباحية قبل أن تنزل الى حجرة
القرن . لم يكن التشاحن بين الفتاتين بالجديد عليها بعد أن انقلب
مع الأيام عادة مألوفة في غير الأوقات التى يوجد فيها الأب في

أكبره أمر الزواج ، وكانت على إيمان بالحلم وتأويله بحيث وجدت
لكلام أمها سرورا عميقا ، بيد أنها أرادت أن تدارى حياءها
بالسخرية كعادتها - ولو من نفسها - فقالت :
- أظنن الجواد عريسا ؟ .. لن يكون عريسى إلا حمارا ..
فضحكت عائشة حتى تطاير نثار الطعام من فيها ، ثم
خافت أن تسيء خديجة فهم ضحكتهما فقالت :
- لشد ماتظلمين نفسك يا خديجة ! .. ما فيك من شيء
يعاب ..
فحدجتها خديجة بنظرة تنم عن الحذر والشك على حين
راحت الأم تقول :
- أنت فتاة نادرة المثال ، من يضارحك في مهارتك أو
نشاطك ؟ .. وروحك الخفيفة ووجهك اللطيف ؟ ماذا تريدان
أكثر من هذا ؟
فمست الفتاة بسبابتها أرنبه أنفها وتساءلت ضاحكة :
- ألا يسد هذا طريق الأزواج ؟
فقالت الأم مبتسمة :
- كلام فارغ .. ما زلت صغيرة يا بنية ..
وتضايقت لذكر الصغر لأنها لم تكن تعد نفسها صغيرة
بالقياس الى سن الزواج ، وخاطبت أمها قائلة :
- لقد تزوجت يا نينة وأنت دون الرابعة عشرة .
فقالت الأم التى لم تكن في الحق دون ابنتها قلما :
- لا يتقدم أمر أو يتأخر إلا بإذن الله ..
وقالت عائشة في صدق :
- ربنا يفرحنا بك قريبا يا خديجة ..
فلحظتها خديجة بريية وذكرت كيف طلبت إحدى جاراتهم
يدها لابنتها فرفض الأب أن يزوج الصغرى قبل الكبرى ،
وتساءلت :

البيت ، أو التي يطيب فيها السمر بين افراد الأسرة . وجعلت
تعالجه بالرجاء والدعابة والرقعة البالغة ، وهى السياسة الوحيدة
التي تنتهجها ابناء ابنائها لأنها صادرة عن طبع لا يطبق سواها ،
أما ما تقتضيه التربية أحيانا من الحزم فشىء لم تعرفه ، ربما غنته
دون أن تقدر عليه ، وربما حاولت تجربته فغلبها التأثير والضعف ،
وكانها لا تحتفل أن يقوم بينها وبين ابنائها غير أسباب المودة
والحب ، تاركة للأب - أو لشخصيته التي تسيطر من بعيد -
تقويم المعوج والزام كل حدوده . لهذا لم يضعف النصارى السخيف
من اعجابها بفتايتها ورضائها عنهما ، حتى عائشة المولعة لحد
الهوس بالفناء والوقوف أمام المرأة ، لم تكن دون خديجة مهارة
وتديرا بالرغم من تكاسلها . وكان هذا حريا بأن يمد لها في أوقات
الراحة لولا ما طبعت عليه من وسوسة بالداء أشبه ، فهي تأبى
إلا أن تشرف على كل صغيرة وكبيرة بالبيت . وإذا فرغ الفتاتان
من عملهما نشطت هى بالمكنسة في يد والمنفضة في يد وراحت
تتفقد الحجرات والصلوات والدهاليز ، متفحصة الأركان والجلوان
والستائر وسائر العفش عسى أن تزيل نقطة غبار منسية ، واجدة
لذة وارتياحا كأنما تزيل قذى من عينيها ، ومن وسوستها تلك
أنها كانت تفحص الثياب المعدة للغسيل قبل غسلها ، فإذا عثرت
على قطعة منها قد خرقت قذارتها المألوفة لم تترك صاحبها دون
أن تتلطف في تنبيهه الى واجبه ، من كمال الذي يناهز العشرة الى
ياسين الذي كان ذا ذوقين متناقضين في العناية بنفسه يتجلىان في
تألقه المفرط في مظهره من البدلة والطربوش والقميص ورباط
الرقبة والخذاء ، وأهماله المريب لثيابه الداخلية ، ومن الطبيعي إلا
تغفل هذه العناية الشاملة السطح وسكانه من الحمام والدجاج ،
بل كانت ساعة السطح حافلة بالحب والسرور فيها من أغراض
العمل ما فيها ، الى ما تجده من فرحة اللهو والمرح ، ولا عجب
فالسطح هو الدنيا الجديدة التي لم يكن للبيت الكبير بها عهد قبل

انضمامها اليه ، خلقت بروحها خلقا جديداً على حين ظل البيت
محافظاً على الهيئة التي شيد عليها منذ عهد سحيق . هذه الأقفاص
المتينة في بعض جدرانها العالية يهدل عليها الحمام من وضعها ، وهذه
الأكواخ الخشبية يقوىء الدجاج في مسارحها من تركيبها ، وكما
ملكها الفرج وهى ترمى الحب أو تضع على الأرض آنية السقيا
فيستبق اليها الدجاج وراء ديكتها ، وتنهال مناقيرها على الحب في
سرعة وانتظام كابر آلة الخياطة ، مخلقة في الأرض التربة بعد حين
ثغرات دقيقات كآثار الرذاذ . وكما ينشرح صدرها إذ تنظر فتراها
رائية اليها بأعين دقيقة صافية ، مستطلعة متسائلة ، ناقة مقوقئة ،
في مودة متبادلة ينز لها قلبها الخنون . أحبت الدجاج والحمام كما
تحب مخلوقات الله جميعا ، فهي تنافسها مناغة رقيقة تحسب أنها
تفهمها وتناثر لها ، ذلك أن خيالها يخلع الحياة الشاعرة العاقلة
على الحيوان ، وأحيانا الجهاد نفسه ، وعندها بمنزلة اليقين أن هذه
الكائنات تسبح بحمد ربها وتتصل بعالم الروح بأسباب ، فعالمها
بارضه وسماؤه ، حيوانه ونباته ، عالم حى عاقل . ثم لا تقتصر
مزاياء على نعمة الحياة فيكملها بالعبادة . لم يكن غريبا بعد هذا
أن تكثر معانيقها من الديوك والدجاج معتلة بسبب أو آخر ، هذه
لأنها معمرة وتلك لأنها بياضة وهذا لأنها تستيقظ على صياحه ،
ولعلها لو تركت وشأنها ما ارتضت أن تعمل سكينها في رقابها ،
وإذا دعته الظروف الى الذبح تخيرت الدجاج أو الحمام فيما يشبه
الضيق . ثم تسقيها وترحم عليها وتبسم وتستغفر ، وتدبجها
وعزاؤها أنها تستمتع بحق منحه الله المنان وأوسع به على عباده .
أما أعجب ما في السطح فكان نصفه الجنوبي المشرف على النحاسين
حيث غرست يداها في الأعوام الخالية خديجة فريدة لا نظير لها في
السطح الحى كله التي تغطى عادة بطبقة من قاذورات الدواجن ،
بدأت أول ما بدأت بعدد قليل من أصص القرنفل والورد ، وراحت
تستكثر منها عاما بعد عام حتى نُصدت صفوفها بحذاء أجنحة

السور ونمت نموا بهيجا ، وخطر اخیالها أن تقيم فوق حديقته
سقيفة ، فاستدعت نجارا فأقامها ، ثم غرست شجرتي ياسمين
ولبلاب ، ثم أنشبت سيقانها في السقيفة وحول قوائمها ،
فاستطالت وانتشرت حتى استحال المكان بستانا معروشا ذا سماء
خضراء ينبثق منها الياسمين ويتضوع في أرجائها عرف طيب ساحر .
هذا السطح يسكنه من الدجاج والحمام ، وبستانه العروش ، هو
دنياهها الجميلة المحبوبة ، وملهاها الأثير في هذا العالم الكبير الذي
لا تعرف عنه شيئا ، وكشأنها في مثل هذه الساعة مضت تنمعهده
برعايتها فكنتسته ، وسقت زرعه ، واطعمت الدجاج والحمام ، ثم
تملت طويلا المنظر المحيط بها بثغر باسم وعينين حاليتين ، ثم
ذهبت الى نهاية البستان ووقفت وراء السيقان الملتفة المتشابكة
قد بصرها من ثغراتها الى ما يليها من فضاء لا تحده حدود .

كم تروعا المآذن التي تنطلق انطلاقا ذا ايحاء عميق ، تارة عن
قرب حتى لترى مصابيحها وهلالها في وضوح كماآذن تلاوون
وبرقوق ، وتارة عن بعد غير بعيد فتبدو لها جملة بلا تفصيل
كماآذن الحسين والغوري والأزهر ، وثالثة من أفق سحيق
فتتراى أطيافا كماآذن القلعة والرفاعي وتقلب وجبها فيها بولاء
وأفتتان ، وحب وإيمان ، وشكر ورجاء ، وتحلق روحها فوق ذراها
أقرب ما تكون الى السماء ، ثم تستقر منها العيان على ثلثة
الحسين ، أحبا - لحب صاحبها - الى نفسها ، فتنفذ نظرتها
حنانا وأشواقا ، مشوبة بحزن يطوف بها كلما ذكرت حرمانها من
زيارة ابن بنت رسول الله وهي على مسير دقائق من مثواه .
وتهدت نهدة مسموعة ، استردتها من استغراقها فتأبث الى
نفسها وزاحت تتسلى بالنظر الى الأسطح والطرق فلم تر لها
الأشواق ، ثم استدبرت السور وقد فاض بها التطلع الى المجهول ،
المجهول بالقياس الى الناس جميعا وهو عالم الغيب ، والمجهول
بالقياس اليها وحدها وهو القاهرة ، بل الأحياء المتاخمة التي

تترامى اليها أصواتها . ترى ما هذه الدنيا التي لم تر منها الا
المآذن والأسطح القرية ؟! ربع قرن من الزمان خلا وهي حبيسة
هذا البيت لا تفارقه الا مرات متباعدة لزيارة أمها بالخرنفس ،
وعند كل زيارة يصطحبها السيد في حانطور لأنه كان لا يحتمل
أن تقع عين على حرمة سواء وحدها أو بصحبته ، لم تكن
ساخطة ولا متدمرة ، انها أبعد ما تكون عن هذا . بيد أنها ماتكاد
تنفذ بصرها من ثغرات الياسمين والبلاب الى الفضاء والمآذن
والأسطح حتى تغلو شفيتها الرقيقتين ابتسامة حنان وأحلام .
ترى أين تقع مدرسة الحقوق حيث يجلس فهمي في هذه اللحظة ؟!
وأين مدرسة خليل أغا التي يؤكد كما أنها على مسير دقيقة
من الحسين ؟! وقبل أن تغادر السطح بسطت كفيها ودعت
ربها قائلة : « اللهم أسالك الرعاية لسيدى وأبنائى ، وأمى ويس ،
والناس جميعا مسلمين ونصارى ، حتى الانجليز يا ربى وأن
تخرجهم من ديارنا اكراما لفهمي الذى لا يحبهم .. »

- ٧ -

جميل الحمزاوى

عندما بلغ السيد أحمد عبد الجواد دكانه الذى يقع أمام جامع
برقوق بالنحاسين كان جميل الحمزاوى وكيله قد فتحه وهياه
للعمل ، فحياه السيد تحية رقيقة وهو يتسم ابتسامة وضيئة
وانتجه الى مكتبه . وكان الحمزاوى في الخمسين من عمره ، أنفق
منها ثلاثين عاما في هذا الدكان ، وكيلًا لمنشئه الحاج عبد الجواد
ثم وكيلًا للسيد بعد وفاة أبيه ، وظل على الوفاء للسيد يداع من
العمل والحب معا ، فهو يجله ويحبه كما يجله ويحبه جميع من
يتصل به سبب من أسباب العمل أو الصداقة . والحق لم يكن
السيد مرهوبا مخوفا الا بين أهله ، أما بين سائر الناس من أصدقاء

ومعارف وعملاء فهو شخص آخر ، له حظه الموفور من المهابة والاحترام ، ولكنه شخصية محبوبة قبل كل شيء . ومحبوبة لظرفها قبل أى من سجاياها الحميدة الكثيرة ، فلا الناس يعرفون السيد الذى يقيم في بيته ، ولا أهل البيت يعرفون السيد الذى يعيش بين الناس . وكان دكانه متوسط الحجم ، مكدسة رفوفه وجنباؤه بجوالات البن والارز والنقل والصابون ، وعند ركنه الأيسر في قبالة المدخل يقوم مكتب السيد بدفاتره وأوراقه وتليفونه ، وإلى اليمين من مجلسه تقوم الخزانة الخضراء داخل الجدار يوحى منظرها بالصلاية ويذكر لونها بالأوراق المالية . وفي منتصف الجدار فوق المكتب علق إطار من الأبوس نقشته بداخله البسملة مموهة بالذهب . ولم تكن عجلة الدكان تدور قبل الضحى . فجعل السيد يراجع حسابات اليوم السابق بمثابة ورثها عن أبيه وحافظ عليها بحيويته الموفورة ، على حين وقف الحمزاوى عند المدخل شابكا ذراعيه على صدره مواصلا تلاوة ما تيسر له من الآيات في صوت باطنى غير مسموع دلت عليه حركة شفثيه المستمرة ، ووسوسة خافتة تند من آن لآن عن أحرف السين والصاد ، ولم يتوقف عن تلاوته حتى جاء شيخ ضربه ربه السيد للقراءة كل صباح . وكان السيد يرفع رأسه من الدفتر في فترات متباعدة فيستمع الى التلاوة أو يد بصره الى الطريق حيث لا ينقطع تيار المارة وعربات اليد والكارو ، وسوارس التى تكاد تترنج من كبرها وثقلها ، والباعة الغنون وهم يترنمون بقطايق الطماطم واللوخية والبامية كل على مذهبه ، ولم تكن الضوضاء لتحول بينه وبين تركيز ذهنه بعد ما اعتادها والفها أكثر من ثلاثين عاما فاستنم اليها حتى ليزعجه سكوتها . ثم جاء زبون فشغل الحمزاوى به ، وأقبل نفر من أصحاب السيد وجيرانه من التجار ممن يحبون أن يقضوا معه وقتا طيبا ولو لزمن وجيز يتبادلون فيه التحية ويغيرون ريقهم - على حد تعبيرهم - على دعابة من

دعابته أو نكتة من نكاته ، الأمر الذى جعله يفاخر بنفسه كمحدث فائق البراعة ، لا يخلو حديثه من لمعات غير مقطوعة الصلة بالثقافة العامة التى اكتسبها ، لا من التعليم حيث توقف فيه دون الابتدائية ، ولكن من قراءة الصحف ومصادقة نخبة من الأعيان والموظفين والمحامين الذين أهله لمخالطتهم - مخالطة الند للند - حضور بديته ولطفه وظرفه ومنزلته كتاجز موفور الرزق ، فاستجد لنفسه عقلية غير العقلية التجارية المحدودة ضاعف من اعتزازه بها ما حباه أولئك المتأززون من حب واحترام وتكرام ، ولما قال له أحدهم مرة في صدق واخلاص : « لو أتيت لك ياسيد احمد أن تدرس القانون لكنت محاميا مفوها نادر المثال » نفخ قوله في خياله الذى يحسن مداراته بظرفه وتواضعه وحلو معاشرته . ولم يطل بأحد من الوافدين الجلوس فذهبوا تباعا . وتزايدت حركة العمل بالدكان ، ثم فجأة دخل رجل مهرولا كأنما دفعته يد قوية ، ووقف في منتصف الدكان وهو يضيق عينيه الضيقتين ليحد بصره ، وسددهما صوب مكتب السيد ، ومع انه لم يكن يفصله عنه أكثر من ثلاثة أمتار الا انه أجهدته في معاینته بلا طائل ، ثم هتف متسائلا :

- السيد احمد عبد الجواد موجود ؟

فقال السيد باسم :

- اهلا وسهلا بالشيخ متولى عبد الصمد ، تفضل ، حلت

البركة ..

وعطف الرجل رأسه فصادف اقتراب الحمزاوى منه ليسلم عليه ولكنه لم ينتبه لیسده الممدودة وعطس على غير انتظار فترجع الحمزاوى وهو يخرج منديله وقد التفت في صفحة وجهه ابتسامة وتقطبية ، واندفع الشيخ الى المكتب وهو يتمتم « الحمد لله رب العالمين » ، ثم رفع طرف عباته ومسح به على وجهه ، وجلس على الكرسي الذى قدمه السيد له ، وبدأ الشيخ

في صحة يحسد عليها على سنه التي جاوزت الخامسة والسبعين ،
ولولا عيناه الكليلتان الملتهبتا الأشقر ، وفوه المندثر ، ما وجد
ما يشكوه ، وكان يتلفع بعباءة بالية ناصلة وان أمكنه ان يستبدل
بها خيرا منها بما يوجد به المحسنون ، ولكنه استمسك بها لانه
- فيما يقول - رأى الحسين في منامه وهو يباركه فبث فيها خيرا
لا يبلى ، وكان الى كراماته في قراءة الغيب والدعوات الشافية
وعمل الأحجية معروفا بالصراحة والظرف ، وبه متسع للدعابة
والزاح مما زاد من قدره عند السيد خاصة ، ومع أنه كان من
سكان الحلى الا أنه لم يثقل على أحد من مريديه بالزيارات ، وربما
توالى الأشهر وهو غائب لا يعلم له مكان ، فاذا ألم بزيارة بعد
انقطاع لافى ترحابا واشواقا وهدايا . وقد اشار السيد الى
وكيله ليعد للسيد الهدية المعتادة من الأرز والبن والصابون ،
ثم قال للسيد مرحبا :

- أوخشتنا يا شيخ متولى .. منذ عاشوراء لم نستمتع
برؤيتك ..

فقال الرجل ببساطة وبغير مبالاة :
- أغيب كما يحلو لى ، وأحضر كما يحلو لى ، ولا أسأل عن
السبب ..

فابتسم السيد الذى ألف أسلوبه وتمتم قائلا :
- اذا غبت أنت فان بركتك لا تغيب ..
فلم يبد على الشيخ أنه تأثر لأطرائه ، وعلى العكس حرك
راسه حركة تدل على نفاد الصبر وقال بخشونة :
- ألم انبه عليك أكثر من مرة بالأ تفاتحنى بالمحدث ، وأن
تلتزم الصمت حتى أتكلم أنا ؟!

فقال السيد وبه رغبة في التحكك به :
- معذرة يا شيخ عبد الصمد ، لئن كنت نسيت تنبيهك
فعذرى أنى أنسيته لطول غيابك .

ف ضرب الشيخ كفا بكف وهتف : **رصمام الثاني**
- عذر أقبح من ذنب .. (ثم منذرا بسبابته) اذا تماديت
في مخالفتى امتنعت عن قبول هديتك !

فأطبق السيد شففيه باسطا راحتيه استسلاما حاملا نفسه
على الصمت هذه المرة ، فترى الشيخ متولى ليتأكد من دخوله
طاعته ، وتخرج ثم قال :

- أبدا بالصلاة على سيد الخلق الحبيب ..

فقال السيد من الأعماق :

- عليه الصلاة والسلام .

- وأنى على أيبك بما هو أهله ، رحمه الله رحمة واسعة
وأسكنه فسيح جناته ، كانى به متخذاً مجلسك هذا ، لا فارق
بين الأب وابنه الا أن الراحل حافظ على العمامة واستبدلت بها
هذا الطربوش ..

فتمتم السيد مبتسما :

- فليقفر الله لنا .. **عاشوراء** :

فتشاءب الشيخ حتى دمعت عيناه ثم استطرد قائلا :
- وأدعو الله أن يعن على أبتائك بالفلاح والتقوى ، ياسين
وخديجة وفهمى وعائشة وكمال وأهمهم آمين ..

ووقع نطق الشيخ باسمى خديجة وعائشة من أذن السيد
موقعا غريبا على الرغم من كونه هو الذى أفضى اليه باسميهما
منذ عهد طويل ليكتب لهما حجاين ، وليست أول مرة ينطق
الشيخ باسميهما ، ولا آخر مرة ، ولكن لم يكن يتردد اسم واحدة
من حريمه بعيدا عن الحجرات - ولو على لسان الشيخ متولى -
حتى يقع من نفسه موقعا غريبا ينكره ولو الى حين . بيد الله
غمغم قائلا :

- آمين يا رب العالمين ..

فتنهذ الشيخ قائلا :

- ثم أسأل الله المنان أن يعيد إلينا أفندينا عباس مؤيدا بجيش من جيوش الخليفة لا يعرف له أول من آخر ..
 - نسأله وليس شيء عليه بكثير ..
 فعلا صوت الشيخ وهو يقول غاضبا :
 - وأن يمني الانجليز وأعوانهم بهزيمة منكرة فلا تقوم لهم بعدها قائمة .
 - ربنا يأخذهم جميعا ..
 فحرك الشيخ رأسه في أنسى وقال بحسرة :
 - كنت بالأمس سائرا في الموسيقى فاعترض سبيلي جنديان استراليان وطالباني بما معى فما كان منى إلا أن نفضت لهما جيوبى وأخرجت الشيء الوحيد الذى كان معى وهو كوز ذرة فتناوله أحدهما وركله كالكرة وخطف الآخر عمامتى وحل الشال ومزقه ورمى به في وجهى .
 وتابعه السيد وهو يغالب ابتسامته تراوده فما لبث أن داراها بالمبالغة في اظهار استيائه صائحا في استنكار :
 - قاتلهم الله واهلكهم ..
 قائم الرجل حديثه قائلا :
 - رفعت يدي الى السماء وصحت : يا جبار مزق أمتهم كما مزقوا شال عمامتى ..
 - دعوة مستجابة بأذن الله ..
 ومال الشيخ الى الوراء وأغمض عينيه ليسترخ قليلا ، ولبث على حاله والسيد يتفرس في وجهه مبتسما ، ثم فتح عينيه وخطب السيد بصوت هادئ ونبرات جديدة تنذر بموضوع جديد ، قائلا :
 - يالك من رجل شهم جميل المروءة يا أحمد يا ابن عبد الجواد ..
 فابتسم السيد في رضى وقال بصوت خفيض :

- استغفر الله يا شيخ عبد الصمد ..
 فبادره الشيخ قائلا :
 - لا تتعجل ، ان مثلى لا يلقى الثناء الا تمهيدا لقول الحق ، على سبيل التشجيع يا ابن عبد الجواد ..
 فلاح الاهتمام والحذر في عينى السيد وتمتم قائلا :
 - ربنا يلف بنا .. **فما سلم**
 فأشار اليه بسببته المجراء وتساءل فيما يشبه الوعيد :
 - ماذا تقول ، أنت المؤمن الورع ، في ولك بالنساء ؟!
 كان السيد معتادا لصراحته فلم ينزعج لانقضاضه ، وضحك ضحكة مقتضة ثم قال :
 - ما علي من ذاك ، إلا يحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جبه للطيب والنساء ؟
مكتوب
 فقطب الشيخ ومط بوزه محتجا على منطق السيد الذى لم يعجبه وقال :
 - الحلال غير الحرام يا ابن عبد الجواد ، والزواج غير الجرى وراء الفاجرات ...
تخفيف
 فمد السيد بصره للأشياء وقال بلهجة جدية :
 - ما ابرتضت نفسى يوما أن تعتدى على عرض أو كرامة قط ، والحمد لله على ذلك ..
 فضرب الشيخ ركبتيه بيديه وقال بغرابة وباستنكار :
 - عذر ضعيف لا ينتحله الا ضعيف ، والفسق لعنة ولو يكن بفاجرة ، كان أبوك رحمه الله مولما بالنساء فتزوج عشرين مرة فلماذا لا تنتهج سبيله وتتنكب طريق المعاصى ؟!
 فضحك السيد ضحكة عالية وقال :
 - أنت ولى من أولياء الله أم مأذون شرعى ؟! كان أبى شبه هقيم فأكثر من التزوج ، وبالرغم من أنه لم ينبج سوى الا أن فقره تبدد بينى وبين زوجات أربع مات عنهن ، الى ما ضاع على

النفقات الشرعية في حياته ، أما أنا فأب لثلاثة ذكور وأنثيين ، وما يجوز لي أن أنزل إلى الاكثار من الزوجات فأبدد ما يسر الله علينا من رزق ، ولا تنس يا شيخ متولى أن غواني اليوم من جوارى الأمس واللآلئ احلهن الله بالبيع والشراء ، والله من قبل ومن بعد غفور رحيم .

فتأوه الشيخ وقال وهو يهز نصفه الأعلى يمنة ويسرة :
- ما أبرعكم يا بنى آدم في تحسين الشر ، والله يا ابن عبد الجواد لولا حبي لك ما باليت أن تحدثني وأنت قاعد على فاجرة ..

فبسط السيد راحتيه وقال باسم :

- اللهم استجب ..

فتفخ الشيخ متبرما وهتف قائلا :

- لولا مزاحك لكنت أكمل الناس ..

- الكمال لله وحده ..

فالتفت إليه وهو يشير بيده كأنه يقول « فلندع هذا جانبا »

ثم ساءله بلهجة المحقق الذي ضيق عليه الخناق :

- والخمر ؟ .. ماذا تقول فيها ؟!

وسرعان ما فترت روح السيد ولاح في عينيه الضيق ولزم

الصمت مليا ، وآنس الشيخ من صمته تسليما فصاح بظفر :

- ليست حراما لا يقارفه من يحرص على طاعة الله ومحبته ؟!

فبادره السيد قائلا في حماس من يدفع بلاء محققا :

- لشد ما أحرص على طاعة الله ومحبته !

- باللسان أم بالعمل ؟!

ومع أن الجواب كان حاضرا إلا أنه تمهل متفكرا قبل أن ينطق

به . لم يكن من عادته أن يشغل نفسه بالتفكير الذاتي أو التأمل

الباطني . شأنه في ذلك شأن الذين لا يكدون يخلون إلى أنفسهم ،

ففكره لا يعمل حتى يبعثه إلى العمل شيء خارجي ، رجل أو امرأة

أو سبب من أسباب حياته العملية ، وقد استسلم لتيار حياته الزاخر مستغرقا فيه بكليته ، فلم ير من نفسه إلا صورتها المنعكسة على سطح التيار ، ثم لم يتراخ توثبه للحياة مع تقدم العمر لأنه بلغ الخامسة والأربعين ولم يزل يتمتع بحيوية فياضة مشبوبة لا يتأثر بها إلا الشاب اليافع ، لذلك جمعت حياته شتى المتناقضات التي تراوح بين العبادة والفساد ، وحازت جميعا رضاه على تناقضها دون أن يدعم هذا التناقض بسند من فلسفة ذاتية أو تدبير مما يصطلم الناس من ألوان الرياء ، ولكنه كان يضدر في سلوكه عن طبيعته الخاصة بقلب طيب وسريرة نقية وإخلاص في كل ما يفعل ، فلم تعصف بصدوره عواصف الحيرة ، وبات قرير العين . وكان إيمانه عميقا ، أجل كان إيمانا موروثا لا دخل للاجتهاد فيه ، بيد أن رقة مشاعره ولطافة وجدانه وإخلاصه أضفت عليه إحساسا رهيفا ساميا نأى به عن أن يكون تقليدا أعمى ، أو طقوسا منعها الرغبة أو الرهبة فحسب ، وبالجمل كان أبرز ما يتميز به إيمانه بالحب الحصب النقي . بهذا الإيمان الحصب النقي أقبل يؤدي فرائض الله جميعا ، من صلاة وصيام وزكاة في حب ويسر وسرور ، إلى سريرة صافية وقلب عامر بحب الناس ونفس تسخو بالمروءة والنجدة جعلت منه صديقا عزيزا يستبق القوم إلى الرى من منهل العذب ، وبذلك الحيوية الفياضة المشبوبة فتح صدره لمسررات الحياة ولذائدها ، يهش للمأكول الفاخر ، ويضطرب للشراب المعتق ، ويهيم بالوجه القسيم ، فينهل منها جميعا في مرح وبهجة وولع ، غير مثقل الضمير بإحساس خطيئة أو وسواس قلق ، فهو يمارس حقاً منحتة إياه الحياة ، وكأنما لا تعارض بين حق الحياة على قلبه وحق الله على ضميره ، فلم يشعر في ساعة من حياته بأنه بعيد عن الله أو عرضة لنقمته ، وآخاه في السلام . أكان شخصين منفصلين في شخصية واحدة ؟! أم كان اعتقاده في السماحة الإلهية بحيث لا يصدق أنها تحرم هاتيك المسرات حقا ،

فاشار السيد الى جميل الحمزاوى لياتى بهدية الشيخ وهو
يقول مسرورا :

- حسينا الله ونعم الوكيل .

وجاءه الوكيل باللفة فاخذها السيد وقدمها الى الشيخ وهو
يقول ضاحكا :

- في صحتك ..

فتناولها الشيخ وهو يقول :

- رزقك الله رزقا واسعا وغفر لك ..

فغمغم السيد « آمين » ثم سأل بهدوء :

- ألم تكن يوما من اهل ذلك يا سيدنا الشيخ ؟!

فضحك الشيخ قائلا :

- سامحك الله ، انت رجل كريم طيب القلب ، وبهذه المناسبة

احذرک من التماذى فى الكرم فانه لا يتفق وما يطالب به التاجر
من القصد ..

فتسائل السيد دهشا :

- اغفرنى باسترداد الهدية ؟

فنهض الرجل وهو يقول :

- هديتى لا تجاوز القصد فابدا بغيرها يا ابن عبد الجواد
والسلام عليكم ورحمة الله ..

وغادر الشيخ الدكان مهرولا وغاب عن الانظار . ولبث
السيد مفكرا ، ومضى يدير في نفسه ما ثار من جدل بينه وبين
الشيخ ثم بسط راحتيه في ضراعة وتمتم « اللهم اغفر لى
ما تقدم وما تأخر من ذنب ، اللهم انك انت الغفور الرحيم » ..

وحتى في حال تحريمها فهى حرية بأن تغفو عن المذنبين ما لم يؤذوا
احدا ؟! الأرجح انه كان يتلقى الحياة بقلبه واحساسه دون ثمة تفكير
او تأمل ، وجد بنفسه غرائز قوية ، يطمح بعضها لله فراضها
بالعبادة ، ويتحفظ بعضها الآخر للذات فأزواها باللهو ، وخطها
بنفسه جميعا آمنا مطمئنا دون ان يشق على نفسه بالتوفيق بينها .
لم يكن يضطر الى تبريرها بفكره الا تحت ضغط انتقاد كالذى
جانبه الشيخ متولى عبدالصمد ، وفي هذه الحال يجد نفسه اضيق
بالتفكير منه بالتهمة نفسها ، لا لانه يهون عليه أن يكون متهما امام
الله ولكن ، لانه لا يصدق ابدا انه متهم ، او ان الله يفضله حقا ان
يلهو لهوا لا يصيب احدا بأذى ، اما التفكير فكان يتعبه من ناحية
ويكشف عن تفاهة علمه بدينه من ناحية اخرى . لذلك تجهم
للسؤال الذى القاه الرجل عليه متحديا وهو « باللسان أم بالعمل »
واجابه بلهجة لا يخفى فيها الضيق :

- باللسان والعمل معا ، بالصلاة والصيام والزكاة . بذكر الله
قائما وقاعدا ، وما على بعد ذلك اذا روحت عن نفسى بشيء من
اللهو الذى لا يؤذى احدا او يغفل فريضة ، وهل حرم محرم الا
لهذا أو ذاك ؟

فرفع الشيخ حاجبيه وأغمض عينيه معلنا عن عدم اقتناعه
ثم تمتم :

- يا له من دفاع في سبيل الباطل !

وتحول السيد فجأة من الضيق الى المرح كعادته فقال
بأريحية :

- الله غفور رحيم يا شيخ عبد الصمد ، انى لا اتصوره عز
وجل غاضبا او متجهما أبدا ، حتى انتقامه رحمة خافية ، وانى
أقدم بين يديه الحب والطاعة والبر ، والحسنة بعشر أمثالها ..
- أما في حساب الحسنات فانت رابع ..

عند العصر غادر كمال مدرسة خليل اغا يضطرب في تيار
زاخر من التلاميذ الذين يسدون الطريق بزحمتهم ثم يأخذون في
التفرق ، بعضهم الى الدراسة ، وبعضهم الى السكة الجديدة ،
وآخرون الى طريق الحسين ، على حين تتحقق جماعات منهم الباعة
المتجولين الذين يعترضون تياراتهم عند رءوس الطرقات المتفرقة
عن المدرسة بما تحمل سلالهم من اللب والفول السوداني والدوم
والخلوى ، والى هذا فلا يخلو الطريق في هذه الساعة من معارك
تنشب هنا وهناك بين تلاميذ اضطروا الى كتمان خلافاتهم في اثناء
النهار تفاديا من العقوبات المدرسية . وكانت المرات التي سبق
فيها الى الاشتباك في معركة نادرة جدا ، ولعلها لم تعد المرتين
طوال العامين اللذين قضاهما في المدرسة ، لا لندرة خلافاته التي
لم تكن نادرة في الواقع ، ولا لكرهية للعراك فقد اورثه اضطرابه
الى تجنبه اسفا عميقا ، ولكن لتقدم الكثرة الغالبة من التلاميذ
عليه في السن مما جعله هو وقلة من اترابه غرباء في المدرسة ،
يتعشرون في بنطلوناتهم القصيرة بين تلاميذ طعنوا فيما بعد الخامسة
عشرة وكثيرون منهم تاهزوا العشرين ، فشقوا طريقهم في صلف
وكبرياء وقد طرت شواربهم . من هؤلاء من كان يتعرض له في
فناء المدرسة بلا سبب فيخطف الكتاب من يده ويقذفه بعيدا
كالكرة ، او من يسلبه قطعة من الخلوى فيدسها في فمه بغير
استئذان مواصلا ما كان فيه من حديث ، فلم تكن الرغبة في العراك
لتنقصه ولكنه كظمها تقديرا للعواقب ، وما لبها حتى دعاه اليها
أحد اقرانه الصغار ، فوجد في الهجوم عليه متفلسا لعواطفه النائرة

المكبوتة واستردادا لثقتة بقوته ونفسيه . وليس العراك ، او العجز
عنه ، بأسوا ما لاقى من وقاحة المعتدين ، فالى هذا ما كان يترامى
الى اذنيه ، سواء كان المقصود به أم غيره ، من الشتائم والسباب ،
منه ما فطن لعنايه فحدره ، ومنه ما جهله فردده في البيت بحسن
نية فاثار به عاصفة من الثورة والفرع اتصلت انبأؤها في صورة
شكوى لضابط المدرسة الذي كان صديقا لآبيه . ولكن سوء الحظ
وحده هو الذي قضى بان يكون أحد غريميه في المرتكنين الوحيدتين
اللتين خاضهما من أسيرة فتوات معروفة بالدراسة ، فلما كان عصر
اليوم التالي للمعركة وجد الغلام في انتظاره عند باب المدرسة
عصابة من الشبان مدججين بالعصى في حالة من شر مستطير ، ولما
اشار اليه غريمة ليدل عليه تنبه لحركته وادرك ما يترص به من
خطر فراجع هاربا الى المدرسة وهو يستغيث بالضابط ، وعبثا
حاول الرجل أن يصرف العصابة عن مقصدها ، واغلظوا له القول
حتى اضطر الى استدعاء شرطى ليوصل الغلام الى داره ، وزار
الضابط السيد في دكانه وأنبأه بما يتهدد ابنته من شر ناصحا اياه
بمعالجة الامر بالحلم والكياسة ، ولجأ السيد الى بعض معارفه من
تجار الدراسة فمضوا الى بيت الفتوات مستشفعين له ، وهناك
استعان السيد بما عرف عنه من سماحة نفس ورقة شمائل حتى
الآن عريكتهم فأصدروا عن الغلام عفوهم بل وتعهدوا بحمايته
كاخذ ابناءهم ، ولم ينته اليوم حتى بعث السيد بمن يحمل اليهم
نقحة من هداياه ، ونجا كمال من عصي الفتوات ولكنه كان
كالمستجير من الرمضاء بالنار ، لأن عصا أبيه فعلت بقدميه ما لم
تكن لتفعله عشرات العصي ١٠

غادر الغلام المدرسة ، ومع أنه كان لرنين الجرس المؤذن بانتهاء
اليوم الدراسي فرحة في نفسه لا تعادلها فرحة في تلك الأيام إلا أن
نسائم الحرية التي نشقها خارج بوابة المدرسة بصدر رحب لم
تمح اصداء الدرس الأخير الحبيب - درس الديانة من قلبه . وقد

قرأ عليهم الشيخ ذلك اليوم سورة «قل أوحي الى انه استمع نفر من الجن» وشرحها لهم ، فتركز فيه بوعيه ، ورفع أصبعه أكثر من مرة سائلا عما أغلق عليه ، ولما كان الأستاذ يعطف عليه لاقباله على الاستماع لدرسه باهتمام بارز ، الى حفظه للسور حفظا جيدا ، فقد أوسع صدره لاستلته بحال ينذر أن يحظى بها أحد التلاميذ ، وراح الشيخ يحدثه عن الجن وطوائفهم ، وعن المسلمين منهم خاصة الذين سيظفرون بالجنة في النهاية أسوة باخوانهم من البشر ، وحفظ الغلام عن ظهر قلب كل كلمة نطق بها ، ولم يزل يديرها في نفسه حتى هذه اللحظة التي يعبر فيها الطريق قاصدا دكان السبوسة على الجانب الآخر ، فالى شغفه بالديانة كان يعلم أنه لا يتلقاها لنفسه فحسب ، وأن عليه أن يعيد ما وحي منها في البيت على أمه - كما اعتاد أن يفعل مذ كان في الكتاب - فيلقى اليها بمعلوماته وتستعيد هي على ضوءها ما عندها من معلومات عرفت عن أبيها الذي كان شيخا أزهريا ، ويتذاكران معارفهما طويلا ثم يحفظها الجديد من السور التي لم يسبق لها حفظها . وانتهى الى دكان السبوسة فمد يده للصغيرة بالملايم التي احتفظ بها منذ الصباح ، ثم تناول القطعة في ارتياح شامل لا يشعر به الا في مثل هذا الموقف اللذيذ ، مما جعله يحلم كثيرا بأن يكون يوما صاحب دكان حلوى لياكلها لا ليبيعها ، ثم واصل سيره في شارع الحسين وهو يقضم منها مسرورا مترنما . نسي وقتذاك أنه كان سجيننا النهار كله ، وأنه كان محروما من الحركة فضلا عن اللعب والمرح ، وأنه كان عرضة في أية لحظة لعصا المدرس المسطرة على الرعوس ، بيد أنه رغم هذا كله لم يكره المدرسة كراهية مطلقة لأنه كان يظفر بين جدرانها بأسباب من التقدير والتشجيع - بسبب تفوقه الذي يرجع كثير من الفضل فيه الى شقيقه فهمي - لا يحظى بعشر معشارها عند أبيه . ومروا في طريقه بدكان ماتوسيان لبيع السجائر فوقف كعادته كل يوم في مثل هذه الساعة تحت لافتتها يصعد عنييه الصغيرتين

الى الاعلان الملون الذي يصور امرأة مضطجعة على ديوان وبين شفتيها العرمزيتين سيجارة يتطاير منها حيط دخان متعرج ، معتمده بساعدها على حافة نافذة بلوح وراء ستارها المنحسرة منظر يجمع بين حقل نخيل ومجري من مجريات النيل ، وكان يدعوها فيما بينه وبين نفسه « أبله عائشة » لما بين الاثنين من شبه يتمثل في الشعر الذهبي والعينين الزرقاوين ، ومع أنه كان يناهز العاشرة الا ان أعجابه بصاحبة الصورة فاق كل تقدير ، فكم تخيلها متمتعة بالحياه في أبهى مظاهرها ، وكم تخيل نفسه وهو يقاسمها حياتها الرغيدة بين حجره ناعمة ، ومنظر ريق متاح لها - لها - أرضه ونخله وماؤه وسماؤه ، يسبح في الوادي الأخضر أو يعبر النهر في قارب بدا في نهاية الصورة كالطيف ، أو يهز النخل فساقط عليه الرطب ، أو يجلس بن بدي الحساء طامح الطرف الى عينيها الخاليتين على أنه لم يكن جيلا كأكويه ، ولعله كان أشبه الأسرة بأخته خديجة ، فمثلها قد جمع في وجهه بين عيني أمه الصغيرتين وأنف أبيه الضخم ولكن بكامل هيئته لا مهذبا بعض التهذيب كما ورنته خديجة ، الى رأس كبير يبرز عند الجبهة بروزا واضحا جعل عنييه تبدوان غائرتين أكثر مما هما في الواقع ، وكان من سوء الحظ أن نبه الى غرابته صورته بحال مشرة للسخرية حين دعاه أحد الرفاق بأبي « راسين » فهاج غضبه وأورطه في إحدى المركبتين اللتين خاضهما ، ولم يسكن خاطره الانتقام فشكا في البيت حزنه الى أمه التي تكدرت لكدره وراحت تعزيه مؤكدة له أن كبير الرأس من كبر العقل ، وأن النبي عليه السلام كان كبير الرأس ، وأنه ليس وراء التشابه بين الرسول وبينه من مطمع لطامع . ولما انتزع نفسه من صورة المدخنة واصل سيره رائيا هذه المرة الى جامع الحسين الذي قضت لثانته بأن يكون لقلبه مثار أخيلة وعواطف لا تنضب . ومع أن المكانة التي نزلها الحسين من نفسه - تبعاً لمنزلته من نفس أمه خاصة والأسرة

عامة كاتب وليدة قرابته من النبي الا أن معرفته للنبي وسيرته
 لم تكن شفيعا الى معرفته بالحسين وسيرته ، وما تهفو نفسه
 دائما اليه من استعادة هذه السيرة والتزود منها بأنبال القصص
 وأعمق الايمان . حتى لقد وجدت منه على مر القرون مستمعا
 مشغوفاً ومحبا مؤمناً وأسيفا بكاء ، فلم يهون من بلواه الا ما قيل
 من أن رأس الشهيد بعد فصله عن جسده الطاهر لم يرض من
 الأرض مسكناً الا في مصر فجاءها طاهراً مسبحاً ثم نوى حيث
 يقوم ضريحه . وكم وقف حيال الضريح حالماً مفكراً ، يود لو ينفذ
 بصره الى الأعماق ليطلع على الوجه الجميل الذي أكدت له أمه
 أنه قاوم غير الدهر بسره الالهى فاحتفظ بنصارتة وروثه حيث
 يضيء ظلمة المتوى بنور غرته ، ولما لم يجد الى تحقيق أميته سبيلاً
 قنع بمناجاته في وقفات طويلة ، مفصحاً عن حبه ، شاكياً اليه
 متاعبه الناشئة من تصوراته عن الغفاريات وخوفه من تهديد أبيه
 مستنجداً به على الامتحانات التي تلاحقه كل ثلاثة اشهر ، ثم
 خاتماً مناجاته عادة بالتوسل اليه أن يكرمه بالزيارة في منامه . ومع
 أن عادة مرووره بالجامع صباحاً ومساءً خففت بعض الشيء من شدة
 تأثره به الا أنه لم تكن تقع عليه عيناه حتى يقرأ له الفاتحة ولو تكرّر
 ذلك منه مرات في اليوم الواحد ، أجل لم تستطع العادة أن تقتلع
 من صدره بهجة الأحلام ، فلم يزل لمنظر الجدران السامقة تجاوبها
 مع قلبه ، ولم يزل لمثذنته العالية نداء ما أسرع أن تلبسه نفسه .
 قطع طريق الحسين وهو يقرأ الفاتحة ثم انعطف الى خان جعفر ،
 ومنها اتجه الى بيت القاضي ، ولكنه بدلاً من أن يمضي الى البيت
 مخترقاً التحاشين عبر الميدان الى درب قرمز على وحشته وأثارته
 اخافه ليتفادى من المرور بذاك أبيه . كان يرتعد فرقا من أبيه
 ولا يتصور أنه يخاف العفريت لو طلع له أكثر منه اذا زعق به
 غاضباً . وضاعف من كربه أنه لم يقتنع يوماً بالأوامر الصارمة التي
 يلاحقه بها للحيلولة بينه وبين ما تنصبو اليه نفسه من اللعب والمرح ،

فلو أنه اذعن لمشيئته مخلصاً لقضى وقت فراغه كله متربها مكتوف
 اليدين لذلك لم يسعه أن يطيع تلك المشيئة الجبارة العاتية واختلس
 اللهو من وراء ظهره كلما حلا له ، في البيت أو في الطريق ، وظل
 الرجل على جهل بأمره الا أن يبلغه منه شيء بوشاية من أهل البيت
 اذا ضاقوا بقلوه وأفرطه . من ذلك أنه جاء يوماً بسلام وارتقاه الى
 عرش اللباب والياسمين فوق السطوح ، ورائته أمه وهو على تلك
 الحال بين السماء والأرض فصرخت فزعة حتى أجبرته على النزول ،
 ثم غلب اشفاقها من مغبة لعبة خطيرة كذلك على خوفها عليه من
 شدة أبيه فصرحت للسيد بما كان منه ، وسرعان ما دعا به وأمره
 أن يمد قدميه وأنهال عليهما بعصاه غير مبال بصراخه الذي ملأ
 البيت ، وغادر الغلام الحجرة وهو يظلم ليجد أخوته في الصالة وهم
 يغالبون ضحكهم الا إحديجة التي حملته بين يديها هامة في أذنه
 « تستاهل .. كيف تعلو اللباب وتناطح السماء ! أحسبت نفسك
 زبلن ؟! » على أنه فيما عدا الألعاب الخطرة كانت أمه تستتر عليه
 وتبيع له ما يشاء من اللعب البريء . ولشد ما يعجب كلما ذكر
 كيف كان هذا الأب نفسه ظريفاً لطيفاً معه على عهد طفولته القريبة ،
 وكيف كان يتسلى بمداعبته وكيف كان ينفحه من آن لآخر بالوان
 شتى من الحلوى ، وكيف هون عليه يوم الختان - على فطاعته -
 فملاً حجره بالشيكلات والمليس وشمله بعطفه ورعايته ، ثم ما
 أسرع أن تغير كل شيء فتبدل عطفه صرامة ، ومنافاته زعقاً ،
 ومداعباته ضرباً ، حتى الختان نفسه اتخذ أداة لإرهابه حتى
 اختلط عليه الأمر ردحا من الزمن فظن أنه من الممكن حقاً أن يلحقوا
 ما تبقى له بما ذهب ! وليس الخوف وحده الذي شعر به نحو أبيه
 فأجلاله له لم يكن دون خوفه منه ، كان يعجب بمظهره العظيم
 القوي ، ومهابته التي تعنو لها الهام ، وأناقته ملبسه ، وما يعتقده
 فيه من قدرة على كل شيء ، ولعل حديث الأم عن سيدها هو الذي
 هوله عنده فلم يتصور أنه يوجد في الدنيا رجل يضارعه في قوته

أو اجلاله أو ثروته . أما عن الحب فقد كان كل من في البيت يحب الرجل لحد العبادة فانسرب حبه الى قلبه الصغير بإيجاء البيئة ، بيد انه ظل جوهره مكنونة في حق مغلق من الخوف والرعب . مضى يقترب من قبو درب قرمز المظلم الذي تتخذة العفاريت مسرحا لألعابها الليلية ، والذي أثره لنفسه طريقا عن المرور بـ مكان أبيه ، وعندما دخل في جوفه راح يقرأ « قل هو الله أحد » بصوت مرتفع رن في الظلمة تحت السقف المنحني ، وسبقته عيناه الى فوهة القبو البعيدة حيث يشع نور الطريق ، ثم حث خطاه وهو يردد السورة لطرد من تحدثه نفسه بالظهور من العفاريت ، فالعفاريت لا سبيل لها على من يدرك بآيات الله ، أما أبوه فلن يدرك غضبه عنه إذا ثار أن يتلو كتاب الله كله . وخرج من القبو الى الشطر الآخر من الدرب ، وعند نهايته طالعه سبيل بين القصرين ومدخل حام السلطان ، ثم لاحظ لعينه مشربيات بيته بلونها الأخضر القاتم ، والباب الكبير بمطرقته البرنزية فافتقر ثغره عن ابتسامة فرح لما بلغه له هذا المكان من أفانين المرح ، فعما قليل بهرع القلمان اليه من جميع البيوت المجاورة الى فناء الدار الواسع الذي يحوى عدة حجرات تتوسطها القرن فيكون لعب ولهو وبطاطة . وفي تلك اللحظة رأى سوارس وهي تقطع الطريق على مهل متجهة الى بين القصرين فوثب قلبه وشاع فيه سرور مأكراً ، وما لبث أن دس حقيبته كتيه تحت ابطه الأسير وجرى وراءها حتى أدركها ثم وثب الى سلمها الخلفي ، ولكن الكمساري لم يتركه في سروره طويلا فجاءه يطالبه بشمن التذكرة وهو يرمقه بنظرة تنم عن رغبة وتحد فقال له متوددا أنه سيفادها حالما تقف لأنه لا يسمعه النزول وهي سائرة ، فتحول الرجل عنه الى السائق وهتف به أن يوقف العربية وهو يزمجر غاضبا فانتهاز القلام فرصة تحوله عنه وشب على أمشاط قدميه وصفعه ثم وثب الى الأرض وانطلق هاربا وشتائم الكمساري تلاحقه أشد من الأحجار المطينة .

لم تكن خطة مدبرة ، ولا هي من مختار شطارته ، ولكنه رأى غلاما يفعلها في الصباح فراقت له ، ثم وجدها سانحة لأعادتها بنفسه فتفعل .

- ٩ -

واجتمعت الأسرة - ما عدا الأب - قبيل الغيب فيما يعرف بينها بمجلس القهوة ، وكانت الصالة بالدور الأول مكانه المختار حيث تحيط بها حجرات نوم الأخوة والاستقبال ورابعة صغيرة أعدت للدرس وقد فرشت الصالة بالحصر الملونة وقامت في أركانها الكنبات ذوات المساند والوسائد . وتدل من سقفها فانوس كبير يشعله مصباح غازي في مثل حجمه . وكانت الأم تجلس على كنبه وسيطة وبين يديها مدفأة كبيرة دفنت كنجة القهوة حتى النصف في جراتها التي يعلوها الرماد ، وإلى يمينها خوان وضعت عليه صينية صفراء صفت عليها الفناجين ، يجلس الأبناء حبالها سواء من يؤذن له باحتساء القهوة معها كياسين وفهمي أو من لا يؤذن له بحكم التقاليد والآداب فيقع بالسمير كالشقيقتين وكمال . تلك ساعة محبة الى النفوس يستأنسون فيها الى رابطتهم العائلية ، وينعمون بلذة السمير . وينضوون جميعا تحت جناح الأمومة في حب صاف ومودة شاملة . وبدت في جلساتهم راحة الفراغ وتحرره فكأنوا بين متربع ومضطجع ، وبينما جعلت خديجة وعائشة تستحان الشارين على الفراغ من شربهم لتقرأ لهم الطالع في فناجينهم زاح ياسين يتحدث حيناً ويقرأ في قصة اليتيمين من مجموعة مسامرات الشعب حيناً آخر . كان من عادة الشباب أن يهب بعض فراغه لمطالعة القصص والأشعار - لا لاحتسائه بنقص تعلمه فالابتدائية

وقتذاك لم تكن مطلباً صغيراً - ولكن غراماً بالتسلية وولعاً بالشعر والأساليب الجزلة . وقد بدا بجسمه المكتنز في جلبابه الفضفاض كقربة هائلة إلا أن مظهره لم يتعارض - بحكم الزمن - مع قسامة في وجهه الأسمر الممتلئ بعينه السوداوين الجذابتين وحاجبيه المقرونيين وشفتيه الشهوانيتين ، ونم بجملته - رغم حداثة سنه الذي لا يجاوز الواحدة والعشرين - على رجولة مفعمة بالفحولة . ولبد كمال لصقة ليلتقط ما يرمى إليه بين أوتة وأخرى من نوادر القصص وهو لا يكف عن الاستزادة منها غير مكترث لما يحدثه الحاحه على أخيه من الضيق كي يشبع أشواقاً تستعمل بخياله في مثل هذه الساعة من كل يوم ، ولكن ما أسرع أن يشغل عنه ياسين بالحديث أو بالاستغراق في المطالعة مفضلاً عليه بين حين وآخر - كلما اشتد الحاحه بكلمات مقتضبة أن وجد بها الجواب على بعض أسئلته فيما أخرى أن تستثير أسئلة جديدة لا جواب لها عنده ، ثم لا يفتأ يرمق أخاه وهو آخذ في المطالعة التي تبيح له مفتاح العالم السحري بعين الحسد والحزن ، فكم حز في نفسه عجزه عن قراءة القصة بنفسه ، وكم أحزنه أن يجدها بين يديه بحيث يقلبها كيف شاء دون أن يسمعه حل رموزها فالولوج منها إلى دنيا الرؤى والأحلام ، فقد وجد في هذا الجانب من ياسين مثاراً لخياله هياً له من ألوان المسرة ما هياً ، وهيج من أسباب الظمأ وعذابه ما هيج . وكثيراً ما كان يرفع عينيه إلى أخيه ويسأله في لهفة « وماذا حدث بعد ذلك ؟ » فيفتح الشاب قائلاً : « لا تضيق على بأسئلتك ولا تتعجل حظك فان لم أقص عليك اليوم فغدا » ، ولم يكن يحزنه شيء كاستنظاره للغد حتى اقترنت لفظة الغد في ذهنه بالحسرة ، ولم يكن نادراً أن يتحول إلى أمه بعد تفرق المجلس وبه أمل أن تقص عليه ما « حدث بعد ذلك » ولكن المرأة كانت تجهل قصة اليتيمة وغيرها مما يقرأ ياسين إلا أنها يعز عليها أن تردده خائفاً فتروى له ما تحفظ

من حكايات اللصوص والعمالقة فيروغ خياله إليها رويداً ظافراً يزداد من العزاء . في مجلس القهوة ذاك لم يكن عجباً أن يشعر بأنه ضائع مهمل بين أهله ، لا يكاد يلتفت إليه أحد ، وأنهم مشغولون عنه بأحاديثهم التي لا تنتهى ، فلم يتورع عن الاختلاق في سبيل الاستئثار باهتمامهم ولو إلى حين ، ولذلك رمى بنفسه في مجرى الحديث معترضاً تياره بجراً وقال بلهجة حادة فجائية كانطلاق القذيفة كأنها تذكر أمراً خطيراً بغتة :

- ياله من منظر لا ينسى الذي رأيته اليوم وأنا عائد ! ..
رأيت غلاماً يثب إلى سلم سوارس ثم صفع الكمسارى وركض بأكبر سرعة فما كان من الرجل إلا أن عدا وراءه حتى أدركه ثم وكله في بطنه بكل قوته .

وقلب عينيه في الوجوه ليري أثر حديثه فلم يجد ثمة اهتمام ولمس اعتراضاً عن خبره المثير وتصميماً على مواصلة الحديث ، بل رأى يد عائشة تمتد إلى ذقن أمه وتحولها عنه بعد أن هبت بالأصغاء إليه ، ولمح إلى هذا انتسامة هائلة ترسم على شفتي ياسين الذي لم يرفع رأسه عن الكتاب ، فركبه العناد وقال بصوت مرتفع :

- وسقط الغلام يتلوى وازدحم حوله الناس فاذا به قد فارق الحياة ..

وأبعدت الأم الفتجان عن فمها وهتفت :

- يا ولداه !.. أقول أنه مات ؟

وسر باهتمامها وركز قوته فيها كما يركز المهاجم اليأس

قوته في نقطة ضعيفة من سور منيع فقال :

- أجل مات ، ورأيت بعيني دمه وهو يسيل بغزارة ..

وحدجه فهمي بنظرة ساخرة كأنها تقول له « أنى أذكر لك

أكثر من قصة من هذا النوع » وقال متسائلاً في تهكم :

- قلت ان الكمسارى ركله في بطنه ؟ .. فمن أين سأل الدم ؟!

وانطفأت شعلة الظفر التي تلالا في عينيه مذ جذب أمه إليه ، وحل محلها سهوم الارتباك والحق ، ولكن أسعفه الخيال فاستردت نظرة عينيه حيوتها وقال :

- لما ركله في بطنه سقط على وجهه فشج رأسه !

وهنا قال ياسين دون أن يرفع عينيه عن اليتيمة :

- أو أن الدم سال من فيه ، فالدم قد يسيل من الفم دون حاجة إلى جرح ظاهري ، هنالك أكثر من تفسير لخبرك المكذوب

- كالعادة - فلا تخف ..

واجتج كمال على تكذيب أخيه وراح يحلف بأغلظ الأيمان على صدقه ولكن احتجاجه ضاع في صجعة من الضحك جمعت القليظ والرفيع من حناجر الرجال والنساء في هارموني واحدة ، وتحركت طبيعة خديجة الساخرة فقالت :

- ما أكثر ضحاياك ، لو صدقت فيما تروى من أخبار لما

أيقيت على أحد من أهل النجاسين حيا ..

ماذا تقول لربنا لو حاسبك على أخبارك هذه ؟!

ووجد في خديجة مهاجما يقدر عليه ، وكعادته كلما ارتطم

بسخريتها راح يعرض بأنفها قائلا :

- أقول له أن الحق على منخور أختي ..!

فقالت الفتاة وهي تضحك :

- من بعض ما عندكم ، السنن في البلوى سواء !

وهنا قال ياسين مرة أخرى :

- صدقت يا اختاه ..

وتحولت إليه متحفرة للانقضاض فبادرها قائلا :

- هل أغضبتك ..! لماذا ..! ليس إلا أنني جاهرت بالموافقة

على رأيك ..

فقالت له حانقة :

- اذكر عيوبك قبل أن تعرض بعيوب الناس ..

فرفع حاجبيه متظاهرا بالحيرة ثم تمتع :

- والله أن أكبر عيب ليهون إلى جانب هذا الأنف ..

ونظائر فهمي بالاستنكار ثم تساعل في نبرات وشت بانضمامه

إلى المهاجمين :

- ماذا قلت يا أختي ، أهو أنف أم جريمة ؟

ولما كان فهمي لا يشترك في مثل هذا النضال إلا نادرا فقد

رجب ياسين بقوله في حماس وقال :

- هي الاثنان معا ، فكر في المسؤولية الجنائية التي سيتحملها

من يقدم هذه العروس إلى عريسها المنكود !

وتنهقه كمال ضاحكا بصوت كالصغير المتقطع ولم ترتج الأم

إلى وقوع ابتها بين كثرة من المهاجمين فأرادت أن ترجع

إلى الحديث إلى أصله وقالت بهدوء :

- خرج بكم الكلام الفارغ عن موضوع الحديث ، كان حديثا

من السيد كمال أصدق في أخباره أم لم يصدق ، ولكن اظن أنه

لا داعي إلى الشك في صدقه بعد أن حلف .. أجل كمال لا يحلف

كذبا أبدا ..

وباخ سرور الغلام الانتقامي لتوه ، ومع أن أخوته واصلوا

المزاح حينما آخر إلا أنه انقطع عنهم بروحه ، متبدلا مع أمه نظرة

ذات معنى ، ثم خالبا بنفسه متفكرا في قلق وكدر . كان يدرك

خطورة الحلف الكاذب فيما يشير من سخط الله وأوليائه ، ويعز

عليه جدا أن يحلف كذبا بالحسين خاصة لولاه به ، ولكنه كثيرا

ما وجد نفسه في مأزق حرج - كما وجد اليوم - لا مخرج منه

في نظره إلا بالحلف الكاذب ، فينساق وهو لا يدري إلى التورط

فيه . بيد أنه لم يكن ينحو ، خاصة إذا ذكر بجريته ، من ألام

والقلق ، ويود لو يقتلع الماضي السيئ من جذوره ، وأن يسد

صفحة جديدة نظيفة ، وذكر الحسين ، وموقفه عند أصل مثذنته

حيث تتراءى وكان هامتها تتصل بالسماء ، وساله في ضراعة أن

يعفو عن زلته وهو يشعر بفضاضة من اجترأ على حبس ياساء
لا تغتفر . وغرق في توبلته ملياً ثم أخذ يفيق الى ما حوله
ويفتح اذنيه الى ما يدور من حديث فيه الماد وفيه الجديد ،
وقليل منه ما يسترعى انتباهه ، ولكنه لا يكاد يخلو من ترديد
ذكريات منتزعة من ماضي الاسرة البعيد أو القريب ، وانباء مما
يجرى عن مسرات الجيران واحزانهم ، ومواقف حرجة للأخوين
امام أبيهما الجبار ، تنبري خديجة الى استعادة وصفها وتحليلها
على سبيل الفكاهة أو الثماتة ، ومن هذه وتلك نمت للعلام معرفة
تبلورت في مخيلته على صورة غريبة تأثر تكوينها غاية التأثير بما
تجاذب طرفيه من روح خديجة التهجمية العيابة وروح أمه
السمة العفوة . وانبه أخيراً الى فهمي وهو يقول مخاطباً ياسين :
- أن هجوم هندنبرج الأخير شديد الخطورة ولا يبعد أن
يكون الهجوم الفاصل في هذه الحرب .

وكان ياسين يعطف على آمال أخيه ولكن في هدوء متسم بقلة
الاكتراث ، تمنى مثله أن ينتصر الألمان وبالتالي الترك وأن تسترد
الخلافة سابق عزتها ، وأن يعود عباس ومحمد فريد الى الوطن
ولكن أمنية من هذه الأمنى لم تكن لتشغل قلبه في غير أوقات
الحديث عنها ، وقد قال وهو يهز رأسه :

- مضى أربع سنوات ونحن نردد هذا الكلام ..

فقال فهمي برجاء واشفاق :

- لكل حرب نهاية ، ولا بد أن تنتهي هذه الحرب ، ولا اظن

الألمان ينهزمون ..

- هذا ما ندعو الله أن يتحقق ، ولكن ماذا يكون رأيك

لو جئنا الألمان كما يصقهم الانجليز ؟

ولما كانت المعارضة تشمل حدثه فقد علا صوته وهو يقول :

- المهم أن نتخلص من كابوس الانجليز ، وأن تعود الخلافة

الى سابق عظميتها فنجد طريقنا ممهداً .

وتدخلت خديجة في الحديث متسائلة :

- ولماذا تحبون الألمان وهم الذين أرسلوا زبلن ليلقي قنابله

علينا .. !

وراح فهمي يؤكد - كماداته - أن الألمان قصدوا الانجليز

بقنابلهم لا المصريين ، فانتقل الحديث الى مناطيد زبلن وما يقال

عن ضخامتها وسرعتها وخطورتها ، حتى استوى ياسين في

جلسته ونهض الى حجرته ليرتدى ملابسه تمهيداً لمفادرة البيت

الى سهرته المعتادة ، وعاد بعد فترة وجيزة وقد تهيأ وأخذ

زينة ، فترأى أتيق اللبس ، جميل المظهر ، وبدا بجسمه

الضخم وفحولته الناضجة وشلوه النابت أكبر من سنة كثيراً ،

ثم حياهم وانصرف وشيعة كمال بنظرة تتم عما يفضله عليه من

التمتع بحريته في انطلاق ساحر ، فلم يغب عنه أن أخاه لم يعد

يحاسب - منذ تعيينه كاتبا بمدرسة النحاسين - على ذهابه

أو إتيانه ، وأنه يسهر كما يشاء ويعود حين يشاء ، ما أجمل هذا

وأسعده ، وكما يكون الإنسان سعيداً لو ذهب وجاء كما يحب ،

ومد سهرته الى حين يشاء ، وقصر القراءة - حين تتم له أداؤها -

على الروايات والأشعار ، ثم سال أمه فجأة :

- أيمكنني اذا وظفت أن أسهر في الخارج كياسين ؟

وابتسمت الأم قائلة :

- ليس السهر في الخارج بالقاية التي يصح أن تحلم بها من

الآن !

فصاح محتجاً :

- ولكن أبى يسهر ، وياسين يسهر كذلك .

فرفعت الأم حاجبها ارتباكاً وتمتمت :

- شد حيلك أولاً حتى تصير رجلاً ثم موظفاً ، ووقتها

يفرجها ربنا !

ولكن كمال بدا متمحلاً فتسائل :

- ولماذا لا اتوظف بالابتدائية بعد ثلاثة أعوام ؟

وصاحت خديجة في سخرية :

- تتوظف دون الرابعة عشرة !.. وماذا تصنع اذا بلت على

نفسك في الوظيفة ؟

وقبل ان يعلن ثورته على اخته قال له فهمي بازدياء :

- يا لك من حمار .. لماذا لا تفكر في دخول الحقوق مثلي ؟..

ان ظروف ياسين القاهرة هي التي جعلته يأخذ الابتدائية في

العشرين من عمره ، ولولاها لآتم تعليمه .. الا تدرى حتى كيف

تتمنى يا كسول !

- ١٠ -

عندما صفد فهمي وكمال الى سطح البيت كانت الشمس

على وشك الاختفاء ، فلاح قرصا أبيض مسالما تولت عنه

حيوته وبردت حرارته وانطفأ توهجه ، وقد بدا بستان السطح

المسقوف باللبلاب والياسمين في ظلمة وانية ، ولكن الشباب والفلام

مضيا الى شطر السطح الآخر حيث لا يحجب فلول النور حجاب ،

ثم مالا الى السور الملاصق لسور السطح المجاور ، سطح الجيران .

وكان فهمي يرقى بكمال الى هذا الموضع كل مغيب بحجة مراجعة

دروسه في الهواء الطلق على الرغم من ان جو نوفمبر اخذ يميل

الى البرودة خاصة في هذه الساعة من اليوم ، ولوقف الفلام بحيث

جعل ظهره الى السور ، ووقف هو لقاءه بحيث أمكنه ان يمدبصره

الى سطح الجيران الملاصق دون تلفت كلما بدا له . وهناك بين

حيال الضيل لاحت فتاة - شابة في العشرين او نحو ذلك وقد

انهمكت في جميع قطع الثياب الجافة وتكديسها في سلة كبيرة ، ومع

ان كمال راح يتكلم بصوت مرتفع كعادته الا انها واصلت عملها

وكانها لم تنتبه الى مجيء الطائرئين . أمل كان يجيء به دواسا في مثل

هذه الساعة لعله يفوز منها بنظرة اذا اتفق ودعاها الى السطح

بعض شأنها ، ولم يكن تحقيقه يسيرا كما دل تورده وجهه الناطق

بقرط سروره ، وخفقان قلبه المتتابع بيهجة مفاجئة ، فجعل ينصت

الى اخيه الصغير يعقل تائه وعينين اقلقهما استراق النظر ، وهي

تترامى تارة وتحتجب أخرى ، او يبدو بعضها ويغيب بعضها ،

كيفما اتفق موقفها من الثياب والملاءات المنشورة .. كانت فتاة

متوسطة القامة صافية البشرة مع ميل الى البياض ، سوداء

العينين ، تنطق مقلتها بنظرة تفيض حياة وخفة وحرارة ، الا

ان حالها وعاطفته المتوترة واحساسه بالظفر لرؤيتها لم تستطع ان

تمحو القلق الذي يدب وراء قلبه - وانما حين حضورها تم قويا

اذا خلا الى نفسه - لجراتها على التعرض لعيه كانه ليس بالرجل

الذي ينبغي ان تتوارى فتاة مثلها عن عينيهِ ، او كانه فتاة لاتبالي

التعرض للرجال ، وطالما سأل نفسه ما بالها لاتفرغ مولية كخديجة

او عائشة لو وجدت احدهما نفسها في مثل موقفها ! اي روح

عجيب يشد بها عن التقاليد المرعية والاداب المقدسة ! ، والا يكون

اهذا جانباً لو بدامننا ذلك الاحتشام المفقود ولو على حساب سروره

الذي يفوق الوصف برؤيتها !.. بيد انه دأب على اتحال

الاعذار لها من قدم الجوار ووحدة النشأة ، وربما الوداد ايضا .

ثم لا يفتأ وراء نفسه يحاورها ويجادلها حتى تخشع وترضى .

ولما لم يكن حريش كحراتها فقد جعل يختلس من الأسطح المجاورة

النظر ليطمئن الى خلوها من الرقيب لانه لم يكن مما يغض الطرف

عنه ان يجرح شاب في الثامنة عشرة حرمة الجيران ، وخاصة من

كان منهم في طيبة جارهم السيد محمد رضوان ولهذا أقلقه دائما

شعوره بخطورة فعلته ، وخوفه من ان يترامى نباحها الى ابيه

فتكون الطامة . ولكن استهانة الحب بالخاوف عجب قديم فلم يقدر

شيء منها على افساد نشوته او انتزاعه من حلم ساعته ، فمضى يراقبها وهي تبدو أو تختفى حتى خلا ما بينه وبينها وباتت تواجهه ويداهما الصغيرتان ترتفغان وتنخفضان وأصابعهما تنقبض وتنسبط على مهل وتؤدة كأنها تعتمد اطالة عملها وحسد قلبه ذاك الاعتماد وهو بين الشك والتمنى ولكنه لم يقتصد في الانطلاق مع فرحته الى ابعد الافاق حتى استحال بظنه رقصا وانغاما ، ومع انها لم ترفع عينها اليه قط الا ان هيئتها وتورد وجنتيها وتحاميهما النظر اليه تمت جميعا عن شدة احساسها بوجوده او انعكاس وجوده على احساسها . وبدت في هدونها وصمتها موفورة الرزاة كأنها ليست هي التي تشيع الفرح والبهجة في بيته اذا زارت شقيقته ، او ليست هي التي يعلو صوتها في جنبات الدار وترن ضحكاتها ، هنالك يقبع وراء باب حجرته وكتابه في يده استعدادا للتظاهر بالاستذكار اذا طرقة طارق ، ويروح يستقبل بوعيه المركز انغامها الناطقة والضاحكة بعد استخلاصها من اصوات الآخرين الملبسة لها التي لا يكاد يشعر بها كأنها وعيه مغناطيس يجذب اليه الصلب وحده من بين اخلاط شتى ، وربما لم يخطب بعضا منها وهو يعبر الصلاة ، وربما التقت عيناهما في لحظة خاطفة ولكنها كافية لاشكاره واذهاله كأنه تلقى بها رسالة خطيرة دارت رأسه بخطورتها ، وملا بنظرانه المسترق من وجهها عينيه وروحه ، فعلى الرغم من انها كانت نظرات مسترقة خاطفة الا انها مستاثرة بروحه واحساسه فكانت شديدة النفاذ والقوة تأتي النظرة منها بما لا يستطيع النظر الطويل والسبر العميق ، كأنها اثناق البرق الذي يتوهج لحظة قصيرة فتضيئ شرارته الرحاب وتخطف الابصار ، وتمل قلبه بسرور مسكر عجيب ولكنه لم يخل - كحالها ابدا - من ظل أسى يتبعه كما تتبع رياح الخمسين مشرق الريح ، لانه لم يكن يكف عن التفكير في الاربعة الأعوام التي يتم تعليمه فيها ، والتي لا يدري كم تمن يد قد تمتد في اثناها الى الثمرة

الناضجة لتقطفها . ولو كان جو البيت غير هذا الجو الخائق الذي تشد على عنقه قبضة آية الحديدية لأمكنه أن يلتمس الى سلام قلبه أقصر السبل ، ولكنه خاف دائما أن ينفس عن آماله فيعرضها لرجرة من آية قاسية تطيرها وتبددها . وتساءل وهو يمدبصره فوق رأس أخيه ترى أى أفكار تدور برأسها ؟ . الا يشغله حقا الا ما تجمع من قطع الملابس ؟ . ألم تشعر بعد بما يجذبه الى موقفه هذا مساء بعد مساء ؟ . وكيف يلقي قلبها هذه الخطى الجريئة من ناحيته ؟ . وتخيل نفسه متخطيا سو السطوح الى مكانها في الظلام ، وتخيلها على اطوار شتى تارة تنتظره على ميعاد ، وتارة تباغت بمقدمه حتى تهم بالفرار ، ثم تصور ما يكون بعد ذلك وما يندعنه من بوح وشكوى وعتاب ، ثم ما قد يستتبعه هذا أو ذاك من عناق وقبل ، بيد انها كانت محض تخيلات وأوهام ، وكان أدري الناس - بما جبل عليه من دين وآداب - بطلانها ومحالها . وبدا الموقف صامتا الا انه كان صمنا مكهريا يكاد ينطق بغير لسان ، وحتى كمال لاحت في عينيه الصغيرتين نظرة حائرة كأنه يسأل نفسه عن معنى هذا الجد القريب الذي يثير استطلاعها على غير جدوى ، ثم نفذ صبره فرفع صوته قائلا :

- لقد حفظت الكلمات . الا تسمعها لي ؟

وأفاق فهمي على صوته فتناول الكراسة منه ومضى يسأله عن معاني الكلمات والآخر يجيب حتى وقعت عيناه على كلمة عزيزة وجد بينها وبين ما كان فيه سببا وأى سبب فرفع صوته عمدا وهو يسأله عن معناها قائلا :

أ- قلب .. ؟

وأجاب الغلام وتهجى والآخر يتلمس اثر موقع الكلمة من وجهها ، ثم رفع صوته مرة أخرى متسائلا :

ب- حب .. ؟

وارتبك كمال قليلا ثم قال بصوت يدل على الاعتراض :

- ليست هذه الكلمة في الكراسة ..

قال فهمي باسم :

- ولكنني ذكرتها لك مرارا ، وكان يجب أن تحفظها !..

وقطب الفلام كانه يشد قوس حاجبيه لاصطياد الكلمة الهاربة ولكن اخاه لم ينتظر نتيجة محاولته وواصل امتحانه بنفس الصوت المرتفع قائلا :

- زواج ..

وخيل اليه عند ذاك انه لمح على شفقتها شبه ابتسامة فتوالت ضربات قلبه في سرعة وحرارة ، وملاه شعور بالظفر لانه أمكنه أخيرا أن ينقل اليها شحنة من الكهرباء التي تستمر في صدره ، بيد انه تساءل لماذا يا ترى لم تفصح عن تأثرها الا عند هذه الكلمة ، الاتها استنكرت سابقتها أم أن الأخيرة كانت أول ما وعث أذناها ؟!.. وما يدرى الا وكمال يقول محتجا بعد أن أعياه التذكر :

- هذه الكلمات صعبة جدا ..

وآمن قلبه بقولة أخيه البريئة ، وذكر على ضوئها حاله ففترت فورة سروره أو كادت ، وهم بالكلام ولكنه رآها انحنت على السلة ثم حملتها واتجهت نحو السور الملاصق لسطح بيته ووضعتها عليه وراحت تضغط الفسيل براحتيها ، قريبة من موقفه لا يفصلها عنه الا ذراعان ، ولو شاءت لاختارت موقعا آخر من السور ولكن كأنها تعمدت أن تتصدى له وجها لوجه ، فبدت في هجومها جريئة لحد أخافه وأربكه ، وإن عاود قلبه الخفقان السريع الحار حتى شعر بأن الحياة تبيع له من كنوزها لونا جديدا لم يدره ، لطيفا بهيجا مفعما حيوية وأفراحا . ولكن وقفها القريبة لم تطل فما لبثت أن رفعت السلة بين يديها واستدارت مولية صوب باب السطح حتى مرقت منه وغابت عن ناظره . وجعل ينظر الى الباب مليا دون مبالاة بأخيه الذي عاود التشكى من صعوبة الكلمة ثم شعر برغبة في الانفراد لتملى ما استجد من تجارب الهوى فقلب عينيه

في الفضاء في تظاهر بالدهشة كأنما ينسبه الى الظلمة الزاحفة في الأفق لأول مرة ، وتمتم قائلا :

- آن لنا أن نعود ..

- ١١ -

وكان كمال يستذكر دروسه في الصلاة ، تاركا حجرة الاستذكار لفهمي وحده ، ليكون غير بعيد عن مجلس أمه وأختيه . وكان ذلك المجلس امتدادا لمجلس القهوة الا انه يقتصر على النسوة وحديثهن الخاص الذي يجدن فيه على تفاهته متعة لا تدانيها متعة ، وقد جلسن كمادتهن متلاصقات كأنهن جسم واحد ذو رءوس ثلاثة في حين تربع كمال على كنية أخرى قبالتهن فاتحا كتابه في حجره يقرأ فيه حيناً ، ويقمض عينيه ليحفظ عن ظهر قلب حيناً آخر ، ويتسلى بين هذا وذاك بالنظر اليهن والاصغاء لحديثهن . ولم يكن فهمي يوافق على استذكاره لدروسه بعيدا عن مراقبته الا على كره ولكن تفوق الفلام في المدرسة شفع له في اختيار المكان الذي يحب أن يستذكر فيه . والحق كان اجتهاده فضيلته الوحيدة التي تحمد له ، ولولا شقاوته لاستحق عليها تشجيع أبيه نفسه ، ولكنه على اجتهاده وتفوقه كانت تلم به ساعات ملل فيضيق بالعمل والنظام حتى ليفيط أمه وأخته على خلو بالهن وما يحظين به من راحة وسلام ، وربما تمنى فيما بينه وبين نفسه لو كان حظ الذكور في هذه الدنيا كحظ النساء الا أنها كانت ساعات عابرة فلم تستطع أن تنسيه ما يتمتع به من مزايا دفته في احايين كثيرة الى التناول عليهن بالفخر والمباهاة لداع ولغير ما داع فلم يكن من النادر أن يسألن وفي صوته رنة التحدي « من منكن تعرف

عاصمة الكتاب ؟ » أو « ما معنى شاب بالإنجليزية ؟ » فيجد من عائشة صمتا لطيفا على حين تقر له خديجة بجهلها ثم تعرض به قائلة « ليس لهذه الطلاس الا من كان له رأس كراسك ! » أما أمه فتقول له في ايمان ساذج « لو علمتني هذه الأشياء كما تعلمني الديانة لما قصرت فيها دونك » . ذلك ان أمه - على استكانتها ورقتها - كانت شديدة الاعتزاز بثقافتها الشعبية المتوارثة عن اجيال متعاقبة منذ القدم ، ولم تكن تظن انها بحاجة الى مزيد من العلم أو أنه استجد من العلم ما يستحق أن يضاف الى ما لديها من معارف دينية وتاريخية وطبية ، وضاعف من ايمانها بها انها تلقته عن أبيها أو في بيته الذي نشأت فيه ، وكان الأب شيخا من العلماء الذين فضلهم الله - لحفظهم القرآن - على العالمين ، فلم يكن معقولا أن تعدل بعلومه علما ولو لم تجهر برأيها اشارة للسلامة . ولهذا كثيرا ما أساءت الظن ببعض ما يقال للأبناء في المدارس ووجدت ثمة حيرة شديدة سواء في تفسيره أو في الساج بتلقيه للناشئين . بيد انها لم تنشر باختلاف يذكر بين ما يقال للغلام في المدرسة عن أمور الدين وبين ما لديها منها ، ولما كان الدرس المدرسي لا يكاد يتسع الا لقراءة السور وتفسيرها وتبيين المبادئ الدينية الأولية فقد وجدت متسعا لقص ما عندها من أساطير لا تنفصل في اعتقادها عن حقيقة الدين وجوهره بل لعلها رأت فيها دائما حقيقة الدين وجوهره ، وجلها معجزات وكرامات عن النبي والصحابة والأولياء ، وتعاوذة شتى للوقاية من المفاريت والزواجف والأمراض فصدقها الغلام وآمن بها ، لأنها صادرة عن أمه من ناحية ، ولأنها جديدة في موضوعها فلم تتعارض مع معارفه الدينية المدرسية من ناحية أخرى . فضلا عن هذا وذاك فلم تكن عقلية مدرس الديانة كما تكشف في تبسطه في الحديث أحيانا - لتختلف عن عقلية أمه كثيرا أو قليلا ، ثم أنه شغف بالأساطير شغفا لم يظفر بمثله في الدروس الجافة فكان درس أمه من أسعد ساعات اليوم وأحفلها

بالمثقة والخيال . أما فيما عدا الدين فلم يكن النزاع نادرا اذا تهيت أسبابه ، من ذلك أتهما اختلعا مرة عن الأرض وهل هي تدور حول نفسها في الفضاء أو تنهض على رأس نور ، ولما وجدت من الغلام اصرارا تراجمت متظاهرة بالتسليم ، ولكنها تسللت الى حجرة فهمي وسألته عن حقيقة الثور الذي يحمل الأرض وهل ما زال على عهده بحملها . ورأى الشاب أن يترفق بها ويجيبها باللغة التي تحبها فقال لها ان الأرض مرفوعة بقدرة الله وحكمته ، وعادت المرأة قانعة بهذا الجواب الذي سرها وان لم يمح من مخيلتها ذاك الثور الكبير . على أن كمال لم يؤثر هذا المجلس لاستدكاره رغبة منه في الفخر بعلومه أو حبا في النزاع الفكري ، كان في الحق يحب بكل قلبه ألا يفارقهن ولو في وقت عمله ، وكان يجد لمرأته سرورا لا يعادله سرور . فهذه الأم يحبها أكثر من أي شيء في الدنيا ولا يحتمل تصور الوجود بدونها لحظة واحدة ، وهذه خديجة وهي تلعب في حياته دور أم أخرى رغم سلاطة لسانها ووخر مزاحها ، وهذه عائشة التي وان لم تتحسس يوما لخدمة انسان الا انها أحبته حبا عظيما فبادلها حبا يحب حتى كان لا يشرب جرعة الماء من القلة الا اذا دعاها للشرب قبله ليضع شفتيه موضع شفتيها المبتل بريقها . ومضت الجلسة كما تمضي كل ليلة حتى قاربت الساعة الثامنة فقامت الفتاتان وودعتا أمهما وذهبتا الى حجرة تومهما ، وعند ذلك عجل الغلام بقراءة درسه حتى فرغ منه ثم تناول كتاب الديانة وانتقل الى جانب أمه على الكنية المقابلة له وهو يقول لها بصوت ينم عن الاغراء :

- استمعنا اليوم الى تفسير سورة عظيمة ستعجبك جدا ..
 فاستوت المرأة في جلستها وهي تقول باحترام واجلال :
 - كلام ربنا عظيم كله ..

وسره اهتمامها وهزه شعور بالقبطة والعزة لا يجده الا حين هذا الدرس الأخير من اليوم : أجل كان يجدي هذا الدرس الذي

أكثر من سبب للسعادة ، فانه يقوم في أثناء نصفه على الأقل بدور المدرس ، ويحاول ما استطاع أن يستعيد ما يعلق بذاكرته من هيئة مدرسه وحركاته وما يتمثله فيه من احساس بالاستعلاء والقوة ، وانه يستمتع في نصفه الآخر بما تلقى عليه امه من ذكريات واساطير ، وانه يستأثر وحده في شطريه بامه دون شريك . ونظر كمال في الكتاب فيما يشبه الادلال ثم قرأ « بسم الله الرحمن الرحيم . قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرأنا عجبا . يهذى الى الرشد فأمنا به ولن نشرك بربنا أحدا » حتى اتم السورة ولاح في عيني الأم التردد والحيرة ، اذ كانت تحذره من التفوه باسمى العفريت والجن درءا لشرور تذكر بعضها على سبيل التخويف وتمسك عن البعض اشفاقا ومبالغة في الحيلة ، فلم تدر كيف تتصرف وهو يتلو أحد الاسمين الخطيرين في سورة شريفة ، بل لم تدر كيف تحول بينه وبين حفظها او ماذا تفعل لو دعاها كالعتاد الى حفظها معه . وقرأ الفلام في وجهها هذه الحيرة فداخله سرور مأكبر ، وجعل يبدأ ويميد ضاغطا على مخارج الاسم الخطير وهو يلحظ حيرتها متوقعا أن تفصح أخيرا عن اشفاقها في لون من ألوان الاعتذار ، ولكنها على شديد حيرتها لا ذت بالصمت فمضى بعيد عليها التفسير كما سمعه حتى قال :

— ها أنت ترى أن من الجن من استمع الى القرآن وآمن به ، فعمل سكان بيتنا من هؤلاء الجن المسلمين والا ما «بقوا علينا طوال هذا العمر .

فقلت المرأة في شيء من الضيق :

— لعلهم .. ولكن من الجائر أن يكون بينهم غيرهم ، فيحسن بنا ألا نردد أسماءهم ..!

— لا خوف من ترديد الاسم .. هكذا قال مدرستا ..

فحدثته المرأة بنظرة متاب وقالت :

— المدرس لا يعرف كل شيء !
— وان كان الاسم ضمن آية شريفة ؟
وشعرت حيان تساؤله بقهر ولكنها لم تجد بدا من أن تقول :
— كلام ربنا بركة كله .
واقنع كمال بهذا القدر ثم واصل حديثه عن التفسير قائلا :
— ويقول شيخنا أيضا أن أجسامهم من نار !
وبلغ بها القلق غايته فاستعازت بالله ويسمى عدة مرات ، اما كمال فاستطرد قائلا :
— وسألت الشيخ هل يدخل المسلمون منهم الجنة فقال نعم فسألته مرة أخرى كيف يدخلونها بأجسام من نار فأجابني بحدة قائلا ان الله قادر على كل شيء ..
— جلت قدرته ..

فرنا اليها باهتمام ثم تساءل :

— واذا التقينا بهم في الجنة ألا تحرقنا نارهم ؟!

فابتسمت المرأة وقالت في ثقة وإيمان :

— ليس فيها أذى أو خوف ..

وسرح الفلام بعينيه حالما واذا به يسأل مغبرا مجرى الحديث فجأة :

— أنرى الله في الآخرة بأعيننا ؟

قالت المرأة بنفس الثقة والإيمان :

— هذا حق لا ريب فيه ..

فلاحت في نظراته الحاملة أشواق كما تلوح في الغلس بتأثير الضياء ، وسأله نفسه متى يرى الله ، وفي أى صورة يتبدى ، واذا به يسأل امه مغبرا مجرى الحديث فجأة مرة أخرى :

— أخاف أبى الله ؟!

فتولتها الدهشة وقالت في انكار :

- يا له من سؤال غريب !! أبوك رجل مؤمن يا بنى ،
والمؤمن يخاف ربه ..

فهز رأسه في حيرة وقال بصوت خفيض :

- لا أتصور أن أبى يخاف شيئا ..

فهتفت المرأة في عتاب :

- سامحك الله .. سامحك الله ..

واعتمد عن قوله بابتسامة رقيقة ، ثم دعاها الى حفظ السورة الجديدة ، وراحا يتلوانها آية آية ويعيدان . ولما استفرغا جهدهما نهض الفلام ليذهب الى حجرة النوم فتبعته حتى اندس تحت الغطاء على فراشه الصغير ، ثم وضعت راحتها على جبينه وتلت آية الكرسي ، وانحنى فوقه وطبعت قبلة على خده فأحاط عنقه بذراعه ورد بقبلة طويلة صادرة من اعماق قلبه الصغير . وكانت تلقى دائما صعوبة في التخلص منه عند توديعه مساء لانه كان يبذل كل حيلته ليستبقيا الى جانبه أطول مدة ممكنة ان لم يفر باستبقائها حتى يغيب في نومه وهو بين ذراعيها ، ولم يجد وسيلة لبلوغ غايته خيرا من أن يطلب اليها أن تتلو على رأسه - اذا ختمت آية الكرسي - سورة ثانية ثم الثالثة ، حتى اذا آس منها ابتسامة اعتذار توصل اليها ممتلا بخوفه من وحدته في الحجرة أو بما يترامى له به من أحلام مزعجة لاتدفعها الا تلاوة طويلة للسور الشريفة ، وربما تمادى في تشبثه بها الى حد تصنع المرض ، غير واجد في تحايله هذا جورا ، بل رآه عن يقين ممارسة منقوصة لحق من حقوقه المقدسة التي هضمت أنقطع الهضم يوم فصل عن أمه ظلما وعدوانا وجيء به الى هذا الفراش المفرد بحجرة إخويه . كم يذكر مع الحسرة عهدا غير بعيد من ماضيه حين مضجعهما كان واحدا ، وحين ينام متوسدا ذراعها وهي تسكب في أذنه بصوتها الرقيق قصص الأنبياء والأولياء ، وحين النوم يغشاه قبل رجوع أبيه من سهرته ، وينحصر عنه بعد نهوض الرجل الى الحمام ، فلم يكن

يرى مع أمه ثالثا ، وكانت الدنيا له بلا شريك . ثم بقضاء أعمى لم يدرك له حكمة فرقوا بينهما ، وتطلع اليها ليرى أثر نفيه في نفسها فما عجب الا بتشجيعها الموحى بموافقتها وتهنئتها له قائلة « الآن صرت رجلا فمن حقا أن يفرد لك فراش خاص » ، من قال انه ينهره ان يكون رجلا أو أنه يطمح الى ان يفرده له فراش خاص !! ومع انه بلبل أول وسادة خاصة له بدمعه ، ومع انه أنذر أمه بأنه لن يعفو عنها مدى الحياة ، الا أنه لم يجرؤ على التسلل الى مضجعه القديم لانه كان يعلم ان وراء تلك الحركة الجائرة الفادرة تجتم ارادة أبيه التي لا ترد . ولشد ما حزن حتى رسبت عكارة الحزن في أحلامه ، ولشد ما حنق على أمه - لا لانه لم يسهه أن يحنق على أبيه فحسب - ولكن لانها كانت آخر من يتصور ان يخيب عنده الأمل ، بيد انها عرفت كيف تسترضيه وترده الى الصفاء وريدا ودأبت على الا تفارقه بادی الأمر حتى يوافيه النوم ، وجملت تقول له « لم نفترق كما تزعم ، الست ترائنا معا ؟ وسنبقى دائما معا ، لن يفرق بيننا الا النوم الذي كان يفرق بيننا ونحن في فراش واحد » . والآن لم تعد تطفو على شعوره حسرة مما تخلف عن تلك الذكرى ، واستنم الى حياته الجديدة ، بيد أنه لم يكن يلحها تذهب حتى يستنفذ الحيل لاستبقائها الى جانبه أطول مدة ممكنة ، وقد قبض على راحتها في حرص شديد كما يقبض الطفل على لعبته بين أطفال يتخاطفونها وراحت هي تتلو الآيات على رأسه حتى غافله الكرى ، فودعته بابتسامة رقيقة وغادرت الحجرة واتجهت الى الحجرة التالية ففتحت بابها بخفة ونظرت صوب فراش لاح شبحه في جانبها الأيمن وتساءلت في رقة : « نمتها ؟ » فبعضها صوت خديجة وهي تقول :

- كيف يتأتى لى النوم وشخير ست عائشة يملأ على الحجرة !

ثم سمع صوت عائشة وهي تقول في نبرات فاصصة :

— ما سمع أحد لى شخيراً قط ، ولكنها لا تدعى أنام
بشرتها المتواصلة ..

فقلت الأم في عتاب :

— أين وصيتى لكما بأن تكما عن هذركما وقت النوم !
وردت الباب وسارت الى حجرة الاستدكار فطوقت بابها
بخفة ثم فتحت وادخلت رأسها وهى تقول باسمه :

— أفي حاجة الى خدمة يا سيدى الصغير ؟
فرفع فهمى رأسه عن الكتاب وشكرها مشرق الوجه بابتسامة
لطيفة ، فزدت الباب وابتعدت عنه وهى تدعو لفتاها بالفلاح
وطول العمر ، ثم عبرت الصالة الى الدهليز الخارجى وارتقت
السلم الى الدور الأعلى حيث توجد حجرة نوم السيد وصوتها
يسبقها تاليا الآيات ..

- ١٢ -

لما غادر ياسين البيت كان يدرى بطبيعة الحال وجهته التى
يقصد مساء بعد مساء ولكنه بدا — كمعادته دائماً اذا مشى في
الطريق — وكأنه لا وجهة له . كان شأنه اذا سار ان يسير متمهلاً
في هواده ورفق ، مختالاً في عجب وزهو ، كأنه لا يفغل لحظة واحدة
عن أنه صاحب هذا الجسم العظيم وهذا الوجه الفاض حيوية
وفحولة ، وهذه الملابس الأنيقة الآخذة حظها — وأكثر — من
العناية الى منشة عاجية لا تفارق يده صيفا أو شتاء ، وطربوش
طويل مائل بمئة حتى يكاد لمس حاجبه ، ومن عادته أيضاً اذا سار
أنه كان يرفع عينيه — دون رأسه — مستطلعا ما وراء النوافذ
لعل وعسى ، فلم يكن يقطع طريقاً حتى يشعر في نهايته بما يشبه

الدوار من كثرة تحريك عينيه ، اذ كان ولعه بالتهام النسوة اللاتي
يصادفنه داء لا شفاء منه ، فهو يتفحصهن مقبلات ويتبع عينيه
اردافهن مدبرات ، ويظل في قلقه كثور هائج حتى ينسى نفسه
فلا يعود يتدبر مداراة مقاصده ، الأمر الذى تنبه له مع الزمن
عم حسنين الحلاق والحاج درويش بائع الفول والفولوى اللبان
وبيومى الشربلى وأبو سريع صاحب المقلّى وغيرهم فعملهم من
حملة محمل الدعابة ومنهم من اخذه مأخذ الانتقاد لولا أن الجيرة
ومنزلة السيد أحمد عبد الجواد شفعتا له بالاعتفاء والتسامح .
كانت حيويته من العنف بحيث ملكت عليه فراغه كله ، فلم تدع
له وقتاً يستريح فيه من استفزازها ، وشعر دائماً بالسنتها تلهب
حواسه ووجدانه ، وكأنها عفريت يركبه ويوجهه حيث يشاء ، بل
بيد أنه عفريت لم يخفه أو يضيق به ، ولم يود الخلاص منه ، بل
لعله رام منه المزيد . ولكن سرعان ما توارى عفريته واستحال
ملاكاً لطيف حين اقترب الشاب من دكان أبيه ، هناك أغضى طرفه
واستقامت مشييته ، وتحلى بأدب وحياء ، وحث خطاه لا يلوى
على شيء ، ولما مر بباب الدكان التفت الى داخله فرأى خلقاً
كثيرين ولكنه التقى بعينى أبيه وهو جالس وراء مكتبه فانحنى
في اجلال رافعا يده الى رأسه في أدب ، فرد الرجل تحيته مبسماً ،
ثم استأنف مسيره مسروراً بهذه الابتسامة كأنما حظى بنعمة نادرة
المثال . والحق أن عنف أبيه المهود ، ونو أنه اعتوره تغير ملموس
منذ أن انخرط الفتى في سلك موظفى الدولة الا أنه لم يزل في
نظره نوعاً من العنف اللطيف بالكياسة ، فلم يزايل الموظف خوفه
القديم الذى ملأ قلبه وهو تلميذ ، ولم يفارقه شعوره بأنه ابن
وإن الآخر الأب ، وما فتىء يتضاؤل بمحضه على ضخامته كأنما
يستحيل عصفورة يرعشها وقع الحصاة . وما ان ابتعد عن دكان
أبيه وصار بمنجى من عينيه حتى استرد خيلاءه وعادات عيناه
الى الذبذبة غير مفرقة بين الهوانم وبائعات الدوم أو البرتقال ، اذ

كان العفريت الذى يركبه مولعا بالنساء كافة ، متواضعا يستوى عنده الرفيع والوضيع منهن . فبائنات الدوم والبرتقال - على سبيل المثال - وان شابهن الأرض التى يقتعدها لونا وقدارة لا يخلين أحيانا من ميزة حسن ، كشديين ناهدين أو عنيين مكحولتين وماذا يروم غير هذا ؟! .. ثم اتجه صوب الصاغة ومنها الى الغورية ، ومال الى قهوة سى على على ناصية الصنادقية ، وكانت شبه دكان متوسطة الحجم يفتح بابها على الصنادقية وتطل بكوة ذات قضبان على الغورية وقد اصطف بأركانها الأرائك . واتخذ مجلسه على أريكة تحت الكوة - مجلسه المختار منذ أسابيع - وطلب الشاى . جلس بحيث يوجه بصره في سر ودون إثارة ظن الى الكوة ، ومنها يصعده كلما يشاء الى نافذة صغيرة في بيت على الجانب الآخر للطريق ، لعلها كانت الوحيدة بين النوافذ المغلقة التى لم يعن باحكام اغلاق خصاصها ، ولا عجب فقد كانت تابعة لمسكن زبيدة « العالة » ولم تكن « العالة » مطمح فدون هذا مراحل من المجون عليه أن يجتازها في صبر وأناة ، ولكنه راح يرصد ظهور زنوبة العوادة ربيبة « العالة » ونجمة تختها اللامعة . وكانت فترة توظيفه بالحكومة عهدا حافلا بالذكريات جاءه بعد طول نقشف اجبارى عاناه محاذرا في ظل أبيه الرهيب ، فانطلق من ثمة كالشلال يتحدر في مهاوى الازبكية على ما لاقى من مضايقات الجنود الذين قدفتهم عجلة الحرب الى القاهرة ، ثم ظهر في الميدان الاستراليون فاضطر الى التخلي عن مغائى العبث فرارا من وحشيتهم وضاقته به السبيل فمضى يتقلب في أزقة حيه كالمجنون وأقصى ما يطمع فيه من لذة بائعة برتقال أو عجرية ممن يقرآن الطالع ، حتى رأى يوما زنوبة فتبعها مذهولا الى موطنها ، ثم تعرض لها مرة بعد مرة ولا يكاد يظفر منها بما يبل صدره . كانت امرأة وكل امرأة عنده رغبة ، بيد أنها كانت الى هذا ذات حسن فهوسته ، وليس الحب لديه الا تلك

الشهوة العمياء أو هذه الشهوة المبصرة وهى أسمى ما عرف من الوانه . وجعل يمد بصره خلال القضبان الى النافذة الخالية في جزع وقلق أنسياء نفسه فحسا الشاى الساخن دون أن ينتبه الى سخونته الا وهو يزدرده وراح ينفخ متألما ، ثم أعاد القدح الى الصينية الصفراء مسترقا النظر الى السمار الذين أزعجته اصواتهم المرتفعة كأنما هى المسئولة عن لسعته أو أنها السبب في عدم ظهور زنوبة بالنافذة . . « ترى أين الملعونة ؟ .. أتتعمد الاختفاء ! .. من المحقق أنها تعلم بوجودى هنا .. ولعلها رأتنى قادمة .. فاذا اصطنعت التدلل الى النهاية ألحقت هذا اليوم بآيامي المحرقة » . وعاود استراق النظر الى الجلوس ليرى هل يلاحظه احد منهم ولكنه وجدهم جميعا منهمكين في أحاديثهم التى لا تنتهى ، فداخله ارتياح وأرجع بصره الى الهدف المرموق ، بيد أنه اعترضت تيار أفكاره ذكريات عن متاعب اليوم التى صادفته في المدرسة اذ شك الناظر في امانة متعهد اللحوم فقام بتحقيق اشتراكه فيه بوصفه كاتب المدرسة ، ثم بدا منه شيء من التراخى في عمله حمل الناظر على نهره مما نقص عليه صفوه بقية اليوم وجعله يفكر في أن يشكو الناظر الى أبيه - وهما صديقان قديمان - لولا خوفه أن يجد أباه أشد عليه من الناظر . . « اطرح عنك هذه الأفكار السخيفة .. انتهينا من المدرسة والناظر عليهما اللعنة .. حسبي الآن ما الاقى من القارحة بنت القارحة التى تبخل علينا بنظرة » وإذا بأحلام عارية تشال على خياله ، أحلام كثيرا ما تمثل على مسرح أوهامه وهو يرنو الى امرأة أو يسعيد ذكراها ، تخلقها عاطفة هوجاء تنزع عن الأجساد اغطيبتها وتجلوها عارية كما خلقها الله غير مستتنية جسده هو ، ثم تمضى في فنون من العبث لا عاصم لها ، ولكنه ما كاد يستنيم الى هذه الأحلام حتى انتبه على صوت حوذى وهو يصيح على حماره « يس » فرمى ببصره ناحية الصوت فرأى عربة كارو تقف أمام بيت العالة . وتساءل ترى أجبأت

العربة لتحمل أفراد التخت الى فرح من الأفراح ؟ .. ونادى صبي
القهوة ودفع اليه الحساب متاهبا لمقادرة المكان في أية لحظة اذا دعا
داع .. ومضت فترة انتظار وترقب ثم فتح باب البيت وبرزت
امراة من نسوة التخت وهى تجر رجلا أعمى مرتديا جلبابا ومعطفا
وعيونات سوداء ومتابعا القانون ، وصعدت المرأة الى العربة
وتناولت القانون ثم أخذت بيد الأعمى ، وأعانته الخوذى من ناحية
أخرى حتى لحق بالمرأة وجلسا متجاورين في مقدمة العربة .
وتبعتهما على الأثر امرأة ثانية تحمل دفا ، ثم تالثة متابطة صرة ،
وقد تبدين في ملاءتهن اللف سافرات ، كاسيات - بدلا من البراقع
- بأقنعة من زواق فاقع الألوان جعلهن بعرائس المولد أشبه .
ثم ما هذا ! .. رأى يبصر شقيق وقلب خافق العود وهو يبرز من
الباب في جرابه الأحمر .. وأخيرا بدت زنوبة وقد انحسرت طرف
ملاءتها عند أعلى الرأس عن مندبل قمرى ذى إهداب منعمة ،
لمعت تحته عينا سوداوان ضاحكتان تنفت نظرتهما لعبا وشيطنة .
واقتربت من العربة ومدت يدها بالعود فتناولته امرأة ، ثم رفعت
قدما الى أعلى العجلة فاشرب ياسين بعنقه وهو يزدرد ريقه فلمح
ثنية الجورب معقودة فوق الركبة على أديم بدا منه صفاء عذب
خلال إهداب فستان يرتقالى .. « آه لو تفووس بى الأريكة في
الأرض مترا .. رباه .. ان وجهها أسمر ولكن لحمها المكنون
أبيض .. أو شديد الميل للبياض .. فكيف يكون الورك ! ..
وكيف يكون البطن ! .. البطن ياهوه .. » وثبتت زنوبة راحتها
على سطح العربة وتحاملت عليهما حتى حطت ركبتها على حافة
العربة ثم مضت تتحرك رويدا على أريع .. « يا لطيف .. يا لطيف
.. آه لو كنت على باب البيت .. أو حتى في دكان محمد الطرابيشى
.. انظر الى ابن الكلب كيف يحمل في الطابية بعينه .. ما أجدر
أن يسمى نفسه منذ اليوم محمد الفاتح .. يا لطيف .. يا منقذ .. »
وأخذ ظهرها يستقيم حتى نهضت واقفة على سطح العربة ،

وفتحت الملاءة وقبضت على طرفيها وجعلت تهزها بيديها هزات
متتابعات كأنها طائر يخفق بجناحيه ، ثم لفتها حول جسمها لفة
محكمة وشت بدقائق تقاطيعه وتفاصيله وأبرزت - خاصة -
عجيزة مدملجة رقراقة ، ثم جلست عند مؤخرة العربة فتكور
ردفها تحت الضغط متبلورا ذات اليمين وذات اليسار فنعم
الوسادة .. ونهض ياسين وغادر القهوة فوجد العربة قد تحركت
فتبعها متمهلا وهو يلثث ويصر على أسنانه من شدة الانفعال .
وراحت العربة تسير سيرتها المتمهلة المتراخية المتمايلة والنسوة
وعلى سطحها يتأرجحن معها يمنة ويسرة فركز الشاب عينيه في
وسادة العوادة ، يذهب معها ويحيى حتى خالها بعد حين ترقص
وكانت الظلمة قد بدأت تغشى الطريق الضيق وأخذت كثرة من
الدكاكين تغلق أبوابها ، ^{لأن} أغلبية المارة كانت من جمهور العاملين
العائدين الى بيوتهم منهوكى القوى فوجد ياسين بين الظلمة
والجمهور المتعب متسعا لانعام النظر والأحلام في أمن ودعة ..
« اللهم لا تجعل لهذا الطريق من نهاية ، ولا لهذه الحركة الراقصة
من ختام .. يا لها من عجيزة سلطانية جمعت بين العجرفة واللفظ
يكاد البائس مثلى يحس بطراوتها وشدهتها معا بالنظر المجرد ..
وهذا الفرق العجيب الذى يشطرها تكاد تنطق الملاءة عنده ..
وما خفى كان أعظم .. انى أدرك الآن لماذا يصلى بعض الناس
ركعتين قبل أن يبيى بهروسه .. اليسست هذه قبة ؟ .. بلى
وتحت القبة شيخ .. وانى لمجدوب من مجاذيب هذا الشيخ ..
يا هوه .. يا عدوى .. » وتنحج والعربة تقترب من بوابة المتولى
فالتفتت زنوبة وراعاها وراثة . ثم خيل اليه ، وهى تعيد رأسها ،
أنه لمح على شفيتها بشير ابتسامة فدق قلبه في عنف وسرت في
وجدانه سكرة سرور ملتهب . ومرقت العربة من بوابة المتولى ثم
مالت الى اليسار ، وهناك اضطر الشاب الى التوقف عن متابعتها
لأنه رأى عن كتب معالم زينات وأنوار وجمهورا مهلا فتراجع قليلا

وبصره لا يفارق العوادة ، وجعل يراقبها بنهم وهى تنزل على الأرض ، وهى ترمى ناحيته بنظرة عابثة ، ثم وهى تتجه الى بيت العروس حتى واراها الباب فى ضجة من الزغاريد . وتنهّد تنهدة حامية ، ولفته حيرة حانقة فبدا قلقلها كأنه لا يدري أى وجهة يقصد .. « لعنة الله على الاستراليين ! .. أين أنت يا أزيكية لايتك همى وأشجانى وأنزود منك بشيء من الصبر » .. ثم دار على عقبيه وهو يتمتم « الى العزاء الباقى .. الى كستاكى » ، وما كاد ينطق باسم البدال اليونانى حتى تندى رأسه حينما الى حميا الشراب .. كانت المرأة والخمر فى حياته متلازميتين متكاملتين ، ففى مجلس المرأة عاقر الخمر لأول مرة ، ثم صارت يحكم العادة من مقومات لذته وبواعثها ، بيد أنه لم يتح لهما - المرأة والخمر - أن يتلازما دائما ، وخلت ليال كثيرات من النساء ، فلم يجد بدا من أن يخفف لوعته بالشراب ، ولكرور الأيام واستحكام العادة بات وكأنه المولع بالخمر لذاتها . وعاد من نفس الطريق الذى جاء منه ، وقصد بدالة كستاكى عند رأس السكة الجديدة - حانوت كبير ظاهره بدالة وباطنه حانة يفصل بينهما باب صغير - ووقف عند مدخلها مختلطا بالزبائن ريثما يتفحص الطريق أن يكون أبوه هنا أو هناك ، ثم اتجه صوب الباب الصغير الداخلى ولكن ما كاد يتقدم خطوة حتى لمح فى طريقه رجلا واقفا امام الميزان والحواجة كوستاكى نفسه يزن له لفة كبيرة ، فانجذب رأسه اليه بلا ارادة ، وسرعان ما اكفهر وجهه وسرت فى بدنه رجفة تاسية تقبض لها قلبه خوفا واشمئززا . لم يكن فى مظهر الرجل ما يسبغ هذه العواطف العدائية ، كان فى الحلقة السادسة ، مرتديا جلبابا فضفاضاً وعمامة ، وقد ابيض شاربه وعلاه الكبر والوداعة ، الا أن ياسين واصل سيره مضطربا كأنما يفر قبل أن تقع عليه عينا الرجل ، ودفع باب الحانة بشيء من القوة ثم دخل تكاد تميد به الأرض ..

- ١٣ -

ارتضى على اول مقعد صادفه غير بعيد من الباب وقد بدا خائر القوى ساهما ، ثم دعا النادل وطلب دورق كونياك بنبرات نمت على نغاد صبره . وكانت الحانة بالحجرة اشبه ، تدلى من سقفها فانوس كبير ، وصفت بجنباتها موائد خشبية وكراسى خيزران جلس اليها نفر من اهل البلد والعمال والأفندية ، وتوسط المكان تحت الفانوس مباشرة مجموعة من اصص القرنفل . من عجيب أنه لم ينس الرجل ، وأنه عرفه من النظرة الأولى ، متى رآه آخر مرة ؟ .. لا يستطيع أن يجزم ، ولكن من المحقق أنه لم تقع عليه عيناه فى مدى اثنتى عشرة سنة الا مرتين احدهما التى زلزلته الآن . وقد تغير الرجل ما فى ذلك من شك فغدا شيخا هادئا وقورا ! .. الا سحق الله المصادفة العمياء التى ألقت به فى سبيله . والتوت شفتاه تغززا وامتعاضا وشعر بمرارة الهوان تجرى فى ريقه . يا له من هوان مذل ما يكاد يفيق من دواره القديم بالعناء والعناد حتى تروده اليه ذكرى من الذكريات المعتمة او مصادفة لغينة كالتى حدثت اليوم فيقلب ذليلا منكسرا .. ضائعا . وعلى رغمه حملت عيناه فى الماضى البغيض ، بقوة الهياج المثار فى رأسه وقلبه ، فانشق الظلام عن اشباح شائهة طالما نواشته كرموز للعذاب والكراهية ، فميز من بينها دكان فاكهة يقوم على رأس عطفة قعر الشوق ، وطالعتة صورة غامضة المعالم ، هى صورته وهو صبي . فرآه وهو يحث خطواته المتقاربة الى ذلك الدكان حيث استقبله ذلك الرجل ثم حملة قرطاسا مليئا بالبرتقال والتفاح فتناولوه مسرورا وعاد به الى المرأة التى بعثته وانتظرت . الى أمه دون

غيرها وا اسماء . وانعكست الذكرى على جبينه عبوسة حنق وضيق . ثم استعادت مخيلته صورة الرجل فتساءل جزعا ترى اكان يعرفه لو وقعت عليه عيناه ؟ .. اكان يذكر فيه الصبى الصغير الذى عرفه قديما ابنا لتلك المرأة ؟ .. وفرصته قشعريرة فزع فتخاذل جسمه البادن الفارع وتضائل في حسه حتى استحال لا شيء . وجيء عند ذلك بالدورق والقدح فصب ونهل في نهم وعصبية متعجلا حظ الشاربين من الانتعاش والنسيان . ولكن فجأة تراءى له من أعماق الماضي وجه أمه فلم يتمالك من أن يبصق .
أيهما يلعن : المحظ الذى جعلها أمه أم جمالها الذى شغف كثيرين حبا واحاطه بالكوارث ؟! .. والحق إنه لم يكن بوسعه أن يغير امرا مما قدر عليه ، ولم يكن بوسعه الا أن يدعن للقضاء الذى هرس عزه نفسه ، أفليس من الظلم أن يكفر بعد ذلك عن حكم القضاء كأنه هو الجانى الأثيم ؟! .. ولم يدرك لم أستحق اللعنة ، فالأطفال الذين استقبلوا الدنيا في حضانة أمهات مطلقات مثله غير قليلين ، وعلى خلاف أكثرهم وجد من أمه حنانا غير مشوب وحبا لا يعرف الحدود وتدللا سابغا لا تشكمه رقابة أب فتمتع بطفولة سعيدة قوامها الحب واللين والدمانة . ولا تزال ذاكرته تحتفظ بالكثير من ذكريات البيت القديم بقصر الشوق ، كسطحه الذى يشرف على اسطح لا عداد لها ويرى مآذن وقبابا من نواحيه الأربع ، ومشربته التى تطل على الجمالية حيث تمر ليلة بعد أخرى مواكب الزفاف تضيئها الشموع ويكتنفها الفتوات فينجلى أكثرها عن معارك تستجر فيها النباييت وتسيل الدماء . في ذلك البيت أحب أمه حبا لا مزيد عليه وفيه شاعت في قلبه روح الريبة الغامضة ، وفيه رمى الى صدره بالبذرة الأولى لنفور غريب . نفور ابن من أمه .
التي قدر لها أن تنمو وتستفحل حتى انقلبت مع الزمن كراهية كالداء العضال . وكثيرا ما قال لنفسه أنه ربما كان في وسع الإرادة القوية أن تتيح لنا أكثر من مستقبل واحد ولكننا لن نكون لنا -

مهما أوتينا من ارادة - الا ماض واحد لا مفر منه ولا مهرب .
والآن يتساءل - كما تسأل من قبل كثيرا - متى فطن الى أن أمه لم تكن الشخص الوحيد في حياته ؟! .. بعيد جدا أن يعرف هذا على وجه اليقين ، وما يذكر الا أنه في فترة ما من طفولته دعت حواسه شخصا جديدا كان يطرا على البيت من حين لآخر ، ولعله - ياسين - كان يتطلع اليه بغرابة وشيء من الخوف ، ولعل الآخر بذل ما في وسعه لایناسه وارضائه ، انه يخلق في الماضي على استكراه ونفور شديدين ، ولكنه وجد المقاومة لا تجدى ، كأنما ذاك الماضي دمل يود لو يتجاهله على حين لا تمسك يده عن جسده من آن لآخر . ثم ان هنالك أمورا لا يمكن أن تنسى . ففى مكان ما ووقت بين النور والظلمة وتحت أعلى نافذة او باب مطعم بمثلثات من الزجاج الأزرق والأحمر . . في ذاك المكان يذكر أنه اطلع فجأة - في ظروف قرضها النسيان - على ذلك الشخص الطارئ وهو كأنه يفترس أمه ، فما تمالك أن صرخ من أعماق قلبه وولول ياكيا حتى أقبلت المرأة عليه في اضطراب باد وراحت تطيب خاطره وتسكن نائره . وانقطعت من شدة الامتعاض عند ذاك سلسلة خواطره فقلب عينيه فيما حوله واجما ، ثم صب من الدورق في القدح وشرب ، وقد لمح وهو يعيد القدح الى موضعه نقطة من سائل منداحة فوق طرف جاكته فظنها خمرا وأخرج منديله وأنشأ يدلکها ، ثم خطر له خاطر فتفحص ظاهر القدح فرأى قطرات من الماء عالقة بأسفله فرجح عنده أن ما سقط على سترته ماء لآخمر واسترد طمأنينته ، .. ولكن أى طمأنينة خادعة ! لقد رجعت عيناه الى مرآة الماضى البغيض . لا يذكر متى وقعت الواقعة السالفة ، ولا كم كان عمره حين وقوعها ، ولكنه يذكر بلا ريب أن الشخص المفترس لم ينقطع عن البيت القديم ، وأنه كثيرا ما تودد اليه بما لذ وطاب من ألوان الفاكهة ، ثم كان يراه بعد ذلك في دكان الفاكهة عند رأس المعطة اذا استصحبت أمه معها في

مشوار ، وبسذاجة الاطنال كان يلفت نظرها اليه فكانت تجذبه في عنف بعيدا عنه وتمنعه من الايماء اليه حتى تعلم أن يتجاهله وهو في صحبتها بالطريق ، وازداد الشخص في نظره ابهاما وغموضا ، ثم حذرته من أن يعود الى ذكره أمام خال عجوز كان وقتذاك على قيد الحياة ويزورهم من حين لآخر فاتبع تحذيرها وما يزداد الا حيرة . ولم يقتنع الحظ منه بذلك انقدر فكانت - امه اذا غاب الرجل عن البيت أياما يكون مبعوثا - اليه ليدعوه الى ان يحضر « الليلة » ! وكان الرجل يستقبله بلطف وود ويأله قرطاسا من التفاح والموز . ويحمله موافقته أو اعتذاره كيفما اتفق . ثم بلغ به الحال أنه كان اذا اشتاق الى لذيق الفاكهة استأذن أمه في أن يذهب الى الرجل ليدعوه « الليلة » . ذكر هذا وجبينه يندى خزيا ، ثم نفخ في قهر ، ثم صب وجرع . ورويدا انبعثت الحميا في دمه ، وبدأت تلعب دورها الساحر في معاونته على حمل متاعبه .. « قلت ألف مرة أنه يجب أن ادع الماضي مدفونا في قبره .. لا فائدة .. لا أم لي وحسبي امرأة أبي الرقيقة الطيبة .. كل شيء طيب ما عدا ذكرى قديمة بيدى أن أميتها .. ترى لم أجارى الحاحها على فأبعثها من قبرها حينما بعد حين ! .. لم ؟! .. سوء الطالع وحده الذي رمى بالرجل في طريقى اليوم ولكن مصيره أن يموت يوما .. أود أن يموت كثيرون .. لم يكن الرجل الوحيد .. بيد أن خياله الثائر واصل اسراءه في ظلمات الماضي رغم مقاومته النظرية ولكن على حال أخف توترا . أجل لم يعد في تلك القصة بالذات من بقية طويلة ، ولعلها - هذه البقية - تمتاز بما يضيئها من نور نسبي بعد عبور طور الطفولة المعتم . كان هذا في السنوات القلائل التي سبقت انتقاله الى حضانة أبيه ، وقد وجدت أمه الشجاعة لتصلح له بأن ذلك « الفكهاني » يتروّد عليها طلبا ليدها ، وأنها مترددة في قبوله ، وأنها غالبا سترفض أكراما له ! . ترى اصدق ما قيل له ؟! .. هيهات أن يستوثق من تفاصيل ذكرياته ،

ولكنه كان بلا ريب يشرب للادراك والفهم ، ويعانى نوعا من الريبة الغامضة التي تنكشف للقلب دون العقل ، ويكابد ألوانا من القلق اطار عن هامته حماسة السلام ، فتهيأت في نفسه تربة لتلقى بذرة النور التي صارت مع الأيام الى ماصارت اليه . ثم انتقل في التاسعة من عمره الى حضانة أبيه الذي لم يكن رآه الا مرات معدودة تحاميا للاحتكاك بأمه . انتقل اليه غلاما على الفطرة لم يتلقن من مبادئ العلم كلمة واحدة ، ومضى يكفر عن سيئات التدليل الذي غلته به امه فتلقى التعليم بنفس كارهة وإرادة خائرة ، ولولا شدة السيد وطيبة جو البيت الجديد ما دفع الى النجاح في الابتدائية بعد أن تيف على التاسعة عشرة من عمره . وبنمو عمره وادراكه حقائق الأشياء ، استعرض حياته الماضية في بيت أمه وقلبها على وجوهها ، ملقيا عليها من خبرته الجديدة أنوارا فاضحة فتكشفت له الحقائق ببشاعتها ومرارتها . وكلما تقدم في الحياة خطوة بدا له الماضي سلاحا مسموما منغرسا في صميم نفسه وكرامته . وقد دأب أبوه بادىء الأمر على أن يسأله عن حياته في بيت أمه ولكنه على حداثة سنه ، تحاشى نبش الذكريات المحزنة وغلب كبرياءه الجريح على الرغبة في استشارة اهتمام أبيه وحب الثروة الذي يستهوى أمثاله من الغلمان ، ولزم الصمت حتى ترامى اليه نأيا غريب عن زواج أمه من تاجر فحم بالمبيضة فبكى الغلام طويلا ، واشتد ضغط السخط على صدره حتى فضفض فانطلق يحدث أباه عن « الفكهاني » الذي زعمت يوما أنها رفضت الزواج منه أكراما له ! .. وانقطعت صلته بها من ذلك العهد - منذ احدى عشرة سنة - فلم يعد يدري عنها شيئا الا ما ينقله اليه أبوه من حين لآخر كطلاقها من الفحام بعد انقضاء عامين على زواجها منه ، ثم زواجها من باشجاويش في العام التالي لطلاقها ، ثم طلاقها مرة أخرى بعد حوالي عامين الخ .. الخ . وفي فترة قطيعتها الطويلة سعت المرأة كثيرا الى رؤيته ، فكثرت ترسل الى أبيه من يستأذنه في السماح له بالذهاب

اليها ، ولكن ياسين صد عن دعوتها بآباء ونفور شديدين رغم
نصح أبيه له بالتسامح والعفو . والحق أنه وجد عليها مودة
حامية نابعة من صميم قلب جريح ، فأغلق دونها باب العفو
والغفران وأقام وراءه متاريس حنق وكراهية مؤمنا الى هذا بأنه
لم يظلمها ولكن أنزلها بحيث أنزلتها فعالها .. « امرأة . أجل
ما هي الا امرأة .. وكل امرأة لعنة قدرة .. لا تدري امرأة
ما العفة الا حين تنتفى أسباب الزنا .. حتى امرأة أبى الطيبة ،
الله وحده يعلم ماذا كان يمكن ان تكون لولا ابى ! » وقطع عليه
افكاره صوت رجل علا قائلا « الخمر كلها فوائد ، ومن يقل غير
هذا أقطع رأسه .. الحشيش والمنزول والأفيون كثيرة الضرر ..
اما الخمر فكلها فوائد .. » فتساءل صاحبه « وما فوائدها ؟ »
فقال الرجل مستنكرا « وما فوائدها ! ما أعجب سؤالك ! ..
كلها فوائد كما قلت .. وأنت تعلم هذا وتؤمن به .. » فقال
صاحبه « ولكن الحشيش والأفيون والمنزول مفيدة كذلك فيجب
ان تعلم هذا وتؤمن به .. الناس جميعا يقولون هذا فهل
تخالف الاجماع ؟! » وتريث الرجل قليلا ثم قال « كلها مفيدة
اذن ، الكل ، الخمر والحشيش والأفيون والمنزول وما يستجد ! »
فعاد صاحبه يقول باللهجة تنم عن ظفر « ولكن الخمر حرام ! »
فقال الرجل محتدا « وهل ضاقت السبل ! ، زك .. حج ..
أطعم المساكين .. أبواب التكفير واسعة والحسنة بعشر أمثالها .. »
وابتسم ياسين في شيء من الارتياح ، أجل أمكنه أخيرا ان
يبتسم في شيء من الارتياح .. « لتذهب الى الجحيم ، ولتأخذ
الماضى معها .. لست عن شيء مسئول .. كل انسان ملوث في
هذه الحياة ومن يزح الستار ير عجبا .. شيء واحد يهمنى جدا
هو عقارها . دكان الحماوى وربيع القورية والبيت القديم يقصر
الشوق .. واني أعد امام الله اذا ورثته كاملا يوما ان اترحم عليها
بلا اسف .. آه .. زنوبة .. كدت أنساك وما أنساك الا

الشیطان . امرأة عذبتنى وأمرأة النمس عندها العزاء .. آه
يا زنوبة ، ما علمت قبل اليوم ان باطنك بهذا اللون الرائق ..
اف ينبغي ان أمحو الفكر من رأسى .. الحق أن أمى كالخرس
التائر ، لا يسكن حتى ينخلع .. »

- ١٤ -

جلس السيد أحمد عبد الجواد وراء مكتبه بالدكان تعبت أنامل
يسراه بشاربه الأنيق كشأنه كلما جرفه تيار خواطره ، ويرنو الى
لا شيء بوجه تنم معالمة عن ارتياح ورضى . انه يرضيه بلا ريب
أن يشعر بما يكنه له الناس من حب ومودة ، ولو عرض له من
حبهم دابل كل يوم لأوجد له كل يوم سرورا مشرقا لا يلبيه
التكرار ، وقد وانه اليوم دليل جديد بسبب اضطراره الى التخلف
ليلة الامس عن شهود حفلة انس دعاه اليها أحد الأصدقاء ، فما
استقر به مجلسه بالدكان هذا الصباح حتى وافاه الداعي وبعض
الاخوان من المدعوين وأوسعوه عتابا لتخلفه وحلوه تبعه ما ضاع
عليهم من بهجة وطرب ، ثم قالوا - فيما قالوا - انهم لم يضحكوا
من قلوبهم كما تعودوا ان يضحكوا معه ، ولم يجدوا للشراب لذته
التي يجدون في منادمتة ، وان مجلسهم خلا - على حد تعبيرهم -
من روحه . وما هو يستعيد أقوالهم في سرور وزهو لطف كثيرا
مما لاقى من حدة اللام من ناحيتهم وحرارة الاعتذار من ناحيته ،
بيد انه لم يخل من تأنيب ضمير حريص يطبعه على أرضاء الحلال ،
بدار الى النهل من موارد الصداقة والمودة في اخلاص واشار ،
فكاد يكدر صفوه لولا ما اشاعت ثورة الاحباب الناطقة بحبهم في
نفسه من أريحية الرضا والعجب ، أجل طالما كان الحب الذى

يجذبه الى الناس ويجذبهم اليه معينا لقلبه يصدق عليه ما يشاء من فرج بهيج وزهو برىء وكأنه خلق للصدقة قبل كل شيء .
 وثمة آية أخرى على هذا الحب - والإصدق أن يقال انه حب من نوع آخر - تجلت له ضحى اليوم حين ألت به أم على الخاطبة وقالت له بعد حديث دارت فيه حول غرضها ما شاء لها الدوران « ألا تعلم أن ست نفوسة أرملة الحاج على الدسوقي تملك سبعة دكاكين في المغربلين؟ » وابتسم السيد ، وقطن بالغريزة الى ماتومىء اليه المرأة ، وحدثه قلبه بأنها ليست خاطبة فحسب هذه المرة ولكنها رسول موسى بالكتمان ، ألم يخيل اليه في أكثر من مناسبة أن الست نفوسة تكاد تعلن عن ودها أثناء ترددها على دكانه لابتياح حوائجها؟ . بيد انه أراد استدراج المرأة ولو على سبيل التفكه فقال باهتمام ظاهرى « عليك باختيار زوج صالح لها ، فما أعز المطلوب ! » ، وظنت أم على أنها بلغت الغاية فقالت « قد اخترتك من دون الرجال ، فما قولك ؟ » ، وضحك السيد ضحكة مجلجلة وشت بسروره وثقته بنفسه ولكنه قال بلهجة قاطعة « لقد تزوجت مرتين ، أخفقت في الأولى ووفقنى الله في الأخرى ، ولن ابطر بنعمة الله » . والحق انه طالما تغلب على مغريات الزواج على كثرة ما تهيأ له من فرص مواتية ، بقوة ارادة لا تنتنى ، وكأنه لم ينس مثل أبيه الذى أنزلق الى زيجات متلاحقة بلا وعى ، بددت ثروته وجرت عليه المتاعب ، ولم تبق له هو - عقبه الوحيد - الا على شيء من المال لا يغنى . ثم انه من ربحه ودخله في بسطة من العيش هيات لأسرته هناء ورغدا وأتاحت له ما يشاء للانفاق في مسراته وملاهيهِ فكيف يقدم على ما يخل بهذا الوضع البديع المتناسق الذى يكفل له الكرامة والحرية؟! . أجل لم يجمع السيد ثروة ، لا لقصور في وسائلها عن تجميعها ولكن لما طبع عليه من جود جعل انفاقها والاستمتاع بآثارها المعنى الوحيد لها الذى يؤمن به ، الى ايمان عميق بالله وقضائله ملا نفسه طمانينة وثقة

وآمنه من الخوف الذى يساور كثيرين عن أرزاقهم ومستقبلهم .
 على أن صده عن مغريات الزواج لم يمنعه من السرور والزهو كلما رامته فرصة طيبة ، وبالتالى لم يستطع أن يتناسى أن سيدة جبيلة كالست نفوسة توده بعلا لها ، وغلبت هذه الذكرى على خواطره فراح يراقب وكيله والزبائن بعينين غائبتين وأسارير حاملة باسمه ، وذكر - باسمه أيضا - ما قال له صاحب من صحبه صباح اليوم وهو يعايشه معرضا بأناقته وتعطره « حسبك ، حسبك يا عجوز ! .. » عجوز؟! .. انه في الخامسة والأربعين حقا ، ولكن ما قول العاذل في هذه القوة العارمة والصحة الدافقة والشعر السبط اللامع السواد ! لم يهن احساسه بالشباب ولا تراخى ، وكان فتوته ما تزداد مع الأيام الا قوة ، الى أن مزاياه لم تكن لتغيب عنه ، بل كان على تواضعه وسماحة نفسه شديد الشعور بها ، منطويا في أعماقه على زهو وعجب ، يحب الثناء حبا جما ، وكأنه بتواضعه ولطفه يستزيد منه ويحث الرفاق بمكر حسن عليه ، ولكن مع أن ثقته بنفسه بلغت حد الاعتقاد بأنه خير الرجال قوة وبهاء وظرفا وكياسة الا انه لم يشغل أبدا على أحد من الناس ، لأن تواضعه كان طبعيا وسجية كذلك ، ولانه تبع من فطرة تسيل بشاشة وإخلاصا وحبا . والحق انه كان ينزع بفطرته الى أن يحب كما يحب ، ولا يمسك عن نشدان المزيد من الحب ، فاتجهت طبيعته بوحى من غريزته الظائمة للحب الى الاخلاص والوفاء والصفاء والتواضع ، تلك السجايا التى تجذب الحب والرضا كما تجذب الزهور الفراش ، ومن هنا استوى أن يقال ان تواضعه كياسة أو طبيعة والأصح أن يقال انه طبيعة تستمد كياستها من وحي الغريزة لا تدبير الإرادة ، فتجلت طبعيا بسيطا لا تكلف فيه ولا تعمل ، ولذلك كان السكوت عن فضائله ومواراة مزاياه بل والتندر بعيوبه وهناته التماسا للعطف والحب أحب اليه من نشرها والمباهاة بها اللذين يجران عادة الى الاستفزاز والحسد ، وهى كياسة سديدة

دفعت المحبين الى التنويه بما يغضى عنه حكمة وحياء ، واذاعت
سجاياه على نحو لم يكن ليقدّر عليه بنفسه دون التضحية بأجل
جوانب شخصيته ، وبما يحظى من جاذبية وحب لا تشوبهما
شائبة . وبهذا الوحي الغريزي نفسه استهدى حتى في جانب
حياته المآجن ، في مجالس أسسه وطربه ، فلم يتخل فيها - مهما لعب
الشراب برأسه - عن لباقة وكياسته ، ولو شاء ، بما أوتي من
خفة الروح وحضور البديهة وحلاوة الفكاهة وحدة السخرية ،
لاكتسح السمار بلا عناء ، ولكنه كان يدير مجلس الأنس بمهارة
وأريحية تفصح المجال لكل سامر ، ويشجع أهل الدعابة وان خالفهم
التوفيق بضحكاته المجلجلة ، الى حرصه الشديد على الا يخلف
مزاحه في نفس جرحا ، فان اضطره الموقف الى الحملة على قرين
داوى عواقب حملته بتشجيعه والتودد اليه ولو بالسخرية من
نفسه ، فلا ينفذ المجلس الا وقد حظى كل سامر من أطايب
ذكرياته بما يشرح الصدر ويستأثر الفؤاد . على ان كياسته الفطرية
او فطرته الكيسة ، لم تقتصر آثارها الطيبة على حياته الضاحكة
فحسب ، ولكنها امتدت الى جوانب هامة من حياته الاجتماعية ،
فأعلنت عن نفسها أروع اعلان في كرمه المأثور - سواء ما يتجلى
منه في الولائم التي يدعو اليها من حين لآخر في البيت الكبير او في
الهبات التي ينفج بها المحتاجين ممن يتصلون بعمله أو بشخصه
- وفي شهامته ومروءته ونجدته التي فرضت له على أصدقائه
ومعارفه نوعا من الوصاية المشربة بالحب والوفاء يفيئون اليها اذا
دعت الضرورة الى المشورة أو الشفاعة أو الخدمة فيما يعرض لهم
من هموم العمل والمال أو شئون المسائل الشخصية والعائلية
كالخطبة والزواج والطلاق ، أجل ارتضى لنفسه وظائف يؤديها
بلا أجر - غير الحب - فكان سمسارا ومأذونا ومحكما ، ثم وجد
دائما في أذائها - على مشقته - حياة مليئة بالبهجة والغبطة .
مثل هذا الرجل الذي تجود نفسه بفضائل اجتماعية كثيرة ثم

يطربها كان في نشرها أذى وإى أذى ، مثل هذا الرجل يكون خليقا -
اذا خلا الى خواطره وانقشع عنه الحياء الذي يتولاه حيال الناس -
بان يتملى مزاياه طويلا ويستسلم لزهوه وعجبه . لذلك راح
يستعيد عتاب أصدقائه المحبين ودنوة أم على الخاطبة بلذة
وسرور وانشراح تعانقت في قلبه عن نشوة خالصة حتى تطفلت على
خلوته لذعة أسف فمضى يحدث نفسه .. « نفوسة هائم سيدة
ذات مزاي لا يستهان بها .. يتمناها كثيرون ولكنها رغبت في أنا
.. بيد أنني لن أتزوج ، هذا أمر مفروغ منه .. وليست هي
بالمرأة التي تقبل أن تعاشر رجلا بغير زواج .. هذا أنا وهذه
هي فكيف يمكن أن نلتقى !.. ولو صادفتني في غير هذه الأيام
التي سد فيها الاستراليون علينا المنافذ لهان الأمر ولكنها تصدت
لنا ونحن في حاجة اليها فوا أسفاه .. »

وقطع عليه أفكاره وقوف حانطور أمام مدخل الدكان فمد
بصره مستطلعا فرأى العربية وهي تميل ناحية الدكان تحت ضغط
امرأة هائلة مضت تغادرها في بطء شديد على قدر ما تسمح
طيات لحمها وشحمها وقد سبقتها الى الأرض جارية سوداء فمدت
لها يدها لتعتمد عليها في أثناء نزولها . وكالمحمل وقفت مليا وهي
تنهد كأنها تستجم من عناء النزول ، وكالمحمل راحت تتمايل
وتخطر الى ناحية الدكان بينما علا صوت الجارية في لهجة شبه
خطابية لتعلن عن مولانها :

- وسع يا جدع أنت وهو للست زبيدة ملكة العوالم ..
وندت عن الست زبيدة ضحكة مسجوعة وقالت تخاطب
الجارية بلهجة تنم عن زجر كاذب :
- الله يسامحك يا جلجل .. ملكة العوالم مرة واحدة !..
هلا عرفت فضيلة التواضع !
وهرع اليها جميل الحمزاوى مفتر الثغر عن ابتسامة عريضة
وهو يقول :

— أهلا وسهلا ، كان حقا علينا أن نفرش الأرض بالرمل ..
ونهض السيد وهو يتفحصها بنظرة تتم عن دهشة وتفكير
ثم قال متمما تحية وكيله :

— بل بالحناء والورد ولكن ما حيلتنا والحظ يقبل اذا أقبل
غير مسبوق ببشير ؟ ..

ورأى السيد وكيله وهو يتجه الى كرسى ليأتى به فسيقه
اليه بخطوة واسعة بدت كالوثبة فتحنى الرجل جانبا وهو يداوى
ابتناسمة ، وقدم السيد لها الكرسى بنفسه وهو يومئذ براحتة
مرحبا كأنه يقول لها « تفضلى » بيد أن راحته انبسطت — ربما
بلا شعور منه — لآخر طاقتها وانفرج ما بين أصابعه حتى صارت
يده كالمروحة ، ولعله تأثر في بسطها بما تركه في خياله منظر
العجيزة الهائلة التى ستملا مقعد الكرسى وتفيض عن جوانبه
حتما . وشكرته المرأة بابتسامة من وجهها الذى أسفر حسنه
غير حجاب ، وجلست وهى تشع برواقها وحليها نورا ، ثم التفتت
الى جاريتها وخاطبتها قائلة وهى تعنى بالخطاب غيرها :

— ألم أقل لك يا جلجل انه ليس ثمة ما يدعوننا للتخبط هنا
وهناك لاتبياح حوائجنا وعندنا هذا الدكان الفاخر ؟

فأمنت الجارية على قول سيدتها قائلة :

— صدقت كعادتك يا سلطانة ، لماذا نذهب بعيدا وعندنا
السيد الكريم أحمد عبد الجواد .. !

فترجع راس الست كأنما هالها ما صرحت به جلجل وألقت
عليها نظرة استنكار ثم رددت عينيها بين السيد والجارية لتشهده
على استنكارها وقالت وهى تدارى ابتسامة :

— واخجلته ! .. حدثك عن الدكان يا جلجل لا عن السيد
أحمد .. !

وشعر نؤاد السيد الذكى بالجو الودى الذى ينفثه حديث
المرأة فاندمج فيه بفريزته المتوثبة وتمتم باسمها :

— الدكان والسيد أحمد شيء واحد يا سلطانة .
فرفعت حاجبيها في دلال وقالت بعناد لطيف :

— ولكننا نريد الدكان لا السيد أحمد ..

وبدا أن السيد أحمد لم يكن الشخص الوحيد الذى شعر بالجو
الطيب الذى خلقتة السلطانة ، فهذا جميل الحمزاوى يراوح
بين مساومة الزبائن واستراق النظر الى ما تيسر من جسم
العائلة ، وهؤلاء الزبائن جعلوا يجيلون ابصارهم بين البضائع لتسر
في الذهاب والاياب بالست ، بل بدا أن الزيارة المباركة قد
لغقت بعض الأنظار في الطريق فرأى السيد أن يقترب من السلطانة
وأن يولى الباب والقوم ظهره العريض ليحول بينها وبين تطفل
المتطفلين ، بيد أن هذا لم ينسه ما كان فيه من أسباب الحديث
فقال يصل منه ما انقطع :

— قضى الله جلت حكمته أن يكون الجماد أحيانا أسعد حظا
من الانسان ..

فقالت بلهجة ذات معنى :

— أراك تغالى ، لن يكون الجماد أسعد حظا من الانسان ،
ولكنه كثيرا ما يكون أجل فائدة ..

فتقبحا السيد بعينيهِ الزرقاوين وقال متظاهرا بالدهشة :

— أجل فائدة ! .. (ثم مشيرا الى الأرض) .. هذا
الدكان ! ..

فوهبته ضحكة قصيرة عذبة ولكنها قالت بلهجة لا تخلو من
خشونة مدبرة :

— أريد سكرنا وبنا وارزا فهل يغنى الانسان فيها عن الدكان
شيئا ! .. (وبنبرات اختلط فيها عدم الاكتراث بالدلال) .. ثم
ان الرجال أكثر من الهم على القلب ..

وكان السيد قد تفتحت له من الطمع أبواب ، وشعر بأنه مقبل
على شيء أجل خطرا من البيع والشراء ، فقال محتجا :

- ليست كل الرجال سواء يا سلطنة ، فمن قال لك ان الانسان لا يغنى عن الأرز والسكر والبن شيئا ؟! .. الانسان حقا من تحدّين فيه الغذاء والحلاوة والكيف !..
فسأله ضاحكة :

- انسان أم مطبخ هذا ؟

فقال السيد بلهجة تدل على الظفر :

- لو نظرت من قريب لوجدت تشابها عجيبا بين الرجل والمطبخ .. كلاهما حياة للبطن !..

وغضت المرأة بصرها مليا ، وانتظر السيد أن ترفعه اليه موسوما بابتسامتها المشرقة ، ولكنها واجهته بنظرة رزينة فأحس لتوه أنها غيرت « السياسة » أو لعلها لم ترتح كل الارتياح لانزلاقها فعدلت عنه ثم سمعها تقول في هدوء :

- أفادك الله !.. ولكن حسبنا اليوم الأرز والبن والسكر .. وتحول السيد عنها متظاهرا بالجد ودعا اليه وكيهه ثم وصاه بصوت مرتفع بطلبات الست فأوحى مظهره بأنه قرر هو أيضا العدول عن « التودد » والعودة الى « العمل » ، ولكنها لم تكن الا مناورة استعاد على أثرها ابتسامته الهجومية وتمتم مخاطبنا السلطنة :

- الدكان وصاحبه تحت أمرك !

وكان للمناورة أثرها فقالت المرأة في دعابة :

- أريد الدكان وتأيي الا أن تجود بنفسك !

- نفسى بلا ريب خير من دكاني ، أو خير ما في دكاني ..

فأشرق وجهها بابتسامة مأكرة وهى تقول :

- هذا يخالف ما سمعناه عن جودة بضاعتك !..

فقهقه السيد قائلا :

- ما حاجتك الى السكر وفي لسانك هذه الحلاوة كلها ؟!

وأعقب هذه المعركة الكلامية فترة سكون بدا فيها كلاهما

راضيا عن نفسه ، ثم فتحت العالة حقيبتها وأخرجت مرآة صغيرة ذات مقبض فضى وراحت تنظر في صورتها فمضى السيد الى مكتبه ووقف مستندا الى حافته وهو يتفرس في وجهها باهتمام . والحق لقد حدثه قلبه حين وقعت عليها عيناه بأنها جادت بالزيارة لأمور غير الشراء والبيع ، ثم جاء حديثها باستجاباته الحارة مؤكدا لظنه ، فلم يعد أمامه الا أن يقرر من الآن هل يوصلها بتاريخه أو يودعها الوداع الأخير . ولم يكن يراها لأول مرة ، فقد رآها مرات فى أفراح بعض الأصدقاء ، وعرف عن الرواة أن السيد خليل البشان اتخذها خلية دهرًا حتى انفصلا منذ عهد غير بعيد ، ولعل هذا ما جعلها تستبضع من دكان جديد !.. وهى موفورة الحسن وان لم تعد منزلتها كعالة المرتبة الثانية بين العوالم ، بيد أن المرأة تهمة أكثر من العالة ، وأنها لشهية لطيفة وبها من طيات اللحم والدهن ما يدفئ المقرور في زمهرير الشتاء الذى غدا على الأبواب ، واعترض أفكاره مجيء الحمزاوى حاملا ثلاث لفات ، فتناولتها الجارية ، ودست الست يدها في الحقيبة لتخرج النقود فيعما بدا ، ولكن السيد أشار اليها مخدرا وهو يقول :

- يا له من عيب ..

وتظاهرت المرأة بالدهشة وقالت :

- أى عيب يا سى السيد !.. ليس في الحق عيب ..

- هذه زيارة ميمونة يحق علينا أن نحياها بما هى أهله من

الأكرام ، وهيئات أن نوفيها حقها ..

وكانت قد نهضت وهو يتكلم فلم تبد مقاومة جدية لكرمه

ولكنها قالت :

- ولكن كرمك هذا سيجعلنى أتردد مرة ومرتين قبل أن

أفعل مرة أخرى ..

فقهقه السيد قائلا :

- لا تخافي انى أكرم الزبون في المرة الأولى ثم أعوض خسرتى

في المرات اللاحقة ولو بالسرقة ! هذا شعارنا نحن التجار .. !

فابتسمت الست ، ومدت له يدها قائلة :

— الكريم مثلك يسرق ولا يسرق .. أشكرك يا سيد أحمد .

فقال من كل قلبه :

— العفو يا سلطنة ..

ووقف ينظر إليها وهي تتبخر صوب الباب حتى صعدت إلى العربية واتخذت مجلسها ، وجلست جلجل على المقعد الصغير قبالتها ، وتحركت العربية بحملها النفيس ، ثم غابت عن نظريه . هنالك قال الحمزاوي وهو يقلب صفحة من دفتر الحساب .

— كيف يمكن أن يسدد هذا الحساب ؟!

فالتقى السيد على وكيله نظرة باسمه وقال : دكاير لا الكوا .

— اكتب مكان الأرقام « بضائع أتلها الهوى » ..

ثم غمغم وهو يمضي إلى مكتبه « الله جميل يحب الجمال » ..

— ١٥ —

وحين المساء أغلق السيد الدكان وغادره تحف به المهابة ويتضوع منه عرف طيب ثم مضى صوب الصفاة ، ومنها إلى الغورية حتى قهوة سى على فلحظ في مروره بها بيت العالة وما يكتنفه فراى الدكاكين التى تمتد على جانبيه لا تزال مفتوحة وتيار السابلة في تدفقه ، فواصل السير إلى بيت أحد الأصدقاء حيث قضى ساعة ثم استأذن عائدا إلى الغورية وقد غشيتها ظلمة فأنقبت كالمقبرة ، وجعل يقترب من البيت آمنا مطمئنا ، ثم طرق الباب وانتظر وهو يدقق النظر فيما حوله ولم يكن شمة نور إلا ما ترامى

من كوة بقهوة سى على ، ومصباح غازى على عربة يد عند منعطف السكة الجديدة . وفتح الباب وبدأ شبح خادم صغيرة فيأدورها متسائلا بصوت قوى غير متردد ليوحى بما يود من الصدق والثقة :

— الست زبيدة موجودة ؟

فرفعت إليه الخادم رأسها وسألته بدورها في تحفظ أملتة عليها ظروف وظيفتها :

— من أنت يا سيدى ؟

فقال بصوته القوى :

— شخص يروم الاتفاق معها على احياء ليلة ..

وغابت الخادم دقائق ثم عادت وهي تقول : « تفضل » ، وأوسعت له فدخل ، ورقى وراءها في سلم متقارب الدرجات انتهى به إلى دهليز ثم فتحت له بابا في مواجهته انتقل منه إلى حجرة مظلمة فظل واقفا على كשב من المدخل وهو ينصت إلى اقدام الخادم وهي تجري ، ثم وهي تعود حاملة مصباحا ، وتتبعها بعينيه وهي تضعه على خوان وتجيء بكرسى إلى وسط الحجرة وتقف عليه لتشعل المصباح الكبير المدلى من السقف ثم تنيد الكرسي إلى موضعه وتحمل المصباح الصغير وتغادر الحجرة قائلة في أدب « تفضل بالجلوس يا سيدى » . واتجه السيد إلى كنبه في صدر الحجرة وجلس في ثقة وهدوء دلا على اعتياد هذا الموقف وأمثاله ، وطمأنينة إلى الخروج منه بما يرضى ويطيب ، ثم خلع الطربوش وحطه على ثمرقة تتوسط الكنبه ومد ساقيه في ارتياح . رأى حجرة متوسطة الحجم نضدت بجنباتها الكنبات والمقاعد وفرشت أرضها بسجادة فارسية وقام حيال كل كنبه من كنباتها الثلاث الكبرى خوان مطعم بالصدف ، وقد أسدلت الستائر على نافذتها وبابها فحبست في جوها شذا بخور سربه متسللا بالنظر إلى فراشة راحت ترف على المصباح في نشاط عصبي ، وانتظر بعض وقت جاءت في أثنايه الخادم بالقهوة ، حتى ترامى إلى أذنيه

وقع شبشب منقوم ذى دقات مدغدغة فتنهت اعصابه وحقق
الى الباب الذى سرعان ما امتلأ فراغه بالجسم المفصل الهائل وقد
لف لفة شهوانية في فستان ازرق . وما كادت عينها المراءة تقعان
عليه حتى توقفت دهشة وهتفت :

الله - بسم الله الرحمن الرحيم ! .. أنت ! .. !

فجرى بصره على جسمها في عجلة ونهم كما يجرى الفأر على
جوال لوز ليجد لنفسه منفذا ، وقال باعجاب :

باسم الله ما شاء الله .. !

فواصلت تقدمها بعد التوقف باسمه وهى تقول في خوف

ne me donne pas le mauvais œil ! .. اعوذ بالله ! .. !

فنهض السيد مستقبلا يدها الممدودة بترحاب وتشعم شذا
البخور بأنفحة العظيم . وقال :

- أتخافين الحسد وعندك هذا البخور !

فاستخلصت يدها من يده وتراجعت الى كنية جانبية
وجلست وهى تقول :

- بخورى خير وبركة ، انه اخلاط من انواع شتى بعضها
عربي وبعضها هندي أولف بينها بنفسى ، فهو جدير بأن يخلص
الجسد من الف عفريت وعفريت ..

فعاود السيد الجلوس قائلا وهو يلوح بيديه في يأس :

- الا جسدى ! .. بجسدى عفريت من نوع آخر لا يجدى
معها البخور ، الامر اجل وأخطر ..

فصربت المرأة صدرا ناهضا كالثقبة وهتفت :

- ولكنى احبى حفلات افراح لا حفلات زار !

فقال السيد يرحاء :

- سنرى ان كان لدائى عندكم شفاء !

ومطاد الصمت قليلا فجعلت السلطانة تنظر اليه فيما يشبه

التفكير وكأنما تستخبره عن سر حضوره وهل جاء حقا للاتفاق
على احياء ليلة كما قال للخادم ؟ .. وغلبتها الرغبة في الاستطلاع
فسألته :

- فرج أم ختان ؟

فقال السيد باسمه :

- لك ما تشائين !

- عندك مخزون أم عروس ؟

- عندى كل شيء ...

فأنفرت بنظرة كأنما تقول له « كم أنت متعجب ! » ثم تمتعت
في تهكم :

- نحن في خدمتك على اى حال ...

فرقع السيد يديه الى قمة رأسه في هيئة تنم عن الشكر وقال
يوقار يناقض نواياه :

- عظم الله قدرك .. بيد اننى ما زلت مصرا على أن اترك
لك الاختيار !

فتنهدت في غيظ بالدعابة أشبه وقالت :

- انى أفضل افراح العرائس بطبيعة الحال !

- ولكنى رجل متزوج ولا حاجة بى الى زفة من جديد .. !
فصاحت به :

- يا لك من رجل مهذار .. اذن فليكن ختانا ..

- ليكن ...

وتساءلت وهى تحاذر :

- وليدك !

فقال ببساطة وهو يقتل شاربه :

- آيا ! ..

فاطلقت السلطانة ضحكة مائعة وقررت العدول عن التفكير
في مسألة احياء الليلة التى خمنت خبيثتها وهتفت به :

بجدي

ملل الحياء

- يا لك من رجل قارح ، أو طالتك يدى لقسمت ظهرك ..
فنهض السيد وأقبل عليها قائلا :
- لا أحرمتك رغبة قط ..

وجلس جانبها فهمت بضربه ولكنها ترددت ثم أمسكت فسالها
بقلق ...

- لماذا لم تتكرمى بضربى ؟

فهزت رأسها وقالت ساخرة :

- أخاف أن انقض وضوئى ..

- فتساءل في لهفة :

- اطمع في أن نصلى معا ؟!

واستغفر الله في سره عقب النطق بدعائه مباشرة لأن هذره
وإن كان لا يقف به في سكرة المجون عند حد إلا أن قلبه لم يكن
ليطمئن ويواصل ابتهاجه حتى يستغفر في باطنه صادقا مما يعبت
به لسانه مازحا . أما المرأة فتساءلت في دلال ساخر :

- أتعنى ، يا صاحب الفضيلة ، الصلاة التى هى خير من
النوم ؟

- بل الصلاة التى هى والنوم سواء ..

ولم يتمالك إلا أن تقول ضاحكة :

- يا لك من رجل مظهره الوقار والتقوى وباطنه الخلاعة

والفجور ، الآن صدقت حقما قيل لى عنك ..

واستوى السيد في جلسته في اهتمام وتساءل :

- وماذا قيل ؟! .. اللهم اكفنا شر القيل والقال ..

- قالوا لى أنك زير نساء وعيد شراب ..

فتنهت بصوت مسموع يذيع به ارتياحه وقال :

- حسبه ذما والعياذ بالله ..

- ألم أقل لك أنك قارح فاجر ؟!

- هى الشهادة لى بأنى حزت القبول أن شاء الله ..

فرفعت المرأة رأسها في غطرسة وقالت :
- بعدك ! .. لست كمن عرفت من النساء .. أن زبيدة
معروفة ولا فخر بعزة النفس ودقة الاختيار ..
فبسط السيد راحتيه على صدره ونظر إليها في تحد مشرب
باللطف وقال بطمانينة :

- عند الامتحان يكرم المرء أو يهان ..

- من أين لك بهذه الثقة وأنت لم تختن بعد بشهادتك ؟

فقهقه السيد طويلا حتى قال :

- لا تصدقنى يا طامع ، وإن كنت في شك ...

ولكمته في منكبه قبل أن يتم جعلته فأمسك ثم أفرقا في
الضحك معا ، وسر بمشاركتها آياه في ضحكته ، وحس وراء ذلك
- بعد ما جرى بينهما من تلميح وتصريح - لونا من الجهر بالرضا
ثبتته في وعيه بسعة دلال سالت بطرفها المكحول ، وراح يفكر في
أن يحيى هذا الدلال بتحية تليق به لولا أن قالت له محذرة :
- لا تحملنى على مضاعفة سوء الظن بك ..

فأعاده قولها الى تذكر ما رددته عن القيل والقال ، وسألها
باهتمام :

- من الذى حدثك عنى ؟

فقالت باقتضاب وهى تلحظه بنظرة اتهام :

- جليلة ... !

وفجاء الاسم كأنه عاذل يطرق مجلسهما فابتسم ابتسامة دلت
على حرجه . جليلة ، تلك العالة المشهورة التى عشقها دهرها حتى
فصل بينهما الشبع ثم عاشا ومازالا على مودة متبادلة على البعد ،
بيد أنه كخبر بالنساء لم يربدا من أن يقول في لهجة صادقة :
- لعنة الله على وجهها وضوئها معا ! .. (ثم متهربا) ..

دعينا من هذا كله ولنتكلم في الجد ..

فتساءلت متهمكة :

- الا تستحق جليلة كلمة ارق والطف ؟ .. ام هذا شأنك
عند ذكر من قطعتهن من النساء ؟
وداخل السيد شيء من الحرج الا انه ذاب في موجة الزهو
الجنسى التى اثارها في نفسه حديث عشيقة جديدة عن عشيقة
ولت ، واخذ مليا بنشوة ظفر حلوة ثم قال بلباقة معهودة :
- لا يسعنى وانا بمحضر من هذا البهاء ان اغادره الى ذكريات
طويت ونسيت ...

وبالرغم من ان السلطانة حافظت على نظرتها التهكمية الا انها
استجابت للثناء كما بدا في رفع حاجبيها ومداراتها لابتسامة
خفيفة اندست الى شفيتها ، ولكنها خاطبته بازدراء قائلة :

- لسان تاجر يسخو بالخلاوة حتى ينال غرضه ..
- لنا الجنة نحن التجار بما يظلمنا الناس ..
وهزت كتفيها استهانة ثم سأله في اهتمام غير خاف :
- متى رافقتها ؟

فلوح السيد بمرامه كأنه يقول « ما أبعد من زمن ! » ثم تمتم :
- منذ ازمان وازمان ..

فضحكت في تهكم وقالت بنبرات تنم عن التشفي :
- في ايام الشيب الذى مضى .. !
فرنا السيد اليها معانبا ثم قال :
- بودى ان امسى من لسانك الاذى ..

ولكنها واصلت حديثها بنفس اللهجة قائلة :
- اخذتك لحما وتركتك عظيما ..

فاوما اليها بسبابته محطرا وقال :
- انى من صلب رجال يتزوجون في الستين ..
- بدافع المشق ام بدافع الخوف ؟
فقهقه السيد قائلا :

- يا ولية الله ودعينا نكلم في الجد ...

- الجد ؟ .. اتعنى احياء الليلة التى جئت تتفق عليها ؟
- اعنى احياء العمر كله ..
- كله ام نصفه ؟
- ربنا يقدرنا على ما فيه الخير ..
- ربنا يقدرنا على الطيب ..
واستغفر الله في سره مقدما ثم تساءل :
- تقررا الفاتحة ؟

ولكنها نهضت بغبة متجاهلة دعوته وهتفت متظاهرة بالجزع :
- رباه .. سرقنى الوقت ولدى الليلة عمل هام ..

ونهض السيد بدوره ، ومد يده فتناول يدها ثم بسط راحتها
المخضبة بالحناء ورنأ اليها بشوق وافتتان ، وأصر على احتفاظه
بها رغم جليها اياها مرة ومرتين ، حتى قرصته في اصبعه
ورفعت يدها الى شاربه وصاحت به مهددة :

- دعنى او تخرج من بيتى بفردة شارب واحدة ..
ورأى ساعدها قريبا من فيه فرمد في النقاش وقرب منه
شفتيه رويدا حتى غاصتا في لحمه الطرى فتطاير منه الى آفقه
رائحة قرنفلية ذات طعم حلو ، ثم تنهد مضطجعا :
- الى الغد ؟

فتخلصت من يده مقاومة من ناحيته هذه المرة ، وحدقت
اليه طويلا ثم ابتسمت وتمتمت :

عصفورى يا امه عصفورى لالعب واورى له امورى
وجعلت تردد « عصفورى يا امه » مرات وهى تودعه . وغادر
السيد الحجرة وهو يردد مطلع الاغنية بصوت متخفيض ملؤه الوقار
والرؤاثة كأنما يستخبر الالفاظ عما وراءها من معان ..

كان ما يطلق عليه بهو الحفلات بيتت العائلة زبيدة يتوسط الدار كالصالة ، أو كان الصالة بالفعل استجذتها أغراض أخرى . ولعل أهم أغراضه أنها كانت تقوم فيه - هي وجوقتها - بالتجارب الفنية وحفظ الأغاني الجديدة ، وقد اختارته لبعده عن الطريق العام بما يفصل بينهما من حجرات النوم والاستقبال . وجعله اتساعه - الى هذا - صالحا لحياء الحفلات الخاصة التي تتراوح عادة بين الزار والغناء ، والتي تدعو اليها الخاصة من أصدقائها ومعارفهم القريبين . ولم يكن الباعث على هذه الحفلات اريحية كرم فحسب - ان كان ثمة كرم على الإطلاق فإنه غالبا ما ينهض بأعبائها الأصدقاء أنفسهم - ولكنها رمت من ورائها الى الاكثار من الأصدقاء المتنازين الخليقين بأن يدعوا لحياء الحفلات أو يقوموا لها بالدعاية النافعة في الأوساط التي يتقلبون فيها ، ومن بينهم - الى هذا كله - تنتقى الخليل بعد الخليل . وجاء دور السيد أحمد عبد الجواد لشرف البهو السعيد محاطا بالخاصة من معارفه . والحق أنه تبدى عن نشاط جم عقب المقابلة الجريئة التي تمت بينه وبين زبيدة في بيتها فسرعان ما حمل رسله كريم الهدايا من النقل والحلوى والهدايا . الى مدقاة أوصى على صنعها ونقشها وطلبها بالفضة لتكون - جميعا - عربونا للمودة المقبلة : ففي لقاء هذا دعتهم السلطانة ، تاركة له الخيار في دعوة من يشاء من أصدقائه ، الى حفلة تعارف تكريما للحب الجديد - ولشد ما كان البهو موسوما بطابع بلدى جذاب بكنبائه المتلاصقة المزركشة الناعمة الموحية بالنفاسة والخلاعة ، الممتدة على الجانبين حتى الصدر حيث يقوم

ديوان الست تكتنفه الشلت والوسائد المعدة للجوقة ، أما أرضه المستطيلة فمفروشة بسجاد متعدد الألوان والشكول ، وعلى كنصول يتوسط الجناح الأيمن - كالشامة رواء وصفاء - أقيدت الشموع منفرسة في الفناير ، غير مصباح ضخم يتدلى من قمة منور يتوسط سقف الحجرة ذى منافذ على سطح الدار تفتح في الليالي الدافئة وتغلق بأضلاف زجاجية في ليالي البرد .

جلست زبيدة متربعة على الديوان وإلى يمينها زنوبة العوادة ربيبتها ، وإلى يسارها عبده عازف القانون الضريع ، واستوت النسوة جلوسا عن يمين وشمال ما بين ممسكة بالداف أو ماسحة على الدريكة أو عابثة بالصنح . وآثرت السلطانة السيد أحمد بأول مجلس في الجناح الأيمن ، واتخذ الباقون من صحبه مجالسهم بلا كلفة كأنهم أصحاب الدار ، ولا عجب فلم يكن الجو بالجديد عليهم ، ولا السلطانة بالتى يرونها لأول مرة . وقدم السيد أحمد أصحابه الى العائلة مبتدئا بالسيد على بائع الدقيق فضحكت زبيدة قائلة : - ليس السيد على بالغريب فقد أحيت فرح كريمته في العام الماضي ..

ثم ثنى بالسيد تاجر النحاس ، ولما رماه أحدهم بأنه من رواد بمبة كشر بادر الرجل قائلا : - وجئت تأثبا يا ست ..

وتتابع التعارف حتى تم ، ثم جاءت الجارية جلجل بأقداح الشراب ودارت على المدعوين ، ومضت النفوس تستشعر حيوية مشبعة بالأريحية والمرح ، وبدا السيد عريس الحفلة بلا منازع ، بهذا دعاه الأصدقاء ، وبهذا شعر في أعماقه ، وقد وجد لذلك بادئ الأمر لونا من الارتباك قل أن يلم به ، فذاراه بالأسراف في الضحك والمرح ، حتى اذا أخذ في الشراب زاياله بلا عشاء ، فاستعاد طمأنينته واندمج في الطرب نكل قلبه . وجعل كلما لج به الشوق - والأشواق في مغاني الطرب تثار - يمد بصره الى

سلطانة المجلس بنهم فيتلکاً ناظره عند طيات جسمها المكتنز ،
فطاب قلبا بما آفأ عليه الحظ من نعمة ، وهنا نفسه على ما يترقبها
من لديد المسرات ، هذه الليلة والليالي الأخريات . «عند الامتحان
يكرم المرء أو يهان» ، هذا التصريح الذي تحديتها به ، يجب أن
أكون عند كلمتي ، أية امرأة هي يا ترى ، وأى مدى مداها ،
سأعرف الحقيقة في الساعة المناسبة ثم البس لكل حال لبوسها ،
لكي تضمن الانتصار على غريم ينبغي أن تفترض فيه الغاية من
المنفعة والبأس ، لن أحيده عن شعارى القديم وهو أن أجعل من
لذتى أنا مطلباً ثانوياً ومن لذتها هي انهدف والنهاية ، وبذلك
تتحقق لذتى على أكمل وجه . ومع أن السيد لم يخبر من
الوان الحب - على وفرة مقامراته - إلا الحب العضوى وحى اللحم
والدم ، إلا أنه تدرج في اعتناقه إلى أرق صورة وأنقاها ، فلم يكن
حيواناً بحتاً ولكنه إلى حيوانيته وهب لطافة احساس ورهافة
شعور وولع مغفل بالغناء والطرب ، فسما بالشهوة إلىسمى
ما يمكن أن تسمو اليه في مجالها العضوى . بهذه البواعث العضوية
وحدها تزوج أول مرة ثم ثانی مرة ، أجل أثرت عاطفته الزوجية
- بمرور الأيام - بعناصر جديدة هادئة من المودة والألفة ولكنها
ظلت في جوهرها جسدية شهوانية ، ولما كانت عاطفة من هذا
النوع - خاصة إذا أوتيت قوة متجددة وحيوية دافقة - لا يمكن
أن تستنيم إلى لون واحد فقد انطلق في مذاهب العشق والهوى
كالتور الهائج ، كلما دعت صوة استجاب لها في نشوة وحاس .
لم ير في أية امرأة إلا جسداً ، ولكنه لم يكن يحنى هامته لهذا
الجسد حتى يجده خليفاً حقاً بأن يرى ويلمس ويشم ويداق
ويسمع ، شهوة نعم ولكنها ليست وحشية ولا عمية ، بل هذبته
صنعة ، ووجهها فن فأنخذت لها من الطرب والفكاهة والبشاشة
جواً وأطاراً . فلم يكن أشبه بشهوته من جسمه ، فهو مثلاً في
الفخامة والقوة اللتين توحيان بالقسوة والوحشية ولكنه مثلاً

أيضاً - نيماً ينطوى عليه في أعماقه من لطف ورقة ومودة على
ما يتسريل به أحياناً - متعمداً من الصرامة والشدة . ولذلك
فلم يتركز خياله النشيط - وهو يلتهم السلطانة بنظراته ، في
المضاجعة ونحوها ولكنه تاه - إلى هذا - في أفانين من أحلام
اللو واللعب والغناء والسمر . وأحست زبيدة بحرارة عينيه
فقالته تخاطبه وهي تغلب عينها في وجوه المدعوين بعجب ودلال :

- حسبك يا عريس ، هلا استحييت حيال رفاقك !

فقال السيد متعجبا :

- وما انتفاعى بالحياء حيال قنطار من اللحم والدهن !

فأطلقت العالمة ضحكة رنانة ونساءت في غاية من الانبساط :

- كيف ترون صاحبكم ؟

فقالوا في نفس واحد :

- معدورا .. !!

وهنا حرك عازف القانون الضرب رأسه يمنة ويسرة وقد

ندلت شفته السفلى وتمتم :

- قد أعذر من أئدر ..

ومع أن « حكمته لاقت ترحيباً إلا أن الست التفتت نحوه

كالغاضبة ولكرته في صدره هاتفة :

- اسكت أنت وسد فاك الذى يبلغ المحيط ..

ولقى الضرب الضربة ضاحكاً ثم فتح فاه كأنها ليتكلم ولكنه

أظفقه مرة أخرى مؤثراً السلامة فوجهت المرأة رأسها صوب

السيد وقالت بلهجة تنم عن الوعيد :

- هذا جزاء من يجاوز حده .

فقال السيد متظاهراً بالانزعاج :

- ولكننى جئت لأتعلم قلة الأدب ..

فدقت المرأة صدرها بيدها وصاحت :

- يا خير !.. أسمعتم قوله ؟!

فقل أكثر من واحد منهم في وقت واحد :

— انه خير ما سمعنا حتى الآن ..

وأضاف الى هذا أحد الرفقاء قائلا :

— بل عليك بضربه اذا جاوز حدود قلة الأدب ..

وقال آخر مؤمنا على قوله :

— الزمى طاعته ما قل أدبه .

فتساءلت المرأة وهي ترفع حاجبيها لتعلن عن دهشة لا اثر

لها في نفسها :

— لحد هذا تحبون قلة الأدب !

فتنهذ السيد قائلا :

— ربنا يديمها علينا ..

فما كان من العالة الا أن تناولت الدف وهي تقول :

— سأسمعكم شيئا أفضل ..

ونقرت عليه فيما يشبه العبث ، ولكن علا النقر في حومة اللغو

كالنذير حتى أسكته ، ودأب الأذان متوددا فبدل القوم حالا بعد

حال ، تحفز أفراد الجوقة للعمل ، وفرغ السادة الكؤوس ثم مدوا

رءوسهم نحو السلطانة وساد المكان صمت يكاد ينطق من شدة

التهيؤ للطرب . وأومات العالة الى الجوقة فانطلقت تعزف بشرف

عثمان بك ، وراحت الرءوس تذهب مع الأنغام وتجيء ، وسلم

السيد نفسه لرنين القانون الذي جعل يلذع قلبه فيشعل فيه

اصداء الأنغام المختلفة من عهد طويل حافل بليالي الطرب كأنها

ذرات نفض تساقط على جمر مكنون ، أجل كان القانون أحب آلات

الطرب الى نفسه — لا لمهارة العقاد وحدها — ولكن لسر مستلهم

من طبيعة أوتاره ، ومع أنه كان يعلم أنه لن يستمتع الى العقاد أو

سى عبده الا أن قلبه العاشق دائري بعشقه ما قصر دونه الفن .

وما أن فرغت الجوقة من عزف البشرف حتى انطلقت العالة تنشد

« والذي أسكر من عذب اللما » فلحقت بها الجوقة في حماس ،

وكان أجمل ما يطرِب فيها صوتان متجاوبان ، أحدهما غليظ

عريض للعازف الضرب والآخر رقيق يندى بالطفولة لزوبة العوادة ،

فجاش صدر السيد بالانفعال فابتدر الكأس الذي بين يديه فأفرغه

في جوفه واندفع يشارك في انشاد التوشيح وقد وشت نبرات

صوته — عند مطلع الفناء — بشرق في حلقه لاندفاعه الى الانشاد

قبل أن يتم بلع ريقه ، وما لبث أن تشجع بقية الرفاق فحدوا

حدوه وسرعان ما انقلب البهو جوقة تنشد عن صوت واحد ..

ولما ختم التوشيح تهيأت روح السيد — بحكم العادة — لاستماع

التقاسيم والليالي ولكن العالة ذبلت الختام بضحكة من ضحكاتها

الرائنة معلنة عن سرورها وعجبها ، ومضت تهنيء أفراد الجوقة

المستجدين مداعبة وتسالهم عن الدور الذي يودون سماعه ،

وانزعج السيد في باطنه ومرت به لحظة كدر امتحن فيها ولعه بالفناء

امتحانا قاسيا لم يفظن اليه كثيرون ممن حوله ، ولكنه أدرك في

اللحظة التالية أن زبيدة ليست كفأ لتقاسيم الليالي شأن جميع

العوالم بما فيهن « بمبة كثر » نفسها ، فتمنى لو تختار المرأة

طقطوقة خفيفة مما تغنى للسيدات في الأفراح ، مفضلا هذا

على محاولة غناء دور من أدوار الفحول ستعجز حتما عن اجادة

ترجييعه ، وصمم على أن يتفادى من المتاعب التي تخافها أذنه

بأن يقترح أغنية خفيفة تناسب حنجرة الست فقال :

— ما رأيكم في عصفورى يا أمه ؟

وحدها بنظرة ذات معنى كأنما ليشر في نفسها إحياء هذه

الطقطوقة التي توجت بها حوار تعارفهما في حجرة الاستقبال منذ

أيام قلائل ، ولكن جاء صوت من أقصى البهو يصيح ساخرا :

— الأولى أن تطلبها من أمك ! ..

وسرعان ما ضاع الاقتراح فيما تفجر من قهقهات أفسدت

على السيد خطته ، وقبل أن يكرر المحاولة طلب نفر « يا مسلمين

يا أهل الله » وطلب آخرون « سلامتك يا قلبى » ولكن زبيدة التي

تحاشت أن ترضى فئة على حساب أخرى أعلنت أنها ستغنيهم
« على روحى أنا الجاني » فاستقبلت بترحاب حار . ولم يجد
السيد بدا من توطين النفس على الانسباط مستعينا بالشراب ،
وبأحلام ليلته الواعدة ، فتألق ثغره بابتسامة وضيئة أدرك بها
ركب التشاوى بلا كدر ، بل وجد عطفًا على رغبة المرأة في
محاكاة الفحول ارضاء لمستعصمها الراسخين في السماع وأن لم
يخل حالها من غرور تألفه الغواني . وفيما تنهيا الجوقة للغناء
نهض أحد الرفاق وهتف بحماس :

— دعوا الدف للسيد أحمد فهو به خير .. !

فهزت زبيدة رأسها عجبًا وتساءلت :

— حقا ؟ !

فحرك السيد أصابعه في سرعة ورشاقة كأنما يعرض عليها
مثالا من صنعته فقالت زبيدة باسمه :

— فيم العجب وأنت تلميذ جليلة !

وضحك السادة في غير ما تحفظ ، وتواصل الضحك حتى
علا صوت السيد الفار وهو يسأل السلطانة قائلا :

— وماذا تنوين أن تعلميه أنت ؟

فقالت بلهجة ذات معنى :

— سأعلمه القانون .. ألا يروقك هذا ؟

فقال السيد باستعطاف :

— علميني الهنك أن شئت ..

وحث كثيرون السيد على الانضمام إلى التخت وأخذ الدف
فما كان منه إلا أن نهض وطلع الجبة فبدأ بطوله وعرضه في القفطان
الكموني كجواد يقف مستوفزا على رجليه الخلفيتين ، ثم شمر عن
ساعديه ومضى إلى الديوان ليتخذ مجلسه إلى جانب الست ، ولكن
تفصح له قامت نصف قومة مترحزة إلى اليسار فانحصر
الفيستان الأحمر عن ساق لحية مرتوية بيضاء مشربة بلون وردى

من أثر الحف والتنف محلى أسفلها بخلخال ذهبي أعيا ضمها
نراعيه ، ورأى بعضهم ذلك المنظر فصاح بصوت كالرعد :

— تحيا الخلافة !

وكان السيد يغمر ثديي المرأة بعينيه فهتف وراءه :

— قل يحيا الصدر الأعظم ..

فصاحت العالمة محذرة :

— خفضوا أصواتكم أو يبيتنا الانجليز في السجن ..

فهتف السيد الذي لعبت الخمر برأسه :

— أذهب معك مؤيدا مع الشغل ..

وعلا أكثر من صوت يقول :

— لا عاش من يترككما تذهبان وحدكما ..

وارادت المرأة أن تحسم النزاع الذي أثاره منظر ساقها

فمدت يدها بالدف إلى السيد وهي تقول :

— أرني شطارتك ..

وتناول السيد الدف ، ومسح عليه براحته مبتسما ، وبدأت

أصابعه تنقر عليه في مهارة على حين انطلقت آلات الطرب عازفة،

ثم غنت زبيدة وهي ترنو إلى الأعين المحدقة إليها :

على روحى أنا الجاني وخلي في الهوى رمانى

ووجد السيد نفسه في موقف عجيب ، تهفو إليه أنفاس

السلطانة بين اللفتة واللفتة فتلتقى بأشعاعات الخمر المتطايرة من

بافوخه بين الحسوة والحسوة ، فما أسرع أن غابت عن وعيه أصداه

الحامولي وعثمان والميلاوى ، وعاش في لحظة الراهنة قائما سعيدا،

ثم سرى إليه من نبرات صوتها ما حرك أوتار قلبه فاستمر نشاطه

ولعب بالدف لعبا لا يدانيه المحترفون ، وما بلغت المرأة في الغناء

قولها « أمانة يا رايح يه تبوس لى الخلو من فمه » حتى كان من

النشوة في سكرة عاتية ملهمة مدغدة محرقة ، ولحق به الرفاق

او سبقوه اذ بلغت الخمر بالضرب نهايته ونشرت الشهوات نشرا
فتركتهن كأدواح راقصة في حومة عاصفة هوجاء ..

ورويدا رويدا شارف الدور الختام وراحت زبيدة تختمه
مرددة نفس المطلع الذى افتتحت به وهو «على روحى انا الجانى»
ولكن يروح يوحى بالدعة والتذكير والوداع ثم النهاية ، وغابت
الانغام كما تغيب طيارة بحبيب وراء الأفق . ومع أن الختام قوبل
بعاصفة من التهليل والتصفيق الا أنه سرعان ما ساد القاعة صمت
دل على همود أنفس أعياها الجهد والانفعال ، ومضت فترة لم
يسمع فيها الا سعدة او نحنة او حكة عود ثقاب او كلمة
لا تستحق المراجعة . وقال لسان الخال للمدعوين « تفضلوا
بسلام » فلاح من بعضهم نظرات الى قطع الثياب التى تخففوا
منها في فورة الطرب فوضعوها وراءهم على مساند ، ولكن البعض
الأخر ممن تعلقت نفوسهم بخلاوة السهرة ابوا أن يغادروها حتى
يرشفوا آخر قطرة متاحة من الرحيق ، فصاح أحدهم :
- لا نبرح حتى نرف السلطنة الى السيد أحمد ..

وقوبل الاقتراح بترحاب وتأيد ، على حين أغرق السيد
والعائلة في الضحك غير مصدقين ، وما يدريان الا ونفر من
الصحاب يحيطون بهما وينهضونهما ثم يشيرون الى الجوقة
لتشرع في التشيد السعيد .

وفجا جنبا لجنب ، هى كالحمل وهو كالجمل ، عملاقين ملطفيين
بالحسن ، ثم تأبطت في دلال ذراعه وأشارت الى المحدثين بهما
ليفسحوا الطريق . ونقرت الدفافة على الدف فانطلقت الجوقة
وكثرة من المدعوين يرددون نشيد الزفة « انظر بعينك يا جيل »
ومضى العروسان في خطو وتبدت بختران طربا وسكرا فلم تتمالك
زئوبة مع هذا المنظر الا أن تمسك عن اللعب بأوتار العود ريثما تطلق
زغرودة مجلجلة طويلة النفس لو تجسست لبذت لسانا متعرجا من

أهب يشق الفضاء كالشهاب . وتسابق الأصدقاء يرجون التهناني
تباعا :

- بالرفاء والبنين ..
- ذرية صالحة من الراقصات والمغنيات ..
وصاح به أحدهم محذرا :
- لا تؤجل عمل اليوم الى غد ..
ولم تنزل الجوقة تواصل الانشاد ، والأصدقاء يلوحون
بأيديهم مودعين ، حتى توارى السيد والمرأة وراء الباب المغضى
الى داخل الدار ...

- ١٧ -

كان السيد أحمد جالسا الى مكتبه بالدكان حين دخل ياسين
على غير انتظار . ولم تكن زيارة غير منتظرة فحسب ، ولكنها
كانت قبل كل شيء غير مألوفة ، اذ لم يكن من الطبيعى أن يزور
الفتى اباه في دكانه على حين يتحاشاه على قدر استطاعته في
بيته ، والى هذا بدا شارد اللب ساهم النظرة .. وأقبل على
أبيه مكتفيا برفع يده الى رأسه بطريقة آلية دون أن يلتزم
ما يلتزم عادة بمحضره من أدب بالغ وخضوع كأنما نسى نفسه ،
ثم قال بلهجة نمت عن شديد تأثره :

- السلام عليكم يا أبى ، جئت لأحدثك في أمر هام ..
ورفع السيد اليه عينيه متسانلا وقد ساوره قلق استعان
على إخفائه بقوة ارادته ثم قال بهندوء :
- خير ان شاء الله ... !
وجاء جميل الحمزاوى بكرسى وهو يرحب بمقدمه فأمره والده

بالجلوس فقرب الشاب الكرسي من مكان أبيه وجلس ، وبدأ لحظات كالتردد ، ثم زفر ثائرا بتردده وقال بنبرات متهدجة وفي اقتضاب مؤثر :

— المسألة أن أمي شارعة في الزواج !..

ومع أن السيد توقع خيرا سيئا إلا أن خياله لم ينجح في جولته التشاؤمية إلى تلك الناحية التي اودعها ركننا مهجورا من ماضيه ، لذلك لقيت منه المفاجأة صيدا غافلا ، وسرعان ما قطب كما يقطب كلما عرض له عارض من ذكريات زوجه الأولى ، وتولاه لذلك ضيق ، ثم انزعاج لما يمس ابنه مباشرة في صميم كرامته ، وكشأن السائلين الذين يلقون السؤال لا ليعرفوا جديدا ولكن ليلتمسوا منفذا للنجاة من الواقع وهم يائسون ، أو ليهيئوا لأنفسهم مهلة للتروى وتمالك الأعصاب ، وسأله :

— ومن أدراك بهذا ؟

— قريباها الشيخ حمدي ، زارني اليوم بمدرسة النحاسين وألقى على الخير مؤكدا بأنه سيتم في ظرف شهر ..

الخبر حق لا ريب فيه ، وما هو بالأول من نوعه ، في حياتها ، ولن يكون الأخير إذا اتخذ الماضي مقياسا للمستقبل ، ولكن أي ذنب جناه هذا الشاب ليلقى عذا الجزاء الصارم المتجدد الأدنى ؟! ووجد الرجل نحو ابنه رثاء وعظفا ، ومز عليه أن يقف من أمامه موقف العجز وهو الذي يقصده الناس في الملمات ، وتسائل فيما بينه وبين نفسه ماذا تكون حاله لو كان هو المبتلى بهذه الأم !.. فانقبض صدره وتضاعف رثاؤه وعظفه نحو ابنه ، ثم شعر برغبة تدفعه إلى السؤال عن ذلك الروح المنتظر ، ولكنه لم يستسلم لها ، أما لاته أشفق من أن تزيد جرح ابنه عمقا واتساعا وأما لأنه أكرها على نفسه لما آنس بها من حب استطلاع — لا يليق بالمأسة الراهنة — موجه إلى المرأة التي كانت زوجا له بيد أن ياسين قال منفعلا من تلقاء نفسه وكأنه يجب خاطره :

— ومنم تتزوج !.. من شخص يدعى يعقوب زينهم صاحب مخبز في الدراسة .. في الثلاثين من عمره !

واتمد انفعاله وتهدهج صوته وهو ينطق العبارة الأخيرة كأنها يلفظ شطية ، فانتقل احساسه إلى أبيه تقززا واشمئزازا ، وجعل يردد في سره : في الثلاثين من عمره .. ياله من عمل فاضح .. انه فسق في ثياب زواج .. غضب الرجل لغضب ابنه ، وغضب لحساب نفسه هو كما اعتاد أن يغضب كلما ترامى إليه نيا من مبادلها كأنما يتجدد شعوره بتبعته في اعتبارها يوما زوجا له ، أو كأنما يعز عليه — ولو بعد مرور ذلك الزمن الطويل — انها أفلتت من تأديبه والاذعان لسنته !.. وأنه ليذكر أيام معاشرته لها — على قصرها كما يذكر الإنسان حمى هاضته ، وربما كان مغاليا في تصويره ، ولكن رجلا في مثل اعتداده بنفسه جدير بأن يرى في مجرد الرغبة عن الاذعان لمشيئته جريمة لا تغتفر وهزيمة قتالة. ثم انها كانت — ولعلها لا تزال — جميلة مترعة انوثة وجاذبية فتعم بمعاشرتها أشهرا حتى بدأ منها شيء من المقاومة لأرادته التي نزع إلى فرضها على المتصلين به من آله ، ولم تر بأسا في استمتاع بالحرية ولوبالقدر الذي يتيح لها زيارة أبيها من أن لأن ، فغضب السيد وحاول منعها بالزجر أولا ثم بالضرب المبرح أخيرا ، فما كان من المرأة المدللة إلا أن فرت إلى والديها ! وأعمى الغضب الرجل المتعجرف فظن أن خير سبيل إلى تأديبها وأرجاع عقلها إلى رأسها هو أن يطلقها إلى حين — إلى حين طبعها لأنه شديد التعلق بها — فطلقها ، وتظاهر باهمالها أياما وأسابيع وهو ينتظر أملا أن يجيئه وسيط خير من آله ، فلما لم يطرق بابيه أحد داس كبرياءه وبعث هو من يجس النبض تمهيدا لتصالح فعاد الرسول يقول أنهم يرجعون به على شرط الاستئجاز أو بضرها !.. ولكنه كان ينتظر موافقته بلا قيد ولا شرط فصار غضبه ثورة عاتية واقسم فيما بينه وبين نفسه ألا يضمهما رباط إلى الأبد . هكذا ذهب كلاهما إلى حال

سبيله ، وهكذا قضى على ياسين أن يولد بعيدا عن أبيه وأن يلقى من حياته في بيت أمه ما لقي من ضروب المذلة والالم ..
ومع أن المرأة تزوجت أكثر من مرة ، ومع أن الزواج كان - في نظر ابنها - أشرف سقطاتها ، إلا أن هذا الزواج الجديد المتوقع بدا أفظع من سوابقه ولمعن في الإيلام ، لأن المرأة استوت على الأربعين من ناحية ، ولأن ياسين اكتمل شابا مدركا بوسعه إذا شاء أن يدفع عن كرامته الاساءة والهوان من ناحية أخرى ، فقد جاوز أذن موقفه القديم الذي ألزمته إياه حدائة سنه حين كان يتلقى الأنباء المثيرة عن أمه بالدهش والانزعاج والبكاء الى موقف جديد بدا فيه أمام نفسه رجلا مسئولا لا يصح له أن يلقى الاساءة مكتوف اليدين . دارت هذه الخواطر بذهن السيد ، وقدر خطورتها بقلق ، ولكنه صمم على التهوين من شأنها ما وسعته الحيلة ابتعادا بابنه الأكبر عن المتاعب ، فhez منكبيه العريضين متظاهرا بالاستهانة وقال :

— ألم نتماهد على اعتبارها كشيء لم يكن ..؟!

فقال ياسين في حزن وقنوط :

— ولكنها شيء كائن يا أبى !.. ومهما يكن من أمر تماهدنا فلن تزال أمى الى ما شاء الله ، سواء في نظرى أم في نظر الناس جميعا .. لا مفر ولا خلاص ..

ونفخ الشاب من الأعماق ، ورنأ الى أبيه بصنييه السوداوين الجميلتين - اللتين ورثهما عنها - في استغاثة صارخة وكأنه يقول له : « أنك أبى الجبار القادر فمد لى يدك » ، فبلغ التأثير بالسيد غايته ولكنه واصل تظاهره بالهدوء القرون بالاستهانة قائلا : — لا أنكر عليك تأملك ولكنى أنكر عليك أن تفالى فيه ، كذلك يطيب لى أن أعذرك على غضبك ولكن قليلا من العقل حرى بأن يردك بلا عناء ، سائل نفسك في هدوء ماذا عليك من زواجها ؟.. امرأة تتزوج ، كما تتزوج النساء كل يوم وكل ساعة ، وليست

هى بالتى تحاسب على مثل هذا الزواج لما سلف من سلوكها ، بل لعلمها خليقة بأن تشكر عليه ، وكما قلت لك مرارا لن يرتاح لك بال حتى تسقطها من حسابك كأنها لم تكن ، فافعل بالله وأرح نفسك ، وتعر - مهما يكن من أمر القيل والقال - بأن الزواج علاقة مشروعة .. شريفة ..

قال السيد هذا بلسانه فحسب - إذ كان يناقض كل المناقضة ما طبع عليه من غيرة متطرفة فيما يتصل بالآداب المطلقة للأسرة - ولكنه قاله بحرارة كالصدق ، منشؤها ما مارسه من لباقة أهله لأن يكون الحكم الحكيم ووسيط الخير الذى لا يعجزه فض نزاع بين الناس ، ومع أن كلامه لم يضع هباء - حيث أنه من المستحيل أن يضع كلام للسيد هباء حيال أحد من أبنائه - إلا أن غضب الفتى كان أعمق من أن يتبخر بنفخة واحدة فوقع منه موقع قدح بارد من أبريق بالماء المثلج ، وما لبث أن خاطب أباه قائلا :

— هو علاقة مشروعة حقا يا أبى ولكنها تبدو أحيانا أبعد ما تكون عن الشرع ، انى أسائل نفسى عما يدفع هذا الرجل الى الزواج منها ؟!

وبالرغم من خطورة الحال قال السيد لنفسه في شيء من السخرية « أولى بك أن تسأل عما يدفعها هى ! » ، وقبل أن يحاور ابنه واصل ياسين حديثه قائلا :

— انه الطمع .. ولا شيء غيره !

— أو لعلمها رغبة صادقة في الزواج منها ..

ولكن الشاب هاج ثأثره وهتف في حنق وألم معا :

— بل الطمع وحده ..

وبالرغم من خطورة الموقف لم تخف على السيد حدة اللهجة التى خاطبه بها ابنه ، بل لم يخل الرجل من ضيق الى تقديره لحاله وحزنه أو أن يعود الى توكيد قوله السابق ، فلما لم يفعل استطرد قائلا في هدوء نسبي :

— ان ما يدفعه الى الزواج من امرأة تكبره بمشيرة اعوام هو الطمع في مالها وعقارها ...

وجد السيد في تحول النقاش الى هذه النقطة فائدة لم تغب عن اعينته . فهو ينزع الفتى من تركيز تفكيره في امور اتسد حساسية وابعدت للآلم وبحسبه انه يصرفه عن النظر فيما يدفع امله الى الزواج الى ما يدفع الرجل ، والى هذا كله لم يخف عليه ما في رأى ابنه من وجهة فيما يتعلق بالزوج فسرعان ما اقتنع به وشاركه مخاوفه فيه . أجل أن هنية — أم ياسين — غنية للدرجة لا بأس بها ، وقد سلمت لها ثروتها من العقار على ما خاضت من تجارب الزواج والهوى ، بيد أنها كانت فيما مضى شابة حسنة ذات سحر وسلطان ، يخاف منها ولا يخاف عليها ، أما الآن فبعد عن الاحتمال أن تملك نفسها — فضلا عن انفس الآخرين — ما ملكت ، واذن فثروتها خليقة بأن تبدد في ممركة الغرام التي لم تعد من روماتها ؛ وانه لحرام وأى حرام أن يخرج ياسين من جحيم هذه المأساة جريح الكرامة وصفر اليدين . وقال السيد يخاطب ابنه وكأنه يحاور نفسه ويستلهمها الرأي :

— أراك على حق يا بنى فيما تقول ، ان امرأة في سنها صيد يسير خليق بأن يغرى الطماعين من البشر ، فما عسى أن تفعل ؟ . أنتلمس سبيلا الى ذلك الرجل لنحمله على العدول عن مقامراته ؟ ! .. ان الحملة عليه بالوعيد والتهديد سلوك لا ترتضيه آدابنا وما عرفنا به بين الناس ، كذلك التوسل اليه بالرجاء والاقتناع مهانة لاتعضمها كرامتنا .. فلم يبق أمامنا الا المرأة نفسها ! .. ولست اجعل ما حفرت بينك وبينها من قطيعة كانت بها — ولا تزال — خليقة ، بل الحق انى لا ارتاح الى أن تصل ما انقطع بينك وبينها لولا ما استجد من اعدار قهرية ، فلا ضرورة احكام ، ومهما يشق عليك الرجوع فهو رجوع الى أمك ، ومن يدري فلعل ظهورك المفاجيء في افقها يردها الى شيء من الصواب ..

وبدا ياسين أمام أبيه ، كالوسيط أمام المنوم المغناطيسى في اللحظات التي تسبق ما يوحى به اليه ، ذاهلا صامتا ، فوشى حاله بنفاد تأثير الرجل الى نفسه ، أو لعله دل على أنه لم يفاجأ بهذا الافتراح ، وانه يحتمل أن يكون مما دار بنفسه قبل مجيئه ، بيد أنه نعمت قائلا :

— ليس ثمة حل أوفق .. ؟

فقال السيد بقوة ووضوح :

— أراه أوفق الحلول ..

فقال ياسين وكأنه يحدث نفسه :

— كيف أرجع اليها ؟ .. كيف أزوج بنفسى في ماض فررت

منه وليس أحب الى من أن يبتز من حياتى بترأ .. لا أم لى .. لا أم لى ..

ولكن بالرغم من ظاهر قوله شعر السيد بأنه وفق الى جذبه الى رأيه فقال بلباقة :

— هذا حق ، ولكن لا أظن ان ظهورك أمامها فجأة بعد ذلك

الغياب الطويل يمضى بلا أثر ، لعلها اذا رأتك بين يديها شابا تاضجا أن تتحرك أمومتها فتجفل مما عساه يسىء الى كرامتك وتعدل عن سيرتها .. من يدري ؟ !

فطامن ياسين رأسه غارقا في أفكاره ، غير مبالي بما دل عليه من ضيق وأياس . كان يرتعد خوفا من وقوع الفضيحة ، ولعل هذا كان أفزع ما يكرهه ولكن خوفه على ضياع الثروة التي ينتظر أن يرثها يوما لم يكن دون ذلك ، وما عسى أن يفعل ؟ ! .. مهما يقلب أوجه الرأى فلن يجد حلا أوفق مما ارتأى أبوه ، بل ان صدور الرأى عن أبيه البسه في نظره — على تقلقل حاله — وجهة واعفاه هو من هموم كثيرة . لكن .. هكذا قال في نفسه ، ثم قال مخاطبا أباه :

— كما ترى يا أبى ..

لما بلغت به قدماء طريق الجمالية انقبض صدره حتى شعر بأنه يختنق . لقد غاب عنه أحد عشر عاما ، أحد عشر عاما تصرمت فلم ينارعه القلب ائيه مرة واحدة ، أو ترف عليه ذكرى من ذكرياته الا في هالة قاتمة مقبضة نسج وشيها من مادة الكابوس ، والحق أنه لم يكن غادره ولكن واثته فرصة ففر منه فرارا ، ثم ولاه ظهره غاضبا يائسا ، ثم تجنيه بكل قوة نفسه فلم يعرفه بعد ذلك كغاية في نفسه او معبرا الى سواه من الاحياء بيد أنه هو الحى كما عهده في طفولته وصباه ، لم يتغير منه شيء ، ما زال ضيقا تكاد تسده حربة يد اذا اعترضت سبيله ، وها هي بيوته تكاد تتماسر مشربياتها ، ودكاكينه الصغيرة في تلاصقها وزحمتها والطنين الصادر عنها كخلايا النحل ، وأرضه التربة بفجواتها المفعمة وحلا ، وغلمانه الذين يفشون جوانبه ويطنعون على اديمه آثار أقدامهم الحافية ، وسابله الذين لا ينقطع لهم تيار ، ومقلى عم حسن ومطعم عم سليمان ، كل اولئك باق كما عهده فتكاد ترف على شفثيه ابتسامة حزان يريد ثغر طفولته أن يفت عنها لولا مرارة الماضي وسقم الحاضر ..

وترأت لعينيه عطفة قصر الشوق فخفق قلبه بقوة حتى كاد يصم أذنيه ، ثم لاحت على رأس منعطفها الأيمن سلال البرتقال والشفاح منضدة على الطوار امام دكان الفاكهة فعض على شفثيه وغض طرفه في خزى . الماضي ملطخ بالعار . مدفون الرأس في الطين من الخجل ، دائم الجأ بالشكوى من الخزى والألم ، ولكنه كله في كفة وهذه الدكان في كفة وحدها ، بل انها ترجح به ، إذ

انها رمزها الحى الباقى على الزمن ، جمعت في صاحبها وسلالها وغايتها وموقعها وذكرياتها الخزى متبججا والألم ناطقا بالهزيمة مولولة . واذا كان الماضي أحدانا وذكريات هى بطبعها عرضة للتخلخل أو النسيان فهذا الدكان يقوم شاهدا مجسما يكشف مخلخله ويستحضر منسيه . وكان كلما تقدم من المنعطف خطوة تفهقر عن الحاضر خطوات طاولا الزمن على رغم ارادته ، وكأنه يرى في الدكان « غلاما » يرفع رأسه الى صاحبها ويقول « نينة تطلب منك أن تحضر الليلة » ، أو كأنه يراود وهو عائد بقرطاس الفاكهة ضاحك الأسارير ، أو وهو يلفت نظر أمه في الطريق الى الرجل فتجذبه من ذراعه بعيدا أن يلتفت اليهما الأنظار ، أو وهو ينشج بأفيا أمام منظر الافتراس الوحشى الذى يخلقه خلقا جديدا - كلما ورد على ذهنه - على ضوء تجاربه الراهنة فيقلب البشاعة نفسها ، طفتت الصور الملتهية تطارده وهو يجد في الفرار منها ، ولكنه ما أن يتخلص من قبضة أحداها حتى يقع في قبضة الأخرى ، مطاردة عنيفة وحشية أثارت في أعماقه بركان الحنق والمقد فواصل السير الى غايته وهو على أسوأ حال « كيف أمرق الى العطفة وعلى رأسها هذه الدكان .. وهذا الرجل .. أترأه بموقفه القديم منها ؟. لن التفت نحوها ، الى قوة مأكرة تغريبنى بالنظر ، أيعرفنى اذا التقت عينانا ؟! .. اذا بدا منه أنه عرفنى قتلته ، ولكن كيف له بأن يعرفنى ؟! .. لا هو ولا أحد من الحى ، أحد عشر عاما ، تركته غلاما وأعود اليه ثورا .. ذا قرنين ! ثم لا تواتينا القوة على اباداة الحشرات السامة التى لا تنفك تلدغنا .. » ؟ ومال الى العطفة مسرعا بعض الشيء ، متخيلا القوم وهم يستطلعونه بأنظارهم متسائلين « أين ومتى رأينا هذا الوجه ! » . ورتقى في الطريق المتصاعد في غير استواء ، جامعا عزمه على نقض الغبار الخائق عن وجهه ورأسه ولو الى حين ، وتشجيعا لعزمه فر بنفسه بعيدا وراح يتأمل ما حوله ويحدث نفسه قائلا : « لا تضق

بالطريق المتعب فكنت تفرح به صغيراً وأنت تتزحلق على منحدره فوق لوح من الخشب ! » بيد أنه عند يقول حين تراءى له جدار البيت : « ألى أين أسير ؟! الى أمى !.. يا للعجب ، لا أصدق ، كيف القاهها وكيف تلقاني !.. وددت أو .. » ومال يمينا الى عطفة مسدودة ثم اتجه الى أول باب في جانبها الأيسر . هو البيت القديم بلا أدنى شك ، قطع الطريق اليه كما كان يقطعه وهو صغير ، بلا تردد أو تساؤل ، وكأنه ما تركه الا أمس القريب ، ولكنه اقتحم بابه هذه المرة باضطراب غير معهود ، ورفى في الدرج بخطوات ثقيلة بطيئة ، وبالرغم من قلقه وجد نفسه يتفحصه باهتمام مطابقا بينه وبين صورته المحفوظة في خياله فألفاه أضيق قليلا مما في ذاكرته وقد تأكلت بعض جوانبه وتهدمت أجزاء صغيرة من أطراف درجاته المظلة على بئر السلم ، وسرعان ما حجبت الذكريات الحاضر كله . ومر وهو على تلك الحال بالدورين الخارجين حتى انتهى الى الدور الأخير ، ووقف لحظات يتصنت وصلبه يعلو وينخفض ، ثم هز منكبيه كالمتستهي وتقر على الباب ، وبعد دقيقة أو نحوها فتح الباب عن وجه خادم متوسطة العمر ما أن تبينت فيه رجلا غريبا حتى توارت وراء الباب وهى تسأله في أدب عما يريد . وثارت أعصابه فجأة وبلا داع معقول لما بدا من الخادم من جهل بشخصه فدخل بأقدام ثابتة واتجه نحو حجرة الاستقبال وهو يقول بلهجة أمرة :

— قولى لستك ياسين هنا ..

« ترى ماذا تظن الخادم بى ؟ » .. والتفت وراءه فوجدتها مسرعة الى الداخل ، اما لأن لهجته الأمرة غلبتها على أمرها ، واما .. وعض على شفتيه وهو يمرق الى داخل الحجرة . انها حجرة الضيوف كما قدر بلا وعى في لهجته وحدته ولكن ذاكرته كانت تعرف أركان البيت بلا دليل ، ولو وجد في ظرف غير الظرف لطاف مسترجعا ذكرياته من الحمام الذى كان يحمل اليه وهو يبكى الى

المشربية التى كان ينظر من وراء نقوبها الى موكب الزفة مساء بعد مساء . ترى الأثاث الحجرى الراهن عو أثاث الماضى البعيد ؟ . انه لا يذكر من الأثاث القديم الا امرأة طويلة ثبتت في حوض مذهب تنبثق من ثغرات في سطحه ورود صناعية مختلفة الألوان ، وتركز في زاويتيهِ المتباعدين فناير تتدلى من أعناقها أهلة بلورية طالما ولع بالعبث بها والنظر خلالها الى المكان فيلوح في حلل غريبة يذكر اغراءها وان غاب عنه منظرها ، ولكن لاداعى للتساؤل ، فأثاث اليوم غير أثاث الأمس ، لا لجدته فحسب ، ولكن لأن حجرة امرأة مزواج خليقة بأن تتغير أو تتجدد ، كما تغير أبوه ، وتاجر الفحم ، والباشجاويش . وركبه توتر وضيق فأدرك أنه لم يطرق باب البيت القديم فحسب ولكنه نكأ جرحا متورما وغاص في قبحه . ولم يطل انتظاره ، ولعله جاء أقصر مما يتصور ، إذ ابتدر أذنيه وقع أقدام متتابعة متدافعة ، وصوت يتردد محاورا نفسه بكلام علا جرسه ولم يستين ألفاظه ، ثم أحس بها — وهو لم يزل مولى الباب ظهره — وضلفة الباب المغلقة تطلق تحت سدمة منكبها ، ثم جاءه هتافها وهى تقول بأنفاس مبهورة :

— ياسين !.. ابنى !.. كيف اصدق عيني ؟!.. ربى .. صار رجلا ..
وتدافع الدم الى وجهه المكتنز ، واستدار نحوها في ارتباك وهو لا يدرى كيف يلقاها ولا كيف يكون اللقاء ، ولكن المرأة أعفته من تدبير أمره فهرعت اليه واحتوته بذراعيها وضمتها اليها بشدة عصبية وراحت تقبل صدره — وهو غاية ما وسع شفتاها أن تلفاه من جسمه المنتصب — ثم اختنقت نبراتھا واغرورت عينھا فدفنت وجهھا في صدره مستسلمة مليا ريثما تسترد أنفاسھا . لم يكن حتى تلك اللحظة قد أتى حركة أو نطق بكلمة ، ومع أنه شعر شعورا عميقا أليما بأن جموده أشد من أن يحتمل الا أنه لم يبدر منه ما ينم عن حياة : أي حياة ، فلأزم جموده وخرسه ، بيد أنه

كان متأثرا غاية التأثير وان لم يتضح له نوع التأثير بادئ الأمر بحال
يطمئن إليها ، ولكنه ، على حرارة استقبالها ، لم يجد رغبة للارتقاء
في حضنها أو تقبيلها ، لعله لم يستطع أن ينزع الذكريات المحزنة
الناشئة في نفسه تعرض مزمن رافقه منذ الصبا ، ومع أنه وجه
ارادته بعزم وتصميم الى اخلاء المسرح من الماضي في اللحظة الراهنة
ليملك فكره وحكمته ، الا أن الماضي المطرود انعكس على صفحة
قلبه ظلالات قائمة كذبابة نشبت عن الفم بعد أن خلفت وراءها جرنومة
تسرى ، فأدرك في ذلك الموقف الرهيب : أكثر مما أدرك في ماضيه
كله . الحقيقة المحزنة التي طالما أدمت فؤاده وهي أن أمه قد
أقتلعت من صدره . ورفعت المرأة رأسها اليه كأنها تدعوه الى
تقريب وجهه فلم يستطع الاباء وأدنى وجهه منها فقبلته في خديه
وجبينه ، التقت أثناء العناق عيناها فأنشج جبينها تأثرا بارتباكها
وحياها لا لعاطفة أخرى ، ثم سمعها نغمم :

— قالت لى ياسين هنا : قلت ياسين ! من يكون هذا ؟! ولكن
من يكون غيره ؟ ليس لى الا ياسين واحد ، ذاك الذى حرم بيتى
على نفسه وحرم نفسه على ، فماذا حدث ؟ وكيف استجيب
الدعاء آخر الدهر ؟! وجئت عدوا كالمحونة لا أصدق أذن ، وما
أنت ، أنت دون غيرك والحمد لله ، تركتني غلاما وعدت الى رجلا ،
كم قتلني الشوق إليك وأنت لا تحسن لى وجودا ..

وأخذته من ذراعه الى الكنية فمضى معها وهو يسائل نفسه
متى تنحسر هذه الموجة الطاغية من الاستقبال الحار حتى يتبين
الطريق الى هدفه . وجعل يسترق اليها النظر في استطلاع مقرون
بالدهشة والقلق ؟! كأنها لم تتغير الا أن يكون جسمها قد زاد
امتلاء ولكنه لا يزال محافظا على حسن تقطيعه ، أما الوجه القمحي
المستدير والعينان السوداوان المكحولتان فعلى سابق عهديهما
تقريبا من القسامة الباردة . ولم يرتج الى ما رآه على صفحة
الوجه والعنق من زواق كأنه كان ينتظر أن تغير أعوام القطيعة من

دأبها القديم على العناية بنفسها وولعها بالتبرج لداع ولغير ما داع
أى حتى في تلك الأوقات التي تخلو فيها الى نفسها : وجلسا جنباً
الى جنب وهي تحديق الى وجهه بخنسان تارة وتقيس طوله
وعرضه بعينين معجبتين تارة أخرى ثم تمت بصوت متهدج :
— آه يا ربى لا أكاد أصدق عيني ، أنا في حلم ، هذا ياسين !
أى عمر ذهب هباء ، كم دعوتك ورجوتك ، وبعثت اليك الرسول
تلو الرسول ، ماذا أقول ؟! .. دعنى أسألك كيف قسا قلبك على
لهذا الحد ؟! كيف أعرضت عن دعواتي الحارة ، كيف تصاممت
عن نداء قلبي المكروب ؟ كيف .. كيف ؟! كيف نسيت أن لك
أما منزوية هنا ؟

ووقف انتباهه عند الجملة الأخيرة فوجدها غريبة تدعو الى
السخرية والرتاء معا ، وكأنها أفلتت منها في ذهول الانفعال ،
أجل يوجد شيء ، وأشياء ، تذكره صباح مساء بأن له أما ، ولكن
أى شيء وأى أشياء ؟!

ورفع اليها عينيه في حيرة دون أن ينبس فالتقت عيناها
لحظة ، وابتدرته المرأة قائلة في لهفة :
— لماذا لا تتكلم ؟

فخرج ياسين من حيرته بتنهدة مسموعة ثم قال وكأنه لم
يجد بدا مما قال :

— ذكرت كثيرا ، ولكن آلامى كانت أقطع من أن تطاق ..
وقبل أن يتم كلامه كان النور الذى ينبعث من نظرتها قد
خمد ، واحتلت الحدقتين غمامة خيبة وفتور ساقطها رياح تهب
من جوف الماضي الأسيف ، فلم تعد تطيق التحديق في عينيه
وخفضت جفניה وهي تقول بلهجة حزينة :

— ظننتك برئت من احزان الماضي ، وانها علم الله لا تستحق
بعض ما أوليتها من غضب حملك على هجرى أحد عشر عاما ..
وعجب لعتابها عجا احقنه ، واستنكره استنكارا ذر على

غضبه المكتوم فلغلا فانفعل انفعالا لولا القصد الذى جاء من أجله
لشار بركانه ، اتعنى المرأة حقا ما تقول ؟ .. أهان عليها ما فعلت
لهذا الحد ؟ أم تظن به الجهل بما كان ؟! بيد أنه ضبط اعصابه
بقوة ارادته التى لم تغفل عن هدفها وقال :

- تقولين أنها لا تستحق غضبى ؟ .. أراها تستحق الغضب
كل الغضب وأكثر ..

فتركت ظهرها يسقط على مسند الكنبه كئيب تهدم ، ورمته
بنظرة بين العتاب والاستعطاف قائلة :

.. ما وجه العيب في أن تتزوج امرأة بعد طلاقها ؟ ..

فشعر بنيران الغضب تتأجج في عروقه وان لم تبد منها آثار
الا في انطباق شفثيه ثم التصاقهما ، لا زالت تتكلم ببساطة كأنها
مقتنعة على يقين ببراءتها ! .. وتتساءل عن وجه العيب في أن
تتزوج « امرأة » بعد طلاقها ، حسن ، لا عيب في أن تتزوج « امرأة »
بعد طلاقها ، أما ان تكون المرأة أمه فهذا شيء آخر ، شيء آخر
جدا ، وإى زواج الذى تعنيه ؟! .. انه زواج وطلاق ثم زواج
وطلاق ثم زواج وطلاق ، وهنالك ما هو أدهى وأمر ، ذلك
« الفكهاني » ..! .. اذكرها به ؟ .. اصفعها بما في نفسه من مر
ذكرياته ؟ ايصارحها بأنه لم يعد جاهلا كما تظن ؟ وأرغمته حدة
الذكريات على الخروج عن اعتداله هذه المرة فقال بامتعاض شديد:
- زواج وطلاق ، زواج وطلاق ، هذه أمور شائنة لم تكن
لتليق بك ، ولشد ما مزقت نياط قلبى بلا رحمة .

فشبكت ذراعيها على صدرها في استسلام اليائس وقالت
باشفاقى حزين :

- انه سوء الحظ ولا شيء غيره ، انى سيئة الحظ ، هذا كل
ما هنالك .

فبادرها قائلا ، وقد تقلصت أساريره وانتفخ لغده فلفظ
الكلمات كأنما يلفظ مستخبثا تعافه النفس :

- لا تحاولى أن تبرئى ساحتك فما يزيدنى هذا الا الما على
الم ، من الخير أن نسدل على آلامنا ستارا يخفيها ما دمنا
لا نستطيع أن نمحوها من الوجود محوا ..

ولاذت بالصمت على كره والقلب يسفق اشفاقا شديدا من
هائج الذكريات على طيب اللقاء وما بعثه في نفسها من آمال ،
وجعلت تلحظه بقلق كأنما تستخبره عما يطوى عليه صدره ، فلما
نقل عليها صمته قالت متشكية :

- لا تلج في تعذيبى وأنت وحيدى ..

ووقع الكلام من نفسه موقعا غريبا كأنما يكشف له لأول
مرة ، بيد أنه وجد فيه باعثا جديدا للهياج والتوتر ، انه ابنها
حقا ، وأنها أمه الوحيدة كذلك ، ولكن كم رجلا ..! وأشاح عنها
بوجهه ليخفى ما ارتسم على صفحته من آى التقرز والغضب ،
ثم اغمض عينيه فرارا من ذكريات مناظر بشعة ، عند ذاك
سمعها تقول برقة وتوسل :

- دعنى أعتقد بأن سعادتى الراهنة حقيقة لا وهم ، أجل
حقيقة لا وهم ، وبأنك جئتنى منفضا عن قلبك أحزان الماضى
كله الى الأبد .

فنظر اليها نظرة طويلة مركزة وشئت بخطورة أفكاره ، ولم
يكن شيء في تلك اللحظة يستطيع أن يعدل به عن النفاذ الى
غرضه ولو بتأجيله الى حين ، فقال بصوت يدل على أن الفاظه
التي يتفوه بها أقل بكثير من المعانى التى يوحى بها :

- هذا يتوقف عليك أنت ، فان شئت كان لك ما تحبين ..
فتجلت في عيني المرأة نظرة قلق نمت عما تعاني من ايحاء
الخوف وقالت :

- انى أرغب في مودتك من أعماق قلبى ، وطالما تمنيتها ، وكم
سمعت اليها فرددتنى بلا رحمة ..

ولكنه كان مشغولا عن كلامها الحار بما يضطرب في ذهنه فقال :

— بيدك ما تمنين ، بيدك أنت وحدك ، إذا جعلت من الحكمة رائدك ..

فتساءلت المرأة في انزعاج :

— ماذا تعنى ؟

فأحلقه تجاهلها وقال بتذمر :

— مضمون كلامي واضح ، هو أن تعدلى عما لو صحح ما بلغنى عنه لكان فيه الضربة القاضية على !

فانسعت عينها وتجهم وجهها في يأس غير خاف ، وتمتمت وهى لا تدري :

— ماذا تعنى ؟

بيد أنه ظننها تصر على التجاهل فقال بغيظ :

— أعنى أن تلفى مشروع الزواج الجديد ، وألا تسمحن لنفسك بمعادة التفكير في شيء من هذا القبيل ، لم أعد طفلا ، وليس بصبرى متسع لطعنة جديدة ..

أطرقت في حزن بالغ ، ولازمت الأطراق كأنما أخذتها سنة من النوم ، ثم رفعت رأسها في بقاء فلاح الحزن في وجهها أعماق مما قدر ، ثم قالت بصوت ضعيف وكأنها تخاطب نفسها :

— اذن جئت من أجل هذا !

ودون تفكير فيما يقول قال :

— نعم !..

فوقع جوابه كطلقة نارية فاذا بكل شيء حوله يتغير ويتبدل سريعا ، ويكفهر الجو . وقد استرجع فيما بعد — وهو خال إلى نفسه — ما دار من حديث بينه وبين أمه في هذه المواجهة فأقر أقواله جميعا حتى بلغ هذا الجواب الأخير فتردد حياله لا يدرى الخطأ أم أصاب ، وظل على تردده طويلا . أما المرأة فقد غمضت وهى تنظر فيما أمامها :

— لشد ما أتمنى أن أكذب أذن ..

وأدرك أنه تعجل بعد فوات الفرصة ، وسخط على نفسه حانقا ، ثم صب سخطه على ما حوله . فاندفع قائلا بلا وعى مداريا خطاه بما هو أمعن في الخطأ :

— أنك تفعلين ما تشائين دون تقدير للعواقب ، وكنت أنا دائما الضحية التى تتلقى الاساءة بلا ذنب جنته ، وقد ظننت العمر رادك الى شيء من العقل فما أعجب الا لقائل يقول أنك شارعة في الزواج من جديد !.. يا لها من فضيحة تتجدد كل بضعة أعوام كان لا نهاية لها .

من شدة اليأس راحت تصفى اليه فيما يشبه اللامبالاة ، ثم قالت بأسى :

— أنت ضحية ، وأنا ضحية ، كلانا ضحية لما يوسوس به اليك أبوك وتلك المرأة التى تعيش في كنفها !..

وعجب لهذا الانحراف في مجرى الحديث الذى بدا له مضحكا ، بيد أنه لم يضحك . ولعله لؤذاك غضبا وهو يقول :

— ما دخل أبى وزوجه في هذا الشأن !.. لا تتملى من فعالك بالقاء التهم في وجوه الأبرياء .

فهمت بصوت يشبه الأنين :

— ما رأيت ابنا أقسى منك !.. أهذا خطابك لى بعد فراق أحد عشر عاما !

فلوح بيده في احتجاج غاضب وقال بحدة وسخط :

— الأم الخاطئة خليقة بأن تلد ابنا قاسيا ..

— لست خاطئة .. لست خاطئة .. ولكنك قاس غليظ القلب كأيك ..

فنفخ في ملل وصاح بها :

— رجعنا الى أبى !.. حسينا ما نحن فيه .. اتقى الله وتراجعى عن التفتيح الجديدة .. أريد أن أمنع هذه الفضيحة

بأى ثمن ...

ومن شدة اليأس والحزن خرج صوتها متلعغا بالبرودة وهي تقول :

— وماذا يهمك منها ؟

فصاح في دهش :

— كيف لا تهمنى فضيحة أمي ؟!

فقالت في حزن مشوب بما تيسر من التهكم :

— أنت في الحق لا تعدنى أما لك ..

— ماذا تعنين ؟

فغمغمت في يأس متجاهلة تساؤله :

— ما دمت قد خلعتنى من نفسك فيجدر بك أن تدعنى

وشأنى ...

فهتف غاضبا :

— حسبى ماكان ، لن أسمح لك بتلويت سمعتى من جديد ..

فقالت وهي تزدرد مرارة ريقها :

.. لا شيء هنالك مما يلوث السمعة ، والله شهيد ..

فسألها مستنكرا :

— أتصرين على هذا الزواج ؟!

فصمتت مليا ، مطرقة محزونة غارقة في اليأس ، ثم ندت

عنها تنهدة عميقة ، ثم قالت بصوت لا يكاد يسمع :

— قضى الأمر وكتب العقد ، ولم يعد بوسعى منعه !

فانفض يأسين قائما وقد تصلب جسمه البدين وعلت وجهه

صفرة وركز بصره في رأسها المطرق وهو يغلى غضبا ، ثم صاح

بها بصوت كالزئير :

— يا لك من امرأة .. مجرمة !..

فغمغمت بصوت مغموس يدل على الاستسلام المطلق :

— سامحك الله ...

عند ذاك خطر له أن يلطمها بما يعرف — مما تظن أنه مجهول —

من ماضى سيرتها ، بحديث « الفكهاني » الأسود ، قذيفة يصبها على رأسها بقتة فتنتره اربا ويشار بها أفلح النار ، وتوهج في عينيه بريق مخيف تطاير من تحت جبهة عابسة مكفهرة تجمعت في أخايدها نذر الشر والوعيد ، وفغر فاه ليطلق قذيفته ، ولكن لسانه لم يتحرك ، التصق بسقف حلقه كأنما جذبه اليه مخه الذى لم يمهه العناء عن البلاء ، ومرت اللحظة الرهيبة في سرعة الزلزال الخاطف الذى يشعر فيه الانسان بأنفاس الموت تتردد على وجهه لحظات ثم يعود كل شيء الى مستقره ، وزفر وهو كظيم ، وتراجع غير آسف وجبينه يسح عرقا باردا . وقد ذكر موقفه هذا — فيما بعد — فيما ذكر من مواقف هذه المقاتلة الغريبة فارتاح لتراجع كل الارتياح وإن عجب له أشد العجب ، وكان أعجب ما عجبه شعوره بأنه انما تراجع رحمة بنفسه لا رحمة بها وكأنه تستر على كرامته لا على كرامتها وإن لم يكن ثمة ما يجهله من الأمر !.. وأفرغ غضبه في كفيه فجعل يضرب واحدة على الأخرى ويقول :

— مجرمة !.. فضيحة مجسمة !.. كم ساضحك من غبائى

كلما أذكر أننى أملت خيرا من هذه الزيارة !.. (ثم بلهجة تهكمية)

.. انى أعجب كيف طمعت بعد هذا في مودتى ؟!

فجاء صوتها وهو يقول في انكسار وحسرة :

— منتنى نفسى أن نعيش على مودة رغم كل شيء !.. وبعثت

زيارتك المفاجئة في قلبى آمالا حارة خيل الى معها انى أستطيع

أن أهيك أسمى ما في قلبى من حب .. بلا كدر ..

وابتعد عنها متقهقرا كأنما يفر من لين كلامها الذى لم يعد

شيء يؤرث غضبه مثلما يؤرثه ، وشعر حائقا يائسا بأنه لم تعد

ثمة فائدة من بقائه في هذا الجو الكريه فقال وهو يستدير

ليأخذ سمته الى الخارج :

— وددت لو أستطيع قتلك ..

فغضت بصرها وقالت في حزن بالغ :

— لو فعلت لأرحمتنى من حياتى ..

وبلغ به الضيق النهاية فألقى عليها نظرة أخيرة مظلمة بالمقت
ثم غادر المكان وأرض الحجرة ترتج تحت وقع قدميه . وعندما
انتهى الى الطريق ، وأخذ يتوب الى نفسه ، ذكر لأول مرة أنه
نسى حديث العقار والمال فلم يطرقة بكلمة واحدة ، أنسيه كأنما
لم يكن هو الباعث الأول لهذه الزيارة !..

— ١٩ —

فتحت الست أمينة الباب وأدخلت رأسها وهى تقول برنتها
المعهودة :

— أفي حاجة الى خدمة يا سيدى الصغير ؟

فجاءها صوت فهمى قائلا :

— تعالى يا نينة ، خمس دقائق فقط ..

فدخلت المرأة مسرورة بتلبية الدعوة فرائته واقفا أمام مكتبه
يلوح في وجهه الجد والاهتمام فأخذها من يدها الى كنبه غريبعدة
من الباب وأجلسها ثم جلس الى جانبها وهو يتساءل :

— ناموا جميعا ؟

وأدركت المرأة أنها لم تدع لتقديم خدمة عابرة والا ما كان
هذا الاهتمام وهذه الخلوة فانتقل الاهتمام بسرعة الى نفسها
المطوعة للإيحاء وقالت تجيبه :

— ذهبت خديجة وعائشة الى حجرتهما في ميعاد كل ليلة ،
أما كمال فقد تركته الآن في فراشه .

كان فهمى يترقب هذه اللحظة منذ آوى الى حجرة المذاكرة

عند أول المساء فلم يستطع كمادته تركيز انتباهه في الكتاب الذى
بين يديه ، وجعل يتابع ، بين آونة وأخرى ، أحاديث أمه وشقيقتيه
في جزع لا يدرى متى ينتهين ، ثم الى أمه وكمال وهما يحفظان
معا جملة من سورة عم . حتى ساد الصمت ثم جاءت أمه لتحبيه
تحية المساء فدعاها اليه وقد تناهى به توتر الانتظار . ومع أن أمه
بدت كالخمامة الوديمة . ومع أنه لم يشعر حيالها قط بتحفظ أو
خوف ، إلا أنه وجد عسرا في التعبير عما يريد الإفصاح عنه ، فعلاه
ارتباك الحياء ، ومضت فترة صمت ليست بالقصيرة قبل أن
يقول مختلج الجفنين :

— دعوتك يانينة لأشاورك في أمر يهمنى جدا .

واشتد الاهتمام بالمرأة حتى تمثله قلبها الرقيق خوفا أو
شبيها بالخوف وقالت :

— أبى مصفية اليك يابنى ..

فتنفس تنفسا عميقا ليخفف عن أعصابه وقال :

— ما رأيك فيما لو .. أعنى أليس من الممكن أن ..

وتوقف مترددا ، ثم غير لهجته قائلا برقة وتردد وارتباك :

— ليس لى من أفضى اليه بدخيلة نفسى الا أنت ..

— طبعاً ، طبعاً يا بنى ..

فقال متشجعاً عما قبل :

— ما رأيك اذا اقترحت عليك أن تخطبى لى مريم بنت جارتنا

السيد محمد رضوان ؟..

وتلقت أمينة كلماته بدهشة أولا ، فأجابته أول ما أجابت
بابتسامة تدل على الحيرة أكثر من الفرح ثم انقشع الخوف الذى
قبض صدرها حيناً وهى تترقب إفصاحه عما يريد ، ثم اتسمت
بإتسامتها وأشرقت معلنة عن سرور صاف ، وتوددت للحظات
لا تدرى ماذا تقول ، ثم اندفعت قائلة :

— أهذه رغبتك حقا؟.. سأقول لك رأيي صراحة .. ان يوما أمضى فيه لأخطب لك بنت الحلال لهو أسعد أيام حياتي .. فتورد وجه الشاب وقال بامتنان :

— شكرا لك يا أماء ..

ورنت الأم اليه ببسمة لطيفة وقالت برجاء :

— يا له من يوم سعيد ، لقد تعبت كثيرا وصبرت كثيرا ، وليس بالكثير على الله ان يجزيني على تعبى وصبرى بمثل هذا اليوم المرحى ، بل بأيام مثله كثيرة ليقر عينى بك وبأختيك خديجة وعائشة ..

وغابت عينها في رؤى الأحلام السعيدة حتى بدا لها ما يقظها فجأة فتراجع رأسها في قلق كقطة أقبل نحوها كلب ، وتمتمت في أشفاق :

— ولكن .. أبوك؟!

وأبتسم فهمى ممتعضا وقال :

— من أجل هذا دعوتك للمشاورة ..

ففكرت المرأة قليلا ثم قالت وكأنها تخاطب نفسها :

— لا أدري ماذا يكون موقفه من هذا الرجاء ؟. أبوك شخص غريب ، غير الناس جميعا ، وقد يرى جريمة فيما يراه الغير شيئا عاديا ..

فقطب فهمى قائلا :

— ليس في الأمر ما يدعو الى الغضب أو الاعتراض .

— هذا رأيي ..!

— وغنى عن البيان ان الزواج سيؤجل حتى أتم دراستي وأجد لنفسي عملا ..

— طبعاً .. طبعاً ..

— فيم يكون الاعتراض اذن ؟!

فنظرت اليه نظرة كأنما تقول له : « ومن ذا يحاسب أباك اذا

أراد أن ينبذ المنطق جانبا ؟ » هي التى لم تعرف حياله الا الطاعة العمياء أصاب أم أخطأ ، عدل أم ظلم ، بيد أنها قالت :

— أرجو أن يبارك رجاءك بالقبول ..

فقال الشاب بحماس

— لقد تزوج أبى وهو في سنى هذه : ولست أقصد شيئا من هذا ، ولكنى سأنتظر حتى يكون الزواج طبيعيا لا اعتراض عليه من أى ناحية ..

— ربنا يحقق رجاءنا ..

وسكنا الى الصمت مليا وهما يتبادلان النظرات ، مجتمعين في فكرة واحدة وهما عن بداهة يدربان اذا كان كلاهما يفهم صاحبه خير فهم ، ويقرا ما يدور بخاطره في غير ما عسر ، ثم قال فهمى مفصحا عما يشغلها معا :

— بقى ان نفكر فيمن يفاتحه بالموضوع ..!

وابتسمت المرأة ابتسامة أفقدها التفكير والقلق روحها ، وأدركت أن ابنها الأريب يذكرها بالواجب الذى لا يستطيع أن يؤديه أحد سواها بالأسرة ، ولم تعترض على هذا لأنه لا سبيل غيره ، الا أنها قبلته على كره كما تقبل أمورا كثيرة وهى تسأل الله حسن العاقبة ، وقالت برقة وعطف :

— ومن غيرى يفاتحه؟.. ربنا معنا ..

— انى آسف .. لو كان بوسعى أن أحدثه لفعلت .

— سأحدثه ، وسيوافق باذن الله ، مريم فتاة جميلة ، مؤدبة ، من أسرة كريمة ..

وسكنت لحظة ثم استدركت متسائلة كأنما خطر لها الخاطر لأول مرة :

— ولكن أليست هى في مثل سنك أو تزيد ؟!

فقال الفتى جزعا :

— لا يهمنى هذا بتاتا !

فقلت مبتسمة :

— على بركة الله ، ربنا معنا ، « ثم وهى تنهض » ادعك الآن لعناية المولى ، وإلى القد .. ومالت نحوه فقبلته ثم عادت الحجرة وأغلقت الباب وراءها ، ولكن كم أدهشها أن ترى كمال جالسا على الكنبة مكبا على كراسية بين يديه فتهفت به :

— ما الذى عاد بك الى هنا ؟

فنهض الغلام مبتسما في ارتباك وقال :

— تذكرت انى نسيت كراسية الانجليزى فعدت لآخذها ثم بدا لى أن أستعيد الكلمات مرة أخيرة .

وذهبت معه مرة أخرى الى حجرة النوم ولم تتركه حتى تمدد تحت الغطاء ، ولكنه لم ينام ، وكان النوم أعجز من أن يغلب اليقظة الماكرة التى تنبعث في شعوره ، فلم يلبث أن وثب من السرير ومضى الى سمعه وقع أقدام أمه وهى ترقى السلم الى الدور الأعلى ، ثم فتح الباب وجرى الى حجرة شقيقته ودفع بابها ودخل دون أن يفلقه ليوسع للمصباح المعلق بالصالة منفذا يضيء منه جانباً من الظلمة القاشية في الداخل ، وهرع الى الفراش وهو يهمس « أبله خديجة ! » فجلست الفتاة في الفراش دهشة فوثب الى جانبها وهو يلهث من الانفعال ، وكأنه لم يقنع بمستمعة واحدة ليستودعها السر الذى أطار النوم من عينيه فمد يده الى جسم عائشة وهزه ولكن الفتاة كانت تنبث الى القامد وأزاحت عنها الغطاء ثم رفعت رأسها بين الاستطلاع والاحتجاج متسائلة :

— ماذا جاء بك الآن ؟

لم يأتبه للهجة الاحتجاج لأنه كان على يقين من أن كلمة واحدة يشير بها الى سره خليقة بأن تغلبهما رأسا على عقب ، وقفز لهذا قلبه بهجة وسرورا ، ثم قال هامسا كأنه يحاذر أن يسمعه رابع :

— عندى سر غريب ..

فسأله خديجة :

— أى سر هذا ؟! .. هات ما عندك وارنا شطارتك ..

ولم يعد باستطاعته الكتمان فقال :

— أخى فهمى يزيد أن يخطب مريم ..

عند ذاك جلست عائشة في الفراش بدورها في حركة آلية سريعة كأنما التصريح رشة ماء بارد ألقيت في وجهه وسنان ، وتقاربت الأشباح الثلاثة في شكل هرمى كما بدا على الضوء الخافت التنازل الى الحجرة والمنعكس على أرضها فيما يلى الباب المفتوح على هيئة متوازي الأضلاع مذبذب الأطراف تبعا لذبذبة ذبالة المصباح الذى تعرض ، بترك الباب مفتوحا — الى تيار وأن نسيم من خصائص النافذة الى الصالة في لطف همسات تديع سرا ، ثم تساءلت خديجة في اهتمام :

— كيف عرفت هذا ؟

— ركت فراشى لأحضر كراسية الانجليزى ، وعند باب أخى جاءنى صوته وهو يتكلم فلبدت في الكنبة ثم أعاد على مسمعيهما ما تسرب اليه من وراء الباب الموارب وهما ينصتان اليه في اهتمام ملك عليهما الأنفاس حتى فرع من حديثه ، وهنا تساءلت عائشة كأن بها حاجة الى المزيد من الاقتناع :

— أتصدقين هذا ؟

فقلت خديجة بصوت كأنه ينبعث من تليفون بمدينة بعيدة :

— اتصورين أن يخترع هذا « مشيرة الى كمال » حكاية

طويلة عريضة كهذه ؟

— لك حق « ثم ضاحكة لتخفف من حدة اهتمامها » اختلاق

موت غلام في الطريق شيء ، أما هذه الحكاية فشيء آخر ..

فتساءلت خديجة دون أن تلقى بالا الى احتجاج كمال الذى

اعترض على التعريض به :

— كيف وقع هذا يا ترى ؟!

فضحكت عائشة قائلة :

— ألم أقل لك مرة أنى أشك في أن اللبلاب هو الذى يدعوى
فهى الى السطح كل يوم ؟!
— انه اللبلاب الآخر الذى التفت حول ساقه هو .
فترنمت عائشة بصوت خفيض :
— لا ملام عليك يا عيوىنى في جبهه .
فنهرتها خديجة قائلة :

— هس .. ليس هذا وقت الغناء .. مريم في العشرين
وفهى في الثامنة عشرة .. كيف توافق نينة على هذا ؟!
— نينة ؟! .. نينة حمامة وديعة لا تدرى كيف تقول لا ،
ولكن صبرا ، أليس من الحق أن أقول أن مريم جميلة وطيبة ؟!
ثم ان بيتنا هو البيت الوحيد فى الحى الذى لم يعرف الأفراح بعد ..
كانت خديجة — كعائشة — تحب مريم ، ولكن الحب لم يستطع
أبدا أن يخفى عن عينيها مواضع الانتقاد فى المحبوب أيا كان
شأنه ، فلم يكن يعجزها — عند الضرورة — الوقوف عند مواضع
الانتقاد فحسب ، ولما كانت سيرة الزواج تثير مخاوفها الكامنة ،
وغيرتها ، فقد انقلبت على صديقتها دون مشقة ، وأبى قلبها
ان يقبلها زوجة لأخيها ، ومضت تقول :

— مجنونة أنت ؟! .. مريم جميلة ولكنها دون فهى بمراحل
بعيدة .. فهى يا حمارة طالب بالعالى ، وسيكون قاضيا
يوما ما ، فهل تتصورين مريم زوجا لقاض كبير المقام ؟! .. انها
مثلنا على أكثر تقدير ، بل هى دوننا فى أكثر من ناحية ولن
تنزوج احدانا بقاض ..!
وتساءلت عائشة فى نفسها : « من قال القاضى أحسن من
الضابط !! » ثم سألتها محتجة :
— لم لا ؟!

فواصلت الأخرى حديثها دون اهتمام باعترافاها :
— يستطيع فهى أن يتزوج بفتاة أجمل من مريم مائة مرة ،

وفى نفس الوقت تكون متعلمة وغنية وبنت بك أو حتى باشا ،
فلماذا يتسرع بخطة مريم ؟! .. ما هى إلا أمية طويلة اللسان ،
أنت لا تعرفينها كما أعرفها ..
وأدركت عائشة أن مريم انقلبت فى نظر خديجة الى جملة من
العيوب والنقائص ، بيد أنها لم تتمالك نفسها — حياء وصفها
بطول اللسان تلك الصفة التى لخديجة منها أكبر نصيب — من
أن تبتسم مستترة بالظلمة ، وتحاشت انارتها فقالت بتسليم :
— لنضع الأمر لله ..

فقالت خديجة بثقة وإيمان :
— الأمر لله فى السماء ولأبى فى الأرض وسوف نرى ماذا يكون
رأيه غدا .. « ثم موجهة الخطاب الى كمال » .. أن لك أن
تعود الى سريرك بسلام ..
عاد كمال الى حجرته وهو يقول لنفسه « لم يبق الا ياسين »
وسأخبره غدا .. »

— ٢٠ —

جلست خديجة وعائشة القرفصاء متواجهتين لصق الضلفة
المغلقة من باب حجرة الوالدين بالدور الأعلى وهما تكتمان أنفاسهما
فى حذر وتعدان آذانهما الى الداخل فى اهتمام وتلقف . كان الوقت
قريب العصر بقليل ، وكان السيد قد نهض من قيلولته فتوضأ
وجلس كمادته يحتسى القهوة منتظرا الأذان ليصلى قبل عودته
الى الدكان ، فتوقعت الأختان أن تفتاح الأم اباهما فى الأمر الذى
أنباهما عنه كمال إذ لم يكن أنسب لذلك الغرض من هذا الوقت .
وتناهى اليهما من الداخل صوت أبيهما الجهورى وهو يتحدث

عن أمور البيت العادية فانصتتا في جزع وترقب وهما تتبادلان النظر متسائلتين حتى سمعتا أخيرا الأم وهي تقول في أدب بالغ ولهجة خاشعة :

— سيدى ، اذا اذنت لى حدثتك عن شأن رجائى فهمى أن ابلفك اياه .

عند ذاك أومات عائشة بذقنها الى الداخل كأنها تقول «هذا هو الحديث » على حين راحت خديجة تتخيل حال أمها وهي تنهيا للكلام الخطير فرق قلبها لها وعضت على شفتها في اشفاق شديد ، ثم جاءهما صوت السيد وهو يتساءل :

— ماذا يريد ؟

وساد الصمت قليلا ، أو طويلا بالقياس الى اللتين تسترقان السمع ، ثم قالت المرأة برقة :

— فهمى يا سيدى شاب طيب ، حاز رضاك بجده وتفوقه وأدبه ، حماه الله من شر الأعين ، ولعله يلغى رجاءه ! ادلايا بمنزلته عند والده ..

فقال الأب بلهجة تخيلناه معها راضيا :

— ماذا يريد ..؟ تكلمى ..

ومال رأساهما نحو الباب وكل منهما تحملق في الأخرى ولا تكاد تراها فجاءهما الصوت المتهاافت وهو يقول :

— سيدى يعرف جارنا الطيب السيد محمد رضوان ..؟

— طبعا ..

— رجل فاضل مثل سيدى واسرة كريمة وجيران ولا كل الجيران ..

— نعم ..

واستطردت بعد تردد :

— فهمى يسأل يا سيدى هل يجوز له والده أن .. يخطب

مريم كريمة جارنا الطيب لتبقى على ذمته حتى يصير أهلا للزواج؟

وهنا علا صوت السيد وقد غلظت نبراته بالغضب والاستنكار :

— يخطب؟!.. ماذا تقولين يا ولية؟!.. هذا الغلام!..

ما شاء الله .. أعيدى على سمعى ما قلت ..

فقال الأم بصوت متهدج وقد تخيلتها خديجة وهي تنكمش في ذعر :

— ليس الا أنه يتساءل ، مجرد تساؤل يا سيدى والأمر لك .. فقال الصوت المتفجر بالغضب :

— لا عهد لى ولا له بهذا التدلل المائع ، ولا أدرى ما الذى أقلف تلميذا حتى يتمادى في مطالبه الى هذا الحد؟!.. ولكن أما بك تلك خليقة بأن تفسد أبناءها ، فلو كنت أما كما ينبغى لما جسر على مفاتحتك بمثل هذا الهذر الوقح ..

ركب الفتاتين خوف ووجوم خالطهما في قلب خديجة ارتياح ، ثم سمعا صوت الأم المتهدج المستخذى وهي تقول :

— لا تجشم نفسك مشقة الغضب يا سيدى ، كل شىء يهون الا غضبك ، ما قصدت من ناحيتى اساءة قط ، ولا تخيلها أبنى وهو يحملنى رغبته ببراءة ، ولكنه رجائى بحسن نية فرأيت أن أعرض الأمر عليك ، وما دام هذا هو رأيك فسأبلغه اياه ، وسيذعن له بكل خضوع كما يذعن لأمرك دائما ..

— سيدى أراد أم لم يرد ، ولكنى أريد أن أقول لك أنك أم ضعيفة لا يرجى منها خير .

— انى أتعهدهم بما توصى به ..

— خبرينى عما دعاه الى التفكير في هذا الرجاء ؟

وارهفت الفتاتان السمع في اهتمام وانزعاج وقد فاجأهما هذا السؤال الذى لم يتوقعاه ، ولكنهما لم تسمعا لأمهما جوابا وتصورتاها وهي ترمش في ارتباك وخوف فمطف قلباهما في اشفاق شديد :

— ماذا أخرسك؟!.. خبرينى هل رأها ؟

— كلا يا سيدى ، ان ابنى لا يرفع عينيه الى جارة ولا الى غيرها ..

— كيف رغب في خطبتها دون ان يراها ؟ .. ما كنت أحسب أن لى أبناء يسترقون النظر الى حرمان الجيران !
— معاذ الله يا سيدى معاذ الله .. ان ابنى اذا سار في الطريق لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، وهو في البيت لا يكاد يفادر حجرته الا لضرورة ..

— ما الذى دعاه الى طلبها اذن ؟
— لعله يا سيدى سمع شقيقتيه وهما يتحدثان عنها ..
وسرت في بدن الفتاتين رعدة شديدة ففغرتا ثغريهما في فزع وهما تنصتان ..

— ومتى كانت شقيقته خاطبتين ! .. يا سبحان الله أينفى ان أهجرك دكانى وعملى وأقبع في البيت لأضبطه وأدفع عنه الفساد !
فهتفت الأم في نبرات باكية :

— بيتك أشرف البيوت ، بالله يا سيدى الا ما هونت عليك الغضب ، انتهى الامر وكأن ما كان لم يكن ..
فصاح الرجل بصوت ملؤه الوعيد :
— قولى له أن يتأدب ويستحى ويلزم حدوده ، وأن من الخير ان يتفرغ لدروسه ..

وسمعت الفتاتان حركة في الداخل فقامتا في حذر وابتعدتا عن الباب على أطراف أصابعهما ..

رأت الست أمينة أن تغادر الحجرة كشأنها اذا ند عنها عفوا ما يثير غضبه فلا تعود اليها بعد ذلك الا اذا دعاها ، اذ علمتها التجربة أن مكثها بين يديه حال الغضب ثم سعيها الى تسكينه برقيق الكلام لا يزيد النار الا استعارا . ووجد السيد نفسه وحيدا فزأيلته آثار الغضب المحسوسة الذى تثور عادة في عينيه وبشرة

وجهه وحركات يديه وكلامه ، ولكن بقى الغضب في أعماق صدره كالعكارة في قعر القدر .

من المحقق انه كان يغضب في البيت لأنفه الأسباب لا اتباعا لخطته الموضوعية في سياسة بيته فحسب ، ولكن مدفوعا كذلك بحدة طبعه التى لا تشكها بين آله فرملة الكياسة التى يتقن استعمالها خارج البيت ، وربما ترويحاً عما يعانى بين الناس كثيرا من ضبط النفس والتسامح واللطف ومراعاة الخاطر واكتساب القلوب بأى ثمن ، وليس بالنادر أن يتضجع له أنه استسلم للغضب في غير موجب ولكنه حتى في تلك الحال لا يندم على ما فرط منه لاعتقاده بأن غضبه للتافه من الأمر عسيرة بأن تمنع وقوع الخطير منه مما يستحق الغضب عن جدارة ، بيد أنه لم يعد ما بلغه عن فهمى ذلك اليوم هفوة تافهة بل رأى فيها نزوة قبيحة لا يجوز أن تعالج في نفس تلميذ من آل بيته ، وما كاد يتصور أن تتسرب « العواطف » الى بنيان البيت الذى يحرص على أن يشب في جو من النقاء الصارم والطهارة المنقشة . ثم جاءت صلاة العصر فرصة طيبة لرياضة النفس خرج منها أهذا قلبا وأروح بالا ، فوسعه أن يتربع على سجادة الصلاة ويسبط راحتيه ويسأل الله أن يبارك له في ذريته وماله ، وأن يدعو خاصة لفخر ابنائه بالهدى والرشاد والتوفيق . فلما أن غادر البيت كان توجهه مظهرة يراد بها التخويف لا أكثر . وفي الدكان التقى ببعض الأصدقاء فقص عليهم « نادرة اليوم » لا كفاجة لأنه يكره أن يلقي أحدا بالفاجعات ، ولكن كدعابة سخيفة ، فعلقوا عليها بما حلا لهم من المزاح ، فلم يلبث أن شاركهم مزاحهم ، ففادروه وهو يقهقه في غير تحفظ .. بدت له « النادرة » في الدكان على غير ما بدت في حجرته بالبيت ، وأمكنه أن يضحك منها ، بل وأن يعطف عليها ، حتى قال لنفسه أخيرا باسمه راضيا « من شابه أباه فما ظلم » ..

حين مرق كمال من باب البيت كان المساء يزحف في خطوات حاسمة غاشيا الطرقات والأزقة والمآذن والقباب ، ولعله لم يعدل بسروره بهذه الخرجة المفاجئة التي قل أن تتاح له في مثل ذلك الوقت المتأخر الا زهوه بالرسالة الشفوية التي حملها اياها فهمي ، فلم يغب عنه أنه عهد بها اليه وحده دون غيره ، في جو من السرية والتكتم الأمر الذي أضفى عليها - وعليه بالتالي - أهمية خاصة أحسها قلبه الصغير ورقص لها طربا وفخارا . وتساءل في عجب عما زلزل فهمي حتى ركبته حال من القلق والحزن بدا في لباسها القائم شخصا غريبا لم يره ولم يسمعه من قبل ، هو مثال وحده ، ان أباه يشور كالبركان لأتفه الأسباب ، وأن ياسين على حلاوة حديثه قابل للالتهاب ، حتى خديجة وعائشة لا تخلوان من نوبات عفرتة ، هو مثال وحده ، ضحكه ابتسام وغضبه تقطيب ، وهدوءه عميق على صدق عواطفه وأصالة حماسه ، فلم يذكر أنه رآه على الحال التي رآه عليها اليوم . لن ينسى كيف خلا اليه في حجرة المذاكرة ، بصر زائغ ونفس مضطرب وصوت متهدج ، ولا كيف خاطبه لأول مرة في حياته بلهجة توصل حارة عجب لها أشد العجب حتى استوجب حفظ الرسالة التي حملها أن تكرر عليه مرات ومرات . وقد أدرك من فحوى الرسالة نفسها أن للأمر صلة وثيقة بالحديث الغريب الذي اسرق السمع اليه من وراء الباب ، والذي نقله الى شقيقتيه فأنار بينهما جدلا ونزاعا ، وبالجملة أنه يتعلق بمريم ، تلك الفتاة التي كثيرا ما تعابشه ويعابثها ، ويأنس إليها حيناً ويضجر منها حيناً آخر ، دون أن يعرف لها هذه الخطورة

التي أحاطت بهدوء أخيه وسلامته . مريم ؟ .. لماذا استطاعت دون سائر البشر أن تفعل هذا كله بأخيه العزيز الرائع !! . ووجد في الجو غموضا ، كذاك الغموض الذي يكتنف حياة الأرواح والأشباح ، والذي طالما استثار حب استطلاع وخوفه ، فتوثب قلبه للنفذ الى مكنون سره في تطلع وحيرة . ولكن حيرته لم تصرفه عن تسميع الرسالة لنفسه كما سمعها لأخيه من قبل حتى يضمن الا يضيع منه حرف واحد من مضمونها فمر تحت بيت آل رضوان وهو يستعيدها ، ثم مال الى أول عطفة تليه حيث يوجد باب البيت . لم يكن البيت بالغريب عنه ، فطالما تسلل الى فناءه الصغير حيث تنزوى في ركن منه عربة يد مندثرة العجلات كان يركبها مستعينا بخياله على اصلاح عجلاتها وتحريكها حيث شاء ، وطالما تردد بين حجراته بغير استئذان فقوبل بالترحيب والمدامعة من ربة البيت وابنتها اللتين يعدهما « على حدائة سنه » صديقتين قديمتين ، فكان يألف البيت بحجراته الثلاث التي تتوسطها صالة صغيرة وضعت بها ماكينة خياطة وراء النافذة التي تطل على حمام السلطان مباشرة كما يألف بيته بحجراته الواسعة وبصالته الكبيرة حيث يجتمع مجلس القهوة مساء بعد مساء . والى هذا خلفت بعض متعلقات البيت أثرا في نفسه استجابت له عهدا طويلا من صباه ، كعش يمامة في أعلى المشربية المتصلة بحجرة مريم الذي تبدو حافته فوق ركن المشربية الملتصق بالجدار كقطع من محيط دائرة يشتبك حوله القش والريش ويلوح منه أحيانا ذيل اليمامة الأم أو منقارها كيفما اتفق وضعها فيتطلع اليه تتنازعه رغبتان ، احدهما - وهي المنبعثة من نفسه - تدعوه الى العيث به واختطاف الصغار ، والأخرى - وهي المكتسبة عن أمه - توقفه عند حد التطلع والعطف والمشاركة الخيالية في حياة اليمامة وأسرتها ، وكصورة للسفيرة عزيزة معلقة بحجرة مريم أيضا زاهية الألوان رقراقة البشرة وسيمية القسمات فاقت بجماها

الحسنة التي تطلعه صورتها عصر كل يوم بـدكان ماتوسيان فكان
يديم النظر إليها متسائلا عن « حكايتها » فتقص عليه مريم من
أبنائها ما تعلم وما لا تعلم بزلاقة لسان تستهويه وتستأثره .
لم يكن البيت بالغريب عليه اذن ، فشق سبيله الى الصالة دون
أن يشعر به أحد ، وألقى على أولى الحجرات نظرة عابرة فلمح
السيد محمد رضوان راقدًا في فراشه كما اعتاد أن يراه منذ
سنوات . كان يعلم أن الشيخ مريض ، وقد سمع عنه كثيرا أنه
مشلول ، حتى سأل أمه مرة عن معنى الشلل . . فجذعت وراحت
تستعيد بالله من شر الاسم الذي نطق به فانكمش متراجعا ، ومنذ
ذاك اليوم والسيد يستثير رثاءه واستطلاعهم القرون بالخوف .
ثم مر بالحجرة التالية فرأى أم مريم واقفة أمام المرأة ويدها
ما يشه العجين تمطه فوق خدها وعنقها وتجذبه جذبات سريعة
متتابعة ثم تتحسس موضعه من بشرتها بأناملها لتعرف مسه
وتطمئن الى نعمته ومع أنها كانت فوق الأربعين الا أنها كانت
بارعة الحسن كابنتها ، شغوفة بالضحك والدعابة ، فما تلقاه حتى
تقبل عليه في مرح فتقبله ثم تسأله فيما يشبه نفاذ الصبر « متى
تبلغ رشدك لاتزوجك ؟ » فيعلوه الحياء والارتباك وان استلذ
مداعباتها وود الاكثار منها . وكم أثار فضوله هذه العملية التي
تمكف عليها من حين لآخر أمام المرأة ، وقد سأل أمه عنها مرة
فنهزته - والنهر أقصى ما تمارس من ضروب التاديب - مؤنية
أباه على سؤاله عما لا يعنيه ، بيد أن أم مريم أكبر سماحة ورقة
فلما لحظته مرة يرمقها بدهشة أوقفته على مقعد أمامها ولزقت
بأنامله ماحسبه أول الأمر عجيبة وبسطة له صفحة وجهها وقالت
ضاحكة « اشتغل وأرنى شطارتك » فمضى يقلد حركاتها حتى
أثبت لها شطارته بخفة غبطته عليها ، ولكنه لم يقنع بلذة التجربة
فسألها « لماذا تفعلين هذا ؟ » فقهرقتها قائلة « هلا انتظرت عشرة
أعوام أخرى حتى تعرف بنفسك ؟ ! . ولكن لا داعي للانتظار

اليسـت البشرة الناعمة أحسن من الخشنة ؟ .. هذه هي ؟ ..
وقد مر بيابها بخفة حتى لا يشعرها بنفسه لأن رسالته كانت
أخطر من أن تسمح له بمقابلة أحد الا مريم وحدها في الحجرة
الآخرة متربعة على فراشها تقزقز لبًا وبين يديها طبق فنجان
قد امتلأ بالقشر فلما رآته قالت بدهشة :

— كمال ! .. « كادت تسأله عما جاء به في هذه الساعة ولكنها
عدلت عما همت به أن تخيفه أو تخجله » .. شرفت البيت ..
تعال اجلس الى جانبي ..

فمد لها يده بالسلام ، ثم فك أزرار حذائه ذى الرقبة
الطويلة وخلعه ، ووثب الى الفراش في جلباب مقلّم وطاقيه زرقاء
منمنمة بخطوط حمراء . وضحكت مريم ضحكات الرقيقة
ودست في يده شوية لب وهي تقول — قزقز يا عصفور وحرك
أسنانك اللؤلؤية .. أتذكر يوم عضضت معصمي وأنا ادغدغك ..
هكذا .. ومدت يدها صوب ابطه ولكنه — بحركة عكسية —
شبك ذراعيه على صدره ليحمي ابطيه ، وندت عنه ضحكة
عصبية كما لو كانت أناملها دغدغته بالفعل ، ثم هتف بها :

— في عرضك يا أبلة مريم ..
فأمسكت عنه وهي تتعجب من خوفه قائلة :

— لماذا يقشعر بدنك من الدغدغة ؟ ! .. انظر الى كيف
لا أبالي بها ..

وراحت تلغدغ نفسها باستهانة وهي ترميه بنظرة ازدراء
فلم يملك أن قال لها متحديا :

— دعيني ادغدغك أنا وسنرى ! ..

فما كان منها الا أن رفعت ذراعيها فوق رأسها فغرس أصابعه
تحت ابطيها وراح يدغدغهما بما وسعه من خفة وسرعة ، مثبتا
عينيه في عينيها السوداوين الجميلتين ليتلقف أول بادرة تضعع

عنها ، حتى اضطر أن يسترد يديه متنهدا في يأس وخجل
فشيعته بضحكة رقيقة ساخرة وقالت :

— أرايت أيها الرجل الصغير العاجز ! .. لا تزعم أنك رجل
بعد اليوم « ثم بلهجة من تذكر أمرا هاما بغتة » .. ياداهيتى ! ..
نسيت أن تقبلنى ! .. ألم أنبه عليك مرارا بأن تكون تحية لقائنا
قبلة ؟! وأدنت وجهها منه فمد شفثيه ولثم خدها ، ثم رأى فتانا
من اللب المتسرب من زاوية فيه قد التصق بخدها فأزاله بأنامله
في حياء ، أما مريم فتناولت ذقنه بأنامل يمنها وقبلت شفثيه
مرة ومرة ، ثم سألتها فيما يشبه الإعجاب :

— كيف استطعت أن تفلت من بين أيديهم في هذه الساعة !
لعل تيزة تبحث عنك الآن في كل حجرات البيت ..

آه .. لقد استنام الى الحديث واللعب حتى أوشك أن ينسى
الرسالة التى جاء من أجلها ، ولكن تسأؤلها ذكره بمهمته فرنا
اليها بعين أخرى . العين التى تود أن تنقب في ذاتها عن السر
الذى زلزل أخاه الرزين الطيب . الا أن تشوفه تهافت حيال
شعوره بأنه يحمل أنباء غير سارة ، فقال بوجوم :

— فهمى الذى أرسلنى ..

ارتسمت في عينيها نظرة جديدة تفيض جدا ، وتفرست في
وجهه باهتمام لترى ما وراءه فشعر بأن الجو قد تغير كأنما
انتقل من فصل الى فصل ، ثم سمعها تسأل بصوت خافت :
— له ؟! ..

فقال لها بصراحة دلت على أنه لم يقدر خطورة الأنباء التى
يحملها رغم شعوره الفطرى بخطورتها ..

— قال لى بلغها تحياتى وقل لها انه استأذن والده في خطبتها
ولكنه لم يوافق على أن يعلن خطبته وهو تلميذ ، وطلب اليه
أن ينتظر حتى يتم دراسته ..

كانت تحدد الى وجهه باهتمام شديد فلما بلغ السكوت

خفضت عينيها دون أن تنبس بكلمة ، ففشيت الجلسة صمتة
واجمة ضاق بها قلبه الصغير ، وتلف على كشفها مهما كلفه
الأمر فقال :

— انه يؤكد لك أن الرفض جاء على رغمه وأنه يتعجل السنين
حتى يحقق ما يتمنى ..

ولما لم يجد لكلامه أثرا في احراجها من غشاوة الصمت
ازداد تلفقه على أعادتها الى ما كانت عليه من بهجة ومرح فقال
باغراء :

— هل أحدثك عما دار بين فهمى وبين نينة من حديث عنك؟
فتساءلت بلهجة بين الاكتراث وعدمه :

— ماذا قال وماذا قالت ؟

فأشرح صدره بهذا النجاح انجزائى وقص عليها ما ترامى
اليه من حديث من وراء الباب حتى أتى عليه ، فخيل اليه انها
تتنهد ، ثم قالت ببرم :

— ان والدك رجل شديد مخيف ، الكل يعرفه هكذا ..

فقال وهو لا يدرى :

— نعم .. أبى كذلك ..

ورفع رأسه اليها في خوف وحذر ولكنه وجدها كالفائبة ،
فسألها متذكرا ما وصاه به أخوه :

— ماذا أقول له ؟

فضحكت من أنفها وهى تهز كتفيها ، وهمت بالكلام ، ولكنها
أمسكت متفكرة مليا ، ثم قالت وقد التمعت في عينيها نظرة مأكرة :
— قل له انها لا تدرى ماذا تفعل لو تقدم لها خاطب في أثناء
هذه المدة الطويلة من الانتظار ! ..

وعنى كمال بخطط الرسالة الجديدة أكثر مما عنى بفهمها ،
وسرعان ما شعر بأن مهمته قد انتهت فأودع بقية اللب جيب
جلبابه ، ومد لها يده بالسلام ، ثم انزلق الى أرض الحجرة ومضى
خارجا ..

بدت عائشة وهى تنظر في المرأة شديدة الإعجاب بنفسها ، دون الأسرة اللامعة ، بل أى فتاة في الحى كله تتحلى بمثل هذه الخصلات الذهبية وهاتين العينين الزرقاوين ؟!.. ان ياسين يتغزل بها جهارا ، وفهمى لا يخلو اذا تحدث اليها لأمر أو لآخر من نظرات تنم عن الإعجاب ، حتى كمال الصغير لا يحلو له الشراب من قلة الا من الموضع المبتل بريقها ، وهذه أمها تدللها فتدعوها « قمر » وان لم تخف قلقها نحو نحافتها ورقتها الأمر الذى جعلها تحت أم حنفي على تركيب وصفة لتسمينها . أما عائشة نفسها فلعلها كانت أعرف الجميع بحسنها البارع كما تدل عليه عنايتها الشديدة به واستئناسها اليه . على أن هذه العناية المفرطة لم تمر بخديجة دون تعليق ، بل مؤاخذه وتقريع ، لا لأنها تستنيم الى الإهمال فالحق أن خديجة هى الوريثة الأولى لامها في الواقع بالنظافة والأناقة ، ولكن لأنها رأت الفتاة تستقبل النهار عادة بتمشيط شعرها وإصلاح هندامها حتى قبل القيام بواجبات المنزل كأنها لا تطبق أن يبقى جمالها ساعة من العمر غير محاط بالعناية والرعاية . ولكن لم تكن العناية بالجمال وحدها هى الباعث على هذا التجميل الباكر ، فعند ذهاب الرجال كل الى عمله - تأوى الى حجرة الاستقبال وتفرج بين سلفتى الشبابك المطل على بين القصرين زيقا رقيقا فتقف وراءه مادة بصرها الى الطريق يعاوها قلق الانتظار واضطراب الخوف . هكذا وقفت ذاك الصباح فظل طرفها حائرا ما بين حمام السلطان وسبيل بين القصرين وفؤادها الفتى يواصل خفقاته حتى تراهى عن بعد

« المنتظر » وهو ينعطف قادما من الخرنفش خاطرا في بدلته العسكرية والنجمتان تلمعان على كتفه ، وجعل كلما اقترب من البيت يرفع في حذر عينيه دون رأسه ، حتى تدانى من البيت فهفت في أساريره ابتسامة خفيفة آية في الخفة - تدرك بالقلب أكثر مما تدرك بالحواس - كانها الهلال في ليلته الأولى ، ثم اختفى تحت المشربة فاستدارت في عجلة لتتابع مشاهدته من النافذة الأخرى المظلة على النحاسين فما راعها الا أن ترى خديجة منتصبة على الكنية بين النافذتين ملقية بنظرها الى الطريق من فوق رأسها ..! فرت منها آهة ، واتسعت عيناها في رعب فاضح ، فتسمرت في موقفها .. متى وكيف جاءت ! كيف علت الكنية دون أن تشعر بها ؟!.. وماذا رأت ؟!.. متى وكيف وماذا ؟! أما خديجة فقد ثبتت بصرها عليها وهى تضيق عينيها رويدا صامتة ، مطيلة الصمت كأنما لتطيل تعذيبها . ثم تماكنت عائشة بعض نفسها فخفضت عينيها في جهد شديد ومالت نحو الفراش متظاهرة - عينا - بضبط الأعصاب وهى تغغم :

- أوعبتنى يا شيخخة ..!

لم تبد خديجة اكترانا ، ظلت بموقفها على الكنية وعيناها الى الطريق خلل الزيق .. ثم تمتمت ساخرة :

- أوعبتك ؟!.. اسم الله عليك !.. أصلى ببيع ..!

وعضت عائشة على نواجذها في غيظ وحنق ويأس بعد أن تراجعت قليلا الى مأمن من عينيها ، الا أنها قالت بصوت هادئ :
- رأيتك فجأة فوق رأسى دون أن أشعر بدخولك ، لماذا تسترقين الخطو ؟

فوثبت خديجة الى الأرض ، ثم جلست على الكنية في استرخاء ساخر وهى تقول :

- آسفة يا أختى ، في المرة القادمة سأعلق جرسا في عنقي مثل عربة المطافىء لتنتبهى الى حضورى فلا ترتعبين .

فقال عائشة في ضيق والرعب لم يفارقها :
- لا لزوم لتعليق الجرس ، حسبك ان تسرى كالناس
الذين خلقهم ربنا ..

فقال الأخرى بنفس اللهجة الساخرة وهى ترميها بنظرة
ذات معنى :

- ربنا يعلم انى أسير كالناس الذين خلقهم ، ولكن الظاهر
انك اذا وقفت وراء النافذة - أقصد وراء هذا الزيق -
استغرقت فيما أمامك بحيث تفقدين الوعى بما حولك فلا تبقين
كالناس الذين خلقهم ربنا .

نفخت عائشة مغممة :

- هكذا أنت دائما .

وعادت خديجة الى الصمت قليلا ، ثم حولت عينها عن
فريستها ، ورفعت حاجبها كأنها تفكر في مشكل عسير ، ثم
تظاهرت بالسرور كأنها اهتدت للحل الموفق ، وقالت مخاطبة
نفسها هذه المرة دون ان تنظر الى الأخرى :

- اذن لهذا فهى تغنى كثيرا « يا بو الشريط الأحمر يالى
اسرتنى ترحم ذلى » .. وكم حسبته بسلامة نيتى يا عينى
غناء بريئا لمجرد التسلية !

وخفق قلب الفتاة خفقة قاسية ، وقع المحذور ولم يعد
ينفع التعلق بأوهام الأمانى الكاذبة ، وركبها اضطراب زلزل أركان
نفسها فكادت تشرق بالبكاء ، الا ان اليأس نفسه دفعها الى
الاستماتة في الذود عن نفسها فهتفت بصوت طمس اضطراب
نبراته معانيه :

- ما هذا الكلام غير المفهوم !

ولكن لم يبد على خديجة أنها سمعت كلامها فواصلت
مخاطبة نفسها قائلة :

- ولهذا أيضا تتزين في الصباح الباكر ! طالما ساءلت نفسى

أيعقل ان تتبرج بنت قبل الكنس والتنفيض ؟! . ولكن أى كنس
وأى تنفيض يا خديجة يا مسكينة ، يا من ستعيشين بلهاء ،
ومتوتين بلهاء ، اكسى أنت وتغضى أنت ، ولا تتزينى لا قبل العمل
ولا حتى بعده ، ولماذا تتزينين يا تيسية ؟! انظرى من زيق
الشباك من اليوم الى الغد فان اعتنى بك عسكرى دورية اقطع
ذراعى !

فهتفت عائشة في اضطراب وعصبية :

- حرام عليك .. حرام .

- لها حق يا خديجة ، هذه فنون لا تستطيعين فهمها بعقلك
المظلم ، عيون زرق ، وشعر من سبائك الذهب ، شريط أحمر
ونجمة لامعة ، شئ مفهوم ومعقول .

- خديجة ، أنت مخطئة ، كنت أنظر الى الطريق فحسب ،
لا لأرى أحدا ولا ليرانى أحد .

فالتفت خديجة اليها كأنما تنبيه الى اعتراضها لأول مرة
وتساءلت كالمعتذرة :

- هل تخاطبيننى يا شوشو ؟! لا مؤاخذه انى افكر في
بعض الأمور الهامة فأجلى حديثك الى حين ، وعادت تهز رأسها
في تفكير وتخاطب نفسها قائلة :

- شئ مفهوم ومعقول ، ولكن ما ذنبك أنت يا سيد أحمد
عبد الجواد ؟! أسفى عليك يا سيد يا شريف يا كريم ، تعال
ثوف حريمك يا سيدى وتاج رأسى !

وقف شعر الفتاة عند سماع اسم أبيها ، فدار رأسها ، وزد
على ذهنها قول السيد لامها وهو يحمل على رغبة فهمى في خطبة
مريم « أخبرينى هل رأها ؟ » .. « ما كنت أحسب ان لى أبناء
يسترقون النظر الى حرمت الجيران » ، هذا رايه في الابن فكيف
يكون في البنت ! وهتفت بصوت مخنوق النبرات :

- خديجة .. لا يليق هذا .. أنت مخطئة .. أنت مخطئة .

ولكن خديجة تابعت حديثها دون التفات اليها :

- ترى اهذا هو الحب؟! يمكن! ألم يقولوا عنه: « الحب كبش في قلبى .. قربت أروح منه طوكر » .
ترى ابن طوكر هذه؟! لعلها في النحاسين ، بل لعلها في بيت السيد أحمد عبد الجواد .
- لم أعد أحتمل كلامك ، ارحمىنى من لسانك ، رباه .. لماذا لا تصدقيننى؟!

- تدبرى أمرك يا خديجة ليس ما نحن فيه لعبا ، وانت الأخت الكبرى ، والواجب هو الواجب مهما بدا مرا ، يجب أن يعلم اولو الشأن ، هل تفضين بالسر الى والدك؟! الحقانى لا أدرى كيف أخاطبه في مثل هذا السر الخطير ، ياسين؟! ولكنه كعدمه وغاية ما يرجى منه أن يترنم بكلام غير مفهوم ، فهمى؟! ولكنه يعطف بدوره على الشعر الذهبى أصل البلوى كلها ، أظن من الأفضل أن أخبر نينة ، وأترك لها التصرف بما ترى .

وندت عنها حركة كأنها تهم بالقيام فهرعت عائشة اليها كدجاجة مذبوحة وأمسكت بكتفيها صائحة بصدر يعلو وينخفض:
- ماذا تريدن؟
فتساءلت خديجة:
- اتهدديننى؟!

همت عائشة بالكلام فخنقتها العبرات بغتة وهينمت بكلام مزقه البكاء شر ممزق ، وجملت خديجة تحديق اليها صامته متفكرة ، ثم زایل أساريرها عبث السخرية حتى تجهم وجهها وهى تصغى في غير ارتياح الى نشيج الفتلة ، ثم قالت بلهجة جدية لأول مرة:
- لقد أخطأت يا عائشة .

وأمسكت ووجهها يشتد تجهمه ، وكأن أنفها ازداد بروزا ، وبدا عليها التأثير واضحا فاستطردت قائلة :

- يجب أن تقرى بخطئك ، خبرينى كيف سولت لك نفسك هذا العبث يا مجنونة ؟
فغمغمت عائشة وهى تجفف عينيها :
- أنت تسيئين الظن بى .

فنفخت خديجة مقطبة كأنما ضاقت بهذه المكابرة الضائعة ، بيد أنها عدلت نهائيا عن نية الاعتداء أو حتى المباشرة ، انها تعرف دائما أين ومتى تقف فلا تجاوز الحد ، وقد أشبعت السخرية ميولها العدوانية القاسية فقمعت بها كما تقنع بها عادة ، ولكن بقيت لديها ميول من نوع آخر - أبعد ما تكون عن العدوان والقسوة - لم تشبع بعد ، ميول تنبعث من عاطفة الأخت الكبرى ، بل من عاطفة أمومة لا يخطئها فيها أحد من الأسرة مهما اشتدت حملتها عليه أو حملته عليها ، وتحت تأثير الرغبة في اشباع هذه الميول الودية قالت :

- لا تكابرى ، لقد رايت كل شيء بعينى ، لست الآن أهزل ولكنى أريد أن اصارك بأنك أخطأت خطأ كبيرا ، هذا عبث لم يعرفه هذا البيت في الماضى ولا يود أن يعرفه في حاضره أو مستقبله ، انه الطيش وحده الذى أوقعك فيه ، أصفى الى واعقلى نصيحتى ، لا تعودى الى هذا أبدا ، لا يخفى شىء وان طال كتمانها ، فتصورى ماذا يكون من امرنا جميعا لو لمحك أحد في الطريق أو أحد من الجيران ، وانت أدرى باللسنة الناس ، تصورى ماذا يكون لو نعى الخبر الى أبى والعياذ بالله !

فنكست عائشة رأسها تاركة الصمت يعبر عن اعترافها ، وقد تضرع وجهها بخمرة الحجل ، ذلك الندم الذى ينزفه الضمير في الداخل اذا جرحتة خطيئة ، وعند ذاك تنهدت خديجة قائلة :
- حذار ، حذار ، فاهمة؟ .. « ثم نسمت عليها نسمة سخرية فغيزت لهجتها شيئا ما » ، ألم يرك ؟ فماذا يقعه عن أن

يتقدم لك مثل الرجال الشرفاء ؟ وقتها نقول لك مع الف سلامة،
بل في ستين داهية يا ستي ..

استردت عائشة أنفاسها ، فافتت نغرها عن ابتسامه لأحت
كلمة اليقظة الأولى في العين عقب غيبوبة طويلة ، وكان خديجة
عز عليها - برؤية هذه الابتسامه - أن تغلت الفتاة من قبضتها
بعد أن نعمت بامتلاكها فترة طويلة فصاحت بها :

- لا تظني أنك بلغت بر الأمان ، ان لسانى لا يسكت اذا لم
تحسنى مشاغلتة ..

فتساءلت الأخرى في ارتياح :

- ماذا تعنين ؟

- لا تتركه وحده حتى لا تعاوده نزعة الشر ، الهيه بشيء
من الحلوى ليشغل بها عنك ، علبه ملبس مثلاً من شنجولى ..
- لك ما تشتهين وأكثر .

وساد الصمت فشغلت كلتاها بأفكارها . على أن قلب
خديجة كان - كما كان من بادئ الأمر - مرتعا لضروب من
المشاعر متباينة .. غيرة وحنق واشفاق وحنان ..

- ٢٣ -

كانت ست أمينة مشغولة بأعداد أدوات القهوة استعدادا
لجلسة العصر التقليدية فجاءتها أم حنفى مهولة ، يبشر لمعان
عينيهما بأنباء سارة ، ثم قالت بلهجة موحية :

- ستي ثلاث سيدات غريبات يرغبن في زيارتك ..

أخلت الأم يديها من كل شيء ، وانتصت قامتها في عجلة
دلت على تأثير الخبر في نفسها ، وحدثت الخادم بنظرة اهتمام

شديدة كأنه من المحتمل أن تكون الزائرات من البيت المالك أو من
السعاء نفسها ، ثم تمتعت استزادة من التوكيد :

- غريبات ؟!

فقالت أم حنفى بلهجة تنم عن فرحة الظفر :

- نعم يا ستي ، طرقت الباب ففتحت لهن فقلن لى « اليس

هذا بيت السيد أحمد عبد الجواد ؟ » فقلت لهن « بلى » فقلن

« الهوانم فوق ؟ » فقلت « نعم » فقلن « نريد أن نتشرف

بالزيارة » فسألتهن « أقول من الزائرات ؟ » فقالت لى احداهن

ضاحكة « دعى هذا لنا ، وما على الرسول الا البلاغ » فجئتك

يا ستي طائرة وأنا أقول لنفسى « يا رب حقق لنا الأحلام » ..

فقلت الأم بعجلة دون أن يرايل الاهتمام عينيهما :

- أدعيهن الى حجرة الاستقبال .. أسرعى ..

ولبثت دون حراك ثوان ، مستغرقة في خواطرها الجديدة ،

في الحلم السعيد الذى تفتحت لها دنياه الغناء فجأة وان بدا

شغلها الشاغل طول الأعوام الأخيرة ، ثم أفاقت الى نفسها فنادت

خديجة بلهجة لا تحتمل التأجيل فجاءت الفتاة على الأثر ، وما أن

التقت عيناها حتى غلبها الابتسام وقالت وهى لا تملك نفسها

من الفرح :

١٤ - ثلاث سيدات غريبات في حجرة الاستقبال .. ارتدى خير

ملابسك .. واستعدى ..

ولما تورد وجه خديجة تورد وجهها أيضا كأنما انتقلت اليه

عدوى الحياء ، ثم غادرت الصالة الى حجرتها في الدور الأعلى

لستعد بدورها لاستقبال الزائرات . وجعلت خديجة تنظر

الى الباب حيث اختفت امها غائبة الطرف ، وقلبها يخفق لحد

الأم ، متسائلة « ما وراء هذه الزيارة ؟ » ثم نزعته نفسها من

موقفها ، وسرعان ما استرد عقلها نشاطه الفائق فنادت كمال

الذى جاءها من حجرة فهمى فبادرته قائلة :

- اذهب الى ابلة مريم وقل لها ان خديجة تفرك السلام
وترجوك أن ترسل لها معى علبة البودرة والكحل والأحمر ..
وتلقف الغلام الأمر وهو يعدو الى الخارج ، أما خديجة
فأسرعت الى حجرتها ومضت تخلع جلبابها وهى تقول لعائشة
التي لحظتها بعين متسائلة :

- اختارى لى أحسن فستان .. أحسن فستان بلا استثناء .
فتساءلت عائشة :

- ما الداعى الى هذا الاهتمام ؟ .. زائرة ؟! من ؟! ..
فقالت خديجة بصوت خافت :

- ثلاث سيدات .. « ثم وهى تضغط على مخارج اللفظ » ..
غريبات ..

فتراجع رأس عائشة في دهش ، ثم اتسعت عيناها الجميلتان
سرورا ، وهتفت :

- آه .. هل يفهم من هذا أن .. ياله من خبر ..

- لا تتسرعى في الحكم .. فمن يدري عما هناك .

فاتجهت عائشة نحو صوان الملابس لتنتقى الفستان المناسب
وهى تقول ضاحكة :

- في الجو شيء .. ان الفرح يشم كالروائح الزكية ..

فضحكت خديجة لتخفى اضطرابها ، واقتربت من المرأة
ونظرت الى صورتها بامعان ، ثم أخفت أنفها براحتها وقالت بثهم :

- لا بأس بوجهى الآن ، وجه مقبول ، « ثم رافعة راحتها » ..

أما على هذه الحال قربنا وحده المنجى ! ..

فقالت عائشة ضاحكة وهى تساعدنا في نفس الوقت على
ارتداء فستان أبيض موشى بازهار بنفسجية :

- لا تظمطى نفسك .. الا يسلم شيء من لسانك ! .. ليست

العروس أنفا فحب ، هناك العينان والشعر الطويل ، والدم
الخفيف !

فلوت خديجة بوزها قائلة :

- الناس لا ترى الا العيوب ..

- هذا صحيح بالقياس الى من على شاكلتك من الناس ،

ولكن ليس كل الناس على شاكلتك والحمد لله ..

- سوف اجيبك حين أفرغ لك .. !

فربت الأخرى على خاصرتها وهى تسوى الفستان قائلة :

- ولا تنسى هذا الجسم البض المعتلى .. يا له من جسم !

فضحكت خديجة في سرور وقالت :

- لو كان العريس أعمى ما عملت حسابا لشيء .. وانى أرضى

به في تلك الحال ولو كان شيخا من شيوخ الأزهر ..

- وماذا يعيب شيوخ الأزهر ! .. اليس منهم من خيراته

كالبحر ؟!

ولما فرغا من الفستان ندت عن عائشة نعمة تافف فسألتهما

خديجة :

- ماذا بك ؟

فقالت بتذمر :

- ليس في بيتنا كله نقطة بودرة او كحل او أحمر كأن ليس

به نساء ! .. !

- من الأفضل أن تبلى هذا الاحتجاج لوالدنا ..

- أليست نينة سيدة ومن حقها أن تزين ؟

- انها جميلة هكذا بلا زينة !

- وحضرتك ؟ هل تلقين الزائرات هكذا ؟

فقالت خديجة ضاحكة :

- أرسلت كمان الى مريم ليعود بالبودرة والكحل والأحمر ،

وهل وجهى وجه أقابل به الخطابات عاطلا ؟! سرعى ماكبها

ولما كان الوقت لا يحتمل تبديد دقيقة بلا عمل فقد نرعت

خديجة مندبل رأسها وأخذت تحل صغيرتها الفيلطتين الطويلتين،

على حين جاءت عائشة بالمشط وراحت تمتشط شعرها المسترسل وهي تقول :

يا له من شعر ^{قيل} سقط طويل .. ما رأيك ؟ سأجده في صفيرة واحدة ، الا يكون ذلك أروع ؟ الجورب الشرب بل صفيرتين .. ولكن خبريني هل ابقى الجراب في قدمي أو أدخل عليهن عارية الساقين ؟

— ان الوقت شتاء يستوجب لبس الجراب ولكني أخشى اذا أبقيته ان يحسبن بساقتك أو قدميك عيبا تتعمدين إخفائه .. !
— صدقت ، ان المحكمة أرحم من الحجرة التي تنتظرني الآن ..
— قوى قلبك ، ربنا يوعدنا ..

وهنا دخل الحجرة كمال مسرعا وهو يلهث فقدم الى اخته أدوات الزينة وهو يقول :

— قطعت السلم والطريق جريا ..
فقلت له خديجة باسمه :
— عفارم ، عفارم .. ماذا قالت لك مريم ؟
— سألتني هل عندنا ضيوف .. ومن هن ، فاجبتها بأني لا أدري ...

فتجلت في عيني خديجة نظرة اهتمام وهي تسأله :
— وهل قنعت بهذه الاجابة ؟
— حلفتني بالحسين ان أصرح لها بما عندى فحلفت لها بأنه ليس عندى غير ما قلت ..

فضحكت عائشة قائلة ويدها لا تكفان عن العمل ..
— ستخمن ما هنالك ..

فكانت خديجة وهي تذر البودرة على وجهها :
— انها بنت هرمة ، وهيها أن يفوتها شيء ، وأراهنك على انها سوف تزورنا غدا على الأكثر لاجراء تحقيق شامل ..
ولم يشأ كمال ان يغادر الحجرة كما كان المنتظر ، أو لعله لم

يستطع مغادرتها تحت اغراء المشهد الذي يمثل امام عينيه ، والذي يراه لأول مرة في حياته فلم يسبق له ان رأى وجه اخته وهو يلقي هذا التغير الذي استحال معه وجهها جديدا ، البشرة تبيض والوجنتان تتوردان والعينان تصطبغ أشفارهما بسواد لطيف يرسم لهما حدودا جذابة ويضفي على حدقتيهما صفاء بهيجا ، وجه جديد هش له قلبه فطرب هاتفا :

— انت يا أبله الآن كالعروس التي يشتريها بابا في مولد النبي ...

فضحكت الفتاتان ، وسألته خديجة :
— هل أعجبك الآن ؟
فاقترب منها مسرعا ومد يده صوب أرنبة أنفها وهو يقول :
— لو تزول هذه !

فتفادت من يده ، ثم قالت لأختها :
— أخرجى هذا المنام ..

فقبضت عائشة على يده وجذبتة الى الخارج رغم مقاومته حتى أخرجه وأغلقت الباب ، ثم عادت الى استئناف عملها الجميل ، فواصلتا نشاطهما في صمت وجد .. ومع أنه كان من المتفق عليه في الأسرة أن تقتصر مقابلة الخاطبات على خديجة وحدها الا أن الفتاة قالت لعائشة على سبيل المكر :

— ينبغي أن تناهبي أنت ايضا لاستقبال الزائرات .
فكانت عائشة بمثل مكر اختها :

— لن يكون هذا قبل أن تزفي الى عريسك !
ثم استدركت قائلة قبل أن تتكلم خديجة :

— اما الآن فكيف للنجوم أن تطلع مع القمر ؟!
فرمتها أختها بنظرة مستريبة وتساءلت :

— من يكون القمر ؟
فكانت عائشة ضاحكة :

— طبعاً أنا ..!

فلكرتها بكوعها ، ثم تهتدت قائلة :

— لو تعيريني أنفك كما أعارتني مريم عليه بودرتها !

— تناسى أنفك ولو الليلة على الأقل ، ان الأنف — كالدمل —

يضخم بالداب على التفكير فيه ..!

أوشكتنا عند ذلك على الفراغ من عملية التجميل ، فتراخى

انتباه خديجة عن التركيز في مظهرها واتجه في رهبة الى موقف

الامتحان الذى ينتظرها فشعرت بخوف لم تشعر بمثله من قبل ،

لا بالقياس الى جدته فحسب ولكن — قبل كل شيء — بالقياس

الى خطورة عواقبه ، وما لبثت ان قالت متشكية :

— اية جلسة هذه التى قضى على بها ..! تصورى نفسك في

مكانى ، بين نسوة غريبات لا تدرين أى خلق خلقهن ولا أى أصل

أصلهن ، وهل جئن بنية صادقة أو لمجرد الفرجة والتسلية ،

وماذا يكون من أمرى لو كن عيابات شتامات (ثم ضاحكة ضحكة

مقتضبة) مثلى مثلاً .. هه ؟ وماذا بوسعى الا أن اجلس بينهن

في أدب واستسلام ألقى نظراتهن من اليمين والشمال ، ومن

الأمام والخلف ، وأصدع بأمرهن بلا أدنى تردد ، اذا طلبن قياما

قمت ، أو مشيا مشيت أو كلاما تكلمت حتى لا يفوتهن شيء من

جلوسى وقيامى وصمتى وكلامى وأعضائى وقسمائى ، وعلينا

بعد هذه « البهذلة » كلها أن نتودد اليهن ونطرى لطفهن ،

وكرمهن ، ثم لا ندرى بعد ذلك أنفوز بالرضى أو نفوز بالغضب ،

أف .. أف .. ملعون الذى أرسلهن !

فعاجلتها عائشة قائلة بلهجة ذات معنى :

— بعد الشر عنه !

فقال خديجة ضاحكة أيضا :

— لا تدعى له حتى نتأكد أنه من نعيمنا .. آه يا ربى كم ان

قلبي يدق ...!

فتراجعت عائشة خطوة عن مرمى كوعها وقالت :

— صبرك .. ستجدين في المستقبل فرصا كثيرة للانتقام من

مجلس اليوم الرهيب ، فكم سيصلين من نار لسانك وانت ست

البيت .. وللمهن يذكرن امتحان اليوم وهن يقنن لانفسهن

باليث الذى جرى ما كان ..!

وقنعت خديجة بالابتسام ، لم يكن في الوقت متسع لرد

الهجوم ، ولم تجد في الهجوم — الذى تجد فيه عادة سرورا شافيا

— لذة على الاطلاق لغلبة الرهبة على نفسها وحيرتها بين الخوف

والرجاء ، ولما فرغا من مهمتهما وقفت تلقى على صورتها نظرة

شاملة ، وعائشة — الى الوراء خطوتين — تردد نظرها بعناية بين

الصورة والأصل ، وجعلت خديجة تتمتم :

— أحسنت يداك ، منظر حسن اليس كذلك ؟ ... هذه

خديجة حقا .. لا بأس بأنفى الآن .. جلت حكمتك يا رب ،

بقليل من الجهد صار كل شيء مقبولا فلماذا (ثم مستدركة

بسرعة) استغفر الله العظيم ، لك في كل شيء حكمة ..

وتراجعت خطوات وهى تفحص صورتها بعناية ثم قرأت

الفاحة في سرها ، والتفتت نحو عائشة قائلة :

— ادعى لى يابنت ..

وغادرت الحجرة ..

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

اكتسب مجلس القهوة بحلول الشتاء ميزة جديدة تمثلت في المدافاة الكبيرة التي توسطت الصالة فتكاكات حولها الأسرة ، الذكور في معافطهم والنساء ملتفات بخماراتهن ، فهيا لهم المجلس الى لذة الشراب وحلو السمر متعة ندفء ، وقد بدا فهمي - على حزنه الصامت الطويل في الأيام الأخيرة - كمن يتحفز لمواجهة أهله بخبر هام ، ولم يكن تردده وطول تفكيره الا دليلا على خطورة الخبر وأهميته ، بيد أنه انتهى من تفكيره وتردده الى التصميم على ابلاغه ملقيا عباء بعد ذلك على والديه والأقارب ، فلذلك قال :
- عندي خبر هام لكم فاسمعوا ..

فتطلعت اليه الأعين باهتمام لم يشد عنه أحد ، لأن ما عرف به الشاب من اتزان جعل الجميع ينتظرون خبرا هاما حقا كما قال ، أما فهمي فاستطرد قائلا :
- الخبر هو أن حسن افندي ابراهيم ضابط قسم الجمالية - وهو من معارفي كما تعلمون - قابلني ورجاني أن أبلغ والدي رغبته في خطبة عائشة ..!

وأحدث الخبر - كما قدر فهمي من قبل ما دعاه الى التردد وطول التفكير - أثارا جد متباينة ، فتطلعت الأم اليه باهتمام شديد ، على حين صفر ياسين وهو يرمق عائشة بنظرة مداعبة ويهز رأسه ، وخفضت الفتاة الصغيرة رأسها حياء ولتخفي وجهها عن الأعين أن تغضحها أساريرها فتعلن للناظرين ما يضطرب في قلبها الخافق ، أما خديجة فقد تلقت الخبر بدهشة بادى الأمر لم تلبث أن انقلب خوفها وتشاؤمها لم تدر لهما سببا واضحا ولكنها

كانت كتلميذ يتوقع بين آونة وأخرى ظهور نتيجة الامتحان - إذا تنأى اليه نجاح زميل له بلغته النتيجة من مصدر خاص ، وتساءلت الأم في ارتباك لا يتناسب ومناسبة الفرح الراهنة :
- اهذا كل ما قال ؟

فقال فهمي وهو يتحاشى النظر ناحية خديجة :
- بداني بقوله أنه يود أن يتشرف بطلب يد شقيقتي الصغرى .
- وماذا قلت له ؟
- شكرت له حسن ظنه بطبيعة الحال ..

لم تقترح عليه السؤال تلو السؤال رغبة في استطلاع شيء تود معرفته ، ولكن لبتدري ارتباكها وتنزع من المفاجأة مهلة للتروي ، ثم راحت تتساءل ترى هل لهذا الطلب علاقة بالزائرات اللاتي جئن منذ أيام ؟! وذكرت عند ذاك كيف قالت احداهن - قبل ظهور خديجة - وهي بمعرض الحديث عن أسرة السيد احمد انهن سمعن أن للسيد كريمتين فأدركت وقتها انهن جئن لرؤية الفتيات ولكنها تصامت عن الإشارة ، وقد انتسبت الزائرات الى أسرة تاجر بالدرب الأحمر - غير والد الضابط الذي قال فهمي عنه مرة أنه موظف بوزارة الأشغال - ولكن هذا لا ينفي نفيا قاطعا العلاقة بين الأسرتين لأنه من المألوف أن تبعث الأسرة بخاطبات من بعض فروعها دون الأصل على سبيل الحرص ، وكم وبت أن تسأل فهمي عن هذه النقطة بالذات وكأنها أشفقت من أن يحىء الجواب مصداقا لمخاوفها فيقضى على آمال ابنتها الكبرى ويسيمها خيبة جديدة ، بيد أن خديجة نابت عن أمها - اتفاقا - بطرح ما يعتلج في صدرها خارجا حين دارت هبوطها بضحكة فاترة وقالت متسائلة :

- لعله هو الذي بعث بالزائرات اللاتي زرنا منذ أيام ؟
ولكن فهمي بادر قائلا :

— كلا ، فقد قال لى انه سيرسل أمه الينا في حالة الموافقة على طلبه ..

ولكنه بخلاف لهجته الموحية بالصدق ، لم يكن صادقا فيما قال ، فقد فهم من حديث الضابط أن السيدات اللاتي زرن والدته قريباته ، بيد انه أشفق من ايلام شقيقته الكبرى التي كان — على حبه عائشة واقنناعه بتدارة صديقه الضابط — يعطف عليها عطفًا أخويا ، ويألم أشد الألم لسوء حظها ، ولعله كان لما منى به هو من خيبة اثر قوى في البلوغ بهذا العطف ذروته . وضحك ياسين ضحكة غليظة وقال بجذل صياني :

— يبدو أننا سنجمع قريبا بين فرحتين ..

فهمت الأم في فرح صادق :

— ربنا يسمع منك ..

— هل تخاطبين أبى نيابة عني ؟ ..

ند عنه السؤال وهو مشغول بمسألة الخطبة عما عداها ، ولكنه — عقب النطق به — وقع من أذنيه موقعا غريبا ، فكانه التي عليه من حافظة ذكرياته لا من طرف لسانه ، أو كأنه حين التقى على سمعه لم يقف عند أذنيه ولكنه غاص الى أعماقه ثم طفا عالقا به ما علق من ذكرياته . وللحال ذكر سؤالاً مماثلاً لهذا السؤال توجه به الى أمه في ظروف مشابهة فاتقبض قلبه ، وهاجت آلامه ، وعاوده احساسه بالظلم الذي واد أمه ، وجعل يقول لنفسه كما قال لها مرارا في الايام الأخيرة ، كم كان يكون سعيدا بيومه مستبشرا بغده راضيا عن الحياة كلها لولا ارادة أبيه القاسية ، وانتزعته الذكرى من الاهتمام بشئون غيره ، فابستسلم للحزن الذي يقرض شغاف قلبه . أما الأم ففكرت مليا ثم تساءلت :

— ألا يحسن بنا ان نفكر فيما عسى ان أجيب أباك اذا سألني عما دعا الضابط الى طلب عائشة بالذات ، ولماذا لم يطلب يد خديجة ، ما دام لم ير هذه ولا تلك ؟ ..

وانتهبت الفتاتان الى ملاحظة أمهما معا ، ولعلمهما ذكرا موقفهما وراء النافذة في وقت واحد ، بيد ان خديجة تلقت الذكرى بامتعاض ضاعف من امتعاضها الراهن ، واحتج قلبها على الحظ الأعمى الذي يأبى الا أن يجزى النزق والاستهتار بالاحسان ، أما عائشة فقد اعترضت تيار سرورها ملاحظة أمها كما تعترض الحلق — وهو نشوان بازرداد أكلة لذيدة شهية — شوكة حادة مدسوسة في الطعام ، وسرعان ما امتص الخوف مرارة الفرح التي كان ينتفض بها روحها . فهمى وحده الذي ثار على قول أمه ، لا دفاعا كما بدا عن عائشة — فانه ماكان يجيز الدفاع عن عائشة تحت سمع خديجة في هذه النقطة الحساسة بالذات — ولكن غضبا لحزنه العظيم الذي لم يسعه الجهر بالدفاع عنه حيال أبيه ، فقال مجتدا يخاطب أباه في شخص أمه ، وهو لا يدري :

— هذا تعسف ظالم لا مبرر له من عقل أو حكمة . الا يعرف الرجال أشياء كثيرة عن نساء مخدرات عن طريق الفضليات من قريباتهم اللاتي لا يقصدن بحديثهن الا الجمع بين رجل وامرأة في الحلال .

ولكن الأم لم تقصد باعتراضها الا تواريا وراء أبيه حتى تجد مخرجا من المأزق الذي وجدت فيه نفسها بين عائشة وخديجة ، فلما صارحها فهمى باحتجاجه لم تجد بدا من مصارحته بما يدور :

— ألا ترى أنه من الأفضل أن ننتظر حتى يأتينا نبا الزائرات ؟ !

ولم تعد خديجة تطبق الصمت مدفوعة بكبريائها التي أبت عليها الا أن تعلن عدم المسالاة بالأمر كله بالرغم مما يضطرع داخلها من القلق والتشاؤم ، فقالت :

— هذا شيء وذاك شيء آخر وليس ثمة داع لتأجيل هذا من أجل ذاك ..

فقالت الأم بهدوء مؤثر :

— كلنا متفقون على تأجيل زواج عائشة حتى تنزوج خديجة .

ولم يسع عائشة الا ان تقول برقة وتسليم :
— هذا أمر مفروغ منه ..

امثلا صدر خديجة حقا لدى سماع النبرات الرقيقة التي تتكلم ، ولعل رقتها نفسها كانت أشد ما أحققها ، ربما لأنها أوجت بعطف ابنته كل الآباء ، أو لأنها ودت لو تعلن الفتاة معارضتها صريحة لتتيح لها فرصة لمهاجمتها بما يشفى حلقها على حين قام ذاك العطف الكاذب البغيض درعا يدفع عنها الأذى ويضعف من حنق المتريص المتحضر ، وأخيرا لم يسعها الا ان تقول بلهجة لم تخل من حدة :

— لا أوافق على أن هذا أمر مفروغ منه ، فليس من العدل أن يحملكم حظ عائر على كسر حظ سعيد ..!

وتنبه فهمي الى ما ينطوى عليه كلام خديجة من حزن غاضب بالرغم من ظاهره الموحى بالاثار فانتزع نفسه من قبضة أحزانه الشخصية نادما على ما صدر منه من قول في غضبته مما قد تحسبه خديجة ميلا صريحا منه الى قضية أختها فقال موجهها خطابه إليها :

— ان مفاتحة بابا عن رغبة حسن افندى لا تعنى التسليم بتقديم زواج عائشة على زواجك ، وما علينا من بأس اذا لنا موافقته على الخطبة ، أن نؤجل اعلانها للوقت المناسب ..!

ولم يكن ياسين مقتنعا بوجهة الرأي الذي يحتم تقديم زواج على زواج ولكنه لم يجد الشجاعة الكافية للافصاح عن رأيه الا أنه روح عنه بكلام عام يفهم منه من يشاء ما يشاء فقال :

— الزواج مصير كل حى ، ومن لم تتزوج اليوم فستتزوج غدا .

وهنا انطلق صوت كمال الرفيع — الذى كان يتابع الحديث باهتمام — متسائلا على غير انتظار :

— بينة .. لماذا كان الزواج مصير كل حى ؟

ولكنها لم تعن بالالتفات اليه ، فلم يحدث تساؤله من اثر الا عند ياسين الذى قمقع بضحكة غليظة دون أن ينبس بكلمة ، على حين قالت الأم :

— اعلم أن كل فتاة ستتزوج اليوم أو غدا ، ولكن هناك اعتبارات لا ينبغي اغفالها ..
وعاد كمال يسألها :

— وهل ستتزوجين أنت أيضا يا بينة ؟
وضج الجميع ضحكا فخفف هذا من حدة التوتر وانتهز ياسين هذه الفرصة السانحة فتشجع قائلا :

— أعرضى الأمر على أبى ، فالكلمة كلمته على أى حال ..
وقالت خديجة باصرار غريب :

— لا بد من هذا ، لا بد من هذا ..
كانت تعنى ما تقول : لأنها من ناحية تعلم باستحالة اخفاء مثل هذا الأمر عن أبيها ، ولأنها من ناحية أخرى تعتقد بأن والدها لا يمكن أن يقبل تقديم زواج عائشة عليها ، ولأنها — الى هذا وذالك — ما زالت تصر على التظاهر باللامبالاة ، ومع انها لم تكن تعلم بما بين الضابط والزائر من سبب .. الا أن القلق والتشاؤم اللذين شمرت بهما من بادىء الأمر لم يتخليا عنها لحظة واحدة .

- ٢٥ -

مع أن السيدة امينة جربت في حياتها أكثر من سبب من الأسباب التى تذكر الصفو الا أنها لم تكن قديمة عهد بنوع طارىء من هذه الأسباب ، امتاز بطابع خاص به ، اذ بدا في ذاته — على خلاف سوابقه — مما يجمع الناس على اعتباره من أسس السعادة

الجمهورية في الدنيا ، ومع هذا انقلب في بيتها ، بل في قلبها خاصة ،
باعثا هاما من بواعث القلق والكدر ، وكما كانت صادقة وهي
تسائل نفسها : من كان يظن أن مقدم عريس ، الأمر الذي تتلف
النفوس على استقباله ، يجز علينا هذا التعب كله !! . ولكن
هكذا جرى الحال ، فتنازع قلبها أكثر من رأى دون أن تطمئن الى
واحد منها ، رأت حيناً أن الموافقة على زواج عائشة قبل خديجة
كفيلة أن تقضى على مستقبل ابنتها الكبرى ، ورأت حيناً آخر
أن إلحاح في معارضة الأقدار موقف شديد الخطورة قد يعود على
الفتاتين بأوخم العواقب ، وإلى هذا وذلك شق عليها كثيرا أن
توصد الباب في وجه عريس رائع كالضابط الشاب ليس من
اليسير أن يوجد ألحظ بمثله مرة أخرى . ولكن ما عسى أن يكون
حال خديجة إذا تمت الموافقة وما عسى أن يكون حظها
ومستقبلها ؟! . لم تدر لنفسها مستقرا ، خاصة وأن ما طبع
عليه من سلبية شاملة جعلها أعجز من أن تجد حلا موفقا لمشكل
من المشاكل ، ولهذا وجدت راحة وهي تتحفظ لالقاء العيب كله
على عاتق السيد ، بل وجدت هذه الراحة بالرغم مما يخامرها
من خوف كلما أقدمت على سفاتحته بأمر ترتاب في حسن تقبله
له ، وقد انتظرت حتى فرغ من احتساء قهوته ثم قالت بصوتها
المهموس الناطق بالأدب والخضوع :

— سيدى .. حدثنى فهمى قال ان صديقا له رجاه ان يعرض
عليك رغبته في خطبة عائشة ..

سددت العينان الزرقاوان نظرة اهتمام ودهشة من فوق
الكنبة الى حيث تجلس المرأة على شلثة غير بعيدة من قدميه ،
كانما تقول لها : « كيف تحدثينى عن عائشة وأنا في انتظار
اخبار عن خديجة بعد ما كان من نيا الزائرات الثلاث » .. ثم
تسأل ليستوثق مما سمع :

— عائشة ؟ ..

— نعم يا سيدى ..
ونظر السيد أمامه في ضيق ، ثم قال وكأنه يحدث نفسه :
— قررت من زمن بعيد أن هذا سابق لأوانه ..
فكالت المرأة في عجلة أن يظن بها معارضة لرأيه :
— انى أعلم رأيك يا سيدى ، ولكن يجب على أن أطلعك على
كل شيء مما يدور بيننا ..

تفحصها الرجل ببصر حاد كأنه يسير ما في قولها من صدق
واخلاص ولكن لمعت عيناه بخاطر طارىء حال بينه وبين
تفحصها ، فتساءل في اهتمام وقلق :

— ترى الهذا علاقة بالسيدات اللاتي زورك ؟

أجل ، علمت بهذه العلاقة ، وهي منفردة بفهمى ، وقد
اقترح عليها الشاب أن تخفى أمرها عن والده عند مفاتحته
بالخبر فوعده بالتفكير في المسألة طويلا ، وترددت بين قبولها
ورفضها ، ثم مالت أخيرا الى كتمانها كما اقترح فهمى ، ولكنها
حين جوبهت بسؤال السيد وهي تشعر بنظرة عينيه كضوء
الشمس الوهاج تنستت عزمتها وتبدد رأيها فقالت بلا تردد :

— نعم يا سيدى ، علم فهمى أنهن قريبات صديقه ..

فعبس السيد غاضبا ، وكفهذه اذا غضب امتلات صفحة
وجهه البيضاء بالدم وتطاير الشرر من عينيه . من يستهن
بخديجة فكأنما استهان بشخصه ، ومن يمس كرامتها فكأنما
طعن في صميم كرامته ، ولكنه لم يدر كيف يعلن غضبه الا عن
طريق صوته الذى علا وغلف وهو يتساءل بحنق وازدراء :

— من هو هذا الصديق ؟

فكالت — وهي تجد للنطق بالاسم قلعا لا تدرى له من سبب :

— حسن ابراهيم ضابط قسم الجمالية .

فقال السيد متسائلا في انفعال :

— قلت انك ادخلت خديجة وحدها على السيدات ؟! ..

- نعم يا سيدى ..

- هل زرتك مرة أخرى ؟

- كلا يا سيدى والا كنت أخبرتك .

فسألها منتهرا كأنما هى المسئولة عن هذه الغرابة :

- أرسل قريباته فراين خديجة ، وإذا به يطلب عائشة !..

ما معنى هذا ؟!..

فازدردت الأم ريقها الذى جف بين الأخذ والرد وتمتمت :

- في مثل هذه الحال لا تدخل الخاطبات البيت المقصود الا

بعد أن يزور كثيرا من بيوت الجيران متحريات عما يهمهن ،

وبالفعل قد أشرن في حديثهن معى الى انهن سمعن بأن للسيد

كريميتين ، ولعل تقديم واحدة دون الأخرى ..

أرادت أن تقول « لعل تقديم واحدة دون الأخرى وكذا لديهن

ما سمعن عن جمال الصغرى » ولكنها أمسكت خوفا من مضاعفة

غضبه من ناحية ، واشفاقا من الجهر بهذه الحقيقة التى ترتبط

في ذهنها بأوان قاتمة من القلق والأسى من ناحية أخرى ، فأمسكت

مكتفية باتهام الحديث بإشارة من يدها كأنها تقول « الخ الخ » .

وحجج السيد إليها بنظر حاد حتى غضت الطرف استخذاء ،

وانقلب الى حال من الامتعاض والحزن كثفت الغضب في صدره

فمضى يقرع أضغله يروم متنفسا أو ينشد صحبة ، ثم صاح

بصوت عاصف :

- عرفنا كل شيء ، ها هو ذا عريس يتقدم طالبا يد ابنتك

فأسمعني رأيك ؟!..

شعرت بسؤاله يستدرجها الى حفرة لا قرار لها فقالت

بلا تردد وهى تبسط راحتها في تسليم :

- رأيي رأيك يا سيدى ولا رأى لى غيره ..

فصاح في زمجرة :

- لو كان الأمر كما تقولين ما فاتحتنى في الأمر .

فقالت في لهجة ملهوجة واشفاق :

- ما حدثتك يا سيدى الا لأخبرك عما جد في الأمر ، لأن

واجبى يقضى على بأن أطلعك على كل ما يتصل ببيتك من قريب

أو بعيد .. ^{صم}صم

فهز رأسه في حنق قائلا :

- من يدري .. أى والله من يدري .. ما أنت الا امرأة ،

وكل امرأة ناقصة عقل ، والزواج خاصة يفتنك عن الرشاد ،

فلعلك ببيتك رديب عقلك .

فقاطعت بصوت متهدج :

- سيدى أعوذ بالله مما تظن بى ، ان خديجة ابنتى ومن

لحمى ودمى كما هى ابنتك .. وان حظها ليفتت كبدي ، أما

عائشة فما تزال في أول ربيعها ولن يضرها أن تنتظر حتى يأخذ

الله بيد شقيقتها ..

فراح يمسح براحته على شاربه الغليظ بحركة عصبية حتى

توقف فجأة ، كأنما تذكر أمرا وتساءل :

- هل علمت خديجة ؟

- نعم ياسيدى ..

فلوح بيده غاضبا وهو يصيح :

- كيف يطلب هذا الضابط يد عائشة بالرغم من أن أحدا

لم يرها ؟!

فقالت بحرارة وقلبها يرتجف :

- قلت يا سيدى لعلهن سمعن عنها ..

- ولكنه يعمل في قسم الجمالية أى في حيننا ، وكأنه من اهله ..

فقالت الأم في تأثر شديد :

- ان عين رجل لم تقع على إحدى ابنتى منذ انقطاعهما عن

المدرسة في سن الطفولة ..

فضرب كفا بكف وصاح بها :

- مهلا .. مهلا .. هل حسبتنى اشك في هذا يا ولىة ؟!
لو شككت فيه ما اتبعتنى القتل !

انما اتحدث عما يجرى في عقول بعض الناس ممن لا يعرفوننا ، « ان عين رجل لم تقع على احدى ابنتى » .. ما شاء الله ، وهل كنت تريدان ان تقع عين رجل عليهما ؟! .. يا لك من مجنونة مهذرة ، انى اردد ما قد تشيع به السنة السفهاء من الناس ، اجل .. انه ضابط الحى ، يسير في شوارعنا صباح مساء فلا يبعد ان يقوم عند البعض ظن عن احتمال رؤيته لاحدى الفتاتين اذا علموا بزواجه منها .. لا أحب، لا اريد ان اعطى ابنتى لاحد ليثير الشبهات حول سمعتى ، بل لن تنتقل ابنتى الى بيت رجل الا اذا ثبت لدى ان دافعه الاول الى الزواج منها هو رغبته الخالصة في مصاهرتى انا .. انا .. انا .. « لم تقع عين رجل على احدى ابنتى » .. مبارك .. مبارك يا ست أمينة ..

وصفت الام دون ان تنبس بكلمة فساد الصمت الحجرة ، ثم نهض الرجل فاذهبا نهوضه بأنه سيشرع في ارتداء ملابسه استعدادا للعودة الى الدكان فبادرت بالقيام ، ونزع النسيء ذراعيه من الجلباب ورفع ليخلعه ، ولكنه توقف قبل ان تجاوز طاقة الجلباب ذقنه ، وقال والجلباب مكوم فوق منكبه كلبدة الأسد :

- ألم يقدر سى فهمى خطورة الطلب الذى تقدم به صديقه ؟.
(ثم محركا رأسه في أسف) : يحسدنى الناس على انجاب ثلاثة ذكور ، والحق انى لم انجب الا انا .. خمس اناث .

لا تهم من التمدد لعتهم فهو حمل
الأم الذئب لا تزعج عمت

- ٢٦ -

على اثر مغادرة السيد للبيت ذاع رايه في خطبة عائشة ، ومع انه قوبل بتسليم عام - تسليم من لا حيلة لهم سوى التسليم - الا انه كان متباين الصدى في النفوس . أسف فهمى للخبر ، وساءه ان تفقد عائشة زوجا صالحا مثل صديقه حسن ابراهيم ، اجل كان قبل ان يبيت أبوه في الأمر مترددا بين التحمس للعريس المتقدم وبين العطف على موقف خديجة الدقيق ، فلما أن قضى الأمر واستراح جانبه المشفق على خديجة أسف جانبه الآخر الراغب في سعادة عائشة وامكنه ان يجهر برأيه فقال :

- لا شك ان مستقبل خديجة يهمنى جميعا ولكننى لا أوافق على الاصرار على حرمان عائشة من الفرص الحسنة التى تحتاج لها ، الحظ غيب لا يعلمه الا الله ، ولعل الله يدخر للتأخر حظا أوفر من المتقدم ..

ولعل خديجة كانت اشد الجميع شعورا بالحرج لوقوفها للمرة الثانية عشرة في سبيل اختها ، لم تكن تفكر في الحرج وهى تحت الطريقة ، ولكن حين لما اليها رأى ايها الحاسم . وتقهقر الخطر الذى يهددها ، زایلها الحنق والالم وحل محلها شعور اليم بالخلج والحرج ، ومع ان حديث فهمى لم يترك في نفسها أثرا حسنا لأنها طمعت في اعماقها ان تجد من الجميع حماسا لراى ايها وان تبقى هي الوحيدة المعارضة له ، الا انها قالت معلقة عليه :

- صدق فهمى فيما قال : وكان هذا راى دائما ..
فقط ياسين يؤكد رايه السابق قائلا :
- الزواج مصير كل حى .. لا تخافوا .. ولا تجزعوا ..

قنع هذه المرة بالكلام العام على ولعه بعائشة وشدة استيائه لما حاق بها من ظلم ، ولكنه خاف أن يعلن رأيه صراحة أن تسيء خديجة فهمه أو تظن أن ثمة علاقة بين هذا الرأي وبين ما ينشعب بينهما كثيرا من نقار برئء ، وإلى هذا وذلك كان احساسه الباطني بأنه نصف أخ فقط يقعه عند مواجهة الخطير من شئون الأسرة الحساسة عن ابداء الرأي الخليق بجرح احد من افرادها .. ولم تكن عائشة قد نسبت بكلمة فقست نفسها على الكلام قسرا أن يشي صمتها بالأمها التي صممت على اخفائها والتظاهر بعدم الاكتراث لها مهما سامها ذلك من عذاب وتوتر ، بل أجمعت على اعلان الارتياح مجارة لجو البيت الذي لا يعترف للعواطف بحق من حقوقها .. والذي تدارى فيه اهواء القلوب بأقنعة الزهد والرياء ، فقالت :

— لا يصح أن أتزوج قبل خديجة . والخير كل الخير فيما يرى أبى (ثم مبتسمة) .. لماذا تتعجلون الزواج ؟ .. ومن ادراككم بأننا سنحظى في بيوت الأزواج بحياة سعيدة كالتى نحظى بها في بيت أبينا ؟!

ولما تواصل الحديث كشأنه كل مساء حول المدفأة لم تمسك عن الاشتراك فيه بما وسعها قوله بالرغم من شرود ذهنها وتشتت نفسها ، وكم في الواقع شابها الدجاجة المذبوحة التى تندفع مبسوطه الجناحين — كأنما تنتفض حيوية ونشاطا — على حين يتدفق الدم من عنقها مستصفا آخر قطرات الحياة ..

على أنها توقعت هذه النتيجة قبل عرض الأمر على أبيها ، أن لا ثمة أمل غامض داعب أحلامها كما يداعبنا الأمل في كسب النمرة الأولى في اليانصيب الكبير .. وقد تطوعت أول الأمر للمعارضة في زواجها مدفوعة بأريحية الظفر والسعادة ، وبالعطف على شقيقتها السيئة الحظ ، الآن خمدت الأريحية ونضب العطف ، فلم يبق الا الامتعاض والسخط واليأس . ليس لها من الأمر

شيء . هذه ارادة الأب ولا معقب لها ، وما عليها الا الاذعان والاستسلام ، بل عليها أكثر من هذا الرضى والارتياح ، لأن محض الوجوم ذنبلا يفتقر ، اما الاحتجاج فائم لا يطيقه أدبها وحيائها ، افاقت من سكرة السعادة الغامرة التى انتشت بها يوما وليلة على ياس مظلم ، ما أكنف الظلمة تجيء عقب النور الباهر ، في تلك الحال لا يقتصر الألم على الظلمة الراهنة ، ولكنه يضاعف مرات ومرات بالحسرة على النور الذاهب وتساؤل نفسها اذا كان ثمة نور أمكن أن يضيء مليا فلماذا لم يواصل الضياء ، لماذا لا يخبو ، لماذا خبا ، فتكون حسرة جديدة تنضم الى بقية الحسرات التى ينسجها الحزن حول قلبها منتزعا اياها من ذكريات الماضى وواقع الحال وأحلام المستقبل ، وعلى اغراقها في التفكير في هذا كله وحضوره — تبعا لذلك — في شعورها فانها تعود تتسائل وكأنها تتسائل لأول مرة ، وكان الحقيقة المرة ترتطم بشعورها للمرة الأولى : هل حقا خبا النور ؟!

هل تمزقت الأسباب بينها وبين الشاب الذى ملأ قلبها وخيالها ؟!

سؤال جديد رغم تكراره ، وصدمة جديدة رغم نفاذها الى العظام ، ذلك أن الحسرة الكاوية لا تنفك يتنازعها اليأس المستقر في الأعماق والآمال المتطائرة في الهواء كلما تطاير منها شعاع الأمل المتطاير ، ثم تعود فتستقر في الأعماق ، ثم تطفو مرة أخرى ، وثالثة ، حتى تأوى الى مستقرها — وقد ودعت النفس آخر آمالها — فلا تفاديه الى الأبد ، انتهى كأنه لم يكن ، لا سبيل اليه أبدا ، ما أهون الأمر عليهم ، عاجلوه كما يعالجون أمور يومهم العادية مثل ماذا نأكل غدا أو حلمت ليلة أمس حلما غريبا أو رائحة الياسمين تملأ جو السطح ، كلمة من هنا .. كلمة من هناك .. واقترح يعلن ورأى يبسط . في هدوء وحلم غريبين ، ثم تعزية باسمه ، وتشجيع كأنه اللعابة . ثم تغير الحديث وتشعب ، انتهى كل شيء ، وأدرج

في التاريخ الذي تنزل عنه الأسرة النسيان ، أين قلبها من هذا كله ؟! لا قلب لها ، لا يتصور وجوده أحد ، لا وجود له ، في الواقع ، ما أشد غربتها ، ضائعة مفقودة ، ليسوا منها وليس منهم ، وحيدة منبوذة مقطوعة الصلات ، ولكن كيف تنسى أن كلمة واحدة لو جاد بها لسان أبيها ، كانت تكفي لتغيير وجه الدنيا وخلقها خلقا جديدا ؟! كلمة واحدة لا أكثر ، لا تريد عن لفظة «نعم» ثم تحدث العجزة ، لم تكن لتكلفه الا عشر ما تكلف من جهد في المناقشة الطويلة التي انتهت الى الرفض ولكن لم تجر بذلك مشيئته ، وارتضى لها هذا العذاب كله . ومع انها كانت متأللة حائقة ساخطة الا ان المأ وحنقها وسخطها وقفت عند شخص أبيها وارتدت عنه خائبة ارتداد الوحش الهائج اذا اعترضه مروضه ، الذي يحبه ويخافه ، لم يسمحها أن تحمل عليه ، ولو في أعماق سريرتها ، وظل قلبها على ولائه وجهه فلم تضمر له الا الاخلاص والوفاء كأنه لا يجوز أن تقابل قضاءه الا بالتسليم والحب والوفاء ..

شدت الصغيرة ذاك المساء جبل اليأس حول عنقها الرقيق فأمن قلبها المتفتح بأنه نضب وأجذب الى الأبد ، وضاعف من توتر أعصابها الدور الذي صمعت على أن تمثله بينهم ، دور البشر واللامبالاة وما سامتة نفسها من المشاركة في سمرهم حتى نادت هامتها الذهبية بحملة ، وانقلب الأصوات في أذنيها وقرا ، فما جاء وقت الانسحاب الى حجرة النوم حتى مضت في أعياء كالمرضى ، وهناك في أمن من ظلمة الحجرة تجهم وجهها لأول مرة وعكس صورة صادقة من قلبها ..

بيد أنه لحق بها رقيب - خديجة - أيقنت من بادئ الأمر أن تصنعها لن يجدى معها شيئا وقد تحامت في المجلس نظراتها أما الآن - اذ جلست إليها - فلا مهرب منها ولا مفر . وتوقعت أن تهجم الفتاة على الموضوع بعنادها المعروف ، وانتظرت تسلل

صوتها الى أذنيها بين لحظة وأخرى ، ورحب قلبها بالحديث ، لا لأنه سيبعث رجاء جديدا ، ولكن لأنها أملت وراء الاعتذار والخرج اللذين ستعلنهما الفتاة صادقة حتما شيئا من العزاء . ولم يطل الانتظار فما لبث أن جاءها الصوت يشق الظلمة قائلا :
- عائشة ، انى حزينه آسفة ، ولكن علم الله لا حيلة لى ، وكم وددت لو تواتينى الشجاعة فأرجو أبى أن يعدل عن رأيه .. وتساءلت عما وراء هذا الكلام من صدق أو رياء منفعة بثورة حق ثارت بها لدى سماع النبرات الأسيفة مباشرة ، ولكنها اضطرت الى العودة الى استعارة النبرات التي ظلت تتحدث بها في مجلس أمها فقالت :

- فيم الحزن والأسف ، ما أخطأ أبى وما ظلم ولا داعى للعجلة !..

- هذه ثانى مرة يؤجل زواجك بسببى .

- لست آسفة مطلقا ..

فقالت خديجة بلهجة ذات مغزى :

- ولكن هذه المرة غير المرة الأولى ..

أدركت الفتاة ما وراء هذه الكلمات بسرعة البرق ، فخفض قلبها خفقان اللوعة والحسرة ، وبكى وجدا وحبا ، ذلك الحب الكامن يشار بالاشارة تجيئه من الخارج عفوا أو قصدا كما يثار الجرح أو الدمل باللمس والشك ، وهمت بالكلام ولكنها أمسكت مضطرة لأن أنفاسها لم تسعفها فخافت أن تفضحها نبراتها ، وعند ذلك تهذبت خديجة قائلة :

- لهذا تجدينى في غاية الحزن والأسف ، ولكن ربنا كريم ، وما شدة الا وبعدها الفرج ، فعسى أن ينتظر ويصبر ويكون من نصيبك بالرغم مما بدا ..

وهتفت جوارحها :

« يا ليت »

أما لسانها فقال :

- سيان عندي ، الأمر أبسط مما تظنين .
- أوجو أن يكون كذلك .. اني جد حزينة وآسفة يا عائشة ..
وفتح الباب فجأة وبدا شبح كمال في الشعاع الخافت الذي
تسلل من فرجة الباب فصاحت به خديجة في ضيق :
- لماذا جئت ؟ وماذا تريد ؟
فقال الغلام بصوت يشي باحتجاجة على سوء مقابلتها له :
- لا تنهريني .. وافسح لي ..
ووثب الى الفراش وركع بينهما . ثم دس يدا الى واحدة
ويدا الى الأخرى ، وراح يدغدغهما ، ليهيئ لحدثه جوا طيبا غير
الجو الذي أئذرت به نهرة خديجة ، ولكنهما نشرتا يديه ، وقالتا
بصوتين متتابعين :

- آن لك أن تنام ، فاذهب ونم ..
ولكنه هتف في غيظ :

- لن اذهب حتى أعرف ما جئت أسأل عنه !
- عم تسأل في هذه الساعة من الليل ؟
فقال مغبرا لهجته حتى يستجيبا له :
- أريد أن أعرف هل تتركان بيتنا اذا تزوجتما ؟
فصاحت بها خديجة :
- انتظر حتى يجيء الزواج !
فتساءل في عناد :

- ولكن ما هو الزواج ؟
- كيف أجيبك وأنا لم اتزوج .. اذهب وتم الله لا يسيئك .
- لن اذهب حتى أعرف ..
- يا حبيبي توكل على الله وفارقنا ..
فال بصوت حزين :
- أريد أن أعرف هل تغادران البيت اذا تزوجتما ؟

فقالت في ضجر :

- نعم يا سيدي .. ماذا تريد ايضا ؟
فقال في جزع :

- اذن لا تتزوجا .. هذا ما أريد ..
- سمعا وطاعة ..

فعاد يقول في احتجاج نائر :

- أنا لا أطيق أن تذهبا بعيدا عنا وسادعو الله الا يزوجكما ..
فهتفت :

- من فمك لباب السما .. عال .. عال .. ربنا يكرمك .
تفضل فارقنا مع السلامة .

- ٢٧ -

سرى في البيت شعور بأنه يستقبل من حياته المرهقة بالتزمت
بهم راحة يستطيع - اذا شاء - أن يستروح فيه نسمة من
الحرية البريئة في أمن من الرقيب ، فظن كمال أنه غدا في حل من
أن يقطع اليوم كله في اللعب داخل البيت أو خارجه ، وتساءلت
خديجة وعائشة الا يمكن أن تنسلا مساء الى بيت مريم لقضاء
ساعة في لهو ومرح ؟ لم تجيء هذه الراحة نتيجة لانقضاء شهور
الشتاء الكالج وحلول بشار الربيع ملوحة بالدفع والبشاشة ،
اذ ليس من شأن الربيع أن يهب هذه الأسرة حرية يحرمها اياها
الشتاء ، ولكنها جاءت نتيجة طبيعية لسفر السيد أحمد الى
بورسميد في مهمة تجارية تدعوه كل عدة أعوام الى السفر يوما
أو بضع يوم ، واتفق أن سافر الرجل صباح الجمعة فجمعت
المطلة الرسمية بين أفراد الأسرة .. وتجاوبت رغباتهم الظماي
الى الحرية في الجو الطليق الآمن الذي خلقه على غير انتظار رحيل

بصرها الى ما وراء الحدود المحرمة ، ولا كيف تراءت المغامرة
ممكنة بل مغرية بل طاغية ، أجل بدت زيارة الحسين عذرا قويا
- له صفة القداسة - للطفرة اليسارية التي نزعته اليها
ارادتها ، ولكنها لم تكن وحدها التي تمخضت عنها نفسها اذ
لبت دعاءها في الأعماق تيارات حبسية متلهفة على الانطلاق كما
تلبى الغرائز المتعطشة للقتال نداء الدعاء الى الحرب بحجة الدفاع
عن الحرية والسلام . ولم تدر كيف تعلن استسلامها الخطير
ولكنها نظرت الى ياسين وسألته بصوت متهدج :

- زيارة الحسين منية قلبى وحياتى .. ولكن .. أبوك ؟
فضحك ياسين قائلا :

- أبى في طريقه الى بورسعيد ولن يعود قبل ضحى الغد ،
وبوسعك - زيادة في الحيلة - أن تستعيرى ملاءة أم حنفى اللف
حتى اذا اتفق أن رآك أحد وأنت تغادرين البيت أو وأنت
تعودين اليه ظنك زائرة ..

ورددت عينيها بين الأبناء في خجل وتهيب كأنها تنشد المزيد
من التشجيع ، فتحمست خديجة وعائشة للاقتراح ، وكأنهما
تعبران بحماسهما عن رغبتهما الحبسية في الانطلاق ، وفرحتهما
بزيارة مريم التي باتت - بعد هذا الانقلاب - في حكم المقرر ،
وهتف كمال من أعماق قلبه :

- سأذهب معك يا نينة لأدلك على الطريق ..
وحدها فهمى بنظرة عطف اثاره في نفسه ما طالعها في
وجهها البريء من سرور حائر كسرور الطفل اذا منى بلعبة
جديدة فقال لها في تشجيع واستهانة :

- ألقى نظرة على الدنيا ، لا عليك من هذا فانى أخاف أن
تنسى المشى من طول لزومك للبيت !..
وفي فورة الحماس جرت خديجة الى أم حنفى ثم عادت
بملاءتها ، وتزاحمت الاصوات بالضحك والتعليق ، فغدا اليوم

الأب عن القاهرة كلها ، بيد أن الأم وففت من رغبة الفتاتين وجاح
الغلام وقفة المتردد ، لأنها كانت تحرص على أن تواظب الأسرة
على سيرتها المألوفة ، وأن تلتزم - في غياب الأب - الحدود التي
تلتزمها في حضوره خوفا من مخالفته أكثر منها اقتناعا بوجاهة
شدته وصرامته ، ولكنها ما تدرى الا وياسين يقول لها :

- لا تعارضى بالله .. اننا نحيا حياة لا يحياها أحد من الناس ،
بل أريد أن أقول شيئا جديدا .. لماذا لا تروحين عن نفسك
انت ؟! .. ما رأيكم في هذا الاقتراح ؟!

وتطلعت اليه الأعين في دهشة ولكن أحدا لم ينبس بكلمة ،
ولعلمهم - كأهمهم التي رمتهم بنظرة تأنيب - لم يحملوا قوله
محمل الجد ، الا أنه استطرد قائلا :

- لماذا تنظرون الى هكذا ؟! .. لم أخطئ في البخارى ، وليس
ثمة جريمة والحمد لله ، ما هو الا مشوار قصير ترجعين منه
وقد ألقيت نظرة على جزء صغير من الحى الذى عشت فيه
أربعين عاما دون أن ترى منه شيئا ..

فتنهدت المرأة متممة :

- سامحك الله ..

فقهقه الشاب قائلا :

- علام يسامحنى ؟! .. هل اقترعت ذنبا لا يغفر ؟! والله
لو كنت مكانك لمضيت من توى الى سيدنا الحسين ... سيدنا
الحسين الا تسمعين ؟! .. حبيبك الذى تهيمين به على البعد وهو
قريب ، قولى انه يدعوك اليه ..

وخفق قلبها خفقانا لاحت آثاره في احمرار وجهها فنخفضت
راسها لتخفى آثارها الشديد ، انجذب قلبها الى الدعاء بقوة
تفجرت في نفسها فجأة على غير انتظار لا منها ولا من أحد ممن
حولها حتى ياسين نفسه ، كأنها زلزال قد وقع بأرض لم تعرف
الزلازل ، فلم تدر كيف استجاب قلبها للنداء ، ولا كيف تطلع

عيدا سعيدا لا عهد لأحده ، واشترك الجميع - وهم لا يدرون -
في الثورة على إرادة الأب الغائب ، والتفت الست أمينة في
الملاء وأسدت البرقع الأسود على وجهها ، ثم نظرت في المرأة
قلم تتمالك من أن تضحك طويلا حتى اهتز جذعها ، وارتدى
كمال بدلتها وطربوشه وسبقها الى فناء البيت ، ولكنها لم
تتبعه ، ركبها شعور الرهبة الذي يلزم المواقف الفاصلة فرفعت
عينها الى فهمى وتساءلت :

- ما رأيكم ، هل اذهب حقا ؟

فضاح بها ياسين :

- توكل على الله ..

وتقدمت منها خديجة . ووضعت يدها على منكبها ودفعتها
برفق وهي تقول :

- الفاتحة أمانة ..

ولم تزل تدفعها حتى أوصلتها الى السلم ، ثم رفعت يدها
فنزلت المرأة والجميع في أعقابها .. ووجدت أم حنفي في
انتظارها ، فالتفت الخادم على سيدتها - أو بالحرى على الملاءة
الملتفة بها - نظرة فاحصة ، ثم هزت رأسها هزة انتقادية ،
وتقدمت منها وأعادت لف الملاءة حول جسمها وعلمتها كيف
تمسك بطرفها في الوضع المناسب ، فانقادت لها سيدتها التي
كانت ترتدى الملاءة اللف لأول مرة ، وعند ذلك ارتسمت ملامح
قامتها وقدها في تفصيل وسيم ، تخفيه عادة جلايبها الفضفاضة ،
فالتفت خديجة عليها نظرة اعجاب باسمه وغمزت بعينها لهائشة
وأغرقتا في الضحك ..

ولاقت وهي تعبر عتبة الباب الخارجى الى الطريق لحظة دقيقة
جف لها ريقها فضاع السرور في نوبة القلق ووطاة الاحساس
بالذنب ، وتحركت في بطء وهي قابضة على يد كمال بحال
عصية ، وبدت مشيتها مضطربة مخلخلة كأنها عاجزة عن مبادئ

المشي الاولى ، الى ما اعترأها من حياء شديد ، وهي تتعرض لأعين
الناس الذين عرفتهم من عهد بعيد من وراء خصائص المشربية - عم
حسنين الخلاق ودرويش بائع الفول والفولى اللبان وبيومى
الشربتلى وأبو سريع صاحب المقل - حتى توهمت أنهم
سيعرفونها كما تعرفهم - أو لأنها تعرفهم - ووجدت مشقة في
تشبيث حقيقة بدية في رأسها وهي أن عينا منهم لم تقع عليها
مدى الحياة ، وعلى تلك الحال عبرا الطريق الى درب قرمز لانه
وان يكن أقصر الطرق الى جامع الحسين الا أنه كان لا يمر - كطريق
النحاسين - بدارك السيد فضلا عن خلوه من الدكاكين وانقطاع
المارة عنه إلا فيما ندر ، وتوقفت لحظة قبل أن توغل فيه ، والتفت
صوب المشربية فرائت شبحى ابنتها وراء ضلفة منها بينما
رفعت ضلفة أخرى عن وجهى ياسين وفهمى الباسمين ، ثم
فاستمدت من منظرهما شجاعة استعانت بها على ارتباكها ، ثم
جدت في السير - هي وغلماها - يقطعان الدرب المقفر في شئ من
الطمأنينة ، لم يغب عنها القلق ولا الاحساس بالذنب ولكنهما
ترأجعا الى حاشية الشعور الذى احتلت مركزه عاطفة استطلاع
حماسية نحو الدنيا التى يتراءى لها درب من دروبها وميدان من
مياطينها وغرائب من مبانيها وعديد من أناسها ، ووجدت سرورا
ساذجا لمشاركة الأحياء في الحركة والانطلاق ، سرور من قضت
ربع قرن سجينة الجدران ما عدا زيارات معدودات لأهلها فى
الخرنفس - بضع مرات في العام - تقوم بها داخل حنطور بصحبة
السيد فلا تسعفها الشجاعة حتى لاستراق النظر الى الطريق ..
وجعلت تسأل كمال عما يصادفهما في طريقهما من مشاهد وأبنية
وأماكن ، والفلام يحدثها في أسهاب مزهوا بدور المرشد الذى
يقوم به ، فهذا قبو قرمز المشهور الذى يجب - قبل الدخول
فيه - تلاوة الفاتحة ، وقاية من العفاريت التى تسكنه ، وهذا
ميدان بيت القاضى بأشجاره الباسقة وكان يسمى ميدان « ذقن

الباشا « مطلقا عليه اسم الزهر الذى يعلو أشجاره أو يسميه
أحيانا أخرى « ميدان شنجرلى » ساحبا عليه اسم بائع
الشيكلاته التركي ، أما هذا البناء الكبير فهو قسم الجمالية ،
ومع أن الغلام لم يجد به ما يستحق اهتمامه سوى السيف
المدلى من وسط الديدبان إلا أن الأم ألقت عليه نظرة مليئة بحب
الاستطلاع الخلقى فكان يقيم به الرجل الذى سعى إلى طلب يد
عائشة ، حتى بلغا مدرسة خان جعفر الأولية ، التى قضى بها عاما
قبل التحاقه بمدرسة خليل آغا الابتدائية ، فأشار إلى شرفتها
الأثرية وهو يقول « في هذه الشرفة كان الشيخ مهدي يلصق
وجوهنا بالجدار لأقل هفوة ، ويركلنا بخدائه خمسا أو ستا أو
عشرا كما يطلو له » ، ثم أوما إلى دكان تقع تحت الشرفة مباشرة
وقال بلهجة لم يغب عنها مفزاها وهو يتوقف عن السير « وهذا
عم صادق بائع الحلوى » ثم لم يقبل الترحيح عن موضعه حتى
أخذ قرشا وابتاع به ملينا أحمر ، انعطفا بعد ذلك إلى طريق
خان جعفر فلاح لهما عن بعد جانب من المنظر الخارجى لجامع
الحسين ، يتوسطه شباك عظيم الرقعة محلى بالزخارف العربية ،
وتعلوه فوق سور السطح شرفات متراصة كاسنة الرماح
فتساءلت والبشر يسجع في صدرها « سيدنا الحسين ؟ » ولما
أجابها بالإيجاب مضت تقارن بين المنظر الذى تقترب منه - وقد
حثت خطاها لأول مرة مذ غادرت البيت - وبين الصورة التى
خلقها خيالها له مستعينا في خلقه بنماذج من الجوامع التى في
متناول بصرها كجامع قلاوون وبرقوق فوجدت الحقيقة دون
الخيال ، لأنها كانت تنفخ في الصورة طولا وعرضا على قدر يناسب
منزلة صاحب الجامع من نفسها ، بيد أن هذا الاختلاف بين
الحقيقة والخيال لم يكن ليؤثر شيئا في فرحة اللقاء التى ثملت بها
جوانحها ، ودار حول الجامع حتى الباب الأخضر ودخلا في زحمة
الداخلات . ولما وطئت قدما المرأة أرض المسجد شعرت بأن بدنها

يذوب رقة وعطفا وحنانا ، وأنها تستحيل روحا طائرا يرفرف
بجناحيه في سماء يسطع بجنابتها عرف النبوة والوحى فأغرورت
عينها بالدمع الذى أسعفها للترويح عن جيشان صدرها وحرارة
حبها وإيمانها وأريحية امتنانها وفرحها ، وراحت تلتهم المكان
بأعين شيقة مستطلعة ، جدرانها وسقفه وعمده وأبسطته ونجفه
ومنبهه ومحاريبه ، وإلى جانبها كان كمال ينظر إلى هذه الأشياء
من ناحية أخرى خاصة به ترى أن الجامع يكون مزارا للناس
في النهار والهزيع الأول من الليل ، وبينما من بعد ذلك لصاحبه
الشهيد يذهب فيه ويحىء مستعملا ما فيه من أثاث على نحو
ما يستعمل المالك ملكه ، فيطوف بأرجائه ويصلى في المحراب
ويرتقى المنبر ويعلو النوافذ ليشرق على حبه المحيط ، وكم غنى
حالما لو ينسونه في الجامع بعد أن يفلق أبوابه فيمكنه أن يلقي
الحسين وجها لوجه وأن يمضى في حضرته ليلة كاملة حتى الصباح
وتخيل ما يخلق به أن يقدمه له عند اللقاء من آى الحب والخضوع
وما يجدر به أن يلقيه عند قدميه من أمانيه ورغباته وما يرجوه
بعد ذلك عنده من العطف والبركة ، تخيل نفسه وهو يقترب منه
خافض الرأس فيسأله الشهيد برقة « من أنت ؟ » فيجيبه وهو
يقبل يده « كمال أحد عبد الجواد » ويسأله عن عمله فيقول له
« تلميذ - ولن ينسى التنويه بتفوقه - بمدرسة خليل آغا »
ويسأله عما جاء به في هذه الساعة من الليل فيجيبه بأنه حب
آل البيت عامة والحسين خاصة ، فيبسم إليه عطفا ، ويدعوه إلى
مرافقته في تجواله الليلي ، وعند ذاك يروح له بأمانيه جملة قائلا :
« اضمن لى أن العب كما أشاء داخل البيت وخارجه ، وأن تبقى
عائشة وخديجة في بيتنا إلى الأبد ، وأن تغير طبع أبى ، وأن تمد
في عمر أمى إلى ما لا نهاية ، وأن آخذ من المصروف قدر كفايتى ،
وأن ندخل الجنة جميعا بغير حساب » .. هذا وتيار الزائرات
الراحف في بطء يدفعهما رويدا حتى وجدا نفسيهما في مثوى

الضريح ، طالما تلهفت أشواقها على زيارة هذا المثوى كما تلهف على حلم يستحيل تحقيقه في هذه الدنيا ، ها هي تقف بين أركانها ، بل ها هي لصق جدران الضريح نفسه ، تشرف نفسها عليه خلال الدموع ، وتود لو تترىث لتتملى مذاق السعادة لولا شدة ضغط الزحام ، ومدت يدها إلى الجدران الخشبية ، واقتدى كمال بها ، ثم قرأ الفاتحة ، ومسحت بالجدران وقياتها ولسانها لا ينسى عن الدعاء والتوسل ، ودت لو تقف طويلا أو تجلس في ركن من الأركان لتعيد النظر والتأمل ثم لتعيد الطواف ، ولكن خادم المسجد وقف للجميع بالمرصاد ، لا يسمح لواحدة بالتلكؤ ويحث المتباطئات ، ويلوح منذرا بعصاه الطويلة ، وهو يدعو الجميع إلى اتمام الزيارة قبل حلول ميعاد صلاة الجمعة ، ارتوت من المنهل العذب ولكنها لم تطفئ ظمأها ، وهيئات أن يروى لها ظمأ ، لقد هاج الطواف حنينها فتفجرت عيونه وسال وزخر ولن يزال ينشد المزيد من القرب والابتهاج ، ولما وجدت نفسها مرغمة على مغادرة المسجد انتزعت نفسها منه انتزاعا ، وأودعته قلبها وهي توليه ظهرها ، ثم مضت حسرى يعذبها شعورها بأنها تودعه الوداع الأخير ، بيد أن ما طبعت عليه من قناعة واستسلام أخذها على ما استسلمت له من الحزن فردها إلى تملأ ما ظفرت به من سعادة طارت بها هواجس الفراق ، ودعاها كمال إلى مشاهدة مدرسته فمضيا إليها في نهاية شارع الحسين ، ووقفا عندها مليا ، ولما أرادت الرجوع من حيث أتت أئذره ذكر العودة بانتهاء الرحلة السعيدة مع أمه التي لم يحلم بمثلها من قبل فأبى التفريط فيها واستمات في الدفاع عنها فاقترح عليها أن يسيرا في السكة الجديدة حتى الفورية ، ولكي يقضى على المقاومة التي بدت في صورة تقطيعية باسمه من وراء البرقع خلفها بالحسين فتهتدت ، واستسلمت ليده الصغيرة ، ومضيا يشقان طريقهما في زحمة شديدة وبين تيارات متلاطمة

من السائرين في جميع الجهات مما لم تجد عشر معشاره في الطريق الهادئ الذي جاءت منه فعلاها الارتباك ، وأخذت تنقد نفسها في اضطراب شامل ، ولم تلبث أن شكت إليه ما تلقى من عناء وأعباء ، ولكن تهالكه على اتمام الرحلة السعيدة جعله يصم أذنيه عن شكاتها ويشجعها على مواصلة السير ويلهيها عن متاعبها بلفت نظرها إلى الدكاكين والعربات والمارة ، وهما يقتربان في بطء شديد صوب منعطف الفورية ، وعند ذلك المنعطف لاحت لنظريه دكان فطائر فسال لماله وثبتت عيناه عليها لا تتحولان وراح يفكر في وسيلة لاقتناع أمه بالدخول إلى الدكان وابتياح فظيرة ، وبلغا الدكان وهو لا يزال يفكر ، ولكنه ما يدرى إلا وأمه ثقفت من يده فالتفت نحوها متسائلا فراها وهي تسقط على وجهها وقد ندت عنها آهة عميقة ، واتسعت عيناه في ذهول ورعب دون أن يبدى حراكا ولكنه على ذهوله ورعبه رأى بجانب عينه - في نفس الوقت تقريبا - سيارة تفرمل محدثة صوتا عنيفا ومرسلة وراءها ذيلا من الدخان والغبار فكادت تدوس الملقاة لولا أن انحرفت عنها مقدار شبر ، وتعالى صياح وحدثت ضجة وهرع الناس إلى المكان من جميع نواحي الطريق كما تهرع الصبية إلى صفارة الحافى فضربوا حولها حلقة غليظة بدت أعينا مستطلعة ورءوسا مشرئبة واللسنة تهتف بكلام اختلطت أسئلته بأجوبته ، وأفاق كمال من الصدمة بعض الشيء فراح يردد عينيه بين أمه الملقاة عند قدميه وبين الناس في حال ناطقة بالخوف والاستغاث ثم ارتدى على دركبيه إلى جانبها ووضع كفه على منكبيه وناداه بصوت قففت نبراته بحرارة الرجاء ولكنها لم تستجب له فرفع رأسه مقلبا عينيه في وجوه الناس ، ثم صرخ باكية في نجيب حار علا على الضجة التي تكتنفه حتى كاد يسكتها وتطوع البعض لمواساته بكلمات لا معنى لها ، وانحنى آخرون فوق أمه

مستطعين بنظرات كمنت وراءها رغبتان ، تشد أحدهما السلامة للضحية ، وتنزع الأخرى - في حال اليأس من السلامة - الى أن ترى الموت - ذلك الحتم المؤجل - وهو يطرق بابا غير بابهم ، وينتزع روحا غير روحهم كأنهم يودون أن يقوموا بشبه بروفا آمنة لاخطر دور قضى عليهم جميعا أن يخطموا الحياة بلعبه ، وصاح أحدهم قائلا « صدمها باب السيارة الأيسر في ظهرها » ، وقال السائق الذى غادر السيارة ووقف محتثقا بجو الاتهام الذى يطبق عليه « لقد انحرفت عن الطوار بغتة فلم استطع أن أنفادى من صدمها ، ولكنى فرملت بسرعة فجاءت الصدمة خفيفة ، ولولا رعاية الله لدستها » .. وجاء صوت من المحققين اليها قائلا « ما زالت تنفس .. اغمى عليها فقط » ، وعاد السائق يقول وقد لمح الشرطى قادما يترنح سيفه بجنبه الأيسر « انها صدمة خفيفة .. لم تتمكن منها أبدا .. انها بخير .. بخير يا جماعة والله .. » ثم انصبت قامة أول رجل تقدم لفحصها وقال كأنما يلقي خطبة « ابتعدوا لا تمنعوا الهواء .. فتحت عينيها .. بخير .. بخير والحمد لله ! .. » كان يتكلم بابتهاج لا يخلو من زهو كأنه هو الذى رد اليها الحياة ، ثم تحول الى كمال الذى غلبه بكاء عصبى فاسترسل فيه في انفعال لم تجد معه مواساة المواسين ، تحول اليه وربت على خده بخنان وقال له « حسبك يا بنى .. أمك بخير .. انظر .. هلم ساعدنى على اقامتها » .. ولكن كمال لم يمسك عن البكاء حتى رأى أمه تتحرك فمال نحوها ووضع يراها على كتفه ، وعاون الرجل على اقامتها حتى أمكن بجهد شديد أن تقف بينهما في أعياء وخور وقد سقطت عنها الملائة التى امتدت بعض الأيدي لتعيدها الى موضعها - بقدر الامكان - حول كتفيها ، ثم قدم لها الفطائر التى وقعت الحادثة أمام دكانه مقعدا فاقعدوها عليه وجاءها بقدح من

الماء فتجرعت جرعة سال نصفها على عنقها وصدرها فمسحت بيدها على صدرها بحركة عكسية وهى تزفر زفرة عميقة ، وجعلت تردد أنفاسا مضطربة بصعوبة وتنظر في وجوه المحققين بها في ذهول وهى تتساءل « ماذا جرى ؟ .. ماذا جرى ؟ .. رياه لماذا تبكى يا كمال ؟! » وعند ذلك اقترب الشرطى منها وسألها « هل بك سوء يا سيدتى ؟ وهل تستطيعين السير الى القسم ؟ » فصدم اسم « القسم » عقلها فرجها من الأعماق وهتفت بفرع « لماذا اذهب الى القسم ؟ .. لا اذهب الى القسم أبدا » فقال لها الشرطى « لقد صدمتك السيارة فأوقعتك ، فإذا كان بك سوء وجب أن تذهبي أنت وهذا السائق الى القسم لتحرير المحضر » ولكنها قالت وهى تلهث « كلا .. كلا .. لن اذهب .. أنا بخير » فقال لها الشرطى « تؤكدى مما تقولين ، انهضى وامشى لنرى ان كان أصابك سوء » ، ولم تتردد عن النهوض - مدفوعة بالقزع الذى اثاره ذكر القسم - فنهضت وأصلحت ملأئها ثم سارت تحت الأعين المستطلعة وكمال الى جانبها ينفذ عن الملائة ما علق بها من تراب ، ثم قالت للشرطى وهى ترجو أن تنتهى هذه الحال المؤلمة بأى ثمن « انى بخير .. (ثم مشيرة الى السائق) .. دعوه .. لا شئ يى » لم تعد تشعر بخور فيما ركبها من خوف ، هالها منظر الناس المحققين بها ، خاصة الشرطى الذى يتقدمهم ، وارتعدت تحت وقع النظرات المصوبة نحوها من كل مكان متحدية باستهانة بالنسة تاريخا طويلا من التستر والتخفى فتخايلت لعينيها فوق هذا الجمع صورة السيد وكأنها تنفرس في وجهها بعينين باردتين متحجرتين مندرتين بما لا تطيق تصوره من الشر ، فلم تال أن قبضت على يد الغلام واتجهت به صوب الصاغة فلم يعترض سبيلها احد وما غيبهما منعطف الطريق حتى شققت من الأعماق وخطبت كمال وكأنما تخاطب نفسها

فتحت أم حنفي الباب فأذهلها أن ترى سيدتها متربعة على عربة كارو ، وقد ظنت لأول وهلة أنه ربما يكون قد خطر لها أن تختم رحلتها بجولة في العربة على سبيل اللهو فلاحت على وجهها ابتسامة ولكن إلى لحظة قصيرة إذ ما لبثت أن رأت عيني كمال المحمرتين من البكاء فارتدت عينها إلى سيدتها في انزعاج واستطاعت هذه المرة أن تلمس ما تعاني من أعياء وألم فندت عنها آهة وهرعت إلى العربة هاتفة «ستي ، مالك ، بعد الشرعك» فقال الحوذى «تعب بسيط أن شاء الله ، عاونيني على انزالها» وتلقنها المرأة بين ذراعيها ، وسارت بها إلى الداخل وتبعهما كمال واجما محزونا ، وكانت خديجة وعائشة قد غادرتا المطبخ وانتظرتا في الفناء وكتاهما تفكر في دعابة تلقى بها القادمين فما راعهما إلا أن تطلع عليهما أم حنفي من الدهليز الخارجى وهى تكاد تحمل الأم حملا فندت عنهما صرخة ، وهرعتا إليها فزعتين وهما تهتفان:

- نينة ... نينة ... مالك !

وتعاونوا جميعا على حملها ، ولم تكف خديجة في أثناء ذلك عن أن تسأل كمال عما حدث حتى اضطر الغلام إلى أن يغمغم في خوف بالغ :

- سيارة !

- سيارة !

هكذا هتفت الفتاتان معا مرددين الاسم الذى وقع من نفسيهما موقعا مفزعا فاق الاحتمال . فولدت خديجة هاتفة « يا خير اسود .. بعد الشرعك يا نينة » أما عائشة فانعقد لسانها وأقحمت في البكاء ، ولم تكن الأم غائبة عن الوجود وأن

« يا ربى ماذا حدث ؟ ماذا رأيت يا كمال ؟ كأنه حلم مفزع ، خيل إلى أنى أهوى من عل إلى شواية مظلمة ، وأن الأرض تدور تحت قدمي » ثم غبت عن كل شيء حتى فتحت عيني على ذاك المنظر المخيف ، رباه .. هل أراد حقا أن يذهب بى إلى القسم ؟! يا لطيف يا رب .. يا منجى يا رب ، متى نبليح بيتنا ؟! بكيت كثيرا يا كمال لا عدمت عينيك أبدا ... جفف عينيك بهذا التنديل حتى تغسل وجهك في البيت .. آه .. وتوقفت عن السير بعد أن أوشكت أن يطويها طريق الصاغة ، واعتمدت بيدها على منكب الغلام وقد تقلص وجهها ، فرفع كمال وجهه إليها منزعجا وسألها :

- ماذا بك ؟

فأغمضت عينها وهى تقول بصوت ضعيف :

- انى تعب ، تعب جدا ، لا تكاد تحملنى قدماى . ادع أول عربة تصادفك يا كمال ...

ونظر كمال فيما حوله فلم ير إلا عربة كارو واقفة عند باب مستشفى قلاوون فنادى الحوذى الذى بادر إلى سوق العربة حتى وقف بها أمامهما واقتربت الأم منها متكئة على كتف كمال ثم صعدت إلى سطحها بمعاونته واعتمادا على منكب الحوذى الذى وطأ لها حتى تربعت وهى تنهت في أعياء شديد ، وجلس كمال إلى جانبها ثم وثب الحوذى إلى المقدمة ونخس الحماد بقبضة سوطه فمشى مشيته الوئيدة والعربة تترنح وراءه مقلقة .. وتأوهت المرأة متممة « ما أشد إلى ، عظام كتفى تتفكك » هذا وكمال يرمقها في جزع وقلق .. ومرت العربة في طريقها بدران السيد دون أن يعيرها التفاتا ، ومضى كمال يتطلع إلى الامام حتى لاحت لعينه مشربيات البيت .. لم يعد يذكر من الرحلة السعيدة إلا نهايتها الحزنة ...

كانت من الاعياء في نهاية فهمت على اعيائها رغبة في تسكين
اضطرابهما :

- انى بخير ، لم يحدث سوء ، ما بى الا تعب .

وتناهد الضجة الى ياسين وفهمى فخرجا الى راس السلم ،
واطلا من فوق الدرابزين وما لبثا ان نزلا مهرولين متزعجين وهما
يتساءلان عما حدث ، ولم تملك خديجة الا ان تشير الى كمال
ليجيب بنفسه مشفقة من ترديد الاسم الرهيب فاتجه الشابان
الى الغلام الذى عاد يغمغم بحزن وارتيابك :

سيارة !

ثم انتحب باكيا ، وتحول الشابان عنه مؤجلين ما يلح عليهما
من أسئلة الى حين ، وحملا الام الى حجرة الفتاتين وأجلساها
على الكنية ثم سألها فهمى قلنا معذبا :

- خبرينى عما بك يا نينة ، اريد ان اعرف كل شيء ..

ولكنها مالت برأسها الى الوراء وام تنبس بكلمة رثما
تسترد انفاسها على حين علا بكاء خديجة وعائشة وام حنفي
وكمال حتى فقد فهمى اعصابه فثار بهن ونهرهن حتى اسكن ،
ثم جذب كمال اليه ليستجويه عما يريد ، كيف وقع الحادث ،
وماذا فعل الناس بالسائق ، وهل اخذوكما الى القسم ، وكيف
كان حال الام في اثناء ذلك كله ، هذا وكمال يجيبه على أسئلته
بلا تردد وفي اسهاب ، وعن اكثر التفاصيل ، وكانت الام تتابع
الحديث بالرغم من وهنها فلما سكت الغلام استجمعت قواها
وقالت :

- انى بخير يا فهمى ، لا تزج نفسك ، كانوا يريدون ان
اذهب الى القسم فرفضت ، ثم واصلت السير حتى نهاية
الصناعة وهناك خارت قواى فجأة ، لا تزجج ، سيسترد قواى
بعد راحة قصيرة ..

الا ان ياسين عانى - الى انزعاجه للحادث - خرجا شديدا

لانه كان المسئول الاول عن الرحلة المشؤمة - بهذا وصفت بعد
الحادث - فاقترح عليهم ان يستدعوا طبيبا ، وغادر الحجرة لتنفيذ
اقتراحه دون انتظار لمعرفة رأى الآخرين . وارتعدت الام لذكر
الطبيب كما ارتعدت من قبل لذكر القسم فرجت فهمى ان يلحق
بأخيه وان يشيه عن عزمه مؤكدة له بأنها ستبرا دون حاجة الى
طبيب ولكن الشاب رفض الاذعان لرجائها مينا لها اوجه الفائدة
المنوطة بمجيئه ، وفي اثناء ذلك تعاونت الفتاتان على نزع اللاعة
عنها وجاءتها ام حنفي بقدر ماء ثم أحاطوا بها جميعا وهم
يتفحصون بقلق وجهها الذى علاه الشحوب ويسألونها مرارا
وتكرارا عما تجد ، وهى تحاول ما استطاعت ان تتظاهر بالهدوء
او تقنع بأن تقول اذا ألح عليها الام « نمة ألم خفيف في كتفى
اليمنى » ثم تستدرك قائلة « ولكن لم يكن من داع لاستدعاء
طبيب » ، والحق انها لم ترتج لاستدعائه أبدا ، لأنها من ناحية
لم تلق طبيبا قط - لا لحصانة صحتها فحسب - ولكن لأنها
نجحت دائما في مداواة ما يلم بها من توعك او انحراف بطبعها
الخاص فلم تؤمن بالطب الرسمى ، الى انه اقترن في ذهنها
بالحوادث الخطيرة والخطوب الفادحة ، ومن ناحية أخرى فقد
شعرت بأن استدعاء الطبيب من شأنه ان يهول الأمر الذى تود له
الستر والطمى قبل عودة السيد .. ولم تأل ان أفصحت لابنائها
من مخاوفها ، ولكنهم لم يهتموا في تلك اللحظة الدقيقة الا بشيء
واحد ، هو سلامتها ..

ولم يغب ياسين اكثر من ربع ساعة لان عيادة الطبيب كانت
في ميدان بيت القاضي ، ثم عاد يتقدم الرجل الذى ادخل الى الام
حال حضوره ، وأخلت الغرفة فلم يبق بها معه الا ياسين
وفهمى ، وسأل الطبيب الام عما تشكو فأشارت الى كتفها
اليمنى وقالت وهى تزدرد ريقها الذى جف من الخوف :

- اشعر هنا بألم ..

وعلى هدى اشارتها ، الى ما حدث به ياسين في الريق عن الحادث جملة ، تقدم نفحصها ، وطال وقت الفحص في شعور الشابين المنتظرين في الداخل ، وشعور المنتظرات وراء الباب مرهفات السمع خافقات القلب ، وتحول الطبيب عن المصابة الى ياسين قائلا :

— كسر في الترقوة اليمنى ، هذا كل ما هنالك .

واحدثت « لفظة » الكسر ارتياحا في الداخل والخارج ، وعجب الجميع لقوله « هذا كل ما هنالك » . كان وراء الكسر شيئا يتسع له احتمالهم ، على أنهم وجدوا في ذات التعبير . واللهجة التي ألقى بها ما يقرى بالطمأنينة فتساءل فهمى وهو بين الخوف والأمل ..

— وهل هو شيء خطير ... ؟

— كلا البتة ، سأعيد العظم الى سابق موضعه وأشدّه ولكن عليها أن تنام بضع ليال وهى قاعدة مسندة الظهر الى وسادة لأنه سيتمذر عليها أن تنام على الظهر أو الجنبين ، وسوف يجبر الكسر وتعود الى ما كانت عليه في ظرف أسبوعين أو ثلاثة على الأكثر ، لا داعى للخوف مطلقا .. والآن دعونى أعمل ..

ومهما يكن من امر فقد استروحو نسمة سلام بعد أن جفت منهم الحناجر ، وبدا هذا الأثر واضحا بين الجماعة خارج الحجرة فتتممت خديجة :

— فلتحل بها بركة سيدنا الحسين الذى ما خرجت الا لزيارته ..

وكانما تذكر كمال بقولها أمرا هاما أنسيه طويلا فقال بدّهشة :

— كيف أمكن أن يقع لها هذا الحادث بعد تبركها بزيارة سيدنا الحسين ؟

ولكن أم حنفى قالت ببساطة :

— ومن أدرانا بما كان يحدث لها . والعياذ بالله . — لو لم

تتبرك بزيارة سيدها وسيدنا ؟

ولم تكن عائشة قد أفاقت من أثر الصدمة فضاقت صدرها بالحديث وهتفت برجاء حار :

— آه يا ربى متى ينتهى كل شيء كأنه لم يكن .. !

وعادت خديجة تقول بأسف وحسرة :

— ما الذى ذهب بها الى الغورية ؟! لو رجعت بعد الزيارة

الى البيت مباشرة لما حدث لها الذى حدث .. !

فدق قلب كمال خوفا وانزعاجا وتجسم ذنبه لعينيه جريمة

نكراء ولكنه حاول التملص من الشبهات فقال بلهجة تنم عن لوم :

— أرادت أن تتمشى في الطريق وعيشا حاولت أن أُنهيها عن

ارادتها ..

فحججته خديجة بنظرة اتهام وهمت بالرد عليه وكأنها

امسكت اشتفاقا وعطفا على وجهه الذى علاه الاصرار ، ثم قالت

لنفسها « حسينا ما نحن فيه الآن » ..

وفتح الباب وغادر الطبيب الحجرة وهو يقول للشابين اللذين

تبعا :

— ينبغي أن أعودها يوما بعد يوم حتى يجبر الكسر ، وكما

قلت لكما لا داعى للخوف مطلقا ..

واقترح الجميع الحجرة فرأوا أهم قاعده في الفراش ، مسندة

الظهر الى وسادة مكسورة وراءها ولم يكن ثمة تغيير الا ارتفاع

في كتف الفستان فوق منكبها الايمن وشى بالرباط الذى تحته ،

فهرعوا اليها وهتفوا :

— الحمد لله ..

كم اشتد بها الألم والطبيب يعالج الكسر فانتأينا متواصلًا ،

ولولا ما طبعت عليه من حياء لصرخت عاليا ، ولكن زایلها الآن

الألم ، أو هكذا بدا ، وشمرت براحة نسبية وسكينة ، بيد أن

زوال حدة الألم مكنت لعقلها من استئناف نشاطه فاستطاعت

أن تفكر في الموقف من مختلف نواحيه وما لبث أن ركبها الخوف
فقال متسائلة وهي تردد بينهم بصرا زائعا :
- ما عسى أن أقول لأبيكم إذا رجع ؟

اعترض هذا السؤال - ساخرا متحديا - سمات العثمانية
التي سكنوا اليها كما تعترض الصخور النائية سبيل سفينة
آمنة ، على أنه لم يجرى مفاجأة لوعيمهم ، بل لعله اندس في زحمة
المشاعر الأليمة التي ورت بها قلوبهم لدى ارتطامها بالخبر ولكنه
ضائع في زحمتها فتأجل حسابه الى حين ، الآن قد عاد ليحتل
الصدارة من نفوسهم ، فلم يجدوا مهربا من مواجهته ، وراوا
بحق أنه أشد عليهم وعلى أمهم من الإصابة التي خرجت منها
وشبكة الشقاء . وشعرت الأم - للصمت الذي قوبل به
سؤالها - بعزلة المذنب اذا تخلى عنه رفاقه حين انكشاف
تهمته فتمتعت بنبرات شاكية :

- سيعلم حتما بالحادث ، وسيعلم أكثر من هذا بخروجه
الذي أدى اليه ..

ومع أن أم حنفي لم تكن دون أفراد الأسرة قلقا ولا أقل
اندراكا لخطورة الموقف الا أنها أرادت أن تقول كلمة طيبة ، تلطيفا
للجو من ناحية ، ولأنها كانت تشعر من ناحية أخرى بأن الواجب
يقضى عليها - كخدام الأسرة القديمة الأمانة - بالا تلوذ عند
التدائيد بالصمت أن يظن بها عدم اكتراث ، فقالت وهي ادرى
ببعد قولها عن الواقع :

- اذا علم سيدي بما وقع لك فلن يسمع الا أن يتناسى
هفوتك حامدا الله على نجاتك ..

وقبول قولها بالاھمال الذي يستحقه عند قوم لا تخفى عليهم
من حقيقة الموقف خافية ، الا أن كمال آمن به ، وقال متحمسا
وكانه يتم كلام أم حنفي ..

- خصوصا اذا قلنا له أن خروجنا كان لزيارة سيدنا
الحسين ..

وردت المرأة عينيها الخابيتين بين ياسين وفهمي وتساءلت :
- ما عسى أن أقول له ؟

فقال ياسين الذي هاضته شدة مسؤوليته :

- أي شيطان أضلني حين نصحت لك بالخروج ، كلمة جرت
على لساني وليتها ما جرت ، ولكن هكذا شاءت الاقدار لترمى بنا
في هذا المأزق الأليم ، على أنني أقول لك بأننا سنجد ما نقوله ،
وإيا كان الأمر فلا ينبغي أن تشغلي فكرك بما سيكون ، دعي الأمر
لله ، وحسبك ما قاسيت في يومك من آلام ومخاوف ..

تكلم ياسين بحماس وعطف معا ، فصب سخطة على نفسه ،
وعطف على الأم عطف المتألم لحالها ، ومع أن كلامه لم يقدم ولم
يؤخر الا أنه روح عن شعوره الضيق بالخرج ، وأفصح به في نفس
الوقت عما عساه يدور في عقول بعض - أو كل - من يقفون الى
جانبه فاغناهم عن الافصاح عنه بأنفسهم اذ أن التجربة علمته
بأنه أحيانا ما يكون السبيل خير السبيل للدفاع عن النفس هو
في الهجوم عليها وأن الاعتراف بالذنب يغري بالصفح بقدر ما يغري
الدفاع عنه بالغضب ، وكان أخوف ما يخاف أن تنتهز خديجة
الفرصة السانحة لتحمله جهارا مسؤولية ما أدت اليه مشورته
وتتخذها سبيلا الى مهاجمته فسبقها الى غرضها قاطعا عليها
الطريق ، ولم يكذب ظنه فالحق أن خديجة كانت على وشك أن
تطالبه - بصفته المسئول الأول عما وقع - بأن يجد لهم مخرجاً ،
فلما أن ألقى خطابه استخيت من مهاجمته خاصة وأنها لا تهاجمه
عادة الا على سبيل النكار لا الكراهة ، بذلك تحسن موقفه بعض
الشيء ولكن الموقف العام بقى على سوئه ، وظل كذلك حتى
خرجت خديجة من صمتها قائلة :

- لماذا لا ندعى أنها سقطت على السلم ؟

فتطلعت اليها أمها بوجه يتلهف على النجاة من أى سبيل ،
وقلبت بين فهمى ياسين وقد لاحت بعينيها لمعة أمل ، بيد أن
فهمى تسأل في حيرة :

- والطبيب ؟.. سيعودها يوما بعد يوم وسيقابل أبى
بالضرورة ..

ولكن ياسين أبى أن يفلق الباب الذى تسلت منه نسمة أمل
حرية بأن تستنقذه من آلامه ومخاوفه فقال :

- نتفق مع الطبيب على ما ينبغى أن يقال لأبى ؟

وتبدلت النظرات بين التصديق والتكذيب ، ثم شاع في
الوجوه البشر للاحسان المشترك بالنجاة وتغير الجو القاتم الى
جو بهيج كما تبدو وسبط السحاب المكفهر فجوة زرقاء على غير
انتظار فتنداح بمعجزة عجيبة حتى تشمل القبة السماوية في
دقائق معدودات ثم تضىء الشمس ، قال ياسين وهو يتنهد :

- نجونا والحمد لله ..

فقالت خديجة بعد أن استعادت في الجو الجديد نشاطها
المألوف :

- بل نجوت أنت يا صاحب المشورة ..

فقهقه ياسين حتى اهتز جسمه الضخم وقال :

- أجل نجوت من عقرب لسانك ، طالما توقعت أن تمتد الى

بين حين وآخر لتلسعنى ..

- ولكنها هى التى أنقذتك ، ومن أجل الورد يسقى العليق ..

كادوا ينسون في فرحة النجاة أن أهم طريحة الفراش

مكسورة الترقوة ، ولكنها هى نفسها كادت أن تنسى ..

- ٢٩ -

فتحت عينيها فوق بصرها على خديجة وعائشة جالستين
على الفراش عند قدميها رايتين اليها بعينين يتنازعهما الخوف
والرجاء ، فتنهدت ثم التفتت صوب النافذة فرات خصاصها
ينضح بضوء الضحى فتمتمت كالستغربة :

- نمت طويلا ..

فقالت عائشة :

- ساعات معدودة بعد أن طلع عليك الفجر دون أن يغمض

لك جفن ، يالها من ليلة لن أنساها مهما امتد بى العمر ..

وعاودتها ذكريات الليلة الماضية من الأرق والألم فنطقت

عينها بالرثاء - لنفسها وللفتاتين اللتين سهرتا الى جانبها طول

الليل يبادلانها الألم والأرق - وتحركت شفتاها وهى تستعيد

بالله بصوت غير مسموع ثم همست قائلة فيما يشبه الحياء ..

- شد ما أتعبتكما ..

فقالت خديجة بلهجة توحى بالدعابة :

- تعبك راحة ، ولكن أياك وأن تعودى الى اربعابنا .. (ثم

بنبرات غلبها التأثر) .. كيف هاجمك ذاك الألم المخيف ؟! ..

لقد حسبتك استفرقت في النوم وانت على أحسن حال ،

واستلقيت لأنام بدورى ، واذا بى استيقظ على أتينك ، ثم لم

تسلكى عن آه .. آه .. حتى مطلع الفجر ..

وفهلل وجه عائشة بالتفاؤل وهى تقول :

- على أى حال أبشرى ، لقد أخبرت فهمى عن حالك حين

سألنى عن صحتك في الصباح فقال لى ان الالم الذى انتابك
دليل على أن العظم المكسور كان آخذاً في الالتئام ..
وجذبها اسم فهمى من لجة افكارها فتساءلت :
- ذهبوا بسلامة الله ؟

فقلت خديجة :

- طبعاً ، كانوا يودون محادثتك ليطمئنوا عليك بأنفسهم
ولكننى لم أسمح لأحد بأن يوقظك من النوم الذى لم تدخله حتى
شيبتنا ..

فتنهدت الأم في استسلام :

- الحمد لله على كل حال ، ربنا يجعل العواقب سليمة ..

في أى وقت نحن الآن ..

فقلت خديجة :

- كلها ساعة ويؤذن الظهر ..

ودعاها تأخر الوقت الى أن تخفض عينيها متفكرة ثم رفعتها
فاذا بهما تمكسان نظرة قلق ، وتمتمت :

- لعله الآن في الطريق الى البيت ..

وأدركتنا من تعنى ، ومع أنهما شعرتا بدبيب الخوف في
قلبيهما إلا أن عائشة قالت بثقة :

- أهلاً به وسهلاً ، لا داعى للقلق ، اتفقنا على ما يبغي أن

يقال وانتهى الأمر ..

ولكن اقتراب عودته اشاع في نفسها المهزولة القلق فتساءلت :

- ترى هل يمكن التستر على ما وقع ؟

فقلت خديجة بصوت ارتفعت حدته بنسبة قلقها المتزايد :

- ولم لا ؟ .. سنخبره بما تم الاتفاق عليه فيمّر الأمر بسلام .

فتمت في تلك الساعة لو بقى ياسين وفهمى الى جانبها ليشجعاهما ،

تقول خديجة سنخبره بما تم الاتفاق عليه فيمّر الأمر بسلام ،

ولكن هل يظل ما وقع سراً مغلقاً الى الأبد .. الا تجد الحقيقة

فرجة تنفذ منها الى الرجل ؟ .. كم تخاف الكذب بقدر ما تخاف
الحقيقة ، ولا تدري أى مصير يتربص بها .. ورددت عينيها بعطف
بين الفتاتين وفتحت فاهما لتتكلم حين دخلت أم حنفى مهولة
وهى تقول بصوت مهموس كأنها تخاف أن يسمع خارج الحجرة :

- سيدى جاء ياستى ..

وخفتت قلوبهم في اضطراب ، وجلت الفتاتان عن الفراش
في وثبة واحدة ثم وقفنا حيالاً أمهما يتبادلن جميعاً النظر
صامتات حتى غمغت الأم ..

- لا تتكلما أنتما فانى اخاف عليكما مغبة مخادعته ، اتركا

الى القول والله المستعان ..

وساد صمت مشحون بالتوتر كالصمت الذى يركب اطفالاً
في الظلام اذا قرع آذانهم وقع اقدام من يظنونهم عفاريت
يجوسون في الخارج ، حتى ترامى اليهن وقع اقدام السيد على
السلام وهى تقترب فازاحت الأم كابوس الصمت بمشقة
وغمغت ..

- اذا تركناه ضعد الى حجرته لم يجد احداً ؟ ..

ثم التفتت صوب أم حنفى قائلة :

- اخبريه بأننى هنا ، مريضة ، ولا تزيدى ..

وازدردت ريقها الجاف ، أما الفتاتان فمرقتا من الحجرة
مستيقنتين وغادرتاهما وحيدة ، ووجدت نفسها وكأنها في عزلة عن
العالم كله فاستسلمت للمقادير ، وكثيراً ما يبدو هذا الاستسلام
في سلوكها - الأعزل من كل سلاح - كسلوب من أساليب الشجاعة
السلبية ، واستجمعت فكرها لتتذكر ما يجب قوله بيد أن الشك
في سلامة تدبيرها لم يزيلها قط وكمن في أعماق شعورها معلنا عن
ذاته بحال من القلق والتوتر وتبدد الثقة وجاءها وقع طرف عصاه
على أرض الصالة فغمغت « رحمك يا رب وعونك » ثم تطلع
بصرها الى الباب حتى اعترضه جسمه الطويل المريض ، وراته

وهو يدخل مقتربا ملقيا عليها نظرة متفحصة من عينيه الواسعتين حتى وقف في منتصف الحجره وهو يتسائل بصوت خالته رقيقا على غير عادته :

— مالك ؟ ..

فعالت وهي تفض بصرها :

— حمدا لله على سلامتك يا سيدى ، بخير ما دمت بخير ..

— لكن أم حنفي قالت لى أنك مريضة ..

فاشارت بيسراها الى كتفها اليمنى وقالت :

— أصيب كتفى يا سيدى لا أراك الله سوءا .

فتسائل الرجل وهو يتفرس في كتفها باهتمام وقلق :

— ماذا أصابه ؟

حم الأمر ، وجاءت الدقيقة الفاصلة ، ما عليها الا ان تتكلم ، أن تنطق بكذبة النجاة ، فتمر الأزمة بسلام وتستزيد من العطف المتاح ، ورفعت عينها وهي تتوثب ، فالتفت عيناها بعينيها ، أو بالأحرى عيناها في عينيه ، فاشتد وجيب قلبها ، وتتابع بلا رحمة ، هناك تبخر ما جمعت في رأسها من رأى ، وانتشر ما كتلت في ارادتها من عزم ، ورمشت عيناها في اضطراب وذهول ، ثم رنت اليه بطرف حائر دون أن تنبس بكلمة ، وعجب السيد لاضطرابها فتعجلها متسائلا :

— ماذا حدث يا أمينة ؟!

لا تدري ماذا تقول ، كأنه ليس لديها ما تقوله ولكن بات في حكم اليقين انه لم يعد يوسعها أن تكذب ، أفلتت الفرصة دون أن تدري كيف ، ولو أنها أعادت المحاولة لخرجت من صدرها مبتورة مكشوفة ، كانت كمن يسير وهو منوم تنويم مغناطيسيا على حبل اذا دعى الى إعادة مخاطرته وهو صاح ، وكلما مرت الثواني غاضت في الارتباك والهزيمة حتى أثفت على اليأس ..

— لماذا لا تتكلمين ؟ ..

ها هي لهجته بدأت تنم عن نفاد صبر ولا يبعد أن تقعقع قريبا بالفضب ، رباه لشده ما هي في حاجة الى العون ، اى شيطان اغواها بلك الخرجة المشؤمة ..

— عجباً الا تريدان ان تتكلمى ؟ ..

وبات السكوت فوق طاقتها فتمتعت بصوت متهدج مدفوعة

باليأس والقهر ..

— أخطأت خطأ كبيرا يا سيدى .. صدمتنى سيارة ..

واتسعت عينا السيد دهشة ولاح فيهما انزعاج مقرون

بالإنكار .. وكأنه بات يشك في صحة قواها العقلية ، ولم تعد المرأة

تحتل التردد وصممت على أن تبوح باعترافها كاملا مهما تكن

الواقب ، كمن يقدم — مغامرا بحياته — على اجراء عملية جراحية

خطيرة ليتخلص من آلام داء لا قبل له به ، وتضاعف عند ذلك

شعورها بفداحة الذنب وخطورة الاعتراف فدمعت عيناها وقالت

بصوت لم تكن باخفاء نبراته الباكية اما لانه غلبها على صوتها

أو لانها أرادت أن تبذل محاولة يائسة لاسترداد العطف ..

— ظننت ان سيدنا الحسين يدعونى الى زيارته فليت ..

ذهبت للزيارة .. وفي طريق العودة صدمتنى سيارة .. قضاء

الله يا سيدى .. ولقد نهضت من سقطتى دون معاونة احد (قالت

المباراة الاخيرة بوضوح) ولم اشعر بادىء الامر بأى ألم فحسبتنى

بخير وواصلت السير حتى عدت الى البيت ، وهنا تحرك الألم

فاجسروا لى الطبيب ففحص كتفى وقرر ان به كسرا ووعد بأن

يخودنى يوما بعد يوم حتى يجبر الكسر ، لقد أخطأت خطأ كبيرا

يا سيدى وجوزيت عليه بما استحق .. والله غفور رحيم ..

أنصت السيد اليها صامتا جامدا ، لم تتحول عنها عيناها ،

ولم يبد في وجهه اثر مما يعتلج في صدره على حين تكست هي

رأسها في تخشع بحال من ينتظر النطق بالحكم ، وطال الصمت ،

واشتد ، وشامت في جوه المقبض نذر الخوف والوعيد ، وتحيرت

من أمره لا تدري عن أى قضاء يتمخض ولا الى أى مصير يقذف بها ، حتى جاءها صوته وهو يقول في هدوء غريب :

— وماذا قال الطبيب ؟ .. هل ثمة خطر على الكسر ؟ ..
فالتفت رأسها صوبه بذهول .. أجل توقعت كل شيء الا ان
يجود بهذا القول اللطيف ، ولولا رهبة الموقف لاستعادته لتؤكد
من صحة ما سمعت ، وغلبها التأثر فطفرت من عينيها دمعتان
غزيرتان فشدت على شفتيها أن تفحم في البكاء ، ثم غمغمت في
ذل وانكسار :

— قال الطبيب انه لا داعى للخوف مطلقا ، نجاك الله من كل
سوء يا سيدى ..

ووقف الرجل بعض الوقت وهو يقاوم رغبة تدعوه الى المزيد
من السؤال حتى تغلب عليها فتحوّل عن موقفه ليغادر الحجرة
وهو يقول :

— الزمى فراشك حتى يأخذ الله بيدك ..

— ٣٠ —

هرعت خديجة وعائشة الى الحجرة بعد ذهاب والدهما ،
ووقفتا حيال أمهما تنظران اليها بعينين مستطلعيتين تنطق نظراتهما
بالاهتمام والقلق . ثم لاحظتا احمرار عينيها من أثر البكاء ،
فوجمتا وتساءلت خديجة وقد استشعر قلبها الخوف والتشاؤم :

— خير ان شاء الله ؟ ..

فلم تعد الأم ان قالت باقتضاب وهى ترمش بعينيها ارتباكاً :

— اعترفت له بالحقيقة ...

— الحقيقة ! ..

فقالت باستسلام :

— لم يسعنى الا الاعتراف ، فما كان من الممكن ان يخفى الأمر
عليه الى الأبد وحسنا فعلت ...

فدقت خديجة صدرها بيدها وهتفت :

— يا نهارنا الأسود ...

على حين بهتت عائشة فحملت في وجه أمها دون أن تنبس
بكلمة ، ولكن الأم ابتسمت فيما يشبه الزهو المقرون بالحياء ،
وتورد وجهها الشاحب وهى تستعيد ذكرى العطف الذى شملها
به حين لم تكن تتوقع منه الا غضبا كاسحا يعصف بها
وبمستقبلها .. أجل شعرت بزهو وحياء وهى تنهى للحديث عن
عطف السيد عليها في محنتها وكيف نسى غضبه فيما اعتراه من
تأثر واشفاق ، ثم غمغمت بصوت لا يكاد يسمع :

— كان بى رحيمًا أطال الله عمره ، أنصت الى قصتى صامتا ،
ثم سألتى عن رأى الطبيب في خطورة الكسر وغادرنى وهو يشير
على أن الزم الفراش حتى يأخذ الله بيدى ..

وتبادلت الفتاتان النظرات في دهشة وعدم تصديق ولكن
زألهما الخوف سريعا فتنهدتا في ارتياح عميق وأضاء وجهاهما
بالبشر ، وهتفت خديجة :

— أرايت بركة الحسين ؟

وقالت عائشة بخيلاء :

— لكل شيء حدود حتى غضب بابا ، ما كان يسعه ان يغضب
وهو يراها على هذه الحال ، الآن عرفنا قيمتها عنده .. (ثم
مخاطبة أمها في دعابة) .. يا لك من أم محظوظة ، هنيئا لك
التكريم والعطف !

فعاود وجه الأم التورد وقالت بتلعثم وحياء :

— أطال الله عمره .. (ثم متنهدة) والحمد لله على النجاة !

وتذكرت أمرا فالتفتت الى خديجة وقالت باهتمام :

— يجب أن تلحقى به لأنه سيحتاج الى خدمتك حتما ..

وشعرت الفتاة - لما يركبها في محضر أبيها من الارتباك والاضطراب - كأنها وقعت في شرك ، فقالت محتدة :

- ولماذا لا تذهب عائشة ؟

ولكن الأم قالت في عتاب :

- أنت أقدر على خدمته ، لا تتركيني يا شابة أذ ربما يكون في

حاجة اليك الآن ..

وكانت تعلم أن احتجاجها لن يغنى عنها شيئا كما لا يغنى عنها عادة كلما دعيت إلى أداء واجب ترى الأم أنها أقدر عليه من أختها ، ولكنها أصرت على اعلانه كما تصر عادة على اعلانه في أمثاله من الموافق ، مدفوعة بأعصابها السريعة الالتهاب ، وجريا مع نزعتها العدوانية التي تجد من لسانها أطوع أداة وأحدها ، ثم لتحمل أمها على إعادة القول بأنها « أقدر على كيت وكيت من عائشة » كإقرار من أمها وإنذار لشقيقتها وعزاء لها هي نفسها ، والحق أنه لو حدث أن عهدت الأم بواجب من هذه الواجبات « الخطيرة » لعائشة دونها لثارت ثورة أشد ولحالت بينها وبينه ، مادامت تجد - في أعماق قلبها - أن القيام بهذه الواجبات حق من حقوقها وامتياز لها كامرأة جديرة بالمكانة التالية لأمها في البيت ، ولكنها أبت في الوقت نفسه أن تعترف جهارا بأنها تمارس - بالقيام بها - حقا من حقوقها ولكن واجبا ثقيلًا تقبله مضطرة ، حتى تدعى إليه - إذا دعيت - في حرج من الداعي ، ولتحتج عليه - إذا احتجت - في غضب يروح عن نفسها ، ولتسمع بالمناسبة التعليق الذي تود ، ثم ليحسب لها بعد ذلك كله جميلا تستحق من أجله الشكر ! .. ولذلك غادرت الحجرة وهي تقول :

- في كل مأزق تنادين خديجة ، كأنه لا يوجد أمامك غير خديجة ، ماذا تصنعين لو لم أكن موجودة !

ولكن خيلاءها تخلى عنها بمجرد مفادرتها للحجرة وحلت محلها رهبة واضطراب فعجبت كيف يتأتى لها أن تمثل بين يدي الرجل ،

وكيف تقوم على خدمته ، وماذا تلقى منه إذا تلجلجت أو أبطأت أو أخطأت ؟! على أن السيد كان قد خلع ملابسه وارتدى جلبابه بنفسه ، ولما وقفت بالباب تسأله عما هو في حاجة إليه أمرها بأن تصنع له فنجان قهوة ، فبادرت تعدها ثم قدمتها له خافضة العينين خفيفة الخطى من الخوف والحياء .. ورجعت إلى الصالة فمكثت بها لتكون رهن إشارته إذا دعاها فلم يفارقها احساس الرهبة حتى تساءلت كيف يا ترى يمكنها أن تواصل خدمته طوال الساعات التي يقضيها في البيت يوما بعد يوم حتى تنقضي الأسابيع الثلاثة ؟! .. وبدا لها الأمر شاقا حقا وأدركت لأول مرة خطورة الفراغ الذي تسده أمها في البيت فدعت لها بالشفاء ، حبا فيها من ناحية ورحمة بنفسها من ناحية أخرى .

ومن سوء حظها أن السيد شعر برغبة في الراحة عقب تعب السفر فلم يذهب إلى الدكان كما كانت تأمل ، واضطرت تبعًا لذلك أن تبقى في الصالة كالسجينة ، وفي أثناء ذلك صعدت عائشة إلى الدور الأعلى وتسللت إلى الصالة حيث تجلس أختها دون أن تحدث صوتا لتربها نفسها وتغمر لها بعينها على سبيل التنديد بحالها ثم تعود إلى أمها تاركة أياها وهي تغلى من الفظ إذ كان مما يحنقها أشد الحنق أن يعابثها أحد بالمزاح وأن لذ لها هي أن تعابث الجميع بمزاحها ، ولم تسترد حريتها - إلى حين طبعًا - إلا عندما أسلم السيد جنبه للنوم فطارت إلى أمها وأنشأت تحدثها عما قدمت لأبيها من خدمات حقيقية ووهمية وتصف لها ما قرأت في عينيه من أي العطف والتقدير لخدماتها ! .. ولم تنس أن تمرج على عائشة فتتهال عليها بالزجر والتوبيخ على ما بدا منها من تصرف صبياني ، ثم عادت إلى الأب بعد استيقاظه فقدمت له الفداء ، ولما فرغ الرجل من غذائه جلس يراجع بعض الأوراق وقتا غير قصير ثم دعاها إليه وطلب إليها أن تبعث له بياسين وفهمى بمجرد رجوعهما إلى البيت ..

وقلقت الأم للطلب وخافت أن يكون قد حز في نفس الرجل غضب مكظوم وأنه يروم الآن - في الشايبين - متنفسا عن غضبه ، ولما جاء ياسين وفهمى وعلم بما كان ثم بلغا أمر أبيهما بمقابلته دار بخاطرهما ما دار بخاطر المرأة من قبل وذهبا الى حجرته وهما يتوجسان خيفة ، ولكن الرجل خيب ظنونهما فقد لاقاهما بهدوء غير معهود وسألتهما عن الحادث وظروفه وتقرير الطبيب فحدثاه طويلا بما يعلمان وهو يصغى اليهما باهتمام ، وفي النهاية سألهما :
- أكنتما في البيت حين خروجكما ؟

ومع أن هذا السؤال كان متوقعا من بادئ الأمر إلا أنه وقع من نفسيهما - بعد الهدوء العجيب غير المنتظر - موقع الانزعاج فخافا أن يكون مقدمة لتغيير طبقة النغمة التي ارتاحا إليها ارتياح النجاة ، ولم يسعهما الكلام فلماذا بالصمت .. بيد أن السيد لم يلحف في السؤال وكأنه لم يعبأ بسماع الجواب الذي استنتجه مقدما ، أو لعله أراد أن يسجل عليهما الخطأ بلا اكتراث باقرارهما به .. ولم يزد بعد ذلك على أن يشير الى باب الحجرة آذنا لهما بالانصراف ، وعند ما مضيا الى الخارج سمعاه يقول مخاطبا نفسه :

- ما دام الله لم يرزقني رجلا فليهنى الصبر .

ومع أن الظواهر دلت على أن الحادث قد هز نفس السيد حتى غير المألوف من سلوكه تغيرا دهش له الجميع إلا أنه لم يستطع أن يثنى ارادته عن قضاء سهرته الليلية التقليدية !.. فما جاء المساء حتى ارتدى ملاسه وغادر حجرته ناشرا بين يديه شذا طيبا ، إلا أنه مر في طريقه الى الخارج بحجرة الأم وسأل عنها فدعت له طويلا ممتنة شاكرة .. لم تر في ذهابه الى سهرته - وهي طريقحة الفراش - تجافيا للمطف ، ولعلها وجدت في مروزه بها وسؤاله عنها تكريما فاق ما كانت تنتظر ، بل اليس مجرد امتناعه عن صب غضبه عليها منة لم تكن تحلم بها ؟ .. وكان الاخوة - قبل مبارخته

حجرته - قد تساءلوا « ترى هل يعدل الليلة عن سهرته ؟ » ولكن الأم اجابت قائلة « ولماذا يبقى بعد أن علم أن الحال مطمئنة ؟ » ولعلها غنت فيما بينها وبين نفسها لو يتم نعمته عليها فيعدل عن سهرته كما يليق بزوج أصيبت زوجه بما أصيبت هي به ، ولكنها كانت ادري بطبعه فسبقته بانتحال العذر له حتى اذا انطلق الى سهرته كما تتوقع امكنها - مداراة لموقفها - أن تسوغ انطلاقه بالعذر الذي انتحلت لا بقلة الاكتراث ؟ ولكن خديجة قالت :
« كيف يطيق السهر وهو يراك على هذه الحال ؟ » فأجابها ياسين : « لا عليه اذا فعل ما دام قد اطمأن عليها ، حزن الرجال غير حزن النساء ، وذهاب الرجل الى سهرته لا يتنافى مع حزنه ، بل لعل التفريح عن نفسه واجب عليه ليتسنى له مواصلة حياته الشاقة » . ولم يكن ياسين يدافع عن أبيه بقدر ما كان يدافع عن رغبته في الانطلاق التي بدات تتحرك في اعماقه ، إلا أن مكره لم يجز على خديجة فسألته : « هل تطيق أنت مثلا أن تسهر في قهوتك الليلية ؟ » فبادرها قائلا وهو يلعنها في سره : « طبعلا ، ولكن أنا شيء وبابا شيء آخر ! » .

ولما فارق السيد الحجرة عاودها الشعور بالراحة الذي يعقب النجاة من خطر محقق فتألق محياها بابتسامة وقالت :
- لعله رأى أن جزائي كفاف ذنبي فعفا عني ، عفا الله عنه بوعنا جميعا ..

فضرب ياسين كفا بكف وهو يقول محتجا :
- أن رجلا غيورين مثله ، منهم أصدقاء له ، لا يرون بأسا في السماح للنساء بالخروج كلما دعت ضرورة أو مجاملة ، فما باله يقيم لكن من البيت سجننا مؤبدا ؟
فلحظته خديجة بهزة وسألته :

- لم لم تلق بدفاعك هذا وأنت بين يديه ؟
فناقلب الشاب مقعها حتى ارتجت كرشه ثم اجابها قائلا :

- يلزمنى مثل انفك أولا كي ادافع به عن نفسى عند
الضرورة ..

وتتابعت ايام الرقاد ، فلم يعاودها الالم الذى هصرها اول
ليلة وان تهدد جذعها وكتفها الوجع لاقل حركة تأتيها ، ثم تقدمت
نحو الشفاء بخطوات سريعة بفضل بنيتها القوية وحيويتها الدافقة
التي تكره بطبعها السكون والقعود ما جعل الاذعان لاوامر الطبيب
مهمة شاقة غطى عذابها على الالم الكسر ابان احتدامها ، ولعلها
لولا تشدد الابناء في مراقبتها لخرقت وصايا الطبيب ونهضت
عجلى لامورها .. على ان رقادها لم يمنعها من نشر الرقابة على
شئون البيت من فراشها ، ومراجعة الفتاتين بدقة متعبة فيما
يعهد اليهما به .. خاصة عن دقائق الواجبات التي تخاف عليها
الاهمال أو النسيان ، فتسال وتلع في السؤال « هل نفضت اعلى
الستائر ؟ .. وخصاص الشبايك ؟ .. هل بخرت الحمام لايك ؟ ..
هل سقيت اللبلاب والياسمين ؟ » الامر الذى احق خديجة مرة
فقالته لها « اعلمى انك اذا كنت تعنين بالبيت قريبا فانى اعنى به
اربعة وعشرين » .. والى هذا كله اورثها تخليها الاجبارى عن
مركزها المرموق شعورا معقدا عانت منه كثيرا ، وربما تساءلت
ترى ألم يفقد البيت - أو احد من اهله - بتخليها عنه شيئا من
نظامه أو راحته ؟! وأيهما يا ترى أحب اليها ، أن يبقى كل
شيء كما كان بفضل فتاتيهما - غرس يديها - أم أن يختل شيء
من توازنه يكون خليقا أن يذكر الجميع بالفراغ الذى خلفته
وراءها ؟! وهب السيد بالذات استشعر هذا الفراغ فهل يكون
ذاك مدعاة لتقديره لاهميتها أو لسخطه على ذنبها الذى جر هذا
كله ؟! تحيرت المرأة طويلا بين عاطفتها المسحجية نحو نفسها
وعاطفتها الصريحة نحو فتاتيهما ، ولكن المحقق أنه لو اختل شيء
من النظام لأحدث لها كربا شديدا ، كما أنه لو حافظ على كماله
كان لم يطرأ نقص لما خلت من ضيق ..

- ٣١ -

اما الواقع فهو ان فراغها لم يسده احد ، واثبت البيت أنه
البر من الفتاتين على نشاطهما وأخلاصهما .. ولم تسر الأم لهذا
لا في الظاهر ولا في الباطن ، توارى شعورها نحو ذاتها ، ودافعت
من خديجة وعائشة دفاعا حارا صادقا ، ثم ركبها الجزع والالم
فلم تعد تطيق صبرا على انزوائها ..

وفي فجر اليوم الموعود الذى انتظرته طويلا هبت من الفراش
في خفة صبيانية من الفرح كأنها ملك يعود الى عرشه بعد نفى ...
ونزلت الى حجرة الفرن متداركة عادتها التي انقطعت عنها ثلاثة
اسباع فنادت أم حنفى ، واستيقظت المرأة وهى لا تصدق
أذنيها ، ثم نهضت الى سيدتها فعانقتها ودعت لها ، ثم باشرتا عمل
الصباح في سرور لا يوصف ، وعند شروق أول شعاع للشمس
صعدت الى الدور الأول فتلقاها الابناء بالتهاني والقبل ، ثم
مضت الى حيث ينال كمال فأيقظته ، وما فتح الغلام عينيه حتى
بهت دهشة وفرحا ، ثم تعلق بعنقها ولكنها بادرت الى التخلص
من ذراعيه برقة وهى تقول :

- ألا تخاف أن ترد كتنفى الى ما كانت عليه ؟ ..

فأمطرها قبلا ، ثم ضحك متسائلا في خبث :

- متى يا عزيزتى نخرج معا مرة أخرى ؟!

فأجابته بلهجة لا تخلو من عتاب باسم :

- عند ما يهديك الله فلا تسوقنى رغم ارادتى الى الطريق

الذى كدت اهلك فيه ..!

وأدرك أنها تشير الى عناده الذى كان السبب المباشر فيما وقع

التي ضربها حولها المرض فشعرت بأنها ستلقاه بمفردها لأول مرة مذ كشفت خطيئتها .. ولما جاء الأبناء تباعا خفت وحشتها قليلا ، وما لبث أن دخل السيد الحجرة في جلبابه الفضفاض ولكن لم يبد في وجهه اثر لى رؤيتها ، وقال بهدوء وهو يتجه الى مكانه في المائدة :

— جئت ؟ (ثم مخاطبا الأبناء وهو يتخذ مجلسه) .. اجلسوا .
واخذوا في تناول فطورهم على حين وقفت هي بمكانها المعتاد ومع ان الخوف تناهى بها حال دخوله الا انها مضت تسترد أنفاسها بعد ذلك ، اى بعد أن تم أول لقاء بعد الشفاء ومر بسلام ، وشعرت عند ذاك بأنها لن تجد مشقة في الانفراد به في حجرته عما قليل .. وانقضت المائدة فعاد السيد الى حجرته ، ولحقت به بعد دقائق حاملة صينية القهوة التي وضعتها على الخوان وتحت جانبا في انتظار فراغه من احتسائها لتساعده على ارتداء ملابسه . وحسا السيد قهوته في صمت عميق ، لا ذاك الصمت الذى يقع عفوا أو كالراحة عقب التعب أو كغطاء لصدر فارغ من شئون الحديث ولكنه صمت صامت مسرول بالتمعد ، ولم تكن تقدم أملا — ولو ضعيفا — في أن يتعطف عليها بكلمة رقيقة ، أو في الأقل أن يلم بشأن من شئون حديثه المعتاد في مثل هذه الساعة من الصباح ، فخيرها صمته المتعمد وعادت تسائل نفسها ترى الا يزال بنفسه شىء ، وأخذ القلق ينشب ابره في قلبها مرة أخرى ، على أن الصمت الغليظ لم يمتد طويلا .. كان الرجل يفكر في سرعة وتركيز لم يذق معها طعاما ، لا ذاك التفكير الذى ينبعث من وحى الساعة ، ولكن آخر عنيدا قديما لم يزال نفسه طوال الأيام المنقضية .. وأخيرا تساءل دون أن يرفع رأسه عن فنجان القهوة الفارغ :

— استرددت صحتك ؟

فألت أمينة بصوت خفيض :

— الحمد لله يا سيدى ..

فاستطرد الرجل قائلا بمرارة :

لها فضحك ملء فيه ضحك مذبذباته النجاة بعد أن ظل ذنبه معلقا فوق رأسه ثلاثة أسابيع ، أجل لشد ما خاف أن يجر التحقيق الذى باشره اخوته الى معرفة الجاني المستتر ، وقد أوشكت الزبنة التى سلطتها عليه خديجة حيناً وياسين حيناً آخر تكشفه في الركن المنزوى فيه لولا صمود أمه في الدفاع عنه وتصديها لتحمل مسئولية الحادث وحدها ، فلما انتقل التحقيق الى يدى والده تناهى به الخوف وتوقع بين لحظة وأخرى أن يدعى الى مقابلته ، هذا الى عذابه — طوال الأسابيع الثلاثة — وهو يرى أمه المحبوبة طريحة الفراش ، شديدة العناء ، عاجزة عن الاستلقاء والنهوض معا .. الآن مضى الحادث ، ومضت في أثره عقابيله ، وانتهى التحقيق ، وعادت أمه توقظه في الصباح ، وسوف تنيمه في المساء ، رجع كل شىء الى أصله ، ونشر الأمان الويته ، فحق له أن يضحك ملء فيه وأن يهنئ ضميره على الراحة المتاحة .. وغادرت الأم الحجرة فصعدت الى الدور الأعلى ، ولما تدانث من باب حجرة السيد ترمى اليها صوته وهو يردد في صلاته « سبحان ربى العظيم » فحقق قلبها ووقفت على قيد خطوة من الباب كالترددة ، ثم وجدت نفسها تتسائل « أتدخل لتصبح أو الأجدر أن تعد مائدة الفطور أولا ؟ » لا على سبيل التساؤل حقا ولكن فرارا مما شاع في نفسها من الخوف والحجل ، أو كليهما معا ، كما يقع للانسان أحيانا أن يخلق مشكلة وهمية يلوذ بها من — مشكلة راهنة يشق عليه فضاها .. ومضت الى حجرة المائدة فأقبلت على العمل بعناية مضاعفة ، الا أن قلقها تزايد ، فلم تنتفع بمهلة التأجيل التى اقتنصتها ، ولم تجدها راحة كما أملت ولكن محنة انتظار أشد عناء من الموقف الذى تكصت عن مواجهته .. وعجبت كيف جفلت من دخول « حجرتها » كأنها كانت تهم بدخولها لأول مرة ، خاصة وأن السيد لم ينقطع عن زيارتها يوما بعد يوم في أثناء رقادها ، ولكن الحق أن برءها رفع عنها الحماية

— انى أعجب — وهيهات أن ينتهى لى عجب — كيف أقدمت على فعلتك !

فدق قلبها بعنف واطرقت في وجوم .. لم تكن تطيق غضبه وهى تدافع عن خطأ ارتكبه غيرها فكيف بها الآن وهى المذنبه ! .. وعقل الخوف لسانها ولكنه بانتظار الجواب فواصل حديثه متسائلا في استنكار :

— اكنت مخدوعا بك طوال هذه السنين وانا لا أدري ؟! عند ذاك بسطت راحتها في جزع وألم وهمست بأنفاس مضطربة :

— أعوذ بالله يا سيدى ، ان خطئى كبير حقا ولكنى لا أستحق هذا القول ..

ولكن الرجل واصل حديثه بهدوئه الرهيب الذى يهون الى جانبه الزعيق قائلا :

— كيف اقدرت هذا الخطأ الكبير ! .. الانى ابتعدت عن البلد يوما واحدا ؟!

فقالت بصوت متهدج وشت نبراته بالرجفة التى ملكت جسمها :

— اخطأت يا سيدى ، وعندك العفو ، كانت نفسى تتوق الى زيارة سيدنا الحسين ، وحسبت ان زيارته المباركة تشفع لى في الخروج ولو مرة واحدة ..

فهز رأسه في شئ من الحدة كأنما يقول « لا فائدة ترجى من الجدل » ثم رفع اليها عينيه متجهما ساخطا وقال بلهجة لا تقبل المراجعة :

— ليس عندى الا كلمة واحدة ! غادرى بيتى بلا توان .. هوى أمره على رأسها كالضربة القاضية فهتت لاتنبس بكلمة ولا تستطيع حراكا ، طالما توقفت في اشد أوقات محتنها — وهى تنتظر عودته من رحلة بورسعيد — الوانا من المخاوف ، كان يصب

عليها غضبه او يصمها بزعيقه وسبابه ، حتى الضرب لم تستبعدة ، اما الطرد من البيت فلم يزجج لها خطرا ، لا لشيء الا انها سكنت الى معاشرته خمسة وعشرين عاما فلم تتصور أن ثمة سببا يمكن ان يفرق بينهما او ينتزعها من البيت الذى صارت جزءا منه لا يتجزأ .. اما السيد فقد تخلص — بكلمته الأخيرة — من عبء فكر دوخ دماغه طوال الأسابيع الثلاثة المتقضية .. وقد بدأ الصراع في اللحظة التى اعترفت فيها المرأة بخطئها باكية وهى طريحة الفرواش ، لم يصدق أذنيه لأول وهلة ، ثم أخذ يفيق الى نفسه والى الحقيقة البغيضة التى تطالعه متحدية كبريائه وصلفه ، بيد أنه أجل حنقه ريثما يرى ما أصابها ، أو أنه — وهو الأصدق — لم يسمعه أن يفكر فيما تحدى كبريائه وصلفه لما اعتراه من قلق عميق بلغ حد الخوف والجزع على المرأة التى يالها ويعجب بمزاياها فعمط عليها عطفًا أنساه خطاها وسأل الله لها السلامة ، التكمش جبروته حيال الخطر المحدث بها واستيقظ ما تنطوى عليه نفسه من حنان موفور فعاد — يومذاك — الى حجرته محزونًا مكتئبًا وأن لم يفصح وجهه .. لا امامها ولا امام أحد من الأبناء — عن شئ مما يهتلج في صدره .. الا أنه مضى يستعيد طمأنينته وهو يراها تتماثل للشفاء بخطى سريعة ثابتة ، ومضى بالتالى يعيد النظر الى الحادث كله — اسبابه ونتائجه — بعين جديدة أو بالأحرى بالعين القديمة التى اعتاد أن ينظر بها في بيته ، فكان من سوء حظ — حظ الأم طبعًا — أن يعيد النظر في هدوء وهو خال الى نفسه ، وأن يقتنع بأنه اذا غلب العفو ولبى نداء العطف — وهو ما نزعته اليه نفسه — فقد أضاع هيئته وكرامته وتاريخه وتقاليده جميعا فأفلت منه الزمام وانتشر عقد الأسرة التى يأتى الا أن يسوسها بالحزم والصرامة ، وبالجملة لن يكون في تلك الحال أحد عبد الجواد ولكن شخصا آخر لن يرتضى أن يكونه أبدا .. أجل كان من سوء الحظ أن يعيد النظر في هدوء وهو خال الى نفسه ، اذ لو أتبع له أن

ينفس عن غضبه حين اعترافها لانفثا حنقه وتمر الحادث دون ان يسحب وراءه عواقب خطيرة ، ولكنه لم يسعه الغضب في وقته كما لم يكن مما يرضى كبريائه ان يعلن غضبه عقب شفائها - بعد هدوء دام ثلاثة اسابيع - اذ ان هذا الغضب يكون اقرب الى الزجر المتعمد منه الى الغضب الحقيقي ، ولما كانت حساسيته الغضبية تستعر عادة عن طبع وتعتمد معا ، ولما كان الجانب الطبيعي منها لم يجد متنفسا في حينه فقد وجب على الجانب المتعمد - وقد اتاحت له فرصة من الهدوء لمعاودة التفكير - ان يجد وسيلة فعالة لتحقيق ذاته على صورة تتناسب وخطورة الذنب ، هكذا انقلب الخطر الذي تهدد حياتها حينما والذي امنها من غضبه بما اثار من عطفه اداة عقاب بعيدة المدى بما اتاح له من وقت للتدبير والتفكير .. ونهض مقظبا فولاها ظهره مستقبلا ملابسته على الكنية ثم قال بجفاء :

- سارتلى ملابسى بنفسى ..

كانت لم تزل متسمرة في مكانها ذاهلة عما حولها فانافتحت على صوته ، وسرعان ما ادركت من قوله ووقفته انه يامرها بالانصراف فاتجهت نحو الباب في خطى لا وقع لها ، وقبل ان تجاوزه ادركها صوته وهو يقول :

- لا احب ان اجدك هنا اذا عدت ظهرا .

- ٣٢ -

خارت قواها في الصالة فارتمت على طرف كنية وكلماته القاسية الحاسمة تتردد في باطنها ، ليس الرجل هازلا ، ومتى كان هازلا ؟ ولم تستطع مبارحة مكانها - على رغبتها في الفرار - ان يشير نزولها قبل مغادرته البيت على خلاف المألوف ريبة الانباء الذين لا تحب لهم ان يستقبلوا يومهم او يذهبوا الى اعمالهم



متجرعين خبر طردها ، وثمة احساس آخر - لعله الحياء - اقعدها
عن أن تلقاهم في ذل المطرود وقررت أن تبقى حيث هي حتى
يفادر البيت ، أو أن تأوى الى حجرة المائدة وهو الأفضل حتى
لا تقع عليها عيناه اذا مضى الى الخارج فتسللت الى الحجرة كسيرة
الفؤاد وقعدت على شلثة ساهمة راجمة . ترى ماذا يعنى ؟ .
انطردها الى حين أم الى الأبد ؟ انها لا تصدق انه ينوى تطليقها .
هو أكرم من هذا وأنبل ، أجل انه غضوب جبار ولكن من الاسراف
في التشاؤم أن تغيب عنها أى شهادته ومروءته ورحمته . وهل
تنسى كيف حزن لحالها حين الرقاد ؟ . وكيف عادها يوما بعد
يوم مستفسرا عن صحتها ؟ . مثل هذا الرجل لا يهون عليه أن
يخرب بيتا أو يكسر قلبا أو ينزع أما من بين ابنائها . وجعلت
تدير هذه الأفكار في رأسها كأنما لتدخل بها بعض الطمأنينة الى
نفسها المزعزعة ، وألحت في هذا الحاحا أن دل على شئ فعلى أن
الطمأنينة لا تريد أن تستقر بنفسها كبعض المرضى الذين يريدون
تغنيا بقوتهم كلما زادوا احساسا بضعفهم اذ كانت لا تدري ماذا
تصنع بحياتها أو ماذا يمكن أن تعنى الحياة لها لو خاب الرجاء ونفذ
المحذور . وترامى الى أذنيها وقع عصاه على أرض الصالة وهو
يمضى خارجا فأطار أفكارها وانصت باهتمام متابعه حتى غاب .
وشعرت عند ذلك بألم جارح لحالها وسخط على الإرادة المتحجرة
التي لم ترع لضعفها حقاً ، ثم نهضت فيما يشبه الاعياء وغادرت
الحجرة لتنزل الى الدور الأول فجاءتها عند رأس السلم أصوات
الأنباء وهم ينزلون تباعا فعدت رأسها من فوق الدرابزين فلمحت
لهمى وكمال وهما يتبعان ياسين الى الباب المفضى الى الفناء ،
هنالك غمرت خطرة من الحنان قلبها فأذهلته ، وعجبت لنفسها
كيف تركتهما يلذهبان دون أن تودعهما ، اليس قد تحرم عليها
رؤيتهما أياما أو أسابيع ؟ وربما لا تراهنا مدى العمر الا لما
كألفرياء ؟ . وعادوها غمز الحنان متتابعاً وهي بموقفها من السلم

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

لا تريم ، بيد أن قلبها - على امتلائه - كبر عليه أن يصدق أن يكون هذا المصير الأسود نصيبها المقدور ، لايمانها اللانهاى بالله الذى حفظها في وحدتها الغابرة من العفاريث نفسها ، ولثقتها برجلها التى تأبى أن تنهار ، ولأنها لم يصبها في حياتها الماضية شر خطير خليق بأن يسلبها الطمأنينة الى الحياة الوادعة فمالت نفسها الى اعتبار محنتها تجربة قاسية ستمر بها دون أن تنشب فيها ، ووجدت خديجة وعائشة مشتبكتين في جدال كعادتهما ولكنهما نزعتا عما كانتا فيه حين رأتا وجوهها ونظرة عينيها الخائية ، ولعلهما خافتا أن تكون قد برحت الفراش قبل أن تسترد كامل صحتها فسألته خديجة في قلق :

- ماذا بك يا نينة ؟

- لا أدري والله ماذا أقول .. انى ذاهبة ..

ومع أن العبارة الأخيرة جاءت مقتضبة غير محدودة الهدف الا أنها اكتسبت من نظرتها اليائسة ونبرات الشاكية معنى حالكا ريعتا له فهتفتا معا :

- الى أين ؟!

فقالتا بانكسار وهى تشفق سلفا من وقع كلامها من أذنيهما بل ومن أذنيهما هى نفسها :

- الى أمى ..

فهرعتا اليها مذعورتين وهما تقولان :

- ماذا تقولين ؟ .. لا تعيدى غذا القول .. ماذا جرى ؟!

وجدت في فرع فتاتيهما عزاء ولكنه كشأنه في مثل هذا الموقف فجر أشجانها فقالت بصوت متهدج وهى تمنع دموعها :

- لم ينس شيئا ولم يعف (رددت هذا بأسى دل على عمق حزنها) .. كان يضر لى الغضب ويؤجله ريثما أبرأ ، ثم قال لى غادري بيتى بلا توان ، وقال لى أيضا لا أحب أن أجلك هنا اذا

عدت ظهرا (ثم بلهجة تنم عن عتاب أسيف وخيبة أمل) سمعا وطاعة .. سمعا وطاعة .

فصاحت خديجة بحال عصبية :

- لا أصدق ، لا أصدق ، قونى قولا آخر .. ماذا جرى للنديا ؟!

وصاحت عائشة بصوت متهدج :

- لن يكون هذا أبدا ، أهانت عليه سعادتنا جميعا لهذا الحد ؟!

وعادت خديجة تتساءل في حدة وحق :

- ماذا يقصد !.. ماذا يقصد يا نينة .

- لا أدري ، هذا قوله بلا زيادة ولا نقصان ..

اكتفت أول وهلة بهذا القول ، ولعلها رغبت بالاقتصار عليه أن تستزيد من عطفهما وتتغذى بجزعهما ، ولكن غلبها الاشفاق من ناحية والرغبة في طمأنة نفسها من ناحية أخرى فاستطردت قائلة :

- لا أظنه يقصد أكثر من إبعادى عنكم أياما عقابا لى على ما فرط منى ..

فتساءلت عائشة محتجة :

- أما كفاد ما وقع لك ؟!

فتنهدت الأم محزونة وغمغمت قائلة :

- الأمر لله .. يجب الآن أن أذهب ..

ولكن خديجة اعترضت سبيلها وهى تقول بصوت مختنق بالبكاء :

- لن ندعك تذهبين ، لا تتركى بيتك ، فلا أظنه يصر على غضبه اذا عاد ووجدك بيننا ..

وقالت عائشة برجاء :

- انتظري حتى يعود فهمى ويأسين ، ولن يرضى أبى أن ينتزعك من بيننا جميعا ..

ولكنها قالت فيما يشبه التحذير :

— ليس من الحكمة في شيء أن نتحدى غضبه ، فمثلته من يلين بالطاعة ويشتد بالعصيان ..

وهمتا بالاعتراض مرة أخرى ولكنها أسكتتهما بإشارة من يدها واستطردت قائلة :

— لا جدوى من الكلام ، لا بد من الذهاب ، سأجمع ثيابي وأرحل ، لا تجزعا ، لن يطول افتراقنا ، وسنجتمع مرة أخرى إن شاء الله ..

وانتقلت المرأة الى حجرتها بالدور الثاني والفتاتان في أعقابها وهما تبكيان كالاطفال ، وأخذت تخرج ملابسها من الصوان حتى أمسكت خديجة بيدها وسألتها بانفعال :

— ماذا تفعلين ؟

وشعرت الأم بدموعها تغالبها فامتنعت عن الكلام ان تفضحها نبراتها أو تستسلم للبكاء الذي صممت على مقاومته ما دامت بما رأى من ابنتيها ، فأشارت بيدها كأنها تقول « الحال يوجب أن أجمع ملابسى » .

ولكن خديجة قالت بحدة :

— لن تأخذى معك الا تغييرة واحدة .. واحدة فقط .. فندت عنها تنهدة . ودت تلك اللحظة لو يكون الأمر كله حلما مزعجا ، ثم قالت :

— أخاف أن تثور ثائرتة اذا رأى ملابسى بمكانها !..

— سنحفظها عندنا ..

وجمعت عائشة الثياب الا تغييرة واحدة كما اقترحت أختها فأذعنت الأم لهما في ارتياح عميق كأن بقاء ملابسها في البيت مما يثبت لها حقا في العودة اليه ، ثم جاءت ببغلة وصرت فيها الملابس التي سمح لها بها ، وجلست على الكنية لتلبس جوربها وحذاءها

والفتاتان حيالهما تنتظران في حزن ذاهل حتى رق قلبها لهما فقالت متكلفة الهدوء :

— سيعود كل شيء الى أصله ، تشجعا حتى لا تستفزا غضبه ، انى أعهد اليكما بالبيت وآله ولى كل الثقة في كفاءكما ، ولا شك عندى في أنك ستجدين من عائشة كل معاونة ، قوما بما كنا نقوم به معا كما لو كنت معكما ، كلتاكما شابة خليقة بأن تفتح بيتنا وتعمره ..

ونفضت الى ملاءتها فارتدتها وأسدلت على وجهها البرقع الأبيض في تمهل متعمد لتؤجل ما استطاعت اللحظة الأخيرة المعذبة المحيرة ووقفن حيال بعض لا يلدين كيف تكون الخطوة التالية . لم يسعفها صوتها على النطق بكلمة الوداع ، ولم توات احداهما الشجاعة على الارتماء في حضنها كما تود ومرت الثوانى محملة بالعذاب والقلق بيد أن المرأة المتجلدة خافت أن يخونها تجلدها فخطت خطوة نحوهما ومالت اليهما فقبلتهما بالتتابع وهى تهمس :

— تشجعا ، ريتا معنا جميعا .

هنالك تعلقتا بها وافحمتا في البكاء ..

وقد غادرت الأم البيت بعينين ذارفتين تراءى الطريق خلال دمعهما وهو يجمع ..

— ٣٣ —

طرقت باب البيت القديم وهى تفكر — بألم وحياء معا — فيما سيحدثه مجيئها مغضوبا عليها من الأنزعاج والكدر ، وكان الباب يفتح على عطفة مسدودة متفرعة من شارع الخرنفش تنتهى بزاوية أقيمت بها الصلاة عهدا طويلا ثم هجرت من أعوام لقدمها

ولكن بقيت آثارها المتهمة اذكراها - كلما زارت امها - بطفولتها حين كانت تنتظر ببابها اباهما حتى يفرغ من صلاته ويعود اليها ، وحين تمد رأسها داخلها في أويقات الصلاة لتلهو بمنظر الركع السجود ، أو حين تتفرج على بعض أهل الطرق الذين كانوا يجتمعون فيما يليها من العطفة فيضيئون المصابيح ويفرشون الحصر ويشدون الأذكار . ولما فتح الباب أطل منه رأس جارية سوداء في العقد الخامس ، ما أن رأت القادمة حتى تهلل وجهها وهتفت مرحبة بها ، ثم تنحت جانبا لتوسع لها فدخلت أمينة ، ولبت الخادم بموقفها كأنها تنتظر دخول قادم آخر فأدركت أمينة ما تعنيه وقفتها فهمست بامتعاض :

- أغلقى الباب يا صديقة ..

فتساءلت الجارية بدهشة :

- ألم يأت السيد معك ؟

فهزت رأسها بالنفى متجاهلة دهشتها ومضت - عابرة فناء البيت الذى تتصدره حجرة الفرن وتقع البئر في ركنه الأيسر - الى سلم ضيق فرقته الى الدور الأول والآخر . ثم اجتازت دهليز الى حجرة امها ودخلت ، رأت امها متربعة على كنية في صدر الحجرة الصغيرة قابضة بكلتا راحتيها على مسبحة طويلة متدلية في حجرها ، متجهة العينين صوب الباب في تطلع آثاره بلا ريب طرق الباب ثم وقع القدمين المقتربتين ، ولما تدانست أمينة منها تساءلت :

- من .. ؟

وافتر نقرها وهى تتسائل عن ابتسامة خفيفة تنم عن البشر والترحاب ، كأنما حدست هوية القادم ، فأجبتها أمينة قائلة بصوت منخفض من الانقباض والحزن :

- أنا أمينة يا أمى ..

فألقت المعجوز بساقيها الى الأرض وتحسست بقدميها

موضع الشبشب حتى عثرت عليه قدستهما فيه ووقفت باسطة ذراعيها منتظرة في شوق فرمت أمينة باليقظة الى طرف الكنية وانطوت بين ذراعى امها وهى تغبل جبينها وخديها والأخرى تلثم ما يتفق وقوع شفيتها عليه من الرأس والخذ والعنق ، ولما انتهى العناق ربت المعجوز على ظهرها بحنان ثم لبثت بموقفها متطلعة صوب الباب وعلى شفيتها ابتسامة تعلن عن ترحيب جديد ، كما فعلت صديقة من قبل فأدركت أمينة للمرة الثانية ما تعنيه هذه الوقفة وقالت بامتعاض واستسلام :

- جئت وحدى يا أمى ..

فتحول الرأس اليها كالمسائل ، وتمتمت المرأة :

- وحلك؟! .. (ثم مبتسمة ابتسامة متكلفة لتطرد ما انتابها

من قلق) سبحان الذى لا يتغير !

وتراجعت الى الكنية فجلست وهى تتسائل بلهجة افصححت هذه المرة عن قلقها :

- كيف الحال؟ ... لماذا لم يحضر معك كعادته ؟

فجلست أمينة الى جانبها وهى تقول بلهجة التلميذ الذى يعترف برداءة اجاباته في الامتحان :

- انه غاضب على يا أمى ..

ورمشت الام واجمة ثم تمتمت بنبرات حزينة - اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، قلبى لا يكذبنى ابدا ، وقد انقبض وأنت تقولين لى « جئت وحدى يا أمى » ترى ماذا هيح غضبه على ملاك كريم مثلك لم يحظ رجل به قبله؟! .. خبرينى يا بنتى .. فقالت أمينة متنهدة :

- زرت سيدنا الحسين في أثناء سفره الى بورسعيد ..

فتفكرت الأم في جزن وكأبة ثم تساءلت أ

- وكيف علم بأمر الزيارة ؟

حرصت أمينة من بادىء الأمر على ألا تشير الى حادث السيارة

رحمة بالمعجوز من ناحية وتخففا من المسئولية من ناحية أخرى.
ولهذا أجابتها بما أعدته سلفا لهذا السؤال قائلا :

— لعل أحدا رأى فوشى بى عنده ..

فقالت المعجوز بحدة :

— لا يعرفك أحد من البشر الا من اختلط بك داخل بيتك ،
الم تشكى في أحد ؟ .. هذه المرأة أم حنفى ؟! أو ابنه من المرأة
الأخرى ؟

فبادرتها أمينة قائلة بثقة و يقين :

— لعل جارة رأتى فأخبرت زوجها بحسن نية فأعاد الرجل
الخبر على مسمع السيد غير مقدر لخطورة عواقبه ، ظنى مائشائين
الا الشك في أحد من أهل بيتى ..

فهزت المعجوز رأسها في حيرة وشك وأنشأت تقول :

— طول عمرك سليمة الطوية ، الله وحده هو المطلع وهو الكفيل
برد كيد الكائد ، ولكن زوجك ؟ .. الرجل العاقل .. الداخلى على
الحسين .. ألم يجد وسيلة لإعلان غضبه الا طرد عشيرة العمر
من بين أولاده ؟! .. سبحانه يا رب . الناس تكبر تعقل ونحن
نكبر تنهور ، هل من الكفر أن تزور امرأة فاضلة سيدنا الحسين !.
الا يسمح أصدقائهم ، وهم لا يقلون عنه غيرة ورجولة ، لزوجاتهم
بالخروج لمختلف الأغراض ؟! .. أبوك نفسه الذى كان شيخا من
حملة كتاب الله كان يأذن لى في الذهاب الى بيوت الجيران للتفرج
على المحمل ..

وغلظ الصمت والكتابة مليا حتى التفتت المعجوز ناحية ابنتها
وعلى شفيتها ابتسامة عتاب حائرة ثم تساءلت ؟

— أى شيء أفراك بمصيانك بعد ذاك العمر الطويل من الطاعة
العمياء ؟! .. لشد ما يحزننى هذا .. اذ مهما يكن من حمية
طبعه فهو زوجك ومن السلامة الحرص على طاعته من أجل راحتك

وسعادة الأولاد ، اليس كذلك يا ابنتى ؟! .. أعجب شيء أننى لم
أجلك يوما في حاجة الى نصيح ناصح!!

فندت عن أمينة ابتسامة ارتسمت على زاوية ثغرها على
صورة انحراف خفيف من الارتباك والحياء ، وغمضت :

— تحكم الشيطان !

— عليه لعنة الله ، ايزل اللعين قدمك بعد خمسة وعشرين
عاما من الوثام والسلام ! .. ولكنه هو الذى أخرج أبانا آدم وأمنا
حواء من الجنة ! .. لشد ما يحزننى يا ابنتى ، ولكنها سحابة
صيف ثم تنقشع ويعود كل شيء الى أصله .. (ثم وهى كأنها
تحدث نفسها) ماذا كان عليه لو استوصى بالحلم ؟! .. ولكنه
رجل ، ولن يخلو رجل من عيوب تخفى عين الشمس .. (ثم
بلهجة ترحيب وسرور متكلفة) اخلمى ملابسك واستريحى ، لا
تجزعى ، ماذا يضريك من قضاء عطلة قصيرة مع أمك في الحجرة
التي ولدت فيها ؟!

فجرتى بصرها في غير اكتراث على الفراش القديم الذى حال
لون عمده ، والسجادة البالية التى انجرد وبرها ونسلت اطرافها
وان بقيت رسوم ورودها حافظة لحرمتها وخضرتها ، ولكن
صدرها — لما رأت عليه من فرقة الأحباب — لم يكن مهيبا لتلقى
موجات الذكريات ، فلم تهج دعوة أمها في قلبها الحنان الذى تهيجه
عادة ذكريات متباعدة لهذه الحجرة وهى قريرة العين ، ولم
يسمعا الا أن تتنهد قائلة :

— ما بى الا قلق على الأولاد يا أمى ..

— انهم في رعاية الله ، ولن يطول بعدك عنهم باذن الرحمن

الرحيم

وقامت أمينة لتخلع ملأئها على حين انسحبت صديقة —
حزينة أسيفة لما سمعت — من موقفها عند مدخل الحجرة الذى
لزمته اثناء الحديث ، ثم عادت المرأة الى مجلسها جنب أمها وما

لبثنا ان قلبنا الحديث ظهرا لبطن وهما تبدآن وتعيدان وكان في تقابلهما جنباً لجنب ما يدعو الى تأمل قوانين الوراثة العجيبة وقانون الزمن الصارم ، كأنهما شخص واحد وصورته المنعكسة في مرآة المستقبل أو نفس الشخص وصورته المنعكسة في مرآة الماضي وبين الأصل والصورة على الحالين ما يشير الى الصراع الرهيب الناشب بين قوانين الوراثة التي تعمل على التشابه والبقاء من ناحية وبين قانون الزمن الذي ينجلي عادة عن سلسلة من الهزائم تلحق تباعاً بقوانين الوراثة حتى يغدو قصارها أن تؤدي وظيفة متواضعة في نطاق قانون الزمن الصارم . في نطاق ذلك القانون استحالت الأم العجوز جسماً نحيلاً ووجهاً ذابلاً وعينين لا تبصران الى تطورات باطنية لا تنالها الحواس ، حتى لم يبق لها من بهجة الحياة الا ما يدعونه بجمال الشيخوخة أي السمات الهادئة والوقار المكتسب الحزين والرأس المرصع بالبياض . بيد أنها كانت تنحدر من جيل معمر عرف بصلابة المقاومة فلم يكن طعنهما فيما بعد الخامسة والسبعين بمقعدها عن أن تنهض في الصباح كماداتها منذ نصف قرن فتتحسس سبيلها - بدون ارشاد الجارية - الى الحمام فتتوضأ ثم تعود الى حجرتها فتصلى ، أما بقية النهار فتقطعها في التسبيح والتأمل الصامت الذي لا يدري به أحد طالما كانت الجارية مشغولة بأعمال البيت ، أو مستأنسة الى حديث المرأة اذا فرغت لمجالستها ، حتى الصفات التي تلازم عادة وفرة النشاط للعمل وحدة الحماس للحياة لم تزايلها بحال ، مثال هذا شدة محاسبتها للجارية على كل صغيرة وكبيرة فيما يتعلق بالمصروفات ، وتنظيف البيت وترتيبه وتلكتها اذا تلكت في مهمة ، وتأخرها اذا تأخرت في مشوار ، ولم يكن بالنادر أن تحلفها على المصحف لتطمئن الى صحة تقاريرها عن غسل الحمام والاواني وتنظيف النوافذ ، دقة بالوسوسة أشبه ، ومن الجائز أن تكون مثابرتها عليها استمراراً لعادة تاصلت في صدر

الشباب ، كما أنه من الجائز أن تكون نكسة مما يعترى الشيخوخة ويلحق بطباعها المتطرفة استمساكها بالبقاء في بيتها في شبه وحدة كاملة بعد وفاة بعلمها ، ثم اصرارها على البقاء فيه حتى بعد فقدانها لبصرها ، متصامته عن دعوات السيد المتكررة لها بالانتقال الى بيته لتعيش في رعاية ابنتها وأحفادها ، مما عرضها لتهمة الخرف وجعل السيد يعرض عن دعوتها نهائياً ، ولكن الحق أنها كرهت هجر بيتها لتعلقها الشديد به ، ولتحاميتها ماعسى أن تلقى في البيت الجديد من إهمال غير مقصود أو ما يستوجب وجودها من لقاء أعباء جديدة على عاتق ابنتها المثقل بالواجبات ، ولنفورها من الزوج بنفسها في بيت اشتهر صاحبه بين آله بالشراسة والغضب أن تنزلق وهي لا تدري الى ملاحظاته الأمر الذي تشفق من عواقبه على سعادة ابنتها ، وأخيراً لما تنطوى عليه في قرارة نفسها من حياء وكبرياء حبها اليها الحياة في البيت الذي تملك معتمدة - بعد الله - على المعاش الذي تركه لها زوجها الراحل . على أن ثمة أسباباً أخرى لاصرارها على البقاء في بيتها لا يمكن تبريرها برهافة الحساسية أو سداد البصيرة ، كخوفها - اذا أظلت البيت - من أن تجد نفسها مضطرة الى اختيار امر من اثنين ، فاما أن تسمح للغرباء بأن يسكنوه وهو أعز شيء لديها بعد ابنتها وأحفادها ، وأما أن تتركه مهجوراً فتتخذة العفاريات ملعباً بعد أن ظل طوال عمره مقاماً لشيخ من حملة كتاب الله هو زوجها ، الا أن انتقالها الى بيت السيد كان خليقاً بأن يخلق لها مشاكل معقدة لا تفض في نظرها بميسور الحلول لأنها ما انفكت تسائل نفسها وقتذاك أتقبل ضيافته بدون مقابل وهو ما لا تترتاح اليه بحال ، أم تنزل له عن معاشها لقاء اقامتها في بيته وهو ما يخلق غريزتها في الامتلاك التي أضحت - مع الكبر - عنصراً جوهرياً من عناصر « وسوستها » العامة ؟ بل قد توهمت أحياناً عند الحاجة عليها في الانتقال الى بيته أنه يضم نية استغلالية نحو معاشها وبيتها الذي سيخلو بعد انتقالها

ففرغت الى الرفض لحد العناد الأعمى ولما نزل السيد عند ارادتها قالت له بارتياح «لا تؤاخذنى باصرارى يا ابنى ، ربنا يكرمك بما أوليتنى من عطف ، الا ترى انه لا يسعنى أن أهجر بيتى ؟ .. وما أجدرك أن تجارى عجوزا مثلى على علاقتها بيد أنى أستحلفك بالله الا ما سمحت لأمانة والأولاد بزيارتى الحين بعد الحين بعد أن أمسى خروجى من البيت متعذرا» وهكذا بقيت في بيتها كما أرادت متمتعة بسيادتها وحريتها وكثير من عادات الماضى العزيز وإذا كان بعض هذه العادات ، كالمفالة الشاذة في الاهتمام بشئون البيت والمال، مما يتنافر مع هدوء الشيخوخة الحكيمة وتسامحها ، وبالتالي مما يبدو كعارض من أعراض الهرم الانتكاسية ، فثمة عادة أخرى مما حافظت عليه جديرة بأن تزين الشباب ، وبأن تصفى على الشيخوخة جلالا ، تلك هى العبادة . كانت ولم تزل مطمح حياتها ومشرق آمالها وسعادتها ، رضعتها صغيرة في كنف أب شيخ من شيوخ الدين ، وتغلغل في أعماقها بزواجها من شيخ آخر لم يكن دون أبيها ورعا وتقوى ، وظلت تمارس بحب وإخلاص غير مفرقة في إخلاصها بين ما هو دين حقا وما هو خرافة خالصة حتى عرفت بين جاراتها بالشيخة المباركة ، صدقة الجارية وحدها التى عرفتها بخيرها وشرها ، فرجا قالت لها على أثر مشادة مما ينشب بينهما «ياستى اليست العبادة أولى بوقتك من الشجار والتفار على التافه من الامور؟! » فتجيبها محتدة «يأليمة انك لاتوصيننى بالعبادة خبا فيها ولكن كى يخلو لك مجال العبث والاهمال والقذارة والسلب والنهب ، ان الله يأمر بالنظافة والامانة فمراقبتك ومحاسبتك عبادة واثواب ! » ولأن الدين قد شغل من حياتها تلك المكانة العالية فقد سما أبوها ومن بعده زوجها الى مكانة رفيعة من نفسها فوق ما كان لهما بحكم القرابة ، وطالما غبطتهما على ما أشرفا به من حيازة كلمات الله ورسوله في صدرهما ، ولعلها ذكرت هذا حين خاطبت أمانة مواسية ومشجعة فقالت :

— ما أراد السيد باخراجك من بيتك الا اعلان غضبه على مخالفتك لأمره ولكنه لن يجاوز حدود التأديب ، أجل لن يحيق سوء بمن كان لها أب كأيك أو جد كجدك ..

وابتل صدر أمانة بذكر أبيها وجدها كما يتل صدر المنقطع به الطريق في الظلمات اذا ترامى اليه صوت الفقير وهو يهتف «هوه» فأمن قلبها بقول أمها ، لا لتلهفها على الطمانينة فحسب ، ولكن لايمانها قبل كل شيء ببركة الشيخين الراحلين ، فلم تكن الا صورة من أمها في جسمها وأيمانها وجل طباعها . واثالت على وجدانها في تلك اللحظة ذكريات أبيها الذى أفعم قلبها وليدة بالحب والايان فدعت الله ان ينتشلها من ورطتها اكراما لبركته ، وعادت المعجوز الى مواساتها فقالت وعلى شفيتها الجافتين ابتسامة رقيقة :

— ان الله يربك دائما برحمته ، اذكرى عهد الوباء لا أرحمه الله وكيف نجاك الله من شره فقضى أخواتك ولم يمسسك سوء ! غلبها الابتسام على كآبتها فابتسمت ، وتفرست في غيش من الماضى كاد يمحوه النسيان فوضحت — بعض الوضوح — من خيلط الذكريات صورة أحييت في نفسها أصداء من عهد الرعب ، وهى صبية تحجل خارج ابواب غلقت على اخوات مستلقيات على أسرة المرض والموت ، وهى وراء النافذة تنظر الى سيل من النفوش لا ينقطع والناس تفر من طريقها ، أو وهى تسمع الى جماهير من الشعب التقت في دعرها ويأسها برجل من رجال الدين — كما كان يتفق لأبيها — وراحت تجاز بالشكوى وترسل الدعوات الى رب السماء ، وعلى رغم استفحال الشر وهلاك اخواتها جميعا فقد أفلتت من برائن الوباء سالمة آمنة لم يكدن صفوها الا عصير الليمون والبصل الذى كانت تجبر على تجرعه مرة أو مرتين في اليوم ، واستطردت الام بصوت نمت رفته وحنانه على الاسترسال في الاحلام كأنما قد ردها التذكر الى العهد الخالى فاستعادت

حياته وذكرياته - العزيرة الغالية لاقتراها بالشباب - خالصة
من شوائب الألم المنسى ، فقالت :
- ولم يقنع حظك السعيد باقتذاك من الوباء لكنه أبقاك وحيدة
الأسرة وكل مالها في الدنيا من أمل وعزاء وسعادة فترعرعت في
صميم قلوبنا .

لم تعد أمينة ترى الحجرة - بعد هذا الخطاب - كما كانت
تراها قبله ، بعثت جدة الشباب في كل شيء ، في الجدران والسجادة
والسرير ، في أمها وفيها هي نفسها ، ورد أبوها إلى الحياة واتخذ
مجلسه المهود ، وعادت تصفى إلى مناغاة الحب والتدليل ، وتحلم
بقصص الأنبياء والمعجزات ، وتستعيد نوادر السابقين من الصحابة
والكفار إلى عرابي باشا والانجليز ، بعثت الحياة الماضية بأحلامها
السحرية وآمالها الواعدة وسعادتها المرجوة ثم قالت العجوز
بلهجة من يقرر النتيجة النهائية لما مهد به من مقدمات منطقية :
- ليس الله حافظك وراعيك ؟!

بيد أن القول نفسه تضمن عزاء موحيا ذكرها بحالها الراهنة
فاستيقظت من حلم الماضي السعيد عائدة إلى كآبتها كما يعود
السالى إلى اجترار أحزانه بكلمة مواساة تلقى إليه بحسن نية ،
ولبثت إلى جانب أمها في حال من الفراغ الصارم لم تعهدها إلا
حين مرضها فانكرتها وضاعت بها ولم يشغل حديثها المتواصل
مع أمها إلا نصف انتباهها على حين بقى النصف الآخر مرعى
للضيق والقلق ، ولما جاءت صديقة ظهرا بصينية الغداء قالت لها
العجوز بقصد تسلية ابنتها أولا « جاءك رقيب ليكشف عن
سرقاقتك ! » ولكن أمينة لم يكن يهمها وقتذاك أن تسرق المرأة أو
تلتزم الأمانة ولم ترد الجارية على سيدتها أكراما للضيقة من ناحية
ولأنها من ناحية أخرى الفت مرارة سيدتها وحلاوتها فلم يعد لها
غناء عن الأفتتين . وباستدارة النهار اشتد تعلق فكرها ببيتها
وتها لك عليه لأنه في ذلك الوقت يعود السيد إلى البيت للغداء

والقيلولة ، ثم يرجع الأبناء تباعا عقب خروج الرجل إلى الدكان ،
فترات بخيالها الذي استمد من الألم والحنين قوة خارقة ، البيت
وآله كأنهم شهود . رأت السيد وهو يخلع جيبته وقطعته دون
مساعدها التي تخاف أن يكون قد الت الاستغناء عنها منذ رقادها
الطويل ، وحاولت أن تقرأ ما يدور وراء جيبته من أفكار ونوايا ،
هل يستشعر الفراغ الذي خلفته وراءها ، وكيف كان احساسه
حين لم يجد لها من أثر في البيت ، وألم يرد لها ذكر على لسانه
لسبب أو لآخر ؟ .. وها هم الأبناء عائدون وها هم يهرعون إلى
الصالة بعد طول اشتياق إلى مجلس القهوة فليقون مجلسها شاغرا ،
ويسألون عنها فتجيبهم نظرات أختيهم المتجهمة الدامعة ، ترى
كيف يتلقى فهمي الخبر ، وهل يدرك كمال - وهنا خفق قلبها
خفقة جارحة - معنى غيابها ؟ أيتشاورون طويلا ؟ .. ماذا
ينتظرون ؟ .. لعلهم في الطريق يستبقون إليها .. يجب أن يكونوا
في الطريق ، أم يكون قد أصدر أمرا بعدم زيارتها ؟ يجب أن
يكونوا في الخرنفش .. سترى عما قليل ..

- اتحدثينني يا أمينة ؟

بهذا السؤال قاطعت العجوز تيار خيالها فانتبهت إليها في
دهشة ممزوجة بالحياء ، إذ فطنت إلى أن كلمات - من حديثها
الباطني مع نفسها - قد تسلفت في غفلة منها إلى طرف لسانها
محدثا الحس الذي التقطته اذن أمها المرفهة فلم تر بدا من
أن تجيبها قائلة :

- انى أسألك يا أمى الا يجيء الأولاد لزيارتى ؟

- أظنهم جاءوا ! ..

قالت العجوز وهي ترهف السمع مادة رأسها إلى الامام
فانصتت أمينة ضامته فترامى إليها صوت مطرقة الباب وهي
ترسل ضربات سريعة متلاحقة كأنها صوت يبعث في لهفة بصرحات
استغاثة حارة فعرفت وراء هذه الضربات العصبية قبضة كمال

الصغيرة كما كانت تعرفها وهي تدق عليها باب حجرة الفرس ،
وسرعان ما هزعت الى راس السلم وهي تنادى صديقة لتفتح
الباب ، ثم اطلت من فوق الدرابزين فرأت الغلام وهو يثب فوق
درجات السلم وفي اثره فهمى ياسين وتعلق كمال بعنقها فعاقها
مليلا عن عناق الآخرين ، ثم دخلوا الحجرة وهم ، من جيشان
انفس وتبلبل الخاطر يتكلمون في وقت واحد لا يبالي احدهم
ما يقول الآخرون ، ولما راوا الجدة واقفة مبسوطة الذراعين مشرقة
الوجه بابتسامة ترحاب مبهمة بالحلب امسكوا عن الكلام الى حين
واقفوا عليها تباعا فساد صمت نسبي تخللت همسات القبل
التبادلة واخيرا هتف ياسين بصوت ينم عن الاحتجاج والحزن :
- نحن الآن لا بيت لنا ، ولن يكون لنا بيت حتى تعودى اليه .
واوى كمال الى حجرها كالهارب وهو يقول مفصحا لأول
مرة عن نيته التي طوى صدره عليها في البيت وفي الطريق :

- سابقي هنا مع نينة .. ولن أعود معكما .
اما فهمى فقد رنا اليها طويلا صامتا ، كشأنه اذا اراد ان
يحدثها بالنظر ، فوجدت في نظره الصامته خير معبر عما يعتلج
في صدره بها معا .. هذا الحبيب الذي لا يفوق حبه لها الا حبه لها ،
والذي يندر ان يشير في احاديثه معها الى عواطفه ولكن تشى به
خطرات نفسه وكلماته وفعاله ، وقد قرأ الفتى في عينيها نظرة
تدل على الالم والخجل فاشتد تأثره وقال بحزن وتألم :
- نحن الذين اقترحنا عليك الخروج ، وشجعناك عليه ، ولكن
ها أنت وحدك تتلقين العقاب ..

فابتسمت الام في ارتباك وقالت :
- لست طفلة يا فهمى ، وما كان ينبغي لى ان افعل ..
فتأثر ياسين لهذا الحوار المتبادل ، واشتد كربه لفرض
احساسه بالخروج بصفته صاحب الاقتراح المشؤم ، وتردد طويلا
بين معاودة الاعتذار عن اقتراحه ، على مسمع من الجدة ان تعاتبه

او تضمر له حنقا ، وبين السكوت على ما به من رغبة في
التنفيس عن تحرجه ، ثم خرج من تروده بان ترجم كلام فهمى
الى لغة اخرى قائلا :

- اجل ، نحن المذنبون وانت المتهمة . (ثم ضاعطا على
مخارج الكلمات كأنها يضغط على عناد أبيه وصلابته) ولكنك
ستعودين ، وسوف تنقشع السحابة التي تظلنا جميعا .

ولفت كمال وجهها اليه من ذقتها ، وانهال عليها بسيل من
الأسئلة ، عن معنى مغادرتها البيت ، وكم تطول اقامتها في بيت
جدته ، وعما يحدث لو عادت معهم ، وغير ذلك من الأسئلة التي
لم يسمع عنها جوابا واحدا حقيقيا بان يسكن خاطره الذي لم ينفع
في تسكينه عزمه على ان يبقى مع امه حيث هي ، ذلك العزم الذي
كان اول من يرتاب في قدرته على تحقيقه ، وتغيرت وجهة الحديث
بعد ان فرغ كل منهم من التعبير عن عواطفه ، فاخذوا يعالجون
الموقف معالجة جدية لأنه - كما قال فهمى - « لا يجدى التكلم
فيما كان ولكن ينبغي ان نتساءل عما سيكون » وقد اجابه ياسين
على تساؤله قائلا « ان رجلا كائنا لا يرضى بان يمر بحادث كخروج
امنا مرا كريما ، فلم يكن بد من ان يعلن غضبه بطريقة لا يسهل
نسيانها ، ولكنه لن يجاوز حدود ما فعل » بدا هذا الراى مقنعا
لما صادف من ارتياح النفوس اليه فقال فهمى مفصحا عن اقتناعه
ومرجوه معا « والدليل على صحة رأيك انه لم يقدم على فعل شيء
آخر ، ومثله لا يؤجل عزمه لو صحت نيته عليه » وتكلموا كثيرا
عن « قلب » ابيهم فاتفقت كلمتهم على انه قلب خير رغم ثورته
وحديثه وان أبعد شيء عن تصورهم هو ان يقدم على عمل من
شأنه ان يسئ الى السمعة او يؤذى احدا وعند ذلك قالت الجدة
على سبيل الدعابة وهي تعلم باستحالة ما تدعو اليه :

- لو كنتم رجلا حقا لالتصمت الوسيلة الى قلب ابيكم
ليتحول عن عناده ..

فتبادل ياسين وفهمى نظرات ساخرة من هذه « الرجولة »
المزعومة التى تذوب لدى ذكر أبيهم ، وخافت الأم من ناحيتها
ان يتطور الحديث بين الشابين والجدة الى ذكر حادث السيارة
فأفهمتهما بالإشارة - وهى تردد يدها بين كتفها وأمها - أنها
أخفت عنها الأمر ، ثم قالت تخاطب أمها وكأنها تنبرى للدفاع
عن رجولة الشابين :

- لا أحب ان يتعرض أحدهما لغضبه فلنتركه لنفسه حتى
يعفو ..

وهنا تساءل كمال :

- ومتى يعفو ؟

فأشارت الأم بسبابتها الى فوق وهى تغغم « ربنا عنده
العفو » . وكالمألوف في مثل هذه الحال دار الحديث حول نفسه
فأعاد كل ما سبق له قوله بنفس الألفاظ أو بالألفاظ الجديدة من
إيثار متواصل للظنون الوردية فطال الحديث دون ان يستجد به
جديد ، حتى خيم الظلام ووجب الرحيل . وحين وجب الرحيل
وغشيت كآبته القلوب كالضباب شغل به الفكر عن الكلام فساد
سكون كالسكون الذى يسبق العاصفة ، اللهم الا كلمات لا يراد
بها الا التخفيف من وطأة الصمت أو التهرب من الاعتراف بجثوم
الوداع وكأن كلا منهم يلقي تبعة إعلانه على عاتق غيره رحمة
بالجانب الآخر ، هنالك حدس قلب العجوز ما تضطرم به النفوس
حولها فرمشت عينها المظلمتان ولعيت أصابعها بجيات السسعة
في عجلة ولهوجة ، ومضت بها دقائق بدت على قصرها كاتمة
للأنفاس كاللحظات التى يترقب فيها الحالم في كابوس سقطت من
علو شاهق ، حتى جاءها صوت ياسين وهو يقول « أظن أن لنا
ان نذهب ، وسنعود لناخذك معنا قريبا ان شاء الله » وتسمعت
العجوز لتري كيف تتهدج نبرات ابنتها عند الكلام ، ولكنها لم

تسمع كلاما بل سمعت حركة دالة على نهوض الجلوس ،
واصوات قبل وهممة توديع ، واحتجاج كمال على انتزاعه
بالقوة فيكأه ، ثم جاء دورها في التسليم في جو مشبع بالحزن
والفتور ، وأخيرا أخذت الأقدام بتباعد تاركة أياها في وحدة وشجن .
وعادت قدما أمينة الخفيفتان فمضت العجوز تنصت في
قلق حتى هتفت بها :

- اتبكين ؟! يا لك من عبيطة ..! كأنك لا تطيقين أن تبينى
ليلتين في حضن أمك ..!

- ٣٤ -

بدت خديجة وعائشة اضيق الجميع بغياب الأم ، فالى حزنهما
الذى يشاركهما فيه الأخوة تحملتا وحدهما أعباء البيت وخدمة
الأب بيد أن أعباء البيت لم تكن لتتواءم بهما ، أما خدمة الأب فهى
أتى عملا لها ألف حساب ونزعت عائشة الى الهرب من منطقة
أبيها معتلة بأن خديجة سبق لها أن تدربت على خدمته في أثناء
رقاد الأم فوجدت خديجة نفسها مرغمة على العودة الى تلك
المواقف الدقيقة الرهيبة التى تكابدها وهى على كئيب من السيد
أو وهى تقضى له حاجة من حاجاته . ومنذ الساعة الأولى للذهاب
الأم قالت خديجة « ينبغي الا تطول هذه الحال ، ان الحياة بدونها
في هذا البيت عناء لا يطاق » فأمنت عائشة على قولها ولكنها لم
تجد من حيلة في وسعها غير الدموع فذرقتها ، وانتظرت عودة
أخوتها من بيت الجدة حتى جاءوا وقبل ان تلفظ كلمة مما يدور
في نفسها راحوا يحدثون عن حال أمهم في « منفاها » فوق
الحديث من نفسها موقع الغرابة والاستنكار لأنها كانت تسمع عن

قوم غريب لا يتاح لها لقاءهم فغلبها الانفعال وقالت بحدة :
- اذا قنع كل منا بالسكوت والانتظار فربما تلاحت الايام
والاسباب وهى مبعدة عن بيتها حتى يضيئها الحزن ، اجل ان
مخاطبة بابا في هذا الشأن مهمة شاقة ولكنها ليست أشق من
السكوت الذى لا يليق بنا ، ينبغى ان نجد طريقة .. ينبغى ان
نتكلم ..

ومع ان صيغة « نتكلم » التى ختمت بها جملتها جاءت
شاملة لجميع الحاضرين الا انه قصد بها - كما فهم بالبذاهة -
شخصا او شخصين شعر كلاهما لدى سماعها بارتباك لم تخف
بواعثه على أحد ، بيد ان خديجة واصلت حديثها قائلة :
- لم تكن مهمة مخاطبته فيما يعرض من امور بأسر على نينة
مما هى علينا ومع ذلك لم تكن تتردد عن مخاطبته اكراما لى
واحد منا ، فمن الانصاف ان نتحمل نفس التضحية من اجل
خاطرها ..

تبادل ياسين وفهمى نظرة فضحت احساسهما بالخناق الذى
أخذ يضيق حولهما سريعا ولكن واحدا منهما لم يجرؤ على فتح
فيه ان ينتهى به الكلام الى ان يقع عليه الاختيار ليكون كبش الفداء
فاستسلما لانتظار ما يجيء به النقاش كما يستسلم الفأر للهرة .
وتركت خديجة التعميم الى التخصيص فالتفتت الى ياسين قائلة :
- انت اخونا الأكبر والى هذا فانت موظف ، أى رجل كامل ،
فانت أجدرنا بالقيام بهذا الواجب ..

ملأ ياسين صدره بالهواء ثم نفخ وهو يعبث بانامله في ارتباك
ظاهر وتمتم قائلا :

- والدنا رجل نارى الغضب لا يقبل مراجعة لرايه ، وانا من
ناحيتى لم أعبد غلاما بل صرت رجلا وموظفا كما تقولين ،
وأخوف ما أخاف ان يتفجر في غاضبا فيفلت منى زمام نفسى
ويثور غضبى بدوره !

وغلبهم الابتسام على اعصابهم المتوترة وانفسهم المحزونة
فابتسموا ، واوشكت عائشة أن تضحك فأخفت وجهها في
كفيها ، ولعل حالهم المتوترة نفسها مما هياهم لقبول الابتسام
كمسكن وقتى للتوتر والألم كما يحدث للنفوس أحيانا عند
اشتداد الحزن من الاستسلام للطرب لاتبه الأسباب على سبيل
التخفيف عن حال بأضدادها ، ذلك أنهم عدوا قوله نوعا من
الدعابة الجديرة بالضحك والسخرية ، وكان هو أول من يعلم
بعجزه التام عن مجرد التفكير في الغضب أو المقاومة حيال والده
وأول من يعلم انه قال ما قال فرارا من مواجهة أبيه واتقاء
لسخطه ، فلما رأى هزءهم لم يسعه الا أن يتسم بدوره وهو
يهز منكبيه كأنما يقول لهم « دعونى وشأنى » . فهمى وحده بدا
متحفظا في ابتسامه لشعوره بأن القرعة ستصيبه قبل أن تغيب
ابتسامته ، وصدق شعوره اذ أعرست خديجة عن ياسين في
ازدراء وياس وخاطبته قائلة برجاء وأشفاق :

- فهمى .. انت رجلنا ..!

فرفع حاجبيه في ارتباك متطلعا إليها بنظرة كأنما يقول لها
« أنت أدرى بالعواقب ! » حقا كان يتمتع بمزايا لا يتمتع ببعضها
أحد في الأسرة فهو طالب بمدرسة الحقوق ، وهو أكبرهم عقلا
وانفذهم رأيا ، وله من ضبط النفس في المواقف الحرجة ما يدل
على الشجاعة والرجولة ولكنه سرعان ما يفقد جملة مزايه اذا مثل
بين يدي أبيه فلا يعرف غير الطاعة العمياء . وبدأ وكأنه لا يدري
ماذا يقول فحثته على الكلام بإيماءة من رأسها فقال متحيرا :
- هل تريته يقبل رجائى ؟ .. كلا .. ولكنه سينهرنى
قائلا :

« لا تتدخل فيما لا يعنيك » .. هذا اذا لم يثر غضبه
فيوجه الى كلاما اشد وأقسى ..!

وارتح ياسين الى هذا الكلام « الحكيم » الذى وجد فيه دقلا عن موقفه ايضا فقال وكأنه يكمل رأى أخيه :

— وربما جر تدخلنا الى محاسبتنا من جديد على موقفنا يوم خروجها فنتفتح على أنفسنا فتحة لا ندرى كيف نسدها !
فالتفت الفتاة نحوه مغيظة محتقة وقالت بمرارة وسخرية:
— لا منك ولا كفاية شرك !

فقال فهمى الذى استمد من غريزة « حب البقاء » قوة جديدة للدفاع عن نفسه :

— فلنفكر في الأمر بعناية شاملة .. لا أظنه يقبل لى أو لياسين رجاء ما دام يعتبرنا شريكين في الخطأ ، وعليه فالقضية خاسرة اذا تقدم احدا للدفاع عنها ، أما اذا حدثت واحدة منكما فلعلها تنجح في استعطافه أو لعلها تجدد — على أسوأ الظنون — اعراضا هادئا لا يبلغ حد العنف ، فلماذا لا تحدثه احداكما ؟ .. أنت مثلا يا خديجة ؟!

فانقبض قلب الفتاة التى وقعت في الشرك وحدثت ياسين لا فهمى بنظرة غيظ وهى تقول :

— ظننت هذه المهمة اخلق بالرجال !

فقال فهمى مواصلا هجومه السلمى :

— العكس هو الصحيح ما دما نتوخى نجاح المسمى ، ولا ننسى انكما لم تتعرضا لغضبه طول حياتكما الا في النادر الذى لا يقاس عليه ، فهو يألف الرفق بكما كما يألف البطش بنا ..
فأطرقت خديجة متفكرة في قلق غير خاف ، وكأنها خافت ان طال صمتها أن تشتد عليها الحملة فتستقر المهمة الخطيرة في قرعتها فرفعت رأسها قائلة :

— اذا كان الأمر كما تقول فعائشة اخلق منى بالكلام !

— انا ! .. له ؟!

نطقت بها عائشة في فزع من وجد نفسه في مرمى الخطر

بعد ان اطمان طويلا الى موقف المتفرج الذى ليس له من الأمر شيء خاصة وانها — لحداثة سننها وغلبة احساس الطفولة المدللة عليها — لم تكن تندب لشيء هام فضلا عن اخطر مهمة يمكن أن تعرض لاحد منهم ، الا أن خديجة نفسها لم تجد فكرة واضحة للتبرير اقتراحها بيد أنها أصرت عليه في عناد مشيع بالمرارة والتهكم فقالت تجيب شقيقتها :

— لانه ينبغي الانتفاع بصفرة شعرك وزرقة عينيك في انجاح مسعانا !

— وما دخل شعري وعيني في مواجهة أبى ؟

لم تكن خديجة تهتم في تلك اللحظة بالانتفاع بقدر ما تهالكت على ايجاد مخرج لها ولو بتحويل الأذهان الى أمور هى بالمعابنة أشبه تمهيدا للتقهقر ، فالفرار من اسلم السبل الممكنة كمن يقع في مأزق حرج وتعوزه الحجة في الدفاع عنه فيلجأ الى المزاح ليمهد لنفسه مقرا في ضجة من السرور بدلا من الشماتة والازدراء لذلك قالت :

— أعرف لهما تأثيرا ساحرا في كل من يتصل بك ، ياسين ..

فهمى .. حتى كمال ، فلماذا لا يكون لهما نفس التأثير عند أبى ؟

فتورد وجه عائشة وقالت بانزعاج :

— كيف أخاطبه في هذا الشأن وأنا لا تقع على عيناه حتى

يطير ما في راسى ؟!

عند ذلك — وبعد أن تهربوا تباعا من المهمة الخطيرة — لم يعد

يشعر احد منهم بتهديد مباشر ولكن النجاة لم تعفهم من احساس بالذنب ، بل لعلها كانت اول دافع اليه ، حيث أن الانسان يركز تفكيره في النجاة عند الخطر حتى اذا ظفر بالنجاة عاد ضميره يناوشه ، كالجسم الذى يستنفد حيويته كلها في العضو المريض حتى اذا ما استرد صحته توزعت حيويته بالتساوى على الاعضاء

التي أهملت الى حين ، وكان خديجة أرادت أن تتخفف من هذا
الاحساس فقالت :

— ما دمنا نجز جميعا عن مخاطبة بابا فلنستعن بجارتنا ست
أم مريم ..

وما أن نطقت باسم « مريم » حتى لحظت فهمي بحركة عكسية
فالتقت عيناهما لحظة قصيرة في نظرة لم يرتج الشاب لايحائها
فأشاح عنها بوجهه متظاهرا بعدم الاكتراث ، ذلك أن اسم مريم
لم يجر على لسان أمام فهمي منذ نذت فكرة خطبتها ،
اما مراعاة لعواطفه ، واما لأن مريم اكتسبت معنى جديدا بعد
اعترافه بحبها سلكها في زمرة المحرمات التي لا تتسامح تقاليد
البيت بلوكها علانية حيال صاحب الشأن ، وبالرغم من أن مريم
نفسها لم تنقطع عن زيارة الأسرة متظاهرة بجهل ما دار بشأنها
وراء الابواب .. ولم تفت ياسين لحظة الارتباك المتبادل بين
فهمي وخديجة فأراد أن يغطي على أثرها المحتمل بتوجيه الانتباه
الى وجهة جديدة فوضع يده على كتف كمال وقال بلهجة بين
التهمك والتحريض :

— هذا رجلنا الحق ، هو وحده الذي يستطيع أن يرجو
والده ليعيد اليه أمه !...

لم يحمل كلامه محمل الجد أحد ، وأولهم كمال نفسه ، بيد
أن قول ياسين وثب الى ذاكرته في اليوم التالي وهو يقطع ميدان
بيت القاضي عائدا من المدرسة ، بعد نهار مضى أكثره في التفكير
في امه النفية . فتوقف عن السير صوب درب قرمز ، والتفت
الى طريق النحاسين مترددا وقلبه المحزون يتابع خفقاته في كابة
وتألم ، ثم غير طريقه متجها نحو النحاسين في خطوات متباطئة
دون أن يجمع عزمه على رأى ، يسوقه العذاب الذي يعانى لفقد
أمه ، ويرجمه الخوف الذي يركبه لمجرد ذكر أبيه فضلا عن
مخاطبته أو التوسل اليه ، لم يكن يتصور انه يستطيع أن يقف

بين يديه محدثا في هذا الامر ، ولم تغب عن شعوره المخاوف
العسية بأن تحقيق به لو فعل . ولم يصمم على شيء الا أنه رغم
هذا كله واصل السير البطيء حتى لاح لعينيه باب الدكان كأنما
ينزع الى ارضاء قلبه المعذب ولو ارضاء عميقا — كالحداة التي
تحوم حول خاطف صفارها دون أن تجد الشجاعة على مهاجمته
— وتداني من الباب حتى وقف على بعد أمتار منه وطال الوقوف
وهو لا يتقدم ولا يتأخر ، ولا يستقر على رأى ، وفجأة خرج
من الدكان رجل وهو يقهقه عاليا واذا بأبيه يتبعه حتى عتبة الباب
مودعا وهو يفرق في الضحك كذلك ، فاذهلته المفاجأة ، فتسمر
في مكانه مستشرفا وجه أبيه الضاحك الطليق في انكار ودهشة
لا توصفان ، لم يصدق عينيه وخيل اليه أن شخصية جديدة قد
حلت في جسم أبيه ، أو أن هذا الرجل الضاحك — على ما به
من شبه بأبيه — شخص آخر يراه لأول مرة ، شخص يضحك ،
ويفرق في الضحك ، وينطلق البشر من وجهه كما يتطلق الضوء
من الشمس ، واستدار السيد ليدخل فوقع بصره على الغلام المتطلع
اليه بذهول فأخذته الدهشة لموقفه وهيئته على حين استردت
أساريه بسرعة مظهر الجد والرزانة ، ثم سألوه وهو يتفرس
في وجهه :

— ماذا جاء بك !؟

وللحال دبب في أعماق الغلام غريزة الدفاع عن النفس
— رغم ذهوله — فتقدم من أبيه ومد يده الصغيرة الى يده وتطامن
عليها حتى لثمها في ادب وخشوع دون أن ينبس بكلمة ، فسأله
السيد مرة أخرى :

— أتريد شيئا !؟

فأزدرد كمال ريقه وهو لا يجد ما يتلفظ به الا أن يقول مؤثرا
السلامة « انه لا يريد شيئا وأنه كان في طريقه الى البيت » ولكن
السيد استبطاه فلاح في وجهه الضيق وقال بخشونة :

- لا تقف كالصنم وقل ماذا تريد ..
ونفذت خشونة الصوت الى قلبه فارتعد ، وانعقد لسانه
فكان الكلام قد التزق بسقف حلقه ، فازداد الأب ضيقا وهتف
بحدة :

- تكلم .. هل فقدت النطق ؟!

وتجمعت قوته كلها في ارادة واحدة وهى أن يخرج من صمته
بأى ثمن اتقاء لفضب أبيه ففتح فاه قائلا كيفما اتفق له :

- كنت عائدا من المدرسة الى البيت ..

- وماذا أوقفك هنا كالمتوه ؟!

- رايت .. رايت حضرتك فأردت أن أقبل يدك ..!

فتجلت في عيني السيد نظرة استرابة ، وقال بجفاء وتهكم :

- اهذا كل ما هنالك ..! أوحشتك لهذا الحد ! ألم تستطع

أن تنتظر الى الصباح لتقبل يدى إذا أردت ؟! .. اسمع .. اياك

وأن تكون قد عملت عملة في المدرسة .. سأعرف كل شيء ..

فقال كمال بسرعة واضطراب :

- لم اعمل شيئا وحياة ربنا ..

فقال الرجل بنفاذ صبر :

- اذن تفضل .. ضيعت وقتى بلا مناسبة .. غر من

وجهى ..

فغادر كمال موقفه لا يكاد يرى موضع قدمه من الاضطراب ،

وتحرك السيد عن مكانه ليدخل ولكن عاودت الغلام الحياة بمجرد

تحول عيني أبيه عن عينيه ، وصاح بلا شعور قبل أن يغيب

الرجل وتضيع الفرصة :

- رجع نينة الله يخليك ..

وأطلق ساقيه للريح ..

- ٢٥ -

كان السيد يحتسى قهوة العصر في حجرته حين دخلت
خديجة وقالت بصوت كاد من التخشع لا يسمع :

- جارتنا ست أم مريم تريد مقابلة حضرتك ..

فتساءل السيد متعجبا :

- حرم السيد محمد رضوان ؟! ماذا تريد ؟!

فقالت خديجة :

- لا أعرف يا بابا ..

فأمرها بادخالها وهو يمسك عن التعجب . ومع أن مجيء

بعض الفضليات من الجارات لمقابلته - لشأن يتعلق بتجارته أو

لصلح يسمح به بينهما وبين أزواجهن من أصدقائه - لم يكن مع

ندرتة بالجديد عليه إلا أنه استبعد أن يكون ما دعا هذه السيدة

الى مقابلته واحد من هذه الأسباب . وخطرت على ذهنه ، وهو

يتساءل ، مريم وما دار عن خطبتها بينه وبين زوجه ، ولكن أى

علاقة ثمة بين هذا السر الذى لا يمكن أن يتعدى دائرة أسرته وبين

هذه الزيارة ؟! ثم ذكر السيد محمد رضوان لاحتمال أن تكون

الزيارة لسبب يمت اليه بيد أنه كان ولم يزل مجرد جار ، لا تربطه

به الا صلة الجيرة التى لم ترتفع يوما لمرتبة الصداقة ، فاقتصر

تزاورها قديما على المناسبات الضرورية حتى شل الرجل فعاده

مرات . ثم لم يعد يطرق بابه الا في الأعياد ، على أن ست أم مريم

ليست بالغريبة عليه ، فانه ليذكر أنها قصدت دكانه مرة لاتباع

بعض الحوائج ، وهناك عرفته بنفسها استرعاء لاهتمامه قبلل لها

من كرمه ما رآه جديرا بحسن الجوار ، ومرة أخرى التقى بها عند

باب بيته اذ صادف خروجه قدومها للزيارة مصطحبة كريمتها
وعند ذلك ادهشته بجسارتها حين حثته قائلة « مساء الخير
يا سى السيد » ، أجل علمه اختلاطه بالأصدقاء أن بينهم من
يتسامح فيما يتشدد هو فيه متطرقا من التزام الآداب المتوارثة
للأسرة ، فلا يرون بأسا من أن تخرج نساؤهم للزيارة أو
للاستبضاع ، ولا يجدون حرجا في توجيه تحية بريئة كالتي
وجهتها أم مريم اليه ، ولم يكن - رغم حنيلته - بالذى يطمئن
فيما يرتضون لأنفسهم ولنساءهم ، بل لم يكن يسئ الظن حتى
ببعض الأعيان من أصدقائه الذين يصطحبون زوجاتهم وبناتهم في
العربات للتنزه في الحقول أو لغشيان الملامى البريئة مكتفيا في مثل
هذه الحال بترديد قوله : « لكم دينكم ولى دين » ، أى أنه لا ينزع
الى تطبيق آرائه على الناس تطبيقا أعمى ، الى أنه يحسن التمييز
حقا بين ما هو خير وما هو شر ، الا أنه لا يفتح صدره لكل « ما هو
خير » ضالعا في ذلك مع طبيعته التقليدية الصارمة حتى أنه عد
زيارة زوجه للحسين جريمة قضى فيها بأقصى عقوبة أصدرها في
حياته الزوجية الثانية ، ولهذا كله لاقت تحية أم مريم له من
نفسه دهشة مقرونة بما يشبه الانزعاج دون أن يسئ بأخلاقتها
الظن . وسمع خارج باب الحجرة نحنة فأدرك أن القادمة
تنذره بالدخول ، ثم دخلت ملتفة في ملاءتها ، مستورة الوجه
ببرقع أسود تتوسط عروسه الذهبية عينين مكحولتين دعجاوين
وتدلالت منه بجسم جسيم لحيم مترنح الأرداف ، فنهض
السيد لاستقبالها وهو يمد يده قائلا :

— اهلا وسهلا ، شرفت البيت وأهله ..

فمدت له يدها بمد أن لفتها في طرف الملاءة أن تنفض
وضوءه وقالت :

— ربنا يشرف قدرك يا سى السيد ..

ودعاها للجلوس فجلست ، ثم جلس وهو يسألها مجاملة :

— كيف خال السيد محمد ؟ ..

فأقلت متنهدة بصوت مسموع كان السؤال حرك أشجانها :

— الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه ، ربنا يلفظ بنا

جميعا ...

فهز السيد رأسه كالأسف وتمتم :

— ربنا يأخذ بيده ويعنحه الصبر والعافية ..

واعقب حديث المجاملات صمت قصير فأخذت السيدة تنهيا
للحديث الجدى الذى جاءت من أجله كما ينهيا المطرب للغناء بعد
الفراغ من عزف المقدمة الموسيقية على حين غض السيد بصره
تحسما تاركا على شفثيه ابتسامة لتعلن ترحيبه بالحديث المنتظر :

— يا سيد أحمد ، أنت في المروءة مثل يضرب في الحى كله ،

فلن يخيب رجاء لمن يقصدك مستشفعا مروءتك .

فتعتم السيد بصوت حى وهو يتساءل في نفسه « ترى

ما وراء هذا كله ؟! »

— استغفر الله ..

— المسألة اننى جئت الساعة لأزور أختى ست أم فهمى فما

هالنى الا أن أعلم بأنها ليست موجودة في بيتها وأنت غاضب عليها .

وامسكت المرأة لتسبر أثر كلامه ولتسمع رأى السيد فيه ،

ولكنه لاذ بالصمت كأنه لا يجد ما يقوله ومع أنه شعر بعدم

ارتياح الى فتح هذا الموضوع الا أن ابتسامة الترحيب ظلت

معلقة بشفثيه ..

— هل توجد ست أكمل من ست أم فهمى ؟! ست العقل

والحياء ، جارة عشرين عاما وأكثر ، أم نسمع خلالها منها الا

ما يسر الخاطر ، فما عسى يمكن أن تجنى مما تستحق عليه

غضب رجل عادل مثلك ؟!

فتأبر السيد على صمته متجاهلا تساؤلها ، ثم دارت برأسه

خواطر زادت من عدم ارتياحه .. ترى اجاءت زيارة المرأة للبيت

اتفاقا أم أنها استدعيت بتدبير مدبر ؟! خديجة ؟. عائشة ؟.
أمانة نفسها ؟. أنهم لا يملون الدفاع عن أمهم ، هل ينسى كيف
تجرا كمال على الصراخ في وجهه مطالبا بعودة أمه ، الأمر الذي
عرضه فيما بعد لعلقة ساخنة تطاير بخارها من نافوخه ؟!

— يا لها من سيدة طيبة لا تستاهل عقابا .. ويا لك من
سيد كريم لا يليق به العنف ، ولكنه الشيطان اللعين أخزاه الله
وما أجدر نيلك بافساد كيده ..

وشعر عند ذلك بأن الصمت غدا أثقل من أن يحتمل مجاملة
للزائرة فتمتم قائلا باقتضاب متمعد :

— ربنا يصلح الحال ..

فقالت أم مريم بحماس متشجعة بما أصابت من نجاح في
استدراجه الى الكلام :

— لشد ما يعز على أن تترك جارتنا الطيبة بيتها بعد ذلك
العمر الطويل من الستر والكرامة ..

— ستعود الياء الى مجاريها ، ولكن لكل شيء ميعاد ..

— أنت أختي ، بل أعز من الأخ ، ولن أزيد على هذا كلمة
واحدة ..

جد جديد من الأمر لم يغب عن وعيه اليقظ فسجله كما
يسجل المرصد الزلازل البعيد مهما تدق حركته . خيل اليه
وهي تقول « أنت أختي » أن صوتها رق وعذب ، فلما قالت
« بل أعز من الأخ » جهر الصوت بحنان دافئ نشر في الجو
المحتشم نفحة طيبة ، فتعجب وتساءل ، ولم يعد يطبق غض
بصره على الشك فرمعه مستأنيا .. واسترق الى وجهها النظر
— فوجدها — على غير ما توقع — تتطلع اليه بعينيها الدعجوين ،
فجاش صدره وخفض بصره مستعجلا بين الدهشة والخرج ثم
قال مواصلا الحديث كي يغطي على تأثيره :

— أشكرك على ما أوليتني من أخوة ..

وعاد يتساءل ترى اكانت تتطلع اليه هكذا طوال الحديث أم
صادف رفع بصره اليها تطلعا اليه ؟. وما القول في أنها لم تغض
بصرها عند اللقاء العيني ؟. ولكنه سرعان ما هزا بأفكاره قائلا
لنفسه ان ولعه بالنساء وخبرته بمعاشرتهم أرهقا حاسة سوء الظن
بهن عنده ، وان الحقيقة بلا ريب أبعد ما تكون عن تصوره ، أو لعل
المرأة من النساء اللاتي يفضن الحنان طبعاً وسجية فيظنه من
لا يعرفهن غزلاً وما هو بالفضل . ولكي يتحقق من صدق رأيه لانه
لم تزل ثمة حاجة الى التحقيق — رفع بصره مرة أخرى فما هاله
الا أن يراها رانية اليه ، فتشجع هذه المرة وثبت عليها عينيه
قليلا فلم تزل ترنو اليه باستسلام جسور حتى غص بصره في
حيرة شاملة ، وعند ذلك لاحقه صوتها الناعم وهو يقول :

— سآرى بعد هذا الرجاء ما اذا كنت حقاً أثيرة عندك ..
أثيرة ؟! لو قيلت هذه الكلمة في غير هذا الجو المشبع
بالجساسة المكهرب بالشك والحيرة ، لمرت دون أن تترك أثراً ،
أما الآن ؟! وعاود النظر في غير قليل من الحرج فقرأ في عينيها
بعض المعاني التي عاشت ظنونه ، هل صدق احساسه ؟ وهل يمكن
هذا حال استشفاعها لزوجها ؟. ولكن كيف يعجب من كان
في مثل خبرته بالنساء ؟. سيدة لعوب ذات بعل مشلول ،
وسرت في وجدانه وثبتت بهيجة ملاته حرارة وزهوا ، ولكن متى
نشأت هذه العاطفة ؟! أهى قديمة وكانت تحين الفرص ؟.
الم تزد دكانه مرة فلم يند عنها ما يريب .. ولكن الدكان ليس
بالمكان الذي تطمئن مثلها اليه في بث هوى مكتم غير مسبوق بشميد
كما فعلت زبيدة العالمة ، أم هي عاطفة بنت ساعتها وجدت مع
الفرصة السانحة في الغرفة الحالية ؟. لو صح هذا فهي « زبيدة »
أخرى في لباس سيدة مصوثة ، وليس غريباً أن يجهل أمرها
— وهو العليم ببنات الهوى — ما دام يحرض الحرض كله على
احترام الجيران احتراماً مثالياً ، وأيا كان الأمر فكيف يجيبها ؟.

« أنت أثر عندى مما تظنين ؟ » قول جميل ولكنها حرية بأن ترى فيه تحية استجابة لدعائها ، كلا انه لا يريد هذا ، انه ياباه كل الابداء ، لا لانه لم يشبع بعد من زبيدة ، ولكن لانه لا يقبل بحال ان يحيد عن مبادئه في تقديس الأعراض عامة ، وما عسى الاصدقاء والجيران منها خاصة . لهذا لم تسود صفحته نقطة واحدة يمكن ان يخزى بها امام صديق أو جار أو أحد من الأظهار على افراطه في العشق والصبوات ، ولم يزل دابه ان يخاف الله في لهوه كما يخافه في جده فلا يبيح لنفسه الا ما يراه مباحا أو في حدود الهفوات . لا يعنى هذا انه أوتى ارادة خارقة تعصمه من الأهواء ، ولكنه لهج بالهوى المبذول ، وصان طرفه عن الحرمات حتى انه لم يعتمد النظر الى وجه امرأة من حيه طوال عمره ، على انه مما يذكر له انه صد مرة عن هوى متاح رحمة بأحد معارفه ، اذ جاءه يوما رسول يدعو الى لقاء أخت ذاك الرجل - أرملة نصف - في ليلة سماعها فتلقى السيد الدعوة صامتا وصرف الرسول متلفعا كعادته ثم قاطع الطريق الذى يوجد به البيت أعواما متواصلة . ولعل أم مريم كانت أول تجربة - عرضت لمبادئه - يكابدها بعينييه ، ومع انها أعجبت به الا انه لم يستجب لنوازع الهوى ، وغلب صوت الحكمة والوقار ، صائنا سمعته التى يتحدث بها الناس عن موطن المؤاخذة ، كان هذه السمعة الطيبة أثر عنده من اقتناص لذة مواتية ، متعزيا في نفس الوقت بما يتاج له من حين لآخر من غراميات مأمونة العواقب . وهذه الروح الراحية للعهد المخلصة للاخوان لا تزاله حتى في مغاني اللهو والشبهوات فلم يؤخذ عليه ابدا انه سطا على محظية صاحب أو طمع بطرف الى خلية صديق ، مؤثرا الصداقة على الأهواء ، لانه كما اعتاد ان يقول « الصديق ود دائم والعشيقة هوى عابر » ، ولهذا قنع بانتقاء خليلاته ممن يجدهن بلا خليل ، أو ينتظر حتى تنقطع علاقة فينهض لانتهاز فرصته وأحيانا يستأذن الخليل القديم قبل

ان يتودد الى من كانت خليلته ، مواصلا العشق في سرور لا يشوبه الندم ولا تكدر صفوه احن النفوس . بمعنى آخر انه نجح في التوفيق بين « الحيوان » المتهاك على اللذات وبين « الانسان » المتطلع الى المبادئ العالية توفيقا اثلافيا يجمعهما في وحدة منسجمة لا يطفى أحد طرفيها على الآخر ويستقل كل منهما بحياته الخاصة في سر وارتياح ، كما وفق من قبل في الجمع بين التدين والفواية في وحدة خالية من الاحساس بالذنب والكبت معا ، غير انه لم يكن يصدر في وفائه عن اخلاص مجرد لأخلاق ولكن - الى هذا أو قبل هذا - عن رغبته التليدة في أن يظل حائرا الحب متمتعا بالسمعة العطرة ، الى أن غزواته المظفرة في العشق هونت عليه الاعراض عن الحب الموسوم بالخيانة أو النذالة ، فضلا عن هذا وذاك فانه لم يعرف الحب الحقيقي الذى كان خليقا بأن يدفعه الى احدى اثنتين ، فاما الاذعان للعاطفة القوية دون مبالاة بالمبادئ ، واما الوقوع في أزمة عاطفية خلقية حادة لم يقدر عليه الاكتواء بنارها . فلم يكن يرى في أم مريم الا صنفا لذيذا من الطعام لن يضيره - اذا هددته تناوله بسوء الهضم - أن يعدل عنه الى غيره من الأصناف المأمونة الشهية التى تحفل بها المائدة ، لذلك أجابها برقة قائلا :

— شفاعتك مقبولة ان شاء الله وستسمعين ما يسرك عما قريب . . .

فقامت المرأة وهى تقول :

— ربنا يكرمك يا سى السيد . . .

ومدت له يدا بضة فمد لها يده وهو يغض بصره فخيّل اليه - وهى تسلم - أنها ضغطت قليلا على يده ، وجعل يتساءل اهذه طريقته المعتادة في التسليم أم انها تعمدت الضغط على يده ، وحاول أن يتذكر كيفية تسليمها عند استقبالها ولكن الذاكرة لم

تسعه ، وقضى أكثر الوقت الذى سبق عودته الى الدكان وهو يفكر في المرأة ، حديثها ، ولينها ، وتسليمها ..

- ٣٦ -

- تيزة حرم المرحوم شوكت تريد مقابلة حضرتك .
رمى السيد خديجة بنظرة حمراء وصاح بها :
لماذا ؟!

ولكن أعلنت نبراته الغاضبة ونظراته النائرة على انه لم يقصد الوقوف عند مدلول « لماذا » وكأنه أراد ان يقول لها « لم اكذ أفرغ من وسيط الأمس حتى جئتنى بوسيط جديد اليوم ، من قال لك ان هذه الحيل تجوز على ؟ .. كيف تجبرين انت واخوتك على المكر بى ؟ »

واصفر وجه خديجة وهى تقول بصوت متهدج :
لا أدري والله ..

فحرك رأسه حركة كأنها تقول لها « بل تدرين وأدري أفا ايضا ولن يجرى مكرك الا الى أواخر العواقب » ثم قال ساخطا :
- خليها تتفضل ، لن اشرب قهوتى براحة بال بعد الآن »
اصل حجرته محكمة وقضاة وشهود ، وهذه هى الراحة التى أجدها في بيتى ، لعنة الله عليكم اجمعين !..

اختفت خديجة قبل ان يتم كلامه كما يختفى الفأر اذا قرعت سمعه قرقعة ، وظل السيد لحظات متجهما حائقا ، حتى خطرت على ذهنه صورة خديجة وهى تنسحب خائفة فعثرت قدمها بقبابه وكاد رأسها يصطدم بالباب ، فارتسمت على شفثيه ابتسامة اشفاق مسحت غضبه المتعسفة وقطرت على صدره

عظفا ، يا لهم من أطفال يأبون أن ينسوا أهمهم ولو دقيقة واحدة ، واتجه بصره الى الباب وهو يتهاى لاستقبال الزائرة بوجه انبسطت أساريره كأنه لم يصب غضبه منذ ثوان على فكرة زيارتها ، ولكن لم يكن له حيلة فيما يركبه من غضب - وهو في بيته - لآفته الأسباب أو بلا سبب على الإطلاق ، فضلا عن هذا كله كان للقادمة منزلة خاصة لا يرتقى اليها أحد من النساء اللاتي يترددن على البيت من حين لآخر ، حرم المرحوم شوكت ، والرحوم شوكت من قبل ، أسرة ارتبطت مع أسرته بأصرة الود الخالص من عهد الجدود ، كان للراحل منزلة الأب من نفسه ، ولم تزل أرملة عنده - وعند أسرته بالتبعية - بمنزلة الأم ، هى التى خطبت له أمينة بنفسها ، وتلقّت ابنائه بيديها وهم يستقبلون نور الدنيا ، وإلى هذا كله فال شوكت أناس صداقتهم شرف ، لا لأصلهم التركي فحسب ، ولكن لمرتبتهم الاجتماعية وعقاراتهم الكثيرة ما بين الحمزاوى وبين الصوريين ، فإذا كان السيد من أوساط الطبقة الوسطى فهم من أهل القمة فيها بلا جدال ، ولعل الأمومة التى تشعر بها المرأة له ويشعر بها لها هى التى جعلته يقف من شفاعتها المنتظرة موقف التهيب والخرج ، فليست هى التى تلتزم الاحترام في مخاطبته ، ولا التى تتعب في استعطافه ، فضلا عما عرفت به من صراحة جارحة لها مبرارتها من شيخوختها ومكانتها معا ، أجل ليست هى ..
وامسك عن افكاره لدى سماعه وقع خطواتها ، ثم نهض وهو يقول بترحيب :

- أهلا وسهلا ، زارنا النبى ..

اقتربت منه سيدة طاعنة في السن ، تدب على مظلة وهى ترفع اليه وجها ناصع البياض كثير التجاعيد لم يكذب يحجب منه شيئا برقعها الأبيض الشفاف ، وتلقّت تحيته بابتسامة جلت

عن أسنانها الذهبية ، وسلمت ، ثم اتخذت مجلسها الى جانبه بلا كلفة وهي تقول :

— من يعيش ير ، حتى انت يا زين الرجال !.. وحتى هذا البيت تحدث فيه هذه الامور التي لا يطيب التحدث عنها !.. شخت ورب الحسين وبإدرك الخرف ..

واسترسلت في الكلام مطلقة العنان للسانها يقول ويعيد غير تاركة للسيد من فرصة لمقاطعتها أو التعقيب عليها ، حدثته كيف جاءت للزيارة ، وكيف اكتشفت غياب زوجها « ظننت بادىء الامر انها خرجت في زيارة فدققت صدى بيدي دهشة وقلت ماذا حدث للدنيا ؟!.. وكيف سمح لها السيد بالخروج مستهينا بالشرائع الالهية والقوانين البشرية والفرمانات العثمانية !.. » بيد انها سرعان ما عرفت الحقيقة كلها « فثبت الى رشدى وقلت الحمد لله الدنيا بخير ، هذا حقا هو السيد ، وهذا اقل ما ينتظر منه » ثم غيرت لهجتها الساخرة وراحت تؤنبه على قسوته ، ولم تقتصد في الرئاء لزوجها التي تعدها آخر امرأة تستحق عقابا « وجعلت كلما هم بمقاطعتها تصيح به « هس ، ولا كلمة ، دع حديثك الخلو الذى تحسن تنميقة فلن اخدع به ، انى اريد عملا صالحا لا قولا مزوقا » وصارحته بأنه يغالى في المحافظة على أسرته مفالة خرقت المألوف ، وانه يجعل به ان يأخذ نفسه بشئ من الهوادة والرفق ، استمع السيد اليها طويلا ، ولما سمحت له بالكلام — بعد ان اعيأها الكلام ، شرح لها وجهة نظره المعروفة ولم يمنعه دفاعها الحار ، ولا مكانتها عنده من ان يؤكد لها بان سياسته مع أسرته عقيدة لا يتحول عنها وان وعدها في النهاية — كما وعد أم مريم من قبل — خيرا ، وظن ان آن للجلسة ان تنفض ولكنه ما يدري الا وهي تقول :

— غياب أمينة هائم مفاجأة غير سارة لى لانى كنت أريدها لأمهم جدا ، ولان الخروج لم يعد بالمهمة اليسيرة على صحتي»

ولا ادري الآن ان كان يحسن بى ان اتكلم فيما اردت الكلام فيه ام انتظر عودتها..!

فقال السيد مبتسما :

— كلنا تحت أمرك ...

— وددت لو كانت هي اول من يسمعنى وان كنت لم تترك لها من الأمر شيئا ، ولكن لئن فاتنى هذا فعزائى انى أهيبء لها فرصة سعيدة للعودة ..

فاحتار السيد في فهم حديثها وحجج اليها متسانلا :

— ما وراء هذا ؟

فقالت وهي تنكت السجادة بسن مظلتها :

— لا أطيل عليك ، لقد وقع اختياري على عائشة لتكون زوجا

لخليل ابنى ..

ودهش السيد دهش من أخذ على غرة من حيث لم يتوقع فركبه الارتباك ، بل الانزعاج ، لبواعث غير خافية ، ادرك من اول وهلة ان تصميمه القديم على الا يزوج الصغرى حتى تتزوج الكبرى سيرتطم هذه المرة برغبة عزيزة لا يسمعه اهمالها .. رغبة عالنته بها من لا تجهل تصميمه ذاك مما دل على انها ترفضه سلفا وتأبى أن تنزل عند حكمه ..

— مالك صامتا كالك لم تسمعنى ؟!

وابتسم السيد ارتباكاً وحياء ، ثم قال على سبيل الملاحظة والمجاملة ريشما يقلب الأمر على وجوهه :

— هذا شرف عظيم لنا ..

فرمته السيدة بنظرة كأنما تقول له « ابحت لك عن طريقة اخرى غير معسول الكلام » وقالت بلهجة هجومية :

— لا حاجة بى الى الضحك على بأجوف الكلام ، لن أرضى

بغير الموافقة التامة : لقد دبتنى خليل لاختيار زوجة له فقلت له عندى عروس هي خير ما يمكن أن تظفر به فسر لاختياري ولم

يعدل بمصاهرتك شيئا .. فهل جاء زمن تقابل فيه مثل هذه الرغبة ، منى أنا ، بالصمت والتهرب ؟! الله .. الله ..
الأم يقع في هذه المشكلة المعقدة التي لا يمكن أن يخرج منها دون أن يصيب إحدى ابنتيه بصدمة قاسية ؟! .. ونظر إليها كما يستجدي عطفها على موقفه ، وغمغم :
- ليس الأمر كما تتصورين ، رغبتك فوق العين والراس ، ولكن ...

- آه من لكن !.. لا تقل أنك قررت ألا تزوج الصغرى حتى تتزوج الكبرى ، من أنت حتى تقرر هذا أو ذاك ؟! .. دع ما لله الله وهو أرحم الراحمين ، أن شئت ضربت لك عشرات الأمثال عن أخوات صفار تزوجن قبل الكبار فلم يحل زواجهن دون زواج أخواتهن بأحسن الأزواج ، وخديجة شابة ممتازة ولن تعدم زوجا صالحا عند ما يشاء الله .. الأم تقف حائلا بين عائشة وبين حظها ؟! .. ليست هي الأخرى جديرة بعطفك ورحمتك ؟! قال لنفسه : إذا كانت خديجة شابة ممتازة فلماذا لا تختار بينها ؟! .. وهم باحراجها كما أخرجته ولكنه خاف أن ترميه باجابه تتضمن اساءة - ولو بحسن نية - لخديجة وبالتالي له هو ، وقال بصوت ملؤه الجذ والاهتمام :
- ليس إلا أنني أشفق على خديجة .

فكانت بحدة كأنما هي المطالبة لا هو :

- كل يوم تقع أمور كهذه دون أن تربك أحدا ، أن الله يكره من عبده العناد والمكابرة ، أقبل رجائي وتوكل على الله ، لا ترفض يدى فانى ما ملدتها الى أحد قبلك ..
فندارى السيد انفعاله بابشامة وقال :

- هذا شرف عظيم كما قلت لك منذ لحظة .. فقط امهلىنى قليلا ريثما أراجع نفسى وأرتب أمورى ، وستجدين رأى عند حسن ظنك أن شاء الله ...

فكانت بلهجة من يجهز على الحديث :

- لا يجوز أن آخذ من وقتك أكثر مما أخذت ، ثم انه كلما طال الأخذ والرد خيل الى أنك لا تقبل رغبتى بقبول حسن ، ومثلنى من تطمع اذا قالت لك أريد أن تبادرها بنعم دون لت وعجن ، فلن أزيد عما قلت الا كلمة واحدة : خليل ابنى وابنتك وعائشة بنتك وبنتى ..

وقامت فقام السيد ليوذعها ، لم يكن يتوقع الا كلمة توديع وتحية ، ولكنها أبت إلا أن تذكره بوصاياها جملة . كأنما خافت أن يفوته شيء منها فأعادتها تفصيلا ، وما يدرى - أو ما تدرى -
الا وهى ترجع لتأييد بعض آرائها وتوكيد البعض الآخر ، ثم غلبها تداعى الأفكار فاسترسلت فيه بلا ممانعة حتى أعادت على مسمعه جل ما قالت عن الخطبة ، والى هذا كله لم تشأ أن تنتهى ذاك الحديث دون أن تودع حديث الأم المبعدة بكلمة أو كلمتين أو ثلاث وإذا بتداعى الأفكار يعلبها مرة أخرى فتسترسل فيه حتى كاد الرجل يفقد أعصابه ، ثم أوشك أن يضحك في النهاية وهى تقول له : « لا يجوز أن آخذ منك أكثر مما أخذت » وأوصلها الى الباب مشفقا في كل خطوة من أن تتوقف عن المسير وتشتبك في الكلام كرة أخرى ، ثم عاد أخيرا الى مجلسه وهو يتنفس من الأعماق ، عاد مفتما مكتئبا ، قلب رقيق ، أرق مما يظن الكثيرونه بل أرق مما ينبغى ، فكيف يصدق هذا من لا يروونه الا مكشرا أو صاحبا أو ضاحكا ساخرا !.. أن مسة حزن تلذع فلذة من كبده خليقة بأن تنفص العيش كله وتلين وجه الحياة في عينيه ، ولكم يسعد أن وجود بكل غال في سبيل اسعاد فتاتيه سواء هذه التى يرى في وجهها الجميل وجه أمه أو تلك التى لم تصب من الحسن الا لونا شاحبا ، كلتاها من نبض قلبه وعصاره روحه ، بيد أن الزوج الذى تقدمه حرم المرجوم شوكت لقية بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، فتى في الخامسة والعشرين ، ذو دخل

الرخوم شوكت لدى السيد ، كل اولئك ثبت قلبها وروح عن
نفسها ، الى ان زيارات الأبناء المسائية لم تنقطع يوما واحدا
طلت جوى صدرها بنفحات أمل متجددة ، ومع ان الزمن الذي
تضيونه عنها في البيت الجديد لم يزد كثيرا عن نظيره في البيت
القديم - في كلتا الحالتين لم تكن تجتمع بهم الا حين فراغهم في
جلسة المساء - الا انها باتت تشتاق اليهم اشتياق المغترب
في بلد بعيد الى احباب فرق الدهر بينه وبينهم ، اشتياق من حرم
عليه تنفس جوهم والعيش بين ذكرياتهم ، والاشراف على مواطن
جدهم ولهوهم ، كان الجسم كلما قطع في طريق الفراق قيراطا
كأبده القلب أميالا ، ودابت العجوز على أن تقول لها كلما وجدت
منها صمتا أو آسست في حديثها الشرود :

- الصبر يا أمينة ، أتى الوثنى لحالك . الأم غريبة ما ابتعدت
عن ابنائها ، غريبة ولو حلت في البيت الذي ولدت فيه .

أجل انها غريبة ، كأنه ليس البيت الذي لم تعرف حياتها
الأولى سواء موطنها ، وكأنها ليست الأم التي لم تكن تطبق البعد
عنها لحظة واحدة ، لم يعد « بيتها » ما هو الا منفى تنتظر بين
جدرانها على لَهف العفو من الساء . وجاء العفو بعد طول انتظار ،
حمله الأبناء ذات مساء . دخلوا عليها وفي أعينهم لمعة كسنا البرق
خفق لها فؤادها خفقة اهتز لها الصدر كله حتى اشفقت من أن
تكون ذهبت في تأويلها الى أبعد مما تحتمل ، ولكن كمال جرى
نحوها وتعلق بعنقها ثم هتف بها وهو لا يتمالك نفسه من الفرح :

- البسي ملائك وهيا بنا ...

وقهقه ناسين قائلا :

- جاء الفرج (ثم هو وفهمي مما) دعانا أبى وقال لنا اذهبا

نعودا بأمكما ...

وغضت بعمرها لتندارى فرحتها الغامرة . ما أعجزها عن كتمان
ما يضطرب في نفسها من شتى العواطف ، كان وجهها مرآة شديدة

شهرى لا يقل عن الثلاثين جنبها ، حقا أنه ككثير من الأعيان
لا عمل له . وحقا أن حظه من التعليم ضئيل لا يتعدى معرفة
القراءة والكتابة ، ولكنه يتصف بجملة من خلال أبيه في الطيبة
وكرم الأخلاق ، ما عسى أن يفعل ؟ . يجب أن يحسم أمره لأنه
لم يالف التردد ولا الشورى ولا يقبل أن يبدو أمام أهله - ولو
لحظة قصيرة - كمن لا رأى قاطعا له ، الا يشاور خاصته
المقربين ؟ . أنه لا يرى غضاضة في مشاورتهم كلما جد أمر ،
والواقع أن سمرهم يبدأ عادة بمناقشة الهموم والمشاكل قبل أن
تطير بهم الخمر الى الدنيا التي لا تعترف بالهموم والمشاكل ،
ولكنه قدر ما يستبد في باطنه برأيه فلا يحيد عنه ، فهو من الذين
يلتمسون في الشورى ما يؤيد رأيهم لا ما يعدل بهم عنه ، ولكنها
حتى في هذه الحال عزاء ومتنفس ، ولما ضاق الرجل بأفكاره
هتف قائلا :

- من يصدق أن ما بى من هم لا يحتمل ما هو الا نتيجة لخير
أكرمته به الله ؟ !

- ٣٧ -

لم يكن لأمينة من عمل في أيام منفاهها الا الجلوس الى جانب
أمها والاسترسال في الحديث ، في كل ما يخطر على البال من أحاديث
تجاذبها الماضي البعيد والماضى القريب والحاضر ، ما بين الذكريات
العزيرة والمأساة الرهينة ولولا عذاب الفراق وشبح الطلاق
لاطمأنات الى حياتها الجديدة كمطللة للاستجمام من عناء الواجبات
أو كرحلة خيالية ، في عالم الذكريات ، بيد أن مرور الأيام دون
وقوع الشيء الذي تخاف وما بلغها من شفاعة أم مريم وحرم

الحساسية لا تترك كبيرة ولا صغيرة مما في أعماقها الا سحلتها .
لشد ما ودت أن تتلقى النبأ السعيد بهدوء خليق بأمومتها ،
ولكن الفرح استخفها فضحكت أسارىها ونطقت بابتهاج
صبياني ، وفي نفس الوقت تولاهما حياء لم تدرك له سببا . وظال
جمودها في مكانها فنقد صبر كمال فشدها من يدها راميا بثقله
الى الوراء حتى طأوعته ناهضة ، ووقفت قليلا في ارتباك غريب
وما تدري الا وهي تلتفت الى امها متسائلة :

— اذهب يا أمي ؟

بدا السؤال الذي ند عنها في نفقة الارتباك والحياء — غريبا ،
فابتسم فهمي وياسين ، ودهش كمال وحده فيما يشبه الانزعاج
وراح يؤكد لها نبأ العفو الذي جاءوا به ، اما الجدة فقد شعرت
بشعورها كله وحذست باطنها فرق قلبها وتحاشت أن تظهر
الانكار لسؤالها ولو بابتسامة خفيفة ، وقالت بلهجة جدية :

— الى بيتك مصحوبة بسلامة الله .

فذهبت أمينة لترتدي ملأءتها وتصر ثيابها وكمال في أعقابها ،
وهنا خاطبت الجدة الشابين متسائلة بلهجة انتقادية خففتها
بابتسامة رقيقة :

— اما كان الاخلق بأبيكما أن يأتي بنفسه ... ؟!

فأجابها فهمي كالمعتذر قائلا :

— أنت أدري يا جدتي بطبع أبينا ...

على حين قال ياسين ضاحكا :

— فلنحمد الله على ما كان ... !

فهممت الجدة بأصوات غير مفهومة ثم تنهدت قائلة كأنها
ترد على هممتها :

— على أي حال السيد أحمد رجل ولا كل الرجال .

وغادروا البيت ودعاء الجدة لهم بالبركة يتردد في آذانهم ،
وقطعوا الطريق معا لأول مرة في حياتهم حتى بدا المنظر في أعينهم

بالغا في غرابته فتبادل فهمي وياسين نظرات باسمه . وتذكر كمال
يوم سار — كما يسير الآن ممسكا بيد أمه يقودها من عطفة الى
عطفة ، ثم ما تلى ذلك من الام ومخاوف لا يحيط بها الكابوس
نفسه فتعجب طويلا ، بيد أنه تناسى سريعا أحزان الماضي في
فرحة الساعة ، ووجد من نفسه ميلا للدعابة فقال لأمه ضاحكا :

— تعالى نخطف أوجلنا الى سيدنا الحسين ... !

فضحك ياسين بلهجة ذات معنى :

— رضى الله عنه ، أنه شهيد يحب الشهداء .

ولاحظ لهم المشربية وشيخان يتحركان وراء خصاصها فهما
قلب الأم اليهما في حنو واشتياق ، ثم وجدت وراء الباب أم حنفي
في استقبالها فغمرت يدي سيدتها بالقبل ، والتقت في فناء الدار
بخديجة وعائشة اللتين تعلقتا بها كالأطفال ، ورفقا السلم في مظاهرة
صاخبة ، ونشوة من الفرح مطربة حتى استقروا جميعا في حجرتها
فتبادروا الى نزع ملابسها — رمز الفراق البغيض — وهم يضمجون
بالضحك ، فلما جلست بينهم كانت تلهث من الانفعال والتأثر .
وأراد كمال أن يعبر عن فرحه بها فلم يجد خيرا من أن يقول لها :

— هذا اليوم أعز عندي من الحمل نفسه !

واجتمع شمل الأسرة لأول مرة منذ زمن غير يسير في مجلس
القهوة ، فعادوا الى السمر في جو من المصرة ضاعف من بهجته ما سبقه
من أيام فراق وكآبة تزداد لذة اليوم اللذيذ بجيء في أعقاب
اسبوع من الزمهرير ، ولم تنس الأم — التي استيقظت غرائرها
رغم فرحة اللقاء — أن تسأل الفتاتين عن شئون البيت متدرجة من
حجرة الفرن حتى اللبلاب والياسمين ، كما سألت كثيرا عن الأب ،
وكم سرها أن تعلم أنه لم يسمح لأحد بمعاونته عند خلع ملابسها
أو عند ارتدائها ، فمهما يكن من أمر الراحة التي تهيات له في غيابها
فثمة تغيير قد طرأ على نظام حياته حمله بلا ريب عناء سيزول
بعودتها ، عودتها التي تكفل له — وحدها — الحياة التي يالها ويرتاح

اليها ..! الشيء الوحيد الذي لم يخطر لأمنية على بال أن تكون بعض القلوب السعيدة بعودتها قد وجدت في هذه العودة بالذات مبررا لاجترار الحزن والأسى!... ولكن هكذا كان ، فهذه القلوب التي شغلت بحزن الأم عن أحزانها عادت الى التفكير في أشجانها بعد أن اطمأنت على سلامة الأم كالفض الشديد الطارئ نسي به رمدا مزنا حتى اذا ذهب عادتنا آلام الجفون ، عاد فهمي يقول لنفسه « لكل حزن - فيما يبدو - نهاية ، هذه أمي قد رفع عنها الهم ، ولكن حزني يبدو كأن لا نهاية له » ، ورجعت عائشة الى أفكارها التي لا يطلع على سرها أحد ، تتراعى لها الاحلام وتلم بها الذكريات وان عدت بالقياس الى أخيها أهدأ حالا وأسرع الى النسيان خطوة ، ولكن امينة لم تكن تقرأ الأفكار فلم ينقص عليها صفوها منقص ، ولما آوت الى حجرتها ليلا تبين لها أن النوم لا يجد متسعا في نفسها التي أفعمها الفرح فلم تذقه الا لاما حتى انتصف الليل فقادت الفراش الى المشربية تنتظر كعهدا مسرحة البصر من خصائص النوافذ الى الطريق الساهر حتى جاءت العربة تهادي حاملة بعلمها الى بيته . خفق قلبها بشدة ، وتورد وجهها حياء وارتيابا ، كأنها ستلقاه لأول مرة ، وكأنها لم تفكر طويلا في هذه اللحظة .. لحظة اللقاء المنتظر ، كيف تقابله ؟.. كيف يعاملها بعد هذه الغيبة الطويلة ؟.. ما عسى أن تقول له أو يقول لها ؟. لو سمعها أن تتصنع النوم ..! ولكنها لا تجيد التمثيل قط ولا تطيق أن يدخل عليها وهي مستلقية ، بل لا يسمعها أن تهمل واجب الخروج الى السلم بالمصباح لتضيء له ، وأكثر من هذا كله أنها بعد ظفورها بالعودة وزوال السخط عنها - شاعت أريجها الرضا في قلبها فعفت عما سلف بل وحملت نفسها الذنب كله حتى رأت بعلمها - بالرغم من انه لم يكن بالذهاب الى بيت أمها لمصاحتها - حقيقا بالاسترضاء ، فتناولت المصباح ومضت الى السلم ومدت ذراعها من فوق الدرابزين ووقفت تتابع وقع القدمين القترتين

يقوَاد خافق حتى صعد اليها ، لقينه برأس مطاطا فلم تر وجهه عند اللقاء ، ولم تدرك أي تغير طرأ عليه حين مرآها ، حتى سمعته يقول لها بلهجة طبيعية لا أثر فيها من الماضي القريب الأسيف :

- مساء الخير ..

فغمغمت :

- مساء الخير يا سيدي ..

وذهب الى الحجرة وهي في أثره رافعة يدها بالمصباح . وبدأ يخلع ملابسه صامتا فتقدمت منه لمعاونته وباشرت عملها وقلبها يردد أنفاس الراحة . ومع أنها ذكرت صباح القطيعة المشؤم حين نهض لارتداء ملابسه وقال لها بجفاء « سارتدي ملابس بنفسي » الا أن ذكره خطرت عارية عن أحاسيس الألم واليأس التي غشيتها وقتذاك ، وشعرت وهي تتعهد بهذه الخدمة التي لم يسمح بها لسواها بأنها تسترد أعز ما تملك في الوجود . واتخذ مجلسه على الكنبه فتربعت على الشلثة عند قدميه دون أن ينبس أحدهما بكلمة ، وكانت تتوقع أن يشيع «الماضي الأسيف» بكلمة ، نصيحة أو تحذير أو ما شابه ذلك ، وعملت لذلك الف حساب ولكنه سألها ببساطة :

- كيف حال أمك ؟

فأجابته وهي تتنهّد بارتياح :

- بخير يا سيدي وتهديك التحية والدعاء .

ومضت فترة صمت أخرى قبل أن يقول فيما يشبه عدم الاكتراث :

- حرم المرحوم شوكت فاتحتني برغبتها في اختيار عائشة زوجا لخليل ..

فرفعت اليه امينة عينيها في دهشة ناطقة بأثر المفاجأة ، ولكنه هز كتفيه استهانة ، وكأنما خاف أن تدلي برأي يتفق أن يكون

موافقا لقراره الذى لم يعلم به أحد فتقوم عندها شبهة ظن بأنه
أخذ برأيها فسبق قائلا :
- فكرت في الأمر طويلا فأنتهى بى التفكير الى الموافقة ، لا أريد
أن اعترض حظ البنت أكثر مما فعلت ، والله الأمر من قبل ومن
بعد ...

- ٣٨ -

تلقت عائشة البشرى بفرح جدير بفتاة تستشرق حلم الزواج
منذ الصبا الباكر لا يشغلها عنه شافل . وكادت لاتصدق أذنيها
حين زف اليها الخبر ، هل حقا وافق أبوها ؟ هل بات الزواج حقيقة
قريبة لا حلما ذا دعايات قاسية ؟ .. لم تكن قد فات على الخيبة
التي منيت بها الا قرابة أشهر ثلاثة ، ومع أن وقعها في نفسها كان
شديدا قاسيا الا انه مضى يخف ويهون مع الأيام حتى أمسى ذكرى
شاحبة تستثير - اذا استثيرت - حزنا رقيقا غير ذى خطورة ،
كل شيء في هذا البيت يخضع خضوعا أعمى لارادة عليا ذات سيطرة
لا حد لها هي بالسيطرة الدينية أشبه ، حتى الحب نفسه - بين
حدرانها - يسترق خطاه الى القلوب في حياء وتردد وعدم ثقة
بالنفس ، فلا يتمتع بما يتمتع به عادة من سطوة واستبداد ، اذ
لا استبداد هنا الا تلك الارادة العليا ، ولذلك فعندما قال الأب
«لا» استقر قوله في اعماق نفسها وأمنت الفتاة ايمانا راسخا أن
كل شيء قد انتهى حقا ، لا مهرب ولا مراجعة ولا رجاء بنافع ،
كان «لا» هذه حركة كونية كاختلاف الليل والنهار ، غير مجد أى
اعتراض عليها ، ولا محيد عن اتخاذ موقف موافق لها ، وعمل هذا
الايمان من ناحيته - بشعور وبغير شعور منها - على إنهاء كل
شيء فأنتهى . على أنها تساءلت فيما بينها وبين نفسها : اذا كانت
الموافقة على زواجها قد تمت ولما ينقض على الرفض السابق ثلاثة

أشهر فلم تكن من نصيب الشاب الذى هفا الفؤاد اليه ؟ .. الا
ينطوى حظها السعيد نفسه - تبعاً لذلك - على معاكسة غير
مفهومة ؟ يبد أنه تساؤل ظل في طي الكتمان ، لم يطلع عليه أحد
ولا أمها نفسها ، لأن اعلان الفرح بالعريس - كشخصية معنوية
فحسب - عد استهتارا يجافي الحياء ، فما بالك باظهار الرغبة في
رجل بالذات !. ولكن بالرغم من هذا كله ، وبالرغم من أن العريس
الجديد كان مجهولا لديها الا فيما حدثت عنه أمه في جملة حديثها
عن أسرته فقد سعدت بالبشرى أيماء سعادته ، ووجدت عواطفها
الظائمة قطبا تنجذب اليه في هيماتها ، كان حبها نوع من «القابلية»
أكثر منه تعلقا برجل بالذات ، فاذا استبعد رجل وحل محله آخر
ظفرت قابليتها بما يشبعها ، ومضى كل شيء في سبيله ، وقد يكون
رجل أثر عندها من آخر ولكن ليس الى الحد الذى يفسد معه
طعم الحياة أو يدفع الى التمرد والعصيان ، ولما طابت نفسها ورف
قلبها رفيف القطة انبعث منها نحو أختها - كشأنها في مثل هذه
الحال - عطف ورحمة غير مشوبين ، فودت لو أنها سبقتها الى
الزواج ، وقالت لها بين الاعتذار والتشجيع :

- وددت لو تقدمتني الى بيت الزوجية ! .. ولكنها القسمة
والنصيب ، وكل آت قريب .
ولكن خديجة - التي تضيق عند الهزيمة بعزاء العطف -
تلقت قولها بامتعاض شديد لم يخف عليها . وقبل ذلك اعتذرت
لها أمها قائلة برقتها وحياتها المجهولين :

- تمنينا جميعا أن يكون دورك السابق - وعملنا على هذا
أكثر من مرة ، ولكن لعل عنادنا فيما ليس لنا فيه من حيلة هو
الذى عاق حظك الى اليوم ، فلندع الأمور تسير كما يشاء الله ،
وكل تأخير فيها خيرة ..

ووجدت من ياسين وفهمى نفس العطف يدياته تارة بالكلام
المباشر ، وبصدران عنه تارة أخرى فيما يحيطانها به من مجاملة

حلتسولو الى حين - محل المزاج القارص الذي كان مألوفاً بينهما وبينهما أو بينها وبين ياسين خاصة ، الحق انه لم يعدل حزنها على سوء حظها الا نرفزتها من العطف الشائع في جوها لا لتفور من العطف مركب في طبعها ، ولكن لان مثلها مثل المصاب بالانفلونزا يضار بالتعرض للهواء المطلق الذي نعيشه عادة وهو صحيح ، فما كانت تأبه لعطف تعلم انه بديل غير مجد لأمل ضائع ، ولعلها ارتابت الى هذا كله في البواعث التي تدفعهم الى اغداق العطف عليها ، ألم تكن أمها الوسطة دائماً بين الخاطيات وبين أبيها ؟ فمن يدر بها أنها كانت تقوم بالوسطة أداء لواجب ربة البيت لاسعياً وراعفة خفية في تزويج عائشة ؟! أو ليس فهمي هو الذي حمل رسالة ضابط قسم الجمالية ؟! . ألم يكن يوسف ان يعدل به عن رأيه من وراء وراء ؟! .

أو ليس ياسين . . ولكن بأي وجه تلوم ياسين وقد خانها من هو أقرب منه إليها ؟! . فأى عطف هذا ؟! بل أى رياء وأى كذب! لذلك برمت بالعطف ، وذكرت به الإساءة لا الاحسان ، فامتلات حقاً وامتاعاً ولكنها طوتها في الأعماق أن تظهر بمظهر الكارهة لسعادة أختها أو تعرض نفسها - هكذا صور لها سوء ظنها - لشماتة الشامتين ، على أنه لم يكن لها من محبة كتمان عواطفها لان الكتمان في هذه الأسرة - خاصة فيما يتعلق بالعواطف - عادة متأصلة وضرورة أخلاقية طبقت عليه في ظل الارهاب الأبوي ، وبين الحق والامتناع من ناحية والكتمان والتظاهر بالرضى من ناحية أخرى لاقت من حياتها عذاباً متصلاً وجهداً مطرداً . وأبوها ؟! ماذا عدل به عن رأيه القديم ؟! . إهانت عليه بعد اعزازه ؟! . هل نفذ صبره في انتظار زواجها فقرر التضحية بها وتركها للأقدار ؟! لشدما تعجب لتخليهم عنها كأنها شيء لا يكون ؛ نسيت في ثورتها موافقهم السابقة في الدفاع عنها فلم تذكر الا «خيانتهم» الأخيرة ، على أن غضبتها العامة هذه لم تكن شيئاً

بالقياس الى ما تجمع في صدرها نحو عائشة من مشاعر الغيرة والحق ! كرهت سعادتها ، وكرهت أكثر مداراتها لهذه السعادة ، وكرهت جمالها الذي بدا في عينيها أداة تنكيل وتعذيب كما يبدو البدر الساطع في عين المطارد ، ثم كرهت الحياة التي لم تعد تدخر لها الا اليأس ، وتتابعت الأيام لتزيدها حزناً على حزن بما حملت الى البيت من هدايا العريس ونفحاته وبما نشرت في الجو كله من بواعث الغبطة والفرح فوجدت نفسها في غربة موحشة تتوالد فيها الأشجان كما تتوالد الحشرات في البركة الأسنة ، ثم شرع السيد في تجهيز العروس فاستأجر حديث الجهاز بجلسات الأسرة المسائية ، تعرض عليها أنواع من الأثاث والثياب فتطرى شيئاً وتعرض عن شيء ، توازن بين لون ولون ، في اهتمام نسوا فيه الشقيقة الكبرى وما يجب لها من عزاء ومجاملة ، وحتى هى نفسها اضطرت - مجارة لما تتظاهر به من رضى - الى المشاركة في نشاطهم وحاسهم ومناقشاتهم التي لا تنتهى . بيد أن هذا الموقف العاطفي المعقد ، الذي يبدو لعين الغريب عن الأسرة كنذير شر لا تحمد عواقبه ، تغير فجأة حين اتجه التفكير الى تفصيل ثياب العروس ، وبالتالي حين تعلقت الأبصار بخديجة وتركز فيها الاهتمام كله والأمل كله . وقد توقعت هذا الواجب كامر لا مفر منه ، يحقها قبوله أشد الحقن ولا يسعها رفضه والا فضحت خبيثتها ، ولكنها ، حين تطلعت اليها الأبصار فأوصتها أمها بأختها خيراً ورنّت اليها شقيقتها بعين ملؤها الحياء والرجاء وقال فهمي لعائشة على مسمع منها : « لن تكوني عروساً حقاً حتى تحيلك لك خديجة ثياب العرس » ، وقال ياسين معلقاً على قوله : « صدقت . . هذه الحقيقة فوق الجدل » ، حين حدث هذا كله فتر حنقها وعقل ثورتها الحياء فطفت عواطفها الطيبة المطمورة ، كما يستخرج الماء العذب الأخضر من البذور الكامنة تحت الطين ، ولم ترتب في بواعث هذا الاهتمام كما ارتابت من قبل في بواعث العطف « الزائف » لشعورها بصدقه

من ناحية ولأنه اتجه الى براعتها التي لا شك فيها من ناحية أخرى . فكانه اعتراف جامع بأهميتها وخطورة شأنها ، وبأن هذه السعادة - التي أبت أن تكون من نصيبها - لن تستكمل عناصرها حتى تسهم هي فيها ، فاستقبلت العمل الجديد بنفس تحفقت الى أقصى حد ممكن من انفعالاتها السوداء ، أن الانفعالات السوداء تلم بأنفس هذه الأسرة كما تلم بفالبيه البشر ولكنها لا تظهر منها بقلب أسود فترسب فيه وتستقر ، منهم من قابليته للغضب كقابلية الكحول للاشتعال ، ولكن سرعان ما يسكت عنهم الغضب فتصفو نفوسهم وتعفو قلوبهم كأيام من شتاء مصر يظلم سحابها حتى تمطر رذاذا وما هي الا ساعة أو بعض ساعة حتى تنقشع السحب عن زرقة صافية وشمس ضاحكة ، لا يعني هذا أن خديجة نسيت أحزانها ولكن السماح صفتها من الصعينة والحد ، ويوما فيوما لم تعد تعتب على عائشة ولا على أحد من أهلها بقدر ما عتبت على بختها حتى نصبت في النهاية هدفا لامتصاصها وتدميرها ، ذلك البخت الذي قتر عليها في الحسن وأجل زواجها حتى جاوزت العشرين وكدر غدها بالقلق والخاوف ، وأستسلمت أخيرا - كأمها - للمقادير . عجز جانبها الحامي الموروث عن أبيها ، كما عجز جانبها المعقد المكتسب من موقفها حيال بيتها ، عن معالجة حظها العاثر ، فوجدت السلامة في أن تلوذ بالجانب السلمي الموروث عن أمها فاستسلمت للمقادير . كالفائد الذي تعبى الحيل عن بلوغ الهدف فيختار موقعا ذا خصانة طبيعية ليثبت فيه قلوله ، أو يدعو الى الصلح والسلام ، وراحت تشكو بثها في الصلاة ومناجاة الرحمن ، والحق أنها كانت - منذ صباها - تجارى أمها في تدنيتها ومحافظتها على الفرائض بمثابة دلت على يقظة عاطفتها الدينية ، لا كمأثرة التي تلم بالعبادة في نوبات حماسية متباعدة ولا تطبيق الدأومة عليها ، وطالما تعجبت خديجة - وهى بمعرض المقارنة بين حظها وبين حظ أختها - من سوء الجزاء الذى تثاب به على إخلاصها ،

شخصيا
12/12
م

وحسن الجزاء الذى تثاب به الأخرى على تهاونها . . « انى احافظ على الصلاة اما هي فلم تطق الحافظه عليها يومين متتالين ، وانى اصوم رمضان كله واما هي فتصوم يوما او يومين ثم تتظاهر بالصوم على حين تنسل خفيه الى المخزن فتملا بطنها بالنقل حتى اذا اطلق مدفع الافطار هرعته الى المائدة قبل الصائمين ! » . . وحتى من ناحية الجمال لم تسلم لعائشة بدون قيد ولا شرط ، نعم انها لم تجهر برأيها لأحد ، بل لعلها تؤثر كثيرا أن تهاجم نفسها بنفسها لتقطع الطريق على المتحيزين ولكنها كانت تطيل النظر الى وجهها في المرآة وتناجى نفسها قائلة : « عائشة جميلة بلا شك ولكنها نحيلة ، السمانة نصف الجمال ، أنا سمينة ، واكتناز وجهى يكاد يغطى على كبر أنفى ، لم يبق الا أن شدد بختى حيله . » على أنها فقدت ثقتها بنفسها في الأزمنة الأخيرة ، ومع أنها عاودت كثيرا تلك المناجاة عن الجمال والسمانة والبخت الا انها عاودتها هذه المرة لتدري - امام نفسها - احساسها المقلق بعدم الثقة كما تلجأ أحيانا الى المنطق لنستمد منه الطمأنينة على أمور - كالصحة والمرض والسعادة والشقاء والحب والكراهية - لا تمت الى المنطق بسبب . . ولم تنس أمينة - رغم كثرة مشاغلها كأم العروس - خديجة ، أو أن فرحها للعروس كان يذكرها بعزنها على أختها كما تذكرنا الراحة التي نحظى بها بفعل مخدر بالآلم الذى سيعاودنا بعد حين ، وكان زواج عائشة قد أثار مخاوفها القديمة عن خديجة فأرسلت - التماسا للطمأنينة من أى سبيل - أم حنفى الى الشيخ رعوف بالباب الأخضر حاملة منديل خديجة ليقرأ طالعها ، وعادت المرأة بنوع من البشرى فقالت لسيدتها ان الشيخ قال لها « ستحملين الى رطلين من السكر عما قريب » ومع أنها لم تكن أول بشرى من هذا النوع ترف إليها عن خديجة الا انها أملت خيرا ورحبت بها كمسكن للقلق الذى لا يراها .

« ألم يئن الأوان يا بنت المركوب ؟! ذبت يا مسلمين ، ذبت كالصابونة ولم يبق منها إلا رغوة ، هي تعلم بهذا ولا تريد أن تفتح النافذة ، تدللى .. تدللى يا بنت المركوب ، ألم نتفق على هذا الميعاد ؟ ولكن لك حق .. فردة ثدى من صدرك تكفى لخراب مألظة .. وفردة آلية تطير مخ هندبرج ، عندك كنز ، ربنا يلطف بى ، ربنا يلطف بى وبكل مسكين مثلى يؤرقه الثدى الناهد والعجيزة المملجة والعين المكحولة ، العين المكحولة في الآخر ، أذ رب ضريبة ربا الروادف كاعب الثديين خير ألف مرة من عجفاء مسحاء مكحولة العينين ، يا بنت العالة وجارة التريبعة .. تلك لقنتك أصول الدلال وهذه تملك بأسرار الجمال ، لهذا ينهد ثدياك من كثرة من عبت بهما من العشاق ، اتفقنا على الميعاد لست أحلم ، افتحى النافذة ، افتحى يا بنت المركوب ، افتحى يا أجمل من اقشعرت لها سرتى ، ومض الشفة ورضع الحلمة لانتظرن حتى مطلع الفجر ، ستجدينى طوع بنائك ، ان أردت ان اكون مؤخر عربة الكارو التى تتأرجحين عليه اكته ، ان أردت ان اكون الحمار الذى يجز العربى اكته ، يا واقعتك يا ياسين ، يا خراب بيتك يا بن عبد الجواد ، يا شماتة الاستراليين فيك يا انا يا طريد الأزبكية وجببس الجمالية ، الحرب يا هوه ، شها غليوم في اوربا ورحت ضحيتها انا في النحاسين ، افتحى النافذة يا روح أمك ، افتحى يا روحى انا .. » هكذا جعل ياسين يحادث نفسه وهو جالس على الأريكة بقهوة سى على ، وعيناه تتطلعان الى بيت زينة العالة خلل الكوة المظلة على الفورية ، كلما شكه الجزع غرق في

احلامه وخواطره فترفه جزعه وتهيج اشواقه معا ، كبعض المنومات الطبية التى تعالج الأرق وتنعب القلب ، كان قد تقدم خطوة مرفقة في مغزلة زنوبة العوادة مغزلة خرج بها من دور التحضير - ملازمة قهوة سى على مساء والنظر والسير وراء عربة الكارو والابتسام وقتل الشارب وتلعيب الحاجب - الى دور المفاوضة والتأهب للعمل ، حدث ذلك في عطفة التريبعة الطويلة الضيقة المسقوفة بالخيش المتوية ذات الدكاكين الصغيرة المتلاصقة على الجانبين كخلايا النحل . ولم تكن التريبعة بالجديدة عليه ، كيف وهى سوق النسوان من جميع الطبقات يتقاطرن عليها لابتياح ما خف حمله وجلت فوائده من مختلف صنوف العطارة ذوات البهجة والجمال والنفع ، فهى هدفه كلما خلا طريقه من هدف يجذبه اليه ، وهى مراحه صباح الجمعة يقطعها متمهلا - بحكم الرحمة والرغبة معا - من طرف الى طرف كأنما يستعرض الدكاكين لانتقاء حاجة وهو في الحقيقة يتصفح الوجوه والأجسام ما تنحسر عنه البراقع وما تضيق به الملائات ، ما يرى جملة وما يرى تفصيلا ، ما يسطع هنا وهناك من روائح زكية ، ما يند من حين لآخر من أضواء أو يوسوس من ضحكات ، ملتزما عادة حدود الأدب لغلبة العناصر الطبية على الزائرات ، قائما بالمشاهدة والموازنة والنقد ، لاقطا من الرئيات صوراً ممتازة يزين بها متحف ذاكرته ، فلا يفوق سعادته اذا ظفر بلون بشرة صاف لم يره من قبل ، أو يلحظ عين لم يتعرض لمثله ، أو لثدى عجيب في نهوده ، أو لعجيزة خرقت المألوف في ضخامتها أو حسن تكوينها فيرجع مرة وهو يقول : « فاز بالسبق اليوم نهد الست التى كانت واقفة امام الدكان القلانى » أو « هذا يوم الكفل الرايى رقم ٥ » أو « يا لها من حقيبة وبالها من حقيبة .. هذا يوم الحقائق المشرقة » اذ نادى به مزاجه الى التهاك على جسم المرأة متجاهلا شخصيتها ثم الى تركيز العناية في اجزاء من الجسم متجاهلا جملة ، وكأنه في هذا

كله ينعش آماله ويجدها أبدا كرجل لا يقدم على النسوان غاية في دنياه - عند الفرص المحتملة المدخرة ليوم أو لعد ، الى مايسنح له في هذه الجولات الجنسية من صيد طيب في أحوال نادرة ، ففي ذات اصيل - وهو بمجلسه تحت الكوة بقهوة سى على - رأى العوادة تغادر البيت بمفردها فنهض من توه وتبعها ، ومالت الى عطفة التريبعة فمال وراءها ، ثم رقت امام دكان فوقف الى جانبها ، وانتظرت حتى يفرغ العطار من بعض الزبائن فانتظر ولم تلتفت ناحيته فاستدل بذلك « التجاهل » على أنها فطنت لوجوده - كما لا بد أن تكون حدثت متابعتة لها من بادى الأمر - فهمس قريبا من أذنها « مساء الخير » فواصلت النظر الى الامام الا انه لمح بجانب فيها انحراف ابتسامة ردا لتحيته ، او مكافاة له على طول متابعتة لها مساء بعد مساء ، فتنهد تنهد الراحة والظفر مطمئا الى جنى ثمرة صبره فسأل لعاب شهوته كما يتحلب ريق الجائع التهم اذا تطايرت الى أنفه رائحة الشواء الذى يهيأ له ورأى عن حكمة أن يتظاهر بأنهما جاءا معا فأدى ثمن مشترياتها من الحناء والمفات عن طيب خاطر خليق برجل يؤمن بأنه - بأداء هذا الواجب اللذيذ - يكتسب حقا الدوامت ، غير مكترث لما بدا منها من الميل الى الاكثار من المشتريات حين اطمانت الى أنه سيدفع الثمن . وفي طريق العودة قال لها بعجلة من يخاف وشك انتهاء الطريق « يا ست الحسن والجمال قضيت العمر كما تشهدين وراءك ، وجزاء الحب اللقاء فقط ؟ » فلحظته بنظرة شيطنة متسائلة في تهكم « اللقاء فقط ؟ » فكاد بضحك بروحه وجسمه كحاله اذا أخذته نشوة فرح ولكنه بادر الى أحكام اغلاق فيه أن يحدث ضجة تلفت الانتظار واجابها هامسا « اللقاء ولوازمه ! » فقالت بلهجة انتقادية « الواحد منكم يطلب بكل بساطة « اللقاء » .. كلمة صغيرة .. ولكنه يعنى بها عملا ضخما لا ينال عند بعض الناس الا بالسؤال والشفاعة وقراءة الفاتحة والمهر والجهاز

والمأذون ، اليس كذلك يا حضرة الافندى الذى يضاهى الجميل طولا وعرضا ؟ » فتورد وجهه فيما يشبه الارتباك وقال « ياله من تأديب مهما يكن من قسوته فانه من شفتيك كالتشهد ، اليس هكذا العشق يا ست الحسن مذ خلق الله الأرض ومن عليها ؟ » فقالت وهى ترفع حاجبيها حتى حاذيا طرف عروس البرقع فبدت اكيسوب باسط جناحيه « ومن أدرانى بالعشق يا جلى ؟ . لست الا عوادة ، ترى هل للعشق لوازم أيضا ؟ » فقال وهو يقالب الضحك « هى ولوازم اللقاء شيء واحد » « بلا زيادة ولا نقصان ؟ » « لا زيادة ولا نقصان » « لا واحدة طالعة ولا واحدة نازلة ؟ » « لا واحدة طالعة ولا واحدة نازلة » « لعلها التى يسمونها الزنا ؟ » « بلحمه وعظمه ! » فندت عنها ضحكة ثم قالت « اتفقنا .. » انتظر حيث تنتظر كل مساء بمقهوة سى على وعندما افتح النافذة قم الى البيت . انتظر مساء ومساء ومساء ، مساء خرجت مع الجوقة على الكارو ، ومساء ذهبت مع العالة فى حانطور ، ومساء لم يبد على البيت اثر للحياة ، وها هو ينتظر وقد أعيا اعصاب رأسه طول النظر الى الشباك . ومرو موهن من الليل فأغلقت الدكاكين وأقفر الطريق وشمل الفورية ظلام ، ووجد - كما يقع له كثيرا - فى اقفر الطريق وظلامه ماثرا غريبا لمكمن الشهوة فى جسده فازداد جزعا على جزع . بيد أنه لكل شيء نهاية حتى الانتظار الذى يبدو وكأن لا نهاية له فترامى اليه من ناحية الشباك الغارق فى الظلمة طقطقة تفخت فى حواسه روح أمل جديد كما تنبعث روح الامل فى نفس التائه فى القطب اذا ترامى الى سمعه أزيز الطائرة التى يتحدث أنها جاءت للبحث عنه بين الثلوج ، ولاحت فرجة يشع منها ضوء ، ثم تنور شيخ العوادة وسط الفرجة فقام من فورهِ وغادر القهوة عابرا الطريق الى بيت العالة ودق الباب دون أن يطرقة فانفتح كأن يدا رفعت مزلاجه فمرق الى الداخل ليجد نفسه فى ظلمة دامسة لم يهتد معها الى موقع

السلام فلزم موقفه ليأمن الاصطدام أو العثار ووثب إلى رأسه سؤال لا يخلو من قلق ، ترى أدعته زنوبة على غير علم من العالمة؟ وهل تبيح لها العالمة الاجتماع بعشاقها في بيتها؟ ولكنه أبرز لسانه استهانة لأن رادعا لم يكن ليثنيه عن مغامرة ، ولأن ضبط عاشق في بيت تقوم جدرانها على مهج العاشقين ليس مما تحاذر عواقبه . وانقطع عن التفكير حين لاح لعينه ضوء شاحب يهبط من أعلى ، ثم لمح به يترنح على الجدران التي وضحت رويدا فتبين موقفه على بعد ذراع من أولى درجات السلم عن يمينه ، وما علم أن رأى زنوبة قادمة ويدها مصباح فمضى نحوها في سكرة من الشوق وضغط في حنان على ساعدها امتنانا ورغبة حتى ضحكت ضحكة رقيقة أوحى على رقتها بأنها لا تحاذر ، وتساءلت بمكر :

- طال انتظارك ؟

فمس سؤاليه بأنامله وهو يقول بصوت شاك :

- شاب شعري الله يسامحك (ثم بصوت خافت) الست هنا؟

فحاكت صوته الخافت على سبيل المزاح وقالت :

- نعم... في خلوة مع رفيق. قد الدنيا ..

- ألا تفضب اذا علمت بحضورى في هذه الساعة ؟

فاستدارت وهي تهز منكبيها استهانة وورقت الدرج وهي

تقول :

- وهل أنسب من هذه الساعة لحضور عاشق مثلك ؟

- اذن لا ترى بأسا في اجتماعنا ببيتها ؟

فحركت رأسها حركة راقصة وقالت :

- لعلها ترى كل البأس في عدم اجتماعنا ..!

- عاشت .. عاشت ..

فاستطردت في لهجة تنم عن الفخر قائلة :

- لست عوادة فحسب ، أنا بنت اختها ، وهي لا تضن على

بغال .. تقدم بسلام ..

ولما بلغا الدهلز جاءهما من الداخل صوت غناء لطيف يصاحبه عود ودف فانصت ياسين قليلا ثم تساءل :

- خلوة أم حفلة ؟

فهمست في أذنه :

- خلوة وحفلة معا ، عشيق السلطنة رجل صاحب طرب

ومزاج ، لا يطيق أن يخلو مجلسه ساعة من العود والدف والكاس والضحك .. وعقبى لك ..

ومالت إلى باب ففتحته ودخلت وهو وراءها ، ووضعت

المصباح على كنصول ثم وقفت أمام المرأة لتلقى نظرة فاحصة على

صورتها فتناسى ياسين زبيدة وعشيقها الطروب وسدد عينيه

النهموتين إلى الجسم المشتبه الذي بدا لناظريه متجردا عن

الملاءة لأول مرة سددهما بقوة وتركيز وحركتهما في أناة وتلذذ من

فوق لتحت ومن تحت لفوق ، ولكنه تبسّل أن ينفذ نية من

عشرات التوايا التي اعتلجت في صدره قالت زنوبة كأنما تصل

ما انقطع من حديثها :

- رجل لا نظير له في لطفه وطربه ، أما كرمه فحدث عنه من

اليوم إلى الغد .. هكذا يكون العشاق والا فلا ..

لم يغب عنه ما في اشارتها إلى « كرم » عشيق العالمة من معان ،

ومع أنه سلم من بادىء الأمر بأن غرامه الجديد سيفرض عليه

ضرائب باهظة الا أن تلميحها - الذي بدا له مبتذلا - ضائقه ،

فلم يسعه الا أن يقول مدفوعا بغريزة الدفاع عن النفس :

- لعله رجل واسع الشراء !

فقالت وكأنها تحجبه على مناورته :

- الشراء شيء والكرم شيء آخر .. رب ثرى بخيل ..!

فتساءل لا عن رغبة في المعرفة ولكن تفاديا من الصمت الذي

خاف أن يفضح استيائه :

- ترى من يكون هذا الرجل الكريم ؟

فقالته وهي تدبر عجلة الصباح لترفع فتيلته :
- أنه من حيننا ولا بد أنك تسمع عنه .. السيد أحمد
عبد الجواد ..
- من ... !

فالتفتت نحوه دهشة لترى ما أفزعها فالفته متصلب القامة
جا حظ العينين فسألته مستنكرة :
- مالك ؟ ..

كان تلقى الاسم الذي نطقت به كأنه مطرقة هوت بعنف على
يا فوخه فند عنه التساؤل في نبرات صارخة من الفزع وهو
لا يدري : وغاب عما حوله لحظات سليئة بالذهول ، ثم تراءى له
وجه زنوبة في حالة من الدهشة والانكار فخاف افتضاح أمره
وركز ارادته كلها في الدفاع عن موقفه فعمد الى التمثيل يدارى به
فزعها فضرب كفا بكف كأنما لا يصدق ما قيل عن الرجل لظنه
الوقار به وتمتم مستغربا :

- السيد أحمد عبد الجواد ! .. صاحب دكان النحاسين ؟
فجدجته بنظرة انتقاد مر لازعاجها بلا سبب وسألته
مستهزئة :

- نعم هو .. فماذا استصرحك كأنك عذراء تفض بكارتها ؟
فضحك ضحكة آلية وقال كالدهش وهو يحمد الله في سره
على أنه لم يذكر لها اسمه كاملا يوم التعارف :

- من يصدق عن هذا الرجل الوقور الورع ؟
فرمته بنظرة ارتياب ثم قالت ساخرة :

- أهذا ما أفزعك حقا ؟ .. ولا شيء غيره ؟ .. اظننته من
المعصومين .. وماذا عليه من هذا ؟ .. هل يكمل الرجل الا
بالعشق ؟ !
وقال بلهجة المعتلر :

- صدقت .. لا شيء يستحق الدهش في هذه الدنيا (ثم

ضاحكا في عصبية) تصورى هذا الرجل الوقور وهو يطارح
السلطانة الغرام وشرب الخمر ويطرب للقاء ... !
فقالته وكأنها تكمل حديثه بنفس لهجتها الساخرة :

- ويلعب بالدف بيد ولا يد عيوشة الدقافة وينثر النكات
كالدرر فيقتل من حوله ضحكا ، وليس عجبا - بعد هذا كله -
أن يرى في دكانه مثالا للجد والوقار فالجد جد واللهو لهو ،
وساعة لربك ، وساعة لقلبك ..

يلعب بالدف بيد ولا يد عيوشة الدقافة ! .. ينثر النكات
فيقتل من حوله ضحكا ! .. من عسى أن يكون هذا الرجل ؟
ابوه ؟ .. السيد أحمد عبد الجواد ؟ .. الصارم الجبار
الرهيب التقى الورع ؟ .. الذي يقتل من حوله رعبا ؟ ..

كيف يصدق ما سمعت إذناء ؟ .. كيف ، كيف ؟ .. ألا يكون
ثمة تشابه في الأسماء والألاقة بين أبيه وبين هذا العاشق
الدقاف ؟ .. ولكن زنوبة وافقت على أنه صاحب دكان « النحاسين »
وليس في النحاسين من دكان تحمل هذا الاسم الا دكان أبيه ! ..
رباه هل ما سمعه حقيقة أو أنه يهذى ؟ .. لشدة ما يود أن يطلع
على الحقيقة بنفسه ، أن يرى بعينه دون وسيط ، رغبة تملكته
لحظئذ فبدأ تحقيقها كأخطر شيء في الحياة ولم يستطع لها
مقاومة فابتسم الى الفتاة وهو يهز رأسه هزة حكيم كأنما يقول
« يا لها من أيام كلها عجائب » ثم سألها بلهجة من يدفعه حب
الاستطلاع وحده :

- ألا أستطيع أن أراه من حيث لا يرانى ؟
فقالته معترضة :
- أمرك عجيب ، وما الدامى الى هذا التجسس !
فقال برجاء :

- منظر يستحق المشاهدة فلا حرمتنى منه ! ..
فضحكت باستهانة وقالت :

- عقل طفل في جسم حمل ، اليس كذلك يا جملي ؟ ..
 ولكن لا عاش من خيب لك رجاء .. انزو في الدهليز وسادخل
 عليهما بطبق من الفاكهة تاركة الباب مفتوحا حتى ارجع ..
 وغادرت الحجرة فتبعها على الأثر بفؤاد خافق وانزوى في ركن
 من الدهليز المظلم على حين تابعت العوادة سيرها الى المطبخ ، وبعد
 قليل عادت حاملة طبقا من العنب فاتجهت الى الباب الذي ينبعث
 منه الفناء فنقرت عليه ، وانتظرت دقيقة ثم دفعته ودخلت دون
 أن تغلقه ورائها ، هناك بدا مجلس الطرب في صدر الحجرة تتوسطه
 زبيدة محتضنة العود وهي تلمب بالآوتار بأناملها وتغنى « يا مسلمين
 يا أهل الله » وعلى كئيب منها جلس « أبوه » دون غيره - وقد
 أشتد خفقان قلبه لدى رؤيته - متجردا من جيبته مشمرا عن
 ساعديه راعشا الدف بين يديه متطلعا الى العالة بوجه يقطر بشاشة
 وبشرا . لم يلبث الباب مفتوحا الا ريثما رجعت زنوبة ، دقيقة
 أو دقيقتين ، ولكنه رأى فيهما منظرا عجبا ، حياة غامضة ، قصة
 طويلة عريضة ، استيقظ في أعقابها كالذي يستيقظ من نوم طويل
 عميق على قلقله زلزال عتيق ، رأى في دقيقتين عمرا كاملا متخلصا
 في صورة كمن يرى في حلم هنيهة صورة جامعة لاحداث شتى
 يستغرق وقوعها في عالم الحقيقة أعواما طويلة ، رأى أباه حقا ،
 أباه دون غيره من البشر ، ولكن لا كما تعود أن يراه ، فلم يسبق له
 أن رآه متجردا من جيبته في جلسة مريحة مناسبة مع سجيته ،
 ولا رأى شعره الفاحم نائر الأطراف كأنما جاء يعدو حاسر الرأس ،
 ولا رأى ساقه العارية كما لاحت على حافة الديوان تحت ذيل
 القفطان المنحسر . ولا رأى - أي والله - الدف بين يديه يرعش
 باعنا شخشيخته الراقصة المتقطعة بالنقر الرشيق ، ولا رأى
 - ولعله أعجب ما رأى - هذا الوجه الضاحك المتألق الريان بالود
 والصفاء الذي أذهله كما ذهبل كمال من قبل حين رآه يضحك أمام
 الدكان يوم قصده مدفوعا برغبته في الإفراج عن أمه ، رأى هذا

كله في دقيقتين ولما أغلقت زنوبة الباب وعادت الى حجرتها لبث
 بموقفه يستمع الى الفناء وشخشة الدف برأس دائر ، نفس
 الصوت الذي استمع اليه حال دخوله البيت ، ولكن أي تغير
 اعتور الأثر الذي ينطبع منه على نفسه ، أي معان وصور جديدة
 ينقلها الآن الى وجدانه ! كرنين جرس المدرسة يهش له الطفل
 اذا سمعه وهو غريب عنها وينقلب في أذنيه نذير لمناعب جمة اذا
 سمعه وهو ضمن تلاميذها . ونقرت زنوبة على الحجرة كأنما
 تدعوه ليلحق بها فافاق من غيبوبته ومضى اليها وهو يحاول أن
 يتمالك نفسه كيلا يبدو أمامها مضطربا أو ذاهلا فدخل وعلى
 شففيه ابتسامة عريضة ..

- هل أنساك نفسك ما رأيت ؟
 فقال بلهجة تشي بالرضا والارتياح :
 - منظر نادر ، وغناء بديع ..
 - اتحب أن تفعل مثلهما ؟
 - في ليلتنا الأولى ؟ .. كلا .. لا أحب أن اخطئ بك شيئا
 آخر ولو كان الفناء نفسه .. !
 ولئن تكلف بادئ الأمر الحديث ليدو أمامها - وأمام نفسه
 على السواء - هادئا طبيعيا فقد انتهى الى الانهماك فيه بلا تكلف
 ثم الى استرداد حاله الطبيعية بأسرع مما قلر ، كالذي يتصنع
 هيئة الباكي في ماتم فينخرط في البكاء . على أنه ربما عاودته
 الدهشة فجأة فيقول لنفسه « أعجب بها من حال لم تخطر لى على
 بال من قبل ، أنا هنا مع زنوبة وأبى في الحجرة القريبة مع زبيدة ،
 كلانا في بيت واحد ! » ولكنه سرعان ما بهز كتفيه ويستطرد في
 حديثه مع نفسه « كيف أحمل نفسي مشقة العجب لوقوع شيء
 باعتباره بعيدا عن التصديق ما دمت ألمسه واقعا ! .. انه هناك
 فمن السخف أن اتساءل ذاهلا هل يمكن تصديق هذا .. فلا صدق
 ولا اتعجب .. وماذا عليه من هذا ! » ولم يشعر الى تفكيره بارتياح

فحسب ولكنه فرح فرحة فاقت كل تقدير ، لا لانه كان بحاجة الى مشجع ليواصل حياته الشهوية ، ولكن لانه - كاكثريه الفارقين في الشهوات المحرمة - يستأنس الى الشبيه ، فكيف ان وجده في شخص أبيه - القدوة التقليدية - الذى طالما أزعجه ، بشعور وبلا شعور منه ، أن يجد نفسه وإياه على طرفي نقيض . تناسى كل شيء الا فرحته ، كأنها أعز ما ظفر به في حياته ، وشعر نحو أبيه بحب واعجاب جديدين - غير الحب والاعجاب اللذين اكتسبهما قديما تحت ستار كثيف من الاجلال والخوف . حب واعجاب ينبعان من أعماق النفس ويختطان بجذورها الأولى ، بل كأنهما وحب الذات والاعجاب بها شيء واحد ، لم يعد الرجل بعيدا عزيز المنال مغلق الأبواب ولكن دانيا قريبا ، قطعة من نفسه وقلبه ، أبا وابنا ، روحا واحدا ، ليس الرجل الذى يرعش الدف في الداخل السيد أحمد عبد الجواد ولكنه ياسين نفسه ، كما يكون وكما يجب ان يكون ، وكما ينبغى أن يكون ، لا يفرق بينهما الا اعتبارات ثانوية من العمر والتجربة « هنيئا لك يا والدى ، اليوم اكتشفتك » اليوم عيد ميلادك في نفسى ، ياله من يوم ويا لك من أب لم يكن قبل الليلة الا يتيما ، اشرب والعب بالدف لعبا ، ولا يد عيوشة الدفافة ، انى فخور بك ، هل تغنى أيضا يا ترى ؟ .. » .

- ألا يغنى السيد عبد الجواد أحيانا ؟ ..

- ألا زال فكرك مشغولا به ؟ يا ويل الناس من الناس ! ..

بل يغنى أحيانا يا جملى .. يشترك في الهنك اذا سكر ..

- وكيف صوته ؟

- غليظ جميل كعنفه ..

« الى هذا الاصل ترجع الأصوات التى تغنى في بيتنا ، الجميع يغنون ، أسرة غريقة في الطرب ، ليتنى أسمعك ولو مرة ، لا أحفظ لك في ذاكرتى الا الزعق والنهر ، غنوتك الوخيدة المشهورة بيتنا

« يا ولد - يا ثور - يابن الكلب » أريد أن أسمع منك « الوداد في الملاح صدف » أو « حبيبت جميل » كيف تسكر يا أبى ؟ كيف تعربد ؟ ينبغى أن أعرف لأحتذى مثالك وأحيى تقاليدك ، كيف تعشق ؟ كيف تعانق ؟ .. »

وانتبه الى زنوبة فراها أمام المرأة وهى تسوى أهذاب شعرها بأناملها وقد لاح أبطها من فرجة الفستان أملس ناصعا يتصل منحدره بأصل نهد كقرصة العجين فسرت في بدنه سكرة الهياج وانقض عليها كأنه فيل ينقض على غزال ..

- ٤٠ -

وقفت ثلاث سيارات تطوع بتقديمها بعض الأصدقاء أمام بيت السيد أحمد في انتظار العروس وحاشيتها لحملهن الى بيت آل شوكت بالسكرية ، كان الوقت أصيلا وقد انحصرت أشعة شمس الصيف المائلة عن الطريق واستقرت على البيوت المواجهة لبيت العروس ، ولم تكن ثمة مظاهر تدل على عرس ، اللهم الا الورود التى أزينت بها أولى السيارات الثلاث فلفتت أنظار أصحاب الدكاكين القريبة وكثير من المارة ، ومن قبل ذلك اليوم تمت الخطبة ووردت الهدايا وتقل الجهاز وعقد القران فلم تنطلق من البيت زغرودة أو تعلق ببابه زينة أو تشى بما يدور داخله علامة من علامات الأفراح المألوفة التى تفاخر الأسر بإعلانها ، في أمثال هذه المناسبات وتعمل بسوانحها لتفصح عن مكنون حنينها للمسرة بالفناء والرقص والزغاريد ، تم كل شيء في صمت وهدوء فلم يدر به الا الاقارب والأصدقاء وخاصة الجيران ، وأبى السيد أن يترحزح عن تزمته أو أن يسمح لأحد من آل بيته بأن يترحزح عنه ولو ساعة

واحدة ، وفي ظل هذا الجو الصامت غادرت العروس والمصحات البيت رغم احتجاج أم حنفي على الخرجة الصامتة ، فمرقت عائشة إلى السيارة في سرعة خاطفة كأنما تخاف أن يشتعل فستان العرس أو قناعه الحرير الأبيض الموشى بالفل والياسمين تحت نظرات المتطلعين ، وتبعتها خديجة ومريم وبعض الفتيات ، واستقلت الأم وبعض النسوة من الأهل والجارات السيارتين الأخريين ، على حين اتخذ كمال مجلسه إلى جانب سائق سيارة العروس ، ورغبت الأم في أن يمضي الركب إلى العسكرية عن طريق الحسين لتلقى نظرة جديدة على مقامه الذي كلفها الشوق إليه قبل ذلك غالبا ولتستوهب صاحب المقام البركة لعروسها الحسنة ، فاخرقت السيارات الطرق التي قطعتها هي ذلك اليوم مع كمال ، ثم مالت إلى الفورية عند المنعطف الذي كادت تلتقي فيه حنفيها حتى وقفت بهن عند بوابة المتولي أمام مدخل العسكرية الذي يضيق عن دخول السيارات ، وترجلن جميعا ودخلن العطفة فطالعتهن معالم الزينات وهرع اليهن غلمان الحارة هاتفين وتعالن الزغاريد من بيت آل شوكت ، أول بيت إلى يمين الداخل - حيث ازدحمت نوافذه برعوس المظلات المزغردات ، ووقف عند مدخله العريس خليل شوكت وشقيقه إبراهيم شوكت وباسين وفهمي ، وتقدم خليل مبتسما من العروس ومنحها ساعده فارتبكت ولم تبد حراكا حتى بادرت مريم إلى يدها فشبكتها بساعده ، ثم سار بها إلى الداخل مارا بحذاء الفناء المزدهم والورد والملبس ينهال على أقدامها وعلى أقدام من تبعنها من حاشية العروس حتى واراهن باب الحريم ، ومع أن قرآن عائشة بخليل تم قبل ذلك اليوم بشهر أو أكثر إلا أن منظر اشتباكهما وسيرهما معا لاقى من ياسين وفهمي - والآخر خاصة - دهشة مقرونة بالحياء وشعورا بالانكار أشبه كان جو أسرتهما لا يهضم حتى طقوس حفلات الزفاف المشروعة ، وبدا هذا الأثر بصورة أوضح عند كمال الذي جعل يجذب أمه من يدها في انزعاج وهو يشير إلى العروسين

الذين يتقدمان الجميع على السلام كأنه يستعديها على دفع شر فظيع ، وخطر للشابين أن يسترقا النظر إلى وجه أبيهما ليريا أي أثر تركه ذلك المنظر الفريد ، فشملا المكان بنظرة سريعة ولكنهما لم يقفأ له على أثر ، لم يوجد عند المدخل ، ولا فيما يلي هذا من فناء البيت الذي اصطفت به الأرائك والمقاعد وأقيمت في صدره منصة الفناء . والواقع أن السيد خلا إلى نهر من خاصة أصدقائه بمنظرة الفناء فلم يفارقها مذ حل بالبيت مصمما على ألا يفارقها حتى ختام الليلة مبتعدا بنفسه عن «الجمهور» الصاحب خارجها ، لم يكن أشد احراجا لنفسه من الظهور بين آله في ليلة زفاف ، إذ لا يرضى أن ينشر فوقهم رقابته في يوم خالص السرور ، ولا يطيق من ناحية أخرى أن يشهد عن كذب انطلاقهم مع دواعي الفرح ، فضلا عن هذا وذاك لم يكن أكره لديه من أن يرى - بينهم - على غير ماعهدوا من وقار صارم ، ولو كان الأمر بيده لثم الزفاف في صمت شامل ولكن حرم المرحوم شوكت وقفت من اقتراحه في هذا الشأن موقف معارض لا تلين صلابته ، وأبت إلا أن تحييها ليلة حافلة فاتفقت على أحيائها مع العائلة جليلة والمغنى صابر ، وبدا كمال لغرط ابتهاجه بما أتيح له من حرية وسرور كأنه عريس الليلة ، وكان أحد أفراد قلائل أبيح لهم التنقل كيما شاءوا بين الحريم في الداخل وبين مجلس الطرب في فناء الدار ، لثظولا مع أمه بين النساء متغلا طرفه بين زيناتهن وحليهن مصفيا إلى دعاياتهن وأحاديثهن التي يستأثر الزواج بخلاصتها ، أو منصتا معهن إلى العائلة جليلة التي تصدرت اليهو كالمحمل ضخامة وولته وراحت تنشد الطقاطيق وتعاقر الشراب جهارا ، فاستأنس إلى الله الضاحك لعرائته وجاذبيته - والأهم من هذا كله - لوجود عائشة على حال من التبرج لم يحلم بها من قبل ، وشجعت أمه على البقاء ليظل تحت رعايتها ، بيد أنها عدلت عن موقفها بعد حين واضطرت إلى أن تحثه همسا على الانتقال إلى مجلس أخويه لأمور لم تتوقع حدوثها . من

ذلك ما بدا من اهتمامه بعائشة ، بفستانها حيناً وبنواحيها حيناً آخره ،
فخيف منه على هندامها ، أو ما بدر منه من ملاحظات صبيانية
صريحة نحو بعض السيدات كما هتف بأمة مرة وهو يشير إلى
امراة من آل العريس قائلاً : « انظري يا زينة الى انف هذه الست ..
أليس أكبر من انف آيلة خديجة » أو ما فاجأ به الجميع وجليلة تفنى
من الاشتراك مع التخت في ترديد « بامة حلوة .. ومنين أجيبها » حتى
دعته العالة الى الجلوس بين أفراد تختها ، وبهذا وغيره جذب الأنظار
اليه فأخذت المدعوات في مداعبته ولكن أمه لم ترتج الى الضجة
التي أثارها ، وآثرت على كره منها - اشفاقاً على البعض من عبثه
واشفاقاً عليه من أعين المعجبات - أن تحمله على مغادرة المكان ،
انضم الى مجلس الرجال ، وتردد بين الصفوف ، ثم وقف بين فهمي
وياسين حتى ختم صابر دور « بس ليه تعشق يا جميل »
واستأنف تجواله حتى مر بالمنظرة فأغراه حب الاستطلاع بالنظر
الى داخلها فمد رأسه وما يدرى الا وعيناه تلتقيان بعيني والده
فتسمر في مكانه وعجز عن استردادهما ، وراه أحد اصدقاء أبيه
- السيد محمد عفت - فناداه فلم يجد بدا من تلبية النداء ليتفادى
من اغصاب أبيه فتداني من الرجل على كره وخوف حتى وقف
أمامه منتصب القامة مضموم الذراعين الى جانبيه كأنه عسكري
في طابور ، وصافحه الرجل قائلاً :

- ما شاء الله .. في أي سنة يا عم ؟

- سنة ثالثة رابع ..

- عال .. عال .. سمعت صابر ؟

ومع أنه كان يجيب على أسئلة محمد عفت الا انه راعى من
باديء الأمر أن تكون اجاباته بحيث ترضى أباه .. فلم يدر كيف
يجيب على السؤال الأخير أو أنه تردد قبل أن يعد الاجابة ولكن
الرجل بادره متعلماً :

- الا تحب الغناء ؟

فقال الغلام بتوكيد :

- كلا ..

وبدا من بعض الحاضرين ما يدل على أنهم سيعلقون على هذه
الاجابة - آخر ما ينتظر من شخص ينتمى الى عبد الجواد -
مازحين - ولكن السيد حذرهم بعينه فأمسكوا ، أما السيد
محمد عفت فعاد يسأله :

- الا تحب أن تسمع شيئاً ؟

فقال كمال وهو يلحظ أباه :

- القرآن الشريف ..

فتعالت أصوات الاستحسان وسمح للغلام بالانصراف فلم
يتأت له أن يسمع ما قيل عنه وراء ظهره حين قهقه السيد
الفار قائلاً :

- ان صح هذا فالغلام ابن زنا ..

فضحك السيد أحمد عبد الجواد وقال وهو يشير الى حيث
كان يقف كمال ...

- هل رأيتم أمكر من ابن الكلب يدعى التقوى أمامي ! ..
رجعت مرة الى البيت فترامى الى صوته وهو يغنى « يا طير يا لى
على الشجر » ..

فقال السيد على :

- آه لو رأيته وهو ينصت بين أخويه الى صابر وشفتاه
تتحركان مع الغناء في انسجام تام ولا انسجام أحمد عبد الجواد
نفسه ..

على حين خاطب محمد عفت السيد أحمد متسائلاً :

- المهم ان تخبرنا هل أعجبك صوته في دور « يا طير يا لى
على الشجر » ؟ ..

فضحك السيد قائلاً وهو يشير الى نفسه :

- ذاك الشبل من هذا الأسد :

فهتف الغار قائلا :

— الله يرحم اللبوة الكبيرة التي انجبتكم ..

غادر كمال النظرة الى الحارة وكأنه يقيق من كابوس ووقف بين الغلمان الذين ازدحم بهم الطريق ، وما لبث أن استعاد اوتياحه فتمشى مزهوا بملابسه الجديدة ، مفتبطا بحريته التي جعلت من المكان كله — فيما عدا النظرة الخيفة — مجالا مباحا لقدميه دون معترض أو رقيب ، فأى ليلة هذه في الزمان ! شيء واحد جعل ينقص عليه صفوه كلما خطر على فؤاده هو انتقال عائشة الى هذا البيت الذي باتوا يدعونه « بيتها » هذا الانتقال الذي نفذ على رغمه دون أن يستطيع أحد اقناعه بوجاهته أو فائدته ، تساءل طويلا كيف سمح أبوه به وهو الذي لا يسمح لظل امرأة من آله بأن يلوح وراء خصاص النافذة فتلقى الجواب ضحكا عاليا ، وساءل أمه في عتاب ، كيف تفرط في عائشة لحد النزول عنها للغير فأجابته بأنه سيكبر يوما ويأخذ مثلها من بيت أبيها فتشيع اليه بالزغاريد ، وسأل عائشة هل يسرها حقا أن تهجرهم فأجابت أن لا ، ولكن الجهاز حمل الى بيت الرجل الغريب ولحقت به عائشة التي لا يطيب له الرى الا من موقع شفيتها ، حقا ان الفرح الراهن ينسى أشياء ما كان يتصور أنه ينساها لحظة ولكن خاطرة الأسى تغشى فؤاده الجدل كما تغشى السحابة الصغيرة وجه القمر في ليلة صافية السماء ، ومن عجب أن سروره بالغناء في تلك الليلة فاق أى سرور عداه ، كاللعب مع الغلمان أو مشاهدة النساء والرجال في مرحهم المطلق أو حتى عيش السراى والألمظية على مائدة العشاء ، ولئن ادهش اهتمامه الجدى بسماع جليلة وصابر الذى لا يتفق مع سنه كل من لاحظته من النساء والرجاء فلم يدهش أحدا من أسرته التي تعرف سوابقه في الغناء مع معلمته عائشة كما تعرف حسن صوته الذى تعدده أحسن أصواتها بعد عائشة وإن كان صوت الأب — الذى لا يسمعونه الا مزجرا — أحسنها جميعا ، وقد استمع كمال طويلا

الى جليلة وصابر ولكنه على غير المنتظر وجد غناء الرجل وعزفه تحتة أحب الى قلبه وأخذ لنفسه ، فرسخت منه في ذاكرته جميل غنائية مثل « تمشق ليه .. علشان كده » جل يرددها بعد ليلة الزفاف طويلا في سقيفة اللباب والباسمين فوق سطح بيتهم ، وشاركت أمينة وخديجة كمال في بعض ما أتيح لهن من أسباب السرور والحرية ، فلم يسبق لهما — مثله — أن شهدا ليلة كتلك الليلة بما حفلت من أنس وطرب ومرح ، وأبهج أمينة خاصة ما لاقت من الرعاية والمجاملة بصفتها أم العروس ، هى التي لم تنعم في حياتها برعاية أو مجاملة ، حتى خديجة اختفى همها في أنوار الفرح كما تختفى الظلمة عند اشراق الصباح ، نسيت أحزانها بين الضحكات النعمة والانعام العذبة والأحاديث الطيبة ، وازدادت لها نسيانها بفضل حزن جديد خالص الطوية منشؤه شعورها بفراق عائشة الوشيك ، شعور أثمر حبا وعطفا خالصين فتوارت الأحزان القديمة أمام الحزن الجديد كما تتوارى الأحقاد أمام الأريحية ، أو كما يقع لشخص حيال آخر يحب منه جانبا ويكره جانبا أن تتوارى — ساعة الفراق مثلا — الكراهية لجانب أمام الحزن على الجانب الآخر ، هذا الى ما شاع في نفسها من ثقة حين تبدت في زينة أضفت على جسمها ووجهها سواء لغت اليها أنظار بعض النساء فلهجن بالنساء عليها ثناء ملاها أملا وأحلاما عاشت بها زمنا رغدا .

وجلس ياسين وقهمى جنبالجنب ، يراو حان بين السمر والسماع ، وجلس خليل شوكت — العريس — ينضم اليهما بين ساعة وأخرى كلما وجد فرجة بين اشغال ليلته الشاقة الممتعة ، وبالرغم من الجور المشيع بالبهجة والطرب انطوى ياسين على قلقه فارتسمت في عينيه نظرة شرود مزمنة وراح يسائل نفسه بين حين وآخر ترى هل يحتاج له أن يروى ظمأه ولو بكأس أو بكأسين ؟ لذلك مال مرة على أذن خليل شوكت — وكان صديقا للأخوين وهمس قائلا : — أدركنى قبل أن تضيع الليلة ...

فقال له الشاب وهو يغمز له بعينه مطمئنا :

— أفردت مائدة في حجرة خاصة لأمثالك من الأصدقاء ..
عند ذاك اطمأن باله وعاودته حيويته للسمر والدعابة والسماح
لم يكن في نيته أن يسكر ، ففي مثل هذا المكان الحافل بالأهل
والمعارف يعد القليل من الخمر فوزا كبيرا ، خاصة وأن والده وأن
أنزوى في النظرة — غير بعيد ، فلم يكن وقوفه على أسرار حياته
يمزحزحه عن مكانته التقليدية من نفسه ، لم يزل قائما بحصنه
الحصين من المهابة والجلال ، ولم يزل هو بموقف الطاعة والعبودية
حتى السر الذي اطلع عليه خفية لم يفكر في البوح به لإنسان ولا
لمفهمي نفسه أقرب المقربين اليه ، لهذا كله قنع من بادئ الأمر
يكأس أو بكأسين يتملق بهما رغبته الجامحة ، وبتها بهما لتذوق
المرح والسمر والطرب وغيرها من السرورات التي لم يعد لها عنده
ظعم بغير شراب . فهمي بخلاف ياسين — لم يجد ، أو لم يطمئن
أنى أنه سيجد ريا لظمئه ، ثار شجنه من حيث لا ينتظر عند مجيء
العروس ، ذهب مع العريس وياسين لاستقبالهما بقلب خلى فوق
بصره على مريم وهى تسير وراء العروس مباشرة ومتألقة الثغر
بابتسامة تحية للمكان كله ، لاهية بالزغاريد والورود عنه ، وقد
شف قناعها الحريري عن ديباجة وجهها الصافي ، فاتبعتها نظرة بقلب
خافق حتى وأراها باب الحريم ، ثم عاد الى مجلسه مزلزل النفس
كأنه قارب تعرض بفتة لأعصار ، بيد أنه كان قبل رؤيتها هادئ
النفس لاهيا بشجون السمر شأن السالى الناسى ، والحق تمر به
أوقات فيجد نفسه على هذه الحال من السلو والنسيان كأن قلبه
يستجم من العناء ، ولكن ما أن تخطر خطرة أو تهفو ذكرى ، أو
يجرى اسمها على لسان ، أو ، حتى يخفق فؤاده الما ، ويفرز
الحسرة تلو الحسرة ، كالضرس المسوس الملهب تجيء عليه فترة
فيسكن المله حتى اذا هرس لقمة أو مس جسما صلبا انفجر به
الآلم ، وهناك يقرع الحب أضلفه من الداخل كأنما يروم متنفسا ،

هائجا بأعلى صوته أنه لا يزال حبيسا لم يطلق سراحه العزاء أو
النسيان . طالما تمنى لو يعمى عنها الراغبون حتى يستوى على
قدميه رجلا حر التصرف في تقرير مصيره . وقرب أمنيته كر الأيام
والأسابيع والأشهر دون أن يتقدم لها خاطب ، ولكنه لم ينعم
بالطمأنينة الحقة ، ولم يزل عرضة للقلق والخوف يتناوبانه الحين بعد
الحين ينغصان صفوه ويكدران أحلامه ويخلقان له ضروبا من الآلم
والغيرة أن تكن وهمية فليست دون الواقع — فيما لو تحققت
ضراوة وقساوة ، حتى بات التمنى نفسه وتأخر وقوع البلاء من
يواغت تجدد القلق والخوف وبالتالي الآلم والغيرة فود كلما اشتد
يه العذاب أن يقع البلاء ليلقى نصيبه من الحزن دفعة واحدة لعله
يعد ذلك يبلغ باليأس مالم يبلغ بالأمانى العابثة من الراحة والسلام ،
ولكنه لم يستسلم للشجن في مجلس طرب تكتنفه أنظار الأصدقاء
والأقرباء ، إلا أنه كان تلقى من منظر مريم وهى تسير وراء أخته
« أثرا » لا يمكن أن يمضى بلا رد فعل محسوس ، ولما لم يسعه أن
يجتر به أحزانه وأن يجلو المستور من نفسه فقد استهلكه بطريقة
عكسية بالاغراق في الحديث والضحك والتظاهر بالغبطة والسعادة ،
على أنه كان كلما خلا الى نفسه ولو لحظات شعر في أعماقه بعزلة
قلبية عما حوله ، وأدرك مع مرور الوقت أن رؤيته مريم وهى
تخطر في معية العروس قد هيجت حبه كما تهيج ضوضاء مفاجئة
مهموما ذا قابلية للأرق ، وأنه لن ينعم على الأقل هذه الليلة —
يصدر مستقر ، وإن شيئا مما يدور حوله لن يستطيع أن ينتزع
من مخيلته صورتها أو الابتسامة التى حيث بها جو الاستقبال
الحار المشبع بالزغاريد والورود ، ابتسامة عذبة صافية وشت
يقرب خلى متشوق للهدوء والسرور ، ابتسامة لا يوحى رواؤها
بأنه يمكن أن ترتسم على موضعها من الشفتين تقلصات الآلم ،
فحز منظرها قلبه وكاشفه بأنه يكابد الآلم منفردا ويحمل متاعبه
وحده ، ولكن ألا يقهقه هو الآن عاليا ، يحرك رأسه مع الانغام

ولعل ذلك أيضا لأن رؤيتها والمكان الجديد زادتها رسوخا في نفسه وتغلغلا في حياته ونشوبها في ذكرياته ، فإن الصور تتعمق في أنفسنا باندماجها في مختلف الأماكن التي تمتد إليها تجاربنا ، وكما اقترنت مريم قديما بسطح البيت وبستان اللبلاب والياسمين وكمال وتسميع الكلمات الانجليزية ومجلس القهوة وحديثه مع أمه في حجرة المذاكرة والرسالة التي عاد بها كمال فستقترن منذ الليلة بالسكرية وفناء آل شوكت ومجلس الطرب وغناء صابر وزفاف عائشة وغير ذلك مما ينثال على سمعه وبصره وكافة حواسه ، ومثل هذه العملية .. لا يمكن أن تتم دون أن تشارك في أحداث الرجة العنيفة التي دوخته .. وحدث في فترة الاستراحة أن ترامى صوت العالة الى مجلس الرجال من النوافذ المطلة على الفناء وهي تغنى « حبيبى غاب » فنشط الى السماع باهتمام شديد وجمع حواسه كلها فى النغمات ، لا لأن صوت جليلة أعجبه ولكن لظنه أن مريم تنصت اليها فى تلك اللحظة لأن الجملة الغنائية تخاطب أذنيهما فى وقت واحد معا ، لأنها الفت بينهما على حال واحدة من الانصات وربما من الاحساس ، لأنها خلقت لهما موعدا يلتقيان فيه بروحيهما ، وحمله هذا كله على احترام الصوت وحب النغمات كى يجتمع بها فى احساس واحد ، وحاول طويلا أن ينفذ الى نفسها بالرجوع الى نفسه ، أن يتلمس ذبذبات تأثرها بمتابعة ذبذبات تأثره ، ليعيش فى ذاتها لحظات بلا حجاب على بعد المسافة وكثافة الجدران ، وحاول الى هذا أن يستخبر الجمل الغنائية عن آثارها فى النفس المحبوبة ، ماذا تركت فى قلبها جملة « حبيبى غاب » أو « بقى له زمان ما بعاتش جواب » ، ترى هل غابت فى لجج الذكريات ؟ .. أو لم تنحصر موجة منه عن وجهه ؟ .. ألم ينقبض قلبها لشكة ألم أو لحرة خسرة ؟ أم لها ساندرا طوال الوقت لا يجد فى النغمة إلا فرحة الطرب ؟ .. وتصورها وهي تهب انتباهها للنغم ساقرة متبرجة الحبوبة أو وثغرها يفتر عن ابتسامة كتلك التي لحها على

كل منبسط الطروب ؟ .. الا يجوز أن يخدع الناظر بحاله ويظن به ما ظن هو بها ؟ .. وجد في تفكيره شيئا من العزاء ولكن ليس أوكد من عزاء المصاب بالتيفود حين يسائل نفسه « الا يحتمل أن أشفى كما شفى فلان الذى أصيب به قبلى » ، وما لبث أن ذكر رسالتها التي عاد بها كمال اليه منذ أشهر وهي قل له انها لا تدري ماذا تفعل لو تقدم لها خاطب أثناء هذه المدة الطويلة من الانتظار .. وتسأل كما تسأل عشرات المرات من قبل هل ثمة عاطفة وراء هذه الكلمات ؟ .. أجل لا يستطيع انسان مهما بلغ به التعنت أن يؤاخذها على كلمة منها ، بل لا يستطيع أن يتجاهل ما تتضمنه من عقل وحكمة ولكن هذا نفسه ما اشعره بالعجز حيالها وما احنقه بالتالى عليها ، اذ يندر أن يرضى العقل والحكمة طموح عاطفة لاتعرف بطبعها الحدود ، وعاد الى الحاضر ، الى مجلس الطرب ، الى الحب الهائج ، ليست رؤيته لها وحدها التي رجته هذه الرجة العنيفة ، فلعل ذلك لأنه رآها لأول مرة ، فى مكان جديد - فناء بيت آل شوكت - بعيدا عن داره التي لم يرها خارج نطاقها من قبل ، كان وجودها الدائم فى المقام القديم قد سلكها فى آلية العادة اليومية على حين بعث ظهورها المفاجئ فى المكان الجديد - ذلك الظهور الذى خلقها فى عينيها خلقا جديدا - حياة جديدة فى وجدانه ، ايقظت الحياة الأصلية الكامنة ، ثم تعاونتا معا على أحداث هذه الرجة العنيفة ، ولعل ذلك أيضا لأن وجودها بعيدا عن بيته وما يقترن به من تقاليد صارمة أقامت بينه وبينها سدا من اليأس ، وجودها فى جو من الحرية والانطلاق ، وعلى حال لم يعهدها من التبرج والحركة ، وجودها فى بيئة الرفاف وما توحى به من خواطر الحب والوصال ، كل أولئك اطلقها من قمقمها الى حيث يراها القلب أملا غير عسير ، وكأنما تقول له « انظر لمن ترانى الآن ، ما هى الا خطوة أخرى فتجذنى بين ذارعيك » ولكن ما لبث هذا الأمل أن ارتطم بالواقع الشائك مسهما فى أحداث تلك الرجة العنيفة

الذين لم يطيقوا التورق ، والغناء يجلب في الخارج ، انفضوا من حوله وتفرقوا بين المستمعين يطربون ويلهون ، فلم يبق معه الا انفر الذين مجلسه احب اليهم من اللهو نفسه فلبثوا جميعا في رزاة غير معهودة كأنما يؤدون واجبا أو يشهدون مأتما ، هذا ما قدره من قبل ، حين دعاهم السيد الى ليلة الزفاف ، لما خبروه من طبيعته المزدوجة التي عرف بجانب منها بين اصدقائه وبالجانب الآخر بين آل بيته ، ولم يفهم وجه من وجوه التناقض بين مجلسهم الوقور هذا الذي يحتفلون فيه «بليلة زفاف» وبين مجالسهم المسائية المعربة التي لا يحتفلون فيها بشيء ! وما عثموا ان جعلوا من توقرهم موضوعا للمزاح الخفيف الهادئ فما ان علا صوت السيد عفت مرة وهو يضحك حتى بادره السيد الفار واضعا سبابته على شفثيه كأنما يأمره بخفض صوته وهمس في اذنه محذرا زاجرا نحن في فرح يا رجل !.. ومرة أخرى وكان الصمت قد غلبهم مليا فاذا بالسيد على قلب عينيه في وجوههم ثم يقول رافعا يده الى رأسه كالشاكرك « شكر الله سعيكم » وعند ذلك دعاهم السيد الى اللحاق بصحبه في الخارج ومشاركتهم لهوهم ولكن السيد عفت خاطبه بلهجة تنم عن شديد العتاب قائلا : نتركك في مثل هذه الليلة ؟! وهل يعرف الصديق الا عند الضيق ؟! فما تمالك السيد ان ضحك قائلا : ما هي الا عدة ليالي زفاف اخرى حتى يتوب الله علينا جميعا .. على ان ليلة الزفاف تضمنت في نظر السيد احمد معاني أخرى غير التورق الاجباري في مجلس اتس وطرب ، معاني تخصه وحده كآب ذى طبيعة خرقت المؤلف من الطبايع ، فلم يزل يجد لفكرة زواج كريمته احساسا غريبا لا يرتاح اليه وان لم يقره عقله أو دينه ، لايعنى هذا انه ود الا تتزوج كريمته ، فالحق انه كسائر الآباء جميعا رجا الستر لفنائه ، ولكن لعله تمنى كثيرا لو لم يكن الزواج الوسيلة الوحيدة لهذا «الستر» ولعله تمنى لو كان الله قد خلق البنات على طبيعة

شفثيتها عند مجيئها فآلمته لانه توسم فيها رمز السلو والنسيان ، او وهى تحدث احدي اختيه كما يحلو لها كثيرا وهو ما يحسد هما عليه على حين لا يجدان فيه الامر الذي يدهشه لحد الانزعاج الا حديثا عاديا كسائر الاحاديث التي يشتبكان فيها مع غيرها من فتيات الجيران ، اجل طالما عجب لموقف اختيه منها ، لا لانهما لا يكثران لها فالحق انهما يحبانها ، ولكن لانهما يحبانها كما يحبان غيرها من فتيات الجيران كأنها مجرد « فتاة » من فتيات الجيران ، وكيف يلقى انهما بترحيب عادي دون ان يضطرب لهما نفس كما يلقى هو أى فتاة عابرة أو ايا من اقرانه طلبة مدرسة الحقوق ، وكيف يتحدثان عنها فيقولان « مريم قالت أو مريم فعلت » وينطقان بالاسم كما ينطقان بأى اسم .. أم حنفى مثلا كأنه ليس الاسم الذي لم ينطق به على مسمع من غيره الا مرة أو مرتين وهو يعجب لموقعه من اذنه أو كأنه ليس الاسم الذي لا ينطق به في وحدته الا كما ينطق بالاسماء المبجلة المنقوشة في خياله بتهاويل الاحلام التي لا ينطق بأحدها حتى يردف « رضى الله عنه » أو « عليه السلام » .. وكيف اذن عطل الاسم - بل الشخص نفسه - عندهما من سحره وقدسيته ؟!.. وعندما انتهت جليلة من الاغنية تعالى الهتاف والتصفيق فركز فيه انتباهه باهتمام لم تحظ الاغنية نفسها بمثله لان حنجرة مريم ويديها اشتركت فيه ، وبنى لو كان بوسعه ان يميز صوتها من تلك الأصوات وأن يفرز تصفيقها من ذلك التصفيق ولكن لم يكن ذلك بأسهل من تمييز صوت موجة بالذات من هدير الأمواج المتلاطمة على الشاطئ ، على انه وهب حبه للهتاف كله والتصفيق كله بلا تمييز كالأم التي يترامى الى سمعها أصوات التلاميذ من المدرسة التي يتبعها ابنها فتدعو لهم جميعا بالبركة والسلامة .

لم يكن اشبه بفهمي في عزلته الباطنية - وان اختلفت الاسباب - من ايئه الذي لزم النظرة بين نفر من خاصة خلانه ، حتى الاصدقاء

لا تحتم الزواج ، أو لعله تمنى فى الأقل لو لم يكن أنجب أنثى قط ،
 أما وتلك أمانى لم تتحقق ولا سبيل الى تحقيقها فلم يكن بد من
 أن يرجو الزواج لفتاته ولو كما يرجو الانسان أحيانا - ليأسه
 من دوام العمر ميتة شريفة أو ميتة مريحة ! طالما افصح عن
 نفوره هذا بسبل متباينة سواء عن شعور أو لا شعور ، فربما
 حدث بعض خلصائه قائلا : « تسألنى عن انجاب الاناث ؟ انه
 شر لا حيلة لنا فيه ولكن الشكر الى الله واجب على أى حال ،
 لا يعنى هذا أنى لا أحب ابنتى فالحق انى أحبها كما أحب ياسين
 وفهمى وكمال سواء بسواء ولكن كيف يطمئن خاطرى وأنا أعلم
 بأنى سأحملها يوما الى رجل غريب مهما يبدو لى من مظاهر فاقه
 وحده المطلع على باطنه ؟ .. ما حيلة البنت الضعيفة حيال رجل
 غريب وهى بعيدة عن رعاية أبيها ؟ .. وكيف يكون مصيرها لو
 طلقها يوما وقد مات أبوها فلجأت الى بيت أخيها لتعيش عيشة
 المنبوذين ؟! لست أخاف على أحد من ابنائى لأنه مهما يحدث
 لأيهم من أمر فهو رجل قادر على أن يواجه الحياة أما البنت ..
 اللهم احفظنا ! » أو يقول فيما يشبه الصراحة « البنت مشكلة حقا
 .. الا ترى أنا لا نألو أن نؤدبها ونهذبها ونحفظها ونصونها ؟ ..
 ولكن الا ترى أنا بعد هذا كله نحملها بأنفسنا الى رجل غريب
 ليفعل بها ما يشاء .. الحمد لله الذى لا يحمده على مكروه
 سواء .. » وتجسم هذا الاحساس القلق الغريب فى النظرة
 الانتقادية التى والى بها خليل شوكت « العريس » نظرة متعسفة
 عيابة أبت أن ترجع قبل أن تظفر بعيب يرضى تمنيتها ، كأنه ليس
 من آل شوكت الذين ألقت بينه وبينهم أسباب المودة والولاء من
 قديم الزمان ، أو كأنه ليس الشاب الذى شهد له كل من رآه
 بالرجولة والجمال والوجاهة ، لم يسعه أن ينكر مزية من مزاياه ،
 ولكنه وقف طويلا عند وجهه الريان ونظرة عينيه الهادئة الثقيلة
 الموحية بالكسل فطاب له أن يستدل بهما على ما تركه الفراغ فى

حياته من حيوانية قائلا لنفسه « ما هو الا ثور يعيش ليأكل
 وينام ! » لم يكن اعترافه بمزاياه أولا ثم فحصه عن أى عيب
 ليخلصه به أخيرا الا منطقا عاطفيا يعكس ما يكمن فى نفسه من
 رغبة فى تزويج الفتاة ونفوره من فكرة الزواج ، فالاعتراف مهد
 الى تحقيق الزواج والفحص عن العيوب نفس عن العاطفة
 المدائية كمدمن الأفيون الذى تستذله لذته وترعبه خطورته
 فينشده بكل سبيل وهو يلعنه ، بيد أنه تناسى مشاعره الغريبة
 وهو بين أصدقائه الحميمين يتسلى بالحديث حينا وبالسمع من
 بعيد حينا آخر ، ففتح صدره للرضى والقبطة ودعا لفتاته
 بالسعادة والحياة المطمئنة ، حتى نظرته الانتقادية لخليل شوكت
 استحالت احساسا ساخرا غير مشوب بالحق .

وعندما دعى المدعوون الى الموائد افترق فهمى وياسين لاول
 مرة فقاد خليل شوكت الأخير الى المائدة الخاصة حيث بذل
 المشرب بغير حساب ولكن ياسين بدا حذرا مقدرا للمواقب فأعلن
 قناعة بكأسين وقاوم بشجاعة - أو بجبن - تيار الشراب المتدفق
 حتى اذا ما لسعته النشوة الاولى فهيجت ذكرياته عن لذة
 النشوات ووهنت ارادته فرغب فى الاستراحة من النشوة الى
 القدر الذى لا يخرج من حدود الأمان فتناول كأسا ثالثة ثم فر
 بنفسه عن المائدة الا انه - على سبيل الاحتياط أو لأنه لم يزل
 عينا فى الجنة وعينا فى النار - أخفى زجاجة مملوءة حتى
 التصف فى مكان خفى للرجوع اليها عند الضرورة القصوى ،
 وعادوا الى مجلسهم بأرواح جديدة راقصة انطلق منها الى
 الجو المحيط سرور محرر من القيود ..

وفى الحريم كان السكر قد بلغ بالعائلة جليلة حد السلطنة ،
 واذا بها تقلب عينيها فى وجوه المدعوات وتتساءل :
 - من منكن حرم السيد أحمد عبد الجواد ؟
 فجذب تساؤلها الانتظار وأثار اهتماما شاملا حتى غلب الحياء

أمانة فلم تنبس بكلمة وجعلت تحملق فى وجه العالمة بحيرة وانكار ، ولما أعادت العالمة التساؤل تطومت حرم المرحوم شوكت .
بالإشارة الى أمانة وهى تقول :

— ها هى حرم السيد أحمد فقيم يا ترى التساؤل ؟
فتفحصتها العالمة بعينين ثاقبتين ثم أطلقت ضحكة رنانة وقالت بلهجة تنم عن الرضى :

— حسناء وحق بيت الله ، ان ذوق السيد لا يجارى .
وبدت أمانة كالعذراء المتعثرة فى حياتها ، بيد ان الحياء لم يكن كل مآتانيه ، ساءلت نفسها فى حيرة وانزعاج عما يعنيه حديث العالمة عن حرم « السيد أحمد عبد الجواد » وعن أطرائها ذوق .
السيد بلهجة لا يدعيها لنفسه الا الخبير به ، وشاركتها شعوره عائشة وخديجة التى رددت عينيها بين العالمة وبين بعض الفتيات من صديقاتها كأنما تسألن عن رأيهن فى « هذه المرأة السكرية » ، ولكن جليلة لم تأبه لما أثاره كلامها من انزعاج فحولت عينيها الى العروس وتفحصتها كما تفحصت أمها من قبل ثم أرعشت حاجبيها وهى تقول باعجاب :

— قمر ورسول الله ، أنت بنت أبيك حقاً ، ومن ير هاتين العينين يذكر من توه عيني . (ثم مقهقهة) .. أراكن تتساءلن من أين لهذه المرأة معرفة السيد أحمد ؟ .. انى اعرفه من قبل ان تعرفه زوجه نفسها ، انه ربيب حينا وقرين صباى ، وكان والدانا صديقين ، ام تحسبين العالمة لا أب لها ؟ .. كان أبى شيخ كتاب من أهل البركة .. ما رأيك يا زينة الستات ؟ ..

وجهت السؤال الأخير الى أمانة فدفعها الخوف وما طبعت عليه من لين وتودد الى أن تجيبها — وهى تقاوم ما ركبها من ارتباك — قائلة :

— رحمه الله ، كلنا أبناء حواء وآدم ..
فجعلت جليلة تحرك رأسها يمنة ويسرة وهى تضيق عينيها

كأنما بلغ تأثرها بالذكرى وموعظتها نهايته ، أو لعل رأسها السكران وجد فى هذه الحركة رياضة التذ بها ، ثم استطردت قائلة :

— وكان رجلاً غيوراً ، ولكنى نشأت بفطرتى لعوبا لا أبالى كأنما رصعت الفنج فى المهد ، كنت أضحك الضحكة فى الدور الأعلى فتضطرب لها جوانح الرجال فى الشارع ، فما يلفه صوتى حتى ينهال على ضرباً ويرمى بشر الصفات ، واكن ما حيلة التأديب فيمن قدرت عليها فنون العشق والطرب والدلال ؟ .. ضاع التأديب هباء ، ومضى الرجل الى الجنة ونعيمها ، وقضى على بأن اتخذ مما رمانى به من شر الصفات شعاراً لى فى الحياة .. هى الدنيا .. ربنا يطعمك خيراً ويكفيك شرها .. ولا حرمانا الله جميعاً من الرجال سواء فى الحلال أو فى الحرام ..

وعزف الضحك فى جنبات الحجر حتى غطى على تأوهات الدهش التى نلت هنا وهناك ، ولعل ما استثاره قبل أى شيء آخر هو وجه التناقض بين الدعاء الاباحى الأخير وبين ما سبقه من عبارات توحى — فى ظاهرها على الأقل بالجد — والتأسى ، أو بين ما تقنعت به المرأة من ستار الجد والزانة وما جهرت به أخيراً من مزاح مكشوف ، حتى أمانة نفسها — وعلى رغم ارتباكها — ما تماكنت أن ابتسمت وان نكست وجهها لتوارى ابتسامتها ، على أن النساء كن يستجبن — فى مثل هذا المجلس — لدعابات مهرجات العوالم ويرحبن بمزاحهن وان خدش الحياء أحياناً كأنما ينفسن به على طول تزمتهن ، وواصلت العالمة السكرانة حديثها قائلة :

— وكان جعل الله الجنة مثواه سليم الطوية ، وآى ذلك انه جاءنى يوماً برجل طيب مثله وأراد أن يزوجنى منه (وكررت ضاحكة) .. أى زواج يا عمر ؟ .. وماذا بقى للزوج بعد ما كان مما كان ! .. وقلت لنفسى انفضحت يا جليلة وواقعتك كحل .. وأمسكت ملياً لتستزيد من التشويق ، أو لتتمتع أكثر

بصمت الانتباه المركز فيها الذى لا تحظى بمثله حين الفناء نفسه،
ثم عادت تقول :

- ولكن الله سلم فأدركنى النجاة قبل الفضيحة المتوقعة
بأيام اذ هربت مع المرحوم حسونة البغل تاجر المنزل ، وكان
المرحوم أخ عواد عند العالة نيزك فعلمنى العود ، ثم طاب له
صوتى فعلمنى الفناء ، وأخذ بيدي حتى ضمنى الى تحت نيزك
التي حللت محلها بعد وفاتها ، ومارست الفناء دهرًا عرفت فيه
من العشاق مائة و .. (وقطبت وهى تتذكر بقية العدد ثم
التفتت الى الدفافة وسألتها) وكم يا فينو ؟
فبادرتها الدفافة قائلة :

- وخمسة فى عين من لا يصلى على النبى ..
وتعالى الضحك مرة أخرى فجعلت بعض المشغوفات بالحديث
يسكتن الضاحكات ليصفو الجو للعالة ولكنها نهضت بغتة واتجهت
نحو باب الحجرة غير ملقية بالا الى اللاتى تسألن عن وجهتها دون
أن يحظين بجواب ، ولكن أحدا لم يلح عليها فى السؤال لما
اشتهرت به عند الناس من أنها صاحبة نزوة اذا نادتها لبت دون
مراجعة ، وهبطت السلم الى باب الحريم ثم مرقت منه الى فناء
الدار ، ولما جذب ظهورها المفاجيء بعض الأنظار القريبة تلبثت
بمكانها لتتيح لنفسها أن ترى من الجميع فتستمع بما يحدثه
منظرها فيهم من اهتمام طمعت فى أن تتحدى به صابرا وهو فى
ذروة التطريب ، وتحقق رغبتها اذ سرت عدوى الالتفات نحوها
- كالتثاؤب - من فرد الى فرد وتردد اسمها على الألسن ، ثم
شعر صابر نفسه - رغم أنهماكه فى الفناء - بالفجوة الفجائية
التي فصلت بينه وبين جمهوره فمد بصره الى الهدف الذى
استشرفته الاعين حتى استقر على العالة وهى تنظر اليه من
بعيد براس مائل الى الوراء من سلطنة السكر والخيلاء فاضطر
الى الامساك عن الفناء وأشار الى تحت فتوقف عن العزف ، ثم

رفع يديه الى رأسه تحية لها .. كان صابر خيرا بنزوات جليلة
- وعلى خلاف الكثيرين - عالما بطيبة قلبها ، ومقدرا فى الوقت
نفسه لخطر معاندتها ، فأظهر لها التودد بلا تحفظ ، ونجحت
حيلته فانطلقت أسارير المرأة بالبشر وهتفت به « واصل غناءك
يا سى صابر فما جئت الا لسماعه » فصفق المدعوون وعادوا الى
صابر مهللين على حين اقترب منها ابراهيم شوكت شقيق العريس
الاكبر وسألها بلطف عن حاجتها فذكرت بسؤاله السبب الحقيقى
الذى دعاها الى المجيء وسألته بدورها بصوت ترمى الى
الكثيرين ومنهم - وهو الأهم - ياسين وفهمى :

- مالى لا أرى السيد أحمد عبد الجواد؟! أين يختبئ
الرجل؟

فأخذ ابراهيم شوكت بيدها وسار بها الى المنطرة باسمها ،
على حين تبادل فهمى وياسين نظرة ملئت دهشا واستغرابا
وشيعاهما بعينين متسائلتين حتى واراهاما الباب ، ولم يكن السيد
دون ابنه دهشا لدى رؤيتها مقبلة نحوه تخطر فحدها بنظرة
انزعاج وتساؤل بينما تبادل صحبه نظرات باسمه ذات معان ،
وشملت جليلة الجميع بنظرة عابرة قائلة :

- مساء الانس يا رجال ..

وركرت عينيها فى السيد فما تمالكت أن اغربت فى الضحك
وهى تتساءل ساخرة :

- هل أخافك مجيئى يا سيد أحمد؟!

فأشار السيد الى الخارج محذرا وهو يقول لها جادا :

- اعقلى يا جليلة ، ماذا حملك على المجيء الى هنا تحت

أنظار الناس جميعا؟!

فقالت كالمعتذرة وان لم ترايلها بسمه ساخرة :

- عز على الا آهنتك على زواج كريمتك ..

فقال السيد فى ضيق :

— لك الشكر يا ستي ، ولكن اما فكرت فيما يثيره مجيئك
لدى من يشهده من ظنون ؟

فضربت جليلة كفا يكف وقالت فيما يشبه العتاب :
— هذا احسن ما عندك لى من استقبال ! .. (ثم موجهة
الخطاب الى صحبه) .. اشهدكم يا رجال على الرجل الذى لم
يكن يبتل صدره حتى يفرز فردة شاربه فى سرتى ، انظروا اليه
كيف لا يطيق الآن رؤيتى ..

فلوح السيد لها بيده كأنما يقول لها « لا تزيدى الطين بلة »
وقال برجاء :

— علم الله ما بى استياء لرؤيتك ولكنه الحرج كما ترين ..
هنا قال السيد على كأنما ليذكرها بما لا ينبغى لها أن تنساه :
— لقد عشتما حبيين وافتقرتما صديقين ، وليس بينكما
ثأر ، ولكن أهله فوق وأبنائه فى الخارج ..

فقالت متمادية فى اغاظة السيد :

— لماذا تتظاهر بالتقوى بين أهلك وانت بركة فسق !

فرماها بنظرة احتجاج قائلا :

— جليلة .. ! لا حول ولا قوة الا بالله .

— جليلة أم زبيدة يا ولى الله !؟

— حسبى الله ونعم الوكيل ..

فأرعشت له حاجيها كما أرعشتها لعائشة من قبل ولكن
على سبيل التهكم لا الإعجاب هذه المرة وقالت بصوت هادىء
جاد كالتقاضى ينطق بالحكم :

— سيان عندى أن تعشق زبيدة أم غيرها من النساء ولكن
يوسفنى ورأس أمى أن تتمرغ فى التراب بعد أن غرقت حتى
أذنيك (مشيرة الى نفسها) فى القشدة ..

عند ذاك نهض السيد محمد علفت — وكان من اقرب المقربين

اليها — وقد خاف أن يتمادى بها السكر الى ما لا تحمد عقباه
فتناول يدها وجذبها برفق صوب الباب هامسا فى أذنها :

— حلفتك بالحسين الا ما رجعت الى مستمعائك المنتظرات
على نار

فطاوعته بعد ممانعة ولكنها التفتت نحو السيد وهى تبتعد
رويدا وقالت :

— لا تنس أن تبلغ تحياتى الى انقارحة ، ونصيحتى اليك —
بحق الأخوة — أن تفتسل بعدها بالكحول لأن عرقها مصاص
للدماء ..

شيعها السيد بنظرة ساخطة وهو يلعن الحظ الذى قضى بأن
ينكشف أمام كثيرين — خاصة أهله — ممن عرفوه مثالا للجد
والرزانة ، أجل لم يزل ثمة أمل فى الا يبلغ الحادث أحدا من آله
ولكنه أمل ضعيف ، ولم يزل ثمة رجاء فى الا يفهموه اذا بلغهم —
بما طبعوا عليه من براءة — على حقيقته ولكنه رجاء غير مضمون
لاكثر من سبب ، بيد أنه على أسوأ الفروض لا يحق له أن يجزع
لأن خضوعهم له من ناحية وسيطرته عليهم من ناحية أخرى
أثبت من أن يززعهما مززع ولا هذه الفضيحة نفسها ، فضلا
عن هذا فان احتمال انكشاف أمره لدى أحد من أبنائه أو لديهم
جميعا لم يكن عنده يوما بالفرض المستحيل ، ولكنه لم يقلق لذلك
أكثر مما ينبغى ، لثقتة بقوته ، ولأنه لم يعتمد فى تربيته على
القدوة والاقتناع فيخاف انحرافهم عن الجادة تبعا لما قد يظهر لهم
من انحراف عنها ، ولأنه استبعد أن يطلعوا على شىء من أمره قبل
أن يبلغوا أشدهم أى حين لا يهمه كثيرا أن ينكشف لهم سره ،
ولكن شيئا من هذا لم يستطع أن يلاحظ من أسفه على ما وقع ،
حقا لم يخل من سرور ومن تيه جنسى ، إذ أن مجيء امرأة كجليلة
بنفسها الى مجلسه لتنهئه أو لتعابشه أو حتى لتهكم بعشقه الجديد
« حادث » له مغزاه الهام فى الأوساط التى تشهد لياليه ، وظاهرة

لها دلالتها البعيدة لرجل مثله لا يعدل بالهوى والطرب والانس شيئا، ولكن اكم كانت تكون سعادته صافية لو وقع الحادث الجميل بعيدا عن هذه البيئة العائلية !

اما ياسين وفهمى فلم تتحول عيناهما عن باب المنطرة منذ ولجته جليلة حتى خرجت منه مصحوبة بالسيد محمد عفت . دهش فهمى دهشة بكرا دار لها رأسه كياسين حين سمع زنوبة وهى تجيبه قائلة « انه من حيننا ولا بد أنك تسمع عنه .. السيد احمد عبد الجواد .. » ، على حين ركب ياسين حب استطلاع نهم فأدرك - في سعادة أبقت في قلبه نشوة الإعجاب والمشاركة الوجدانية التى شعر بها نحو أبيه في حجرة زنوبة - أن جليلة مغامرة أخرى في حياة أبيه التى بات يؤمن بأنها سلسلة ذهبية من المغامرات ، وأن الرجل فاق كل ماتصوره خياله عنه ، وليت فهمى يأمل ويرجو أن يعلم بين حين وآخر بأن العالة انما أرادت مقابلة والده لسبب أو لآخر يتعلق بدعوتها الى احياء فرح عائشة حتى جاء خليل شوكت واخبرهما ضاحكا بأن جليلة « تداعب السيد » وبأنها « تتودد اليه تودد الصديق للصديق » وعند ذلك لم يطق ياسين صبرا على كتمان ما عنده من سر ووثبت نشوة الشراب به الى الادلاء بمعلوماته فانتظر حتى غادر خليل ثم مال على أذن أخيه قائلا وهو يغالب ضحكه « كنت عنك أشياء تخرجت من البوح بها في حينها ، أما وقد رأيت ما رأيت وسمعت ما سمعت فسأبوح لك بها » ومضى يقص عليه ما سمع وما رأى في بيت زبيدة العالة ، وفهمى يقاطعه من آونة لآخرى قائلا في ذهول « لا تقل هذا .. » « هل فقدت وعيك » ، « كيف تريدنى على أن أصدقك » حتى أتى الشاب على قصته بكل تفاصيلها ، لم يكن فهمى ، بما نشأ عليه من عقيدة ومثالية ، على استعداد لفهم - بله هضم - السيرة الخفية التى تنكشف له لأول مرة خاصة وان والده نفسه كان من أركان عقيدته ودعائمه مثاليته ، ولعل ثمة وجها من التشابه بين

شعوره وهو يعانى هذا الكشف لأول وهلة وبين شعور الجنين - ان صدق الخيال - وهو ينتقل من مستقر الرحم الى مضطرب الحياة ، ولعله لو كان قيل له ان جامع قلاوون انعكس وضعه فصارت المثذنة أسفل بنائه والضريح عاليه ، او كان قيل له ان محمد فريد خان رسالة مصطفى كامل وباع نفسه للانجليز لما كان هذا او ذلك بأدعى الى انكاره وانزعاجه . « أبى يذهب الى بيت زبيدة ليشرب ويغنى ويضرب الدف .. أبى يذعن لداعبة جليلة وتوددها .. أبى يقترب السكر والزنا ، كيف اجتمعت الثلاث .. اذن هو غير الأب الذى عرفته في البيت مثالا للورع والقوة .. أيهما الصحيح ؟ .. كأتى أسمعه الآن وهو يردد : الله اكبر .. الله اكبر ، فكيف تردده للفناء .. حياة تمثيل ورياء .. ولكنه صادق ، صادق اذا رفع رأسه للنساء ، صادق اذا غضب .. أياكون أبى رذيلة أم يكون الفسق فضيلة .. !

- ذهلت ؟ .. ذهلت أنا أيضا عندما نطقت زنوبة باسمه ، ولكن سرعان ما استسختفت نفسى وسألتها ماذا عليه من هذا ؟ .. كفر .. هكذا الرجال جميعا او هكذا يجب ان يكونوا .. « هذا القول جدير بياسين حقا .. ياسين شيء وأبى شيء آخر .. ياسين ! .. ما ياسين ! .. ولكن كيف يحق لى أن أردد هذا الآن وأبى ، أبى نفسه » لا يختلف عنه في شيء ان ام يفقه تدهورا .. كلا ليس تدهورا .. ثمة أمر اجهله .. أبى لا يخطئ .. غير قابل للخطأ .. فوق الشبهات .. وعلى أى حال فوق الاحتقار .. - ما زلت ذاهلا ؟ !

- لا أتصور شيئا مما قلت ... ! لماذا ؟ .. اضحك وافهم الدنيا ، يغنى وماذا في الفناء من عيب ؟ ويسكر وصدقنى ان السكر الذم من الأكل ، ويعشق والعشق كان ملهاة الخلفاء ، اقرا ديوان الحماسة والأخبار التى بهامشه ، ليس على أبينا حرج ، اهتف معى ليحيى السيد احمد عبد الجواد ،

ليحيى ابونا ، سأترك لحظة ريثما أزور لهذه المناسبة - الزجاجة التي أخفيها تحت الكرسي .

بعودة العالة الى التخت شاع في الحريم نبأ مقابلتها للسيد أحمد عبد الجواد . فانتقل من لسان الى لسان حتى تنهى الى الأم وخديجة وعائشة ، ومع انهن كن يسمعن شيئا كهذا لأول مرة الا ان سيدات كثيرات - ممن بين بعولهن وبين السيد سبب من اسباب المودة - تلقين النبأ في غير ما دهش وغمزن بأعينهن باسماتشان الذي يعرف أكثر مما يقال ، ولكن واحدة منهن لم تسول لها نفسها الخوض في الموضوع اما لأن الخوض فيه جهارا امر لا يجمل بهن امام كريماتهن واما لأن دواعي المجاملة أملت عليهن بأن يمسكن عنه حيال أمينة وكريمتها ، غير أن حرم المرحوم شوكت قالت لأمينة مداعبة « حذار يا أمينة هانم فالظاهر أن عين جلييلة زاغت الى السيد أحمد ! » فابتسمت أمينة متظاهرة بعدم الاكتراث ودم الحياء والارتباك يخضب وجهها ، لأول مرة تلمس دليلا محسوسا على ما قام بنفسها قديما من شكوك ، ومع أنها الفت الصبر والتسليم بما قدر عليها الا أن ارتطامها بدليل محسوس حز في قلبها فأحست عذابا لا عهد لها به وجرحا داميا في صميم كبريائها ، وأرادت امرأة أن تعلق على قول حرم المرحوم شوكت بكلمة مجاملة تليق بأم العروس فقالت « من يكن له وجه كوجه ست أم فهمى قسامة فلا يحق لها أن تخشى زيفان عين زوجها الى امرأة أخرى ! » فاهتزت جوانحها للثناء وعادتها ابتسامتها الحبيبة ووجدت - على أى حال - بعض العزاء عما تعانیه من ألم صامت ، الا أنه لما بدأت جلييلة اغنية جديدة فملأ صوتها مسدعيا ثارا بها غضب مفاجيء وشعرت ثوانى بأن زمام نفسها سيفلت من قبضتها ولكنها سرعان ما كظمته بقوة خليقة بامرأة لم تعترف لنفسها قط بحق الغضب . هذا على حين تلقت خديجة وعائشة النبأ بدهش فتبادلتا نظرة حائرة وتساءلتا بعينيهما عما يعنيه الأمر كله ، بيد أن دهشههما لم

يقترن بانزعاج كما حدث لفهمى ولا بالأم كما حدث لأمهما ، ولعلهما وجدتا في قيام امرأة كجليلة من تحتها وتكبدها مشقة النزول الى مجلس أبيهما لتحيته ومحادثته شيئا مثيرا للاعجاب حقا ، ثم شعرت خديجة برغبة غريزية في استطلاع وجه أمها فاسترقت اليها النظر ومع أنها رأتها بتبسم الا أنها فطنت من أول وهلة الى أنها تكابد الما وارتبكا ينقصان عليها صفوها وأحست بضيق وما لبثت أن جنقت على العالة وحرم المرحوم شوكت والمجلس كله ..

ولما أزفت ساعة الزفة نسي كل همه ، أسابيع مضت فشهور وصورة عائشة في ثوب الزفاف لا تبرح الأذهان ..

بدأت الغورية متلفعة بالظلام والصمت حينما غادرت الأسرة بيت العرس عائدة الى النحاسين . سار السيد أحمد في المقدمة وحده ، وتبعه على بعد أمتار فهمى وياسين الذي أفرغ مافي وسعه كيما يتمالك نفسه ويتحكم في مشيته أن يخونه وعيه الزائف من فرط الشراب ، ثم جاءت في المؤخرة أمينة وخديجة وكمال وأم حنفى ، انضم كمال الى القافلة على رغبة . فلولا الحادى الذى يتقدمها لوجد سبيلا الى عصيان يد والدته وانقلب راجعا الى حيث غادروا عائشة ، وجعل لهذا يتلفت بين خطوة وأخرى صوب بوابة التولى ليودع أسيفا محزوننا آخر ما لاح من مظاهر الفرح ، ذلك الصباح المضي الذى رقى عامل في سلم خشبي اليه ليقتلعه من مربطه فوق مدخل السكينة ، لشد ما نقطع قلبه أن ينظر الى أسرته فيجدها قد تخلت عن أحب أفرادها اليه بعد أمه ، ورفع بصره الى نوالده وسألها هامسا :

- متى تعود أبله عائشة الينا ؟

فأجابته بمثل صوته :

لا تكرر هذا وادع لها بالسعادة ، ستزورنا كثيرا ونزورها كثيرا ..

فهمس مرة أخرى محنقا :
- ضحكتم على .. !

فاشارت بيدها الى الامام ، في اتجاه السيد الذي كادت تبثله
الظلمة ومطت شفيتها هامسة « هس » ، ولكنه كان مشغولا
باستحضار صور مما مر به في بيت العرس الى تحيلته ، رأت انها
متناهية في غرايتها وفيما يعثه في نفسه من حيرة فجذب يدها
اليه ليعتمد بها عن خديجة وأم حنفي ثم همس متسائلا وهو
يشير الى الوراء :

- أما علمت بما يدور هنالك ؟

- ماذا تقصد ؟

- نظرت من ثقب الباب ..

فانقبض قلب الام جزعا لأنها حدثت أي باب يعنى ولكنها
سألته مكذبة نفسها :

- أي باب ؟

- باب غرفة العروس .. !

فقالت المرأة بانزعاج :

- يا له من عيب أن ينظر الانسان من ثقب الابواب .. !

فهمس من فوره :

- ما رأيته أعيب ..

- أخرس ..

- رأيت أبله عائشة وسى خليل يجلسان على الشيزلنج ..

وهو ..

فلكرته في كتفه بشدة حتى أمسك ثم همست في أذنه :

- يجب أن تخجل مما تقول ، لو سمعك أبوك لقتلك ..

ولكنه قال باصرار وبلهجة من يشعر بأنه يكشف لها عن
حقيقة لا يمكن أن تتصور هي وقوعها :

- كان يتناول دفنها بيده ويقبلها ..

ولكرته مرة أخرى بقسوة لم يعهدها من قبل فأدرك انه أخطأ
حقا وهو لا يدري وسكت خائفا ، ولكنه عندما كانا يقطعان فناء
البيت المظلم متأخرين عن بقية الأسرة - وقد تخلفت عنهما
أم حنفي لتسك الباب وتضيبه وترسه - ألح عليه ما يكابد من
حيرة ورغبة في الاستطلاع فخرج من صمته وخوفه وسألها برجاء .
- لماذا يقبلها يا نينة ؟

فقالت له بحزم :

- إذا عدت الى هذا أخبرتك والدك .. !

- ٤١ -

أوى ياسين الى حجرة النوم وهو على حال من السكر شديدة ،
مكاد يخلو الى فهمي وأمن الرقباء - سرعان ما غط كمال في نومه
عقب وضع رأسه على المخدة مباشرة - حتى جمحت به رغبة في
العريضة كرد فعل للجهد العصبي الذي بذله طوال السهرة ، خاصة
في طريق العودة ، كيما يضبط نفسه ويسيطر على سلوكه ، ولكنه
وجد الحجرة اضيق من أن تتسع لعريشته فمال الى التنفيس عن
صدره بالكلام فنظر نحو فهمي وهو ينزع ملابسه وقال ساخرا :
- قارن بين خيبتنا وبين براعة آيينا .. ! حقا انه لرجل ..

وعلى رغم ما حرك هذا الكلام من ألم فهمي وحيرته الا انه قنع
بأن يقول وهو يرسم على شفثيه المتعضتين شبه ابتسامة :
- البركة فيك فانت نعم الخلف ..

— ابحزنك أن يكون والدنا من كبار القناصة ؟

— وددت لو تمتد يد التغيير الى صورته المائلة في نفسى .

فقال ياسين وهو يفرك راحتيه في سرور :

— الصورة الحقيقية أبهى وأمتع ، أعظم به من أب هو المثل الأعلى ، آه لو رأيته وهو قابض على الدف والكأس بين يديه تزهو ! عفارم .. عفارم يا سيد أحمد !.

فتساءل فهمى في حيرة :

— وحزمه وتقواه ؟!

فقطب ياسين ليركز فكره في المسألة ولكنه وجد نفسه في حال الجمع بين الأضداد أروح لها من التوفيق بينها فقال مدفوعا بالاعجاب وحده :

— ليس ثمة مشكلة على الإطلاق ، عقلك الرعديد وحده الذى يخلق المشكلة من العدم ، أبى حازم ومؤمن ويجب النسوان ، شئ بسيط واضح مثل $1 + 1 = 2$ ، ولعلى أشبه الناس به على وجه التقريب لأنى مؤمن وأحب النسوان وإن قل نصيبى من الحزم ، أنت نفسك مؤمن وحازم وتحب النسوان ، ولكن بينا تحقق أيمانك وحزمك إذا بك تنكص عن الثالثة (ثم ضاحكا) والثالثة هى الثابتة !.

لعله نسى عند آخر كلامه باعث الاعجاب الذى دفعه الى الاسترسال فيه ، فجاء قوله دفاعا عن أبيه في الظاهر فقط ، أما في الحقيقة فلم يكن الا تعبيراً عن شعور وهاج هاج به دمه المخمور ، عن شهوة جامحة ركبت عقب اختفاء الرقباء الذين يحذرهم ، شهوة أثارها خيال مكهرب بالشراب ، فرغب، جسده في الحب رغبة جنونية عجزت ارادته عن شكهما أو ملاطفتها ، ولكن أين يجد مطلبه ؟! هل يتسع له الوقت ؟!.. زنوبة ؟!.. ماذا يحول بينه وبينها ؟!.. طريق قصير ، ضجعة قصيرة ، ثم يعود فينام نوما عميقا هادئا ، هس للأخيلة المغرية هشاشة شخص لا عقل له

يراجعه فاندفع الى تحقيقها بلا تردد ، وما لبث أن قال لآخيه :
— الجو حار ، سأصعد الى السطح لأنسم هواء الليل الرطيب ...

وغادر الحجرة الى الدهليز الخارجى ، ومضى يهبط السلم متملسا طريقه في ظلمة غاشية ، محاذرا غاية الحذر أن يند عنه صوت . ترى كيف يستطيع الوصول الى زنوبة في هذه الساعة من الليل ؟! هل يطرق الباب ؟! ومن عسى أن يجيء لفتحه ؟! وبم يجيبه إذا سألته عن مقصده ؟! وإذا لم يستيقظ أحد لفتح الباب ؟! أو إذا جاء الغفير ليراقبه بتطفله المعروف ؟! عامت هذه الخواطر على سطح مخه كالفقاقيع ثم انداحت غارقة في تيار الحمر الجارف فلم يتجهم لها كعوائق ينبغي تقدير عواقبها ولكنه ابتسم لها كدعابات مما قد يؤنس وحشة مغامرته ، ثم جاوزها خياله طائرا الى حجرة زنوبة المظلة على مفرق الغورية والصنادقية فتخيلها في قميص النوم الأبيض الشفاف الذى يتقوس مطاوعا فوق التهدين وحول الردفين وتنحسر حاشيته عن ساقين مدملجتين خمريتين فجن جنونه وود لو يشب فوق الدرجات لولا الظلمة الفاشية . خرج — بخروجه الى الفناء — الى ظلمة أخف قليلا بما نفخته النجوم عليها من أضواء خافتة بيد أنها بدت لعينه اللتين كابدتا ظلمة السلم طويلا نورا أو كالنور . وعندما خطا خطوتين متجها الى الباب الخارجى في آخر الفناء جذب عينيه نور ضئيل ينبعث من سراج على وضم أمام حجرة الفرن فألقى عليه نظرة لا تخلو من استغراب حتى عثر قريبا منه على جسم منطرح على الأرض فتنوره على ضوء السراج فعرف أم حنتى التى بدت وكأنها استجبت النوم في الهواء الطلق فرارا من جو حجرة الفرن الخانق . وهم بمواصلة السير ولكن ثمة شئ استوقفه فمطف رأسه مرة أخرى صوب النائمة فأمكنه أن يتبينها من موقفه ، الذى لم يفصله عنها الا بضعة أمتار ، بوضوح غير

منتظر ، رآها مستلقية على ظهرها ثانية ساقها اليمنى التي
رسمت في الهواء بحافة الجلباب المتصقة بالركبة هرما قائما
وكشفت في نفس الوقت عن فخذه اليسرى التي لاحت عارية
فيما يلي الركبة ثم غرقت في ظلمة الفرجة التي انحسر عنها الجلباب
بين الساق القائمة والأخرى الممدودة ومع أن احساسه بضيق
الوقت ووجوب البدار الى غايته لم يهن إلا أنه لم يسترد بصره
عن الجسم الملقى غير بعيد منه ، أو لعله لم يستطع استرداده
وانساق وهو لا يدرى الى تفرسه بامعان بدا في يقظة عينيه
المحمرتين وانفراج شفثيه المثلثتين ، فاستحالت يقظة العين -
وهي تتفحص الجسم اللقيم الذي شغل فراغا كبيرا كأنه جاموسة
مسمنة - رغبة مريبة حتى استقر البصر على الفرجة المعتمة
ما بين الساق القائمة والساق الممدودة ، ثم تحول التيار
المضطرم في شرايته من التطلع صوب باب الخروج الى حجرة
الفرن ، وكأنه يكتشف لأول مرة المرأة التي خالطها اعواما طويلة
بغير مبالاة . على أن أم حنفي لم تحظ بسمة واحدة من سمات
الحسن ، وبدا وجهها الجهم أكبر من سننها الحقيقية التي لم تك
تجاوز الأربعين ، حتى اكتنازها باللحم والدهن كان - لتنافره
وسوء تنسيقه - بالانتفاخ الغليظ أشبه ، ولذلك ، وربما أيضا
لطول انزوائها في حجرة الفرن وقديم معاشرته لها التي بدأت
مع صباه ، لم يلتفت اليها قط ، بيد أنه كان وقتذاك على حال من
الهيجان فقد معها اية قدرة على التمييز فأعمته الشهوة ، وأى
شهوة ؟ شهوة مولعة بالمرأة لذاتها لا لمعانيها ولا لآلوانها ، تعشق
الحسن ولا تعزف عن القبح ، والكل عندها في « الأزمان »
سواء كالكلب يلتهم بلا تردد ما يصادفه في القمامة ، عند ذاك
بدت له مغامرته الاولى - زنوبة - محفوفة بالتعاب مجهولة
العواقب ، ولم يعد « الوصول اليها في هذه الساعة من الليل ،
وطرق الباب ، وما يقول لفتاحه ، والفقر » دعابات ينسم

لها ، ولكن عوائق حقا يجدر به أن يتفادى منها . تقدم في خفة
وحذر فاغرا فاه ، ذاهلا عن كل شيء الا قنطار اللحم المنطرح عند
قدميه الذي بدا لعينيه النهمتين وكأنه أخذ أعبته لاستقباله ،
حتى توقف بين الساق القائمة والأخرى الممدودة ، ثم انحنى عليها
قليلا قليلا بلا وعى تقريبا ، وبأغراء شديد من الداخل والخارج
معا ، وما يدرى الا وهو ينبطح فوقها . لعله لم يتعمد الذهاب
الى هذا الحد دفعة واحدة ، ولعله هم بشيء من التمهيد كان
لا ينبغي أن يسبق الحركة العنيفة الأخيرة ، ولكن الجسم الذي
انبطح عليه اضطرب اضطرابة فزع شديدة وندت عنه صرخة
مدوية - سبقت يده التي رامت كتمها - فمزقت السكون الشامل
ولطمت مخه لطمة قوية ردت اليه وعيه فأطبق راحته على فمها
وهو يهمس في أذنها بقلق وخوف بالغين :
- أنا ياسين ، أنا ياسين يا أم حنفي ، لا تخافي ..

وطفق يكرر قوله حتى اطمأن الى وعيها اياه فاسترد راحته ،
ولكن المرأة - التي لم تمسك عن المقاومة قط - تمكنت أخيرا من
تنحيه عنها ، فاستوت جالسة وهي تلهث من الجهد والانفعال
ثم سألت بصوت أزعجه أيما ازعاج :
- ماذا تريد يا سي ياسين ؟

فقال لها بلهجة هامسة ملؤها الرجاء :
- لا ترفعي صوتك هكذا ، قلت لك لا تخافي ، ليس ثمة ما يدعوك
الى الخوف بتاتا ..
فعدلت تسأله بجفاء وان خفضت من صوتها قليلا :
- ماذا جاء بك ؟

فجعل يربت على يدها متوددا وهو يتنهد في شبه ارتياح
لم يخل من عصبية كأنما رأى في خفضها لصوتها اماراة مشجعة
وقال لها :

— ماذا أغضبك ؟ لم أرد بك سوءا (مبتسما ابتسامة وشت بها نبراته) هلمى الى حجرة القرن ..
فقال المرأة بصوت مضطرب ولكنه ذو دلالة حازمة :
— كلا يا سيدى ، اذهب الى حجرتك ، اذهب ، الله يلعن الشيطان ..

لم تزن أم حنفى كلماتها بميزان ولكنها ندت عنها كما اقتضى الحال . لعلها لم تعبر أصدق التعبير عن رغباتها ، ولكنها عبرت تماما وبغير شعور منها عن شدة المفاجأة ، مفاجأة لم تسبق يوما تمهيد من أى نوع كان ، التى انقضت عليها في نومها كما تنقض الحداة على الفرخ ، فصدت الشاب وزجرته بلا أدنى تفكير حقيقى في الصد أو الزجر ، بيد أنه أساء فهمها فامتلا حنقا وثار تارت برأسه الخواطر .. « ما العمل مع بنت الكلب هذه ! لا يمكن أن أراجع بعد أن كشفت نفسى وتماديت الى حد الفضيحة ، لأبد مما أريد ولو لجأت الى القوة » وفكر بعجلة في أنجع وسيلة للتغلب على ما تراءى له من مقاومة ولكنه — قبل أن يتخذ قرارا — سمع حركة غريبة ، لعلها أقدام ، آتية من باب السلم ، فوثب قائما وهو من الفزع في نهايته ، مزدردا شهوته كما يزدرد اللص فصر الماس المسروق اذا بوغت في مكمته ، واستدار صوب الباب ليعاين ما هنالك فرأى واندده وهو يجتاز العتبة ماذا ذراعه بالمصباح . تسمر في مكانه مختطف الدم مستسلما ذاهلا يائسا . أدرك من توه أن صرخة أم حنفى لم تضع هباء ، وأن النافذة الخلفية للحجرة الأب كانت له بالمرصاد ، ولكن ما جدوى الإدراك المتأخر ؟ .. لقد وقع في فخ القضاء والقدر . وجعل السيد يتفرس في وجهه بقسوة صامتة ، مطيلا الصمت ، وهو ينتفض غضبا . ودون أن يحول عنه عينيه القاسيتين أشار بيده الى الباب يأمره بالدخول ، ومع أن الاختفاء كان أحب اليه في تلك اللحظة من الحياة نفسها إلا أنه من الخوف والارتباك لم يستطع أن يحرك ساكنا ، فضا

صدر الأب ولاحت في عبوسته بوادر الانفجار ثم زمجر صائحا وعيناه — اللتان انعكس عليهما ضوء المصباح المرتعش بارتعاش اليد القابضة عليه — ترسلان شررا ..
— أطلع يا مجرم يا بن الكلب .

فما ازداد الا استمساكا بجموده حتى هجم عليه السيد فقبض على ذراعه بيمينه وشد عليها بقلطة ثم جذبه بشدة نحو الباب فاندفع بقوة الجذبة الخارقة فكاد يقع على وجهه ، وتمالك توازنه وهو يلتفت وراءه فزعا ، وفر بنفسه وثبا لا يبالي ظلمة ..

- ٤٢ -

علم بفضيحة ياسين شخصان — غير أبيه وأم حنفى — هما سبت أمينة وفهمى ، سمعا صرخة أم حنفى ، فشاهدا من نافذتيهما ما دار بين الشاب وبين السيد ، ثم حدسا ما هنالك دون حاجة الى كبير ذكاء ، على أن السيد كاشف زوجه بزلة ابنه وبها لها مدققا عما تعلم من أخلاق « أم حنفى » فدافعت أمينة عن خادماتها بما علمت من طبيعتها واستقامتها وذكرت السيد بأنه لولا « صرختها » ما درى أحد بما كان فقضى الرجل ساعة وهو يشب ويلعن ، سب ياسين ، وسب نفسه لأنه « ما كان ينبغى أن ينجب أطفالا ليكدروا صفوه بأهوائهم الشريرة » واستفاض به الغضب فسب البيت وأهله جميعا ! .. وظلت أمينة صامتة كما واصلت صمتها فيما بعد كأنما لم تدر شيئا ، كذلك تجاهل فهمى الأمر كله ، تظاهر بالاستغراق في النوم حين غاد أخوه الى الحجرة لاهثا عقب الموقعة الخاسرة ، ولم يبد منه فيما بعد ما ينم عن علمه بشيء ، كره أن يعلم الآخر بوقوفه على ما نزل به من ذل ومهانة

اكراما لاحترام يكتنه له بصفته اخاه الأكبر ، احترام لم يذهب
كل ما تكشف له من استهتاره ومجونه أو ما تقدم هو به عليه من
علم وثقافة ، أو ما يبدو من ياسين نفسه من عدم مبالاة بالزام
أحد من اخوته باحترامه بما يعابثهم من مزاح ودعابة ، أجل لم يزل
يكن له احتراماً لعل حرصه على الإبقاء عليه راجع الى ما يأخذ به
نفسه من تأدب وجد ورزانة أكسبته مظهراً أكبر من سنه ، بيد
أن خديجة لم يفتها أن تلاحظ - غداة الواقعة - أن ياسين لم
يتناول فطوره على مائدة أبيه فسألته باستغراب عن المانع فأجابها
بأنه لم يهضم عشاء الفرح ، وشعرت الفتاة - بسوء ظنها الطبيعي
المرهف - بأن ثمة علة لتخلفه غير عسر الهضم فسألت أمها ولكنها
لم تجد جواباً شافياً ، ثم رجع كمال من حجره الطعام وهو يتساءل
أيضاً ، لا بدافع من حب الاستطلاع أو الأسف ، ولكن أملاً أن يجد
في الجواب ما يشره بفترة أخرى يخلو الميدان فيها من منافس
خطير كياسين ، وكاد الأمر ينسحب لولا أن ياسين غادر البيت مساء
من غير أن يشترك في مجلس القهوة المعهود ، ومع أنه اعتذر لفهمي
والأم بارتباطه بميعاد إلا أن خديجة قالت بصراحة « في الأمر شيء ،
لست عبيطة .. أقطع ذراعي أن لم يكن ياسين متغيراً » . وعند
ذاك اضطرت الأم أن تعلن غضب السيد على ياسين لسبب لم
تعلمه .. وانقضت ساعة وهم يخمنون السبب حتى أمينة وفهمي
اشتركا مع الآخرين مداراة للواقع ، وظل ياسين على تجنبه للمائدة
أبيه حتى دعى ذات صباح الى مقابلته قبل الفطور . لم تفجأه
الدعوة ، وإن أزعجته رغم ذلك - فكم توقعها يوماً بعد يوم
لاستيثاقه من أن أباه لا يمكن أن يقنع من زلته بتلك الحذبة العنيفة
التي كادت أن تلقيه على وجهه ، وأنه لابد عائد إليها بطريق أو بآخر
ولهله توقع أيضاً معاملة لن تليق بحال بموظف مثله مما حمله حيناً
على التفكير في مغادرة البيت الى حين أو الى الأبد ، أجل لا يجمل
بأبيه - أبيه كما عرفه في بيت زيدة خاصة - أن يلقى زلته بهذا

العنت كله ، كما لا يجمل به هو أن يعرض نفسه لمعاملة لا تليق
برجولته فالأكرم له أن يفارقه ، ولكن الى أين ؟ .. ليس إلا أن
يعيش عيشة مستقلة بمفرده ، ولن يعجزه هذا ، بيد أنه قلب
الأمر على مختلف وجوهه ، قدر النفقات وتساءل عما يبقى له
بعدها للملاذ ، لقهوة سى على وحانة كوستاكي وزنوبية ، هنالك
فتر حماسه حتى انطلقاً كما تنطفئ شعلة سراج تعرضت لهبة
هواء عنيفة ، وراح يقول لنفسه وهو شاعر بخداعه « لو طأعت
الشیطان وهجرت البيت لأحدثت تقليداً خبيثاً لا يليق بأسرتنا .
مهما يقل أبى أو يفعل فهو أبى وهيهات أن تضام حيال تأديبه »
ثم قال بصراحته التي يصطنعها إذا غلبته روح الدعابة « شيئاً من
التواضع يا ياسين بك ، دعنا من الكرامة وحياة أمك ، أيهما أحب
إليك كرامة سيادتك أو كونيك كوستاكي وسرة زنوبية » . هكذا
عدل عن التفكير في مغادرة البيت ولبث ينتظر الدعوة المتوقعة حتى
وقعت فجمع نفسه ومضى كارها متوجساً ، دخل الحجره خافض
الرأس خفيف القدم ووقف بعيداً عن مجلس أبيه من غير أن
يجرؤ على التسليم عليه ، وانتظر وألقى السيد عليه نظرة طويلة
ثم هز رأسه كالمتعجب وهو يقول :

- ما شاء الله ! .. طول وعرض ، شارب وقفا ، إذا رآك
الرائي في الطريق قال لنفسه باعجاب نعم الرجل ونعم الابن ،
فليت القائل يجيء الى البيت ليرآك على حقيقتك ..

ازداد الشاب ارتباكاً وحياء ولكنه لم ينس بكلمة ومضى
السيد يتفحصه بسخط ثم قال باقتضاب وبلهجة جافة أمره :
- قررت أن تتزوج ! ..

ودهش ياسين دهشة لم يكذب يصدق معها أذنيه كان يتوقع
سبباً ولعناً فحسب ولكن لم يخطر له على بال أنه سيسمع قراراً
خطيراً يغير مجرى حياته كله فما تمالك أن رفع عينيه الى وجه
أبيه حتى إذا ما التقتا بعينه الزرقاوين الحادثين خفضهما متورد

الوجه لانذا بالصمت ، وفطن السيد الى ان ابنه بوغت بهذا القرار « السعيد » بدلا من المعاملة الفظة التي كان يتوقعها فثار حنقه على الظروف التي املت عليه ان يلقيه بجانب دمث خليق بتكذيب ظنه بجبروته المعروف فبث حنقه في نبرات صوته ، وهو يقول عابسا :

— الوقت ضيق واريد ان اسمع جوابك ..

ما دام الرجل قد قرر ان يزوجه فهو يأبى الا ان يسمع جوابا واحدا ، ولا مانع من ان يسمعه الجواب الذي يريد ، لا طاعة لامره فحسب ، ولكن تلبية لرغبته هو ايضا ، اجل ما كاد والده يعلنه بقراره حتى انطلق خياله يصور له « عروسا » حسناء ، امرأة تكون ملك يمينه ورهن اشارته حين يشاء فأبهج الخيال قلبه حتى أوشك ان يفضحه صوته وعو يقول :

— الراى رايك يا بابا ..

— تريد أن تتزوج أم لا ؟ .. انطق ..

فقال الشاب بحذر من يرغب الزواج وهو غير مستعد له ماليا . — ما دامت هذه هي ارادتك فاني موافق على العين والراس . فخفف السيد من خشونة لهجته وهو يقول :

— سأطلب لك كريمة صديقي السيد محمد عفت تاجر الأقمشة بالحماوى ، لقية ظفرها برقبة نور مثلك . فابتسم ياسين ابتسامة خفيفة وقال مدهانا :

— ولكنى بفضلك اصير كفتا لها . فرمقه بنظرة حادة كأنما لينفذ بها الى أعماق مدهنته وقال :

— من يسمع كلامك لا يتصور فعالك يا منافق .. اغرب عن وجهى ..

وهم ياسين بالتحرك ولكنه وقفه بإشارة من يده ثم تساءل مستدركا كأنما عرض التساؤل له اتفاقا :

— أظنك حوشت المهر ؟

لم يجر جوابا وعلاه الارتباك فاغتاظ السيد وتساءل مستنكرا :

— ولكنك عشت رغم توظيفك في كفالتى كما كنت تعيش وانت تلميذ فماذا صنعت بمرتبك ؟

فلم يزد على ان حرك شفثيه دون ان ينبس فحرك الأب رأسه ممتعضا وذكر قوله له منذ عام ونصف وهو يوصيه لمناسبة توظيفه « لو طالبتك الآن بأن تتعهد بنفقات نفسك بوصفك رجلا مسئولا ما خرقت المألوف بين الآباء والأبناء ولكنى لن اطالبك بمليم واحد كى أهيب لك فرصة لاقتصاد مقدار من المال تجده بين يديك اذا دعت الحاجة اليه » ، ودل ذلك التصرف من جانبه على ثقته بابنه ، والحق أنه لم يتصور أن يجنح أحد من أبنائه بـ بعد ما نال من تأديبه وتهذيبه الصارمين — الى هوى من الأهواء الجائحة التى تبدد المال ، لم يتصور أن ينقلب ابنه « الصغير » سكيرا ماجنا ، فالخمر والنساء التى يراها في حياته هو لونا من اللهو لا يمس رجولة ولا يؤذى ايما تنقلب اذا « لوثت » أحدا من أبنائه جريمة لا تغتفر ، ولذلك فان زلة الشاب التى كشفها في فناء البيت طمأنته بقدر ما أغضبته لأن أم حنفى في نظره لا يمكن أن تفري شابا ان لم يكن تحمل ما فاق طاقته من الاستقامة والعفة . أجل لم يشك في براءة ابنه بيد انه ذكر ما لاحظته كثيرا من ولعه بالاناقة وتخيره النفيس من البذل والقمصان وأربطة الرقبة وكيف لم يرتج الى ذلك وحذره الاسراف ولكن تحذيرا هينا ، إنما لأنه لم ير في الاناقة جريمة ، واما لأن تشبه ابنه به وتكراره لصورة من صور سلوكه الذى لا يرى بأسا في أن يكرره أبنائه — خركا في صدره العطف والتسامح ، ولكن كيف كانت نتيجة ذلك التسامح ؟ .. هى ما وضع له الآن من تبذيره نقوده في التفاه من الكماليات . ونفخ الرجل مغيظا محنقا وقال له محتدا :

— اغرب عن وجهى ..

غادر ياسين الحجرة مضطربا عليه بسبب تبذيره لا بسبب زلته كما توقع وهو ذاهب الى الحجرة ، تبذيره الذي لم يكرهه من قبل فسلم اليه نفسه بلا تفكير ولا تدبر ، ينفق ما في جيبه حتى يفرغ غارقا في ساعته ، متعاميا عما يسمنه «المستقبل» كأنه شيء لا وجود له ، ومع انه غادر الحجرة مرتبكا وجلا لنهرة ابيه الا انه لم يخل من ارتياح عميق اذ أدرك ان تلك النهرة لا تعنى طرده فحسب ولكن أيضا أن السيد سيتكفل بنفقات زواجه ، ومضى كالطفل الذي يضيق أبوه بالحاجة في طلب قرش فينقده اياه ويدفعه خارجا فينسى شدة الدفعة في فرحة الظفر . ولبت الأب ساخطا وراح يردد « يا له من حيوان ، جسم طويل عريض ولكن بلا مخ » أغضبه اسرافه كأنه لا يتخذ هو من الاسراف شعارا في الحياة ، ولكنه لا يرى بأسا في اسرافه كسائر أهوائه - ما دام لا يفقره وينسيه واجباته او يدهور شخصيته ، ولكن كيف يضمن أن يصمد أمامه ياسين ؟.. فلم يكن يحرم عليه ما يحل لنفسه من استبداد وانانية فحسب ولكن شفقة عليه وان دل شفقته هذا على ثقة بالنفس وعدم ثقة بالآخر لا يخلدان من غرور . وزايله الغضب كعادته - بنفس السرعة التي ركب بها ، فصفت نفسه وانبسطت أساريره وأخذت الأمور تتبدل له بوجه جديد لطيف مسماح .. « تريد أن تتشبه بأبيك ياتور .. اذن لا تأخذ جانبا وتهمل الجوانب الأخرى » كن أحد عبد الجواد كله ان استطعت أو فالزم حدودك ، أحسبتي حقا سخطت على تبذيرك لانى كنت أرجو أن أزوجك بنقودك ؟!.. خسئت .. انما رجوت أن أجذك مقتصدا كي أزوجك بنقودى على وفرة النقود لديك ، هذا هو الرجاء الذى خيبت . وهل حسبتي لم أفكر في اختيار زوجة لك الا بعد ضبطك متلبسا بالزنا ، وأى زنا .. زنا حقير كحقارة ذوقك وذوق أمك ؟!.. كلا يا بغل انى أفكر في سعادتك منذ توظفت ، كيف لا وأنت أول من جعلنى أبا .. وأنت شريكى في العذاب الذى

أصلتنا اياه أمك اللعينة ؟!.. ثم اليس من حقى أن أفرح بك خصوصا وانه على أن انتظر طويلا حتى أفرح بالثور الآخر أخيك اسير العشق ويا ترى من يعيش ؟!.. « في اللحظة التالية استرجع ذكرى ذات سبب وثيق بموقفه الراهن ذكر كيف قص على السيد محمد عفت « جريمة » ياسين وما كان من زجره وجذبه تلك الجذبة التى كادت تلقيه على وجهه وهو بصدد طلب يد كريمة للشباب - الواقع ان الموافقة على ذلك تمت بين الرجلين من قبل مفاتحة ياسين - وكيف قال له الرجل « الا ترى انه يجمل بك أن تغير من معاملتك لابنك كلما قارب سن الرشد خاصة اذا توظف وسار رجلا مسئولا ؟ (ثم ضاحكا) الظاهر انك من الآباء الذين لا يرتدعون حتى يجهر ابناؤهم بالثورة عليهم » وكيف أجابه بثقة قائلا : « هيهات أن تتعرض الرابطة بينى وبين ابنائى لتغير الزمن » صدرت عنه الاجابة الأخيرة بمباهاة وثقة لا حد لها ، على انه اعترض له بعد ذلك أن معاملته تتغير في الواقع بتغير الأحوال وان عمل من جانبه على الا يفتن أحد الى نية التغيير الباطنة ثم قال : « الحق انى لا أقبل أن أمد يدى الآن على ياسين ولا حتى على فهمى ، والحق انى جذبت ياسين تلك الجذبة تحت تأثير غضب ثائر ومن غير أن أقدر المدى الذى ذهبت اليه » ثم استطرد قائلا وهو يكر الى فترة من الماضى البعيد « كان أبى رحمة الله عليه يلتزم في تربيته شدة تهون الى جانبها شدتى مع ابنائى ولكنه سرعان ما غير من معاملته لى منذ أن دعانى الى معاونته في الدكان ، ثم استحالت معاملته صداقة أبوية منذ تزوجت أم ياسين ، وقد بلغ بى الاعتزاز بالنفس أن عارضت في زواجه الأخير لكبره من ناحية وحدائه سن العروس من ناحية أخرى فلم يزد على أن قال لى « أتعارضنى ياتور .. وما دخلك في هذا الشأن ؟!.. انى أقدر منك على ارضاء أمة امرأة » فما تمالكت أن ضحكت وطيببت خاطره معتذرا « ذكر هذا كله فورد على ذهنه

بنظرة ناطقة رنا بها الى امه ، فهمى وحده الذى اثار الخبر
اشجانه لا لانه لم يشارك ياسين فرحته ولكن لأن سيرة الزواج
غدا من شأنها أن توقظ عاطفته وتستثير حزنه كما تستثير سيرة
النصر حزن أم فقدت ابنها .. في موقعة ظافرة ..

- ٤٣ -

تحرك الحانطور مقلًا الأم وخديجة وكمال في طريقه الى السكرية .
ايكون زواج عائشة ايذانا بعهد جديد من الحرية ؟ ايقدر لهم أخيرا
ان يطلعوا على نور الدنيا من حين لآخر وأن يتنفسوا هواءها
الطليق ؟! . بيد أن أمينة لم تستسلم للتفاؤل أو تسبق الحوادث ،
فالذى حرم عليها زيارة أمها الا فيما ندر قادر على أن يحرم عليها
زيارة ابنتها كذلك . ولم تنسأه مضت أيام كثيرة على زواج الفتاة
زارها خلالها الأب وياسين وفهمى وحتى أم حنفى دون أن يؤذن
لها هي بزيارتها أو تواتيها شجاعتها على الاستئذان للزيارة ،
تحرزت من تذكيره بأن لها ابنة في السكرية يجب أن تراها ،
ولازمت الصمت وان لم تبرح صورة الصغيرة مخيلتها . على
أنه لما ضاق صدرها بالأم التصبر استجمعت ارادتها وسألته :
- ان شاء الله يكون سيدى عازما على زيارة عائشة قريبا
لنطمئن عليها ؟..

فطن السيد الى ما وراء السؤال من رغبة خفية فحنق عليها ،
لا لانه كان قرر أن يحول بينها وبين زيارة عائشة . ولكن لأنه ود
بكشانه في مثل هذه الحالة - أن يصدر السماح منه منحة غير
مسبوقة بطلب أن تقوم بنفسها شبهة بأن طلبها ذو اثر فى
استصدار السماح ، فكره أن تسعى الى تذكيره بهذا السؤال

المثل القائل « اذا كبر ابنك أخه » فشعر - ربما لأول مرة في حياته -
بتمدد مهمة الأبوة كما لم يشعر به من قبل . في نفس الأسبوع
أذاعت الأم خطبة ياسين في مجلس القهوة ، كان فهمى قد علم بها
عن طريق ياسين نفسه ، أما خديجة فما تمالكت أن ربطت بين
الخطبة وبين ما عرف من قبل عن غضب الأب على ياسين ظلنا منها
أن الغضب انما وقع نتيجة لرغبة ياسين في الزواج قياسا على ماكان
بين الأب وفهمى للسبب نفسه فصرحت براياها كالمسائلة فقال
ياسين ضاحكا وهو يخطف من الأم نظرة لا تخلو من حياء وارتباك :
- الحق ان ثمة علاقة قوية بين الغضب وبين الخطبة ..

فقالت خديجة متظاهرة بالاستنكار على سبيل السخرية
والمزاح :

- بابا معذور في غضبه لأن حضرتك لا يمكن أن تشرفه أمام
صديق كبير مثل السيد محمد عفت ..
فجاراها ياسين في سخريتها قائلا :
- وسوف يزداد موقف أبى حرجا اذا ما علم السيد الكبير
المذكور بأن للعريس اختا مثل حضرتك !

عند ذاك تساءل كمال :

- هل سيتركنا ياسين كما تركتنا ابله عائشة ؟
فقالت له أمه باسمه :

- كلا ولكن ستنضم الى بيتنا أخت جديدة هي العروس ..
ارتاح كمال الى هذه الاجابة التى لم يكن يتوقعها ، ارتاح الى
بقاء «راويته» الذى يمتعه بحكاياته ونوادره وموائسته ولكنه عاد
تساءل لماذا لم تبق عائشة أيضا ؟ . فأجابته أمه بأن العادة قضت
بأن العروس تنتقل الى بيت العريس وليس العكس ، لم يدر من
سن هذه العادة وتمنى لو كان العكس هو المتبع ولو يضحى
ياسين ولطائفه . بيد أنه لم يستطع أن يجهر برغبته فافصح عنها

الماكر ، ومن قبل فكر في الامر بضيق فاحتقه ان يجده ضرورة
لا محيص منها ، ولذلك هتف بها حانقا !

— عائشة في بيت زوجها ولا حاجة بها الى أحد منا ، على
اننى زرتها كما زارها أخوها فماذا يقلقك عليها ؟

غاص قلبها في صدرها وجف ريقها ياسا وقهرا ، أما السيد
فقد تعمد أن يلزم الصمت كأنه انتهى من الأمر كله معاقبة لها
على ما عده مكرًا منها لا يغتفر ، ثم أهملها طوال الوقت وهو
يختلس النظر الى ما غشى أساريرها من كمد ، حتى حان وقت
انصرافه الى عمله فقال لها بجفاء واقتضاب :

— اذهبي غدا الى زيارتها !..

تدافع دم الانشراح الى الوجه الذي لا تخفى بصفحته خافية
فبدت في سرور الطفل فما عتم أن عاوده حنقه فصاح بها :

— لن تريها بعد ذلك الا اذا سمح لها زوجها بزيارتنا !..

فلم تعلق على قوله بكلمة ولكنها لم تنس عهدا حملته وهى
تشاور خديجة في مفاتحته فقالت بعد تردد واشفاق :

— هل يسمح سيدى بأن آخذ معى خديجة ؟

فهز رأسه كأنما يقول « ما شاء الله .. ما شاء الله .. » ثم
قال لها محتدا :

— طبعًا .. طبعًا !.. ما دمت قد قبلت أن أزوج ابنتى
فيجب أن تنضم أسرتى الى أبناء الشوارع !.. خديجة ، ربنا
ياخذكم جميعًا ..

تم لها فوق ما تطمع من السرور فلم تلق بالا الى الدعاء الاخير
الذى ألفت سماعه .. وأكثر — في أوقات غضبه أو تظاهره
بالغضب على السواء — كانت تعلم بأنه من طرف لسانه وأنه أبعد
ما يكون من قلبه ، مثله كمثّل القطعة تبدو ، حين تحمل صفارها ،
وكانها تلتهمها . تحقق الرجاء وانطلقت العربية بهم في طريقها الى
السكينة . بدا كمال ، لزيارة عائشة وخروجه بصحبة أمه وأخته

وركوبه الحانطور ، أوفر الثلاثة سرورا ، وكأنه لم يستطع كتمان
فرجه أو أنه رغب في اعلانه على الملأ أو لعله أراد لفت الأنظار الى
شخصه وهو يتخذ مجلسه في الحانطور بين أمه وأخته فما اقتربت
العربة من دكان عم حسنين الحلاق حتى وقف بفته هاتقا « يا عم
حسين .. انظر ! » فنظر الرجل اليه ولما لم يجده وحده غص
بصره في عجلة مبسما فذابت الأم خجلا وارتباكًا وجذبته من
طرف جاكته ان يعيد الكرة أمام الدكاكين التالية وراحت تؤبّه
على فعلته « الجنونية » . بدا بيت السكينة — وليس كذلك بدا في
حلة الأنوار ليلة الفرح — عتيقا هراما ولكن دل عتقه نفسه فضلا
عن ضخامة بنيانه ونفاضة أثائه على السؤدد والجاء ، قال شوكت
أسرة « قديمة » وان لم يبق لهم من عزة القدم — خاصة بعد توزيع
الثروة بالتوارث والاستنكار على التعليم — الا الاسم . وقد أقامت
العروس بالدور الثانى على حين نزلت حرم المرحوم شوكت — ومعها
ابنها الأكبر ابراهيم — الدور الأول لمعجزها مع الكبر عن ارتقاء
السلم فبقى دور ثالث شاغرا لم يسمعهم أن يشغلوه وأبوا أن
يسكنوه . ولما ادخلوا شقة عائشة هم كمال ، منطلقا مع سجيته
كما لو كان في بيته ، يجوس خلالها كى يعثر بنفسه على أخته
مستمعا بلذّة المفاجأة التى تخيلها وهو يرقى في السلم ولكن أمه
لم تدعه يفلت من يدها رغم مقاومته وما يدرى الا والخادم تقودهم
الى حجرة الاستقبال ثم تتركهم وحدهم ! شعر بأنهم يعاملون
معاملة « الغرباء » أو « الضيوف » فانقبض صدره وانكسرت
نفسه وجعل يردد في جزع « أين عائشة ؟ .. لماذا نبقى هنا ؟ »
فلا يسمع الا كلمة « هس » وتحذيرا من منعه من الزيارة مرة
اخرى اذا علا صوته !.. ولكنه سرعان ما زايله الالم حين جاءت
عائشة مهرولة مشرفة الوجه بابتسامة غطى سناها على أضواء
حلتها الزاهية وزينتها الباهرة فجرى نحوها وتعلق بعنقها ،
فتبادل التسليم بينها وبين أمها وأختها وهو على ذلك الوضع !..

بدت عائشة سعيدة كل السعادة بنفسها وبحياتها الجديدة وبزيارة أهلها ، حدثتهم عن زيارات أبيها وياسين وفهمي ، وكيف غلبها الشوق اليهم على خوفها من أبيها فواتها الجراة على أن ترجوه السماح لهم بزيارتها !.. قالت « لا أدري كيف طاعني لساني حتى تكلمت !.. لعل مظهره الجديد الذي لم يتراء لى به من قبل هو الذى شجعنى ، بدا لطيفا وديعا باسم ، أى والله باسم ، على اننى ترددت رغم ذلك طويلا ، خفت أن ينقلب فجأة فينتهرنى ، ثم توكلت على الله ونطقته ! » فسألتها أمها عن رده كيف كان فقالت « قال لى باقتضاب : ان شاء الله ، ثم استطرد مسرعا بلهجة جدية تنم عن تحذير : ولكن لا تظنى المسألة لعبا فكل شيء بحساب . فحقق قلبى ورحت أدعو له طويلا توددا واسترضاء ! » ثم رجعت الى الوراء قليلا فوصفت حالها عندما قيل لها « السيد الكبير فى حجرة الاستقبال » قالت « ركضت الى الحمام ففصلت وجهى لأزيل كل اثر للمساحيق حتى تسأل سى خليل عما يدعو الى ذلك كله ولكنى قلت له : أدركنى ، لا أستطيع أن ألقاه بفستان صيفى يكشف عن ذراعى !.. ولم أبرح موضعى حتى تلفعت بشال كشميرى ! » ثم قالت « ولما علمت نية .. (ضاحكة) أعنى نية الجديدة .. لما قص عليها سى خليل ما جرى ضحكك وقالت له : انى أعرف السيد أحمد تمام المعرفة .. هو هذا وأكثر (ثم ملتفتة الى) ولكن اعلمى يا شوشو انك لم تعودى من آل عبد الجواد ، انت الآن شوكتية فلا تبالى الآخرين .. » . أصاب منظرها البهيج وحديثها من نفوسهم موضع الحب والاعجاب فحلق كمال فيها كما فعل في ليلة الزفاف وسأله محتجا « لماذا لم تكونى تبدين هكذا وانت فى بيتنا ؟ » فأجابته على الفور ضاحكة « لم أكن وقت ذاك شوكتية » حتى خديجة رمقتها بعين الحب . انقطعت بزواج الفتاة دواعى الملاحة التى كانت تنسب بينهما بسبب الاختلاط ، ومن ناحية أخرى لم يبق من الاحساس بالحق الذى ركبها عند السماح

بزواج الفتاة قبلها الا اثر باهت حملته « بختها » من دون الفتاة ، فلم يعد يطوى قلبها الا على الحب والشوق ، لشد ماتفتقدها كلما آنتت من نفسها حاجة الى أنيس تفضى اليه بذات نفسها . ثم تحدثت عائشة عن البيت الجديد ، عن المشربية التى تطل على بوابة المتولى ، والمآذن التى تنطلق عن قرب ، ونيار السابلة الذى لا ينقطع . كل شيء حولها يذكرها بالبيت القديم وما يكتنفه من سبل وأبنية فلا اختلاف فيما عدا الأسماء وبعض المعالم الثانوية « ولكن على فكرة البوابة العظيمة لا نظير لها عندكم (ثم بشيء من الفتور) وان كان المحمل لا يمر تحتها كما أخبرنى سى خليل ! » وواصلت حديثها « تحت المشربية مباشرة مجلس يضم ثلاثة لا يفارقونه قبل جثوم الليل : شحاذ كسيح وبائع مراكيب وضارب رمل ، أولئك جيرانى الجدد ، الا أن ضارب الرمل أسعدهم حظا ، لا تسألوا عن أفواج النساء والرجال الذين يجلسون القرفصاء أمامه مستخبرين عن طوالهم ، كم وددت لو كانت مشربيتى أوطأ كيما أسمع مايقول لهم ، وألذ منظر ، منظر سوارس القادمة من الدرب الأحمر اذا تقابلت مع عربة حجارة قادمة من الفورية فضاق عنهما مدخل البوابة وركب كل سائق رأسه متحديا الآخر أن يتراجع ليفسح السبيل ، يبدأ الكلام لينا بعض اللين فيجند ، ثم يخشوشن ، ثم تهدر الحناجر بالسباب والشتائم ، وتجىء فى أثناء ذلك عربات كاربو وعربات يد فيغص بها الطريق ولا يدرى أحد كيف يعود الحال الى ما كان عليه ، هنالك أفق وراء الخصاص اكتم الضحك وآثمل الوجوه والمناظر » وما أشبه فناء البيت الجديد بفناء بيتهم ، حجرة الفرن والمخزن وحمايتها سيدة الفناء والجارية سويدان « لا أجد لى عملا فلا أذكر المطبخ حتى تحمل الى صينية الطعام » وعند ذلك لم تتمالك خديجة نفسها من أن تضحك قائلة « نلت ما طالما تمنيت ! » لم يجد كمال فى الحديث شيئا ذا بال الا

انه احس في نفمته العامة بما يوحى « باستقرار » المتحدثة فداخله
الانزعاج وسألها :

— أين تعودى إلينا ؟ ..

فملا الحجرة صوت يقول :

— لن تعود إليكم يا سى كمال ..

وإذا بخليل شوكت يدخل ضاحكا وهو يرفل بجسمه الربعة
في جلباب حرير أبيض .. كان ذا وجه يضاوى ممتلىء ، أبيض
البشرة في عينيه جحوظ خفيف وفي شفثيه غلظة ، أما رأسه
الكبير فينتهى بجبين ضيق يفترق عند قمته شعر أسود كثيف
يشبه في لونه وتسريحته شعر السيد ، تلوح في عينيه نظرة طيبة
وخمول لعلها اثر للراحة والفراغ والرضى . انحنى على يد الأم
ليقبلها فجذبتها بسرعة في خجل وارتباك وهى تتمتم شاكرة ثم
سلم على خديجة وكمال وجلس وكأنه — على حد تعبير كمال
فيما بعد — واحد منهم . وانتهاز القلام فرصة تشاغل العريس
بتحديثهم وتفرس في وجهه طويلا ، ذاك الوجه الغريب أصلا الذى
برز في محيط حياتهم ليحتل مكانا مرموقا يؤهله لان يكون اقرب
الأقرباء أو بالأحرى ان يكون فريشا لوجه عائشة . كلما خطر هذا
على باله جر وراءه ذاك كما يجبر الأبيض الأسود . تفرس فيه
طويلا وهو يردد في نفسه قوله الممتلىء ثقة « لن تعود إليكم يا سى
كمال » فوجد نحوه انكارا ونفورا وحفدا كادت تتمكن من قلبه
لولا ان قام الرجل فجأة ومضى الى الخارج ثم عاد حاملا صينية
فضية ملئت حلوى من مختلف الألوان فقدم له باسم — وان كشف
افترار ثغره عن سنتين ركبت احدهما الأخرى — نخبة من أشهى
الأصناف ، وجاءت حرم المرحوم شوكت معتمدة على ذراع رجل
استدله بمسبنته بخليل على أنه اخوه الأكبر ، ثم وكدا استدلهم
تقديم الأرملة بقولها « ابراهيم ابنى .. ألم تعرفوه بعد ؟! »
وعند ما لاحظت ارتباك أمينة وخديجة حال التسليم قالت باسم

« نحن كالأسرة الواحدة من قديم الزمان ولكن بعضنا يرى البعض
الآخر الساعة لأول مرة .. لا بأس .. ! فطنت أمينة الى أن
المرأة تشجعها وتهون عليها الأمر فابتسمت ، ولكن ساورها شيء
من القلق وتساءلت : ترى هل يوافق السيد على مقابلتهما لهذا
الرجل — وان عد عضوا جديدا في الأسرة كخليل سواء بسواء —
بغير نقاب ؟ .. وهل تكاشفه بالمقابلة أو تتحاشى ذكرها ايثارا
للسلامة ؟ ..

كان ابراهيم و خليل اشبه بالتوأمين لولا فارق السن ، على
ان اختلافهما بدا اقل من القليل بالقياس الى اختلاف عمرهما «
والحق انه لولا قصر شعر ابراهيم ، ولولا شاربه المفتول ، لما كان
ثمة ما يميزه عن خليل ، كأنه لم يبلغ الأربعين ، أو كأن شبابه
ومظهره لا يتأثران بمرور الأعوام ، لذلك ذكرت أمينة ما حدثها به
السيد مرة عن المرحوم شوكت من أنه « كان يبدو اقل من عمره
الحقيقى بعشرين عاما أو يزيد » أو قوله عنه « انه رغم طيبته
ونبله كان كالحیوان لايسمح لفكره أبدا بأن ينقص عليه صفوه ! » ،
اليس عجيبا أن يبدو ابراهيم في الثلاثين مع انه تزوج في صدر
شبابه وأنجب طفلين ثم ماتت زوجته وطفلاه ؟! ولكنه مرق من
تجربته القاسية سالما لم يمس ، ثم عاود الحياة مع أمه في خمول
ودعة وفراغ شأن آل شوكت جميعا ، راق خديجة أن تسترق
النظر — كلما منبت أعين الرقباء الى الشقيقين ، الى أوجه الشبه
العجيبة بينهما ، بىضاوية الوجه وامتلأه ، جحوظ العينين
الواسعتين ، البدانة ، الخمول ، فحرك كل أولئك السخرية الكامنة
في نفسها حتى ضحكت أفكارها ومضت تدخر في ذاكرتها من
الصور ما تعود اليه اذا ضمها مجلس القهوة ومالت جريا على
سنتها في التهكم الى العبث والاضحاك ، والى هذا فكرت باهتمام
في اختيار اسم وصفى عياب لهما على مثال الاسماء الوصفية التى
تطلقها على ضحاياها من الناس أو بالأحرى أسوة بأمهات التى

تطلق عليها « المدفع الرشاش » لتناثر ريقها عند الحديث .
واسترقت مرة نظرة الى ابراهيم فما راعها الا أن تلتقي عينها
بعينه الواسعتين وهما تتفرسان في وجهها باهتمام من تحت
حاجبيه الكثيفين ففضت بصرها في حياء وارباك ، وتساءلت في
خوف المريب عما عسى أن يظنه بنظرتها ، ثم وجدت نفسها تفكر
بقلق في منظرها وما يمكن أن يتركه في نفسه من أثر . ترى أيسخر
من انفسها كما سخرت من بدائنه وخموله؟! .. واستغرقها التأمل
والقلق ...

سئم كمال الجلسة التي وان تكن جمعته بعائشة الا انها جمعته
بها على نحو ما تجمع بين الضيوف فلم تحقق - عدا مامنحت من
حلى - شيئا من رغبته ، فانتقل الى جوار العروس وأبدى لها
اشارة فهمت منها أنه يريد أن يخلو بها فقامت وأخذته من يده
وغادرا الحجرة ، ظنته قانعا بمجالستها في الصالة ولكنه جذبها
من يدها الى حجرة النوم ورد الباب وراءهما حتى ارتج. انطلقت
أساريره ولمعت عيناه ، وتطلع اليها طويلا ثم تصفح الحجرة ركنا
ركنا وهو يتشمم رائحة الاثاث الجديد مازجها أريج زكى لعله
بقية مما انتشر من أيدى المتطيبين وصدورهم ، ثم رنا الى الفراش
الوثير ، الى النمرقتين الورديتين المتجاورتين على الفطاء فوق
الوسائد وسألها « ما هما ؟ » فأجابته « وسادتان صغيرتان »
فسألها « أتوسدينهما ؟ » قالت باسمه « كلاهما للزينة فقط »
فأشار الى الفراش متسائلا « أين تنامين ؟ » فأجابت باسمه
أيضا « في الداخل » فسألها كأنه متأكد من أنه ينام معها « وسى
خليل ؟ » فأجابت وهى تقرص خده بركة « في الخارج .. » عند
ذاك التفت صوب « الشيزلنج » بغرابة ، وسار اليه وجلس ،
ودعاها الى الجلوس جنبه فجلست ، وما لبث أن غاب في الذكريات
غاضا بصره ليخفى نظرة مريبة وصمها بالريبة اشتداد أمه بالحمة
عليه مساء ليلة الزفاف وهو يسر اليها بما رأى من ثقب الباب ،

راودته نفسه على أن ييوج لها بسره ، أن يسألها عنه ، تحت
ضغط اغراء لا يخلو من قسوة ، ولكن الخجل الناجم عن الشعور
بالريبة عقله فشكم رغبته على رغبته ، ثم رفع اليها عينين
صافيتين وابتسم اليها ، فابتسمت اليه ومالت نحوه فقبلته ،
ثم نهضت قائلة وملء وجهها ابتسامة حلوة :
- لاملان جيوبك بالشيكولاتة ..

- ٤٤ -

تصايح الغلمان المتجمهرون امام باب البيت وعلى طوار سبيل
بين القصرين مهللين ، تميز صوت كمال وهو يهتف « هلت سيارة
العروس » ورددوا ثلاثا فخرج ياسين - وهو في كامل زينته
وابهته - من بين الجماعة الواقفة عند مدخل الفناء ومضى الى
الطريق فوقف امام الباب متجها صوب النحاسين فرأى موكب
العروس وهو يتقدم على مهل كأنه يتبختر . في تلك الساعة الحافلة
بالسعادة والرهبة وعلى رغم الأعين المحمقة فيه من داخل البيت
وخارجه ومن فوق ومن تحت ، بدا ثابتا غير هياب مقعما رجولة
وفحولة ، لعل مما أيده في ثباته احساسه بأنه محط الانتظار فغالب
بشجاعة ما يخفق بين جوانحه من اضطراب أن يبدو للناظرين
في حال تخجل منها الرجولة ، ولعله أيضا علم بأن أباه منكمش
في مؤخرة الجماعة المنتظرة عند مدخل الفناء - التى تضم
آل العروسين من الذكور - بحيث لا تمتد اليه عيناه ، فوسعه
أن يتمالك نفسه وهو يرنو الى السيارة الموشاة بالورود التى
تحمل اليه عروسه بل زوجه منذ أكثر من شهر. وإن لم تقع عيناه
عليها بعد ، أو الامل الذى صاغه بأحلامه الظامئة لسعادة لا تنزع

بما دون الدوام . وتوقفت السيارة أمام البيت على رأس ذيل طويل من السيارات فأخذ أهله للاستقبال السعيد وقد استجلت عنده الرغبة في أن يستشف النقاب الحريري ليرى وجه عروسه لأول مرة ، ثم فتح باب السيارة وترجلت جارية سوداء في الأربعين قوية البنية لماعة البشرة نجلاء العينين فاستدل بما يلوح على حركاتها من الثقة والادلال على انها الجارية التي تقرر لاحقا بخدمة العروس في بيتها الجديد ، تحت جانبها ووقفت منتصبة القامة كالديبان ثم خاطبته بصوت كرنين النحاس وهي تبتسم عن أسنان ناصعة البياض قائلة :

— تفصل خذ عروسك ..

فتقدم ياسين من باب السيارة ومال الى الداخل قليلا فرأى العروس في حلتها البيضاء بين غادتين على حين استقبله عرف طيب مفتنة للجوارح فتاه في جو الحسن منبها ، ومد لها ذراعه لا يكاد يرى شيئا كما يكل بصر طالع نورا ساطعا ، وعقل الحياء العروس فلم تبد حراكا فتطوعت التي الى يمينها فتناولت يدها وطرحتها على ذراعه هامسة بنبرة ضاحكة :

— تشجى يا زينب ..

دخلا جنباً لجنب وهي من الحياء تحول بينه وبينها بمروحة كبيرة من ريش النعام وارت بها رأسها وعنقها فقطعما الفناء بين صفتين من المنتظرين يتبعهما المدعوات من آله اللواتي تعالت زغاريدهن كأنهن لا يبالين السيد أحمد وقيامه على ذراع منهن ، هكذا لعلمت الزغاريد في البيت الصامت لأول مرة وعلى مسمع من سيده الجبار ، فلعلها وقعت من آذان أهله موقع الدهشة ، بيد انها دهشة مزجت بالفرح ولم تخل من شماعة بريئة مريحة روحها بها القلوب عن قرار الحظر الصارم الذي قضى بالا تكون زغاريد ولا غناء ولا لهو ، وبأن تضي ليلة زفاف الابن البكر كما قضى غيرها من الليالي . وتبادلت أمينة وخديجة وعائشة النظرات

متسائلات باسمات وتكاثران على خصاص نافذة مطلة على الفناء يشهدن أثر الزغاريد في نفس السيد فراينه يحدث السيد محمد عفت ضاحكا فتمتعت أمينة قائلة : « لن يسهه الليلة الا أن يضحك مهما يبدو مما لا يروقه ! » وانتهزت أم حنفى الفرصة السانحة فاندست بين المزغردات كالبرميل وأطلقت زغرودة قوية مجلجلة غطت على الزغاريد كلها وعوضت بها ما ضيعت - فى ظل الارهاب - من فرص المرح والمسة على عهد خطبتي عائشة وياسين ، وأقبلت على سيداتها الثلاث وهي تزغرد حتى استغرقن في الضحك ثم قالت لهن « زغردن ولو مرة في العمر .. انه لن يبرى الليلة من المزغرد ! » . رجع ياسين بعد ايصال العروس الى باب الحريم فالتقى بفهمى الذى لاحت على شفثيه ابتسامة موحية بالمرح والاشفاق لعلها اثر مما خلفته في نفسه هذه الضجة البهيجة « المحرمة » ، وكان يخالس أباه النظر ثم يرده الى وجه أخيه ضاحكا ضحكة مقتضة مفضوضة ، فما كان من ياسين الا أن قال له بلهجة ، لا تخلو من استياء :

— أى استنكار في أن نحى ليلة الزفاف بالفرح والزغاريد ؟! وماذا كان عليه لو وافق على استدعاء عائلة أو مغل ؟!

تلك كانت رغبة الأسرة التي لم تجد الى الافصاح عنها من سبيل الا أن تحرض ياسين على الاستشفاع بالسيد محمد عفت على أبيه ، ولكن السيد اعتذر وأبى الا أن تكون ليلة زفاف صامتة وأن تقتصر مسراتها على العشاء الفاخر . وعاد ياسين يقول آسفاً :

— لن أجد من تزفنى هذه الليلة التي لن تتكرر أبد الدهر !.. سادخل حجرة العروس غير مشيع بالاناشيد والدقوف كأننى راقص بهز جذعه دون ايقاع ..

ثم لاحت في عينيه ابتسامة مريحة مأكرة فقال :

— الذى لاشك فيه أن ابانا لا يطبق «العوالم» الا في بيوتهم ! مكث كمال في الدور الأعلى الذى أعد لجلوس المدعوات ساعة

ثم نزل باحثا عن ياسين في الدور الأول الذي هبى لاستقبال المدعويين ولكنه وجدته في فناء البيت يتفقد المطبخ المتنقل الذي أقامه الطاهي فأقبل نحوه مسرورا أدلا بأداء المهمة التي عهد بها إليه وقال له :

- فعلت كما أمرتني فتبعته العروس حتى حجرتها وتفحصتها بعد أن حسرت النقاب عن وجهها ...

فانتحى به جانبا وهو يسأله باسمها :

- هه ؟.. كيف عودها ؟

- في عود أبله خديجة ..

ضاحكا :

- في هذه الناحية لا بأس ؟.. اتعجبك كمائشة ؟

- كلا .. أبله عائشة أجمل كثيرا !..

- يخرب بيتك أتريد أن تقول أنها كخديجة ؟

- كلا أنها أجمل من أبله خديجة ..

- كثيرا ؟!

فهب رأسه مفكرا فسأله الشاب بلهفة :

- حدثني عما أعجبك فيها ؟..

- أنفها صغير كأنف نينة .. وعيناها كعيني نينة أيضا ..

- ثم ؟..

- لونها أبيض وشعرها أسود ورائحتها حلوة جدا ..

- نحمده .. ربنا يبشرك بخير ..

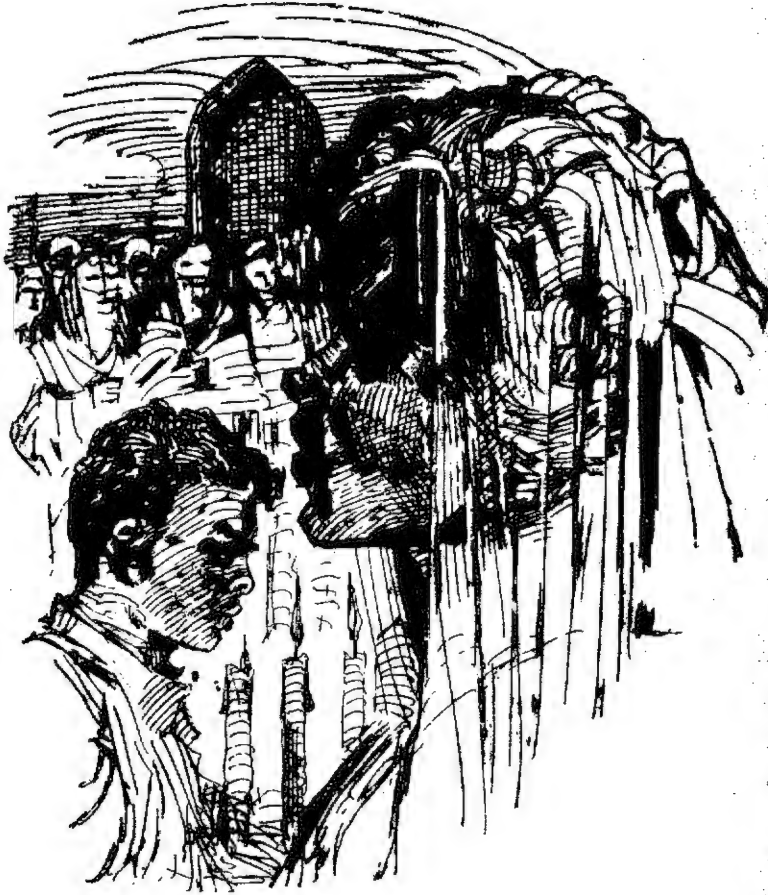
وخيل إليه أن الغلام يغالب رغبة في معاودة الكلام فسأله في

شيء من القلق :

- هات ما عندك ولا تخف !

فقال كمال وهو يفيض بصره :

- رأيته تخرج منديلا ثم تتمخط !



أنفها صغير كأنف نينة

والتوت شفتاه تقززا كأنما كبر عليه أن تند الفعلة عن
عروس في ريق نعتها ، فما تمالك ياسين أن ضحك قائلا :
- لحد هنا عال ، ربنا يجعل العواقب حليلة !

القي نظرة كئيبة على الغناء الحالي إلا من الطاهي وصبيانته ،
وبعض الأولاد والبنات فتخيل ما كان ينبغي أن يوجد من معالم
الزينة وسرادق الطرب ومجلس المدعويين ، من قضي بهذا ؟ ..
ابوه ! .. الرجل الذي يفوح عرقه بالمجون والعريضة والطرب ..
أعجب به من رجل يحل لنفسه اللهو الحرام ويحرم على بيته اللهو
الحلال . وراح يتخيل مجلس السيد كما رآه في حجرة زبيدة بين
الكأس والعود فما يدرى إلا وقد وثبت إلى ذعنه فكرة غريبة لم
تخطر له من قبل على شدة وضوحها فيما رأى ، تلك هي التشابه
بين طبيعتي أبيه وأمه ! طبيعة واحدة في شهوانيتها وجريها وراء
اللذة في استهتار لا يقيم وزنا للتقاليد ، ولعل أمه لو كانت رجلا
لما قعرت عن أبيه في اللهج بالشراب والطرب أيضا ! لذلك انقطع
ما بينهما - أبيه وأمه - سريعا ، فما كان مثله أن يطبق مثلها وما
كان لمثلها أن تطبق مثله ، بل ما كانت الحياة الزوجية لتستقيم له
لولا وقوعه على زوجته الراهنة ! . ثم ضاحكا ضحكة لم يتح لها
روعة من هذه « الفكرة الغريبة » روحا من السرور « عرفت الآن
من أكون ، لست إلا ابن هذين الشهوانيين ، وما كان لي أن أكون
غير ما كنت ! » . في اللحظة التالية تساءل ترى ألم يخطئه الصواب
عند أفعال دعوة أمه إلى زفافه ؟! تساءل رغم أصراره على الاعتقاد
بأنه لم يتنكب عن الصواب ، لعل أباه رام أراحته ضميره حينما
قال له قبل ليلة الزفاف بعدة ليال « أرى أن تبلغ أمك » ، ولك أن
شئت أن تدعوها إلى شهود زفافك » ذاك قوله بلسانه لا بقلبه
فيما يعتقد ، فما يتصور أن يرضى أبوه له بأن يذهب إلى حيث
يقيم ذلك الرجل الفقير الذي اتخذته أمه زوجا لها من بعد أزواج
كثيرين ، وأن يتودد إليها على مرأى منه بأن يدعوها إلى شهود

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

زفافه ، لا كان الزفاف ، ولا كانت اى سعادة في هذه الدنيا ان حملته يوما على أن يصل ما انقطع بينه وبين تلك المرأة .. تلك الفضيحة .. تلك الذكرى المخزية ! وما كان منه الا أن أجاب أباه وقتذاك قائلا : « لو كان لى أم حقا لكنت أول من أدعو الى زفاني ! » انتبه فجأة الى الاولاد والبنات وهم يرون اليه ويتهايمسون فخص البنات بنظرة وسألهن بصوت جهورى ضاحك « هل تحلمن بالزواج من الآن يا بنات ؟ » واتجه نحو باب الحريم وهو يذكر قول خديجة الساخر له بالأمس « اياك وأن تستسلم غدا للحياء بين المدعويين والا عرفوا الحقيقة المرة وهى أن أباك الذى زوجك وتقد مهرك وجملة تكاليف ليلتك ، ولكن تحرك بلا توقف ، تنقل بين حجرات المدعويين ، ضاحك هذا وكلم ذلك ، اطلع وانزل ، تفقد المطبخ ، اهتف وازعق ، لعلك توهم الناس بأنك حقا رجل الليلة وسيدها ! » فمضى ضاحكا وفي نيته أن يمثل النصيحة الساخرة فخطر بين المدعويين بجسمه الطويل الجسيم في اناقة بديعة ووسامة جذابة وشباب ريق ، ذهب وجاء ، ونزل وطلع ، وان لم يفعل شيئا ، بيد أن الحركة نغضت عن نفسه طوارئ الفكر فصفت نفسه لمفاتيح الليلة . ولما خطرت العروس على قلبه سرت في بدنه قشعريرة بهيمية ، ثم ذكر آخر ليلة قضاه عند زنوبة العوادة منذ شهر ، كيف انبأها بزواجه الوشيك وهو يودعها وكيف هتفت به بلهجة اصطنعت الفيظ « يابن الكلب ! .. كتمت الخبر حتى نلت وطرك ! .. (المركب اللى تودى أحسن من اللى تجيب) .. مع الف شبشب يابن المركوب » ، لم يعد لزنوبة من أثر في نفسه ، ولا لغيرها ، اسدل الستار على هذا الجانب من حياته الى الابد ، زجما عاود الشراب فما يظن أن تموت رغبته فيه ، أما النساء فلم يتصور أن تزيع عيناه الى امرأة عابرة وبين يديه حسناء طوع بنائه ، عروسه لذة متجددة ، رى للظلم الوحشى الذى طالما قلقل كيانه ، ثم راح يتمثل حياته المقبلة ، الليلة ، والليالى

الآيات ، الشهر والعام فالعمر كله ، ووجهه يسطع بهجة ناطقة لحظها فهمى بعين مليئة بحب الاستطلاع والقبطة الهادئة وغير قليل من الأسى . وجاء كمال الذى كان ينراى في أى مكان فجأة وخاطب ياسين والبشر يتألق في وجهه قائلا :
الطاهر قال لى ان الحلوى تزيد على حاجة المدعويين
والمدعوات وأنه سيتبقى منها مقدار وفير .

- ٤٥ -

زاد مجلس القهوة وجها جديدا بانضمام زينب اليه ، وجها زكا بريق الشباب وفرحة العرس ، وفيما عدا هذا ، وفيما عدا فرش الحجرات الثلاث المجاورة لحجرة الوالدين في الدور الأعلى بجهاز العروس ، فلم يحدث زواج ياسين تغيرا يذكر في النظام العام للبيت سواء من الناحية السياسية التى ظلت خاضعة بكل معانى الكلمة لسلطان السيد وارادته او من الناحية الادارية الداخلية التى ظلت وحدة تابعة لهيمنة الام كما كان الحال قبل الزواج . التغيير الجوهرى حقا كان الذى طرا على النفوس ودار مع الخواطر فدفقت رؤيته على الحواس ، اذ لم يكن من اليسير أن تتشغل زينب مكانة الزوجة للابن البكر وأن يجمعهما وبقية أفراد الأسرة بيت واحد من دون أن يطرا على العواطف والمشاعر تطور ذو شأن . زمقتها الام بنظرة امتزج فيها الرجاء بالحذر ، هذه الفتاة التى قضى عليها بأن تعاشرها دهرًا طويلا ربما امتد حتى نهاية العمر ، أى انسان تكون ؟ . ماذا تخبىء وراء ابتسامتها الرقيقة ؟ . بالجملة استقبلتها كما يستقبل مالك البيت ساكنا جديدا فيؤمله ويحاذره ، اما خديجة فعلى رغم المجاملات التى تبودلت بينهما جعلت تسدد

نحوها عينين نافذتين مفلورتين على السخرية وسوء الظن ، منقبة
عن العيوب والمآخذ بحرص ساخط لم يلق من انضمامها الى البيت
وفوزها بالزواج من أخيها الا ضيقا خفيا ، فلما اعتكفت الفتاة في
حجراتها الايام الاولى من الزواج ساءلت خديجة أمها وهما في
حجرة الفرن « ترى هل حجرة الفرن مكان غير لائق (بها) ؟ »
ومع ان الأم وجدت في تهجمها ترويحاً عن حيرة ظنونها الا انها
اتخذت موقف الدفاع عن الفتاة واجابتها قائلة : « صبرك ، لم تزل
عروسا في بدء عهدك الجديد ! » فتساءلت الأخرى بلهجة تشي
بالاستنكار « ومن ذا الذي قضى بأن تكون خدما للعرائس ؟! »
فسالتها أمها وكأنها تطرح السؤال على نفسها هي « اتفضلين أن
تستقلى بمطبخها ؟ » فهتفت خديجة معترضة « لو كان المال مال
أيها لا مال أبى لجاز هذا !. ولكنى أعنى أنها يجب أن تعمل معنا »
على أنه لما قررت زينب ، بعد انقضاء أسبوع على الزواج ، أن
تحمل بعض الأعباء في حجرة الفرن لم يرحب قلب خديجة بهذه
الخطوة التعاونية ومضت تلاحظ عمل العروس بدقة انتقادية
وتقول لأمها : « لم تجيء لتعاونك ولكن لتمارس ما لعلها تدعيه
لنفسها من حق . » أو تقول ساخرة « طالما سمعنا عن آل عفت
أنهم من الصفوة وأنهم يأكلون ما لا يأكل الناس . . فهل وجدت في
طهيها شيئا عجيبا لم نسمع به ؟! » بيد أن زينب اقترحت يوما
أن تصنع « الشركسية » باعتبارها الصنف الأثير على مائدة أبيها
- وهى المرة الاولى لدخول الشركسية في بيت السيد - فحازت
لدى تناولها اعجابا شاملا بلغ أقصاه عند ياسين حتى أن الأم
نفسها لم تبرا من لسعة غيرة ، اما خديجة فُجن جنونها وجعلت تهزأ
بالصنف قائلة « قالوا شركسية قلنا يعيش المعلم يتعلم ولكن ماذا
راينا ؟. أرزا وصلصة في هيئة بوليتيكا ، طعمها لا هنا ولا هناك .
كالفروس تزف الى عريسها في حلة خلاصة وحلى للاء حتى اذا ما
نزع عنها ثياب العرس بدت فتاة عادية من نفس الخلطة المعروفة

من قبل أى اللحم والعظم والدم ! » ثم ما كاد يمضى على الزواج
أسبوعان حتى قالت على مسمع من أمها وفهمى وكمال ان العروس
وان كانت يضاء البشرية وذات حظ « معتدل » من الجمال الا ان
دمها ثقيل كالشركسية سواء بسواء . قالت هذا في نفس
الوقت الذى اكبت فيه على استظهار دقائق صنع الشركسية بحذقها
المعترف به ! على أن ثمة احاديث صدرت عن زينب بحسن نية -
في الاقل لان وقت سوء النية لم يثن بعد - فأثارت الحواطر وألقت
عليها ظلا من الشك اذ طاب لها كلما تهيات مناسبة أن تنوه بأصلها
التركي وان التزمت الادب واللفظ كما لذ لها أن تروى لهم بعض
ما شاهدت من رحلات في حانطور والدها وبصحبه الى الملاهى
البريئة والحدائق فوق الحدائق كله من نفس الأم موقعا ادهشها
الى حد الانزعاج ، عجبت لتلك الحياة التى تسمع عنها لأول مرة ،
وانكرتها ، واستنكرت فيما بينها وبين نفسها هذه الحرية الغربية
استنكارا جاوز كل تقدير ، الى أن المباهاة بالأصل التركي - وان
لطفت بالادب والبراءة - ساءتها كثيرا لأنها كانت - على تخشعها
وانطوائها - شديد الاعتزاز بأبيها وبعلمها فتري أنها بهما في مكانة
لا تدانى ، الا انها كظمت ما قام بنفسها فلم تلق زينب منها الا
اهتمام الاصغاء وابتناسمة المجاملة ، ولولا حرص الأم الشديد على
السلام لانفجرت خديجة حنقا ولساءت العاقبة ، على أنها نفست
عن غيظها بطرق ملتوية ليس من شأنها أن تفكر صفو السلام
كتعليقها على أبناء الرحلات مثلا - وهى التى لم يسعها أن تجهر
فيها برأيها - بالمبالغة في اظهار الدهشة ، أو بالهتاف وهى تحملى
في وجه محدثتها « يا خبر ! » ، أو بأن تضرب براحتها على صدرها
وهى تقول : « ويراك السابلة وأنت تمشين في الحديقة ! » ، أو
بقولها : « ما كنت أتصور امكان هذا يا ربى ! » وغير ذلك من
العبارات التى وان لم تفصح ألفاظها عن اساءة الا أن لهجتها المعطوطة
التشيلية تضمنت أكثر من معنى كلهجة الزجر التى يصطنعها الاب

وهو يلو اسمران مسليا اذا ما انس من ابنه غير البعيد عنه اخلا
بالنظام او الادب وعز عليه نزع جرحه صراحه ان يخرج من الصلاة ،
بلدت لم يكن تحلو اى ياسين حتى تبادره مروحة عن عيها الذى
عز عليه المتيسر « يا سلام يا سلام على عروسك التزهية : »
فيقول لها ضاحكا « هذه هى الموضة التركية التى تسمو على
ادانت ! » فتذكرها صفة « التركية » بالمباهة الثقيلة على قلبها
فتقول « على فكره ، ست الدار نباهى كثيرا باصلها التركى ،
لماذا ؟ .. لان جد جد جد جد جدها تركى ! .. حذار يا احدى
فان خاتمة التركيات الجنون » ولكنه يقول لها مجاريا سخريتها
« الجنون احب الى من وجه انفه يجنى ذا الدوق السليم ! » .
تراعى لاعين المتنبئين النقرار المتوقع بين خديجة وزينب في أفق
الأسرة فتنبهها فهمى الى ضبط لسانها ان يبلغ الفتاة شئ من
هذرها ، وأشار محذرا اشارة خفية الى كمال الذى دأب على التنقل
بينهم وبين العروس تنقل الفراشة - حاملة اللقاح - بين الأزهار !
ولكن غاب عنه - كما غاب عن الأسرة جميعا - ان القدر كان يعمل
من جانبه على الحيلولة بين الفاتين ، اذ زارت البيت حرم المرحوم
شوكت وعائشة زيارة لم يحلم احدهن قبل بان تتوج بالنهاية التى
توجت بها ، قالت العجوز تخاطب الأم على مسمع من خديجة :
- يا امينة هانم جئتك اليوم خاصة لاختب خديجة لابنى
ابراهيم ..

فرحة بلا تمهيد وان طال انتظارها حتى شق ، فلذلك سجع
صوت المرأة في اذنى الأم سجعا جميلا حتى انها لم تذكر ان قولاً
قبله - بل صدرها بندى الطمانينة والسلام كما بله فكاد
يستخفها الفرح وهى تقول بصوت متهدج :

- ليس لى في خديجة اكثر مما لك ، هى ابنتك ولتجدن في
حملك اضعاف ما تجد في بيت ابنيها من السعادة ..
استرسل الحديث السعيد الا ان خديجة جعلت تغيب عنه

فيما يشبه الدهول ، خفضت عينيها في حياء وارتيابك وقد زايلها
روح السخرية التى طالما توهجت في حذفتيها . فشمستها وداعة
غير معهودة ثم جرت مع تيار خواطرها . جاء الطلب مفاجأة . واى
مفاجأة ، فكما بدا عسيرا في غيابها بدا غير مصدق في حدوثه حتى
لقد غشيت فرحتها بموجة ثقيلة من الدهول .. « لاخطب خديجة
لابنى ابراهيم » .. ماذا دهاه ؟ .. انه على خموله الذى اثار هزاها
حسن المحيا وجيه في الرجال ، فماذا دهاه ؟ .. !

- ومن حسن الطالع ان يجمع بين الاختين في بيت واحد .
صوت حرم المرحوم شوكت يؤكد الحقيقة ويركى وجوها ..
ليس ثمة شك .. ابراهيم مثل خليل مالا وجاها فأى حظ ادخرته
لها الأقدار . لشد ما أسفت على ان عائشة سبقتها الى الزواج
اذ لم تكن تدرى ان زواج عائشة هو الذى قدر له ان يفتح لها
ابواب الحظ المغلقة ..

- ما أجمل ان تكون السلفة هى الشقيقة فيزول سبب
جوهرى من اسباب وجع الدماغ في الأسر (ثم ضاحكة) فلا تبقى
الا حمايتها واظن امرها هينا ! ..

- ان تكن سلفتها هى شقيقتها فحمايتها هى امها بلا نقصان .
لم تزل الامان تتجاملان ، لقد احبت العجوز وهى تزف اليها
البشرى بقدر ما ابغضتها يوم خطبت عائشة ! . يجب ان تعلم
مريم بالخبر اليوم ، لا تطيق ان تؤجله الى الغد ، لا تدرى ما الدافع
الى هذه الرغبة الملحة ، لعله قول مريم لها غداة خطبت عائشة
« ماذا كان عليهم لو أنهم انتظروا حتى تتم خطبتك انت ! » فأغراها
وقتذاك سوء ظنها المطبوع باتهام براءته الظاهرة . ولما انصرفت
أسرة شوكت قال ياسين بقصد التحرش والدعابة :

- الحق انى مذ رايت ابراهيم شوكت قلت لنفسى ما أجدر
هذا الرجل الثور الذى لا يبدو انه يفرق بين الأبيض والأسود ان
يقع اختياره يوما على زوجة مثل خديجة ..

فابتسمت خديجة ابتسامة خفيفة ولم تنبس بكلمة فهتف
بدهشة :

— هل عرفت الأدب والحياء أخيرا !

بيد أن وجهه نطق هو يمازحها بالرضا والغبطة فلم يعكر
صفوهم إلا حين تسائل كمال في قلق :

— أتتركنا خديجة أيضا ؟

فقالت الأم تعزبه وتعزى نفسها :

— ليست السكرية بعيدة ..

على أن كمال لم يستطع أن يدلى بما عنده في حرية كاملة
إلا حين انفرد بأمه ليلا فتربيع قبالتها على الكنبه وسألها بصوت
ينم عن الاحتجاج واللوم :

— ماذا جرى لعقلك يا نينة ؟ .. أتفرطين في خديجة كما
فرطت في عائشة ؟

فأفهمته أنها لم تفرط فيهما ولكنها ترضى بما يسعدهما .
فقال محذرا كأنما ينبهاها إلى شيء فاتها ويوشك أن يفوتها مرة
أخرى :

— ستذهب هي الأخرى ، ربما ظننت أنها ستعود كما ظننت
بم عائشة ، ولكنها لن تعود ، وستزورك إذا زارئك كالضييفة فما أن
تشرب القهوة حتى تقول لك السلام عليكم ، أنى أقولها في صراحة
أنها لن تعود ..

ثم محفرا وواعظا في آن :

— ستجدين نفسك وحدك بلا رفيق ، من يعينك على الكنس
والتنفيض ؟ .. من يعينك في حجرة الفرن ؟ من يجالسنا في جلسة
المساء ؟ .. من يصحبنا ؟ .. لن تحدى إلا أم حنتى التى سيحلوا
لها المبدان لسرقة طعامنا كله ..

فأفهمته مرة أخرى أن السعادة لن تكون بلائمن فقال محتجا :
— ومن أدراك أن في الزواج سعادة ؟ ..ؤكد لك أنه لا سعادة

مطلقا في الزواج ، كيف يحظى أحد بالسعادة بعيدا عن نينة ؟
ومردفا بحماس :

— ثم انها لا ترغب في الزواج كما لم ترغب فيه عائشة من
قبل .. لقد صارحتنى بذلك ذات ليلة في فراشها ..

ولكنها قالت له انه لا بد للفتاة من أن تتزوج ، فلم يتمالك من
أن يقول :

— من قال بأنه لا بد للفتاة من أن تذهب الى بيوت القرباء !
ثم ماذا تفعلين لو أجلسها الآخر على الشيزلنج وتناول ذقنها هي

الأخرى و ..
عند ذاك زجرته وأمرته ألا يتكلم فيما لا يعنيه فضرب كفها

بكف وهو يقول منلرا :
— أنت حرة .. وسترين !

في تلك الليلة لم يغمض لامية من يقظة الفرح جفن كأنها
السماء المقمرة لا تغشاها الظلماء ، فظلت مستيقظة حتى جاء
السيد بعد منتصف الليل ، ثم زفت اليه البشرى فتلقاها بغبطة
أطارت عن رأسه الخمار بالرغم مما في هذا الرأس من نظريات
غريبة عن زواج البنات ، إلا انه تجهم بفتة متسائلا :

— هل أتيح لابراهيم أن يراها ؟
سألت المرأة نفسها ألا يمكن أن يدوم ابتهاجه — وفادرا

ما يعلنه — أكثر من نصف دقيقة ؟ .. وتمتمت في قلق :
— أمه ..

فقاطعها محتدا :
— هل أتيح لابراهيم أن يراها ؟

فقالت وقد ولى عنها السرور لأول مرة في تلك الليلة :
— دخل علينا مرة في شقة عائشة باعتباره فردا من الأسرة

فلم أر في ذلك من بأس ..
فتسائل مزمجرا :

— ولكنى لم أعلم بذلك ..

كل شيء يندر بالشر ، ترى هل يهوى على مستقبل الفتاة بضربة قاضيه ؟ ... على رغمها اغرورقت عينها بالدمع وما تدرى الا وهى تقول مستهينة بفضبته المكفهرة .

— سيدى ، حياة خديجة وديعة بين يديك ، هيهات أن يبتسم لها الحظ مرتين ..

فرماها بنظرة قاسية وراح يهدر مدمدا مهينما مهمهما كأنما رده الغضب الى حالة من حالات التعبير بالأصوات التى مر بها اسلافه الأولون ، ولكنه لم يزد على ذلك شيئا ، لعله أضمر الموافقة من أول الأمر ولكنه أبى أن يسلم بها قبل أن يسجل سخطه كالسياسى الذى يهاجم خصمه — وان اقتنع بالغاية التى يستهدفها — ذودا عن مبادئه ..

- ٤٦ -

مضى شهر العسل وياسين متفرغ بكليته لحياته الزوجية الجديدة ، لا يصرفه عنها عمل في النهار حيث وافق زواجه أو اسط العطلة الصيفية ، ولا سهر بالليل خارج البيت لانه لم يكن يغادره الا للضرورة القصوى كابتياح زجاجة كونيكا مثلا ، وفيما عدا هذا لم يجد لنفسه عملا أو معنى أو صفة خارج نطاق الزوجية فاندلق عليها بقوة وحماس وتفاؤل خليقة برجل ظن انه ينفذ الخطوات الأولى من برنامج ضخم من المتعة الجسدية سيستد يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر وعاما بعد عام . ولكنه أدرك في الثلث الاخير من الشهر أن تفاؤله لا بد أن يكون مبالغا فيه على نحو ما أو أن خلا لا يدرى كنهه قد طرا على حياته ، كان يعانى في حيرة

بالفة ولأول مرة في حياته ذاك المرض المتوطن في نفس الانسان الملل . لم يعرفه من قبل عند زنوبة ولا حتى عند بائعة الدوم لانه لم يملك هذه أو تلك كما يملك زينب الآن يمينه ويحوزها تحت سقف بيته ، فإى فتور يتبخر من هذه « الملكية » الأمانة المطمئنة .. الملكية ذات الظاهر الخلاب المغرى لدرجة الموت والباطن الرزين الثقيل لحد اللامبالاة أو التفرز كأنها الشيكولاتة الزيفة التى تهدى في أول ابريل بقشرة من الحلوى وحشو من الثوم ، وإى مأساة في أن تندمج نشوة القلب والجسد في آلية العادة المنظمة العاقلة الباردة المتكررة القاتلة للشعور والجدة كأنها رؤية روحانية رفيقة تجسدت في صلاة لفظية ترددها الذاكرة بلا وعى ! .. وراح الفتى يتساءل عما دهمى ثورته ، عما هدى شياطينه ، عن ذاك الشبع واين جاء ، عن تلك الفتنة أين ذهبت ، أين ياسين واين زينب ، أين الأحلام ، اهذا شأن الزواج أم شأنه هو ، وكيف اذا تنابعت الشهور في أعقاب الشهور ! .. ليس انه لم يعد له من رغبة فيها ، ولكنها لم تعد رغبة الصائم في اللذيذ المأكول ، هاله أن يدركها الهدوء حيث انتظر لها الازدهار ، وضاعف من حيرته أنه لم يبد على الفتاة عارض من عوارض رد الفعل أو بالأحرى أنها تزيد حيوية ورغبة فحينما يظن أن النوم بات واجبا بعد طول التعب لا يدرى الا وساقها تطرح على ساقه كأنما طرحت عفوا حتى قال لنفسه « يا عجب .. أحلامي عن الزواج تحققت عندها هى ! » . الى هذا كله وجد في عناقها نوعا من الاحتشام وان طاب له أول الأمر انه جعله يهيم آخرها في وديان الذكريات التى ظن انه ودعها الى الأبد ، طفت على رأسه من الأعماق « زنوبة » وأخريات كما تطفو ودائع البحر عند هدوء العاصفة لا لشر يبيت فالحق أنه مرق الى عش الزوجية عامر القلب بالنية الحسنة ، ولكن للموازنة والمقارنة والتأمل ، وليقتنع أخيرا بأن « العروس » ليست المفتاح السحري لدنيا المرأة ، ليس يلزى كيف يخلص حقا للنوايا الحسنة التى

فرش بها طريق الزواج ، يبدو جانب - على الأقل - من أحلامه الساذجة عسير التحقيق وهو ظنه بأنه سيستغنى بأحضان زوجه عن العالم الخارجى ، وأنه سيلبد بكنفها العمر كله ، ذاك حلم من أحلام الشهوة في سذاجتها ، وسيجد من الآن فصاعدا ان الانقطاع عن عالمه وعاداته مما يشق عليه وليس ثمة ضرورة تدعو اليه ، وأنه ينبغي أن يتلمس وسيلة أو أخرى - الوقت بعد الوقت - ليحسن الهرب من نفسه وأفكاره وخيبته ، حتى المغنى المجيد اذا اطلال في تقاسيم الليالى انبعث في نفس السامع الشوق الى الدخول في الدور ، ثم انه في الانطلاق من محبسه فرصة للاختلاط بالأصحاب المتزوجين لعله يظفر عندهم بأجوبة مسكنة للأسئلة الحيرى التى تلح عليه ، ولن يتأتى له من وراء ذلك الدواء الشافي لكل داء .. وكيف يؤمن بعد اليوم بوجود دواء شاف لكل داء؟! .. يحسن به من الآن الا يرسم برامج بعيدة المدى . لا تلبث أن تنهار ساخرة من قدرته على التخيل . ليقنع من تنسيق حياته بالخطوة تلو الخطوة حتى يرى أين يرسو ، وليبدأ بتنفيذ اقتراح اقترحته هى - زوجه - عليه بأن يخرج معا . ما تدرى الأسرة ذات مساء الا وياسين وزوجه يغادران البيت من دون أن يطلعا احدا على مقصدهما بالرغم من انهما قضيا معهم سهرة المساء . بدا الخروج بالنظر الى وقته المتأخر من ناحية والى وقوعه في بيت السيد من ناحية أخرى حادثا غربيا اثار شتى الظنون فما عتمت خديجة أن استدعت نور جارية العروس وسألتها عما تعلم عن خروج سيدتها فأجابت الجارية بصوتها الرنان في بساطة متناهية !

- ذهبا يا ستى الى كشكش بك ..

فهمت خديجة وأما في نفس واحد :

- كشكش بك !

ليس الاسم غربيا عليهم ، اقتحم ذكره الدور وتغنى بأغانيه

كل من هب ودب ولكنه على ذلك يبدو بعيدا كأبطال الخرافات أو كزبلن ابليس السماء . ان يذهب ياسين بزوجه اليه أمر مختلف جدا ليس دونه أن يقال ذهبا الى محكمة الجنايات . رددت الام عينها بين خديجة وفهمى وتساءلت فيما يشبه الخوف : - متى يعودان ؟

فأجابها فهمى وابتسامة لا معنى لها تفغم على شفثيه :

- بعد منتصف الليل ، وربما قبيل الفجر ..

صرفت الام الجارية وانتظرت حتى غاب وقع اقدامها ثم قالت في لهوكة وانفعال :

- ماذا دهى ياسين؟! . كان جالسا بيننا في كامل عقله ..

الم يعد يعمل حسابا لأبيه؟

فقالت خديجة في حق :

- ياسين أعقل من أن يدبر رحلة كهذه ، ليست قلة العقل

عيبه ولكن به خنوع لا يليق بالرجال ، أقطع ذراعى ان لم تكن هى التى حرضته ..

فقال فهمى مدفوعا برغبة في تلطيف الجو المتوتر وان نفر بطبعه الموروث من جراءة أخيه :

- ياسين ذو ميل قديم الى الملاحى ..

فضاعف دفاعه من حق خديجة التى اندفعت قائلة :

- لسنا بصدد الحديث عن ياسين وميوله ، له أن يحب الملاحى

كما يحلو له ، او أن يواصل السهر في الخارج حتى مطلع الفجر

كلما شاء ، ولكن اصطحاب زوجه المصون معه فكرة لا يمكن أن

تصدر عن ذاته فاعلمها جاءته عن ابحاء عجز عن مقاومته خصوصا

وأنه يبدو مستكينا بين يديها كالقطة الاليفة ، ثم أنها قيما أرى

لا تتورع عن رغبة كهذه . ألم تسمعها وهى تروى قصص الرحلات

التي شاهدتها بصحبة والدها؟! . لولا ابحاؤها ما أخذها معه

الى كشكش بك - يا للفضيحة ! - في هذه الأيام السود التى

ينحجر فيها الرجال في البيوت كالغيران رعبا من الاستراليين ..
 لم يقف التعليق على الحادث عند حد لما أثاره في النفوس
 - سواء المهاجمة أو المدافعة أو المحايدة - من امتعاض ، كمال
 وحده تابع النقاش المحتدم في صمت يقظ من دون أن يقطن الى
 السر الذي جعل من كشكش بك جريمة تكراء استوجبت ذاك
 النقاش كله وذاك الكرب كله ، اليس كشكش هذا صاحب التمثال
 الصغير الذي يباع في الأسواق بجسم متوثب في دعابة ووجه
 ضاحك ذي لحية عريضة وجبة فضفاضة وعمامة مقلوطة ؟
 اليس هو من تنسب اليه الأغاني المرحية التي استظهر بعضا منها
 ينشده مع صديقه فؤاد بن جميل الحمزاوي وكيل أبيه ؟ . فبأي
 شر يتهمون هذه الشخصية اللطيفة التي ارتبطت في خياله
 بالفكاهة والمرح ؟ . لعل مطرد هذا الكدر الى اصطحاب ياسين
 لزوجته لا الى كشكش بك نفسه ، فان كان ذلك فهو يتفق
 معهم في الانزعاج من جراءة ياسين خصوصا وان زيارة أمه
 للحسين وما أعقبها من أحداث لا يمكن أن تبرح مخيلته ، أجل
 كان الأجلر بياسين أن يذهب وحده أو أن يأخذه « هو » ان كان
 يريد رفيقا لا سيما وأنه في عطلة الصيف فضلا عن نجاحه المتفوق
 في المدرسة ، وما يدرى الا وهو يقول متأثرا بأفكاره :

- ألم يكن الأفضل أن يأخذني أنا .. ؟!

اندس تساؤله في الحديث كما تندس نفمة غريبة مقتبسة في
 لحن شرقي صميم ، فقالت خديجة :

- من الآن فصاعدا يحق علينا أن نعدرك في قلة عقلك ! ..
 فندت عن فهمي ضحكة قائلا :

- ابن الوز عوام ..

بيد أن التسلل رن في أذنيه رنينا جافيا وكد اثره السيء
 تحديق أمه وخديجة في عينيه باستغراب فانتبه الى خطئه غير
 المقصود وتداركه قائلا وقد دخله امتعاض وخجل :

- أخو الوز عوام ! .. هذا ما قصدت أقوله ..
 دل الحديث في جملته على تحامل خديجة على زينب من
 ناحية ، وخوف الأم من العواقب من ناحية أخرى ، بيد أن أمينة
 لم تعلن ما في نفسها كنه . في تلك الليلة عرفت في نفسها امورا
 لم تكن تعرفها من قبل . أجل كثيرا ما وجدت نحو زينب انكارا
 وضيقا ولكنه لم يبلغ أن يكون نفورا أو كراهية فعزته الى خيلاء
 الفتاة بداع وبغير داع ، ولكن هالها اليوم أن تخرق الآداب
 والتقاليد ، وأن تحل لنفسها ما لا يحل - في نظرها هي - الا
 للرجال ، عابت هذا السلوك بين امرأة قضت عمرها حبيسة وراء
 الجدران ، امرأة دفعت صحتها وسلامتها ثمنا لزيارة بريئة لزين
 آل البيت لا لكشكش بك ؛ فمازج انتقادها الصامت شعور طافح
 بالمرارة والغيط وكان منطقها غدا يردد فيما بينها وبين نفسها
 « اما أن تنال الأخرى الجزاء أو فلتذهب الحياة هباء » . هكذا
 تلوث بالحنق والموجدة - في الشهر الأول من معاشرته لامرأة
 جديدة - القلب الطاهر الورع الذي لم يعرف طوال حياته
 المحقوفة بالجد والصرامة والتصب الا الطاعة والعفو والصفاء .
 ولما آوت الى حجرتها لم تدرك ان كانت تود - كما دعت بلسانها
 امام ابنائها - أن يستر الله على « جناية » ياسين أم انها ترجو
 أن ينال أو بالأحرى أن تنال زوجه جزاءها من الزجر والتأديب ؟ ،
 بدت تلك الليلة وكأنها لا يعنيها من أمر الدنيا جميعا الا أن تصان
 تقاليد الأسرة من كل عبث وان يدفع عنها ما يتحرش بها من
 عدوان ، بدت غيورا على الآداب الى حد القسوة فطمزت عواطفها
 الرقيقة المألوفة في الأعماق باسم الاخلاص والفضيلة والدين
 متعلقة بها قرارا من ضميرها المتألم كالظم الذي ينفس عن غرائز
 مكبوتة باسم الحرية أو غيرها من المبادئ السامية . جاء السيد
 وهي على تلك الحال من التصميم الا أن منظره بث الخوف في
 حناياها فانمقد لسانها ، راحت تتابع حديثه وتجبب على أسئلته

بذهن شارد وفؤاد خافق لا تدري كيف تنفس عما احتدم بخاطرها ؛ وكلما مر الوقت واقترب ميعاد النوم ألحت عليها رغبة عصبية في الكلام ، كم ودت لو تتكشف الحقيقة بنفسها كأن يجيء ياسين وزوجه مثلا قبل اخلاذ أبيه الى النوم فيتنبه السيد بنفسه الى فعلته التكرار فيجبهه العروس الرغاء برأيه في سلوكها بغير تدخل منها هي - الأم - لا شك أنه يحزنها بقدر ما يريحها .. انتظرت طويلا في لهفة وقلق ان يطرق الباب الكبير ، انتظرت دقيقة بعد أخرى حتى تشاءب السيد وقال لها بصوت متراخ :
- اطفئي المصباح ..

حاقبت بها الهزيمة فانحلت عقدة لسانها فقالت بصوت خافت مضطرب كأنها تناجي نفسها :

- تأخر الوقت ولما يعد ياسين وزوجه !

- فحملق السيد في وجهها وتساءل في عجب :

- وزوجه ؟ .. أين ذهباً ؟

ازدردت المرأة ريقها وقد ركبها الخوف ، من السيد ونفسها معا ، ولكن لم تجد بدا من ان تقول :

- سمعت الجارية تقول انهما ذهبا الى كشكش بك !
- كشكش !

عزف الصوت عاليا في شراسة وتطاير الشرر من العينين اللتين الهبهما الكحول ، وراح يطرح عليها السؤال تلو السؤال مزمجرا مدمنا حتى طار النوم عن رأسه فأبى أن يزائل مجلسه حتى يعود «الضالان» فانتظر وهو يغلى من الخفق ، ولما كان غضبه ينعكس على نفسها رعبا فقد ارتعبت كما لو كانت هي المذنب ، ثم غصت بالندم على ما بدر منها ، ندم عاجلها مبادرا عقب البوح بسرها مباشرة كأنها لم تبج إلا كي تندم ، فلم تكن لتبخل بقال مهما غلا ساعته لو تستطيع أن تصلح خطاها ، وقست على نفسها بلا تحفظ فاتهمتها بالوقعة والشر ، ألم يكن الأجدر بها أن تستر عليهما على

ان تنبههما الى خطئهما غدا ان كانت تريد الإصلاح حقا لا الانتقام ؟ .. ولكنها أذعنت لعاطفة شريرة ، عن عمد وسوء نية ، فهيأت للفتى وعروسه نكدا لم يدر لهما بخلد وجرت على نفسها ندما بات يحرق نفسها المعذبة حرقا بلا رحمة ، وراحت تدعو الله - خجلى من ذكره - أن يلفظ بهم جميعا ، مضى الوقت تفرع دقائقه قلبها بالآلم حتى انتبهت على صوت السيد وهو يقول متهمكا بمرارة :
- جاء سي كشكش ..

فأرهفت السمع وهي تتطلع بناظرها الى النافذة المفتوحة المظلة على الفناء فترامى اليها صرير الباب الكبير وهو يفلق ، وقام السيد وغادر الحجرة فقامت بطريقة آلية ولكنها تسمرت في مكانها جينا وخزيا وضربات قلبها تتدافع حتى سمعت صوته الجهير وهو يخاطب القادمين قائلا « اتبعاني الى حجرتي » فتناهى بها الخوف فتسللت من الحجرة هاربة .. عاد السيد الى مجلسه يتبعه على الأثر ياسين وزينب ، فحجج الفتاة بنظرة عميقة متجاهلا ياسين ثم قال بحزم وإن تقى نبراته من الغلظة والجفاء :

- اصغ الى يابنية جيدا ، أبوك أخى أو أوثق صلة ومودة ، فانت ابنتى كخديجة وعائشة على السواء ، ما قصدت أبدا ان اكدر صفوك ولكن ثمة أمور اعد السكوت عنها جريمة لا تفتقر ، من ذلك ان تبقى فتاة مثلك خارج بيتها حتى هذه الساعة من الليل ، لا تحسبى أن في وجود زوجك معك عذرا عن هذا السلوك الشاذ فإن الزوج الذى يستهين بكرامته على هذا النحو غير خليق بأن يقلل من العشرات التى هو للأسف أول دافع اليها ، ولما كنت على يقين من براءتك أو بالأحرى من أنه لا ذنب لك إلا أنك جاريته على هواه فرجائى اليك ان تعاوينى على اصلاح امره بالا تستسلمى الى غواياته مرة أخرى ..

وجت الفتاة واستحوذت عليها الذهول ، وعلى أنها كانت تخفى في كنف أبيها بقسط من الحرية الا انها لم تجد من نفسها شجاعة

على مناقشة الرجل بله معارضته ، كأن اقامتها في بيئته شهراً
اعدت شخصيتها بعدوى الخضوع لارادته التي يفرق حيالها كل
حى في البيت ، احتج باطنها بان اباها نفسه استساغ أكثر من
مرة أن يصطحبها الى السينما ، وأنه لا يحق له منعها من شيء
سمح به زوجها ، الى اقتناعها بأنها لم تخرق ادبا أو تهتك حرمة،
قال باطنها هذا وأكثر بيد أنها لم تستطع أن تنطق بكلمة واحدة
حيال عينيه اللزمتين بالطاعة والاحترام وأنفه الكبير الذى بدا
- وهو يرفع رأسه - كأنه مسدس مسدد نحوها ، فانكتم
حديثها الباطنى تحت مظهر من الرضى والادب كما تنكتم الأمواج
الصوتية في جهاز الاستقبال بالمدىاع باغلاق مفتاحه ، ثم ما تدرى
الا وهو يسألها وكأنه يتمادى في تحديه لها :

- الك اعترض على قولى ؟

فهزت رأسها بالنفى ورسمت شفاتها حرف « لا » دون أن
تنطق به فقال لها :

- اتفقنا ، تفضل الى حجرتك بسلام ..

غادرت الحجرة شاحبة الوجه فالتفت السيد صوب ياسين
الذى اخفى عينيه في الارض ، ثم قال وهو يهز رأسه في أسف
شديد :

- الأمر جدد خطير ولكن ما حيلتى ؟! .. لم تعد طفلا والا
لكسرت رأسك ، ولكنك وا أسفاه رجل وموظف وزوج أيضا وان
كنت لا تتورع عن العبث برباط الزوجية ، فما عسى أن أصنع بك ؟
أهذه نهاية تربيته لك ؟! .. (ثم بصوت أذهب فى التأسف) ..
ماذا دهاك ؟! .. أين الرجولة ؟! .. أين الكرامة ؟! .. يعز على والله
أن الصديق ما وقع .

لم يرفع ياسين رأسه ولم يتكلم فظن صمته خوفا وشعورا
بالخطأ - إذ لم يتصور أن يكون ما به سكر - ولكنه لم يجد في
ذاك عزاء ، بدأ الخطأ انقطع من أن يترك بلا علاج حاسم ، فاذا

لم يكن من سبيل الى العلاج القديم - العصا - فلا أقل من الحزم
والا انتشر سلك الأسرة جميعا ، قال :

- ألم تعلم بأنى أحرم على زوجى الخروج ولو لزيارة الحسين ؟
كيف اذن سولت لك نفسك أن تأخذ زوجك الى ملهى داعر لتسهر
فيه الى ما بعد منتصف الليل ؟! .. يا أحمرق انت تدفع بنفسك
ويزوجك الى الهاوية فأى شيطان ركبك ؟

وجد ياسين في الصمت آمن ملاذ أن تفضحه نبراته أو أن
يسترسل في الحديث بطلاقة مربية تنم في النهاية على سكره ،
لا سيما وان خياله أصر على التسلسل - هازنا بالموقف الخطير -
من الحجرة فانطلق الى آفاق بعيدة بدت لرأسه الشمل راقصة
تارة ومترنحة أخرى ، ولم يستطع صوت أبيه على ما ابتعث في
نفسه من الرهبة أن يسكت الأنغام التى غناها المهرجون في المسرح
فكانت تثب الى ذهنه - على رغمه .. بين لحظة وأخرى كالاشباح
في ليل المرعوب هامسة :

أبيع هدومي عشان بوسة من خذك القشدة يا ملبن
يا خلوة زى البسبوسة يا مهلبية كمان واحسن
تغيب تحت تأثير الخوف ثم تظفر راجعة ، ولكن أباه ضاق
بالصمت فصاح به غاضبا :

- انطق حدثنى عن رأيك فانى مصمم على الا يمر الحادث
بسلام ..!

خاف عاقبة الصمت فخرج عنه متهيبا مضطربا ثم قال وهو
يبدل قصارى جهده ليتمالك نفسه :

- كان والدها يعاملها بشيء من التسامح .. (ثم متعجلا)
ولكنى أقر بأنى أخطأت ..

فصاح السيد مغضبا ومتجاهلا الجملة الاخيرة :

- لم تعد في بيت أبيها ، عليها أن تحترم آداب الأسرة التى
صارت عضوا فيها ، أنت زوجها وسيدتها ويديك وحدك أن تصورها

في اى صورة تشاء ، خبرنى عن المسئول عن ذهابها معك انت
أم هي ؟ ..

شعر على سكره بالفخ المنسوب له ولكن الخوف دفعه الى
التوارى فغمغم :

— لما علمت بنيتى في الخروج توسلت الى أن أصطحبها ..
فضرب السيد كفا بكف وهو يقول :

— اى رجل في الرجال انت ؟ .. كان الجواب الخليق بها
لظمة ! ... انه لا يفسد النساء الا الرجال وليس كل الرجال
جديرا بالقيام على النساء ...

ثم محتدا :

— وتذهب بها الى مكان ترقص فيه النساء تصف عرايا ؟
تخايلت لعينيه الصور التى أفسدها تعرض أبيه له على رأس
السلم وعادت الانعام تتجاوب في رأسه « ابيع هدومى .. » ولكن
ما يدرى الا والرجل يقول متوعدا :

— لهذا البيت قانون انت تعرفه فوطن نفسك على احترامه
ما رغبت في البقاء فيه ...

- ٤٧ -

قامت عائشة بتزيين خديجة خير قيام بهمة لا تجارى ومهارة
فائقة كأن التزيين خير مهمة تؤديها في الحياة على اكمل الوجوه ،
فبدت خديجة عروسا حقا تأخذ أهبتها للانتقال الى بيت العريس
وان ادعت — جريا على عادتها في التقليل من شأن الخدمات التى
يؤديها لها الغير — ان اكبر الفضل في اظهارها بالمظهر اللائق انما
يعود الى سماتها هي قبل كل شيء ! على أن « جمالها » لم يعد

مثار وساوسها مذ طلب يدها رجل اتفق له أن رآها بعينيه ، بيد
أن جميع مظاهر السعادة التى احاطت بها لم تستطع أن تمحو من
نفسها خفقات الحنين الذى دب في أعماقها لوشك البين ، حين
خليق بفتاة مثلها لم يخفق قلبها بحب شيء في الوجود كحبها لآلها
وبيتها جميعا من الوالدين المعبودين الى الدجاج والبلابل والياسمين ،
حتى الزواج نفسه طالما تحرقت في انتظاره بجزع الملهوف لم
يكن ليهون عليها مرارة الفراق ، من قبل أن تطلب يدها بدت
كاللاهية عن حب البيت واعزازه ، وربما غلب عليها الضجر في
مضطرب الحياة فوارى عواطفها العميقة الصادقة لان الحب كالصحة ،
يهون في الوصال ويعز عند الفراق ، فلما ان اطمأنت على مستقبلها
أبى قلبها أن ينتقل من حياة الى حياة دون جزع شديد كأنما يكفر
عن اثم أويضن بغال ، تطلع كمال اليها صامتا ، لم يعد يتساءل
هل تعودين ، بعد ان عرف ان التى تتزوج لا تعود الا أنه خاطب
شقيقته مغمغما (سوف أزوركما كثيرا عقب الخروج من المدرسة)
فرحنا به معا بيد أنه لم تعد تفرر به الآمال الكاذبة ، كثيرا ما زار
عائشة فلم يظفر بعائشته القديمة . يجد مكانها أخرى مشرقة
تلقاه بتودد بالغ يشعره بالعربة ثم لا يكاد يخلو اليها حتى يدرکہما
زوجها الذى لا يعادر البيت قائما من الوان التسلية بسجائره
وغلبونه وعود يبيت بأوتاره بين حين وآخر ، لن تكون خديجة خيرا
من عائشة ، فليس من وفق في البيت الا زينب ، وهى لا تتودد
اليه كما يجب الا بمشهد من أمه كأنما تتودد اليها هى فاذا غابت
الأم تجاهلته كأنه لا يكون لومع ان زينب لم تشعر بانها ستفقد
عزيزا بذهاب خديجة الا أنها استنكرت الجو الرزين الصامت الذى
يفشى يوم الزفاف ، ففصلت بذلك لتفصح عما تكنه لروح السيد
السيطرة من حنق وغيظ فراحت تقول متهمكة « ما رأيت بيتا
يحرم فيه الحلال كيتم هذا .. حكم ! » غير انها لم تشأ أن تودع
خديجة من غير كلمة مجاملة فنوهت كثيرا بمقدرتها ، وانها « ست

بيت « خليفة بأن يهنأ عليها بعلمها ، فأمنت عائشة على قولها وأردفت قائلة :

— لا عيب فيها الا لسانها !.. ألم تجربيه يا زينب ؟
فما تماكنت أن ضحكت قائلة :

— لم أجربه والحمد لله ولكنى سمعته وغيرى يجربه .
وتعالى الضحك ، وخديجة أولى الضاحكات ، حتى راين الام ترهف السمع بفتة هاتفة « هس » فأمكن مرة واحدة ، فترامى اليهن صوات من الخارج فصاحت خديجة من فورها منزعة :
— مات السيد رضوان !

كانت مريم وأما قد اعتذرتا من عدم شهود الزفاف لاشتداد المرض على السيد محمد رضوان فلم يكن غريبا أن تستدل خديجة بالصوات على موت الرجل ، وغادرت الأم الحجرة مهرولة فغابت دقائق ثم عادت وهى تقول بأسف شديد :

— مات الشيخ محمد رضوان حقا .. يا له من موقف حرج !
فقالت زينب :

— عذرنا واضح كالشمس ، لم يعد في وسعنا تأجيل الزفاف او منع العريس من الاحتفال بليته في بيته وهو بحمد الله بعيد ، اما انتم فهل تطالبون بأعمق من هذا الصمت البليغ ؟!
لكن خديجة شردت في خواطر أخرى انقبض لها قلبها خوفا فتطيرت من النبأ المحزن وغفمت وكأنها تخاطب نفسها :

— يا لطيف يا رب ..

فقرات الام افكارها فانقبض صدرها بدورها ولكنها أبت أن تستكين لهذا الشعور الطارئ أو أن تترك ابنتها تستكين له فقالت باستهانة متصنعة :

— لا شأن لنا بقضاء الله فالحياة والموت بيده ، والتشاؤم من عند الشيطان ...

انضم ياسين وفهمى الى المجتمعات بحجرة العروس بعد أن

فرغا من ارتداء ملابسهما فأخبر الأم بأن السيد ناب عن الأسرة — بالنظر الى ضيق الوقت — في تقديم واجب العزاء الى آل السيد رضوان . ثم حذج ياسين الى خديجة وقال ضاحكا :

— أبى السيد رضوان أن يبقى في الدنيا بعد رحيلك عن جواره ..

فردت عليه بابتسامة شاحبة غاب عنه ما وراءها فمضى يتفحصها بعناية وهو يهز رأسه متظاهرا بالرضى ثم قال متنهدا :

— صدق من قال « لبس البوصة تبقى عروسة » ..
فقطبت معلنة عدم استعدادها لمجاراته ثم نهزته قائلة :

— اسكت ، انى متطيرة من موت السيد رضوان في يوم زفاني .

فقال ضاحكا :

— لا أدري أيكما جنى على صاحبه ؟

ثم وهو يواصل الضحك :

— لاخوف عليك من موت الرجل ، لا تشغلى فكرك به ، ولكنى اخاف عليك من لسانك فهو الأحق بأن تتطيرى منه ،

ونصيحتى التى لا أمل ترديدها أن تنقعيه في شراب مشبع بالسكر حتى يحلو ويصلح لمخاطبة العريس ..

عند ذلك قال فهمى متلطفًا :

— مهما يكن من أمر السيد رضوان فيوم زفافك لم يخل من

بركة طال انتظار الأرض لها : ألم تعلمى بأن الهدنة قد اعلنت ؟
فهتف ياسين :

— كدت أنسى هذا !.. ليس زفافك المعجزة الوحيدة في يومنا

هذا ، حصل ما لم يحصل منذ أعوام فانتهدت الحرب وسلم غليوم .
فتساءلت الام :

— هل يذهب الفلاء والاستراليون ؟

فقال ياسين ضاحكا :

— طبعاً .. طبعاً .. الفلاء والاستراليون ولسان خديجة هانم .

لها به - ربنا يسدد خطاك ويهيئ لك التوفيق وراحة البال ،
وما من نصيحة تسدى اليك خير من أن أقول :
- اقتدى بأهلك في كل كبيرة وصغيرة ..

وأعطاه يده فقبلتها ثم غادرت الحجرة لا تكاد ترى ما بين
يديها من الانفعال والتأثر ، وجعلت تردد طول الوقت « كم انه
لطيف رقيق رحيم ! » ثم تذكر بقلب ملؤه السعادة قوله
« اقتدى بأهلك في كل كبيرة وصغيرة » وتقول لأهلها التي أصغت
إليها بوجه متورد وعينين مرتعشتين « ألا يعنى هذا أنه يراك
القدوة الصالحة للزوجة الصالحة ؟ .. » (ثم ضاحكة) يا لك من
امراة سعيدة الحظ ! ولكن من عسى أن يصدق هذا كله ؟ كأنى
كنت في حلم سعيد ! أين كان يدخر هذا العطف الجميل ؟!
ثم دعت له طويلا حتى اغرورقت عينها بالدموع ..
وجاءت أم حنفي تعلنهم بوصول السيارات ..

- ٤٨ -

خلا مجلس القهوة من وجه خديجة كما خلا من وجه عائشة
من قبل ، على أن خديجة تركت فراغا لم يسد فكانها استلت
روحه وسلبته حيويته وحرمة مزايلا يستهان بها من الفكاهة
والمرح والنقار ، أو كما قال ياسين لنفسه « كانت في مجلسنا كالمح
في الطعام ، ليس الملح في ذاته لذذا ولكن مألذة الطعام من دونه؟ » .
بيد أنه لم يجهر برأيه مجاملة لزوجته إذ أنه لم يزل - على خيبة
أمله في الزواج التي لم يعد لها من دواء في البيت - يشفق من
جرح مشاعرها على الأقل كيلا تسيء الظن بسهره المتواصل ليلة
بعد أخرى في « القهوة » كما يزعم لها . ولئن كان مزاحه يفوق

لاح التفكير في عيني فهمي ، ثم قال وكأنه يخاطب نفسه :
- غلب الألمان !.. من كان يتصور هذا ؟!.. لا أمل بعد
اليوم في أن يعود عباس أو محمد فريد ، كذلك آمال الخلافة قد
ضاعت ، لا يزال نجم الانجليز في صعود ونجما في أفول فله الأمر .
فقال ياسين :

- اثنان كسبا الحرب هما الانجليز والسلطان فؤاد ، فلا أولئك
كانوا يحلمون بالقضاء على الألمان ولا هذا كان يحلم بالعرش ..
وسكت لحظة ثم استطرد ضاحكا :
- وثالث لا يقل حظه عن السابقتين هو عروستنا التي ما كانت
تحلم بالعريس ..

فرمته خديجة بنظرة وعيد وقالت :
- تأبى أن أغادر البيت من غير أن الدفك ..
فتراجع وهو يقول :
- من الخير أن أطلب الهدنة فلست أعظم شأنا من غليوم

أو هندنبرج ..
ثم نظر الى فهمي الذي لاح في وجهه التفكير بحال لا يتفق مع
المناسبة السعيدة فقال له :
- اطرح السياسة وراء ظهرك وتهيا للطرب ولذيد المأكول
والمشارب ..

ومع أن خديجة تناوبتها أفكار كثيرة وخطرت على قلبها أحلام
وأحلام إلا أن ذكرى قريبة - من ذكريات الصباح فحسب -
أحلت عليها من شدة تأثيرها بها حتى كادت تحجب غيرها من
الشجون ، تلك دعوة أبيها لها على انفراد لمناسبة اليوم الذي يعد
مبدأ حياة جديدة في حياتها ، قابلها بلطف ورحمة كانا بلسما
شافيا من وعكة الحياء والرغبة التي اعترتها حتى تعثرت في
مشيتها ، ثم قال لها برقة وقعت من نفسها موقعا غريبا لا عهد

جده ، ان كان ثمة جد ، الا انه فقد النديم الذى طالما طارحه
الدعابة وهيا له دواعيها فلم يبق له الا أن يقنع بالقليل في هذه
الجلسة التقليدية ، ها هو يتربع على الكنبه ، يحسو القهوة ،
ويمد بصره الى الكنبه المقابلة له فىرى الأم وزوجه وكمال
مستغرقين في احاديث لا طائل تحتها ، ولعله يتعجب للمرة المائة
من رزانة زينب المعتمه فيذكر ما رمتها به خديجة من « ثقل
الدم » ويسلم بوجهه نظرها !.. ثم يفتح ديوان الحماسة أو غادة
كربلاء ويقرا ، أو يقص على كمال شيئا مما قرا ، ويلتفت الى
يمينه فىرى فهمى متوثبا للحديث ، عن أى شىء يا ترى ، محمد
فريد ، مصطفى كامل ؟.. لا يدرى ولكنه سيتكلم بلا ريب ، بل
يبدو اليوم منذ عودته من المدرسة كالسما المندرة بالمطر . هل
ينكشه ..؟ كلا ، لا حاجة به الى ذلك ، ها هو يستقبله باهتمام
شديد ، ويحدثه بنظرة موحية ناطقة ثم يسأله :

— ألم تبلغك أنباء جديدة ..؟

يسأله هو عن أنباء جديدة ! عندي أنباء لا عد لها .. الزواج
أكبر خلع ، الزوجة تنقلب بعد أشهر شربة زيت خروج ،
لا تحزن على ما فاتك من مريم أيها السياسى الغر ، أترى أنباء
أخرى ؟!.. لدى منها الكثير لكنها على وجه اليقين لا تهكم البتة ،
ثم ان الشجاعة تخوننى اذا سولت لى نفسى اذاعتها على مسمع
من زوجى ، وما يدرى الا وهو يستشهد — في سره طبعاً —
بقول الشريف :

عندى وسائل شوق لست أذكرها لولا « الرقيب » لقد بلغتها فاك
ثم تسأل بدوره :

— أى أنباء جديدة تعنى ؟..

نقال فهمى باهتمام شديد :

— ذاع بين الطلبة نبأ عجيب كان حديثنا اليوم كله وهو ان
وقدا مصرىا مكونا من سعد زغلول باشا وعبد العزيز فهمى بك

وعلى شعرواى باشا توجه امس الى دار الحماية وقابل نائب
الملك للمطالبة برفع الحماية وعلان الاستقلال ..

ورفع ياسين حاجبيه في اهتمام ولاحث في عينيه نظرة شك
مقرونة بالذهشة . لم يكن اسم سعد زغلول بالجديد عليه وان
لم يجد وراء الاسم في نفسه شيئا ذا بال اللهم الا ذكريات
غامضة اقترنت بحوادث اتى عليها النسيان من زمن دون أن تترك
في قلبه — الذى لا يكاد يعا بالأمور العامة — أثرا عاطفيا يدل
عليها ولو من بعيد ، الا أن الاسمين الآخرين كانا يقعان في اذنه
لأول مرة ، بيد أن غرابة الأسماء ليست شيئا يذكر الى جانب
الحركة التى قام بها أصحابها ان صح ما يقول فهمى ، اذ كيف
يتصور أن يطالب الانجليز غداة انتصارهم على الألمان والخلافة
باستقلال مصر ؟!.. وسأله :

— ماذا تعرف عن هؤلاء السادة ؟

نقال فهمى بلهجة لا تخلو من امتعاض خليق بمن يود لو كان
هؤلاء السادة من أعضاء الحزب الوطنى :

— سعد زغلول وكيل الجمعية التشريعية ، وعبد العزيز فهمى
وعلى شعراوى عضوان بها ، الحق انى لا أعرف شيئا عن الآخرين ،
أما سعد فأكاد اكون عنه فكرة لا بأس بها مما ترمى الى عن
كثيرين من زملائى الطلبة الوطنيين الذين يختلفون فيه كثيرا ،
منهم من يعده ذنبان اذئاب الانجليز ولا شىء أكثر من هذا ومنهم
من يقر له بمزايا عظيمة جديرة بأن ترفعه الى مصاف رجال
الحزب الوطنى انفسهم ، ومهما يكن من شأن فالخطوة التى أقدم
عليها مع زميليه — ويقال انه كان الداعى اليها كذلك — عمل
مجيد لعله لا يوجد الآن من ينهض به مثله بعد نفى البرزين من
الوطنيين وعلى رأسهم زعيمهم محمد فريد ..

بدا ياسين جادا أن يظن به الآخر استهانة بحماسة وردد
قائلا وكأنه يسأل نفسه :

- المطالبة برفع الحماية و اعلان الاستقلال !!
- وسمعنا ايضا انهم طالبوا بالسفر الى لندن للسعى الى
الاستقلال ، وانهم لهذا القصد قابلوا السير ريجينالد ونجت
نائب الملك !!

لم يستطع ياسين أن يواصل مدارة حيرته فاعلنها بأسايريه
وهو يسأله بصوت مرتفع بعض الشيء :
- الاستقلال !! .. اتعنى هذا حقا ؟ .. ماذا تعنى ؟

فقال فهمى بلهجة عصبية :
- اعنى اخراج الانجليز من مصر ، او الجلاء كما عبر عنه
مصطفى كامل ودعا اليه ..

ياله من أمل !! .. لم يكن السعى الى حديث السياسة من
طبعه ولكنه يقبل دعوة فهمى كلما دعاه اليه ، اتقاء لتكديره ،
وطلبا لنوع طريف من التسلية ، وربما ثار اهتمامه بين الحين
والحين وان لم يبلغ درجة الحماس ، بل ربما شاركه امانيه بطريقة
سلبية هادئة ، ولكنه أثبت طوال حياته أنه قليل الاكتراث
بهذا الجانب من الحياة العامة ، كأنه لا غاية له وراء التمتع
بطيبات الحياة ولذاتها ، لذلك لم يجد في نفسه استعدادا للأخذ
بهذه الأقوال مأخذ الجد وتساءل مرة أخرى :

- هل يقع هذا في حدود الامكان حقا ؟

فقال فهمى بحماس لا يخلو من لوم :

- لا يأس مع الحياة يا أخى !!

فانارت هذه الجملة ، في نفسه ماثيره لمثلها من ميل الى
السخرية بيد أنه تساءل متظاهرا بالجد :

- وكيف لنا بأن نخرجهم ؟

ففكر فهمى قليلا ثم قال عابسا :

- لهذا طلب سعد وزميلاه السفر الى لندن !

تابعت الأم الحديث باهتمام مركزة فيه وعيها كله كى تفهم
اقصى ما يسعها فهمه منه كدأها كلما تار حديث في الشئون العامة
البعيدة اكل البعد عن اللغو المنزلى ، تلك الأمور تشوقها ، وتدعى
القدرة على فهمها ، ولا تتردد اذا سنحت فرصة عن المشاركة فيها
غير مبالية بما تحدثه آراؤها في أحيان كثيرة من الاستهانة
المشربة بالعطف ، ولكن لم يكن شيء ليحطم مجاديفها او يصدها
عن الاهتمام بهذه الشئون « الكبيرة » التى يبدو أنها تتبعها
مدفوعة بنفس البواعث التى تدفعها الى التعلق بدروس كمال
الدينية أو مناقشة ما يلقي عليها من معلوماته الجغرافية
والتاريخية على ضوء معارفها الدينية أو الأسطورية ، وقد
أكسبها هذا الجد شيئا من الامام بما يقال عن مصطفى كامل
ومحمد فريد وأفندينا المبعد ، أولئك الرجال الذين ضاعف من
حبها لهم اخلاصهم للخلافة الأمر الذى قربهم في نظرها - كشخص
يقدر الرجال بحسب منازلهم الدينية - من مراتب الأولياء الذين
تهيم بهم ، ولما أن ذكر فهمى أن سعدا وزميليه يطلبان السفر الى
« لندن » خرجت عن صمتها فجأة متسائلة :

- أى بلاد الله لندن هذه ؟

فبادرها كمال قائلا باللهجة المنغومة التى يسمع بها التلاميذ

دروسهم .

- لندن عاصمة بريطانيا العظمى وباريس عاصمة فرنسا

والكاتب وعاصمتها الكاتب ..

ثم مال على أذنها هامسا « لندن بلاد الانجليز » فتولت الأم
الدهشة وقالت مخاطبة فهمى :

- يذهبون الى بلاد الانجليز ليطلبوهم بأن يخرجوا من

مصر !! .. ليس هذا من اللوق في شيء .. كيف تزورنى في

بيتى وأنت تضر طردى من بيتك !!

اضجرت مقاطعتها الشاب فنظر اليها باسماء معاتباء في آن ولكنها ظنت أنها بسبيل اقناعه فأردفت قائلة :

- وكيف يطلبون اخراجهم من ديارنا بعد اقامة طالت هذا الدهر كله ؟! لقد ولدنا وولدتهم وهم في بلادنا فهل من «الانسانية» ان نتصدى لهم بعد ذلك العمر الطويل من العشرة والجيرة لنقول لهم بصريح العبارة - وفي بلادهم ايضا - اخرجوا ؟!

ابتسم فهمى كاليائس على حين قهقهه ياسين اما زينب فقالت جادة :

- كيف تواتيهم الجراة على أن يقولوا لهم هذا في بلادهم !.. هب الانجليز قتلوه هناك فمن ذا يدري بهم ؟.. ألم يجعل جنودهم المشى في الشوارع البعيدة من المخاطرات غير المأمونة ؟ فكيف بمن تحدثه نفسه باقتحام ديارهم ؟!

ود ياسين لو يسترسل مع المرأتين في حديثهما الساذج ارواء لعواطفه الظائمة الى المزاج ولكنه لمس ضجر فهمى فأشفق من اغضابه ، فتحول اليه مواصلا ما انقطع من الحديث وهو يقول :

- في كلامهما حق لم يحسن التعبير عنه ، خبرنى يا أخى ما عسى أن يصنع سعد حيال دولة تعد الآن سيدة العالم بلا منازع ؟ فوافقت الأم على قوله بايماءة من رأسها كأن الحديث كان موجها اليها وراحت تقول :

- كان عرابى باشا أعظم الرجال وأشجعهم ، لا يقاس به سعد ولا غيره ، وكان فارسا وكان مقاتلا ، فماذا لقى من الانجليز يا ولداه ؟.. أسروه ثم نفوه الى بلاد وراء الشمس .. فلم يتمالك فهمى من أن يقول لها بلهجة جمعت بين الرجاء والضيق :

- نينة !.. هلا تركتنا نتحدث ؟!

فابتسمت فيما يشبه الحياء مشفقة كل الاشفاق من اغضابه

فغيرت لهجتها الحماسية كأنما هى بتغيير لهجتها تعلن تغير رأيها كله ثم قالت برقة واعتذار :

- يا سيدى ، لكل مجتهد نصيب ، فليذهبوا في رعاية الله ، وعسى أن يحظوا بمعطف الملكة الكبيرة ..

فما يدري الشاب الا وهو يسألها في غرابة :

- أى ملكة تقصدين ؟

- الملكة فيكتوريا يابنى ، أليس هذا اسمها ؟.. طالما سمعت أبى وهو يتحدث عنها ، هى التى أمرت بنفى عرابى ولكنها أعجبت بشجاعته كثيرا فيما قيل ..

فقال ياسين ساخرا :

- اذا كانت قد نفى عرابى الفارس فهمى أجدد أن تنفى سعدا المعجوز !..

فقالت الأم :

- مهما يكن من أمرها فهمى لم تزل امرأة يحمل صدرها ولا شك قلبا رقيقا فاذا أحسنوا مخاطبتها وعرفوا كيف يتوددون اليها جبرت بخاطرهم ..

• وجد ياسين سرورا كبيرا في منطق الأم التى جعلت تتحدث عن الملكة التاريخية كما لو كانت تتحدث عن أم مريم أو غيرها من البحارات ، ولم يعد يرغب في مجازاة فهمى ، فسألها باغراء :

- خبرينا عما يحسن أن يقولوه لها ؟

فلتحدثت المرأة في جلستها مسرورة بهذا السؤال الذى أقر لها بالجدارة « السياسية » ومضت تفكر باهتمام لاح في تقارب حاجبها في صيغة مناسبة لأول « مفاوضة » بيد أن فهمى لم يمهلها حتى تتم تفكيرها فقال لها باقتضاب واستياء :

- الملكة فيكتوريا ماتت من زمن بعيد ، لا تتبعى نفسك بلا طائل !..

اتعبه ياسين عند ذلك الى غاشية المساء الزاحفة من خلال

خصاص التوافد فأدرك أنه آن له أن يودع المجلس ليمضى الى
سهرته . ولما كان يعلم حق العلم بأن ظمأ فهمي الى الحديث
لم يرو بعد فقد رغب في أن يقدم له اعتذاره عن ذهابه في صورة
تأييد من نوع ما للنبا الذي أخذ بلبه فقال له وهو ينهض :

- انهم رجال يدركون بلا شك خطورة ما أقدموا عليه فلعلهم
أعدوا له الوسيلة الناجحة ، فلندع لهم بالتوفيق .

وغادر المجلس وهو يشير الى زينب لتلحق به فتجهز له
ملابسه ، فشيعه فهمي بنظرة لا تخلو من غضب ، غضب من لم
يظفر بمشاركة وجدانية تتجاوب مع نفسه المتأججة ، لشد ماثير
أحاديت الوطنية أكبر الأحلام في نفسه ، في دنياها الساحرة
تترأى لعينيه دنيا جديدة ، ووطن جديد ، وبيت جديد ،
وأهل جدد ، ينتفضون جميعا حيوية وحماسة ولكن ما أن يفيق
على هذا الجو الخائق من الفتور والسذاجة وعدم المبالاة حتى
تشب بين اضلعه نار الحسرة والألم فتروم في قهرها متنفسا
- أيا ما كان - تنطلق منه الى السماء ، ود في تلك اللحظة بكل
قوته لو ينطوى الليل في غمضة عين ليجد نفسه مرة أخرى في
مجمع الطلاب من اخوانه فيروى ظمأه الى الحماس والحرية
ويسمو في وقدة حماسهم الى ذلك العالم الكبير من الأحلام
والمجد ، لقد تساءل ياسين عن ماذا يصنع سعد حيال بلد تعد
اليوم بحق سيده العالم ، وهو نفسه لا يدري على وجه التحقيق
ماذا سيصنع سعد ، ولا يدري ماذا يمكن أن يصنع ، ولكنه يشعر
بكل ما في قلبه من قوة بأن ثمة ما يجب عمله ، ربما لم يجده ماثلا
في عالم الواقع ، ولكنه يشعر به كأمنا في قلبه ودمه ، فمنا
أجدره أن يبرز الى ضوء الحياة والواقع أو فتنمض الحياة عبثا
من العبث وباطلا من الأباطيل ..

سبعاء الأدب - ٤٩ -

بدأ الطريق أمام دكان السيد أحمد - كعادته - مكتظا بالسابلة
والمركبات ورواد الدكاكين المتراسة على الجانبين الا أن هامته
ازدانت بشفافية مقطرة من جو نوفمبر اللطيف الذي حجب
شمسه وراء سحائب رقاق لاحت رقاعها ناصعة البياض فوق
مآذن قلاوون وبرقوق كأنها بحيرات من نور ، لم يكن شيء في السماء
ولا في الأرض قد خرق المألوف مما اعتاد السيد أن يراه كل يوم ،
ولكن نفس الرجل ، والأنفس الموصولة بنفسه وربما أنفس الناس جميعا
تعرضت لموجة عاتية من الانفعال والشعور خرجت بها عن طورها
أو كادت حتى قال السيد انه لم تمر به أيام كهذه الايام اجتمع
الناس فيها حول نبا واحد وخفقت قلوبهم باحساس واحد . فهمي
الذي يلوذ بالصمت بين يديه ما لم يبدها هو بالحديث نقل اليه في
اسهاب ما اتصل بعلمه عن مقابلة سعد لنائب الملك ، وفي مساء
اليوم نفسه ، وفي مجلس الطرب ، أكد نفر من الصحاب أن الخبر
حقيقة لا يرتقى اليها الشك ، وفي دكانه حدث أكثر من مرة أن
خاض زبائن لا تربط بينهم صلة تعارف سابق في حديث المقابلة ،
بل ما يدري هذا الصباح الا والشيخ متولى عبد الصمد يقتحم
عليه الدكان بعد غيبة طويلة فلم يقنع بتلاوة الآيات وأخذ نصيبه
من السكر والصابون وأبى الا أن يعلن نبا الزيارة بلهجة من يرف
البشرى لأول مرة ولما سأله السيد - مداعبا - عما يظن أن تكون
نتيجة الزيارة أجاب الشيخ « محال !.. محال أن يخرج الانجليز
من مصر ، اتحسبهم مجانين كي يجلوا عن البلد بلا قتال !.. لا بد
من قتال ، ولا قتال لنا ، فلا سبيل الى اخراجهم ، ففعل رجالنا

يوفقون ولو الى ابعاد الاستراليين حتى يعود الأمن الى سابق عهده ، والسلام ! » ، أيام أنباء ومشاعر فياضة صادفت في السيد رجلا ذا قابلية شديدة لعدوى الأشواق الوطنية والسياسية فبات على حال من الانتظار والتوقع جعلته يقبل بانفعال على قراءة الجرائد التي بدت في الأغلب وكأنها تصدر في بلد غريب لا انفعال فيه ولا توثب ، واستقبال الأصدقاء بنظرة استطلاع تتلهف عما وراءهم من جديد ، وعلى تلك الحال استقبل السيد محمد عفت حين دخل الدكان مهرولا ، لم تكن نظرة القادم الحادة ولا حركته النشيطة مما يوحي بأنه مجرد زائر قد عرج الى الدكان لاحتساء القهوة أو رواية ملححة ، فوجد السيد في مظهره ما تجاوب مع نفسه القلقة المشوقة فبادره قائلا والآخر يشق طريقه بين الزبائن الذين قام جميل الحمزاوى على قضاء حوائجهم :

— صباحنا ناد ، ماذا وراءك يا سبيع ؟

اتخذ السيد محمد عفت مجلسه لصق المكتب وهو يبتسم ابتسامة وشت بالعجب كأن قول السيد «ماذا وراءك» وهو نفس السؤال الذي يتكرر كلما لاقى أحدا من صحبه — اقرار بأهميته في هذه الأيام البالغة في أهميتها بالنظر لما يربطه ببعض الشخصيات المصرية الهامة من صلات القربى ، كان السيد عفت دائما همزة الوصل بين جماعته الأصلية المكونة من تجار وبين من انضم اليها بعض الزمن من موظفين ممتازين ومحامين وان تفرد السيد أحد بمنزلة الاعزاز الاولى بفضل شخصيته وسجاياه ، غير أن صلة القربى هذه التي لم تفقد شيئا من خطورتها قط لدى أصدقائه التجار الذين يتطلعون الى الموظفين وذوى الألقاب بنظرة ملؤها الاكبار ، صلة القربى هذه قد زادت خطورة في هذه الأيام التي بات فيها « الخبر الجديد » أهم من الماء والغذاء !.. بسط السيد عفت صحيفة كانت مطوية يمينه ثم قال — خطوة جديدة — لم

اعد ناقل أنباء فحسب ولكنى بت رسولا أحمل اليك والى غيرك من الأكرمين هذا التوكيل السيد ..

واعطاه الصحيفة وهو يفهم مبتسما « اقرا » فتناولها السيد وقرا :

« نحن الموقعين على هذا قد آتينا عنا حضرات سعد زغلول باشا وعلى شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى بك ومحمد على علوبة بك وعبد اللطيف المكباتى ومحمد محمود باشا وأحمد لطفى السيد بك ، ولهم أن يضموا اليهم من يختارون ، في أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعى سبيلا في استقلال مصر استقلال تاما » .

فتهلل وجه السيد وهو يتلو أسماء أعضاء الوفد المصرى الذين سمع بهم فيما سمع من أنباء الحياة الوطنية التى ترددها الألسن ، وتساءل :

— ماذا تعنى هذه الورقة ؟

فقال الرجل بحماس :

— ألا ترى هذه الامضاءات ؟.. وقع تحتها بامضائك وادع جميل الحمزاوى ليوقع بامضائه أيضا ، هذا توكيل من التوكيلات التى طبعها الوفد ليوقعها الشعب فيتخذ بها صفة الوكالة عن الأمة المصرية .. امسك السيد بالقلم ووقع بامضائه في سرور تجلى في تالق عينيه الزرقاوين وهو يبتسم ابتسامة رقيقة نمت عن شعوره بالسعادة والخيلاء اذ يوكل عن نفسه سعد وزملاءه ، أولئك الرجال الذين ملكوا النفوس على حداثة شهرتهم حيث حركوا منها أهواء عميقة مكبوتة كالدواء الجديد يستأثر بأفكار المرضى بداء قديم استعصى علاجه بالرغم من استعماله لأول مرة ، ودعا الحمزاوى فوقع بامضائه كذلك ، ثم انفتحت الى صاحبه وهو يقول باهتمام شديد :

— المسألة جد فيما يبدو !..

فحرك محمد عفت رأسه في تأثر كأن الصورة التي جسمها خياله عند ذكر الكأس وزيدة قد أسكرته ، وغمغم :

- يابا بكره نسمع ..

ثم غادر الدكان والسيد في أعقابيه مبتسما :

- وبعده نشوف !..

ثم عاد الى مكتبه وأثر المزاج منبسطة في أساريه وانفعال الحماس في قلبه لا يبعد ، شأنه في كل ما يعرض له من مهام الحياة بعيدا عن داره ، فهو يجد الجد كله كلما دعا الداعي الى الجدولكنه لا يتردد عن تلطيف جوه بالمزاج والدعابة كلما لاح له صادرا في ذلك عن طبع لا يملك معه حيلة وان بدا ذا قدرة عجيبة على التوفيق بينهما ، فلا جده بظاهر مزاحه ولا مزاحه بمفسد جده ، ولما كانت دعابته ليست ترفا مما يدور على هامش الحياة ، ولكن ضرورة تنوزعها كالجذ سوا سوا ، فلم يسعه يوما الاقتصار على الجد الخالص أو تركيز همته فيه ، وبالتالي قنع دائما من « وطنيته » بالاعاطفة والمشاركة الواجداية دون الاقدام على عمل يغير وجه الحياة التي أنس اليه فلا يرضى عنه بديلا ، لذلك لم يدر له بخلد أن ينضم الى لجنة من لجان الحزب الوطني على شدة تعلقه بمبادئه ، ولا حتى أن يجشم نفسه شهود اجتماع من اجتماعاته ، اليس في ذلك اهدار لوقته « الثمين » ؟ ليس الوطن في حاجة اليه على حين يتلف هو على كل دقيقة منه لينفقها في أسرته أو تحارته أو على الخصوص في لهوه بين الأحباب والحلان ؟! .

ليكن أذن وقته خالصا لحياته ، وللوطن ما يشاء من قلبه وعواطفه ، بل ماله كلما تيسر ، إذ لم يكن يصن به إذا وجب التبرع افرض من الأغراض ، وإلى ذلك فلم يشعر مطلقا بأنه مقصر في واجبه على نحو ما ، وعلى العكس عرف بين صحبه بالوطنية ، أما لأن قلوبهم لم تسمح بعواطفها كما سخا قلبه ، وأما لأن الذين سخط قلوبهم لم يذهبوا الى حد التبرع بالمال مثله ، فتميز بوطنيته ،

فغضب الرجل حافة المكتب بقبضة يده ثم قال :

- غاية الجد ، كل شيء يسير بقوة وتصميم ، أما علمت بما دعا الى طبع هذه التوكيلات ؟! قيل أن « الرجل » الانجليزى تسأل عن الصفة التي كلمه بها سعد وزميله في صباح ١٣ نوفمبر الماضي فما كان من الوفد الا ان عمد الى هذه التوكيلات ليثبت أنه يتكلم باسم الأمة ..

فقال السيد بتأثر :

- لو كان محمد فريد بيننا ما عدا هذا .

- لقد انضم الى الوفد من رجال الحزب الوطنى محمد على علوبة بك وعبد اللطيف المكباتى ..

ثم هز متكبيه لينفض عنهما الماضى كله ثم قال :

- كلنا نذكر سعدا بما كان يشير من ضجة عظيمة على عهد توليه لنظارة المعارف ثم الحقانية ، ما زلت أذكر ترحيب اللواء به منذ ترشيحه للوزارة وان لم أنس حملاته عليه بعد ذلك ، بل لا أنكر اننى ملت مع انتقاد المنتقدين له لشدة تعلقى بالمغفور له مصطفى كامل ، ولكن سعد أثبت دائما أنه جدير بأعجاب المعجبين . أما حركته الأخيرة فهي خليفة بأن تحله من القلوب في أعز مكان ..

- صدقت ، حركة مباركة ، لنُدع الله أن يتولاها بتوقيقه .

ثم باهتمام :

- ترى أيؤذن لهم في السفر ؟! وماذا تراهم فاعلين اذا سافروا ؟!

طوى السيد محمد عفت التوكيل ثم نهض وهو يقول :

- ما القد يبعد ..

في طريقهما الى باب الدكان غلبت روح الدعابة السيد فهمس في أذن صاحبه :

- كائن لشدة سرورى بهذا التوكيل الوطنى ثم يعل الكأس الثامنة بين فخذى زيدة !..

— أما سمعت عن الاسم الجديد الذى أطلق على بيت سعد
باشا ..؟ انهم يدعونه « بيت الأمة » ..
ومال الرجل نحوه ليفضى اليه كيف نعى اليه الخبر ..

أثره هزيمة الوطن بحريته

في نفس الوقت الذى شغل فيه الوطن بالمطالبة بحريته كان
ياسين دائماً يحزم وعزم على الاستئثار بحريته هو كذلك ، فان
انطلاقه الى سهراته الليلية — بعد امتناع موسوم بالاستقامة
فيما أعقب الزواج من أسابيع — لم يفز به بلا نضال . ثمة حقيقة
كثيرة ما ردها لنفسه كاعتذار عن سلوكه الجديد ، هي أنه لم يكن
يتصور — وهو في سكرة حلم الزواج — أنه سيرتد الى حياة
التسكع بين القهوة وحانة كوستاكي ، اعتقد مخلصاً أنه ودع ذلك
الى الأبد مضمراً لحياته الزوجية أحسن النيات ، حتى دهمته
الحياة المستعصية في الزواج كله فجزعت أعصابه عن تحمل الملل
او الحياة الفارغة كما دعاها ، وفزع بكل قوة نفسه المدللة الحساسة
الى الترفيه والتسلية والنسيان ، الى القهوة والحانة ، لا كحياة
لهو عابرة كما ظنها في الماضي والزواج أمل مدخر ، ولكن كحياة
هي كل ما تبقى له من متعة بعد أن غدا الزواج خيبة مريرة ،
كالذى تشرده الأمل عن وطنه فرده الاخفاق اليه ثاقباً ، بيد أن
زينب التى عهدت عنده التودد الحار والتملق النهم ، بل الاعزاز
الذى بلغ به يوماً أن ذهب بها الى مسرح كشكش بك مستهيناً
بالسياج المسلح من التقاليد الصارمة الذى يضربه أبوه حول
الأسرة .. زينب هذه كابدت من انصرافه عنها الى منتصف الليل
ليلة بعد أخرى وعودته ثلاً يترنح ، صدمة عز عليها احتمالها فما

وعرف هو ذلك فأضافه الى بقية مزايه التى يباهى بها سرا في
أعماق قلبه . ولم يتصور أن تطالبه بأكثر مما
يجود به ، ذلك القلب المولع بالفراغ والطرب والزواج لم يضق
— على ازدحامه — بالمعاطفة القومية ، وهى وان قنعت بالقلب بجالا
لحيويتها إلا أنها كانت قوية عميقة تشمل النفس وتهمها ، لم تحته
عرضاً ولكن نشأت مع صباه فيما تلقته أذناه من أحاديث البطولة
التي رواها السلف عن عرابي ، ثم اتقنت جذوتها بمقالات اللواء
وخطبه ، وكما كان منظرًا فريداً — أهاج التأثر والضحك معا — يوم
سئم وهو سكي كالاطفال عند وفاة مصطفى كامل ، تأثر صحبه لأن
أحدا منهم لم يسلم من وعكة حزن ثم أغرقوا في الضحك في مجلس
الطرب الليلي حين تذكروا المنظر اذ لم يكن من اليسير أن يري
« رب الضحك » وهو يجعش بالبكاء ! اليوم ، بعد سنى الحرب
الخامدة بعد موت الزعيم الشاب ونفى خليفته ، بعد انقطاع
الامل من عودة أفندينا ، بعد هزيمة تركيا ، وانتصار الانجليز ،
بعد هذا كله ، أوبالرغم من هذا كله ، تسرى انباء عجيبة حاملة
حقائق كالاساطير .. مواجهة الرجل الانجليزى بمطالب الاستقلال
امضاء التوكيلات الوطنية ، التساؤل عن الخطوة التالية ، قلوب
تنفض عن جوهرها الغبار ، أنفس تشرق بالأمال ، ماذا وراء هذا
كله ؟ ..! أن خياله السلمى الذى ألف الاستكانة يتساءل دون
جدوى . وأنه ليعجل الليل ليهرع الى مجلس الطرب حيث باتت
الأحاديث السياسية « مزة » الشراب والطرب فانتلفت مع جملة
الغريبات التى تجذب حنانه الى سهرته كزبيدة وحب الإخوان
والشراب والطرب وانها لتبدو في ذلك الجو الخلأب عذبة الروح
لطيفة التناول تفنى القلب بشتى عواطف الحماس والحب من دون
أن تستاديه ما لا طاقة له به ..! وأنه ليفكر في هذا كله اذ اقترب
منه جميل الحمزاوى وهو يقول :

تأملت أن كاشفته بأحزانها ، وكان يعلم بداهة أن طفرة مفاجئة في حياته الزوجية لا يمكن أن تمر بسلام ، فتوقع من بادئ الأمر المعارضة على أى لون جاءت ، عتابا أو خصاما وأعد العدة المناسبة ليحسم موقفه بقوة متمثلا بقول أبيه له ليلة ضبطه راجعا من كشكش بك « انه لا يفسد النساء الا الرجال ، وليس كل الرجال جديرا بالقيام على النساء » فما تشكت حتى قال لها : « لا داعى للحزن يا عزيزة ، منذ القدم والبيوت للنساء والدنيا للرجال ، هكذا الرجال جميعا ، والزوج المخلص يحافظ على أمانته وهو بعيد عن زوجته كما يحافظ عليها وهو بين يديها ، ثم اننى أتزود من السهرة ترويحاً عن النفس وبهجة يجعلان من حياتنا متعة كاملة . » ولما عرضت بسكره محتجة بأنها « تخاف على صحته » ضحك وقال بنفس اللهجة الجامعة بين الرقة والحزم « كل الرجال يسكرون ، ان صحتي تتحسن بالسكر (ثم ضاحكا مرة أخرى) سلى أبى أو أباك ! » الا أنها همت بالاسترسال في مناقشته جريا وراء أمل كاذب فشدد جبل الحزم متشجعا بملله الذى هون عليه ما لم يكن يهون من اغصابها فراح ينوه بما للرجال من حق مطلق في أن يفعلوا ما يشاعون ، وما على النساء من واجب الطاعة والتزام الحدود « انظري الى امرأة أبى هل رايتها اعترضت يوما على تصرف لابنى ؟ .. على ذاك فهما زوجان سعيدان وأسرة مطمئنة ، ينبغى الا نعود الى هذا الموضوع » .. لعله لو كان ترك الى شعوره وحده ما اصطنع في خطابها ما اصطنع من سياسة فان خبيثته في الزواج جعلته يجد نحوها أحيانا ما يشبه الرغبة في الانتقام ، وأحيانا أخرى نوعا من الكراهية المتقطعة وان لم يكف عن الرغبة فيها بين هذا وذاك ، ولكنه راعى عواطفها اكراما - أو خوفا - من أبيه الذى علم بعظيم تعلقه بأبيها السيد محمد عفت . والحق لم يكن يكرهه شيئا كاشفاقه من أن تشكوه الى أبيها فيشكوه هذا بدوره الى أبيه ، حتى لقد صمم جادا ، اذا وقع شيء مما

يحاذر ، ان يستقل بمسكن مهما تكن العواقب ولكن مخاوفه لم تتحقق ، أثبت الفتاة رغم حزنها انها امرأة « عاقلة » كأنها من طراز امرأة أبيه نفسها ، قدرت موضعها حق قدره ونزلت عند حكم الواقع ، مطمئنة - لبعلمها - بما يردده دائما من اخلاصه وبراءة سهراته ، قانعة من الألم والحزن ببثها في دائرة الأسرة الضيقة - مجلس القهوة - من دون أن تظفر بتأييد جدى ، وكيف لها بذلك في بيئة ترى الخضوع للرجال دينا وعقيدة ، بل لعل الست أمينة استنكرت شكواها وسخطت على ما تطمح إليه من استئثار غريب ببعلمها ، لأنها لم يكن يسعها أن تتصور النساء الا على مثالها هى ولا الرجال الا على مثال زوجها ، فلم تر في استمتاع ياسين بحريته عجبا ولكن شكوى زوجه بدت هى العجب ، فهمى وحده قدر أحزانها فتطوع لترديدها على مسمع من ياسين ولو انه أيقن من بادئ الأمر انه يدافع عن قضية خاسرة ، ولعل ما شجعه على ذلك كان كثرة تلاقيهما في قهوة احمد عبده بخان الخليلى ، تلك القهوة التى تقع تحت سطح الأرض كأنها كهف منحوت في جوف جبل ، مسقوفة بربوع الحى العتيق ، منعزلة عن العالم بحجراتها الضيقة المتعاقبة ، وباحتها التى تتوسطها نافورة صامتة ، ومصابيحها التى تقاد ليل نهار ، وجوها الهادىء الحالم الرطيب ، كان ياسين قد مال الى هذه القهوة لدونها من حانة كوستاكى من ناحية ولاضطرابه الى هجر قهوة سى على بالفورية بعد قطع زنوبة من ناحية أخرى ، ثم لما خصت به القهوة الجديدة من طابع أثرى صادف هوى من نفسه الميلالة للشعر ، أما فهمى فلم يعرف طريق المقاهى لخلل طرا على سلوكه كطالب مجتهد ولكن تلبية لداء تلك الأيام الذى دعا الطلبة وغيرهم الى التجمع والتشاور ، فاختر ونفر من زملائه قهوة احمد عبده - لنفس ميزاتها الاثرية التى جعلتها بئامن من العيون - للاجتماع مساء بعد مساء للحديث والتشاور والتنبؤ

المستهر مقولته المقدسة بهذه المرارة الساخرة ، وثم في دهشة بالغة :

— ولكن زوجك سيدة .. كاملة .. !

فهتف ياسين ساخرا :

— سيدة كاملة ! هو ذاك ، اليست كريمة رجل فاضل ؟ ..
وربيبة أسرة كريمة ؟ .. جميلة ؟ .. مهذبة ؟ .. ولكن لا أدري
أى شيطان موكل بالحياة الزوجية يجعل من جميع الزايات السالفة
أعراضها تافهة لا يلقي إليها ببالي تحت ضغط الملل المسقم ، كأنها
بعض ما نغدق على الفقر من صفات النبيل والسعادة كلما تراءى
لنا أن نعزى فقيرا عن فقره .. !

فقال فهمى ببساطة وصدق :

— لا أفهم حرقا مما تقول ..

— انتظر حتى تعرف بنفسك ..

— لماذا اذن يصر الناس على الزواج منذ بدء الخليقة ؟ ..

— لان الزواج — كالموت — لا ينفع معه التحذير ولا الحذر ..

ثم مستطردا وكأنه يخاطب نفسه :

— لشد ما عبت بى الخيال فسما بى الى عوالم تفوق مباهجها
الأحلام ، وطالما ساءلت نفسى : هل يجمعنى حقا بيت واحد بغادة
حسناء الى الأبد ؟ يا له من حلم ! .. ولكنى أؤكد لك بأنه ليست
ثمة مصيبة أفدح من أن يجمعك بيت واحد بحسناء الى الأبد ..
غمغم فهمى في حيرة رجل يعز عليه — فيما يكابد من أشواق
الشباب — تصور الملل :

— لعله بدت لعينيك أشياء وراء الظاهر الذى لا يعاب !

فقال ياسين وهو يضحك بمرارة :

— لا أشكو الا الظاهر الذى لا يعاب ! .. شكواى في الحق
منصبة على الجمال نفسه ! .. هو .. هو الذى مللت لحد السقم ،
كاللفظ الجديد يبهرك معناه لأول مرة ثم لا تزال تردده وتستعمله

وانتظار الحوادث ، كثيرا ما التقى الأخوان في حجرة من الحجرات
الصغيرة ولو لحين قليل أى حتى يصل زملاء فهمى أو يأزف ميعاد
ياسين للانتقال الى حانة كوستاكى ، وفي مرة من هذه المرات
أشار فهمى الى كدر زينب مبديا دهشته لسلوك أخيه الذى
لا يتفق مع حياة زوجية ناشئة ، ضحك ياسين ضحكة رجل يرى
لنفسه الحق كل الحق في أن يضحك من سذاجة الآخر الذى ارتضى
أن يخاطبه بلسان الناصح فيما يجهله ، بيد أنه لم يشأ أن يبرر
سلوكه مباشرة مؤثرا أن يتفلسف عن صدره بما يعن له من قول ،
قال مخاطبا الشاب :

— رغبت يوما في الزواج من مريم ، ولست أشك في أنك
حزنت جد الحزن لموقف أبيبك الذى منع تلك الرغبة من أن
تتحقق .. أقول لك ، وأنا أدري بما أقول ، أنك لو علمت وقتذاك
بما يخفى الزواج وراء سطحه لعمدت الله على الفشل ..

دهش فهمى لحد الانزعاج لأنه لم يتوقع أن يباغت في أول
جملة يخاطب بها بالفاظ تجمع بين « مريم » و « الزواج »
و « الرغبة » ، أفكار لعبت على مسرح صدره ادوارا لا تنسى
ولا تمحى آثارها ، فلعله بالغ في اظهار دهشته ليخفى ما أثارت
الذكريات في نفسه من الشجن والتأثر ، ولعله لذلك لم يستطع
أن ينبس بكلمة ، فتابع ياسين حديثه وهو يلوح بيده ساما وملا
قائلا :

— ما كنت أتصور أن ينجلي الزواج عن هذا الخواء ، أنه
في الحق لا يعدو أن يكون حلما كاذبا ، وقاسيا ككل شيء خبيث
الخداع !

بدا له قوله عسير الهضم مثيرا للريب كما يخلق بشاب تتدفق
بناييع حياته الوجدانية نحو هدف واحد لا يتمثل له الا في صورة
« زوجة » وتحت مقولة « الزواج » فعز عليه أن يتناول أخوه

حتى يستوى عندك والفاظ مثل « الكلب » و « الدودة »
و « الدرس » وسائر الاشياء المبذلة ، يفقد جدته وحلاوته ،
وربما نسيت معناه نفسه فقد مجرد لفظ غريب لا معنى له ولا
وجه لاستعماله ، ولعله لو عثر عليه الغير في انشائك اخذهم
العجب لبراعتك على حين ياخذك العجب لفقلتهم ، ولا تسلم عما
في ملل « الجمال » من فجعة ، اذ انه يبدو مللا بلا عذر مقبول ،
وبالتالى قضاء محتوما .. فيتعذر التفادى من يأس ليس له من
قرار ، لا تعجب لقولى ، انى عاذرك لانك تنظر من بعيد ، والجمال
كالسراب لا يرى الا من بعيد ..

على مرارة اللهجة شك فهمى في حقيقة بواعثها اذ انه مال من
بادىء الامر الى اتهام اخيه - لا الطبيعة البشرية - لما عرفه عنه
من انحراف السلوك ، الا يجوز ان ترد شكواه في الحق الى ما لهج
به من مجون في حياته السابقة على الزواج ؟! .. اصر على هذا
الظن اصرار رجل يابى ان يفجع في اعز آماله ، ولما كان ياسين
لا يهتم بآراء اخيه بقدر ما يهتم بالافصاح عما في صدره هو ،
فقد واصل حديثه وهو يبتسم لأول مرة ابتسامة وضيئة :
- أصبحت أدرك موقف أبى حق الإدراك ! .. وافهم ما جعل
منه ذاك الرجل العرييد الراكض وراء العشق أبدا ! .. كيف كان
يتأتى له أن يصبر على طعام واحد ربع قرن من الزمان وقد قتلنى
الملل بعد خمسة أشهر ؟ !

فقال فهمى وقد قلق لاقحام أبيه في الحديث :

- حتى على افتراض أن شكواك صادرة عن تعاسة مركبة في
الطبيعة البشرية ، فالمل الذى تبشر به .. (هم ، بأن يقول : بعيد
عن الطبيعة السوية ثم عدل عنه ليكون أكثر منطقية فقال) ..
بعيد عن الدين ..

فقال ياسين الذى كان يقنع من الدين بالإيمان دون اكتراث
جدى لأوامره ونواهيه :

- الدين يؤيد رأيي ، وآى ذلك أنه سمح بالزواج من أربع
غير الجوارى اللاتى كانت تكتظ بهن قصور الخلفاء والأغنياء ،
فقد فطن إذن الى أن الجمال نفسه - اذا ابتذلت العادة والألفة -
مل واسقم وقتل ..

فقال فهمى باسمه :

- كان لنا جد يسمى مع زوجة ويصبح مع أخرى فلعلك أن

تكون وريثه ..

فتمتم ياسين متنهدا :

- لعلى .

على أن ياسين - حتى ذاك الوقت - لم يكن أقدم على تحقيق
حلم من أحلامه المتمردة ، حق انه رجع الى القهوة فالحانة ولكنه
تردد قبل أن يخطو الخطوة الأخيرة ، قبل أن ينزل الى زنوبة أو
الى غيرها . وما الذى جعله يفكر ويتردد ؟ .. ربما لم يخل من
أحاساس بالمسئولية حيال الحياة الزوجية ، وربما لم ينج من تهيب
لرأى الدين في « الزوج الفاسق » الذى تؤكد لديه أنه غير رأيه
في « الشاب الفاسق » .. وربما ايضا أن خيبة أقوى أمل تردد
في جوانبه صدت نفسه عن لذات الدنيا حتى يفيق ، على أن واحدة
من أولاء لم تكن لتقيم في سبيله عائقا جديا خليقا بأن يقف مجرى
حياته ، الا أنه وجد أغراء لا يصمت في سيرة أبيه التى استحوذت
عليه ، وما بدا من زوجه من « حكمة » قرنتها في ذهنه بامرأة
أبيه فينشط خياله الى رسم تخطيط لحياتها المستقبلية معه على
مثال حياة الست امينة مع أبيه ، أجل تمنى كثيرا لو تطمئن زينب
الى الحياة التى تقدر عليها كما تطمئن امرأة أبيه الى حياتها ،
فيشب هو مثل وثبات أبيه الموقفة ليعود آخر الليل فيحظى ببيت
هادئ وزوجة مستنمية ، بذلك - وبذلك وحده تراءت له الحياة
الزوجية محتملة ، بل اثيرة ذات مزايا تفتقد . « فيم تطمح اية
امرأة وراء البيت الزوجى والارتواء الجنسى ؟! .. لا شيء ! ..

انهن حيوانات اليفة كالحوانات اليفة ينبغي ان يعاملن ، اجل لا يجوز للحيوانات اليفة ان تتطفل على حياتنا الخاصة وانما عليها ان تنتظر في البيت حتى نفرغ لمداعبتها ، ان اكون زوجا خالصا للحياة الزوجية هو الموت ، منظر واحد وصوت واحد وطعم واحد ، خلاصتها في النهاية عدد محدود من الحركات والاصوات لاتزال تتكرر وتكرر .. حتى تنقلب الحركة والجمود سيين ، والصوت والصمت توأمين ، كلاكلا ، ما لهذا تزوجت .. ان قيل انها بيضاء ، ألسنت ذا مارب في السمراء ، بل والسوداء .. وان قيل انها مدملجة فما عزائي عن النحيلة والجسيمة ، أو انها مهذبة سليقة نبل وكرم فهل عطلت من المزايا ربيبة العربات الكارو ؟! .. الى الامام .. الى الامام .. »

- ٥١ -

كان السيد مكبا على دفاتره حين طرقت عتبة الدكان حذاء ذات كعب عال فرفع عينيه باهتمام غريزي ، فرأى امرأة تشتغل الملاءة اللف منها على جسم لحيم وتنحسر حافة البرقع الأسود عن جبين ناصع وعينين مكحولتين ، فابتسمت أساريره في ترحاب طال تشوقه اليه ، وعرف من توه الست أم مريم أو حرم المرحوم رضوان كما صارت تدعى أخيرا ، ولما كان جميل الحمزاوى مشغولا ببعض الزبائن فقد دعاها للجلوس على كنب من مكتبه ، فأقبلت المرأة تخطر وجلست على المقعد الصغير الذي فاضت عنه أعطافها وهى تلقى اليه بتحية الصباح . ومع أن التحية من ناحيتها والترحاب من ناحيته جريا على النحو المهود الذى يتكرر كلما جاءته « « زبونة » تستحق التكرم ، فان الجو الذى غشى ركن

الدكان من حول المكتب شحن بكهرباء تعوزها البراءة ، لاحت امارات لها في الجفنين المسيلين حياء حول عروس البرقع من ناحية ، والنظرة المتربصة فوق سفح الأنف العظيم من ناحية اخرى ، كهرباء خفية صامتة الا أن نورها الكامن كان متحفزا في انتظار لسة كى يسطع ويشعشع ويستعر نارا .. كأنه كان ينتظر هذه الزيارة التى انجابت عن آمال مهموسة واحلام مكبوتة ، ولكن لأن وفاة السيد محمد رضوان أثارت منه فكرا وهيجت رغبات كما يهيج انطواء الشتاء شتى آمال الشباب في الطبيعة والأحياء ، زال بموته الشجا الذى اعترض احساسه بالمروءة فأمكنه أن يذكر نفسه بأن المرحوم لم يكن الا جارا - لا صديقا - ورحل ، كما أمكن شعوره بجمال هذه المرأة الذى أعرض عنه قديما حفاظا على كرامته أن يعبر عن ذاته ويطلب بنصيبه من المتعة والحياة ، الا أن عاطفته نحو زبيدة ، كان أدركها العطب كالفاكهة في نهاية موسمها ، فلاقى المرأة منه - على خلاف الزيارة السابقة - ذكرا متوثبا وعاشقا متحررا .. على أن خاطرة ثقيلة - أن تكون الزيارة بريئة - مرت به ولكنه نفاها عن نفسه بقوة ، مستشهدا بما ند منها في الزيارة القديمة من رقيق الاشارات وبدع الريب ، مؤكدا ظنونه بهذه الزيارة نفسها التى ليس ثمة ما يوجبها ان لم يكن مثل ما يدور بنفسه ، ثم صمم أخيرا على أن يتلمس سبيله كخير قديم .. فقال لها برقة باسمها :

- خطوة عزيزة .. !

فقال في شيء من الارتباك :

- الله يكرمك ، كنت راجعة الى البيت فمررت بالدكان

فتراءى لى أن آخذ لوازم الشهر بنفسى ..

فطن الى « اعتذارها » عن الحياء ولكنه أبى أن يصدقه فان يتراءى لها ان تأخذ لوازم الشهر بنفسها ليس شيئا ان لم يكن وراءه دافع ، لا سيما وانها تدرى بالبداهة والفريضة أن

مجيئها بعد « مقدمات » الزيارة القديمة خليق بأن يشير في نفسه الريب ، وأن يبدو لعينه « تمحكا » غير خافي الدلالة ، فزادته مبادرتها الى الاعتذار ثقة وقال :

— فرصة طيبة لاحييك ولاكون في خدمتك ..

فشكرته في اقتضاب أصفى اليه بنصف انتباه اذ شغل بالتفكير في الكلمة التالية ، لعله كان من الطبيعى أن يعرج على ذكر الزوج الراحل مترحما ولكنه تحاشى هذا الخاطر أن يفسد عليه الجو كله ، ثم تسأل : هل يهاجم أو يمك حتى يستدرجها الى الهجوم ؟ .. لكل طريقة لذتها .. بيد أنه لم ينسأ أن ينسى أن مجيئها وحده خطوة كبيرة من جانبها تستحق حسن الاستقبال من جانبه ، فاستطرد قائلا وكأنه يتم حديثه الأول :

— بل فرصة طيبة كى أراك !..

تحرك الجفنان والحاجبان حركة ربما دلت على الحياء او الارتباك أو كليهما معا ، ولكنها فضحت قبل كل شيء فطنتها الى ما وراء مجاملته الظاهرة من معان خفية ، على أنه رأى في حيائها استجابة لشعورها الباطنى الذى دفعها الى زيارته أكثر منه استجابة لقوله ، فازداد اطمئنانا الى تخمينه الأول وراح يؤكد ما عناه في نعمة رقيقة قائلا :

— أجل فرصة طيبة كى أراك ..

عند ذاك قالت بلهجة تتم عن عتاب حبيس :

— لا اظن أنك تعد رؤيتى فرصة طيبة .. !

فوقعت لهجة العتاب من صدره موقع الرضى والسرور ، لكنه قال كالمحتج :

— صدق من قال ان بعض الظن اثم ..

فهزت رأسها هزة كأنما تقول له « هيهات أن يؤثر في مثل هذا الكلام » وقالت :

— ليس ظنا فحسب ، انى أعنى ما أقول ، أنك رجل لا يعوزك

الفهم ، وأنا كذلك وان توهمت غيره .. فلا يجوز لأحدنا أن يحاول خدع صاحبه .

ومع ان صدور هذا الكلام عن امرأة لم يمض على وفاة زوجها شهران اثار في نفسه شعورا بالسخرية والمرارة ، فانه تطوع لانتحال الاعتذار لها — الأمر الذى لم يكن ليفكر فيه في ظروف أخرى — قائلا لنفسه : ما أخرى صبرها على مرضه الطويل بأن يشفع لها ، ثم تخلص من شعوره الطارىء بقوة وقال متصنعا الأسى :

— غاضبة على ؟! .. يا له من حظ سيء لا استحقه .

فقالت في شيء من الاندفاع ربما كان الباعث عليه ضيق المكان والزمان عن ملاعبات الاخذ والرد :

— قلت لنفسى وأنا في الطريق انيك « ما ينبغي أن تذهبي »

.. فلا يحق لى الآن ان ألوم الا نفسى !

— بعض هذا الغضب يا ست !.. انى اسأل نفسى عما

جئت .. !

فتساءلت بلهجة ذات معنى :

— ما عسى أن تصنع اذا حييت انسانا بتحية فلم يرد بمثلا

ولا حتى بأسوأ منها ؟!

فأدرك من توه أنها تشير الى ما بدا منها في الزيارة القديمة

من تودد قابله بالصمت ، ولكنه تجاهل الإشارة .. وقال مجازاة

لاسلوبها الرمزي :

— لظها لم تبلغ سمعه لسبب أو لآخر ..

— أنه قوى السمع والحواس جميعا ..

فجرت على فمه ابتسامة عجب لم يتما لكها ، قال بلهجة

المذنب اذا أنشأ يعترف :

— لعله لم يردها حياء أو تقوى ..

فقالت بصراحة أعجبتة وهزت فؤاده :

— اما الحياء فلا حياء له ، واما سائر الاعذار فمن اين للقلوب الصادقة أن تباليها !

فندت عنه ضحكة ما لبث أن اختزلها وهو يسترق النظر الى جميل الحمزاوى الذى بدا منهمكا فى العمل بين نفر من الزبائن ، ثم قال :

— لا أحب أن أعود الى الملابس التى قست على وقتذاك ، على أنه لا يجوز لى أن أياس ما دام ثمة ندم وتوبة وعفو ! فتساءلت في انكار ؟

— من يدرينا بالندم ؟

فقال بلهجة حارة برع في تجويدها عاما بعد عام :

— تجرعت طويلا والله شهيد ..

— والتوبة ؟

فقال وهو يثقبها بنظرة متوهجة :

— ان ترد التحية بعشر أمثالها !

فتساءلت في دلال :

— ومن أدراك بأن ثمة عفوا ؟

فقال بلباقة :

— اليس العفو من شيم الكرام !

ثم في نشوة مسكرة :

— العفو كثيرا ما يكون كلمة السر لولوج الجنة ..

ثم وهو يرنو الى ابتسامة عذبة لاحت في عينيها :

— الجنة التى اعنيها تقع عند ملتقى بين القصرين بالنحاسين،

ومن جميل التوفيق أن بابها يفتح على عطفة جانبية بعيدا عن أعين الرقباء ، والا حارس لها .. !

وفطن الى أن حارس الجنة السماوية سمي « المرحوم » الذى كان حارسا للجنة الأرضية التى يتلمس طريقه اليها ، فشاب خاطره ضيق وخاف أن تكون المرأة قد فطنت الى نفس

الحقيقة الساخرة ولكنه وجدها مهومة فيما يشبه الحلم فتنهد وهو يستغفر الله في سره . وكان جميل الحمزاوى قد فرغ من زبائنه ، فأقبل على السيدة ليقضى حوائجها فسنحت للسيد فرصة للتأمل ، فراح يذكر كيف رغب ابنه فهمى يوما في خطبة مريم ابنة هذه المرأة ، ثم كيف ألهمه الله الرفض ، وقد اعتقد وقتذاك أنه انما ينقذ مشيئة حرمه فحسب ، فلم يدر له بخلد انه جنب ابنه شر مأساة ينكب بها زوج ، وهل يمكن أن تنهج فتاة الا على مثال أمها .. ! واى أم .. ! امرأة خطيرة .. ! قد تكون جوهرة ثمينة عند أمثاله من الصيادين ، ولكنها في البيوت مأساة دامية ، ترى اى طريق سلكت طوال الأعوام التى عاشها زوجها ميتا حيا .. ! كل القرائن تشير الى طريق واحد ، ولعل كثيرين من الجيران يعرفون ، بل لعله لو كان في بيته من يحسن ملاحظة هذه الامور لما خفى عليه شيء ، ولما بقيت زوجته على الولاء لها والايمان بها حتى هذه الساعة ، وعادوته رغبة — استحوذت عليه اول مرة عقب الزيارة المريبة القديمة ، ولم يجد عندئذ سبيلا آمنا الى تحقيقها دون اثارة الريب — وهى أن يحول بين المرأة المستهتره وبين بيته الطاهر ، الآن يرى الظرف مهيئا — لاتصاله المنتظر بها — لتحقيق رغبته ، وذلك بأن يوحى لها بقطع اسبابها بزوجه رويدا منتحلا ما يعن له من اعذار حقيقة يبلوغ الهدف دون مساس بكرامتها ، هذه المرأة التى باتت أقرب ما تكون الى فؤاده وابعدها ما تكون عن احترامه في لحظة واحدة .. ! ولما انتهى الحمزاوى من اعداد حوائجها نهضت مادة يدها الى السيد فسلم باسمه وهو يقول بصوت خافت :

— الى اللقاء ..

فغمغمت وهى تهم بالانصراف :

— نحن في الانتظار ..

غادرته أوفر سعادة ، نشوان بالظفر والعجب ، ولكنها خلقت

له أيضا هما لم يكن ، هما جذيرا بأن يحتل مكانا بارزا من مشاغله اليومية ، سوف يتسائل من الآن فصاعدا عن أمن السبل للانسحاب من بيت زبيدة بنفس الاهتمام الذي يتسائل به عما فعلت السلطة العسكرية وعما يبيت الانجليز وعما ينوى سعد ، أجل جد جديد من السعادة يجبر وراءه - كالعادة - ذبلا من الفكر . لولا حرصه الشديد على حب الناس له ، ذلك الحب الذي يحظى منه بأسعد سعاداته ، لكان عليه هجر العائلة بعد أن بلى حبه وذوت ازهاره وأغرقه الشبع في مستنقع آسن ، ولكنه يشفق دائما من أن يترك وراءه قلبا حائقا أو نفسا حاقدة ، وكم يود كلما ضيق الملل أنفاسه لو يبداه الحبيب بالهجر من ناحيته فيكون مهجورا بدل أن يكون هاجرا ، وكم يود أن تنتهى علاقته بزبيدة كما انتهت أخوات لها من قبل ، بكدر عابر تفصله هدايا الوداع المتتعة ، ثم يستحيل الى صداقة وطيدة ، فهل تتقبل زبيدة - التى يظن انها ليست دونه شبيها - اعتذاره بقبول حسن ؟ .. وهل يطمع في أن تغفر له هداياه ما اعتزم من هجر ؟ . هل تثبت انها امرأة كبيرة القلب سخية النفس كزميلتها جلييلة مثلا ؟ . هذا ما ينبى أن يفكر فيه طويلا وأن يهيم له أنجع الدرائع . وتنهّد تنهدة طويلة كأنما يشكو ما جعل الحب فانيا لا يدوم ليكنفى القلب متاعب الاهواء ثم شرد به الخيال طاويا انهار فتراعى له وهو يدب في الظلماء متلصسا سبيله الى البيت الموعود ، والراة تنتظر بيدها سراج ..

- ٥٢ -

اعلنت انجلترا حمايتها من تلقاء نفسها دون أن تطلبها أو تقبلها الأمة المصرية ، فهي حماية باطلة لا وجود لها قانونا بل هي ضرورة من ضرورات الحرب تنتهى بنهايتها .

كان فهمى يملأ الكلمات ، كلمة كلمة ، في اناة وبصوت واضح النبرات والام وياسين وزينب يتابعون باهتمام درس الاملاء الجديد الذى اكتب كمال على كتابته ، مركزا وعيه في الفاظه من دون أن يفقه معنى كلمة مما كتب صوابا أو خطأ . لم يكن غريبا أن يلقى فهمى على شقيقه الصغير درسا في الاملاء أو غيرها في جلسة القهوة ، ولكن موضوع الاملاء بدأ جديدا حتى للام وزينب ، أما ياسين فنظر الى أخيه مبتسما وقال :

- أرى هذه المامى قد ملكت عليك نفسك .. فلم يفتح الله عليك باملاء لهذا الغلام المسكين الا خطبة سياسية وطنية يفتح لها المخلق من ابواب السجون ..

فبادر فهمى الى تصحيح رأى أخيه قائلا :

- هي من خطبة سعد امام اساطين الاحتلال في جمعية الاقتصاد والتشريع ..

فتسائل ياسين باهتمام ودهشة :

- وكيف اكان ردهم عليه ؟ ..

فقال فهمى بانفعال :

- لم يجيء ردهم بعد ، والكل يتسائل عنه في حيرة وقلق ،

انها غصبة مزمجرة في وجه أسد لم يؤثر عنه الحلم أو العدل .. ثم وهو يتنهّد مقيظا محتقا :

— كان لا بد من غضبة بعد أن منع الوفد من السفر ، وبعد
أن استقال رشدي باشا من الوزارة فخبب السلطان المأمول
بقبول استقالته ..

ثم مضى الى حجرته مسرعا ، وعاد وهو يبسط ورقة مطوية
وقلمها الى أخيه وهو يقول :

— ليست الخطبة كل ما عندى ، اقرأ هذا المنشور الذى يوزع
سرا متضمنا رسالة الوفد الى السلطان ..
فتناول ياسين المنشور وراح يقرأ :

— « يا صاحب العظمة ..
يتشرف الموقعون على هذا أعضاء الوفد المصرى أن يرفعوا
الى مقام عظمتكم بالنيابة عن الأمة ما يلى :

ولما اتفق المحاربون على أن يجعلوا مبادئ الحرية والعدل أساسا
للصالح واعلموا أن الشعوب التى غيرت الحرب مركزها يؤخذ رأيها
في حكم نفسها اخذنا على عاتقنا السعى في استقلال بلادنا والدفاع
عن قضيتها أمام مؤتمر السلام ما دام أن الحق الأقوى قد زال من
ميدان السياسة ، وما دامت بلادنا قد أصبحت بزوال السيادة
التركية حرة من كل حق عليها لأن الحماية التى أعلنتها الانجليز بلا
اتفاق بينهم وبين الأمة المصرية باطلة ، ولم تكن في الواقع الا ضرورة
حربية تزول بزوال الحرب ، اعتمادا على هذه الظروف وعلى أن
مصر غرمت كل ما قدرت عليه من المخارم في صف القائلين بحماية
حرية الأمم الصغرى ، لا يكون لدى مؤتمر السلام ما يمنع من
الاعتراف بحريتنا السياسية جريا على المبادئ التى أسس عليها .
عرضنا رغبتنا في السفر على رئيس وزرائكم صاحب الدولة
حسين رشدي باشا ، فوعد بمساعدتنا على السفر وثوقا منه
بأننا انما نعبر عن رأى الأمة كافة .. فلما لم يسمح لنا بالسفر
وحسنا داخل حدود بلادنا بقوة الاستبداد لا بقوة القانون ،
وحيل بيننا وبين الدفاع عن قضية هذه الأمة الاسيفة ، ولما لم

يستطيع دولته أن يحتمل مسئولية البقاء في منصبه في حين أن
الشعب يصادر في مشيئته ، استقال هو وزميله صاحب المعالي
عدلى يكن . باشا استقالة نهائية قولت من الشعب بتكريم
شخصيهما والاعتراف بصدق وطنيتهما .

ولقد كان الناس يظنون أنه كان لهما وقفتهما الشريفة دفاعا
عن الحرية عضد قوى من نفحات عظمتكم . لذلك لم يكن ليتوقع
أحد في مصر أن يكون آخر حل لمسألة سفر الوفد قبول استقالة
الوزيرين ، لأن في ذلك متابعة للطامعين في اذلالنا وتمكيننا للعقبة
التي القيت في سبيل الادلاء بحجة الأمة الى المؤتمر ، وايدانا
بالرضى بحكم الاجنبى علينا الى الأبد .

قد نعلم أن عظمتكم ربما كنتم مضطرين لاعتبارات عائلية أن
تقبلوا عرش ابيكم العظيم الذى خلا بانتقال اخيكم المغفور له
السلطان حسين ، ولكن الأمة من جهة أخرى كانت تعتقد أن
قبولكم لهذا العرش في زمن الحماية الوقتية الباطلة رعاية لتلك
الظروف العائلية ليس من شأنه أن يضركم عن العمل لاستقلال
بلادكم ، غير أن حل المسألة بقبول استقالة الوزيرين اللذين اظهرا
احترامهما لارادة الأمة لا يمكن أن يتفق مع ما جبلتم عليه من حب
الحير لبلادكم ، والاعتداء بمشيئة شعبكم ، لذلك عجب الناس من
مستشاريكم كيف انهم لم يلتفتوا الى الأمة في هذا الظرف
العصيب وهى انما تطلب منكم — يا ارشد أبناء محررها الكبير
محمد على — أن تكونوا لها العون الأول على نيل استقلالها ، مهما
كلفكم ذلك . فان همتكم ارفع من أن تحددها الظروف ، كيف فات
مستشاريكم ان عبارة استقالة رشدي باشا لا تسمح لرجل مصرى
ذى كرامة وطنية أن يخلفه في مركزه ؟! .. كيف فاتهم أن وزارة
تؤلف على برنامج مضاد لمشيئة الشعب مقضى عليها بالفشل ؟!
عفوا مولانا قد تكون مداخلتنا في هذا الأمر وفي غير هذا الظرف
غير لائقة .. ولكن الأمر قد جل الآن عن أن يراعى فيه أى اعتبار

غير منفعة الوطن الذي انت خادمه الأمين . ان مولانا اكبر مقام في البلاد فعليه اكبر مسئولية عنها ، وفيه اكبر رجاء لها ، واننا لا نكذب النصيحة اذا نضرنا اليه ان يتعرف راي امته قبل ان يتخذ قرارا نهائيا في امر الازمة الحالية ، فاننا نؤكد لسدته العلية انه لم يبق احد في رعاياه من اقصى البلاد الى اقصاها الا وهو يطلب الاستقلال ، فالحيلولة بين الأمة وبين طلبتها مسئولية لم يتحرر مستشارو مولانا امرها بالدقة الواجبة . لذلك دفعنا واجب خدمة بلادنا واخلصنا لمولانا ان نرفع لسدته شعور امته التي هي الان اشد ما تكون رجاء في استقلالها واخوف ما تكون من ان تلعب به ايدي حزب الاستعمار ، والتي تطلب اليه بحقها عليه ان يفضب لغضبها ويقف في صفها فتنال بذلك غرضها .. وانه على ذلك قدير .. »

رفع ياسين راسه عن المنشور وفي عينيه ذهول وفي قلبه نبض جديد من التأثر ، بيد انه هز راسه قائلا :
- يا له من خطاب !.. لا احسبني استطيع ان اوجه مثله الى ناظر مدرستي دون ان ينالني العقاب الرادع !
فرفع فهمي منكبته استهانة وقال :
- الامر قد جل الآن عن ان يراعى فيه اى اعتبار غير منفعة الوطن !..

ردد العبارة عن ظهر قلب كما وردت في المنشور . فلم يتمالك ياسين ان يقول ضاحكا :
- احفظت المنشور !.. ولكنى لا اعجب لهذا ، كانك كنت ترصد طول حياتك لمثل هذه الحركة كي تلقى اليها بكل قلبك ، ولعللى لا اخلو من مثل شعورك وآمالك ، ولكنى لا اترك على الاحتفاظ بهذا المنشور .. خصوصا بعد استقالة الوزارة وتحرش الاحكام العرفية ..
فقال فهمي في فخار :

- انى لا احتفظ بها فحسب ، ولكنى اقوم بتوزيعها ما سمح الجهد !..
فاتسعت عينا ياسين في قلق وهم بالكلام .. ولكن الام كانت اسبق اليه منه فقالت بانزعاج :
- لا اكاد اصدق اذننى ، كيف تعرض نفسك للشر وانت سيد العقلاء !

لم يدر فهمي كيف يجيبها ، ولكنه شعر بما جره عليه تهوره من حرج ، لم يكن اشق عليه من محادثتها في هذا الامر ، كانت النساء اقرب اليه من اقباعها بان تعريض نفسه للخطر في سبيل الوطن واجب ما دام الوطن كله لا يساوى في نظرها قلامة ظفر ، بل قد بدا له ان اخراج الانجليز من مصر ايسر من حلها على الاقتناع بوجود اخراجهم از اغرائها بيفضهم ، فما ان يدور الحديث حول ذلك حتى تقول ببساطة « لماذا تكرههم يا بنى !.. اليسوا اناسا مثلنا لهم ابناء وامهات ؟! » فيقول لها بحدة : « ولكنهم يحتلون بلادنا ! » .. وتحس بحدة الغضب في نبراته فتلوذ بالصمت وهى تدارى نظرة اشفاق لو نطقت لقاتلته « لا عليك من هذا » .. ومرة قال لها وقد ضاق بمخاطبتها : « لا حياة لقوم اذا حكمهم اجنبى » فقالت له في استغراب « ولكننا لا نزال احياء رغم انهم يحكموننا من زمن بعيد ، وقد انجبتكم جميعا في ظل حكمهم !.. انهم يا بنى لا يقتلون ولا يتعرضون للمساجد ولا نزال امة محمد بخير ! » فقال الشاب يا نسا « لو كان سيدنا محمد حيا ما رضى ان يحكمه الانجليز » فقالت بلهجة الحكيم « هذا حق ، ولكن اين نحن من الرسول عليه الصلاة والسلام ؟.. كان الله يعينه بملائكته .. » فهتف بها حائقا « سيعمل سعد زغلول ما كانت الملائكة تعمله » ولكنها هتفت وهى ترفع ذراعيها كأنما تدفع بلاء لا دافع له « لا تقل هذا يا بنى ، استغفر ربك ، اللهم رحمتك وغفرانك ! » .. هذه هى ، فكيف يجيبها الان وقد استشعرت في توزيع

المنشور خطرا يهدده ؟ .. لم يسعه الا ان يركن الى الكذب فقال
متصنعا الاستهانة :

- ما اردت الا المزاح فلا تنزعجى للاشيء ..

فعدت المرأة تقول بنبرات تنم عن ضراعة :

- هذا ما اومن به يا بنى ، هيهات ان يخيب ظنى في ارشد
الراشدين ، مالنا نحن وهذه الامور ! اذا راي باشواتنا ان يخرج
الانجليز من مصر فليخرجوهم بانفسهم .

بدا كمال طوال الحديث وكأنه يحاول ان يتذكر امرا ذا بال ،
فما بلغ الحديث تلك النقطة حتى صاح :

- مدرس العربى قال لنا بالأمس ان الامم تستقل بعزائم
ابنائها .. !

فهتفت الام ساخطة :

- لعله قصد بخطابه كبار التلاميذ ، ألم تحدثنى يوما بان
عندكم تلاميذ قد طرأت شواربهم ؟

فتساءل كمال بسذاجة :

- وأخى فهمى اليس تلميذا كبيرا ؟

فقالت الام بخدة على غير ماوفها :

- كلا ليس أخوك كبيرا ، انى اعجب لذلك المدرس كيف
سولت له نفسه ان يتحدث اليكم في غير الدرس .. ! اذا شاء ان
يكون وطنيا حقا فليوجه هذا الكلام الى ابنائه في البيت لا الى
ابناء الناس .. !

كاد الحديث يخمس ويستمر لولا ان سنحت كلمة عابرة فغيرت
مجراه ، ارادت زينب ان تتودد الى الام بتأييدها في دفاعها فحملت
على مدرس العربى وذهبت بانة « مجاور حقير عملت الحكومة منه
رجلا ذا شأن في غفلة من الزمان » .. ولكن ما ان سمعت الام هذه
الاهانة توجه الى « المجاور » حتى افاقت من انفعالها وابت ان
تسكت عنها رغم انها قيلت تأييدا لها ، مدفوعة بكل ما تنطوى

عليه نفسها من اجلال لذكرى ايها فتحولت الى زينب وقالت
بهدوء :

- انت يا ابنتى تحقرين اشرف ما فيه ، الشيوخ خلفاء
الرسول ، انما يلام الرجل على خروجه عن حدود وظيفته الشريفة ،
الا ليته قنع بان يكون مجاورا وشيخا .. !
ولم يفت ياسين سر تحول الام المفاجيء ، فبادر بالتدخل
ليمحو الاثر الذى تركه دفاع زوجته البريء ..

- ٥٣ -

- انظر الى الطريق ، انظر الى الناس ، من يقول بعد هذا ان
الكارثة لم تقع ؟ !

ولكن السيد احمد لم يكن في حاجة الى مزيد من النظر ،
الناس يتساءلون ، ويرجعون ، واصحابه يخوضون في الحديث
خوضا حارا تجاوزت فيه الحسرة مع الحزن مع الغضب ، الى ان
الخبر قد تردد على السنة كافة من مر به من الاصدقاء والزبائن ،
اجمع الكل على ان سعد زغلول وصفوة اصحابه قد امتقلوا
وسبقوا الى مكان مجهول في القاهرة او خارجها ، قال السيد
محمد عفت وهو محتقن الوجه بدم الحنق :

- لا تشكوا في صحة الخبر فان لآخبار السوء رائحة تزكم
الانوف .. ألم يكن هذا متوقعا بعد خطاب الوفد للسلطان ؟ ..
او بعد رده على الانذار البريطانى بذلك الخطاب الجبار الى
الوزارة الانجليزية ؟ .. !

فقال السيد بوجوم شديد :

— يمتقلون الباشوات الكبار!.. يا له من حدث مخيف ،
ترى ما عسى أن يصنعوا بهم ؟

— الله وحده يعلم ، البلد يختنق في ظل الحكم العرفي ..
ودخل عليهم السيد ابراهيم الفار تاجر النحاس مهرولا
وهو يهتف لاهثا :

— اما سمعتم بآخر الأنباء؟!.. مالطة !

وضرب يدا بيد وراح يقول :

— النفى الى مالطة ، لم يعد احد منهم بيننا ، نفوا سعدا
وأصحابه الى جزيرة مالطة ..

وهتف الجميع في نفس واحد :

— نفوهم!..

أثار « النفى » في نفوسهم ما خامرهم منذ الصبا من ذكريات
قديمة أسيفة عن عرابى باشا ونهائته ، فتساءلوا وهم لا يملكون
قلوبهم من الجزع : ايجرى نفس المصير على سعد زغلول
وصحبه؟!.. اينقطع حقا ما بينهم وبين الوطن الى الأبد؟!..
أتموت هذه الآمال الكبار وهى لا تزال في مهد الأزهار؟!.. وشعر
السيد بحزن لم يشعر بمثله من قبل ، حزن ثقيل غليظ شاع
في صدره كما يشيع الغثيان ، فعانى تحت وطأته خمودا وهمودا
وأختناقا وجعلوا يتبادلون نظرات ساهمة واجة ، ناطقة بغير لسان ،
صارخة بلا صوت ، نائرة بلا صخب ، وفي الريق مرارة واحدة ،
ثم جاء في أثر الفار صاحب وثن وثالث مرددين نفس النبا ،
آملين في أن يجدوا عند الآخرين مسكنا لما يستعز في نفوسهم ،
فلا يظفرون الا بالحزن الصامت والوجوم الكثيب والثوران العظيم .

— هل تضيع الآمال اليوم كما ضاعت بالأمس ؟

فلم يحر أحد جوابا ، ولبت التسائل يقلب عينيه في الوجوه
دون جدوى ، لا جواب تأوى اليه النفس من مضطربها وان أبت
أن تسلم جهارا بما يبيتها خوفا ، نفى سعد .. هذا حق ، ولكن

هل يعود سعد ولو بعد حين؟!.. وكيف يعود سعد؟!.. اية قوة
تميده؟!.. لن يعود سعد ، فأين تذهب هذه الآمال العراض؟!..
لقد انبقت من الأمل الجديد حياة حارة عميقة يأبى استحوادها
عليهم ان يسلمهم لليأس ولكنهم لا يدرون كيف يعللون النفس
ببعثها من جديد .

— ولكن اليس ثمة أمل في أن يكون الخبر شائعة كاذبة !

لم يحر احد القائل التفاتا في حين لم يحفل هو بهذا التجاهل
لأنه لم يقصد بقوله في الحق الا تلمس مهرب — ولو وهمى —
من اليأس الخائق .

— أسره الانجليز .. ومن ذا يغالب الانجليز !

— رجل ولا كل الرجال ، بعث لحظة من الحياة باهرة ، ومضى .

— كالحلم .. وسوف ينسى فلا يبقى منه الا ما يبقى من حلم

عند الضحى ..

وهتف هاتف بصوت أبجه الألم :

— الله موجود!..

فهتفوا بصوت واحد :

— نعم .. وهو أرحم الراحمين .

ذكر اسم الله فكان كالقطب الممغطس ، جذب اليه شواردهم
وجمع افكارهم التي شتتها اليأس . وفي مساء ذلك اليوم — ولأول
مرة منذ ربع قرن أو يزيد — بدأ مجلس الاخوان مجافيا للهو
والطرب بفشاه الوجوم ، وتوجه احاديثه جميعا الى الزعيم
المنفى ، نهرهم الحزن ، وان يكن وجد بينهم من تنازعه الحزن
والرغبة في الشراب مثلا ، فقد غلب الاولى على الثانية احترام
للشعور العام ومجاراة للموقف ، بيد أنه لما طال بهم مطال الحديث
حتى استفدوا افراضه لاذوا بما يشبه الصمت ، وما لبث أن
ركبهم قلق خفى وشى بحكة الادمان التي ثن في أعماقهم فبدوا

وكانهم ينتظرون اشارة الجسور الذى يتقدم الصفوف ، ولكن
انسيد محمد عفت قال فجأة :
- أن لنا ان نعود الى بيوتنا ..

لم يكن يعنى ما يقول ، ولكن كأنما اراد أن ينذرهم بأنهم
إذا تركوا الوقت يمضى كما مضى فلن يبقى امامهم الا أن يعودوا
الى بيوتهم ، وكانت المعاشرة الطويلة لقنتهم دقيق التفاهم بالاشارة
فتشجع على عبد الرحيم باثع الدقيق بهذا الانذار الخفى وقال :
- انعود الى البيوت دون كأس تخفف من بلوى هذا اليوم !
فأحدث قوله في النفوس ما يحدثه الجراح في أهل المريض
إذا خرج عليهم من حجرة الجراحة وهو يقول : « الحمد لله ..
نجحت العملية » ، الا أن الذى تنازعه الحزن والرغبة في الشراب
قال فيما يشبه الاحتجاج مستترا على ما أثلج صدره من ارتياح :
- نشرب في مثل هذا اليوم ؟!

فحده السيد أحمد بنظرة ذات معنى ، ثم قال متهمكا :
- دعمهم يشربون وحدهم وهلم بنا الى الخارج يا ابن .. الكلب .
نلت عنهم ضحكات لأول مرة ثم جاءوا بالقوارير وكأنما اراد
السيد أن يعتذر عن هذا السلوك فقال :
- أن الله لا يغير ما بقلوب الرجال !.

فأمسوا على قوله ، كانت اول ليلة يترددون طويلا قبل
الاستجابة الى نداء الصبوات ، وما لبث السيد أن قال متأثرا
بمنظر القوارير :

- انما ثار سعد لاسعاد المصريين لا لتعذيبهم فلا تخجلوا
عند الحزن عليه من معاقرة الشراب .

لم يكن الحزن مما يمنعه من المزاح ، بيد أن الليلة لم تهنا
بصفاء خال من الكدر ، حتى وصفها السيد فيما بعد بأنها
« ليلة مريضة تداووا فيها بجرعات من الخمر ! » .

استقبلت الأسرة مجلسها التقليدى في جو من الوجوم لم
تمهده من قبل ، انطلق فهمى في حديث ثورى طويل والدموع في
عينيه ، واستمع ياسين أسفا حزينا ، وودت الأم أن تبدد الكتابة
أو تخفف البلوى ولكنها اشفتت من انقلاب غرضها عليها ، ثم
ما لبثت عدوى الحزن أن انتقلت اليها فرق قلبها للشيخ المجوز
الذى انتزعوه من بيته وزوجته الى متفى بعيد ، قال ياسين :
- أمر محزن ، رجالنا جميعا ، عباس ومحمد فريد وسعد
زغلول .. مشردون بعيدا عن الوطن ..

فقال فهمى بانفعال شديد :
- يا لهم من اوغاد هؤلاء الانجليز !.. نخطبهم باللغة التى
كانوا يستعطفون بها الناس فى محنتهم فيجيبون بالانذرات
العسكرية والتنفى والتشريد ..

لم تطق الأم أن ترى ابنها متفعلا على تلك الحال فنسيت
ماساة الزعيم وقالت برقة واستعطاف :
- ارحم نفسك يابنى ، ربنا يطف بنا !
ولكن هذه اللهجة الرقيقة زادته هياجاً فصاح دون أن
يلتفت اليها :

- إذا لم تقابل الارهاب بالفضب الذى يستحقه فلا عاش
الوطن بعد اليوم ، لا يجوز أن تنعم البلاد بالسلام وزعيمها الذى
قدم نفسه فدية لها يعانى عذاب الأسر !..
فقال ياسين متفكرا :

- من حسن الحظ أن الباسل باشا بين المنفيين ، انه شيخ
قبيلة مرهوبة الجانب ولا اظن رجاله يسكتون على نفيه ..
فقال فهمى بحدة :

- والآخرين !.. اليس وراءهم رجال ايضا ؟.. انها ليست
قضية قبيلة ولكنها قضية الأمة كلها ..
جوى الحديث بلا توقف وما يزداد الا حدة وعنفاً ولكن المرأتين

لاذنا بالصفت اشفاقا ورهبة ، لم تستطع زينب أن تدرك بواعث هذه الثورة العاطفية فلم تفهم لها معنى ، نفى سعد ورجاله معه ، ومن المؤكد أنهم لو عاشوا كما يعيش « عباد الله » ما فكر أحد في نفهم ، ولكنهم لم يريدوا ذلك ، أرادوا امورا خطيرة مرادها وخيم العواقب دون ثمة ضرورة تدعو اليها ، ومهما يكن من امرهم فعماذا يبعث فهمى على هذا الغضب الجنونى كان سعدا أبوه أو أخوه ؟ بل ماذا يبعث ياسين - وهو الرجل الذى لا يأوى الى فراشه الا مترنحا من السكر - على هذا الأسف ؟! ايحزن حقا من كان مثله على نفى سعد أو غيره من الناس ؟!.. كان حياتها في حاجة الى مزيد من التنقيص حتى يعكر فهمى عليها صفو الجلسة القصيرة بهذه الثورة التى لا معنى لها ، جعلت تفكر في هذا كله وهى تلحظ زوجها من آن لآخر متعجبة ساخطة ولسان حالها يقول له : « ان كنت صادقا حقا في حزنك فلا تذهب هذا المساء - هذا المساء فقط الى الحانة ! » ، ولكنها لم تنبس بكلمة ، كانت احكم من أن تلقى بأفكارها الباردة في هذا التيار النارى ، في هذه الناحية الاخيرة شابهتها الأم التى سريعا ما تفقد شجاعته حيال الغضب وان هان ، لذلك لاذت بالصمت وانطوت على ضيق شديد وهى تتابع مشفقة الحديث الثائر الهائج ، ولكنها كانت أعظم من زوج ياسين ادراكا لبواعث هذه العواصف فان رأسها لم يخل من ذكرى عرابى كما أن قلبها لم يخل من أسف على أفندينا ، أجل لم تكن كلمة « المنفى » عاطلة من المعانى في نفسها ، بل لعلها اخلت من الأمل الجذير بأن يذاعب شخصا كفهى فقد اقترنت في ذهنها - كما اقترنت في ذهن زوجها واصحابه - باليأس من العودة ، والا فإين أفندينا ؟! ومن أجدر منه بالعودة الى وطنه ؟! ولكن ايظل فهمى على حزنه ما امتد النفى بسعد . ترى أى نحس في هذه الايام يأبى الا أن يبيتهم نبأ ويصبحهم نبأ حتى زلزل أمنهم وكدر صفوهم ؟! كم تمنى أن يعود السلام الى

ربوعه ، وأن تطيب هذه الجلسة كما طابت العمر كله ، وأن تنبسط أسارير فهمى وبلد الحديث ، كم تمنى ..
- مألظة ..! هذه هى مألظة !

هكذا صاح كمال فجأة وهو يرفع رأسه عن خريطة البحر الأبيض وقد ثبت أصبعه على رسم الجزيرة ونظر الى أخيه بظفر وسرور كأنما عثر على ~~هذه~~ زغلول نفسه ، ولكنه وجد منه وجها متجهما كالحا ، لا استجيب الى نداءه ولا أعاره أدنى اهتمام فباخ الغلام وأعاد بصره الى رسم الجزيرة في ارتباك وحياء ، ومضى يتأمله طويلا وهو يقيس ليصره المسافة بينه وبين الاسكندرية وبينه وبين القاهرة ويتجمل صورة مألظة الحقيقة ما شاء له الخيال ، ومنظر أولئك الرجال الذين يتحدثون عنهم وهم مسوقون اليها ، ولما كان قد سمع فهمى وهو يقول عن سعد ان الانجليز انتزعوه على أسنة الرماح فانه لم يسمعه أن تصوره الا محمولا على أسنة الرماح ، لا مثالا أو صارخا كما يتوقع في مثل تلك الحال ولكن « ثابتا كالطود » كما وصفه أخوه أيضا في مرحلة أخرى من الحديث ، وكما ود لو يستطيع أن يسأل أخاه عن كنه ذلك الرجل الساحر العجيب الذى يثبت على أسنة الرماح كالطود ، ولكنه حيال ثورة الغضب التى التهمت سلام المجلس كله أجل تحقيق رغبته الى فرصة انسب ، وأخيرا ضاق فهمى بمجلسه بعد أن أيقن أن ما يصدره من عاطفة أكبر من أن تروح عنها محادثة أخيه في هذا المكان الذى يقف من شعوره موقف المتفرج ان لم يكن موقف الانتكار ، نازعتة نفسه الى الاجتماع بأخوانه في قهوة أحمد عبده حيث يظفر بقلوب تستجيب لقلبه ونفوس تسابقه الى الاعراب عما يضطرم في قراراتها من الإحساس والرأى ، هناك يستمع أصداء الغضب المتقد في قلبه ويستأنس بايحاءاته الجسورة الملتبهة في جو باهر من التعطش الى الحرية الكاملة ، مال الى أذن ياسين وهمس :
- الى قهوة أحمد عبده .

فتنفس ياسين من الأعماق لأنه كان بدا يتساءل وهو من
الخرج في غايته - عن وسيلة لبقة لتسحب بها من المجلس ،
ليمضى الى سهرته . دون أن يزيد من غضب قهمل اشتغالا ،
لم يكن مابه من أسف تصنعا ، أو لم يكن تصنعا كله ، هز النبأ
الخطير قلبه ، ولكنه لو ترك الى نفسه لتناساه بغير جهد كبير ،
ولما فرض على اعصابه ما فرض من تكلف مجازاة لفهمى ومجاملة
له واحتراما لغضبه الذى لم يسبق له أن رآه على مثله من قبل ،
غادر الحجره وهو يقول لنفسه : « حسبنى اليوم ما بذلت من
جهد في سبيل الحركة الوطنية فان لبدنى على حقا » .

- ٥٤ -

على ضربات العجن المتصاعدة من حجرة الفرن فتح فهمى
عينيه ، كانت الحجرة مغلقة النوافذ ، في شبه ظلام إلا ما لاح من
نور باهت وراء خصائص النوافذ ، ترمى الى اذنيه همس انفاس
كمال المترددة فعطف رأسه الى فراشه القريب ، ثم انثالت عليه
ذكريات الحياة ، هذا صباح جديد ، انه يستيقظ من نوم عميق
سلمه الى تعب شمل النفس والجسم ، وانه لا يدري ان كان
يستيقظ صباح الغد بهذا الفراش أم لا يستيقظ أبدا ، لا يدري
ولا احد يدري ، فالموت يجوب شوارع القاهرة طولا وعرضا ويرقص
في أركانها ، يا للعجب ، ها هي أمه تعجن كعنها منذ قديم ،
وها هو كمال يفظ في نومه ويتقلب في احلامه ، وذاك ياسين يدل
وقع قدميه فوق سقف الحجرة على انه انتزع نفسه من الفراش
أما أبوه فلعله الآن منتصب القامة تحت ماء الدش البارد ، وها هو
نور الصباح ذو البهاء والحياء تستأذن ملاحقه في رقة بالغة ، كل

شيء يواصل حياته المعهودة كأن شيئا لم يحدث ، كأن مصر لم تنقلب
رأسا على عقب ، كان الرصاص لا يعزف باحشا عن الصدور
والرؤوس .. كان الدم الزكى لا يخضب الأرض والجدران ، وأغمض
الشباب عينيه وهو يتنهد ميتسما الى تيار مشاعره الزاخر
بما يحمل من في موجاته المتلاحقة من حماس وأمل وحزن وإيمان ،
حقا لقد خيى في الأيام الأربعة المنطوية حياة عريضة لم يكن له بها
عهد من قبل ، أو أنه لم يعرفها الا اطيافا في احلام اليقظة ، حياة
طاهرة رفيعة ، حياة تجود بنفسها عن طيب خاطر في سبيل شيء
باهر آمن منها وأجل ، تتعرض للموت بلا ميلالة ، وتستقبله بعناد ،
وتهجم عليه باستهانة ، واذا أقلت من محالته مرة عادت اليه كرة
أخرى متكببة عن ذكر العواقب جانبا ، شاخصة طوال الوقت الى
نور رائع عنه لاتحيد ، مدفوعة بقوة لا قبل لها بها ، مسلمة مصيرها
لله وهى تشعر به محيطا لها كالهواء يغمرها من كل جانب ، هانت
الحياة كوسيلة حتى لم تعد تزن ذرة ، وجلت كفاية حتى وسعت
السموات والأرض ، تأخى الموت والحياة فكانا يدا واحدة في خدمة
أمل واحد ، هذه تؤيده بالجهاد وذاك يؤيده بالقضاء ، لو ان الانفجار
الرهيب لم يقع لمات غما وكمدا ، فما كان يحتمل أن تواصل الحياة
سيرها الهادىء الوئيد على اطلال الرجال والآمال ، كان لا بد من
انفجار ينفس عن صدر الوطن وصدره كالزلازل الذى ينفس عن
أنفحة باطن الأرض المتجمعة ، فلما وقعت الواقعة وجدته على
ميعاد فالتقى بنفسه في خضمها .. متى حدث هذا ؟ وكيف
حدث ؟ .. كان راكبا ترام الجيزة في طريقه الى مدرسة الحقوق
فوجد نفسه بين شرذمة من الطلاب يتناقشون ملوحين بقضائهم ،
نقى سعد وهو يعبر عن قلوبنا فاما أن يعود سعد ليواصل جهاده
وأما أن تنفى معه ، وانضم الراكبون من الأهالى اليهم في الحديث
والوعيد حتى الكسارى أهمل عمله ورقف ينصت ويتكلم ، يالها
من ساعة ! .. فيها أشرق بنفسه الأمل من جديد بعد ليلة من

الحزن والياس قائمة ، فايقن أن هذه النار المتقدة لن تخدم ولن تبرد ، ولما أقبلوا على فناء المدرسة وجدوه مكتظا صاخبا مرعدا فسبقتهم قلوبهم اليه ، ثم هرعوا الى زملائهم تحدثهم نفوسهم بحدث وشيك ، وما لبث أن انبرى احدهم مناديا بالاضراب ..! شيء جديد لم يسمع من قبل ، بيد أنهم هتفوا بالاضراب وهم يتأبطون كتب القانون وجاءهم ناظرهم المستر والتون في لطف غير متهود ونصحهم بالدخول الى الفصول فكان الجواب أن يصعد شاب منهم الى أعلى السلم المفضي الى حجرة السكرتير وراح يخطب بحماسة فائقة فلم يسع الناظر الا الانسحاب ، انصت الى الخطيب بجماع روحه وعيناه شاخصتان الى عينيه وقلبه يتابع دقاته في سرعة ونشاط ، كم ود لو يصعد الى موقفه فيفيض من معين قلبه المستعر ، ولكنه لم يكن ذا استعداد قوى للخطابة فقتع بأن يردد غيره هوأتف نفسه ، وتابع الخطيب بانتباه حاسي حتى وقف عند مقطع من خطابه فصاح مع زملائه جميعا في نفس واحد (يحيا الاستقلال) ثم تابع الانصات باهتمام بث الهتاف فيه حيوية جديدة حتى انتهى الخطيب الى مقطع ثان فهتف مع الهاتفين « لتسقط الحماية» ووالى الاصغاء بجسم متصلب من الانفعال وهو يعرض على أسنانه ليحبس الدمع الذي زفرد جيشان نفسه حتى اذا بلغ الخطيب المقطع الثالث هتف مع الهاتفين « يحيا سعد » ، هتاف جديد ، وكل شيء جديدا بدا ذلك اليوم ، بيد أنه هتاف مطرب رجعه قلبه من الأعماق وظل يردده مع دقاته المتتابعة كأنه صدى للسانه ، بل هتاف لسانه كان صدى لقلبه ، فانه ليذكر كيف ردد قلبه هذا الهتاف في صمت مكثوم طوال الليلة السابقة للانفجار التي باتها مغموما محسورا ، كانت عواطفه المكبوتة ، حبه وحماسه وطموحه وتطلعه الى المثل الأعلى وأحلامه تائهة مبشرة حتى انطلق ضوت سعد مدويا فانجذبت طائفة اليه كما ينجذب الحمام السابح في الفضاء الى صغير صاحبه ، ثم ما يدرون الا والمستر ايموس

نائب المستشار القضائي البريطاني لوزارة الحقانية يشق طريقه بين جموعهم فقابلوه بهتاف واحد « لتسقط الحماية .. لتسقط الحماية » فتلقاهم الرجل ببرود لم يخرق به حد اللطف ونصحهم بالعودة الى دروسهم داعيا اياهم الى ترك السياسة لأبائهم ، هناك تصدى له احدهم قائلا :

— ان آباءنا قد سجنوا ، ولن ندرس القانون في بلد يداس فيه القانون ..

وتعالى الهتاف من أعماق القلوب كهزيم الرعد فانسحب الرجل مرعا . ود الشاب مرة ثانية لو كان هو القائل ، لشد ما تنثال المعاني على روحه ولكن يسبقه السابقون الى اعلانها فيشتد حماسه ويتعزى بأن فيما ينتظره عوضا عما يفوته ، وجرت الامور سريعا ، دعا الداعي الى الخروج فخرجوا متظاهرين وتوجهوا الى مدرسة المهندسخانة فسرعان ما انضمت اليهم ثم الى الزراعة فخرج طلبتها اليهم هاتفين كأنهم على ميعاد ، ثم الى الطب فالتجارة وما بلغوا ميدان السيدة زينب حتى انتظمتهم مظاهرة كبيرة انضمت اليها جوع الاهالي وتعالى الهتاف لمصر والاستقلال وسعد ، وكلما تقدموا خطوة ازدادوا حماسة وثقة وإيمانا بما يلقون في كل مكان من مشاركة تلقائية واستجابة بديهية ، وما يصادفون من نفوس متحفزة تصدعت بالغضب حتى وجدت في مظاهرتهم المتنفس ، تساءل — ودهشته لحدوث المظاهرة تكاد تغلب انفعاله بالتظاهر نفسه — « كيف حدث هذا كله ؟! » .. لم تكن مضت الا بضعة ساعات على الصباح الذي شهد قنوطه وانهمازه ، ها هو الآن ، قبيل الظهر ، يشترك في مظاهرة ثائرة يكاشفه فيها كل قلب بأنه صدى لقلبه ، ويردد هتافه ، ويناشده بايمان لا يتزعزع أن يسير الى النهاية ، فأى سرور سروره ، وأى حماس حماسه ..! لقد انطلقت روحه في سماء من الأمل لا تحدها الآفاق ، نادمة على ما اعتورها من قنوط خجلة بما رمت به الأبرياء من ظنون ، وفي

ميدان السيدة زينب بدا له منظر جديد من مناظر ذلك اليوم العجيب . رأى مع الرائي جماعات من فرسان البوليس وعلى رأسها مفتش انجليزى تتقدم ساحة ورائها ذيولا من الغبار ، والارض تضطرب تحت وقع السنايك ، انه ليذكر كيف مد بصره نحوهم في ذهول من لم يسبق له ان وجد نفسه عرضة لمثل ذلك الخطر الداهم ، وتلفت فيما حوله فرأى وجوها يلمع في محاجرها الحماس والغضب فتنهذ في عصبية ولوح بيده هاتفا ، احاط الفرسان بجموعهم ، ولم يعد يرى من الخضم الهائل الذى يضطرب فيه الا رقعة محدودة يفرق بين رعوسها المشرّبة ، ثم ترمى اليهم ان البوليس اعتقل طلابا كثيرين ممن تصدوا لمخالفته او كانوا على رأس المظاهرة فللمرة الثالثة ذلك اليوم تمنى ، وكان تمنيه ان يكون بين المعتقلين ولكن من دون ان يخرج من الدائرة التى يتحرك فيها بجهد جهيد ..

على ان ذلك اليوم كان يوم سلام بالقياس الى اليوم الذى تلاه ، بدا يوم الاثنين منذ مطلع الصباح يوم اضراب شامل اشتركت فيه جميع المدارس باعلامها وحشود من الأهالى لا يحيط بها الحصر ، بعثت مصر بلدا جديدا يبكر الى الاحتشاد فى الميادين للحرب بغضب طال كتمانها ، والقى هو بنفسه بين الجموع في نشوة فرح وحماس كأنه تائه ضال عثر على أهله بعد فراق طويل ، وسارت المظاهرة مسيرا مشهودا مارة بدور المعتمدين السياسيين معلنة احتجاجها بمختلف اللغات ، حتى بلغت شارع الدواوين وهناك برزت بين الجموع موجة اضطراب عنيفة وصاح صائحهم : « الانجليز ! » وما لبث ان فرقع الرصاص مغطيا على اصوات الهاتفين فسقط أول القتلى ، وواصل قوم تقدمهم في حماس جعشونى ، وتسمر آخرون ، وتفرق كثيرون يلوذون بالبيوت والمقاهى ، ولكن هو ضمن الآخرين ، اندس وراء باب وقليه يبعث ضربات قوية متناسيا كل شيء الا حياته ، ولبث على ذلك زمنا لا يدريه

حتى شمل السكون الدنيا جميعا فمد رأسه ، ثم قدمه ، ومضى الى حال سبيله غير مصدق بالنجاة وعاد الى بيته فيما يشبه الذهول ، وفي وحدته الحزينة تمنى لو كان من الذاهبين او في الأقل من الثابتين ، وفي وقدة الحساب العسير وعد ضميره الفظ بالتفكير ، ومن حسن الحظ ان بدا ميدان التفكير متسعا وقريبا . وجاء الثلاثاء والأربعاء فكانا كالأحد والاثنين ، أيام متشابهات في أفراحها واحزانها ، مظاهرات فهتاف فرصان فضحايا ، القى بنفسه في خضمها جميعا يندفع بحماس ، ويسمو الى آفاق بعيدة من الاحساس النبيل ، ويضطرب بالحياة ويعضه ندم على النجاة ! ثم ضاعف من حماسه وأمله انتشار روح الغضب والثورة فما لبث ان أضرب عمال الترام وسائقو السيارات والكناسون فبلت العاصمة حزينة غاضبة موحشة . وترامت الاخبار حاملة البشرى بقرب اضراب المحامين والموظفين . ان قلب البلاد يخفق حيا ثائرا ولن تذهب الدماء هدرا ولن ينسى المنفيون في مناهم ، لقد زلزلت اليقظة الواعية ارض وادى النيل ..

تقلب الفتى في فراشه فاسترد وعيه من لجة الذكريات وجعل يتابع دقائق العجن مرة أخرى مقلبا ناظره في أركان الحجر التى اخذت تستبين على النور المشرق رويدا وراء النوافذ المغلقة . أمه تعجن ! .. ولن تزال تعجن صباحا بعد صباح ، هيهات أن يشغلها حدث عن التفكير في اعداد الموائد وغسل الثياب وتنظيف الاثاث ، ان كبار الحوادث لا يعطل صفار الاعمال ، وسيستمع صدر المجتمع دائما للجليل والتافه من الأمور فيرحب بها جنبا الى جنب ، ولكن مهلا ، ليست ام على هامش الحياة هى التى انجبتة والابناء وقود الثورة ، وهى التى تغذيه والغذاء وقود الابناء ، الحق ان ليسمة شيء تافه في الحياة .. ولكن الايجىء يوم يهز فيه الحادث الكبير المصريين جميعا فلا تتفرق عنده القلوب كما تفرقت في مجلس القهوة منذ خمسة أيام ؟ .. الا ما أبعد هذا اليوم ! .. ثم جرت على

شفتيه ابتسامة اذ وثب الى ذهنه هذا السؤال : ماعسى ان يصنع والده اذا علم «بجهاده» المتواصل يوما بعد يوم ؟ .. ماذا يصنع ابوه الجبار المستبد وماذا تصنع امه الرقيقة الخون ؟ .. ابتم في حيرة وهو يعلم ان المتاعب التى قد تعترضه في تلك الحال ليست دون المتاعب التى قد تعترضه اذا نعى سره الى السلطة العسكرية نفسها .. ثم ازاح الغطاء عن صدره وجلس في الفراش وهو يفغم «سيان ان احيى او ان اموت ، الايمان اقوى من الموت ، والموت اشرف من القتل ، فنهيتا لنا الامل الذى هانت الى جانبه الحياة ، اهلا بصباح جديد من الحرية ، وليقض الله بما هو قاض .. »

- ٥٥ -

لم يعد احد يستطيع الادعاء بان الثورة لم تغير ولو وجها من وجوه حياته ، حتى كمال نفسه عرض لحريره التى تمتع بها طويلا في ذهابه الى المدرسة وايابه منها طارئ ثقيل ضاق به كل الضيق وان لم يستطع له دفعا ، ذلك ان الام امرت ام حنفى بان تتبعه في ذهابه الى المدرسة وعند ايابه منها ، والا تتخلى عنه بحال كى تعود به الى البيت اذا صادفتها مظاهرة دون ان تدع له فرصة للتلكؤ او مطاوعة نزوات الطيش ، دار راس الام بانباء المظاهرات والاضطرابات وارتح قلبها لحوادث الاعتداء الوحشى على الطلبة فعانت من ذلك الزمن اياما كالحات ملاتها هلعها وجزعها فودت لو تستبقى ابنها الى جانبها حتى تثوب الامور الى مستقرها ، ولكنها لم تجد الى تحقيق مرادها من سبيل خصوصا بعد ان وعد فهمى - وهو من ثقتها في «عقله» لا تنزعزع - انه لا يشترك في الاضراب بتاتا ، وبعد ان رفض الاب فكرة استبقاء كمال في البيت لعلمه بان

المدرسة تحول بين صغار التلاميذ وبين الاشتراك في الاضراب . سلمت الام بذهاب الاخوين الى المدرسة على كره منها ولكنها فرضت على كمال رقابة ام حنفى وهى تقول له : «لو كان بوسعى ان اخرج كما اشاء لتبعك بنفسى» وقد عارضها كمال بما وسعه من قوة لانه ادرك بالبداهة ان هذه الرقابة التى لن تخفى عن امه خافية من شئونه ستقضى قضاء مبرما على كل ما يتمتع به في الطريق من الوان العبث والشطارة ، وانها ستلحق هذه الفترة القصيرة السعيدة من يومه بالسجنين اللذين يتردد بينهما : البيت والمدرسة ، الى هذا امتعضت نفسه ، اشد الامتعاض من السير في الطريق مصطحبا هذه المرأة التى ستلتفت الانظار حتما بيدانتها المفرطة ومشيتها المتهالكة ، ولكنه لم يسعه الا ان يدعن لرقابتها سيما بعد ان امره ابوه بقبولها ، قصارى ما استطاعة تنفيسا عن صدره انه كان ينتهرها كلما تدانت منه ، وانه حتم عليها ان تتأخر عنه مسيرة امتار ، على تلك الحال مضيا الى مدرسة خليل اغا صباح الخميس وهو خامس ايام المظاهرات في القاهرة ، ولما بلغا باب المدرسة اقتربت ام حنفى من البواب وسألته تنفيذا للأمر اليومى الذى تلقتة في البيت :

- هل يوجد تلاميذ في المدرسة ؟

فاجابها الرجل بغير اكتراث :

- منهم من يدخل ، ومنهم من يذهب ، والناظر لا يتعرض لاحد ..

كانت هذه الاجابة مفاجاة سيئة لكمال ، كان مهيا النفس لسماع الاجابة التى باتت مألوفة منذ يوم الاثنين وهى «التلاميذ مضربون» فيعودان الى البيت حيث يمضى سحابة النهار في خربة حببت الى قلبه الثورة من بعيد ، ونازعته نفسه الى الهرب تفاديا من عواقب الاجابة الجديدة فخاطب البواب قائلا :

- انا ممن يذهبون ..

وابتعد عن المدرسة والمرأة في انره ، بيد أنها سألته : لماذا لا يدخل مع الداخلين فرجاها مترددا لأول مرة في حياته - أن تقول لأمه أن التلاميذ مزيون ، وزيادة في الرجاء والتودد دعا لها - وهما يمران بجامع الحسين - بطول العمر والسعادة إلا أن أم حنفى لم تستطع إلا أن تصارح الأم بالحقيقة كما سمعتها فأنبتة الأم على كسله وأمرت المرأة بأن تعود به إلى المدرسة فقادرا البيت وهو يسلفها بلسان حاد راميا إياها بالخيانة والغدر ، لم يجد في المدرسة إلا لداته . . ذوى الأسنان الصغيرة ، أما من عداهم ، وهم الأغلبية الساحقة ، فكانوا مزيين ، وألقى في فصله ، الذى كان يتوافر له من صفار التلاميذ ما لم يتوافر لغيره من الفصول - نحو من ثلث التلاميذ ، بيد أن المدرس أمرهم أن يراجعوا دروسهم السابقة وانكب هو على تصحيح بعض الكراسات فتركهم في شبه اضطراب في الواقع . فتح كمال كتابا متظاهرا بالقراءة دون أن يعبره أدنى انتباه فقد ساءه البقاء في المدرسة بلا عمل فلا هو مع المزيين ولا هو في البيت يتجمع بالفراغ الذى جادت به هذه الأيام العجيبة بلا حسيان ، ضاق بالمدرسة كما لم يضق من قبل ، وهفا خياله إلى أولئك المزيين في الخارج بدهشة واستطلاع ، كثيرا ما تساعل عن حقيقة أمرهم ، أم كما تدعى أمه « متهورون » لا يرحمون أنفسهم ولا أهليهم ملعين بأرواحهم إلى التهلكة أم هم كما يصفهم فهم أبطال فداثيون يجاهدون عدو الله وعدوهم ؟! . . وكثيرا ما مال إلى رأى أمه لحققة على التلاميذ الكبار - فئة المزيين - الذين خلفوا في نفسه ونفوس اضطرابه من التلاميذ الصغار أسوأ الآثار بما ينالهم على أيديهم من غلظة واستكبار وهم يتحدونهم في فناء المدرسة بضخامة أجسامهم وقحة شواربهم ، بيد أنه لن يستسلم إلى هذا الزاى كل الاستسلام طالما كان لقول فهمى من الاقتناع في نفسه ما لا قبل له بالاستهانة به ، لن يسعه أن يسلبهم ما بضفيه عليهم من ضروب البطولة حتى ود لو يطلع من مكان

آمن على معاركهم الدامية ، قامت قيامة الدنيا ما في ذلك من شك ، أو فلماذا يضرب المصريون وينطلقون جماعات إلى الاشتباك بالجنود ؟! . . وإى جنود ؟! . . الانجليز ؟! . . الانجليز الذين كان يكفى ذكر اسمهم لاختلاء الطرقات ! . . ماذا حدث للعالم وللناس ؟! ذاك صراع عجيب قضى عنقه بأن تنقش عناصره الجهورية فى نفس الغلام بلا وعى أو قصد فتغدو أسماء سعد زغلول . الانجليز . الطلبة . الشهداء . المنشورات ، المظاهرات ، من القوى المؤثرة الموحية في أعماقه وأن وقف من معانيها موقف المستطلع الخائر . وضاعف من حيرته أن آله استجابوا للحوادث استجابة متباينة وأحيانا متناقضة ، فبينما يجد فهمى أثرا يحمل على الانجليز بحق قاتل ويحن إلى سعد حينما يفجر الدمع ، إذا بياسين يناقش الأخبار في اهتمام رصين مشوب بأسف هادىء لا يمنعه من مواصلة حياته المعتادة بين السمر والضحك وتلاوة الأشعار والقصص ، ثم السهر حتى منتصف الليل ، أما أمه فلا تكف عن دعاء الله أن ينشر السلام ويعيد الأمان ويصفى قلوب المصريين والانجليز جميعا ، والأدهى من كل أولئك زينب زوجة أخيه التى أفرعتها الأحداث فلم تجد من تصب عليه غضبها إلا سعد زغلول نفسه متهمة إياه بأنه سبب هذا الشر كله ، وأنه « لو عاش كما يعيش عباد الله في دعة وسلام ما تعرض له أحد بسوء ولا اشتعلت تلك النيران » . . لذلك كان خماس الغلام يستمر لفكرة الصراع نفسه ، وحزنه يفيض بفكرة الموت في ذاته دون أن يكون لنفسه معنى واضحا لما يدور حوله من بعيد أو قريب ، وكه أسف يوم دعا تلاميذ خليل أغا إلى الاضراب - لأول مرة - فسنحت له فرصة طيبة ليشهد مظاهرة عن كذب أو يشترك فيها ولو في فناء المدرسة ، ولكن الناظر بادر إلى حجز صفار التلاميذ في فصولهم فأفلتت الفرصة ووجد نفسه وراء الجدران ينصت إلى الهتافات العالية في دهشة مزروجة بسرور

خفى ، لعل مبعثه الفوضى التى نشبت في كل شيء فقصفت بالروتين اليومي الثقيل بلا رحمة . أفلتت ذلك اليوم فرصة الاشتراك في مظاهرة كما ضاعت اليوم فرصة الاستمتاع بالفراغ في البيت ، وسيبقى مغلولا في هذه الجلسة المملة ينظر في الكتاب بعينين لا تريان شيئا ، ويسترق لمسات مع رفيقه على القمطر في حذر وخوف حتى يدرك نهاية النهار الطويل ، ولكن ثمة شيء استرعى انتباهه فجأة ، قد يكون صوتا غريبا بعيدا أو وشا في الأذن ، ولكي يستوثق من حاسته نظر فيما حوله فرأى رعوس التلاميذ مرفوعة وأعينهم تتبادل النظرات ثم تتجه معا صوب النوافذ المظلة على الطريق ؛ أنه حقيقة وليس وهما ما استرعى انتباههم ، انها اصوات مندمجة في صوت ضخم غير متميز تسمع لبعدها كهدير الأمواج من بعيد ، الآن وقد أخذت تشتد يمكن أن تسمى ضوضاء ، بل ضوضاء تقترب ، وسرت في الفصل حركة وتعالى الهمس ثم ارتفع صوت قائلا « مظاهرة !.. » فخفق قلب الغلام وعلت عيناه لمعة تجمع بين السرور والاضطراب . وجعلت الضوضاء تقترب وتقترب حتى وضحت هتافا يرعد ويزمجر في جميع الجهات المحيطة بالمدرسة ، وعادت تقرع أذنيه الأسماء التى ملأت ذهنه طوال الايام الماضية . سعد .. الاستقلال .. الحماية ، وتداني الهتاف وعلا حتى اطبق على فناء المدرسة نفسها فوجمت قلوب التلاميذ وابقنوا ان الطوفان لا بد مغرقهم ، ولكنهم قابلوا ذلك بسرور صياني تنكب عن تقدير العواقب في حمية نزوعه الى الفوضى والانطلاق ، ثم ترمى اليهم وقع اقدام مقبلة في سرعة وصخب ، ثم فتح الباب على مصراعيه تحت وقع صدمة عنيفة واندفعت الى الحجرة جماعات من الطلبة والأزهريين كما تندفع المياه من فوهة الخزان وهم يصيحون : « اضرب .. اضرب .. لا ينبغي أن يبقى أحد » .. وفي لحظات وجد نفسه عائضا في موج مصطخب يدفعه أمامه دفعا يعطل

كل مقاومة وهو من الاضطراب في غاية ، تحرك في ببطء شديد تحرك جبوب البن في فوهة الطاحونة لا يدري أين تقع عيناه ، ولا يرى من الدنيا الا أجساما متلاصقة في ضجة تصك الأذان حتى استدل بظهور السماء فوق رأسه على بلوغ الطريق ، واشتد الضغط عليه حتى كادت تكتم أنفاسه فصرخ صراخا حادا عاليا متواصلا من شدة الفزع ، وما يدري الا ويد تقبض على ذراعه وتجذبه بقوة وهي تشق بين الناس طريقا حتى الصقته بجدار على الطوار ، فراح يلهث ويتلمس فيما حوله منجى حتى عثر على دكان حمدان بائع البسبوسة وقد أنزل بابها الحديدي الى ما فوق العتبة بقليل ، فهرع اليه ودخل زحفا على ركبتيه ، ولما قام في الداخل رأى عم حمدان انذى كان يعرفه حق المعرفة وأمرأتين وبعض صفار التلاميذ فأسند ظهره الى جدار القائمة التى تحمل الصواني وصدره يعلو وينخفض بلا توان . وسمع عم حمدان وهو يقول :

— ازهريون ، طلبة ، عمال ، اهالى .. جميع الطرقات المؤدية الى الحسين مكتظة بالبشر .. ما كنت احسب قبل اليوم ان الأرض تستطيع ان تحمل كل هؤلاء البشر ..

احدى الرائتين بدهشة :

— كيف يصرون على التظاهر بمسد ما كان من اطلاق النار عليهم ؟

المرأة الأخرى بسرة :

— ربنا الهادى ، كنهم أبناء ناس يا ولداه ..

فقال عم حمدان :

— ثم نر شيئا تهذا من قبل ، ربنا يحميهم ..

تفجر الهتاف في الحناجر يزلزل الجو زلزالا ، حيننا عن قرب كأنه يدوى في الدكان . وحيننا عن بعد في ضوضاء شديدة غير متميز كهزيم الريح ، وتواصل بلا انقطاع ، في حركة بطيئة

مستمرة دل عليها تفاوت درجات الشدة والارتفاع بين الامواج القادمة والذاهبة ، وكلما ظن انه انقطع جاء غيره حتى بدا وكان لا نهاية له . تركزت حياة كمال في اذنيه وهو يرهف السمع في اضطراب وقلق ، بيد انه لما تتابع الوقت دون وقوع مكروه استرد أنفاسه ومضى يعاوده الشعور بالطمأنينة ، ثم وسعه اخيرا أن يفكر فيما يدور حوله كطاريء لا يلبث أن يزول فتساءل متى يجد نفسه في البيت ليرى لأمه ما وقع له ؟ . « اقتحمت علينا الفصول مظاهرة لا أول لها ولا آخر ، وما ادرى الا وتيارها الزاخر يحيط بى ويجرئنى الى الشارع ، وهتفت مع من هتف : ليحيى سعد ، لتسقط الحماية ، ليحيى الاستقلال . وما زلت انتقل من طريق الى طريق حتى هجم الانجليز علينا واطلقوا الرصاص » .. ستفزع عند ذلك لحد البكاء ولا تكاد تصدق انه حين يروى ويستتلو آيات كثيرة وهى ترتجف .. « ومرت رصاصة جنب راسى ما زال عزيها يطن في اذنى ، وتخبط الناس كالمجانين ، وكدت اهلك مع الهالكين لولا أن جذبني رجل الى دكان .. »

انقطع جبل احلامه على صياح عال غير منتظم ووقع اقدام متدافعة في اضطراب ، فخفق قلبه ونظر في وجوه من حوله فرآهم محملقين في الباب كمن يتوقع ضربة على أم رأسه ، واتترب عم حمدان من الباب وانحنى حتى نظر من الفرجة في اسفله ثم تراجع وانزله حتى الصقه بالارض بسرعة وهو يتمتم في اضطراب :

— الانجليز .. !

وصاح كثيرون في الخارج « الانجليز .. الانجليز » ونادى آخرون « الثبات .. الثبات » وهتف غيرهم « نموت ويحيا الوطن » .. ثم سمع الغلام لأول مرة في حياته الصغيرة طلقات الرصاص عن بعد قريب فعرفها بالبداة وارتعدت أوصاله ، وما أن ندت عن المراتين صرخة فزع حتى افحم في البكاء ، وجعل

عم حمدان يقول بصوت متهدج « وحدوا الله .. وحدوا الله .. » ولكن الغلام شعر بالخوف ، باردا كاللوت ، يزحف على جسمه كله من قدميه الى رأسه . وتوالت الطلقات ، وصكت الأذان صلصلة عجلات وصهيل خيل ، تدايعت الأصوات والحركات في سرعة فائقة تلاحقها زمجرات وصراخ وانين ، فترة اعتراك خاطفة بدت للقابعين وراء الباب دهرا في حضرة الموت .. ثم حل صمت مخيف كالانغماء الذى يغيب تبريح الالم ، تساءل كمال بصوت متهدج مبجوح :

— ذهبوا ؟!

فوضع عم حمدان سبابته على فيه وهو يغمغم « هس » .. وتلا آية الكرسي ، فتلا كمال في سره — اذ خاتته قدرته على الكلام — « قل هو الله أحد » لعلها تطرد الانجليز كما تطرد العفاريت في الظلام . على أن الباب لم يفتح الا عند الظهر فانطلق الغلام الى الطريق المقفر ثم اطلق للريح ساقيه . وفيما هو يمر بالسلم الهابط الى قهوة احمد عنده لمح شخصا صاعدا عرف فيه أخاه فهمى فهرع اليه كغريق عثرته يده على أداة النجاة وقبض على ذراعه فالتفت الشاب نحوه فزعا ، ولما عرفه هتف به :

— كمال ؟! أين كنت في أثناء الضرب ؟

ولاحظ الغلام أن صوت أخيه مبجوح مقموس المخارج ، بيد أنه أجابه بقوله :

— كنت في دكان عم حمدان وسمعت الرصاص وكل شيء ..

فقال له بصوته ولهوخته :

— اذهب الى البيت ولا تقل لأحد أنك قابلتني .. سامع ؟

فسأله الغلام بارتباك :

— ألا تعود معي ؟!

فقال باللهجة نفسها :

- كلا .. ليس الآن .. ساعود في موعدى المعتاد ، لا تنس
انك لم تقابلنى قط ..

ودفعه حتى لا يدع له فرصة للمناقشة فاندفع الغلام راكضا
حتى بلغ منعطفه خان جعفر ، فرأى تسبحا واقفا وسط الطريق
يشير الى الأرض ويخاطب نفرا من الرجال فنظر حيث يشير
فرأى بقعا حمراء ملبسة بالتراب ، وسمعه يقول بلهجة رثائية :
- هذا الدم الزكى يستصرخنا الى مواصلة الجهاد ، وقد
شاء الله ان يسفك في رحاب سيد الشهداء لنصل في الاستشهاد
حاضرنا بماضيها ، والله معنا ..
وأحس فزعا يركبه ، فاسترد بصره من الأرض الدامية
وانطلق يعدو كالمجنون ..

- ٥٦ -

كانت امينة تتلمس طريقها الى باب الحجره خلال ظلمة
السحر ، في حذر وتمهل أن توقظ السيد ، حين ترمى الى اذنيها
لنظ غريب صاعدا من الطريق يطن طنين النحل . لم يكن يطرق
اذنيها في هذه الساعة التى اعتادت أن تستيقظ فيها الا صلصلة
عجلات عربات الدبش وسعال العمال المبكرين وهتاف رجل يحلو
له عند مرجعه من صلاة الفجر أن يردد في الصمت الشامل صائحا
بين حين وآخر « وحدوه » اما هذا اللغظ الغريب فلم تسمعه
من قبل ، وحارت في تفسيره فتطلعت الى معرفة مصدره فمضت
بخطواتها الخفيفة الى نافذة بالصالة مظلة على الطريق ثم رفعت
خصاصها وأخرجت رأسها فوجدت في الخارج ظلمة مختلطة
عند الأفق ببشائر ضياء ولكن ليس الى الحد الذى تستطيع معه

رؤية ما يجرى تحتها ، بيد أن اللغظ ازداد ارتفاعا ، وازداد في
الموقت نفسه غموضا ، حتى تبينت فيه أصواتا آدمية مجهولة
النسب . دارت عينها في الظلام الذى أخذت تألفه شيئا ما
فراحت تحت سبيل بين القصرين وما يليه من تقاطع النحاسين مع
درب فرمز أشباحا آدمية غير واضحة المعالم ، وأشياء على هيئة
أهرام صغيرات ، وأخرى كأنها الأشجار القصار ، فارتدت في حيرة
ونزلت قاصدة حجرة فهمى وكمال ، ثم ترددت ، أتوقظه ليرى
ما هنالك ويحل لها تلك الألغاز أم توجل ذلك الى حين استيقاظه؟! ..
ثم أبت أن تزعجه طاوية رغبتها حتى موعد استيقاظه عند مطلع
الشمس الوشيك ، ثم صلت ، ثم عادت مدفوعة بحب الاستطلاع
الى النافذة فأطلت منها . بدأ وشى الشروق ناشيا في غلالة
السحر وأضواء الصباح تسيل من ذرى المآذن والقباب ، فأمكنها
أن ترى الطريق في كثير من الوضوح وفتشت عينها عن الأشباح
التي راعتها في الظلام فتبينت حقيقتها وندت عنها آهة فزع
وارتدت مهرولة الى حجرة فهمى وأيقظته بلا احتراس فانتفض
الشاب جالسا في فراشه وهو يتساءل متزعجا :

- مالك يا أماه ..؟

فقالته وهى تلهث :

- الانجليز يملأون الطريق تحت بيتنا ..

هب الشاب من فراشه واثبا الى النافذة ورمى ببصره فرأى
تحت سبيل بين القصرين معسكرا صغيرا يشرف على رعوس
الطرق التى تتفرع عنده ، يتكون من عدد من الخيام ، وثلاث
لوريات وشراذم متفرقة من الجند ، وفيما يلى الخيام أقيمت
البنادق اربعا اربعا ، كل مجموعة تتساند رعوسها وتفرق قواعدا
على هيئة هرم ، وقد وقف الحراس كالتماثيل أمام الخيام وتبعثر
الآخرون وهم يتراطنون ويتضاحكون ، ورمى الشاب بصره ناحية
النحاسين فرأى معسكرا ثانيا عند تقاطع النحاسين بالصاغة كما

- كلا .. لو كان الاعتداء على البيوت مقصدهم ما وقفوا ساكنين حتى الآن ..

لم يكن مطمئنا الى قوله كل الاطمئنان ولكنه وجدته اوفق بما يقال ، وعادت امه تسأله :

- وحتى متى يقيمون بيننا ؟!

بطرف شارد اجابها :

- من يدري ؟! .. انهم ناصبون الخيام فلن يرحلوا سريعا .. تنبه الى انها تسأله كما لو كان قائد القوات العسكرية فظفر اليها في عطف وهو يدارى بسمة ساخرة فرجت ما بين شفثيه الممتعتين ، وفكر لحظة في مداعبتها ولكن كآبة الموقف صدت نفسه ، فعاوده الجد كما يقع له أحيانا اذا روى ياسين له «نادرة» من نوادر والده تدعوه بطبيعتها الى الضحك ولكن يصده عنه القلق الذي يعتريه كلما اطلع على جانب من شخصية ابيه الخفية ، وسمعا وقع اقدام تهرول نحوهما ، ثم اقتحم الحجرة ياسين تتبعه زينب على الاثر ، وصاح الشاب الذي بدا منتفخ العينين مشعث الشعر :

- ارايتم الانجليز ؟!

وهتفت زينب :

- انا التي سمعتهم ثم اطلت من النافذة فرايتهم وايقظت سي ياسين ..

وواصل ياسين الحديث قائلا :

- لقد نقرت على باب والدي حتى استيقظ واخبرته ولما رآهم بنفسه امر بالا يفادر البيت احد والا يرفع مزلاج البيت ، ولكن ماذا هم فاعلون ؟! .. وما عسى أن تصنع ؟! .. الا توجد في البلد حكومة تحميننا ؟!

فقال له فهمي :

- لا اظنهم يتعرضون لغير المتظاهرين ..

رأى في الناحية الاخرى من بين القصرين معسكرا ثالثا عند منصف الخرتقش ، ابتدره خاطر اهوج لاول وهلة ان هؤلاء الجنود قد جاءوا للقبض عليه !! .. ولكنه ما لبث ان استسخفه معتبرا عنه بقومته المزعجة من النوم الذي لم يكد يفيق منه ، وبهذا الاحساس بالمطاردة الذي لم يفارقه مذ شبت الثورة ، ثم وضحت له الحقيقة رويدا ، وهي ان الحى الذي اتعب السلطة المحتلة بمظاهراته المتواصلة قد احتل احتلالا عسكريا . لبث ينظر خلال الخصاص متفحضا للجنود والخيام والبنادق والوريات وقلبه يخفق في رهبة وحزن وحنق ، حتى تحول عن النافذة شاحب اللون وهو يتمتم مخاطبا امه :

- انهم الانجليز كما تقولين ، جاءوا للارهاب ومنع المظاهرات في منابها ..

وجعل يقطع الحجرة ذهابا وايابا وهو يقول في سره حانقا «هيهات .. هيهات» حتى سمع امه تقول :

- ساوقف والدك لاخبره بالامر ..

قالت المرأة كآخر ما عندها من حيلة ، كان السيد - الذي يحل لها جميع مشكلات حياتها - كفيل ايضا بان يجد حلا لهذا المشكل يبلغ به بر الامان ، ولكن الشاب قال لها باسى :

- دعيه حتى يستيقظ في وقته ..

فتساءلت المرأة في رهبة :

- ماذا تفعل يا بنى وهم مرابطون امام مدخل بيتنا ؟!

فهز فهمي راسه في حيرة قائلا :

- ماذا تفعل ؟! .. ثم بلهجة أكثر ثقة - لا داعى للخوف ،

ليس الا انهم يرهبون المتظاهرين ..

قالت وهي تردد ويقا جافا :

- اخاف ان يعتدوا على الامنين في بيوتهم ..

ففكر قليلا في قولها ثم تمتم :

ولكن حتى متى نظل محبوسين في بيوتنا؟! .. ان البيوت
ملأى بالنساء والأطفال فكيف يسكرون تحتها؟

فغمغم فهمي في ضيق :

- سيجرى علينا ما يجرى على غيرنا فلنصبر ولننتظر ..

وهتفت زينب في عصبية ظاهرة :

- لم نعد نسمع أو نرى إلا الرعب والحزن ، ربنا على أولاد

الحرام ..

عند ذاك فتح كمال عينيه فرددهما دهشا في المجتمعين في
حجرته على غير انتظار ، ثم جلس في فراشه وتطلع الى أمه
بعينين متسائلتين فاقتربت من فراشه وربت بيدها الباردة على
رأسه الكبير ثم قرأت بصوت مهموس وعقل شارد الفاتحة ،
فسألها الغلام :

- ماذا جاء بكم الى هنا ؟

رأت أن تبلغه الخبر في أحسن صورة ممكنة فقالت بركة :

- لن تذهب اليوم الى المدرسة ..

فتساءل بابتهاج :

- بسبب المظاهرات ؟

فقال فهمي في شيء من الحدة :

- الإنجليز يسدون الطريق !

شعر كمال بأنه أدرك سر تجمعهم فقلب عينيه في الوجوه
مذهولا ، ثم وثب الى النافذة ونظر من خصاصها طويلا ثم عاد
وهو يقول باضطراب :

- البنادق أربع أربع ..

ونظر الى فهمي كالمستغيث وتمتم في خوف :

- سيقتلوننا ..؟

- لن يقتلوا أحدا ، جاؤوا لطردة المتظاهرين ..

ومضت فترة صمت قصيرة واذا بالغلام يقول وكأنه يخاطب
نفسه :

- ما أحمل وجوههم ..

فسأله فهمي ساخرا :

- هل أعجبوك حقا ؟ ..

فقال كمال بسذاجة :

- جدا ، كنت أختيلهم كالشياطين ..

فقال فهمي بمرارة :

- من يدري ، لعلك لو رأيت الشياطين أعجبك منظرهم ..!
لم يرفع مزلاج الباب في ذلك اليوم ، ولم تفتح نافذة من
النوافذ المظلة على الطريق ولو لتغيير الهواء وادخال الشمس ،
ولأول مرة تبسط السيد أحمد في الحديث على مائدة الإفطار
فقال بلهجة العليم الخبير ان الإنجليز يتشددون في منع المظاهرات
وانهم لهذا احتلوا الأحياء التي تكثر بها المظاهرات وانه رأى أن
يمكنوا يومهم في البيت حتى تتضح الأمور ، استطاع الرجل أن
يتكلم بثقة وأن يحافظ على مظهره المعهود من الجلال والا بدع
منفذا لأحد يتسرب منه الى القلق الذي تقش في باطنه مذهب
من فراشه على نقر ياسين ، ولأول مرة كذلك جسر فهمي على
مناقشة رأى أبيه فقال بأدب :

- ولكن يا والدي قد تظننى المدرسة اذا مكثت في البيت من
المضرين !

لم يكن السيد يعلم شيئا طبعاً عن اشتراك ابنه في المظاهرات
فقال :

- للضرورة أحكام ، أخوك موظف وموقفه أدق من موقفك
ولكن العذر واضح ..

لم تواته شجاعته على مراجعة أبيه خشية أن يفضيه من
ناحية ، ولانه من ناحية أخرى وجد في أمره بمنع مغادرة البيت

عنوا يبرر به أمام ضميره امتناعه عن الخروج الى الطريق المحتل
بالجنود المتعطين الى دماء أمثاله من الطلبة . انقضت المائدة فاوى
السيد الى حجرته ، وما لبثت الأم وزينب ان اشتغلتا بواجباتهما
اليومية ، ولما كان اليوم مشمساً ، وهو يوم من أيام مارس الأخيرة
التي تكتنز في أعطافها نسائم دافئة من أنفاس الربيع فقد سعد
الأخوة الثلاثة الى السطح وجلسوا تحت عرش اللبلاب والياسمين .
ووجد كمال في خص الدجاج تسلية وإى تسلية فانتقل اليها ،
وراح يبذر للدجاج الحب ويطاردها مسروراً بدجذبتها ويلتقط
ما يعثر عليه من البيض في حين راح الأخوان يتحدثان بالأنباء المثيرة
التي تناقلها اللسان عن الثورة المستعرة في جنبات الوادى من
أقصى شماله الى أقصى جنوبه . تكلم فهمى عما يعلم من قطع
السكك الحديد والتلفونات والتليفونات وقيام المظاهرات في شتى
المدريات والمساكن التي تنشب بين الانجليز والثوار والمذابح
والشهداء والجنازات الوطنية التي تشيع فيها النعوش بالعشرات
والعاصمة المضربة طلبتها وعمالها ومحاموها والتي لم يعد بها من
وسيلة للمواصلات الا العربات الكارو ، ثم قال الشاب بحرارة :
هذه الثورة حقاً .. فليقتلوا ما شاءت لهم وحشيتهم
فلن يزيدنا الموت الإحياة ..

فقال ياسين وهو يهز رأسه عجباً :

— ما كنت أتصور أن في شعبنا هذه الروح المكافحة ..

فقال فهمى وكأنه نسي كيف أشقى على اليأس قبيل شبوب

الثورة حتى فاجأته بزلزالها وبهرته بنورها :

— بل أنه ممثلى بروح الكفاح الخالد التي تشبعل في جسده

المتد من أسوان الى البحر الأبيض ، استشارها الانجليز حتى

ثارت ولن تخمد الى الأبد ..

فقال ياسين وعلى شفثيه ابتسامة :

— حتى النساء خرجن في مظاهرة ..

فتمثل فهمى بأبيات من قصيدة حافظ في مظاهرة السيدات :
خرج القوائى يحتجب من ورحت أقرب جمعهنه
فاذا بهن تخذن من سود الثياب شعارهنه
فطلعن مثل كواكب يسطعن في وسط الدجنه
واخذن يجترن الطريق ودار سعد قصدهنه
فاهتزت نفس ياسين وقال ضاحكاً :

— ما كان أجدرنى أنا بحفظها ..

وفكر فهمى في خاطر طارئ ثم تسأل بحزن :

— ترى أترامت أنباء ثورتنا الى سعد في منفاه ..؟ أعلم

الشيخ الكبير بأن تضحيته لم تذهب هباء أم تراه غارقاً في
يأس المنفى ..؟

- ٥٧ -

لشوا على السطح حتى الضحى ، وراق للأخوين أن يراقبا
المفسكر البريطانى الصغير ، فرايا نفراً من الجنود قد أقاموا مطبخاً
وراحوا يعدون الغداء ، وتفرق كثيرون ما بين مدخل درب قرمز
والنحاسين وبين القصرين في خلاء من المارة ، وبين حين وآخر كان
يتجمع كثيرون في طابور على نداء النفير ثم يأخذون بتنادقهم
ويركبون أحد اللوريات الذى ينطلق بهم صوب بيت القاضى مما
دل على قيام مظاهرات في الأحياء القريبة ، وكان فهمى يراقب
تجمعهم وذهابهم بقلب خافق وخيال متقد ..

وأخيراً غادر الأخوان السطح تاركين كمال يلهو كيف شاء
وحده ، وأويا الى حجرة المذاكرة ، فأقبل فهمى على كتبه يراجع
ما فاتته في الأيام المنقضية ، وتناول ياسين ديوان الحماسة و «غادة

كزبللاء. وخرج الى الصالة يستعين بهما على قتل الوقت الذي
 توافر وراء جدران سجنه كما يتوافر الماء وراء السدود ، كانت
 الروايات - بوليسية وغيرها - اشد استحوذا على قلبه من الشعر ،
 ولكنه أحب الشعر كذلك ، وعرفه من ليسر سبله ، يفهم ما يسهل
 فهمه ، ويقنع من الصعب بموسيقاه ، فظل ان يلجأ الى الهامش
 المشحون بالشروح ، وربما حفظ البيت وترنم به وهو لا يفقه من
 معناه الا أقله ، أو يتصور له معنى لا يمت الى حقيقته بسبب ، أو
 لا يترك له معنى على الإطلاق ، ولكن رغم هذا كله رسب في عقله
 من محوره والفاظه ما بعد ثروة تليه بها مثله حتى دأب على
 استغلالها لمناسبة ولغير مناسبة وهو الأكثر ، فاذا عرض له يوما
 ان يكتب رسالة تهنئتها لهما تهيو الكتاب واقحم عليها من الالفاظ
 الرنانة ما يعلق بحافظته ، وضمنها ما فتح الله به عليه من ماثور
 الشعر حتى عرف بين معارفه بالبلاغة ، لا لانه كان بليغا حقا ، ولكن
 لتعودهم عن مجاراته وارتباعهم حبال غرب محفوظاته . قبل اليوم
 لم يعهد مثل هذا الفراغ الطويل الذي قضى عليه بأن يكابده ساعة
 فساعة محروما من أسباب الحركة والتسلية ، وربما كانت القراءة
 خليقة بأن تسعفه على تحمله لو كان به صبر عليها ، ولكنه اعتاد
 ان يلم بها فيدفع ، وفي الاوقات القصيرة التي تسبق خروجه الى
 سهرته اليومية دون غيرها ، وحتى في تلك الاوقات لم يكن يجد
 يانسا في ان يقطع القراءة بالمشاركة في احاديث مجلس القهوة ، أو
 يطالع قليلا ثم يدعو كمال ليروي له ما قرأ مستلذا باقبال الفلام
 على الاضواء بذلك الشغف الماثور عن الاطفال والعلماء . اذن لم
 يكن الشعر ولا الرواية بالتى تستطيع ان تؤنس وحشته يوما كيومه
 هذا ، وقد قرأ ابيانا من الشعر وفضولا من غادة كزبللاء ، ومضى
 يتجرع المثل قطرة قطرة ، لاعنا الانجليز من اعماق قلبه ، ضجرا
 برما ضيق الصدر ، حتى حان وقت الغداء ، جمعتهم المائدة مرة
 أخرى ، وقدمت لهم الام حساء ودجاجات محمرة وارزا واتمت

اطباقها - التي حرمت من الخضر بسبب الحصار المضروب حول
 البيت - بجبن وزيتون ومش ، واحضرت عسلا اسود بدلا من
 الحلوى ، ولكن لم يأكل بشهوة الا كمال أما السيد والاخوان فلم
 يسعدوا بقابلية قوية للطعام لقبوعهم يومهم بلا عمل ولا حركة ،
 بيد ان الطعام هيا لهم فرصة للهروب من الفراغ بالنوم وعلى
 الخصوص السيد ياسين اللذين كان يسعهما الظفر بالنوم وقتما
 شاءا وكيفما احبا . وغادر ياسين فراشه قبيل المغرب فنزل الى
 الدور التحتاني لشهود جلسة القهوة ولكنها كانت جلسة قصيرة
 اذ ان الام لم يسعها ان تترك السيد وحده طويلا فودعتهم وطلعت
 اليه ، ولبت ياسين وزينب وفهمى وكمال يتسامرون في جو يغلب
 عليه الفتور حتى استاذن فهمى ومضى الى حجرة المذاكرة ثم دعا
 اليه كمال فغودر الزوجان منفردين . « ما عسى ان اصنع من الآن
 الى ما بعد منتصف الليل ؟ » .. ازعجه هذا السؤال الذي الح
 عليه طويلا ، وبدا له اليوم كثيبا ذميما منتزعا بالقوة الفشوم من
 مجرى الزمان الذي يتدفق في الخارج حافلا بالمسرات كما ينتزع
 الفصن من الشجرة فيستحيل خطبا . لولا الحصار العسكري لكان
 الآن بمجلسه المحبوب بقهوة احد عبده ، يحسو الشاي الاخضر ،
 ويسامر معارفه من روادها ويمتع النفس بجوها العتيق الذي
 يستهوى شعوره بقدمه ويسائر خياله بحجرانه المطورة تحت
 انقاض التاريخ . قهوة احد عبده احب المقاهى الى قلبه ، ولولا
 الغرض - والغرض مرض كما يقولون - ما اختار غيرها ، ولكنه
 الغرض الذي جذب به فيما مضى الى الكلوب المصرى لقربه من مقام
 بائعه الدوم وهو نفسه الذي اغراه بالانتقال بعد ذلك الى قهوة
 سى على بالغورية لوقوعها امام بيت زنوبة العوادة ، فهو يبذل
 المقاهى تبعا لغرضه ، بل انه يبذل من تعرض له صداقتهم فيها
 تبعا له ، ففئما وراء الغرض لا مقهى ولا اصدقاء له ، ابن الكلوب
 المصرى واصحابه ؟ .. ابن قهوة سى على ومعارفها ؟ .. من حياته

ذهبوا ، ولعله او صادفه احدهم تجاهله ، تهرب منه ، والدور
الآن على قهوة احد عبيده وسارها ، والله وحده يعلم ما يخبئه
الغد من مقاهى واصدقاء . على أنه لم يكن يمكث بقهوة احد عبده
طويلا فسرعان ما يسترق الخطى الى بقالة كوستاكى او بالأحرى
الى حانته السرية ليحظى بالقارورة الحمراء او «العادة» كما يحلو
له ان يدعوه . . اين منه «العادة» هذا المساء الكالنج ؟! وسرت
في بدنه لتذكر حانة كوستاكى رعدة شهوة ، ثم مالبث ان لاحت
في عينيه نظرة سأم عميقة وتملل تملل السجين . بدا البقاء في
البيت حسرة طويلة زاد من حدة المأما طاف بمخيلته من صور
الهناء وذكرىات النشوة المقترنة بالحانة والقارورة ، فعدبته الاحلام
وضاعفت من وجده ، وقد جرت حنينه الملهوف على موسيقى
الخمير الباطنية ولعبها بالراس ذلك اللعب الملدغ الحار السار
السائل بهجة وافراحا ، فلم يدرك قبل ذاك المساء انه اعجز من ان
يسبر على هجر الشراب يوما واحدا ولم يحزن لما بدا له من ضعفه
وعبوديته ، ولا لام نفسه على اسرافها الذي جر عليه التعاسة لاهون
الاسباب ، كان ابعد ما يكون عن لوم نفسه او السخط عليها ، ولم
يذكر من بواصت اليه الا الحصار الذى شده الانجليز حول البيت ،
وانه يحترق ظما ومورد النشوات غير بعيد . ثم لاحت منه التفاتة
انى زينب فوجدها تتفرس في وجهه بنظرة كأنما تقول له حانقة
«مالك شاردا ، مالك واجما ، اليس لوجودى اى اثر في التسمية
عنك !» . . ادرك معناها كله في لحظة خاطفة التقت فيها عيناها ،
ولكنه لم يستجب لعتابها الحائق الحزين ، وبالعكس لعله أحقنه واثار
ثأثرته ، أجل لم يحقد على شىء كما حقد على اضطرابه للبقاء معها
طوال الليل ، بلا رغبة ، ولا مسرة ، وحتى محروما من النشوة التى
يستعين بها على تحمل حياته الزوجية . جعل يسترق اليها النظر
ويتساءل في غرابة اليست هي هي !.. اليست هي التى خلبت
ابى ليلة الزفاف ؟!.. اليست هي التى شغفتنى هيما ليالى

واسابيع ؟! . فمالها لا تحرك في ساكننا !.. اى شىء طرا عليها !.
مالى أتمللم برما وسأما فلا أجد من حسننها وأدبها ما يغرينى عن
سكرة تأجلت ! ومال - كما فعل مرات من قبل - الى رميها
بالنقص فيما برعت فيه زنوبة ومثيلاتها من ضروب الخدمة
والشطارة ، والحق أن زينب كانت أولى تجاربه في المعاشرة الدائمة ،
فلم تطل به معاشرة العوادة ولا بالعمة الدوم ، ولم يكن تعلقه
باحداهما يمانعه من التنقل اذا سنجت دواعيه وقد ذكر لحظات
حيرته هذه وافكاره عنها بعد كروار اعرام طوال فعرى من نفسه
ومن الحياة عامة ما لم يجز له في خاطر . وانتبه على تساؤلها :
- لعلك غير مرتاح الى البقاء في البيت ؟..

لم يكن على حال يطيق معها حتى العتاب فوقع تساؤلها
التهمى من نفسه موقع الضربة الطائشة من الدم فاندفع
قائلا بصراحة مؤلمة واصرار :

- بلى ..

ومع أنها تحامت التقار من بادى الأمر الا ان لهجته آذتها
اشد اذاء فقالت بحدة :

- لا ذنب له في هذا ، اليس عجيبا الا تطبيق التخلف عن
سهرتك ولو ليلة واحدة ..
فقال متسخطا :

- دلينى على شىء واحد يجعل البيت محتملا ..

فقامت غاضبة وهى تقول في ثمرات متذرة بالبكاء :

- سأخلى لك المكان لعله يطيب لك !..

وولت كالهاربة وهو يتبعها بصرا جامدا ، ثم قال لنفسه

« يا لها من حمقاء لا تدري أن القدرة الالهية وحدها هي التى

تبقى عليها في بيتى » . ومع ان الشجار نفس عن حنقه قليلا

الا أنه كان بفضل الا يقع حتى لا يضاعف من كآبة فراغه ، ولم

يكن يعجز عن استرضائها لو اراده ولكن عقله الفتور الذى ران

على مشاعره جميعا . غير انه لم يمض دقائق حتى شمله هدوء
نسبى فرن صدى عباراته القاسية التى وجهها اليها في اذنيه فاقر
بقسوتها ، وبأنه لم يكن ثمة ما يدعو اليها ، ودخله شيء ندم ،
لا لعتوره فجأة على ثالة حب لها في زوايا قلبه ولكن لحرصه على
الا يشذ في معاملتها عن حد الادب - ربما اكراما لآبيها أو خوفا
من ابيه ، حتى في فترة الانتقال العصبية التى اخذ على نفسه
فيها اخضاعها لسياسته بالصلابة بالحزم . واعتذر عن اسرافه
بالغضب ، ولم يكن الغضب بالانفعال المستغرب في هذه الأسرة ،
فما يركبهم الحلم الا حين قيام الأب بينهم مستائرا لنفسه من
دونهم بكافة حقوق الغضب .

بيد ان غضبهم كالبرق سريع الاشتعال سريع الانطفاء ثم
يردون الى الوان من الأسف والندم . الى هذا كله خص ياسين
بالمكابرة فلم يدفعه أسفه الى مصلحة زوجه بل قال لنفسه
« هى التى استثارت غضبى .. ألم يكن بوسعها أن تخاطبني
بلهجة أرق ! » .. انه يجب لها دائما أن تتحلى بالصبر والحلم
والعفو كيما ينطلق على هواه مطمئنا الى خطوطه الخلفية . اشتد
ضيقه بسجنه بعد غضبها وانسحابها فغادر المكان الى السطح .
وجد الجو لطيفا والليل ساجيا والظلمة شاملة الا انها كثيفة تحت
عرش اللباب والياسمين . رقيقة في نصف السطح الآخر المسقوف
بقبة السماء المرصعة بالآلىء النجوم . وراح يقطع السطح ذهابا
وجيئة ما بين السور المطل على بيت مريم ونهاية حديقة اللباب
المشرقة على قلاوون ، مستسلما لخيالات شتى . وفيما هو يسير
الهوينا عند مدخل السقيفة تسلل الى اذنيه حفيف ، أو لعله
همس ، بل أنفاس تتردد بين لحظة وأخرى فحملق في الظلام
متعجبا وهتف متسائلا :

- من هنا ؟

نجاه صوت يعرفه حق المعرفة وهو يقول في نبرات نحاسية :
- انا نور يا سيدى ..

تذكر من توه أن نور جارية زوجه تاوى ليلا الى حجرة
خشبية لصق خص الدجاج تحوى بعض الكراكيب ، نظر صوب
السطح حتى ميز شبحها القائم على بعد خطوة منه كأنه قطعة
من الليل تكاثفت وتجمدت ، ثم تراءى له بياض عينيها الناصع
كدائرتين مرسومتين بالطباشير على صورة حالكة السواد ، واصل
سيره دون أن ينبس وصورتها ترسم في مخيلته بطريقة تلقائية ،
سوداء في الأربعين متينة البنيان ، غليظة الأطراف ، ناهضة
الصدر ، عبله الأرداف ، ذات وجه لامع ، وعينين براقين ،
وشفتين ممثلتين . فيها قوة وخشونة وغرابة ، أو هكذا بدت
له مذ طرات على بيته . وفجأة ، وعلى حين غرة ، تفجرت في
صدره نية الاعتداء كما تنفجر بعض المفرقات بلا سابق انذار ،
واكن قوية ميطرة كأنما تركز فيها هدف حياته ، فملكته كما
ملكته على عتبة باب الفناء حيال أم حنفى ليلة زفاف عائشة ،
انبعثت في وجدانه الحامد حياة فوارة ، وانتشر القلق في دمه حتى
تكهرب ، وحل محل الملل والسأم اهتمام حار ثائر جنونى ، كل
أولئك في لمح البصر . ودب النشاط في مشيته وفكره وخياله ،
وكف وهو لا يدري عن قطع السطح من اوله الى آخره مقصرا
خط ذهابه وايابه الى الثلاثين ثم الى النصف ، وكلما مر بها
اضطرب جسمه برغبة عارمة . جارية سوداء .. ؟ خادم .. ؟
وان كانت ، له سوابق غير منكورة ، ليس حتما أن تقع بغيته على
طراز زينية ، ميزة حسن واحدة تغنى كما أغنت عينا بائعة الدوم
المكحولتان بحارة الوطاويط اللتان شفعتا لتتن ابطيها وتلبد الطين
على ساقها . بل الدمامة نفسها - ما دامت قد ركبت على امرأة -
اعتذار مقبول عند شهوته العمياء كما تطلع اليها عند أم حنفى
أو عند ضاربة رمل عوراء خلا بها وراء بوابة النصر ، نور على آية

حال ذات جسم مكتنز صلب يوحى - لا شك - ملمسه بالفتوة والصراع ، الى انها جارية سوداء تعد بطرافة في الوصال وجدة في التجربة وتحقيق للمأثور عن بذات جنسها من بعث الحرارة والدفع . وبدا الجو من حوله مهيبا آمنا مظلما فاستحرت رغبته وتوثبت اعصابه واسترسل قلبه في دقائق متتابعة فرمى بنظرة ثاقبة موضعها ومال في سيره اليها بحيث « يتفق » له أن يحتك بها على نحو ما حين مروره بها مؤجلا الجهر برغبته حتى يتاح له جس النبض في جو من الحذر أن تكون - كام حنقى - بلهاء فتجأوب أركان البيت بفضيحة جديدة ، تقدم في خطوات وليدة محملا صوبها ، يود بكل ما اضطرم في صدره من شهوة لو تنفذ كلمات عينيه - رغم الظلمة الفاشية - الى نفسها ، حتى اقترب منها فاختلطت دقائق قلبه ، ثم حاذاها فمس كوعه أعلى جسمها ولكنه واصل سيره كأن ما وقع قد وقع عفوا ، غير أن رعدة سرت في بدنه عند لمس الموضع الذى لم يتحقق من هويته في الفيبوبة التى تاه فيها عالمه فلم يبق منه عند الافاقة النسبية في نهاية السطح الا مس طرى غزير الحنان وما ند عن صاحبتة من تراجع برىء أيد ما رجحه من عدم ارتياها في امره فاستدار مصمما على إعادة الكرة . أعاد نحوها ثانية ذراعه حتى مس كوعه احدى نديها - لم يخطئه إحساسه هذه المرة - ثم لم يسحبها كما كان ينتظر من شخص يدعى أنه ضل السبيل ، بل تركه يضافح الثدى الأخرى مصافحة رقيقة لا تبالى دفع الريب ، ومضى وهو يقول لنفسه ستدرك غايتى بلا شك ، بل لعلها أدركتها فند عنها ما يوحى بأنها أرادت أن تنتحى جانبا ولكنها أبطأت ، أو بوغتت فذهلت ، على أى حال لم تتقننى باليد ، ولم تحرك ساكنا . فلن تصرخ فجأة كما فعلت بنت المركوب ، لنجرب مرة ثالثة . عاد هذه المرة متعجلا جزعا ، فتشاقل حيالها ، ثم مد كوعه الى الصدر الناهض كقربة صغيرة منتفخة ، ثم حرك ذراعه حركة ناطقة

بالتردد والريبة معا ، وهم بمواصلة السير مدفوعا برغبة في الفرار لولا أن وجد منها استسلاما أو بلادة أغرقت ثماله وعيه في تيار من الجنون فتوقف متسائلا بصوت خرج من بخار الشهوة منصهرا متهدجا :

- أهذه أنت يا نور ؟!

فقال الجارية وهى تتقهقر وهو يتبعها كيلا تفلت منه حتى التصق ظهرها بالحائط وأوشك هو أن يلتصق بها :

- نعم يا سيدى ..

أراد أن يقول أى كلام يعن له حتى يتمكن من الجهر بما يضطرب في أعماقه كاللاكم الذى يلوح بقيضته في الهواء متحينا الفرصة ليضرب ضربته القاضية فسألها وانفاسه تترامى على جبينها :

- لم لم تذهبي الى حجرتك ؟!

فقال الجارية التى تعثرت في نطاق حصاره :

- كنت أشم الهواء قليلا ..

وكانما غلب النهم تردده فمد راحته الى خاصرتها ثم جذبها برفق الى صدره وهى تبدى ممانعة تحول بينه وبين ما يريد ، ثم همس في أذنها وهو يلصق خده بخدها :

- هلمى الى الحجرة ..

فتمتمت في ارتباك :

- عيب يا سيدى ..

رنت نبرات النحاسية في الصمت رنينا أزعجه ، لم تكن تعمدت أن ترفع صوتها ولكنها - فيما بدا - لا يتأتى لها الهمس أو أن من طبع همسها الرنين ولو في انخفاض درجاته ، على أنه سرعان ما زائله الانزعاج لتوقد شهوته من ناحية ولخلو لهجتها من الاحتجاج الذى يستوحيه مدلول عبارتها ، فجذبها بيده وهو يغمغم :

— تعالى يا حلوة ..

فسلست ليد ، ربما عن رضى وربما عن طاعة ، وهو يغمر
خدها وصفحة عنقها بقبلاته مترنحا من شدة الانفعال ، وفى
نشوة السرور جعل يقول :

— ماذا غيبك عنى طول هذه الأشهر !

فأجابته بلهجتها العادية الخالية من أى احتجاج :

— عيب يا سيدى ..

فقال وهو يبتسم :

— ما أرق ممانعتك ، زيدنى منها ..

ولكنها أبدت شيئا من المقاومة عند مدخل الحجرة قائلة :

— عيب ياسيدى .. (ثم كالمحذرة) .. الحجرة ملأى بالبق ..

فدفعها وهو يهمس فى قفاها :

— أنام على المقارب من أجلك يا نور ..

جارية ، هكذا بدت بأدق ما تحمل هذه الكلمة من معان ،
وقفت مستسلمة بين يديه فى الظلام فوضع شفتيه على شفتيها
وقبلها بحرقة وتشوق وهى ساكنة مستسلمة كأنها تشاهد
منظرا لا دور لها فيه حتى قال لها بانفعال « قبلينى » ثم أعاد
لصق شفتيه بشفتيها وقبل فقبلته ! ثم طلب اليها أن تجلس
فرددت قولها « عيب يا سيدى » الذى بدا مضحكا من ابتذاله
على وتيرة واحدة فأجلسها بنفسه فاستجابت بلا ممانعة ، وما
لبث أن وجد لذة جديدة فى تردها بين السلبية والاذعان فجد
فى طلب المزيد منه وتتابعت الممانعة اللفظية والاذعان الفعلى ففسى
الزمن . ثم خيل إليه أن الظلام من حوله يتحرك أو أن مخلوقات
غريبة فى طياته تتراقص ، ربما الجهد أصابه من طول ما لبث أن
كان طال لبثه فانه على وجه اليقين لا يدري كم لبث ، أو لعلها
التيارات المتوقدة المتلاطمة فى رأسه تولد من ارتطامها فى بصره
أنوار وهمية ، ولكن مهلا ، أن جدران الحجرة تتماوج . ناضحة

بضوء خافت ذابت فيه الظلمة الداجنة ذوبانا يهتك الأسرار ،
ورفع رأسه محمقا فرأى نورا خافتا يتسلل من شقوق الجدار
الخشبي مقتحما عليه خلوته ، ثم ارتفع صوت زوجه فى الخارج
وهى تنادى الجارية قائلة :

— نمت يا نور ؟ .. نور .. ألم ترى سى ياسين ؟

فانتفض قلبه فزعا ووثب قائما واندفع على عجل ولهفة
يتخطف ثيابه ويرتديها وهو يتفحص الحجرة ببصر زائف لعله
يجد مخبأ بين كراكيها ، ولكن نظرة واحدة آيسته من الاختفاء
على حين صك أذنيه وقع شبشب يقترب فلم تنمالك الجارية
من أن تقول بصوت باك :

— أنت السبب يا سيدى ، ماذا أفعل الآن .. ؟

فلكرها فى كنفها بقسوة حتى أمسكت ، وحقق فى الباب بفزع
ويأس وهو يتقهقر — بدافع لا شعورى — الى الركن البعيد عن
المدخل حتى التصق بالجدار ، وتجمد فى موقفه يترقب . تتابع
النداء ولا مجيب ، ثم انفتح الباب ولاحت ذراع زينب يتقدمها
مصباح وهى تهتف :

— نور .. نور ..

فلم يسع الجارية الا أن تخرج من صمتها مغمضة بصوت
شاحب حزين :

— نعم يا ستى ..

فقالت زينب بصوت ينم عن الحنق والتعنيف :

— ما أسرع أن تنامى يا شيخة ! .. ألم ترى سى ياسين ؟ ..

سيدى الكبير أرسل فى طلبه فبحثت عنه فى الدور التحتانى
والفناء وها انا لا أجده فوق السطح ، هل رأيته ؟ ..

وما أنمت كلامها حتى كان رأسها قد برز داخل الحجرة وهو
يطل على الجارية المرتبكة فى جلستها باستغراب ، ثم بحركة
غريزية التفتت الى يمينها فوقع بصرها على زوجها الملتصق

بالخائط بجسم ضخم كأنما ترهل وتخاذل من الخزي والهوان ،
التقت عيناها لحظة قبل أن يغض بصره ، ومرت لحظة أخرى في
صمت قاتل ، ثم نددت عن الفتاة صرخة كالعواء وتراجعت وهى
تهتف ضاربة صدرها بيسراها :

— يا فضيحتك السوداء .. أنت !.. أنت !

وجعلت ترتجف كما بدأ من ارتجاف الصباح بيدها وارتعاش
ضوئه المنعكس على الجدار المواجه للباب ثم وات هاربة وعويلها
يمزق الصمت . قال ياسين لنفسه وهو يزدرد ريقه « انفضحت
وما كان كان » ولبت بموقفه ذاهلا عما حوله حتى انبته الى نفسه
فغادر الحجرة الى السطح دون أن يخطر له أن يتجاوزة . لم يدر
ماذا يصنع ولا الى أى مدى تذاع الفضيحة ، اتحصص في شقته
أم تنتقل الى الشقة الأخرى ؟ .. ثم راح يوبخ نفسه على ذهوله
وضعفه اللذين منعاه من أن يلحق بها كي يحصر الفضيحة في أضيق
حدود ، ثم تساءل وهو في أشد حالات الضيق كيف يتلقى هذه
الفضيحة ؟ .. هل يسمفه الحزم هنا أيضا ؟ . ربما لو لم يتسرب
نباها الى أبيه . وسمع حركة آتية من ناحية الحجرة المشؤومة
فالتفت نحوها فرأى شبح الجارية يفادها ويده لفة كبيرة ،
ثم هرولت نحو باب السطح ومقرت منه ، هز كتفيه استهانة ،
وفيما هو يتحسس صدره بيده أدرك أنه نسي أن يرتدى القانلة
فعاد الى الحجرة مسرعا ..

— ٥٨ —

في الصباح الباكر طرق الباب ، وكان الطارق شيخ الحارة ،
فقابل السيد أحمد وأخبره بأنه مكلف من لدن السلطات بإبلاغ
سكان الأحياء المحتلة بأن الإنجليز لن يتعرضوا الا للمتظاهرين

وأن عليه أن يفتح دكانه ، وعلى التلميذ أن يذهب الى مدرسته
والموظف الى وظيفته ، وحذره من حجز التلاميذ أن يظنوا من
المضربين لافتا نظره الى الأوامر المشددة بمنع المظاهرات والاضراب ،
بذلك استرد البيت نشاطه الذى يستقبل به الصباح ، وتنفس
رجاله الصعداء لاطلاق سراحهم بعد حبس الباردة ، واستروحت
النفوس شيئا من الطمأنينة والسلام . قال ياسين لنفسه تعقيا
على زورة شيخ الحارة : « الأحوال خارج البيت تتحسن أما داخله
فهى طين ووحل » ، أجل قضت أكثرية أهل البيت ليلة نكراء
احاطت بها الفضيحة ومزق أوصالها النكد ، زينب ، لم يستطع
الصبر الذى تغلق به صدرها على حزنها وتذمرها أن يصمد
للمنظر المروع الذى راته عيناها في حجرة جاريته فتفجر صدرها
قاذفا بشواظه كل سبيل ، تعمدت تعمدا أن يقرع عويلها آذان
السيد فجاءها مهرولا متسائلا .. وكانت الفضيحة . قصت
عليه كل شيء متشجعة بانفعالها الجنونى الذى لعلها لولاه ما وانتهى
شجاعته على مواجهته بما قصت لما باتت تجد نحوه من تهيب
لم تجد مثله حيال أحد من الناس . انتقمته بذلك لكرامتها
الديحة ، وللصبر الطويل الذى تجرعتة حينما مختارة وحملت
عليه في أكثر الأحيان : « جارية ! خادمة ! في سن أمه ! وفي بيتى !
ماذا عساه يفعل في الخارج إذن ؟ » لم تكن تبكى غيرة ، او لعل
الغيرة توارت الى حين وراء حجب كثيفة من التقرؤ والفضب كما
تتوارى النار وراء سحب الدخان ، وكأنما غدت تؤثر الموت على
أن تبقى معه تحت سقف واحد ولو يوما واحدا بعد ما كان ، أجل
هجرت مخدعها فقضت الليل في حجرة الاستقبال ، يقضى أكثره
تهذى هذيان المحمومين ونائمة اقله نوما ثقيلا مريضا مزعجا .
اصبحت وهى مصممة على هجر البيت . لعل هذا التصميم وحده
الذى وجدت فيه مسكنا لأوجاعها . ماذا بوسع حيها نفسه أن
يفعل ؟ .. لن يستطيع أن يمنع المنكر بعد أن وقع ، ولن يسمعه

مهما يكن جبروته ان ينزل بزوجها العقاب الذى يستحقه حتى يستشفى صدرها ، اقصى ما يراه ان يرجره ، ان يصب عليه غضبه ، وسينصت - الفاسق - خافض الراس كى يواصل فيما بعد سيرته الحبيثة ! .. هيهات . لقد رجأها السيد ان تدع الأمر بين يديه ، ونصحها طويلا بأن تعرض عن زلتة مستوصية بصبر الفضليات من مثيلاتها ، ولكنها لم تعد تحتمل الصبر او العفو . جارية سوداء فوق الأربعين ! .. كلا . يستهجره هذه المرة بلا تردد ، ستغضى الى ايها ببشها كله ، وستبقى في كفه حتى يثوب الى رشده ، فاذا جاءها بعد ذلك نادما ، وغير من سلوكه او فلتذهب هذه الحياة كلها - بخيرها وبشرها - الى الشيطان ، اخطأ ياسين حين ظنها قد طوت صدرها على كربها عقلا وحكمة ، الحق انه غلبها الجزع من بادى الأمر فبثت همها الى امها ، ولكن الام اثبتت انها امرأة حكيمة فلم تدع الشكوى تتسرب الى الأب ، واوصت ابنتها بالصبر قائلة ان جميع الرجال يسهرون - كوالدها مثلا - وانهم ايضا يشربون ، وانه حسبها ان بيتها عامر بالخير ، وان زوجها يعود اليها مهما سهر ومهما سكر . اصغت الفتاة الى النصيحة على مضض ، وجاهدت نفسها ايما اجهاد متجمللة بالصبر ولم تال ان تحمل نفسها على الرضى بالواقع والقناعة من احلامها الغريضة بما سمحت به الحقيقة خصوصا وقد دب الجنين في بطنها مبشرا بالامومة الرموقة . ربما كمن التذمر في اعماقها بيد انها راضت نفسها على التسليم متأسية بأمر تارة وطورا بامرأة سيدها الكبير ، ثم لم يخل الحال من ريبة تختلج في صدرها بين حين وآخر عما يمكن ان يفعل زوجها في سهراته الخمرية ، وحدث ان انضت الى امها بمخاوفها ، بل لم تخف عنها ما لحق بالرجل من فتور في عواطفه . ولكن الام الحكيمة افهمتها ان ذاك الفتور ليس حتما نتيجة لما يقع في خاطرها ، انه « شئ طبيعى » وان الرجال جميعا لديه سواء ، وانها سوف تقتنع به بنفسها كلما تقدمت بها تجارب العمر ..

على انه حتى لو صدقت وساوسها فماذا تراها فاعلة ؟ .. هل ترضى بهجر بيتها لان زوجها يلم بغيرها من النساء ؟ .. كلا ، والى مرة كلا ، لو تخلت كل امرأة عن مكانها لسبب كهذا لافقرت البيوت من الفضليات ، والرجل قد يطمح طرفه الى امرأة او اخرى ولكنه يعود دائما الى بيته ما دامت زوجته خليقة بأن تبقى منده المرجع الاخير والمأوى الثابت ، والعاقبة للصابرات . ومضت تذكرها بالمطلقات بلا ذنب واللائى يشركهن في ازواجهن اخريات ، اليس طيش زوجها - ان صح - خطبا اخف من سلوكك اولئك ؟! . ثم انه شاب لم يجاوز الثانية والعشرين من عمره ، ومصره ان يعقل فيثوب الى بيته ويشغل بذريته عن الدنيا جميعا ، ومعنى هذا انه ينبغي لها الصبر حتى لو صدقت وساوسها فما بالها والوساوس لم تصدق ؟! رددت المرأة هذا ، وغيره مما يجرى مجراه ، حتى سلس جماح الفتاة وآمنت بالصبر وراضت نفسها عليه . بيد ان واقعة السطح قضت على كل ما وطنت النفس عليه بضربة قاضية فانهار البنيان جميعا كان لم يكن ..

ومع ان السيد لم يقطن الى هذه الحقيقة المؤسفة فظن الفتاة قد امتثلت لنصيحته ، الا ان غضبه كانت اشد من ان تمه بسلام ، وقد احسنت الجارية صنعا بقرارها . اما ياسين فلم يبرح السطح ، لبث يفكر متزعجا في العاصفة التى تتربص به ، حتى ترمى الى اذنيه صوت ابيه وهو يناديه بنبرات كفرقة السياط فدق قلبه ، ولكنه لم يجب ولم يستجب وتسمر يائسا في مكانه ، وما يذرى الا والرجل يقتحم عليه السطح ثم يقف مدمدا لحظات وهو يتفحص المكان حتى يعثر على شبحه فيتجه اليه ويقف على كعب منه شابكا ذراعيه على صدره مصوبا نحوه راسا متصليا متعجرفا ، ملتزما الصمت ومطيله كى يطيل له به العذاب والارهاب ، كانما اراد بصمته ان يعبر له عما يجد نحوه مما يعبى الالفاظ حمله ، او انه اراد ان يرمي به الى ما كان يود ان يؤديه به من مبرح الركل

واللکم فممنعه منه استواؤه رجلا وزوجا ، ثم لم يعد يستطيع مع الصمت صبرا فانها له عليه سبا وتعنيفا وهو ينتفض غضبا وهياجا « انت تتحدانى تحت سمعى وبصرى ! .. فلتذهب انت وخزيك الى جهنم .. دنست بيتى يا وغد ، هيهات ان يتطهر هذا البيت ما دمت فيه .. كان لك قبل الزواج عذر واه فای عذر لك الآن ؟! » .. « لو اصاب كلامى حيوانا لادبه ولكنه ينصب على حجر .. ان بيتنا يضمك خلیق بان تستنزل عليه اللعنات » .. نفس عن صدره المستعمر بكلمات كالرصاص المنصهر وباسين بين يديه ساكن صامت خافض الراس كأنه يوشك ان يذوب في الظلام ، حتى اجهد الرجل الزعق فوله ظهره وغادر المكان وهو يلعن ويلعن اباه وامه ، ومضى الى حجرته يفور بالغضب فورا . في ثورة الغضب رأى زلة ياسين جريمة تستحق الابادة ، وفي ثورة الغضب لم يعد يذكر ان ماضيه كله صورة مطولة متكررة من زلة ياسين ، وانه لا يزال دائبا على سلوكه وقد انتصف به العقد الخامس وشب ابنائه فصار منهم الأزواج والزوجات . لا لانه في ثورة الغضب ينسى حقا ، ولكن لانه يحل لنفسه ما لا يحل لاحد من ذويه ، له ان يفعل ما يشاء وعليهم التزام الحدود التى يريد هم على ان يلتزموها فلعل غضبه على ما في ذنب ياسين من «تحد» لارادته و « استهانة » بوجوده و «تشويه» للصورة التى يحب ان يتصوره بها ابتداء ، كان اضعاف غضبه على الذنب نفسه ، على ان غضبه - كما هى عادته - لم يستمر طويلا ، ما لبث ان خبا لظاه وخمد توقده فعاوده الهدوء رويدا وان شاب مظهره - مظهره فقط - الوجوم والاسى ، عند ذاك امكنه ان ينظر الى «جريمة» ياسين من اكثر من زاوية واحدة ، امكنه ان يتأملها بعقل مستقر فانجلي له قدامها عن مواضع شتى ساخرة تسلى بها عن وحدته الاضطرابية . اول ما انتدر ذهنه ان يلتمس للمذنب عذرا ، لا حبا في التسامح فانه يكره التسامح في بيته ، ولكن ليتخذ من ذاك العذر المرجى « مبررا » لخروجه عن

ارادته ، كأنما يقول لنفسه « ان ابنى لم يشق عصا الطاعة .. هيهات ، ولكن عذره كيت وكيت » .. ولكن هل يلتمس له العذر عند شبابه باعتباره عهد طيش ونرق ؟! .. كلا .. ان الشباب عذر عن الذنب وليس عذرا عن خروجه على ارادته والا لجاز الفهمى بل لكمال ان يتماديا في استهانة بتعاليمه ، ليلتمس العذر اذن عند رجولته ، هذه الرجولة التى تحل له ان يستقل بنفسه عن ارادته ولو شيئا ما وتعفيه هو - السيد - من تحمل مسئولية فعالة ، كأنما يقول لنفسه : « انه لم يخرج على ارادتي ، هيهات ؛ ولكنه بلغ السن التى لا يعد فيها ذنبه خروجا على ارادتي » .. وغنى عن القول انه يابى ان يعترف امامه بهذا الحق ولن يعفو عنه ولو تجاسر على المطالبة به ، بل انه لا يعترف له به فيما بينه وبين نفسه الا في حال الوقوع في معصية تستوجب مبررا للخروج على ارادته ، ولم ينس حتى في تلك الحال ان يذكر نفسه - التماسا للمزيد من الطمأنينة - بأنه ادبه تأديبا غليظا نادرا قل من يستبيحه من الآباء فقول بخضوع كامل قليل من يتحمله من الأبناء .. وعرج خاطره الى زينب متفكرا ولكنه لم يجد نحوها اى عطف ، لقد واساها اكراما لابنها العزيز الحبيب ، ولكنه لا يظن ان الفتاة جديرة بأبيها حقا . ما كان يخلق بزوجة كريمة ان تفضح زوجها - مهما تكن الظروف - على النحو الذى فضحت به ياسين ! .. لشد ما اعولت ! .. لشد ما صرخت ! .. ماذا كان يصنع هو - السيد - لو ان امينة فجأت يوم ما بمثل هذا التصرف ؟! .. ولكن اين هى من امينة ؟! .. ثم كيف قصت عليه ما رات دون خياء ! .. اف ! اف ! لو لم تكن هذه الفتاة كريمة محمد عفت لحق لياسين ان يؤدبها بل لما رضى هو ان تمر هذه الواقعة دون عقاب زاجر ، لقد اخطأ ياسين ولكنها اخطأت خطأ اكبر . ثم عاد الى ياسين سريعا فراح يفكر - بباطن مبتسم - في الطبيعة الواحدة التى تجمع بينهما ، تلك الطبيعة الموروثة عن الجد بلا ريب ، ومن

يدري لعلها تضطرم الآن في صدر فهمي تحت قناع التهذيب والاستقامة ، بل الا يذكر كيف عاد يوما الى البيت على غير انتظار فترامي الى سمعه صوت كمال وهو يفنى « يا طير يا للى على الشجر » ؟! تأخر لحظتك ذلك وراء الباب - لا ليتظاهر بأنه وصل بعد انتهاء الغناء فحسب - ولكن ليتابع الصوت متذوقا معدنه سابرا طول نفسه ، حتى اذا ما ختم الغلام النغمة صفق الباب بقوة وهو يسعل ومضى الى الداخل طاويا صدره على ابتهاج لم يظن اليه احد ، كم يلذه ان يرى نفسه مترعرة من جديد في حياة ابنائه على الأقل في ساعات الهدوء والصفاء ، ولكن رويدا .. ان لياسين طبيعة خاصة به لا يشركه هو فيها ، او انه لاتجمع بينهما طبيعة واحدة اذا روعى المعنى الدقيق لهذه الكلمة ، ياسين حيوان اعمى .. ينقض مرة على ام حنفي ويضبط اخرى مع نور ، يتمرغ في التراب دون مبالاة . وما هكذا هو ! اجل انه يدرك مقدار الضيق الذى لم يياسين لاضطراره الى قضاء الليلة في شبه سجن ، يدرك لانه كابده هو ايضا كئيبا محزونا كمن فقد عزيزا . ولكن هبه كان يتنزه في بستان السطح - كما فعل الفتى - فصادف جارية - ولنفترض انها تكون ملبية لذوقه - اكان يقدم على المغامرة ؟ .. كلا . مؤكدا كلا ، ولكن اى وازع كان يشكمه ؟ .. لعله المكان ؟ الاسرة ! ولعله العمر الرشيد . آه ، لقد تضايق عند ورود الوازع الاخير على ذهنه ، وخيل اليه انه يغبط ياسين على ريق شبابه وجنون زلته معا ! .. مهما يكن من امر فالطبعيتان مختلفتان ، لم يكن السيد - كابنه - مغرما بالمرأة بلا قيد ولا شرط ، امتازت شهوته دائما بالرفاهية وحداها الانتخاب الرفيع ، بل اثرت في ميزاتها مييزات اجتماعية ضمت الى الميزات الطبيعية المألوفة . كان مغرما بالجمال الانثوى في لحمه وتبخره وناقته ، فلم تخل جليلة او زبيدة او مريم وعشرات غيرهن من ميزة او اكثر من هذه الميزات ، فضلا عن هذا كله فلم يكن مزاجه ليصفو ويطيب الا

بالمنظر البهيج وبالمجلس الانيس وما يتبعهما من شراب وسمر وغناء ، فلا يكاد يمضى طويل وقت على عشيقه جديدة حتى تفطن الى هواه فتتهيه له ما تهفو اليه نفسه من جو عذب يعبق فيه الورد والبخور والمسك . وكما كان يعشق الجمال مجردا كان يعشقه كذلك في حالاته الاجتماعية اللاذعة . تجذبه المكانة المرموقة والصيت البعيد ، ولذ له ان ينوه خاصته بعشقه ومعشوقاته الا فيما ندر من احوال توجب التستر والكتمان كحال ام مريم ، على ان هذا الحب « الاجتماعى » لم يكن ليفرض عليه تضحية بالجمال ، فالجمال والصيت - في هذا المجال - يسيران جنبا لجنب كالشئ وظله ، وغالبا مايكون الجمال اليد الساحرة التى تشق السبيل الى الصيت والمكانة المرموقة ، وقد عشق اشهر عوالم عصره فلم تخيب احداهن نزوعه الى الجمال وولعه بالحسن . هذا ماجعله يذكر نزوات ياسين بازدراء وهو يردد مستنكرا « ام حنفي ! .. نور ! .. يا له من حيوان » انه برىء من هذا الشذوذ بيد انه ليس في حاجة الى ان يتساءل طويلا عن مصدره فانه لم ينس بعد تلك المرأة التى انجبت ياسين فأودعته طبيعتها المولعة بالقذارة ، انه مسئول عن قوة شهوته اما هى فمسئولة عن نوع هذه الشهوة النزاعة الى الخسيس . وقد عاوده في الصباح التفكير « الجدى » في المسألة فكاد يدعو الزوجين اليه كى يصفى ما بينهما - وما بينه وبين كليهما - من حساب ، ولكن ارجأ ذلك الى متسع من الوقت انسب من الصباح ، ولما ساءل فهمي ياسين عما دعاه الى التخلف عن المائدة اجابه مقتضبا « شئ تافه سوف احدثك عنه فيما بعد » وظل فهمي جاهلا سر غضب ابيه على اخيه حتى علم باختفاء الجارية نور فحدث الامر كله . شهد الصباح الأسرة على غير مألوفها فقد غادر ياسين البيت مبكرا ولزمت زينب حجرتها ثم غادر الرجال البيت واجفين متخاشين ان يرفعوا بصرا صوب الجنود والام من وراء خصاص المشربية تدعو الله ان يقيمهم من كل سوء . ولم تشأ امينة ان تقحم

نفسها في «واقعة» السطح فنزلت الى حجرة الفرن وانتظرت بين حين وآخر ان تلحق بها زينب كالعادة . لم تكن تقرأها على غضبتها لكرامتها فعدتها تدليلاً اثار استيائها ، وجعلت تتساءل « كيف تدعى لنفسها من الحقوق ما لم تدعه امرأة قط ؟ .. » لا ريب ان ياسين قد اخطأ فدنس البيت الطاهر ولكنه اخطأ في حقايبه وحرمة لا في حقها هي .. الست ملاكا بالقياس الى هذه الفتاة ؟! .. ولكن لما طال بها الانتظار لم تعد تستطيع تجاهلها واقنعت نفسها بوجوب الذهاب اليها مواسية . فصعدت الى شقتها ونادتها ، ثم دخلت الحجرة فلم تعثر لها على اثر ، ومضت من حجرة الى حجرة وهي تنادى حتى فتشت البيت ركنا ركنا ، ثم ضربت كفا بكف وهي تقول : رباه .. هل ارتضت زينب ان تهجر بيتها ؟! .. »

- ٥٩ -

لم تنج أمينة سحابة النهار من قلق ، فان احتمال تعرض الجنود لاحد من رجالها في ذهابه او ايباه لم يكد يفارق راسها . وكان فهمي اول العائدين فتخففت لدى رؤيته من بعض آثار قلقها ولكنها راته متجهما فسألته :

— ماذا بك يا بني ؟

فهتف فهمي متأففا :

— اكره ان ارى هؤلاء الجنود ..

فقال المرأة باشفاق :

— لا تبد لهم الكراهية ، ان كنت تحبني لا تفعل ..

ولكنه لم يفعل بغير استعطافها ، لم يتجاسر على ان يتحداهم ولو بالنظر وهو يتلمس سبيله تحت رحمتهم ، تحاشى ان ينحرف



بصره الى احدهم ، ومضى الى البيت متسائلا في سخرية عما كانوا يفعلونه لو انهم علموا بأنه راجع من مظاهرة الشبيكت مع جنودهم في شبه معركة ، او انه وزع في مطلع اليوم عشرات المنشورات التي تعرض على قتالهم . جلس يستعرض ملافه في يومه مستحضرا اقله نما وقع واكثره كما كان يتمنى ان يكون . هكذا ان رايه ان يعمل نهارا وان يحلم مساء . تحدوه في الحالين اسمى العواطف وافظعها ، حب قومه من ناحية والرغبة في النقتيل والابادة من ناحية اخرى ، احلام يسكر بها وقتا يطول او يعصر ثم يفيق منها على حيرة لاستحالتها وفتور لسخافة تصوراتها . احلام تنسج لحمتها وسداها من معارك يتقدم صفوفها كجان دارك ، واستيلاء على سلاح العدو ثم الهجوم عليه ، هزيمة الانجليز . خطبة خالدة في ميدان الأوبرا ، اضطرار الانجليز الى اعلان استقلال مصر . عودة سعد من المنفى ظافرا ، لقاء بينه وبين الزعيم وكلمة الزعيم . مريم بين شهود الافتتاح التاريخي ، اجل كانت احلامه تتوج دائما بصورة مريم رغم انزواتها - طوال تلك الايام - في ركن قصي من قلبه الذي شغلته الشواغل كما ينزوى القمر وراء السحب ابان العاصفة . وما يدري الا واهمه تقول له وهي تشد المتديل حول رأسها في ارتباك :

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

- ذهبت زينب الى بيت أبيها غضبانة ..
آه .. كاد ينسى ما ألم بأخيه وأسرته في الصباح ، الآن تأكد اليه ما حدسه حين علم باختفاء الجارية نور ، وتحاشى عيني أمه حياء أن تقرا ما يدور بخلدّه خصوصا وأنه أيقن باطلاعها على جلية الأمر ، ولم يستبعد أن تفطن الى ادراكه له أو في الأقل أن ترجحه ، فلم يدر ما يقول لا سيما أنه لم يعتد في محادثتها أن يبدى خلاف ما يبطن ، ولم يكن أبغض لديه من أن يقوم المكر مقام الصراحة بينهما ، فقتنع بأن يتمم قائلا :

- ربنا يصلح الحال ...

لم تنبس امينة بكلمة كان اختفاء زينب من التفاهة بحيث تكفى جملة اخبارية واخرى دعائية في معالجته ، وما لبث فهمى أن دارى ابتسامه كادت تفصح تحفظه اذ أدرك أن أمه تكابد مثل شعوره وانها تعاني ارتباكاً لعجزها الفطرى عن التمثيل ، لم تكن تحسن الكذب ، وحتى اذا اضطرت اليه احيانا كشفتها طبيعة لا تستقر على بساطتها الاقنعة ، على أن ارتباكهما لم يظل فيما هى الا دقائق حتى رابا ياسين مقبلاً نحوهما . خيل اليهما انه يطالعهما بوجه لا يقدر المتاعب التى تترصد في البيت وان لم يعلم بعد بمدى ما بلغت ، ولم يدهش فهمى لذلك كثيراً لما يعلمه من استهائته بالمتاعب التى تنوء بغيره من الناس ، ولكن الحقيقة أن ياسين غلبه شعور باهر بأنه اجتاز مغامرة ظافرة أنسته الى حين جل متاعبه . كان في طريقه الى باب البيت حين اعترض سبيله جندي كأنما انشقت عنه الارض فارتمدت مفاصله وتوقع شرا لا قبل له به أو في الأقل اهانة جارحة على مرأى من اصحاب الجوانيت والمارة ، ولكنه لم يتردد في الدفاع عن نفسه ، فقال برقة وتودد مخاطبا الجندي كأنما يستأذنه في المرور :

— من فضلك يا سيدى ..

ولكن الجندي طلب عود ثقاب وهو يبتسم — أجل يبتسم — فذهل ياسين لابتسامته حتى استعصى عليه أن يفهم مراده حتى اعاده ، لم يكن يتصور أن جندياً انجليزياً يبتسم على هذا النحو ، أو اذا كان الجنود الانجليز يبتسمون كسائر البشر — أن يبتسم له أحدهم فيما يشبه الأدب ، فاستخفه سرور أربكه حتى لبث جامدا لحظات لا يحرى جواباً ولا يبدى حراكاً ، ثم توثب بكل ما فيه من قوة لاداء هذه الخدمة البسيطة لذلك الجندي العظيم المبتسم ، ولما كان غير مدخن فلا يحمل ثقابه فقد بادر الى الحاج دروبش بائع الفول وابتاع علبة ثقاب وهرع الى الجندي ماداً له يده بها فتناولها الجندي وهو يقول :

— أشكرك ..

لم يكن أفاق من اثر الابتسامة السحرية فجاء الشكر كقدح البيرة الذى يعل به من استوفى طاقته من الوسكى ، بلأه الامتنان والزهو ، تورد وجهه المكتنز وضعت أساريره وكان عبارة « ثاىك يو » نيشان سام تقلده على الملأ ، الا أنها ضمنت له أن يذهب ويجيء أمام المعسكر آمناً ، وما كاد الرجل يبدى أول حركة للذهاب ، حتى قال له متودداً من اعماق فؤاده :

— حظ سعيد يا سيدى ..

ومضى الى البيت كالمرتج من الفرح . اى حظ سعيد ظفر به هو ! .. انجليزى — لا استرالى ولا هندي — وابتسم له وشكره ! . انجليزى اى رجل يتمثل في خياله كأفودج لكمال الجنس البشرى ، ربما أبغضه كما يبغضه المصريون جميعاً ، ولكنه في قرارة نفسه يحترمه ويحله حتى ليخيل اليه كثيراً أنه من طينة غير طينة البشر ، هذا الرجل ابتسم له وشكره ! .. وقد أجابه اجابات صحيحة مقلداً ما وسعته مرونة شذقيه طريقة النطق الانجليزية فنجح نجاحاً باهراً استحق عليه الشكر ... كيف يصدق ما ينسب اليهم من الأعمال الوحشية !! . لماذا نفوا سعد زغلول اذا كانوا على هذا الظرف كله ؟! غير أن حماسه فتر بمجرد أن وقع بصره على الست امينة وفهمى واستطاع أن يقرأ نظرتهم ، وسرعان ما اتصل ما كان انقطع من حين من حبل همومه ، انتبه الى أنه يواجه مرة اخرى المشكلة التى هرب منها مع الصباح الباكر . تساءل وهو يشير باصبعه الى فوق :

— لماذا لا تجلس معكما ؟ .. الا تزال غضبانية ؟

فتبادلت امينة مع فهمى نظرة ثم تمتعت بارتباك :

— ذهبت الى أبيها ..

فرفع حاجبيه دهشة أو انزعاجاً ثم سألها :

— لماذا تركتها تذهب ؟ ..

فقلت أمينة وهي تتنهد :

— تسلفت دون أن يشعر بها أحد ..

شعر بأنه يجب أن يقول قولاً يرضى كرامته أمام أخيه وأمه فقال باستهانة :

— إلى حيث ..

وقرر فهمي أن يقاوم رغبته في اللواذ بالصمت كي يوهم أخاه بأنه لم يطلع على سره وبالتالي أن ينفي شبهة اذاعته هذا السر عن أمه فسأله ببساطة :

— ما الذي دعى إلى هذا التكذ .. ؟!

فحدج ياسين بنظرة متفحصة ثم لوح بيده الغليظة وهو يعط بوزره كأنما يقول له « ليس ثمة ما يدعو إلى التكذ » ثم قال — بنات اليوم لم تعد يهن طاقة على حسن المعاشرة .

ثم ناظرا إلى ست أمينة :

— أين هن ستات الأمس .. ؟!

نكست أمينة رأسها حياء في الظاهر ، وفي الحق لتداري ابتسامة لم تستطع مغالبتها حينما ربط ذهنها بين الصورة التي يتخذها ياسين الآن ، صورة المتأمل الواعظ المجني عليه ، والصورة التي ضبط بها مساء أمس فوق السطح ، على أن انزعاج ياسين كان أعظم بكثير من القدر الذي سمح له الموقف بأن يتظاهر به ، فانه على فداحة الخيبة التي منى بها في حياته الزوجية لم يفكر لحظة في قطع هذه الحياة ، وجد فيها ملاذاً مستقراً ورعاية إلى ما بشرت به من أبوة وشبكة رحب بها أيما ترحيب ، تمنى دائماً أن تبقى وراء ظهره ليعود إليها من شتى جولاته كما يعود الرحالة في نهاية العام إلى وطنه ، ولم يقب عنه ما سيجره عليه ذهاب زوجته من نزاع جديد بينه وبين أبيه ثم بينه وبين السيد عفت ، إلى ما يلبس هذا كله من فضيحة استفوح رائحتها حتى تزكم الأنوف .. بنت الكلب ! .. لشد ما كان مصمماً على أن يستدرجها

إلى الاعتراف بأنها أخطأت خطأ أكبر من خطئه ، بل لعله اقتنع بذلك للدرجة تقرب من اليقين ، فأقسم ليحملنها على الاعتذار وليأخذن نفسه بتأديبها بمختلف الوسائل ، ولكنها ذهبت .. قلبت خططه رأساً على عقب .. وضعت في مأزق غير يسير . بنت الكلب ! .. وانتزع من تيار أفكاره على صوت صراخ يمزق الصمت المحيط بالبيت فالتفت صوب فهمي وأمه فوجدتهما يرهقان السمع باهتمام وقلق ، وتواصل الصراخ فأدركوا بسهولة أنه صادر عن امرأة ، ولكن تساءلت أعينهم عن الناحية التي يترامى منها وعن سببه : أنعى ميت أم عراك أم استغاثة ، وراحت أمينة تستعيد بالله من الشرور جميعاً حتى قال فهمي :

— انه قريب .. لعله في طريق بيتنا ..

ونفض فجأة مقطباً جبينه وهو يتساءل :

— ألا يكون الانجليز قد هاجموا امرأة مارة بالطريق .. ؟

وهرع إلى المشربية والأخراش في أثره ، بيد أن الصراخ انقطع غير تارك وراءه دليلاً على الناحية التي ترامى منها ، فرمى ثلاثتهم بأنظارهم خلال الخصاص يتفحصون الطريق فاستقرت على امرأة ألقت الانظار بوقفها الغريبة وسط الطريق وبمن أحاط بها من المارة وأصحاب الحوانيت ، على أنهم عرفوها لأول وهلة وهتفوا معاً :

— أم حنفي ...

وتساءلت أمينة التي كانت أرسلتها لتعود بكمال من المدرسة :

— مالي لا أرى كمال معها ؟! وماذا يوقفها هكذا كالجماد !

— كمال .. رباه .. أين كمال ؟!

ثم مدفوعة بشعور غريزي ؟!

— هي التي كانت تصرخ .. عرفت الآن صوتها .. أين كمال ؟! أغشوني ...

لم ينس فهمي ولا ياسين بكلمة ، استغرقيهما تفحص الطريق

عامة والمعسكر الانجليزى خاصة حيث راوا انظار المتجمعين
- وفي مقدمتهم أم حنفى - تتجه ، لم يكن ثمة شك لديهما فى ان
أم حنفى هى التى صرخت حتى جمعت الناس حولها ، بل شعرا
بالبداهة بأنها كانت تستغيث لأن ثمة خطرا تهدد كمال ، ثم
تركزت مخاوفها فى الانجليز ، ولكن اى خطر هو ؟ .. واين
كمال ؟ .. ماذا حدث للفلام ؟ .. ان الام لا تكف عن الاستغاثة
بدورها وهما لا يدريان كيف يسكنان خاطرها ، لعلهما فى حاجة
الى من يسكن خاطرها .. اين كمال ؟ .. ان الجنود ما بين
جالس وواقف وماض لطيته ، كل مشغول بشأته كان شيئا لم
يقع وكان أحدا من الناس لم يتجمع . وهتف ياسين بفتة وهو
يلكز فهمى فى كتفه :

- الا ترى هؤلاء الجنود الواقفين على هيئة دائرة تحت
سبيل بين القصرين . ان كمال يقف بينهم . انظر ...
فلم تملك الام أن صرخت قائلة :

- كمال بين الجنود .. ها هو يا ربى .. ربه .. اغيثنى .
أربعة جنود عمالقة وقفوا على هيئة دائرة متشابكى الأذرع ،
وقد مرت عينا فهمى اكثر من مرة دون أن تعثرا على ضالتهما ،
فى هذه المرة لمح كمال واقفا وسط الدائرة كما لاح من فرجة
انشقت عنها ساقا الجندى الذى يوليهم ظهره ، خيل اليه أنهم
سيقتاذفونه بأرجلهم كالكرة حتى يقضوا عليه ، انسأه خوفه على
أخيه نفسه فاستدار قائلا بنبرات مضطربة :

- سأذهب اليه مهما تكن العواقب ..

ولكن يد ياسين قبضت على منكبيه وهو يقول بصوت حازم
« قف » .. ثم خاطب الام بصوت هادىء باسم قائلا :

- لا تخافى .. لو أنهم أرادوا أن يصيبوه بسوء ما ترددوا ..
انظرى اليه الا يبدو منهمكا فى حديث طويل ؟؟ ثم ما هذا الشيء
الأخضر الذى بيده ؟! .. أراهن على أنها قطعة من الشيكولاتة ! ..

هلثى روعك .. أنهم يتسلون به و « متنهدا » شد ما افزعنا
على لا شيء ..

سكن روع ياسين ، وما لبث أن تذكر مغامرته السعيدة مع
الجندى فلم يستبعد أن يوجد له من زملائه نظائر فى لطفه ورقته ،
ثم رأى أن يدعم قوله ويشبته فى فؤاد الام الملتاع فأشار الى
أم حنفى التى لم تزال فى موقفها قائلا :

- الا تريان أن أم حنفى لم تكف عن الصراخ الا حين لم تجد
داعيا له . هاهم الناس ينفضون من حولها تعلوهم الطمأنينة ..
فغمضت أمينة بصوت مرتعش :

- لن يطمئن قلبى حتى يعود الى ..

وتركزت أعينهم فى الفلام ، أو فيما يلوح منه بين آونة وأخرى ،
غير أن الجنود استردوا أذرعهم المتشابكة وضموا سيقانهم المنفرجة
كانما اطمأنوا الى عدول كمال عن التفكير فى الهرب ، فبدأ الفلام
بكمال هيئته ، بدأ باسم يتكلم كما استدلوا عليه من حركة شفثيه
وأشارات يديه التى استعان بها على الإفصاح عن أفكاره فدل
التفاهم بينه وبينهم على أنهم يستطيعون الى حد ما استعمال
اللغة المصرية ، ولكن ماذا يقول لهم أو ماذا يقولون له ؟ .. هذا
ما لم يستطع أحد أن يخمنه ، بيد أنهم ثابوا الى رشدهم ، حتى
الام نفسها استطاعت أخيرا أن تشاهد المنظر العجيب الذى
يمثل تحت ناظرها بدهشة ممزوجة بقلق صامت دون عويل
أو استغاثة ، على حين جعل ياسين يضحك قائلا :

- الظاهر أننا غاليينا فى التشاؤم حينما ظننا أن احتلال
هؤلاء الجنود لحينا سيكون مصدر متاعب لنا لا تنتهى ..

ومع أن فهمى بدأ ممتنا لسلوك الجنود مع كمال ، الا أنه لم
يرتح الى ملاحظة ياسين فقال دون أن تتحول عيناه عن الفلام :

- ربما اختلفت معاملتهم للرجال أو النساء عن معاملتهم
للأطفال .. لا تغل فى تفاؤلك ..

وكاد ياسين يندفع متحدثا عن مغامراته السعيدة ، ولكنه أدرك لسانه في اللحظة المناسبة فأمسك تغاديا من أثارة أخيه ، ثم قال على سبيل الملاطفة والتودد :

— ربنا يخلصنا منهم على خير ..

وتساءلت أمينة في لهفة :

— ألم يئن لهم أن يدعوه مشكورين ؟ ..

ولكن بدا عن دائرة كمال أن ثمة جديدا ينتظر ، فقد تراجع أحد الجنود الأربعة الى خيمة قريبة ثم عاد بعد قليل بكرسى خشبي فوضعه أمام كمال ، وما لبث الفلام أن وثب الى الكرسي فوقف منتصب القامة مشدود الذراعين الى أسفل ، كأنما ينتظمه طابور القسم المخصوص ، وقد انحدر طربوشه الى قذاله — دون شعور منه في الغالب — كاشفا عن مقدم رأسه الكبير البارز .. ما خطبه ؟ .. ماذا وراء هذه الوقفة ؟ .. لم يطل بأحد التساؤل إذ سرعان ما علا صوته الرفيع وهو ينشد :

يا عزيز عيني بدى أروح بلدى

يا عزيز عيني السلطة خدت ولدى

غناها مقطعا مقطعا بصوته اللطيف والجنود يتطلعون اليه فاغرى الأفواه ضناحكى الأسارير تلاحق أكفهم ترديده بالتصفيق ، وكان أحدهم قد تأثر بما أدركه من بعض معانى الأغنية فراح يهتف « أروح بلدى .. أروح بلدى » .. فتشجع كمال بما حظى من سرور سامعيه وأقبل يجود من انشاده ويحسن من ترنمه ويملأ من صوته ، حتى ختمت الأغنية بين التصفيق والاستحسان الذى شاركت فيه الأسرة من وراء الخصاص بقلوب ملؤها السرور والاشفاق .. أجل شاركت الأسرة في الاستحسان بعد أن شاركت — بقلوبها أيضا — في الفناء ، تتلفزه باشفاق وقلق ، دعوا له بالسلامة والاجادة ، خافوا عليه الزلل أو التشاؤم كأنما يغنى بالإنابة عنهم جميعا ، أو كأنما هم الذين يغنون من حنجرتهم ، وكان كرامتهم

— أفرادا ومجموعة — أمسيت متعلقة بنجاح الفناء ، نسيت أمينة في لجة هذا الشعور مخاوفها ، حتى فهمى لم يكن يفكر في إثناء ذلك الا في الفناء وما يرجو له من نجاح ، فلما انتهى بخير تنهدوا من الأعماق وودوا أن يبادر كمال الى العودة قبل أن يطرا طارىء يفسد عليهم مسك هذا الختام . والظاهر أن الحفلة أذنت بانتهاء فقد قفز كمال الى الأرض فسلم على الجنود فردا فردا ورفع يده بحيا ثم انطلق يعدو صوب البيت ، فهرولت الأسرة من المشربية الى الصالة لتكون في استقباله . أقبل عليها لاهثا مورد الوجه مبتل الجبين تنطلق عيناه وأساريره وحركات أعضائه المرسله بلا ائزان أو غاية بالفرح والفوز ، اترع قلبه الصغير سعادة غامرة ما كان يوسعه الا أن يعلن عنها بكل سبيل ويدعو الآخرين الى الاشتراك فيها ، كالقيضان الزاخر يضيق عنه النهر فيغمر الحقول والوديان ، وكانت نظرة واحدة تلقى بروية كافية لأن تريه مغامرته معكوسة على صفحات الوجوه .. ولكن الفرح أعماه فهتف بهم :

— عندى خبر لن تصدقوه ولن تتصوروه ..

فقهقه ياسين متسائلا في سخرية :

— أى خبر يا عزيز عيني ؟!

كشفت هذه الجملة الغشاوة عن عينيها كأنها نور شعشع فجأة في الظلام فرأى الوجوه على ضوئها مقصحة ناطقة ، بيد أن علمه برؤيتهم لمغامرته عوضه عما ضاع من فرصة ادعائهم بحديثه العجيب فأغرق في الضحك وهو يضرب ركبتيه بكفيه ، ثم قال وهو يغالب الضحك :

— أرايتمنى حقا .. ؟!

عند ذاك جاء صوت أم حنفى وهى تقول بشبرات متشكية :

— كان الأفضل أن يروا تعاستى ! .. علام هذا القرح كله

بعد أن سببت مفاصلى ؟ .. حادثة أخرى كهذه والله يرحمنى .

لم تكن خلعت ملاءتها فبدت كركيبة فحم منتفخة ، يملو

وجهما الشحوب والاعياء وتلوح في عينيها نظرة استسلام
غريبة .. فسألتها أمانة :

— ماذا حدث ؟ .. ماذا دعاك الى الصراح ؟ .. لقد لطف الله
بنا فلم نشهد شيئا مفزعا ..

فأسندت أم حنفي ظهرها الى ضلفة الباب وأخذت تقول :
— حدث ما لن أنساه يا ستي .. كنا عائدتين وإذا بشيطان
من هؤلاء الجنود يقفز أمامنا ويشير الى سيدي كمال ليذهب اليه
ففزع سيدي وجرى الى درب قرمز . ولكن جنديا آخر اعترض
سبيله فانحرف الى بين القصرين وهو يصرخ فغاص قلبي من
الخوف وجعلت استغيث بأعلى صوتي وعيناي لا تفارقانه وهو
يجري من جندي الى جندي حتى احاطوا به .. كدت أموت من
شدة الخوف وزاغ بصري فلم أجد أرى شيئا ، وما أدري الا
والناس قد اجتمعوا حولي ولكني لم أكف عن الصراح حتى قال
لي عم حسنين الحلاق : « ربنا يكفيه شر اولاد الحرام .. وحدي
الله .. انهم يلاطفونه .. » آه يا ستي لقد حضرنا سيدنا
الحسين ودفع عنا الشر ...

قال كمال معترضا :

— لم أصرخ أبدا ..

فضربت أم حنفي صدرها بكفها قائلة :

— لقد ثقب صراخك أذني حتى جنتني ..

فقال بصوت منخفض كالمعتذر :

— ظننتهم يريدون قتلي ، ولكن أحدهم جعل يصفر لي
ويربت على كتفي ثم أعطاني (وهنا جس جيبه) شيكولاتة فذهب
عني الخوف ..

زابل أمانة السرور ، لعله كان سرورا زائفا متعجلا ، الحقيقة
التي يجب ألا تغيب عنها هي أن الفزع ركب كمال دقائق ، وأنه
يجب أن تدعو ربها طويلا كي ينجيه من عواقبه ، لم تكن ترى في

الفزع مجرد شعور عابر ، كلا .. انه شعور شاذ تكتنفه هالة
خفية غامضة تأوي اليها المغاريت كما تأوي الحفافيش الى الظلام ،
فاذا احاط بشخص — خصوصا الصغار — مسه بضر سييء
العاقبة ، لذلك فهو يستوجب في نظرها مزيدا من العناية والحماية ،
تلاوة من القرآن كانت أم بخورا أم حجابا ، قالت بحزن :

— أفزعوك ! .. قاتلهم الله ..

وقرأ ياسين ما يدور في خاطرها .. فقال مداعبا :

— الشيكولاتة رقية ناجعة للفزع .. (ومخاطبا كمال) ..

هل دار الحديث بالعربي ؟

رحب كمال بالسؤال لأنه فتح له مرة أخرى ابواب الخيال
والمغامرة ، منتشلا آياه من مضايقات الواقع ، فقال وقد استعادت
أساريره انبساطها :

— كلموني بعربي غريب ! .. ليتك سمعته بنفسك ..

وراح يحاكي طريقتهم في الكلام حتى ضحك الجميع ، حتى
أمه ابتسمت ... فعاد ياسين يسأله وكان يقبضه :

— ماذا قالوا لك ؟

— كلاما كثيرا ! .. ما اسمك أين بيتك ، اناحب الانجليز ؟
فهمني ساخرا :

— وبم أجبهم على هذا السؤال الفريد ؟ !

فرمق أخاه كالمتردد .. ولكن ياسين أجاب عنه قائلا :

— طبعاً قال انه يحبهم .. ماذا كنت تريد أن يقول .. ؟

على أن كمال استطرد يقول متحمسا :

— ولكني قلت لهم أيضا أن يعيدوا سعد باشا .

فلم يتمالك فهمي أن ضحك عاليا .. وسأله :

— حقا ! .. وماذا قالوا لك ؟

فقال كمال مستردا ارتياحه بضحك أخيه :

— أمسك أحدهم بالذني وقال لي « سعد باشا نو .. »

فعاد ياسين يتساءل :

— وماذا قالوا لك أيضا ؟

فقال كمال ببراءة :

— سألونى .. ألا يوجد بنات فى بيتنا .. ؟

فتبودلت نظرة جدية بينهم لأول مرة منذ قدم كمال ، ثم

سأله فهمى باهتمام :

— وماذا قلت لهم ؟

— قلت لهم ان ابلة عائشة وابلة خديجة تزوجتا ، ولكنهم لم

يفهموا كلامى فقلت ليس فى البيت الا نينة ، فسألونى عن معنى

نينة فقلت !

رمى فهمى اخاه ياسين بنظرة كأنما يقول : « أرايت كيف ان

سوء ظنى فى محله ! » .. ثم ساخرا :

— لم يعطوه الشيكولاتة لوجه الله ..

فابتسم ياسين ابتسامة باهتة وغمغم قائلا :

— ليس ثمة ما يدعو الى القلق ..

وأبى أن يترك هذه السحابة تفتى مجلسهم فسأل كمال :

— وكيف دعوك الى الغناء ؟

فقال كمال ضاحكا :

— فى أثناء الحديث انطلق أحدهم يغنى بصوت منخفض ،

فاستأذنتهم فى أن اسمعهم صوتى .. !

فقهقه ياسين قائلا :

— يا لك من فتى جرى ! .. ألم يعاودك الخوف وانت بين

أرجلهم ؟ ...

فقال كمال فى مباهاة :

— أبدا .. (ثم بتأثر) .. ما أجملهم ! .. لم أر أجمل منهم

من قبل . عيون زرق .. وشعر من ذهب .. وبشرة ناصعة

البياض .. كأنهم ابلة عائشة !

وجرى فجأة الى حجرة المذاكرة ورفع رأسه الى صورة
لسعد زغلول ثبتت فى الجدار الى جانب صورة الخديو ومصطفى
كامل ومحمد فريد .. ثم عاد وهو يقول :

— أنهم أجمل من سعد باشا كثيرا ..

فهز فهمى رأسه كالأسف وقال :

— يا لك من خائن .. ! اشتروك بقطعة من الشيكولاتة ..

لست صغيرا ليفقر لك هذا القول ، من مدرستك من يستشهد

كل يوم ، خيبة الله عليك ..

وكانت أم حنفى قد أحضرت الموقد والكنجة والفناجين وعلية

البن .. وأخذت امينة تهىء القهوة للجلسة التقليدية ، عاد كل

شيء الى أصله الا ياسين فقد عاود التفكير فى زوجه الغاضبة ،

على حين انتحى كمال جانبا وأخرج الشيكولاتة من جيبه وراح

ينزع عنها الغلاف المورد اللامع ، بدا أن تعنيف فهمى ضاع فى

الهواء إذ لم يكن فى قلبه وقتذاك الا الرضى والحب ...

- ٦٠ -

تعقدت مشكلة ياسين الزوجية فبلغت درجة من الخطورة لم

يتوقعها أحد . وما يدرى السيد أحمد الا ومحمد عفت قادم عليه

فى الدكان فى اليوم التالى لالتجاء زينب الى بيته . ثم قال قبل

أن يسترد يده التى شد عليها السيد بالسلام :

— يا سيد أحمد .. جئتك برجاء ، يجب أن تطلق زينب

اليوم قبل الفدا ان أمكن ..

بهت السيد ، أجل قد ساء سلوك ياسين أكبر اساءة ، ولكنه

لم يتصور أن يبعث رجلا فاضلا كالسيد محمد عفت الى المطالبة

بالطلاق . لم يتصور ان تدعو هذه « الهفوات » الى الطلاق مطلقا ، بل لم يجر له على بال ان تجيء المطالبة بالطلاق من ناحية الزوجة ابدا ، فخيّل اليه ان الدنيا انقلبت رأسا على عقب ، وأبى ان يصدق أن محدثه جاد في طلبه فقال بلهجة اللطيفة التي طالما استأثرت قلوب اصدقائه :

— ليت الاخوان كانوا معنا ليشهدوا عليك وانت تقذفني بهذه اللهجة القاسية ! .. اصغ الى .. باسم صداقتنا أمنعك من أن تجري للطلاق ذكرا على لسانك ..

ثم تفرس في وجهه ليسبر أثر كلامه فيه ، ولكنه وجده متجهما كالخا ينذر بالشر والتصميم ، فبدا يستشعر الخطورة والتشاؤم .. دعاه الى الجلوس فجلس وما تزداد صورته الا ظلاما ، وانه يعرفه حق المعرفة . عنيد شديد المراس اذا ركب الغضب كفر بالوودة والمجاملة فتمزقت على سنان حديثه اسباب القربى والعطف جميعا ، قال السيد :

— وحد الله .. ولنتحدث في هدوء ..

فقال محمد عفت وكأنه يقبس لهجته من نار الغضب الذي توهج به خداه :

— صداقتنا في جز ، فلندعها جانباً .. ابنك ياسين لا يعاشر ، تحققت من هذا بعد أن عرفت كل شيء ، كم تصبرت المسكينة ! .. جفنت همومها طويلا ، أخفت عني كل شيء ، ثم بثتها جملة حين تصدع صدرها .. يسهر طول الليل ويعود مع الفجر وهو يتلاطم مع الجدران سكرا ، أهانها ولفظها ، ثم ماذا كانت عقيب صبرها الطويل ؟ ! .. أن تضبطه في بيتها مع خادماتها ! (وبصق على الأرض) .. جارية سوداء ! .. بنتى لم تخلق لهذا ، كلا ورب السموات ، أنت أعرف الناس بمنزلتها عندي ، كلا .. ورب السموات ، لا كنت محمد عفت اذا سكنت على هذا ..

قصة معادة ، ولكن ثمة جديدا صدمه حتى زلزله هو قوله ان ياسين « يعود مع الفجر وهو يتلاطم مع الجدران سكرا » ! .. اعرف طريق الحانة أيضا ؟ ! .. متى ؟ .. كيف ؟ ! .. آه ليس في الوقت متسع للتفكير او الانزعاج ، ليخفف انفعاله كله . الساعة تتطلب هدوءا وضبطا للنفس ، يجب أن يملك الموقف ليتفادى استفحال الشر .. قال بنبرات أسيفة :

— ان ما يحزنك يحزننى أضعافا ، ومن سوء الحظ أن سواة من النساء التي حدثتني عنها لم تتصل لى يعلم او تجر لى على بال ، اللهم الا الحادثة الأخيرة وقد أدبته عليها تأديبا لا يستبيحه لنفسه اب غري ، ما عسى أن أصنع ؟ .. لقد أخذته بالتأديب العنيف مذ كان صبيا ، ولكن وراء ارادتنا دنيا وشياطين تهزأ من تصميمنا وتفسد غليننا نوايانا الطيبة ..

قال محمد عفت وهو يتحاشى عيني السيد بالنظر الى المكتب : — لم اجيء لأوجه اليك لوما أو أحملك تقصيرا ، أنت كآب مثال يحتذى ولا يجارى .. ولكن هذا لن يغير من الحقيقة المحزنة ، وهى أن ياسين كان غير ما أردت له أن يكون ، وأنه بحالته الراهنة لا يصلح للحياة الزوجية ..

فقال السيد في عتاب :

— رويدك يا سيد محمد .. !

فقال الرجل مستدركا ولكن مصمما على رايه :

— على أى حال لن يصلح زوجا لابنتى ، سيجد من تقبله على علاته ولكن غيرها ، لم تخلق ابنتى لهذا .. انت أدري الناس بمنزلتها عندى ..

أدنى السيد رأسه من رأس الرجل وقال بصوت منخفض .. وكأنما يدارى ابتسامة :

— ليس ياسين بين الأزواج بنادرة ، فكم منهم من يسكر ويعربد ويعمل البدع !

فقطب محمد عفت لينفى عن نفسه شبهة الاستجابة لهذا الكلام الموجى بالدعابة .. وقال بعفاء :

— ان كنت تشير الى جماعتنا أو الى انا خاصة ، فالحق انى اسكر وأعزىد وأعشق ، ولكنى .. بل نحن جميعا ، لا نوحل فى القاذورات ! .. جارية سوداء ! .. اهذه التى قضى على ابنتى بأن تتخذها ضرة ؟! .. كلا .. كلا ورب السماوات .. لن تكون له ولن يكون لها ..

ادرك السيد أحمد ان محمد عفت — ربما كانته سواء بسواء — مستعد لأن يعفو عن أمور كثيرة ، إلا أن يخطئ ياسين بين كريمته وبين جاريتها السوداء ، انه يعرفه تركيا فى عناد البغل . ثم ورد على ذهنه قول صديقه ابراهيم الفار يوم كاشفه بنيته فى خطبة زينب لابنه ياسين ، فقد قال له ، « أصيلة بنت أصيل ، محمد أخونا وحبيبنا ، ابنته ابنتنا ، ولكن هل فكرت رويدا فى منزلة الفتاة من نفس أبيها .. هل فكرت فى أن محمد عفت لا يتسامح من ذرة غبار اذا مسحت لها ظفرا ؟! » .. لكنه رغم هذا كله تعذر عليه أن يقيس الأمور بغير مقياسه ، وكان يفاخر دائما بأن محمد عفت على قطاعة غضبه اذا غضب ، لم يحتد عليه ولو مرة واحدة طوال معاشرتهما المديدة ! .. قال متسائلا :

— رويدك ، ألا ترى أن مبادئنا واحدة وان اختلفت التفاصيل ؟! .. جارية سوداء أو عالة .. ليست كلتاها امرأة . ١٤٨ .. فانتفخت أوداج محمد عفت وضرب حافة المكتب بقبضته .. وانفجر قائلا :

— أنت لا تعنى ما تقول ! .. الخادمة خادمة والسيدة سيدة ، لماذا لا تعشق الخادماذن ؟! .. لم يشابه ياسين أباه ، انى آسف لكون ابنتى حبلى ، كم أكره أن يكون لى جفيد تجرى فى دمه القدرة .. !

وخزته الجملة الأخيرة فغضب ، ولكنه استطاع أن يطلق قلبه على غضبه بقوة حلمه الذى يحبو به أصدقاءه وأحبابه ، حلم بين الأصدقاء لا يعادله فى قوته الا غضبه بين آله .. ثم قال بهدوء :

— أقترح عليك ان نؤجل الحديث الى وقت آخر ..

فقال محمد عفت محتدا :

— أرجو أن تحقق رجائى الساعة .. !

آه .. لقد بلغ به الامتعاض حدا لم يكن الطلاق نفسه معه بالحل المستكره ولكنه كان يشفق على صداقة العمر من ناحية ، وتعز عليه الهزيمة من ناحية أخرى : ليس هو الرجل الذى يتشفع به الناس ليفض الخصومات وليصل ما انقطع من المودات والريجات ؟! .. فكيف تجل به الهزيمة وهو يدافع عن ابنه فيرضى بحكم الطلاق ؟! .. أين حلمه ؟! .. أين كياسته ؟! .. أين لباقيته ؟! .. لقد أصهرت اليك لاثق أسباب الصداقة بيننا .. فكيف أقبل أن أعرضها للوهن .. ؟

فقال الرجل بانكار :

— صداقتنا فى حرز ! .. لسنا أطفالا ، ولكن كرامتى لا يمكن أن تمس ..

فقال السيد برقة :

— ماذا عسى أن يقول الناس عن زيجة انقطعت ولما تقيم عامها الاول ؟

فقال محمد عفت بعجرفة :

— لن يرجع عاقل العيب الى ابنتى ..

آه .. مرة أخرى ! .. ولكنه تلقاها بنفس الحلم ، بدا وكأن استيائه لعجزه عن التوفيق قد غطى استيائه من تهور الرجل الغاضب فلم يهتم بالرصاص المنطلق عليه اهتمامه بتبرير اخفاقه .. راح يعزى نفسه بأن الطلاق بيده هو وحده ، اذا شاء منحه واذا شاء منعه ، محمد عفت يعلم ذلك حق العلم ، لذلك جاء

يستوهبه أباه باسم الصداقة التي لا شفيح له غيرها ، فإذا قال فلا راد لكلمته وسترجع الفتاة الى ابنه طوعا أو كرها .. ولكن تسمى الصداقة القديمة في خبر كان ، أما إذا قال نعم فسيقع الطلاق ولكن تصان الصداقة ويعترف له بالجميل ، وليس من العسير أن يتدبر بكل أولئك في المستقبل لوصل ما انقطع ، واذن فالطلاق وإن يكن هزيمة إلا أنه هزيمة مؤقتة تتضمن تسامحا ونبلا غير منكورين وقد تنقلب فوزا بعد حين . وما أن اطمأن الى سلامة موقفه ولو بعض الشيء حتى شعر بالرغبة في معاتبته على ما فرط في حقه .. فقال بلهجة ذات معنى :

— لن يكون طلاق إلا بموافقتي .. اليس كذلك ؟ .. بيد أنني لن أنبذ رجاءك ما دمت مصرا عليه ، أكراما لك ، أكراما للصداقة التي لم ترع لها حقا في مخاطبتي ..

فتنهذ محمد عفت .. أما ارتياحا للنهاية المنشودة أو احتجاجا على عتاب صديقه أو للأنين معا ، ثم قال بلهجة قاطعة خلت من حدة الغضب لأول مرة :

— قلت ألف مرة أن صداقتنا في حرز ..! أنك لم تسىء الى قط ، على العكس من ذلك فأنك تكرمني بتحقيق رجائي وإن كرهته ..

فردد السيد قوله محزونا :

— نعم .. وإن كرهته ..

ثار حنقه حالما غاب الرجل عن ناظريه . انفجر الفيظ المكبوت فالتهم نفسه ومحمد عفت وياسين ، ياسين خاصة ، ثم تساءل : ترى هل يمكن أن تبقى الصداقة في حرز حقا فلا يصيبها رشاش الحوادث المتوقعة ؟ .. آه ، لم يكن ليضن بنفيس في سبيل صون حياته عن مثل هذه الهزة القاسية .. لكنه العناد التركي ، لكنه الشيطان ، بل لكنه ياسين ، أجل ياسين دون غيره .. قال له بغضب وازدراء :

— كدرت صفو ود لم تكن الأيام لتكدره ولو اجتمعت له .. ثم قال له بعد أن أعاد على مسمعية حديث محمد عفت :

— خبيت أملى فيك فحسبى الله ونعم الوكيل ، ربيتك وأدبتك ورعيتك .. ثم انجلى تعبى كله عن ماذا ؟ .. سكير صعلوك تسول له نفسه الاعتداء على أحقر الخادmates في بيت الزوجية ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، ما كنت أتصور أن يخرج من حضانتى ابن على هذه الصورة فالامر لله من قبل ومن بعد ، ما عسى أن أصنع بك ؟ .. لو كنت قاصرا لكسرت دماغك ، ولكن لتكسرنها الأيام ، ها أنت تنال جزاءك الحق فتتبرا منك الأسر الكريمة وتبيعك بأبخس الأثمان .. !

لعله وجد نحوه بعض الرثاء ، بيد أن سخطه غلب ثم استحال شعوره كله ازدياء ، لم يعد يملأ عينيه رغم فتوته وجماله وضخامته ، يوحد في القذارة كما قال محمد عفت قاتله الله ، ويعجز عن كبج جماح امرأة ، ما أصغره ، سرعان ما لحقت به الهزيمة التي لم ينح هو نفسه من هوانها من جزاء طيشه . ما أحقره ، ليسكر ويعربد وليعشق تحت شرط أن يظل السيد المطاع ، أما أن ينهزم على تلك الصورة المخزية فما أحقره ، لم يشابه أباه كما قال أيضا محمد عفت قاتله الله ، أنى أفعل ما أشاء ولكننى أظل السيد أحمد وكفى ، حكمة رائعة تلك التي الهمتنى أن أنشئ الأولاد على مثال فريد للاستقامة والطهارة ، فإنه لما يشق أن ينهجوا نهجى ويحفظوا في نفس الوقت بالكرامة والاستقرار ، ولكن وأأسفاه ضاع جهدى هباء مع ابن هنية ! — وهل وافقت يا أبى .. ؟

تردد صوت ياسين كالخرجة .. فاجابه بخشونة قائلا : — نعم ، ابقاء على صداقة قديمة ولأنه أوفق حل في الوقت الحاضر على الأقل .

جعلت يد ياسين تنقبض وتنبسط في حركة آلية عصبية ،

كانما كانت تشفط الدم من وجهه حتى انقلب شديد الشحوب ،
شعر بهوان لم يشعر بمثله الا فيما كابد من سلوك امه ، حموه
يطالب بالطلاق !.. او بمعنى آخر زينب تطالب بالطلاق او على
الاقل توافق عليه !.. أيهما الرجل وأيتهما المرأة ؟! ليس عجيبا
ان ينبذ الانسان حذاء أما أن ينبذ حذاء صاحبه ؟! كيف رضى
ابوه له بهذا الخزي الذى لم يسمع بمثله من قبل ؟!.. حدى اباه
بنظرة حادة وان عكست ما يقتلج في صدره من انات الاستغانة ،
ثم قال بلهجة حرص الحرس كله على ان ينقيها من اى اثر
للاحتجاج او الاعتراض ، كانما يريد بها أن يذكره بما عسى أن
يكون انسب :

- ثمة طريقة لمعالجة الزوج الناشز ..

شعر السيد بشعور ابنه فادركه التأثر ، ولذلك لم يبخل عليه
ببعض ما يدور في نفسه .. فقال له :

- أعلم ذلك .. ولكنى اخترت ان تكون من الكرماء ، محمد
عفت عقل تركى حجرى ولكن قلبه من ذهب ، هذه الخطوة ليست
الآخرة ، ليست النهاية ، لم أغفل مصلحتك وان كنت لا تستأهل
خيرا ، دعنى أتصرف كما أشاء ..

كما تشاء !.. منذ اريد لك مشيئة ؟! تزوجنى وتطلقنى ..
تحببى وتميمتى ، لست هنا ، خديجة عائشة فهمى ياسين ..
الكل واحد ، الكل لاشئ ، انت كل شئ .. كلا .. لكل شئ حد ،
لم أعد طفلا ، رجلا مثلك سواء بسواء ، أنا الذى أقرر مصيرى ،
أطلق او أودعها بيت الطاعة ، تراب حداثى بمحمد عفت وزينب
وصداقتكما ..

- مالك لا تتكلم ؟ ..

فقال دون تردد :

- أمرك يا أبى ..

أى عيشة وأى بيت وأى أب ، زجر وتأديب ونصائح ، أزر

نفسك .. ادب نفسك .. انصح نفسك ، انسيت زبيدة ؟ ..
وجليلة ؟ .. والفناء والشراب ؟ .. ثم تطالعنا بعمامة شيخ الاسلام
وسيف أمير المؤمنين ، لم أعد طفلا ، أعش بالقصر ودعنى وشأنى ،
تزوج .. أمرك يافندم .. طلق .. أمرك يافندم .. ملعون أبوك .

- ٦١ -

خفت حدة المظاهرات شيئا ما فى حى الحسين بعد احتلال
الجنود الانجليز له فأمكن للسيد أحمد أن يستأنف ممارسة عادة
قديمة انقطع عنها مضطرا الى حين ، أمكنه أن يصطحب ابنائه الى
مسجد الحسين لتأدية صلاة الجمعة .. عادة قديمة دأب عليها منذ
عهد بعيد .. كان يدعو ابنه اليها حالما يبلغ صباه ليوجه قلبه الى
العبادة مبكرا ، مستوہيا من ورائها البركة لنفسه ولإبنائه
وللأسرة جميعا . ربما كانت امينة وحدها التى لا ترتاح الى تحرك
القافلة فى نهاية كل اسبوع حامله رجالها ، ثلاثة رجال كالجمال
طولا وعرضا الى فتوتهم واشراقهم . كانت تتبعهم ناظريها من
خصاص المشربة فيخيل اليها انهم ملتقى الانظار فتجزع وتدعو
الله أن يقيهم شر العين ، وما ملكت يوما أن افضت بمخاوفها الى
السيد فبدا وكأنه تأثر لتحذيرها حينما ، بيد أنه لم يستسلم
للخوف طويلا وقال لها : « ان بركة الفريضة التى نذهب لتأديتها
حقيقة بأن تحفظنا من كل شر » .

كان فهمى يلبي دعوة الجمعة بنشاشة قلب اولع بتأدية
الفرائض منذ الصغر ، مطيعا فى ذلك - قبل ارادة ابيه - عاطفة
دينية صادقة ، تمتاز الى صدقها بقدر من الاستنارة لا بأس به ،
استمدته مما اطلع عليه من آراء محمد عبده وتلاميذه .. لذلك

كان الوحيد في الأسرة الذي يقف من ايمانها بالتعاويد والرقى والاحبة وكرامات الاولياء موقف المتشكك ، وان ابت عليه دماثة خلقه ان يجهر بتشككه او يعلن استهائته ، بل كان يتقبل حجاب الشيخ متولى عبد الصمد الذي يجيء به ابوه بين حين وآخر برضى ظاهري . اما ياسين فكان يلبي دعوة ابيه لانه لم يكن من تلبيتها بد ، لعله لو ترك لشانه ما فكر يوما في ان يدس جسمه الضخم في زحمة المصلين ، لا عن تزعزع في العقيدة ، ولكن استهانة وتكاسلا . . لذا كان ليوم الجمعة عنده هم يكابده مع مطلع الصباح ، فاذا حان وقت الذهاب الى الجامع ارتدى بدلتة في شيء من التذمر ، ثم يسير وراء ابيه كالأسير ، ولكن كلما اقترب من الجامع خطوة تخفف من تدمره رويدا ، حتى يدخل الجامع منشرح الصدر فيؤدي الصلاة ويدعو الله ان يغفر له ويعفو عن ذنوبه ، دون ان يسأله التوبة كأنما يشفق في اعماقه ان يستجاب دعاؤه فينقلب زاهدا في اللذات التي يحبها حبا لا يرى للحياة بدونه معنى . كان يعلم علم اليقين ان التوبة واجبة ، وان مغفرة لن تكتب له بدونها ، ولكنه كان يرجو ان تجيء في الوقت « المناسب » حتى لا يخسر الدارين ، ولذا كان على تكاسله وتدمره يحمى في النهاية الظروف التي تدفعه الى تأدية فريضة هامة كفريضة الجمعة يمكن - عند الحساب - ان تمحو بعضا من سيئاته وتخفف من اوزاره ، خصوصا وانه لا يكاد يؤدي غيرها فريضة . .

اما كمال فلم توجه اليه الدعوة الا حديثا . مذ تجاوز العاشرة ، فنهض الى تلبيتها في زهو وخيلاء وفرح ، شفر شعورا غامضا بأنها تتضمن اعترافا بشخصه ، وأنها تمنحه مساواة من نوع ما مع فهمى وياسين وابيه نفسه ، ثم سره على وجه الخصوص ان يسير في ركاب ابيه آمنا اي دون ان يتوقع من ناحيته شرا ، وان يقف في الجامع الى جانبه على قدم المساواة مؤتمين جميعا بامام

واحد ، بيد انه كان يستغرق في صلاته اليومية - في البيت - استغراقا لا يظفر بمثله في صلاة الجمعة بالنظر الى ما يعتريه من ارتباك لقيامه وسط خلق لا يحيط بهم حصر ، ولاشفاه من أن تند عنه هفوة فتلتقطها احدى حواس ابيه ، الى ان شدة شعوره بالחסين - الذي يحبه أكثر من نفسه - وهو في مسجده كانت تحول بينه وبين التوجه الخالص لله كما ينبغي للمصلى . .

هكذا رآهم طريق النحاسين مرة أخرى وهم يحتشون الخطي الى بيت القاضي ، السيد في المقدمة وياسين وفهمى وكمال وراءه صفا . حتى اتخذوا مجالسهم في الجامع وراحوا ينصتون الى خطبة الجمعة بين رعوس مشربة الى المنبر في صمت شامل . لم يكن السيد على شدة انصاته يكف عن الدعاء الباطني ، وتوجه قلبه الى ياسين خاصة ، كأنما رآه بعد ما لحق به من عثار الحظ احق بالرحمة ، فدعا الله طويلا أن يصلح من شأنه ويقوم ما اعوج من امره ويعوضه عما فقد خيرا . . على أن الخطبة جبهته بمعاصيه ، اخلت ما بينه وبينها فطالعتها وجها لوجه في هالة مرعدة من صوت الواعظ الجهوري الرنان النافذ حتى خيل اليه انه يعنيه بالذات ، وانه يشد على أذنه صارخا فيها بأعلى صوته ، وانه لا يستبعد أن يخاطبه باسمه قائلا : « يا أحمد ازدرج . . تطهر من الفسق والخمر وتب الى الله ربك » فألم به قلق وضيق كما ألما به يوم ناقشه الشيخ متولى عبد الصمد الحساب ، وهو ما يقع له كثيرا عند سماع الخطبة فيسترسل في طلب الغفران والعفو والرحمة ، ولكنه - كابنه ياسين - لم يكن يطلب التوبة وان طلبها فبلسانه دون قلبه ، يقول بلسانه « اللهم التوبة » على حين يقتصر قلبه على طلب الغفران والعفو والرحمة كأنهما آلتان موسيقتان تعزفان معا في أوركسترا واحد فتصدر عنهما نغمتان مختلفتان ، لأنه لم يتصور أن يرى الحياة بغير العين التي يراها بها ولا أن تبدو له بغير الوجه الذي تبدو به ، فاذا ألح عليه القلق

والضيق المستوليان عليه نهض للدفاع عن نفسه .. ولكنه يلقي دفاعه في صورة دعاء واستغفار فيقول « اللهم انك اعلم بقلبي وايمانى وحبي ، اللهم زدنى استمساكا بتأدية فرائضك وقدره على صنع الخير ، اللهم ان الحسنه بعشر أمثالها ، اللهم انك انت الغفور الرحيم » .. وبهذا الدعاء تعاوده الطمأنينة رويدا .

لم تكن لياسين مثل هذه المقدرة على التوفيق أو أنه لم يشعر قط بحاجة إليها ، لم تكن موضع تفكيره يوما ، يهيم بالحياة كما يشتغل ويؤمن بالله كما يؤمن بوجوده هو ، ثم يستسلم للتيار دون مقاومة أو ممانعة . قرعت أذنيه كلمات الواعظ فتحرك صوته الباطنى سائلا الرحمة والمغفرة بطريقة آلية وفي طمأنينة شاملة دون أن يستشعر خطورة حقيقية ، ان الله أرحم من أن يحرق مسلما مثله بهفوات عابرة لا تؤذى أحدا من عباده ، ثم هنالك التوبة ! .. ستأتى « يوما » فتمحو ما قبلها ، واسترق نظرة الى أبيه وتساءل وهو بعض على شفثيه كأنما يكتم ضحكة نافرة مما عسى أن يدور بخاطره وهو ينصت بهذا الاهتمام البادى الى الخطيئة ؟ .. أهو يعانى العذاب كل صلاة جمعة أم تراه يتناقض ويخادع ؟ .. كلا .. لا هذا ولا ذاك .. انه مثله - ياسين - يؤمن برحمة الله الواسعة ، لو أن الأمر بالخطورة التى يصنف بها الواعظ لاختار أبوه إحدى السبيلين ، استرق الىه نظرة أخرى فرآه كالجواد الكريم الجميل بين القاعدين التطلعين الى المنبر ، شعر نحوه بأعجاب وحب خالصين ، لم يعد للحنق اثر فى نفسه ، ومع أن الغضب بلغ به مداه يوم الطلاق ، حتى بث همه الى فهمى قائلا : « لقد خرب أبوك بيتى وجعلنى أضحكة بين الناس » الا أنه تناسى الآن حنقه كما تناسى الطلاق والفضيحة وكل شيء ، ثم هذا الواعظ نفسه ليس خيرا من أبيه .. بل هو على وجه اليقين آمن فى الضلال ، حدثه عنه مرة أحد الأصحاب فى قهوة أحمد عبده فقال : « انه يؤمن بشيئين .. بالله فى السماء وبالفلان فى

الأرض ، انه من طراز حساس ترف عينه وهو فى الحسين إذا تاوه غلام فى القلعة » ، بيد أنه لم يخقد عليه لذلك ، وعلى العكس وجد فيه كما وجد فى أبيه ما يجد الجندى فى الخنادق المحفورة فى الخطوط الامامية التى على العدو ان يقتحمها قبل ان يصل اليه .

ثم دعا الداعى الى الصلاة فقام الرجال قومة واحدة ، وقفوا صفوفا متراصة ملأت صحن الجامع الكبير ، صار المسجد أجسادا ونفوسا ذكر كمال احتشادها مشهد الحمل فى النحاسين . واتصلت الأزياء فى خطوط طويلة متوازية وحدتها البدل والجيب والجلابيب ، ثم انقلب الجمع جسما واحدا تصدر عنه حركة واحدة مستشرفا قبلة واحدة ، وترددت التلاوات الهامسة فى همهمة شاملة حتى أذن بالسلام .. عند ذلك انتشر سلك النظام ، استردت الحرية أنفاسها ، نهض كل لوجهته ، منهم من قصد الضريح للزيارة ومنهم من اتجه نحو الأبواب للخروج ومنهم من تلبث للحديث أو تريض حتى يخف الزحام .. فاختلطت تياراتهم ايماء اختلاط كالوجة الكبيرة تندفع نحو الشاطئ وهى آخذة فى النمو والعلو والتكتل ، ثم تهوى كالشلال فتنفجر وتنساب فى شتى الجهات على هيئة موجات صغيرة تمتزج وتفرق وتنتشر ايماء انتشار ، أزفت الساعة السعيدة التى منى كمال نفسه بها .. ساعة الزيارة . ولثم الجدران وقراءة الفاتحة اصالة عن نفسه وانابة من أمه كما وعدها ، بدا يتحرك ببطء فى ركاب أبيه .. وما يدرى الاوشاب ازهرى يبرز من الرحمة فجأة فيعترض سبيلهم فى حركة عنيفة لافتة للأنظار ، ثم بسط ذراعيه لينحى الناس جانبا ومضى يتقهقر أمامهم وهو يتفحص ياسين بنظرات ثاقبة مريبة وقديس وجهه وتطايرت نذر الغضب من صفحته المكفهرة . عجب السيد له فجعل يردد بصره بينه وبين ياسين ، على حين بدا ياسين أشد عجباً فراح بدوره يردد بصره بينه وبين أبيه متسائلا ، ثم انتبه

اناس الى المشهد فركزوا فيه انظارهم مترقبين في دهشة واستطلاع
وعند ذاك لم يتمالك السيد ان خاطبه متسائلا في استياء :
- مالك يا اخى تنظر الينا هكذا ؟ ..

فأشار الأزهرى الى ياسين وصاح بصوت كالرعد :
- جاسوس ! ..

نفذت الكلمة الى صدر الأسرة كالرصاصة فدار راسها وحملت
اعينها وجمدت في اماكنها ، على حين جرت التهمة على الالسن
فرددتها في فزع وحنق واخذ الناس يتجمعون حولهم واذرعهم
تشبك في حذر لتحصرهم في دائرة ما لها من منفذ ، وكان السيد
اول من ثاب الى وعيه ، ومع انه لم يفهم شيئا مما يدور حوله ..
الا انه ادرك خطورة الصمت والانكماش فهتف بالشاب غاضبا :
- ماذا تقول يا سيدنا الشيخ ؟ .. اى جاسوس تعنى ؟
ولكن الشاب لم يابه للسيد ، فأشار مرة اخرى الى ياسين
وصاح :

- حذار ايها الناس ، هذا الشاب الخائن جاسوس من جواسيس
الانجليز اندس بينكم ليتسقط الانباء ثم ينقلها الى ساداته المجرمين .
ركب الغضب السيد فتقدم من الشاب خطوة وصاح به
غير متمالك نفسه :

- انت تهرف بما لا تعرف ، فاما ان تكون مجرما او مجنونا .
هذا الشاب ابنى لا خائن ولا جاسوس ، كلنا وطنيون وهذا
الحى يعرفنا كما نعرف انفسنا .

فهز الشيخ منكبيه استهانة وصاح بصوته الخطايب :

- جاسوس انجليزى حقير ، رايته بعينى راسى مرارا وهو
يناجى الانجليز عند بين القصرين ، عندى شهود على ذلك ، ولن
يجرؤ على تكذيبى . انى اتحده .. ليسقط الخائن .

وتجاوبت في اركان الجامع دمدمة غاضبة ، تعالى الهتاف هنا
وهناك « ليسقط الجاسوس » .. وصاح غيرهم « فليؤدب الخائن »

.. ولاحت في اعين القريبين نذر الوعيد تنرصدا بادرة او اشارة
كى تنقض على الفريسة ، لعله لم يؤخر اقدامها الا منظر السيد
المؤثر الذى وقف لصق ابنه كأنما يتلقى عنه ما يتهدده من
اذى ، ودموع كمال الذى أغرق في الانتحاب . اما ياسين فقد
وقف بين السيد وفهى فاقد الوعي من الاضطراب والوجل ،
وجعل يقول بصوت متهدج لم يسمعه احد :

- لست جاسوسا .. لست جاسوسا .. الله على صدق
قولى شهيد .

ولكن الغضب بلغ بالناس مداه ، فتجمعوا حول الدائرة
المحصورة وهم يتدافعون بالمناكب ويتوعدون « الجاسوس »
شرا ، على ان صوتا من وسط الزحام ارتفع هاتفا :

- تمهلوا يا سادة .. هذا ياسين افندى كاتب مدرسة
النحاسين ..

فانطلقت اصوات كالهدير :

- مدرسة النحاسين او الحدادين فليؤدب الخائن ..

وكان رجل يشق طريقه بين الاجسام بصعوبة ولكن بعزم
لا يقهر .. فما بلغ الصف الامامى حتى رفع يديه وهو يزعم :
« اسمعوا .. اسمعوا » .. ولما هدأت الاصوات قليلا قال وهو
يوميء الى السيد احمد :

- هذا السيد احمد عبد الجواد من اهل النحاسين المعروفين
.. ولا يمكن ان يضم بيته جاسوسا ، فترثوا حتى تنجلي
الحقيقة ..

ولكن الأزهرى صرخ حائقا :

- لا شأن لى بالسيد احمد او السيد محمد ، هذا الشاب
جاسوس مهما يكن من امر ابيه ، رايته يضاحك الحدادين الذين
زحموا القبور بأبنائكم ..

وما عثم ان صاح اناس لا حصر لهم :

— ليضرب بالأحذية ..

وسرت في التجمهرين حركة عنيفة ، فأقبل متخمسون من كل صوب ملوحين بالأحذية والمراكيب حتى شعر ياسين بالانهيار واليأس . دارت عيناه فيما حوله فلم تقعا الا على وجه متحرش يفور بالغضب والبغضاء ، والتصق السيد وفهمى بجانب ياسين بحركة غريزية كأنها ليدفعا عنه الأذى أو ليقاسماه اياه ، وهما على حال من اليأس والقهر لم تكن دون ما يأخذ بخناقه ، على حين انقلب انتخاب كمال صراخا كاد يغطي على اصوات الثائرين . كان الأزهرى أول المهاجمين فرمى بنفسه على ياسين قابضا على بنية قميصه ثم جذبه بعنف لينتزعه من المأوى الذى لاذ به بين أبيه وأخيه حتى لا تخطئه الأحذية ، ولكن ياسين قبض على معصميه مقاوما ودخل السيد بينهما ، ورأى فهمى أباه في الموقف المثير لأول مرة في حياته .. فاستغره غضب شديد أذهله عما يحدث بهم من خطر ، فدفع الأزهرى في صدره دفعة قوية ردت به الى الوراء فصاح به متوعدا :

— حذار أن تتقدم خطوة واحدة !

فصرخ الأزهرى وقد جن جنونه :

— ادبوهم جميعا ...

عند ذاك علا صوت قوى يقول بلهجة أمرة :

— انتظر يا سيدنا الشيخ .. انتظروا جميعا ..

فاتجهت الأنظار الى الصوت ، فاذا بأفندى شاب يبرز من بين الجموع الى الدائرة المحسورة يتبعه ثلاثة في مثل سنه وزيه ، تقدموا في خطوات ثابتة توحى بالثقة والعزم حتى وقفوا بين الشيخ وبين المتهم وذويه ، تهامس كثيرون متسائلين «بوليس ؟ بوليس ؟» بيد أن التساؤل انقطع حينما مد الأزهرى يده الى يد قائد الجماعة القادمة وشد عليها بحرارة . ثم سأل الأفندى الأزهرى شبرات حاسمة :

— أين هذا الجاسوس ؟ ..

فأشار الشيخ الى ياسين بازدياء وتقزز ، فالتفت الشاب اليه وثبت عليه عينيه متفحضا اياه بدقة وقسوة ، وقبل أن ينبس بكلمة تقدم فهمى خطوة الى الامام كأنما ليسترعى انتباهه فلمحه الآخر .. وسرعان ما اتسعت عيناه دهشة وانكارا فغمغم قائلا :

— أنت ...

فابتسم ابتسامة شاحبة وقال بلهجة لا تخلو من تهكم :

— هذا الجاسوس أخى .. !

فالتفت الشاب الى الأزهرى متسائلا :

— أنت متأكد مما تقول ؟ ..

فبادره فهمى قائلا :

— ربما صدق في قوله .. انه رأى يحدث الانجليز ولكن اساء التفسير أيما اساءة ، ان الانجليز معسكرون امام بيتنا وهم يتعرضون لنا في الذهاب والاياب فنشورط أحيانا في محادثتهم على كره .. هذا كل ما هنالك ..

وهم الأزهرى بالكلام ولكن الشاب أسكته بإشارة من يده ، ثم خاطب الجمع قائلا وهو يضع يده على منكب فهمى :

— هذا الشاب من الأصدقاء الجاهدين ، كلانا يعمل في لجنة واحدة فكلامه عندى مصدق .. اخلوا سبيلهم .

لم ينبس أحد بكلمة ، انسحب الأزهرى بلا تردد ومضى الناس يتفرون . صافح الشاب فهمى ثم ذهب يتبعه رفاقه ، ربت فهمى على رأس كمال حتى كف عن البكاء ، ساد الصمت فأخذ كل يضمد جراحه . انتبه السيد الى وجوه نفر من معارفه قد أحاطوا به وراحوا يواسونه ويعتذرون اليه عن الخطأ الكبير الذى وقع فيه الأزهرى ومن ضل بهمن الناس ، ويؤكدون له انهم لم يألوا جهدا في الدفاع عنه فشكرهم ، وان كان لا يدرى متى جاءوا ولا كيف

دأفموا عنه ، وعدل عن الزيارة لما استحوذ عليه من انفعال فاتجه
صوب الباب مطبق الفم متجهم الوجه وتبعه الأبناء في صمت
ثقيل ...

- ٢٦ -

في الطريق استرد أنفاسه . فداخله ارتياح لابتعاده عن الناس
الذين شاركوا في «الحادث» ولو مجرد الرؤية ، كره وقتذاك كل
شيء وراءه وقذفه باللعنات ، لم يكد يرى من الطريق الذي يسير
فيه شيئاً ، فتبادل التحية مرتين مع اثنين من معارفه على نحو
مقتضب متكلف لم يعهد فيه من قبل ، تركز شعوره في ذاته -
ذاته الجريحة- وسرعان ما فار بالغضب .. كان احب الى ان تنتهي
الحياة من ان اقف ذلك الموقف المزرى ، كالأسير بين طغمة من
اللثام ، وهذا المجاور القمل مدعى الوطنية الجوعان تهجم على بكل
وقاحة . لم يرع نى حرمة سن أو مهابة ، لم اخلق لهذا ، ليس
«انا» الذي يهان بتلك الكيفية ، وبين أبنائي .. لا تعجب ..
أبناؤك هم أصل البلوى ، هذا الثور ابن المرة لن يهفك من متاعبه
ابداً . فقس الفضائح في بيتي وأوقع بيني وبين أعز الأصدقاء ،
ثم توج عامنا بالطلاق .. لم يكفه هذا كله ، كلا . ابن هنية لا بد
ان يسامر الانجليز جهاراً كي ادفع انا الثمن للسفلة المتهمجين ،
أذهب بهم اليها كي يكمل متحف عشاقها بالانجليز والاستراليين .
- يبدو لى اننى لن أخلص العمر من متاعبك ؟ .

ندت عنه هذه الجملة بحدة ، بيد انه قاوم رغبته في تأديبه
لانه رغم غضبه قدر حاله الذي يرثى لها ، رآه ذاهلاً شاحباً متوعكاً
فلم تطاوعه نفسه في الهجوم عليه ؛ حسبه الآن ماحق به ؛ ليس

وحده الذي يتحفه بالمتاعب ، هنالك البطل ، ولكن فلتؤجل همه
حتى نفيق من متاعب الثور ؛ ثور في البيت ؛ في الحانة .. ثور
أمام أم حنفي ونور ، اما في المعركة فهو رطل خرع لا فائدة منه
ولا عائدة ، يا أولاد الكلب ! .. الله يقطع الأولاد والخلف والبيوت ،
آه .. لماذا تسوقنى قدماى الى البيت ؟! . لم لا اتناول قمى
بعيدا عن الجو المسموم ؟! . ستولول هي الأخرى اذا علمت بالخبر ،
لست في حاجة الى مزيد من القرف ، الى الدهان .. سأجدحتما
صديقاً أقص عليه رزيتى وأشكو اليه همى .. كلا .. لدى متاعب
أخرى لا تقبل التأجيل أكثر من هذا ، البطل ، مصيبة جديدة
يجب ان نجد لها علاجاً ، الى الفداء المسموم ، ولولى ..
ولولى .. ولولى .. ملمون أبوك أنت الأخرى .

لم يكد فهمى يغير ملابسه حتى دعى الى مقابلة والده ،
فلم يملك ياسين على خموده وكربه الا ان يفهم قائلاً :

- جاء دورك ...

فتساءل فهمى متجاهلاً المعنى الكامن وراء ملاحظة أخيه :-
- ماذا تعنى ؟

فضحك ياسين - اجل وسعه اخيراً ان يضحك - وقال :-
- انتهى دور الخونة وجاء دور المجاهدين .. !

لشد ما تمنى ان تفيب النعوت التى نعت بها صديقه في الجامع
وراء ضجة الثورة وذهول الانفعال ، ولكنها لم تضب ، هاهو ياسين
يردها ، ولا شك ان أباه يدعو من أجل مناقشتها . تنهد فهمى
من الأعماق ثم ذهب . وجد السيد متربعا على الكنية يعبث بحبات
سبحته وفي عينيه نظرة تنم عن تفكير كئيب ، فحياء بأدب جم
ووقف على بعد مترين من الكنية في خضوع وامثال ، ورد الرجل
تحيته بحركة خفيفة من رأسه تدل على الضيق أكثر مما تدل على
التحية ، وكأنما تقول له : «انى أرد تحيتك مرغما كما تقضى اللياقة
ولكن ادبك الزائف هذا لم يعد ينطلى على» .. ثم حدجه بنظرة

متهمة ينمئث منها شعاع الارتياح كأنه مصباح يكشف يفتش
عن مخبئ بالظلام وقال بحزم :
- دعوتك لأعرف كل شيء ، أريد أن أعرف كل شيء ، ماذا
قصص صديقك بقوله أنك من « الأصدقاء المجاهدين » وانكما
تعملان في لجنة واحدة ؟ . صارحنى بكل شيء دون تردد ..
ومع أن فهمى اعتاد في الأسابيع الأخيرة أن يواجه أخطارا
شتى ، حتى الطلقات النارية ألف أزيزها ، إلا أنه لاقى تحقيق أبيه
بقلب ماقبل الثورة ، ركبته الرهبة وشعر بأنه لا شيء ، وتركز
تفكيره في تحاشي غضبه ونشيدان النجاة فقال برقة وأدب :
- الأمر بسيط جدا يا بابا ، لعل صديقى بالغ في قوله كى
ينتشلنا من ورطتنا ..

فقال السيد وقد نفذ صبره :
- الأمر بسيط جدا .. عال .. ولكن أى أمر هو ؟ ..
لا تخف عنى أى شيء .
وكان فهمى يقلب الأمر على مختلف وجوهه في سرعة خاطفة
ليختار ما يصح قوله وتؤمن مغيبه .. قال :
- سماها لجنة وهى لا تعدو أن تكون جماعة من الأصدقاء
يتحدثون كلما اجتمعوا في الشئون الوطنية .
فهتف السيد مغيظا محققا :

هذا ! استحققت لقب المجاهد .. ؟ !
نطق صوت الرجل بالاستنكار العنيف كأنما عز عليه أن
يحاول ابنه اللعب به .. وارسم الوعيد في تجعدات عبوسته ،
فسارع فهمى - دفاعا عن النفس - الى الاعتراف بشيء ذى
يأل ليقتع أباه بأنه امتثل أمره كاللهم الذى يتطوع بالاعتراف
طمعا في الرأفة .. قال فيما يشبه الحياء :
- يحدث أحيانا أن تقوم بتوزيع بعض النداءات الحادة على
الوطنية ...

ففسأل السيد بانزعاج شديد :
- المنشورات ! .. هل تعنى المنشورات ؟ !
ولكن فهمى هز رأسه سلبا ، خاف أن يعترف بهذا الاسم
الذى يقرن في البلاغات الرسمية بأقبي العقوبات ، وقال بعد أن
وجد صيغة مقبولة تخفف من خطورة اعترافه :
- ليست إلا نداءات تحث على حب الوطن ..
ترك الرجل السبحة تسقط من يده الى حجره ، وراح
يضرب كفا على كف ويقول وهو لا يتمالك نفسه من الانزعاج :
- أنت من موزعى المنشورات ! .. أنت ! ..
زاغ بصر السيد من شدة الانزعاج والغضب : موزع منشورات !
.. من الأصدقاء المجاهدين ! .. كلانا يعمل في لجنة واحدة ! ..
هل بلغ الطوفان مرقده ؟ ! .. طالما راعه فهمى بأذنه وبره وذكائه ،
لولا أن الثناء في نظره مفسدة وأن القضاة تهذيب وتقويم لأوسعه
ثناء ، كيف أنجلي هذا كله عن موزع منشورات .. مجاهد .. كلانا
يعمل في لجنة واحدة ؟ ! .. أنه لا يحتقر المجاهدين ، هو أبعد ما يكون
عن ذلك ، طالما تابع أبناءهم بحماس ودعا لهم عقب كل صلاة
بالتوفيق ، طالما ملأته أخبار الأضراب والتخريب والمعارك أملا
واعجابا ، ولكن الأمر يختلف كل الاختلاف إذا صدر عمل من هذه
الأعمال عن ابن من أبنائه ، كأنهم جنس قام بذاته خارج نطاق
التاريخ ، هو وحده الذى يرسم لهم الحدود لا الثورة ولا الزمن
ولا الناس ، الثورة وأعمالها فضائل لا تنك فيها ما دامت بعيدة
عن بيته .. فإذا طرقت بابيه ، وإذا تهددت أمنه وسلامه وحياته
وأبنائه ، تغير طبعها ولونها ومغزاه ، انقلبت هوسا وجنوناً وعقوبا
وقلة أدب ، فلتشتعل الثورة في الحارح وليشارك فيها هو بقلبه
كله ، ولينذل لها ما فى وسعه من مال .. وقد فعل ولكن البيت
له وحده دون شريك ، ومن تحدثه نفسه - فيه - بالاشتراك في
الثورة فهو ثائر عليه هو لا على الانجليز ، أنه يترجم ليل نهار على

الشهداء ويعجب كل الاعجاب بالشجاعة التي يتذرع بها آلهم فيما يروى الرواة ، ولكنه لن يسمح لابن من أبنائه بأن يتضم الى الشهداء ولا تطيب نفسه بهذه الشجاعة التي يتذرع بها آلهم ، فكيف سولت نفس فهمى له بالاقدام على هذه الخطوة الجنونية ؟ . كيف ارتضى - وهو خير أبنائه - أن يعرض نفسه الى الهلاك المبين ؟ .. انزعج الرجل انزعاجا لم يشعر بمثله من قبل ، فاقه انزعاجه في مازق الجامع نفسه ، فلم يتمالك أن يسأله بصرامة ووعيد كأنه أحد مفتشى البوليس الانجليزى :

- ألا تعلم ما جزاء الذى يضبط وهو يوزع منشورات ..؟؟
رغم خطورة الموقف وما يقتضيه من تركيز فكره فيه ، أبقظ السؤال ذكرى قريبة اهتزت لها نفسه ، ذكرى هذا السؤال نفسه بنصه ومعناه حينما طرحه عليه الرئيس الأعلى للجنة الطلبة التنفيذية - بين جملة من أسئلة أخرى - وهو بصدد اختياره عضوا فيها ، ثم ذكر بالتالى كيف أجابه وقتذاك بعزم وحماس « كلنا فداء للوطن » وقارن بين الطرفين اللذين ألقى فيهما السؤال الواحد ، فاعتراه شعور بالسخرية ، بيد أنه أجاب والده بركة وبصوت يوحى بالتهوين :

- انى أقوم بالتوزيع بين الأصدقاء من الزملاء فقط ، ولا شأن لى بالتوزيع العام .. فليس ثمة مخاطرة أو خطر ..
فهدف السيد بغلظة وكأنه يدارى خوفه على ابنه بحدة الغضب :

- أن الله لا يكتب السلامة لمن يعرض نفسه للهلاك ، وقد أمرنا سبحانه بالألاعاض أنفسنا للتهلكة ..

ود الرجل أن يستشهد بالآية التي تترجم هذا المعنى ، ولكنه لم يكن يحفظ من القرآن الا السور القصيرة التي يتلوها في صلواته ، فخاف أن يسهو عن لفظ أو يحرقه فيحمل نفسه وزرا

لا يفتقر ، فاكفى بترديد المعنى وكرره حتى يبلغ مداه ، ولكنه ما يدرى الا وفهمى يقول بلهجته المهذبة :

- ولكن الله يحث المؤمنين على الجهاد كذلك يا بابا ..

سائل فهمى نفسه فيما بعد متعجبا كيف واثته شجاعته على مجابهة السيد بهذا القول الذى فضح ما داراه من استمسك برأيه ! .. لعله احتفى بالقرآن فوقف وراء معنى من معانيه مطمئنا الى أن أباه سيحجم فى تلك الحال عن مهاجمته ، وقد بوغت السيد مباغته شديدة بجرأة ابنه وحجته معا ، ولكنه لم يستسلم للغضب لأن الغضب ربما أسكت فهمى ولكنه لن يسكت حجته ، فتناسى جرائه الى حين ريثما يقرع حجته بحجة مثلها من القرآن ، يجب أن يجد لمازقه مخرجا من القرآن نفسه حتى تتم الهداية للابن الضال ، وله بعد ذلك أن يعود الى محاسناته كيفما شاء ، وفتح الله عليه فقال :

- ذاك كان جهادا فى سبيل الله ..

اعتبر فهمى جواب أبيه قبولا للمناقشة والمحااجة ، فتشجع مرة أخرى قائلا :

- جهادنا فى سبيل الله كذلك ، كل جهاد شريف فهو فى سبيل الله ..

آمن السيد بقوله فى قلبه ، ولكن هذا الايمان نفسه وما خلفه من شعور بالضعف أمام محدثه ، هو ما جعله يرتد الى غضبه دون إبطاء .. بيد أنه لم يكن غضبا لكبريائه فحسب ، ولكن أيضا لاشفاقه من أن يتمادى الشاب فى غيه حتى يودى بنفسه ، فكف عن الجدال وتساءل مستنكرا :

- أحسبتنى قد دعوتك لتناقشنى !

انتبه فهمى الى ما تنطوى عليه كلمات أبيه من نذير ، فضاعت أحلامه واتعقد لسانه .. أما السيد أحمد فعاد يقول بحدة :
- لا جهاد فى سبيل الله الا ما أريد به وجه الله وحده - أى

الجهاد الدينى - لا جدال فى هذا ! .. والآن اريد ان اعرف الا
يزال امرى مطاعا ؟

فيادره الشاب قائلا :

- بكل تأكيد يا بابا ..

- اذن اقطع كل صلة بينك وبين الثورة .. ولو اقتصر دورك
على توزيع المنشورات على خاصة اصدقائك !

ان قوة فى الوجود لا يمكن ان تحول بينه وبين واجبه الوطنى ،
لن يتراجع مطلقا ولو خطوة واحدة ، انتهى زمان ذلك الى غير
رجعة ، ان هذه الحياة الخارة الباهرة التى تنبعث من اعماق قلبه
وتضئ جوانب نفسه لا يمكن ان تفيض وهيات ان يفيضها هو
بيده ، كل هذا حق لا شك فيه ، ولكن لماذا لا يلتمس وسيلة
الى ارضاء ابيه وتحمى غضبه ؟! .. انه لا يستطيع ان يتجدها
ولا ان يجهر بمخالفة امره ، اجل استطاع ان يثور على الانجليز
وان يتحدى رصاصهم كل يوم تقريبا ، ولكن الانجليز عدو مخيف
وبغض معا اما ابوه فرجل مخيف ومحبوب ، وهو يعيده بقدر
ما يخافه فلن يهون عليه ان يصدمة بعضيان ، وثمة احساس آخر
لا سبيل الى تجاهله هو ان وراء الثورة على الانجليز مثالية نبيلة ،
اما وراء التمرد على ابيه فليس الا الخزي والتعاسة ، وماذا يدعو
الى هذا كله ؟! .. لماذا لا يعده بالطاعة ثم يفعل ما يشاء ؟! .. لم
يكن الكذب فى هذا البيت بالرديلة المخزية ، ولم يكن فى وسع
احد منهم ان يتمتع بالسلامة فى ظل الاب دون حماية من الكذب ،
وهم يجاهرون به فيما بينهم وبين انفسهم ، بل ويتفقون عليه
فى الموقف الحرج ، وهل كان فى ثبة الام يوم تسلمت فى غيبة السيد
الى زيارة الحسين ان تعترفا بفعلتها ؟! .. وهل كان فى وسع
ياسين ان يشكر ، وهو ان يحب مريم ، وكفالى ان يتغفرت بين
خان جعفر والخرفش بلا حماية من الكذب ؟! .. ليس الكذب

مما يتورع عنه احد منهم ، ولو انهم التزموا الصدق مع ابيهم
ما ذاقوا للحياة طعما ، لهذا كله قال بهدوء :

- امرك مطاع يا بابا ..

واعقب هذا التصريح صمت تنفس فيه كلاهما من الراحة ،
فطن فهمى ان استجوابه قد انتهى بسلام ، وظن السيد احمد
انه انتشل ابنه من الهاوية . وبينما كان فهمى ينتظر ان يؤذن له
بالانصراف ، قام الاب فجأة واتجه الى صوان الملابس ففتحه
ودس يده فيه والشاب يراقبه بعينين لا تدركان شيئا ثم عاد الى
مجلسه حاملا القرآن ، ونظر الى فهمى مليا ثم مد يده بالكتاب
اليه وهو يقول :

- اقسم لى على هذا الكتاب ..

وتراجع فهمى بحركة عكسية ندت عنه قبل ان يتدبر امره ،
كانما يفر من لسان لهب امتد اليه فجأة ، وتسمر فى موقفه وهو
يحملق فى وجه ابيه مرتبكا مذعورا يائسا ، فلبث السيد ماذا يده
بالكتاب وهو ينظر اليه فى غرابة وانكار ، ثم احمر وجهه كأنه
يلتهب وانبعث من غيئه بريق مخيف ، وتساءل فى ذهول وكأنه
لا يصدق عينيه !

- الا تريد ان تقسم ؟!

ولكن لسان فهمى انعقد فلم ينس بكلمة ولم يبد حراكا ،
فتساءل الرجل بصوت هادىء تخللته رعشة متهدجة انذرت بما
يفور تحته من غضب مستعر كما يندر البرق بقعة الرعد :
- اكنت تكذب على .. ؟

- لم يطرأ على فهمى تغير الا انه غض بصره فرارا من عيني
ابيه ، ووضع السيد الكتاب على الكنبه ثم انفجر صائحا بصوت
مدو خاله فهمى كفوقا تهوى على خديه :

- انت تكذب على يا بن الكلب ! .. انا لا اسمح لمخلوق بان
يظلمك على ذنوبى ، ماذا تظن بى وماذا تظن بنفسك ! .. انت

حشرة خبيثة مجرمة ، بنت كلب خدعت بظاھرھا طويلا ، لن
انقلب امرأة على آخر الزمن ، سامع ؟! لن انقلب امرأة على آخر
الزمن ، حيرتموني يا اولاد الكلب وجعلتموني اضحوك الناس ،
انا اسلمك بنفسى الى البوليس ، فاهم ؟! بنفسى يا بن الكلب ،
الكلمة هنا كلمتى انا ، انا انا انا .. (ثم متناولا الكتاب مرة
اخرى) اقسم .. امرك بان تقسم ..

بدا فهمى وكأنه فى غيبوبة ، كانت عيناه مثبتتين على بعض
الصور الغريبة المنقوشة على السجادة الفارسية دون ان تريا
شيئا ، وكان تلك النقوش قد انطبعت بادامة النظر على صفحة
عقله فاستحال شتيتا من الفوضى والخواء ، وكلما مرت ثانية
امعن فى الصمت والياس ، لم يبق له الا ان يلوذ بهذه المقاومة
السلبية اليائسة ، ونهض السيد والكتاب فى يده فاقترب خطوة
منه ثم زعق :

— اتوهمت انك رجل ؟! .. اتوهمت انك تستطيع ان تفعل
ما تشاء ؟! .. لو اشاء اضربك حتى اكسر رأسك ..

لم يملك فهمى عند ذاك الا ان يبكى ، لا خوفا من التهديد فما
كان يبالى فى موقفه وتأثره بأى اذى يصيبه ، ولكن تنفيسا عن
قهره وترويجا عن الصراع الناشب فى صدره ، ثم جعل بعض على
شفثية ليكتم البكاء ، ثم اعتراه الخجل لما ركبه من ضعف ، بيد
انه وسعه أخيرا ان يتكلم لشدة تأثره من ناحية ومداواة لخجله
من ناحية أخرى ، فاسترسل قائلا فى ضراعة وزجاء :

— سامحنى يا بابا ، امرك مطاع فوق العين والرأس ولكنى
لا استطيع ، لا استطيع ، اننا نعمل يدا واحدة فلا ارضى ولا ترضى
لى ان انكص واتخلف عن اخوانى ، هيهات أن تطيب لى الحياة ان
فعلت ، ليس ثمة خطر وزاء ما نعمل ، غيرنا يقوم بأعمال اجل
كالاشتراكات فى المظاهرات وقد استشهد منهم كثيرون ، لست
خيرا منهم ، ان الجنازات تشيع بالمشرات معا ولا هتاف فيها الا

للوطن ، حتى اهل الضحايا يهتفون ولا يكون ، فما حياني ؟!
وما حياة اى انسان ؟! .. لا تفضب يا بابا وفكر فيما اقول ..
واكرر على مسمك بأنه ليس ثمة خطر وراء عملنا السلمى
الصغير ... !

وغلبه الانفعال فلم يعد يستطيع مواجهة آبيه ففر من الحجرة
هاربا . كاد يصطدم وراء الباب بياسين وكمال اللذين وقفا
يتصنتان وقد ارتسم على وجهيهما الارتياح ..

- ٦٣ -

كان ياسين ماضيا الى قهوة احمد عبده حينما التقى فى بيت
القاضي بأحد اقرباء امه ، فأقبل الرجل نحوه باهتمام ثم صاقله
وهو يقول :

— كنت ذاهبا الى البيت لمقابلتك ..

حدس ياسين وراء كلامه انباء عن امه التى أورثته الهموم ،
فأحس ضيقا وتساءل بغتور :
— خير ان شاء الله .. ؟

فقال الرجل باهتمام غير عادى :

— والدتك مريضة ، مريضة جدا فى الواقع ، اصابها المرض
منذ شهر او اكثر ولكنى لم اعلم به الا فى هذا الاسبوع ، وقد
ظنوه بادىء الامر حالة عصبية فسكنوا عنه حتى استجمل ثم
تبين بعد فحص الاطباء انه ملاريا شديدة ..

دهش ياسين للخبر الذى لم يكن يتوقعه ، كانه يتوقع حذبتا
عن طلاق أو زواج أو شجار وما شاكل ذلك ، اما المرض فلم يقع

له في حسابان ، تساءل وهو لا يكاد يتبين مشاعره من شدة اعتلاجها :

— وكيف حالها الآن .. ؟

قال الرجل بصراحة لم يخف مغزاها على ياسين :

— حالها خطيرة ! .. امتد العلاج دون أن يبشر بأدنى تقدم ، وبالأحرى ازدادت الحال سوءا ، وقد أرسلتني إليك كي أصارحك بأنها تشعر بدنو أجلها ، وأنها ترجو أن تراك دون تأخير ..

ثم بلهجة ذات معنى :

— يجب أن تذهب إليها بلا تردد ، هذه نصيحة ورجاء ، والله

غفور رحيم ..

لعل كلام الرجل لم يخل من مبالغة أراد بها دفعه الى الذهاب ولكنه ليس اختلاقا كله ، فليذهب ولو بدافع الواجب وحده ، ها هو يخترق مرة جديدة منحني الطريق المفضي الى الجمالية بين بيت المال وحارة الوطاويط ، الى يمينه عطفة التيه حيث تلبد بأثعة الدوم في ذكريات الظلام المرتعشة والى الامام طريق الآلام ، سيرى عما قليل دكان الفاكهة فيفيض البصر ويتسلل كاللص الهارب ، كلما ظن انه لن يعود اليه عادت به تعاسته ، ما من قوة كانت تستطيع أن تعيده اليها .. الموت ! .. الموت ! .. ترى هل حمت النهاية حقا ؟ ! .. قلبى يخفق ، الما ؟ .. حزنا ؟ .. لا أدري الا انى خائف ، اذا ذهبت فلن أعود الى هذا المكان مرة أخرى .. سيفشى النسيان سالف الذكريات .. ثم ترد الى البقية الباقية من أملاكى ، ولكنى خائف .. وحائق على هذه الأفكار الخبيثة ، اللهم احفظنا ..

حتى اذا حظيت بعيشة أرغد وبأل أصفى فلن ينجو قلبى من الآلام ، حين الموت سأودع أما بقلب ابن .. أم وابن ليس كذلك ؟ .. لست إلا معذبا لا وحشا ولا حجرا ، بيد أن الموت والثر جديد على لم أشهد محضره من قبل ، وددت لو كانت النهاية

بغيره ، سنتموت جميعا .. حقا ؟ ! يجب الا أستسلم للخوف ، ان أنباء الموت لا تنقطع عنا ليل نهار في هذه الأيام ، في شارع الدواوين والمدارس والأزهر .. وهناك في أسبوط كل يوم ضحايا ، حتى المسكين الفولى اللبان فقد ابته أفس ، ما عسى أن يصتغ أهل الشهداء ؟ .. أيقضون العمر بكاء ؟ .. أنهم يتكون ثم يسنون وهذا هو الموت ، أف .. يخيل الى أنه ليس ثمة مفر من المتاعب الآن ، ورائى في البيت فهمى وعناده وأمامى أمى فما أبغض الحياة ! وإذا كان الأمر مكيدة ووجدتها في خير وعافية ؟ ! .. ستدفع الثمن غاليا .. يقينا لتدفعن الثمن .. لست لعبة أو أضحوكة ، لن تجد « الابن » الا حين الموت ، ترى ماذا بقى لى من ثروة ؟ .. وإذا دخلت البيت التقي بذلك « الرجل » هنالك ؟ .. لا أدري كيف أقابله .. سستلقى عينانا في لحظة رهبة ، الويل له ، اتجاهله أو أطرده هذا هو الحل ، هنالك ألوان من العنف لا تخطر له ببال ، ولكن ستجمعنا الجنازة ختما .. وهذا مضحك ، تصور ان يسير وراء النعش أقدم الأزواج وأحدثهم وبينهما الابن دافع العينين .. حتم وقتذاك أن تدمع عيناي .. ليس كذلك ؟ .. لن يكون فى وسعى أن أطرده من الجنازة فتلاحقنى الفضيحة حتى اللحظة الأخيرة .. ثم تدفن ، أجل تدفن وينتهى كل شيء ، ولكنى خائف ومتألم ومحزون ، ان الله وملائكته يصلون على .. هذه هى الدكان المجرمة .. وهذا هو .. لن يعرفنى ، هيهات ، انما ننتكر بالعمى ، يا عم .. أمى تقول لك .. فتحت له الخادم الباب — نفس الخادم التى استقبلته منذ عام فأنكرته — فتطلعت اليه كالمسائلة لحظة ، وسرعان ما غابت نظرة التساؤل وراء لعبة كأنما تقول له : « آه .. أنت الذى تنتظر » ثم أفتشت له وهى تولى الى حجرة عن يمين الداخل قائلة : ..

تفضل يا سيدى .. لا يوجد أحد ..

جذبت العبارة الأخيرة انتباهه بقوة كأنما جاءت جوابا شافيا لبعض حيرته ، فادرك أن أمه اخلت له الطريق . اتجه الى الحجره ، وتحنح ، ثم دخل . وقعت عيناه على عيني أمه وهما ترفعان اليه من فراش على يسار الداخل ، عينين حجبت صفاءهما المهود غشاوة باهتة فلاحت نظرتهما الواهنة كأنما تتطلع اليه من بعيد ، وبالرغم من ذبولهما وما اوحى به انطفاؤهما من عدم الاكتراث لشيء فقد ثبتتا على وجهه ثبوت العرفان ، وانفجرت شفاتها عن ابتسامة خفيفة وشت بظفر وارتياح وامتنان . لم يكن يبدو منها الا وجهها اذ اشتملت ببطانية حتى الدقن ، وجه أدركه من التغير فوق ما أدرك العينين ، جف بعد اكتناز واستطال بعد استدارة وشحب بعد توزد وشف جلده الرقيق عن عظام الفك والوجنتين البارزة فبدا صورة للرئاء والقناء . وقف ذاهلا منكرا كأنه لا يصدق أن ثمة قوة في الوجود تجرؤ على هذا العبث القاسي ، فقبض قلبه فزعا كأنه يرى الموت نفسه ، تخلت عنه رجولته كأنما ارتد طفلا وافتقد أباه أيما افتقاد ، ثم دفعه تائر لايقاوم الى الفراش حتى انحنى فوقها مغمغما في نبرات أسيفة :

— لا بأس عليك .. كيف حالك ؟

ملأه شعور صادق بالرحمة غابت في حرارته الآلهة الزمينة كما تغيب — في احوال نادرة — ظاهرة مرضية ميثوس منها ، كالشلل ، عند هجوم فزع هائل مفاجيء .. كأنه يلتقي أم طفولته التي أحبها قبل أن تواربها عن قلبه الآلام ، فتشبت — وعيناه مرسلتان الى الوجه الفاني — بهذا الشعور المستجد الذي رده أعواما طويلة الى الوراء — الى ما وراء الآلام — كما تشبت المريض التهالك بصحوة طارئة يخاف عليها احساسا باطنيا يوشك الزوال ، تشبت به بشدة خليقة برجل يقدر القوى المضادة التي تهدده ، وان دل تشبثه نفسه على أن الآلهة لم تزل تضطرم في أعماق الأعماق منيرة إياه بما يترصده من حزن اذا هو تهاون

فخلط بشعوره الصافي ما يفسده من مشاعر أخرى . واخرجت المرأة من تحت القلاء يدا مضمومة معروقة اكتست بشرتها الجافة بمزيج من سواد باهت وزرقة كأنها يد محنطة منذ آلاف السنين فتناولها بين يديه بتائر شديد ، وعند ذلك سمع صوتها الضيف البحوح وهو يجيبه قائلا :

— كما ترى ، صرت خيالا ..

فغمغم :

— ربنا يدركك برحمته ، ويردك الى خير مما كنت ..

فندت عن رأسها المصوب بخمار أبيض حركة دعائية كأنما تقول : « ربنا يسمع منك » .. وأشارت اليه أن يجلس فجلس على الفراش ، ثم استرسلت — بقوة جديدة استمدتها من محضره — تقول :

— في أول الأمر كانت تتنابنى رعشة غريبة فحسبتها طارئا مصيبا ، نصحوني بالطواف ببيوت الله وبالبخار فزرت الحسين والسيدة وتبخرت بأنواع شتى من البخور الهندي والسوداتي والعربي ، ولكن لم تكن الحال تزداد الا سوءا .. أحيانا كانت تملكني رجة متواصلة لا تدعني حتى أكون قد أشفيت على الهلاك ، وتمر بي أوقات أجد جسمي باردا كالثلج ، وأوقات أخرى تمتد النار في جسدي حتى أصرخ من شدة الحرارة أخيرا صممت .. (أمسكت عن النطق بالفاعل منتبهة في اللحظة الأخيرة الى الخطأ الذي كانت ستقع فيه) .. أخيرا استحضرت الطبيب ، ولكن لم يتقدم بي العلاج خطوة واحدة نحو الصحة ان لم يكن تأخر خطوات ، لم تعد ثمة فائدة ترجى ..

فقال ياسين وهو يضغط برقة على راحتها :

— لا تيأس من رحمة الله ، ان رحمته واسعة ..

فانفر ثفرها المتع عن ابتسامة ضعيفة وقالت :

— يسرنى ان أسمع هذا ، يسرنى ان أسمعك أنت قبل

الناس جميعا ، أنت عندى أغلى من الدنيا ومن عليها ، صدقت
إن رحمة الله واسعة ، ظالما ساءنى الحظ ، لا أنكر الهفوات
والأخطاء ، العصمة لله وحده

آنىس - جزعا - من حديثها ميلا إلى ما يشبه الاعتراف ،
فانقبض صدره وجفل جفولا حاداً من أن تردد على مسمعيه
أمورا لا يطيقها ولو على سبيل الندم والتكفير .. فتوترت
أعصابه حتى أوشك أن تبدل حالا بعد حال ، قال بتوسل :

- لا تتعبى نفسك بالكلام ..
رفعت إليه عينها باسمه وهى تقول :

- مجيئك ترد إلى الروح ، دعنى أقل لك انى لم أقصرك فى
حياتى سوءاً باتساع ، كنت أنشد كسائر الخلق راحة البال
فيعاندنى الحظ العائر ، لم أسوء إلى أحد ولكن كثيرين أساءوا
إلى ..

شعر بأن رجاءه أن تمضى الساعة بسلام سيخيب .. وأن
عاطفته الصافية تعاني أزمة من التفتيش .. فقال بلهجة التوسل
السالفة :

- دعى الناس بخيرهم وشرفهم ، صحتك الآن أهم من أى
شئ آخر .. فزبت على يده باستعطاف كأنما تسأله أن يترفق
بها ، ثم همست :

- قاتبنى أشياء ، لم أؤد إلى الله حقّه ، وددت لو طال عمرى
حتى أستدرك بعض ما فاتنى .. بيد أن قلبى كان دائماً مفعماً
بالإيمان والله شهيد .

فقال وكأنه يدفع عن نفسه وعنهما معاً :
- القلب هو كل شئ ، هو عند الله فوق الصوم والصلاة ..
فشدت على يده بامتنان ثم غيرت مجرى الحديث قائلة بترحاب :
- وعدت إلى أخيراً ! .. لم أجرو على دغوتك حتى انتهى بى
المرض إلى ما ترى ، داخلى شعور بأننى أودع الحياة فلم أطق أن

أفارقها قبل أن أملأ عينى منك ، فأرسلت إليك وبى من الخوف من
رفضك أكثر مما بى من خوف الموت نفسه ، ولكنك رحمت أمك
وأقبلت تودعها فلك الشكر ودعاء أرجو الله أن يتقبله .

اشتد التأثير ولكنه لم يدر كيف يغبر عن شعوره ، تناقلت
الكلمات الحنونة فى فيه متترة فيما يشبه الخياء أو القرابة حالما
أراد توجيهها إلى المرأة التى ألف محافاتها ونبذها ، بيد أنه وجد فى
يده أداة تعبير طيبة حساسة ، فضغط على راحتها مغمغماً :

- ربنا يكتب لك السلامة ..

وجعلت تدور حول المعنى الذى أفصحت عنه جملتها الأخيرة ،
مرددة نفس الألفاظ تارة أو مستبدلة بها غيرها مما يدل على نفس
معناها طورا آخر .. وراحت تفصل الحديث بازدراد ريقها بجهد
ملحوظ أو بالصمت القصير ريثما تسترد أنفاسها ، مما دعاه مرات
إلى أن يرجوها بالكف عن الحديث ، ولكنها كانت تمسك لمقاطعته
ثم تعود إلى مواصلة الحديث ، حتى توقفت وقد لاح فى وجهها
اهتمام طارئ كلما تذكرت شيئاً ذا بال .. وقالت :

- تزوجت ... ؟

فرفع حاجبيه فى شئ من الضيق وتورد وجهه ، ولكنها
أخطأت فهمه فبادرته كالمعتذرة :

- لا عتاب .. حقا كنت أود أن أرى عروسك وذريتك ، ولكن
بحسبى أن تكون سعيدا ..

فما ملك أن قال باقتضاب :

- لست متزوجا ، طلقت منذ شهر تقريبا ..

لأول مرة لاحت أى الانتباه فى عينيها ، لو كان فى الامكان أن
يلتمعا لالتصعا .. ولكن أنبعث منهما شبه ضوء كالضوء الخالم
الذى تنضح به ستارة كثيفة .. وتمثمت :

- طلقت يا بنى ! .. ما أجزنى .. !
فابتدأها قائلاً :

— لا تحزنى ، لست حزينا ولا أسفا (ثم باسم) أخذت الشر وراحت ...

ولكنها تساءلت بنفس اللهجة :

— من الذى اختارها لك .. هو أم هي ؟!

فقال باللهجة نمت عن رغبته في قفل باب هذا الحديث :

— اختارها الله ، كل شيء قسمة ونصيب .. !

— أعلم هذا ، ولكن من الذى اختارها لك ؟ .. امرأة أهلك ؟

— كلا أبى الذى اختارها ، ولا غبار على اختياره فهى من

أسرة كريمة ، ولكنها القسمة والنصيب كما قلت ..

فقال ببرود :

— القسمة والنصيب واختيار أهلك .. هذه هي .. !

ثم بعد وقفة قصيرة :

— جلى ؟

— نعم ...

وهى تتنهد :

— الله ينكد عيشة أهلك .. !

تعمد ألا يعقب عليها ، كما يمتنع عن حك قرحة تأكله لعلها

تسكن .. فشملهما صمت ، وأغمضت المرأة عينها كأنما أنها

التعب ، بيد أنها فتحتهما هنيهة فابتسمت إليه وهى تسأله

بصوت رقيق لا أثر فيه لانفعال :

— ترى هل يمكن أن تنسى الماضى ؟

فغض بصره منتفضا وهو يشعر برغبة فى الهرب لا تقاوم ،

ثم قال برجاء :

— لا تعودى الى ذكراه ، فليذهب الى غير رجعة ..

لعل قلبه لم يعن ما يقول ، ولكن لسانه قال ما ينبغي أن يقال

.. أو لعل ذلك القول كان تعبيرا صادقا عن شعوره لخطئ ذلك ،

تلك اللحظة التى استغرقه فيها بكليته الموقف المحيط به ، ولعل

قوله : « فليذهب الى غير رجعة » .. قد وقع من مسمعه — ومن قلبه — موقعا غريبا خلف وراءه قلقا ، ولكنه أبى أن يجعله موضوعا لتأمله ، فر من ذلك فرارا ، وتشبث بعاطفته الصافية التى عقد العزم على التشبث بها من بادىء الأمر . أما امه فعادت تسأله :

— رهل تحب أمك كما كنت تحبها فى الزمن السعيد ؟

فقال وهو يربت على راحتها :

— أحيها وأدعو لها بالسلامة ..

سرعان ما وجد العزاء عن قلقه وجهاده الباطنى فيما انطبع على وجهها الداوى من روح السلام والارتياح العميق ، ثم شعر براحتها تضغط على يده كأنما تبثه ما يكنه صدرها من امتنان ، وتبادلا نظرة طويلة هادئة باسمه حاملة أشاعت فى الحجرة جوا من الطمانينة والمودة والحزن ، لم يعد يبدو منها ما يدل على رغبته فى الحديث أو لعل الجهد حال بينها وبين هذه الرغبة ، ثم تراخت جفونها رويدا حتى انطبقت ، جعل ينظر إليها كالمسائل ولكن لم تند عنه حركة ، ثم انفرجت شفتاها قليلا وانبعث منهما شخير خفيف متقطع . اعتدل فى جلسته وهو يتوسم وجهها ثم أغمض عينيه قليلا ريثما يستحضر صورة الوجه الآخر الذى طالعت به منذ عام فانقبض صدره وعأوده شعور الخوف الذى طارده طوال الطريق ، ترى هل يتاح له أن يرى ذلك الوجه مرة أخرى ؟ .. وبأى قلب يلقاه ان عاد ؟! .. لا يدري ، لا يحب أن يتصور المضمحل فى علم الغيب ، يود أن يقف عقله عن الحركة وأن يتبع الحوادث لا أن يسبقها ، وأحاط به شعور الخوف والقلق ، عجب ! .. لقد ركبت رغبة فى الهرب وهو ينصت الى حديثها حتى خيل اليه أنه ارتاح الى نومها كل الارتياح ولكنه ما كاد ينفرد بنفسه حتى هاجمه الخوف .. خوف لم يدرك له سببا فتمنى لو تصحو من سباتها وتعود الى الحديث ، حتام ينتظر .. هبها استغرقت فى النوم حتى الصباح ! .. لن يسعه أن يبقى طويلا فريسة للخوف والقلق

هكذا ، يجب أن يضع حدا لآلامه ... غدا أو بعد غد تكون تهنة أو تعزية .. تهنة أو تعزية ؟ ! .. أيهما أحب الى نفسه ؟ ! .. يجب أن يقف عن الحركة : تهنة كانت أم تعزية لا ينبغي أن يسبق الحوادث ، غاية ما يمكن قوله لو قدر علينا أن نفترق الآن لافترقنا صديقين ، تكون خير نهاية لاسوا حيلة ، أما اذا مد الله في عمرها ...

سرح طرفه وهو شارد فوقع على مرآة الصوان - في الجهة المقابلة - التي عكست صورة الفراش فرأى جسم أمه مطروحا تحت البطانية كما رأى نفسه يكاد يحجب نصفها الأعلى الا يدها التي أخرجتها عند استقباله فحملق برفق وأدخلها تحت الفطاء ثم ثبته حول عنقها بعناية ، عاد ينظر الى المرآة فخطر له هذا الخاطر ! ربما عكست هذه المرآة غدا فراشا خاليا عاريا ! .. ليست حياتها - حياة أى انسان ... لم لا ؟ - بأرسخ دواما من هذه الصور الوهمية ! .. فأشدد به شعور الخوف وهمس لنفسه « يجب أن اضع حدا لآلامي .. يجب أن أذهب » ، بيد أن بصره تحرك تاركا المرآة فالتقى بخوان وضعت عليه نارجيله التف خرطومها حول عنقها كالثعبان فثبت عليها في دهشة وانكار سرعان ما حل مكانهما شعور هائج بالتقزز والغضب .. ذلك الرجل ! .. هو بلا ريب صاحب هذه النارجيلة .. تخيله متربعا على الكنية القائمة بين الفراش والخوان وقد اندلق على النارجيلة يشهق ويزفر متلذذا وأمه تروح له على الجمرات .. آه ترى أين هو الآن ، في مكان بالبيت أم في الخارج ؟ .. هل رآه من حيث لم يره ؟ .. لم يعد أحتمل البقاء مع النارجيلة أكثر مما بقى فآلقى نظرة على وجه أمه التي وجدها مستغرقة في النوم ثم زایل مجلسه بخفة وسار الى الباب ، ولما التقى بالخدام في الردهة الخارجية قال لها :

- ستك نامت ، سأعود غدا صباحا ..

والتفت اليها مرة أخرى وهو يغادر الباب الخارجى قائلا :

- غدا صباحا ..

كأنما ينبه الرجل نفسه الى موعد حضوره ليختفى من وجهه ، مضى الى حانة كوستاكي رأسا . شرب كماداته ولكنه لم يطلب بالشراب نفسا . أعياه أن يطرد عن قلبه الخوف والقلق . ومع أن أحلام الثورة وراحة البال لم تغب عن ذهنه الا أنها لم تستطع أن تمحو من مخيلته صورة المرض وخواطر الفناء . ولما عاد الى البيت عند منتصف الليل وجد امرأة أبيه في انتظاره بالدور الأول فنظر اليها متعجبا ثم تساءل خافق انقلب :

- أمى .. ؟ !

فأخفت أمينة رأسها وقالت بصوت خافت :

- جاءنا رسول من قصر الشوق قبل مجيئك بساعة . العمر الطويل لك يا ابنى ..

- ٦٤ -

تطورت العلاقة بين كمال والجنود البريطانيين الى صداقة متبادلة . وقد حاولت الأسرة أن تتذرع بمأساة ياسين في جامع الحسين لتقنع الغلام بقطع علاقته مع أصدقائه ولكنه أجابهم بأنه « صغير » ، أصغر من أن يتهم بالجاسوسية ، ولكى يتفادى من منعهم اياه بالقوة كان يعضى الى المعسكر رأسا بعد عودته من المدرسة تاركا حقيبة كتبه مع أم حنفى فلم تكن ثمة وسيلة الى منعه الا باستعمال القوة الأمر الذى لم يروا له موجبا لاسيما وأنه يمرح في المعسكر تحت أعيينهم متقبلا في كل موضع بالترحيب والتكريم ، حتى فهمى نفسه أغضى عنه ولم يكن يجد بأسا في

التسلى بمشاهدته وهو يتنقل بين الجنود « كقرود يلهو في غابة من
الوحوش » ...

— قولوا لسيدى الكبير ..

هكذا اقترحت أم حنفى مرة وهى تشكو تجرؤ الجنود عليها
— بسبب الصداقة اللعينة — ومحاكاة بعضهم لمشيئتها بطريقة
« يستحقون عليها قطع رقبتهن » ولكن أحدا لم يأخذ اقتراحها
مأخذ الجد ، لا رحمة بالغلام فحسب ، ولكن رحمة بهم هم أنفسهم
خشية أن يجر التحقيق الى معرفة تسترهم الطويل على هذه
الصداقة ، فتركوا الغلام وشأنه ، ولعلمهم لم يخلوا من رجاء فى أن
يقوم الشعور الطيب المتبادل بين الغلام والجنود حائلا بينهم وبين
ما يحتمل أن يتعرضوا له من عبث أو أذى فى الذهاب والاياب !
أسعد ساعات يومه كانت تلك التى يدخل فيها المعسكر ، لم يكن
جميع الجنود « أصدقاء » بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ولكن لم
يعد أحد منهم مجهل شخصه ، كان يصافح الأصدقاء ويشد على
أيديهم بحرارة على حين يكتفى برفع يده ، تحية للآخرين . وربما
صادف مجيئه قيام أحد الأصدقاء بنوبة الحراسة فيقبل الغلام عليه
هائلا باشا وهو يمد يده فما يروعه الا أن يلقي منه جمودا غريبا
مثيرا كأنما يتجاهله أو كأنما تحول الى صنم فلا يدرك أن ليس فى
الأمر تجاهل أو غضب الا من اغراق الآخرين فى الضحك . ولم يكن
من النادر أن يباغت وهو بين الأصدقاء بصغير الانذار ، هنالك
يهرعون الى الخيام ثم يعودون بعد قليل وقد ارتدوا ملابسهم
وخوذاتهم وحملوا بنادقهم ، ويتحرك لورى من موقفه وراء سبيل
بين القصرين الى وسط الطريق فيمضون اليه سراعا ويقفزون الى
داخله حتى يكتظ بهم ، بات يدرك من المنظر الذى أمامه أن مظاهره
قامت فى جهة ما وأن الجنود ذاهبون لتفريقها وأن قتالا سينشب
بينهم وبين المتظاهرين ، ولكن لم يكن يهمه فى تلك الاوقات الا أن
يتفقد الأصدقاء ببصره حتى يعثر عليهم فى زحمة اللورى وأن يلا

منهم عينيه كأنما يودعهم ، وأن يبسط كفيه واللورى يبتعد بهم
صوب النحاسين داعيا لهم بالسلامة ثم تاليا الفاتحة !.. على أنه
لم يكن يقضى فى المعسكر أكثر من نصف ساعة كل اصيل وهو
أقصى ما وسعه أن يتغيبه عن البيت عقب عودته من المدرسة ،
نصف ساعة لم تكد تغفو فيها حاسة من حواسه دقيقة واحدة ،
يدور حول الخيام ، يسير بين اللوريات مستطلعا قطعها قطعة؛
يقف حيال أهرام البنادق طويلا متفحصا أجزاءها جزءا جزءا
خاصة فوهة الماسورة التى يكمن فيها الموت .. يقف على بعد
لا يسمح له بتجاوزه ونفسه ذاهبة حسرات على اللعب بها أو على
الأقل لمسها ، ولما كانت زيارته توافق ميعاد الشاي فكان يضى مع
اصدقائه الى المطبخ القائم عند مدخل درب قرمز ويأخذ مكانه فى
نهاية طاوور « الشاي » كما يدعونه ثم يعود وراءهم حاملا قدح
شاي باللبن وقطعة من الشيكولاتة فيجلسون على سور السبيل
يحتسون شرابهم وينشد الجنود أغاني جماعية وهو ينصت لهم
باهتمام منتظرا دوره فى الغناء . تركت حياة المعسكر فى نفسه اثرا
عميقا بثفى خياله وأحلامه يقظة شاملة ، اثرا نقش على صفحة
قلبه الى جانب الآثار التى نقشتها حكايات أمينة عن عالم الغيب
والأساطير ، وقصص ياسين الذى جذب روحه الى دنيائها
الساحرة ، والاطياف والرؤى التى تتخيل له فى أحلام اليقظة
وراء أغصان الياسمين والبلابل وأصص الزهور — فوق السطح —
عن حياة النمل والعصافير والدجاج . من ثم انشأ عند سور
السطح الملاقى لسطح بيت مريم معسكرا كامل البعدة والعدد ؛
أقام خيامه بالمناذيل والأقلام ، وأسلحته بعيدان الخشب ، ولورياته
من القباقيب وجنوده من نوى التمر . وعلى كئيب من المعسكر
مثل المتظاهرين بالخصى يبدأ التمثيل عادة بنشر النوى جماعات
بعضها فى الخيام وعند مداخلها وبعضها حول البنادق غير أربع
بينها حصاة (تمثله هو) ينتحون جانبا ، يأخذ فى محاكاة الغناء

الانجليزى ثم يجيء دور الحصاة لتغنى « زورونى كل سنة مرة »
 أو « يا عزيز عيني » ، ينتقل الى الحصى فينضده صفوفا ويهتف
 « يحيا الوطن .. تسقط الحماية .. يحيا سعد » ، يعود الى
 المعسكر مصفرا فتنتظم النوى صفوفا كذلك وعلى رأس كل صف
 تمر ، ثم يدفع قبقابا وهو ينفخ محاكيا ازيز اللورى ، ويضع
 النوى على سطح القبقاب ثم يدفعه مرة أخرى صوب الحصى
 فتتشب المعركة وتسقط الضحايا من الجانبين ! .. ولم يكن يسمح
 لعواطفه الشخصية بأن تؤثر فى سير المعركة ، على الأقل فى بدئها
 ووسطها ، كانت تتحكم فيه رغبة واحدة هى أن يجعلها معركة
 « صادقة مشوقة » يتنازعها الدفع والجذب من الجانبين وتتعادل
 الاصابات فتظل النتيجة مجهولة والاحتمال متأرجحا بين الطرفين
 على أن المعركة لا تلبث طويلا حتى تستوجب نهاية تنتهى اليها ،
 هنالك يجد نفسه فى موقف حائر ، أى جانب ينتصر ؟ .. فى جانب
 اصداقائه الاربعة وعلى رأسهم جوليون ، وفى الجانب الآخر مصريون
 يخفق معهم قلب فهمى ! .. فى اللحظة الاخيرة يقرر النصر
 للمتظاهرين فينسحب اللورى بقله من الجنود بينهم الاصدقاء
 الاربعة وان كان قد ختم المعركة مرة بصلح شريف احتفل به
 المتحاربون من الطرفين بالغناء حول مائدة حفلت بأقداح الشاي
 ومختلف ألوان الحلوى ! .. وكان جوليون اعز اصدقائه ، امتاز
 الى جماله بدمائة الخلق فضلا عن براعته النسبية فى التكلم
 بالعربية ، وهو الذى جعل دعوته الى الشاي حقا ثانيا كما بدأ
 أشد الجنود تأثرا بغنائه حتى كان يدعو كل يوم تقريبا الى غناء
 « يا عزيز عيني » فيتابعه باهتمام ثم يغفم فى تشويق وحنين :

— أروح بلدى .. أروح بلدى !

وأنس كمال منه هذه الروح فازداد له ألفة واطمئنانا حتى
 قال له مرة جادا وكأنما يدلّه على مخرج من كربته :

— أرجعوا سعد باشا وعودوا الى بلادكم .. !

ولكن جوليون لم يلق اقتراحه بالارتياح الذى كان ينتظر
 وعلى العكس طلب اليه — كما فعل من قبل فى ظرف مشابه —
 الا يعود الى ذكر سعد باشا قائلا : « سعد باشا .. نو ! » وهكذا
 فشل — على حد تعبير ياسين — أول مفاوض مصرى ! .. وما
 يدري يوما الا واحد « الاصدقاء » يقدم له صورة كاريكاتورية
 رسمها له فنظر كمال اليها بدهشة وانزعاج وهو يقول لنفسه
 « صورتى !؟ .. ليست هذه صورتى ! » ولكنه شعر فى قرارة
 نفسه بأنها صورته دون غيره ولو على وجه ما ، ثم رفع عينيه
 للواقفين حوله فالفاهم يضحكون فأدرك أنها نوع من المزاح وأن
 عليه أن يتقبله بسرور فجارهم فى ضحكهم مداريا بالضحك
 خجله ، ولما اطلع عليها فهمى تفرس هذا فيها بدهشة ثم قال :
 — رباه .. لم تترك عيبا الا أبرزته ! .. الجسم النحيف
 الصغير ، الرقبة الطويلة الهزيلة ، الأنف الكبير ، الرأس الضخم ،
 العينان الصغيرتان :

ثم ضاحكا :

— الشئ الوحيد الذى يبدو أن « صديقك » يضمر نحوه
 اعجابا هو بدلتك الأنيقة المهندمة ولا فضل لك فى ذلك وانما
 الفضل لبنينة التى لا تترك شيئا فى البيت الا هندمته !
 ورمى اليه بطرف شامت ثم قال :

— بان السر الذى حببك اليهم ! .. انهم يتسلون بالضحك
 على شكلك واناقتك المفرطة ، يعنى بالعربى لست الا « قره جوز »
 فى نظرهم .. ماذا كسبت من وراء خيانتك ؟ ! .. ولكن كلام فهمى
 لم يحدث أثرا لأن الغلام كان يدرك مدى عداوته للانجليز فظنها
 مناورة يراد بها التفرقة بينه وبينهم ! .. وجاء يوما المعسكر
 كمادته فرأى جوليون عند أقصى جدار السبيل يتطلع باهتمام
 الى العطفة التى يفتح عليها بيت المرحوم السيد محمد رضوان
 فيبقي نحوه ولكنه رآه يلوح بيده محدثا اشارات غامضة لم يفقه

لها معنى بيد أنه توقف عن التقدم مليا احساسا غريزيا خفى عنه معناه ، ثم افتراه حب الاستطلاع بأن يدور حول الخيام المنصوبة امام واجهة السبيل متسللا الى ما وراء جوليون وأن يجد بصره الى الهدف الذى يتطلع اليه ، هنالك رأى كوة فى جناح بيت آل رضوان الذى يسد العطفة القصيرة يلوح منها وجه مريم واضحا باسمها مستجيبا .! وقف يردد النظر بين الجندى وبين الفتاة فى ذهول كأنما يأبى أن يصدق عينيه ، كيف اقترفت مريم الظهور فى الكوة ؟! .. كيف تصدت لجوليون على هذا النحو الفاضح ؟! هو يلوح بيديه وهى تبتسم! .. أجل هاهى الابتسامة لا تزال مطبوعة على شفتيها! .. وها هما عيناها يستغرقهما النظر إليه حتى انها لم تفتن بعد الى وجوده هو! وندت عنه حركة لفتت اليه جوليون فما كاد يطلع على موقفه حتى أغرق فى الضحك وهو يرطن على حين تراجعت مريم بسرعة خاطفة فى دعر بين . راح يتطلع الى الجندى فى ذهول وقد زاده فرار مريم ريبة على ريبة وان بدا له الامر كله غموضا فى غموض . سأله جوليون متوددا :
- تعرفها ؟! ..

فأحنى رأسه بالإيجاب ولم ينبس . غاب جوليون دقائق ثم عاد حاملا لفافة كبيرة قدمها الى كمال قائلا وهو يشير الى بيت مريم :
- اذهب بها اليها ..

ولكن كمال تراجع جافلا وهو يهز رأسه مينة ويسرة فى عناد . لم تبرح تلك الحادثة مخيلته ، ومع أنه شعر بخطورتها من بادئ الامر الا أنه لم يدرك مدى الخطورة على حقيقتها الا حين قص القصة فى مجلس القهوة مساء . استوت أمينة فى جلستها وهى تتباعد وقد ظل فنجان القهوة معلقا بين اصبعيها لا هى تقربه من فيها ولا هى تضعه على الصينية على حين غادر فهمى وباسين

الكنبة المواجهة لمجلس الأم مهرولين الى الكنبة التى تجلس عليها هى وكمال وجعلا يحذقان اليه باهتمام ودهش وانزعاج فاق كل ما توقع . قالت أمينة وهى تزدد ريقها :
- ارايت هذا حقا! .. ألم تخدعك عينك ؟!
وتأفف فهمى :

- مريم ؟! مريم ؟! . امأكد انت مما تقول ؟!
وتساءل ياسين :

- اكان يشير اليها وكانت تبتسم اليه! .. ارايتها تبتسم حقا ؟! ..

واعادت أمينة الفنجان الى الصينية فأسندت رأسها الى راحتها قائلة بلهجة تنم عن الوعيد :
- كمال ! الكذب فى مثل هذا الامر جريمة لا يغفرها الله .. راجع نفسك يا أبنى .. ألم تعد الحق فى شيء ؟!

وحلف كمال باغلظ الايمان فقال فهمى بياس ومرارة :
- انه لا يكذب ، ليس فى وسع عاقل أن يتهمه بالكذب فيما قال ، الا تدركون ان اختراع مثل هذه القصة هو ابعد ما يكون عن تصور واحد فى سنه ؟! ..

فتساءلت الأم بصوت حزين :
- وكيف يسعى أن اصدقه !
فقال فهمى وكأنه يحلث نفسه :
- أجل كيف يمكن تصديقه ! .. (ثم بصوت جاد) ولكنه وقع .. وقع .. وقع !

وقعت الكلمة الأخيرة من نفسه موقع الخنجر ، كررها وكأنما يكرر الطعن متعمدا ، حقا شغلته عن مريم الشواغل فلم تعد ذكرها تلوح الا فى حاشية احلام يقظته ، ولكن الطعنة التى اصابت سمعتها نفذت اليها خلال قلبه . انه ذاهل .. ذاهل .. ذاهل ، لا يدري ان كان نسى ام لم ينس ، يحب ام يكره ، بغضب للكرامة

ام للغيرة .. ورقة شجر جافة في مهب زوبعة متناوحة ..
- كيف يسعى ان اصدقه ؟.. طالما كانت ثقتي في مريم
كثفتي في خديجة أو عائشة ، امها من الفضليات ، ابوها طيب الله
ثراه كان من الاكرمين .. جيران العمر ونعم الجيران ..
قال ياسين - الذي بدا طول الوقت مستغرقا بالتفكير -
بلهجة لم تخل من سخرية :
- علام تعجبون ؟.. منذ القدم والله يخلق من صلب الأبرار
اشرا .
فقالت امينة محتجة كأنما تأبى ان تصدق أنها خدعت طوال
ذلك الدهر :

- يشهد الله انى لم لاحظ عليها ما يسوء قط ..
فقال ياسين بحذر :
- ولا احد منا ، حتى خديجة العياية الكبرى ، بل خدع بها
من هو أفطن منك ومنى !
فهتف فهمى مثالا :
- من اين لى ان اطلع على الغيب ؟! انه امر يشق تصويره .
وحقق على ياسين للدرجة القليان ، ثم بدا له الخلق جميعا
بغضاء ، الانجليز والمصريون على السواء .. الرجال والنساء -
والنساء خاصة - انه يختنق .. هفت نفسه الى الاختفاء
ليتنشق في وحدته نسمة راحة بيد انه لم يبرح مكانه كأنما شد
اليه بحبال غلاظ ..

اتجه ياسين الى كمال متسائلا :

- متى رأتك ؟

- عندما التفت الى جوليون ..

- ثم فرت من النافذة ؟

- نعم ..

- هل رأت انك رايتها ؟

- التقت عينانا لحظة ..
ياسين ساخرا :
- مسكينة !.. انها دون شك تتخيل الآن مجلسنا هذا
وحديثنا ذا الشجون !
- انجليزى !..
هتف فهمى وهو يضرب كفا على كف :
- بنت السيد محمد رضوان !..
غمغمت امينة متنهدة وهى تهز راسها عجبا ..
فقال ياسين متفكرا :
- مغاللة انجليزى ليست بالمسألة الهينة على فتاة ، هذه
درجة من الفساد لا يمكن ان تظهر طفرة ..
فسأله فهمى :
- ماذا تعنى
- اعنى انه لا بد ان تسبقها درجات من الفساد !
فقالت امينة برجاء :
- استحلفكم بالله ان تمسكوا عن هذا الحديث ..
فواصل ياسين حديثه ، كأنه لم يسمع رجاءها ، قائلا :
- مريم بنت سيدة لها في التبرج فنون بشهادتك انت
وخديجة وعائشة !..
فهتفت امينة بصوت ملؤه العتاب والزجر :

- ياسين !..

فقال ياسين كالمراجع :

- اريد ان اقول اننا اسرة تعيش في حق مفلق لا تكاد تعلم
شيئا عما يدور حولها ، قصارى جهدنا ان نتصور الناس على
مثالنا ، اختلطت بنا مريم اعواما طويلا ولكننا لم نعرفها على
حقيقتها حتى كشفها لنا آخر من ينشيد عنده كشف الحقائق !..

وربت على رأس كمال ضاحكا ، ولكن أمينة عادت تقول
بتوسل حار :

ـ استحلفكم بالله ان تغيروا مجرى الحديث ..

ابتسم ياسين ولم ينبس ، فأطبق الصمت . لم يعد فهمي
يتحمل البقاء بينهم فاستجاب الى الصوت الباطني الذي
يستصرخه ملهوفاً على الفرار .. بعيداً عن الأنظار والأسماع ،
هنالك يستطيع ان يخلو الى نفسه ، ان يعيد عليها الحديث من
الفه الى يائه ، كلمة كلمة ، عبارة عبارة ؛ جملة جملة . ليفهمه
ويتفهمه ثم ينظر اين يكون موضعه ..

- ٦٥ -

كان الليل قد جاوز منتصفه عند ما غادر السيد احمد
عبد الجواد بيت ام مريم متلفعا بظلمة العطفة المسدودة . بدا الحى
كله - كما امسى يبدو مع الهزيع الاول من الليل مذ عسكر الانجليز
فيه - غارقا في النوم متدثرًا بالظلام ، لامقهي يسمر ولا بائع يسرح
ولا دكان يسهر ولا مار يدب . فلم يكن فيه اثر للحياة او النور
الا ما انبعث من المعسكر ، ومع ان احدا من الجنود لم يتعرض له
بسوء في الذهاب او الاياب الا انه لم يكن يخلو قط من قلق وتوجس
كلما اقترب من المعسكر في طريقه الى البيت خاصة وانه يعود
- آخر الليل - على حال من الاعياء والاسترخاء والذهول يشق
معه مجرد التفكير في السير الآمن المطمئن . انحدر الى طريق
النحاسين ثم انعطف يمينا متجها الى البيت وهو يختلس النظر
الى الديديبان حتى دخل اشد مناطق الطريق خطورة .. تلك
التي ينتشر فيها النور المنبعث من قلب المعسكر ، هنالك عاوِدهم

الاحساس الذي يخامره كلما دخلها وهو انه هدف يسير لاي
صائد . فحث خطاه ليخرج منها الى الظلام المفضي الى مدخل بيته
ولكنه ما كاد يخطو خطوة حتى صك اذنيه صوت اجش غليظ يزرق
وراءه راطنا فأدرك على جهله رطائنه - من عنف اللهجة واقتضابها
- انه رماه بأمر لا يقبل المناقشة فتوقف عن المسير والتفت وراءه
مرتاعا فراى جنديا - غير الديديبان - يتجه نحوه بقوة شاكي
السلاح . ماذا جد حتى دعا الى هذه المعاملة ؟. ايكون الرجل
غلا ؟. ام لعله اذعن لنزوة اعتداء طارئة ؟. ام هو يتنفى السلب
والنهب ؟. جعل يرقب اقترابه بقلب خافق وحلق جاف وقد طار
الخمار من راسه . وقف الجندي على بعد خطوة منه ثم وجه
اليه بلهجة أمرة كلاما سريعا قصيرا - لم يفهم منه بطبيعة الحال
كلمة واحدة - وهو يشير بيده الخالية صوب شارع بين القصرين
فحملق السيد في وجهه بئاس واستعطاف وهو يعاني مرارة
العجز عن التفاهم معه كي يقنعه ببراءته مما يتهمة به او كي
يعرف على الأقل ما يريد ، ثم خطر له انه قصد باشارته الى بين
القصرين ان يأمره بالابتعاد ظنا منه انه غريب مريب فراح يشير
الى بيته بدوره ليفهمه انه من سكانه وانه عائد اليه ولكن الجندي
تجاهل حركته وهو يدمدم ثم اصر على اشارته وهو يهز راسه
في نفس الاتجاه كأنما يحثه على الذهاب ، ثم بدا انه ضاق به
فقبض على منكبه واداره بقوة فدفعه في ظهره فوجد السيد
نفسه يتحرك متجها نحو بين القصرين والآخر وراءه فاستسام
- ومفاصله تكاد تسبب - الى المقادير ، جاوز في مسيره المجهول
المعسكر ثم سبيل بين القصرين وهناك اختفى آخر اثر للضوء
المنبعث من المعسكر فخاض امواج الظلام الدامس والصمت
الثقيل ، لا منظر يرى الا اشباح البيوت ولا صوت يسمع الا وقع
القدمين الغليظتين اللتين تتبعانه في نظام ميكانيكي رهيب كأنهما
يعدان الدقائق الباقية له في الحياة ، ولعلها ثوان ، اجل كان يتوقع



في أية لحظة ان ينقض عليه بخبطة تهوى به الى النهاية فمضى
يترقبها بعينين محمقتين في الظلام وفم مطبق من الجزع وحرقة
تتحرك حركة عصبية من أن لأن كلما ازدرد ريقه الجاف الملتهب
حتى بوغت بوميض يجذب بصره الى اسفل فكاد يصرخ كالاطفال
من الهلع وقد تهاوى قلبه ولكن تبينه دائرة من الضوء تذهب
وتجىء فأدرك انها شعاع من بطارية اضاءها سائقه ليتعرف على
طريقه خلال الظلمات . استرد انفاسه بعد ان تخفف من الدعر
المباغت ولكنه لم يكذ يستشعر نسمة راحة حتى تلقفه خوفا
الأول ، خوف الموت الذى يساق اليه ، فعاد يترقب حثفه بين
الحفلة واخرى كأنه غريق توهم في تخبطه انه يرى تمساحا يتوثب
لمهاجته ثم تبين له ان ما رأى اعشاب طافية ولكن فرحته للنجاة
من الخطر الوهمى لم تكذ تتنفس حتى اختنقت تحت ضغط الخطر
الحقيقى المحيط به . الى اين يسوقه ؟ لو يستطيع ان يراطنه
فيسأله !، يبدو انه سيواصل سوقه حتى يدفع به الى قرافة
باب النصر ، لا اثر لانسان ولا لحيوان ؛ اين الفقير ؟، وحيد تحت
رحمة من لا يرحم ، متى كان مثل هذا العذاب .. هل يذكر ؟
الكابوس .. اجل انه الكابوس ، كابده اكثر من مرة خلال نوم
مريض ، ان ظلمة الكابوس نفسها لا تخلو احيانا من بارقة امل
قد يشرق بنفس النائم احساس حنون بأن ما يعاينه حلم لاحقيقة
وبأنه سينجو من شره الآن او بعد حين ، هيهات ان يوجد الدهر
بمثل ذلك الأمل ، انه صاح لا نائم وهذا الجندى الشاكى السلاح
حقيقة لاخيال وهذا الطريق الذى يشهد ذله وأسرده شيء ملموس
مخيف لا وهم ، عذابه حقيقة لا سبيل الى الشك فيها ؛ ان اقل
حركة ممانعة تند عنه خليقة بأن تطيح براسه .. لا سبيل الى
الشك في هذا ايضا ، قالت له أم مريم وهى تودعه « الى الغد »
.. الغد ؟! هل يطلع ذلك الغد ؟! سل القدمين الثقيلتين اللتين
ترجان الأرض وراء ظهرك .. سل البندقية ذات السونكى الحاد

المدبب ، قالت له ايضا وهى تمازحه « تكاد رائحة الخمر المتطايرة من فيك ان تسكرنى » .. الآن طارت الخمر وطار عقله ، ولت ساعة الصبوة ، منذ دقائق معدودة .. كانت الصبوة كل شىء في الحياة .. الآن العذاب هو كل شىء .. وليس بين هذا وذاك الا دقائق معدودة .. دقائق معدودة؟! .. عندما بلغ منعطف الخرنفش جذب عينيه شعاع يومض في الظلام فلحظ الطريق فرأى بطارية تتحرك في يد جندى آخر يسوق بين يديه اشباحا لم يتبين عددهم! .. تساءل ترى هل صدرت الى الجنود اوامر بالقبض على من يصادفون من الرجال لیسلا؟! .. والى اين يسوقونهم؟! .. واى عقاب سيقضون به عليهم ؟ تساءل طويلا وهو من الدهش والانزعاج في نهاية بيد ان رؤيته للضحايا الجدد ادخلت على قلبه شيئا من العزاء والارتياح ، لم يعد على الأقل وحيدا كما كان يظن ، وجد في بلواه اندادا يؤنسونه وحشته ويشاركونه المصير ، كان يتقدم قافلته بمسافة قصيرة فراح ينصت الى وقع اقدامهم مستأنسا اليها كما يستأنس الضال فى مفارقة الى اصوات آدمية ترامت اليه مع الريح ، ولم تكن امنية اعز على نفسه آئذ من ان يلحقوا به لينضم الى جماعتهم ، سواء كانوا معارف او غرباء ، لتخفق قلوبهم معا وهم يحثون الخطى نحو المصير المجهول . هؤلاء الرجال أبرياء وهو برىء فقيم القبض عليهم؟! ، فیم القبض عليه هو مثلا؟! ، لا هو من الثوار ولا من المستغلين بالسياسية ولا حتى من الشبان فهل يطلعون على الافئدة ويحاسبون على المشاعر؟! .. او تراهم يعتقلون افراد الشعب بعد ان فرغوا من اعتقال الزعماء! ، لو كان يعرف الانجليزية فيسأل أسرته؟! .. اين فهمى ليحادثة نيابة عنه؟! .. وخزه الألم والحنين ، اين فهمى وياسين وكمال وخديجة وعائشة وامهم ؟ هل يمكن ان تتصور اسرته ما آل اليه حاله من هوان وهى التى لم تره الا جبارا عزيزا جليلا؟ ، هل تتصور ان جندى دفعه

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

بعنف حتى اوشك ان يطرحه ارضا وانه يسوقه كما تساق
السائمة ؟ . وجد لذكر آله الما وحنينا فكادت تدمع عيناه . كان
يمر في طريقه بأشباح بيوت ودكاكين يعرف اصحابها ، ومقاه كان
يوما - خاصة عهد الصبا والشباب - من سمارها ؛ فأحزنه
ان يمضى بها اسيرا دون ان تنهض لنجدته او حتى ترثى لحاله ،
شعر حقا بأن احزن صنوف الهوان ما حاق به في حيه ، ثم رفع
عينيه الى السماء باعثا بفكره الى الله المطلع على قلبه ، بعث اليه
بفكره دون ان يجرى له ذكرا على لسانه ولو همسا مستحييا من
ان ينطق باسمه وجسمه لم يتطهر من انفاس الشراب وعرق
الفرام ، وما لبث ان تضاعف خوفه من ان يباعد دنسه بينه وبين
النجاة ، او ان يلقي مصيرا كفاء لما سلف من استهتاره ، فغشى
صدره تطير وكآبة ، وأشفى على اليأس ، حينما شارف سوق
الليمون ترامي الى الصمت الذى لا يؤتسه الا وقع الاقدام اصوات
مبهمة فأرھف السمع محمقا في الظلام - وهو يتقدم بين الخوف
والرجاء - فتناهت الى اذنيه لجة لم يدر ان كان مصدرها انسان
او حيوان ، غير انه تبين بعد قليل لقطا فلم يتمالك ان قال لنفسه
في لهفة « اصوات آدمية ! » ، وماز مع الطريق فلاحت لعينيه
اضواء متحركة حسبها بادىء الامر بطاريات جديدة ولكنها
وضحت مشاعل رأى على نورها جانبا من بوابة الفتوح يقف
تحتة جنود بريطانيون ، ثم تراءى له جنود من البوليس المصرى
رد منظرهم الى صدره الدماء . سأعرف ما يراد بى ، لم يبق
الا مسيرة خطوات ، ماذا دعا الى تجمهر الجنود الانجليز والمصريين
عند البوابة ؟ ؛ لماذا يسوقون الأهالى من شتى انحاء الحى ؟ عما
قليل اعرف كل شئ ، كل شئ كل شئ ؟ فلأستعد بالله ولاسلم
اليه امرى ؛ سأذكر هذه الساعة الرهيبة مدى العمر ان كان في
العمر بقية ، الرصاص .. المشنقة .. دنشواى .. انضم الى
سجل الشهداء ؟ أصبح نبأ من انباء الثورة يتناقله محمد عفت

وعلى عبد الرحيم وابراهيم الفار كما كنا نتناقل الاخبار في
سهرات المساء ؟ تصور السهرة ومكانك شاغر ؟ رحمة الله عليه
.. كان وكان .. لشد ما يكونك ، وسيدذكرونك طويلا ، ثم
تنسى ، ما اشد اضطراب قلبى ؛ سلم امرك للذى خلقك . اللهم
حوالينا ولا علينا . ما ان اقترب من موقف الجنود حتى اتجهت
الانظار اليه باردة قاسية متوعة فغاص قلبه في الأعماق مخلفا
وراءه في الاضلع الما حادا ، ترى هل آن له ان يتوقف ؟ تناقلت
قدماه ولفه التردد والحيرة ..
ادخل ..

هتف بها شرطى وهو يشير الى داخل البوابة فنظر السيد
اليه نظرة ناطقة بالتساؤل والاستعطاف والاستغاثة ، ثم مر بين
الجنود لا يكاد يرى ما بين يديه من شدة الفزع ويود لو يغطى
راسه بذراعيه استجابة لغريزة الخوف التى تستصرخه . هناك
تحت قبة البوابة رأى منظرا عرفه بما يراد به بغير حاجة الى
سؤال ، رأى حفرة عميقة كالخندق تعترض الطريق ، كما رأى
جمهورا من الأهالى يعملون بلا توقف وتحت اشراف الشرطة لسد
الحفرة بأن يحملوا التربة في مقاطف ويفرغونها فيها ، الكل يعمل
بهمة وسرعة والأعين تسترق النظر في خوف الى الجنود الانجليز
الذين رابطوا عند مدخل البوابة . اقترب منه شرطى ورمى اليه
بمقطف وهو يقول بصوت غليظ ينم عن وعيد :

- افعل كما يفعل الآخرون ...

ثم همسا :

- أسرع حتى لا يصيبك اذى ..

كانت هذه الجملة اول تعبير « انساني » يلقاه في رحلته
المخيفة فسرت في صدره سرى النسمة في خلق المختنق ، انحنى
على المقطف فتناوله من علاقته وهو يسأل الشرطى همسا :

- هل يطلق سراخنا اذا تم العمل ؟

فاجابه بنفس الصوت :

— ان شاء الله .

تنهد من الأعماق ، راودته نفسه على البكاء ، شعر بأنه يولد من جديد ؛ رفع يسراه الجبة من طرفها ودسه في حزام القفطان كيلا تعوقه عن العمل ومضى بالمقطف الى طوار البوابة حيث تراكت الأثرية فوضعه بين قدميه وراح يملأ كفيه بالتراب ويفرغها في المقطف حتى امتلأ ثم حمله بيده وذهب الى الحفرة فأفرغه فيها وعاد الى الطوار ، واصل العمل بين جماعات من الناس ضمت الأفندية والمعممين ، الهرمين والشبان ، يعملون جميعا بهمة عالية مستمدة من رغبتهم في الحياة ؛ وانه ليملاً مقطفه اذ لكزه كوع فالتفت الى مصدره فرأى صديقا يدعى غنيم حميدو صاحب معصرة زيوت بالجمالية ممن يلмон بمجالس لهوه بين حين وآخر ففرح به فرحة عظمت كما فرح به الآخر ، وسرعان ما تهامسا :
— انت وقعت أيضا !..

— قبلك ، وصلت قبيل منتصف الليل ورأيتك وأنت تتسلم مقطفك فجعلت في ذهابي وإيابي أتبع طريقا يميل اليك رويدا رويدا حتى جاورتك .

— أهلا .. أهلا ، اليس ثمة أحد من أصدقائنا ؟

— لم أعثر على غيرك ..

— قال لي الشرطي انهم سيطلقون سراحنا حالما نتم العمل .

— قيل لي ذلك أيضا ، ربنا يسمع منك ..

— سيبوا ركبى الله يخرب بيوتهم ..

— لم تعد لي ركب على ما أظن !

وتبادلا ابتسامة مقتضبة ..

— ما أصل هذه الحفرة ؟

— يقال ان فتوات الحسينية حفروها اول الليل ليمنعوا مسير

اللوريات ويقال أيضا أن لوريا وقع فيها !

— ان صح هذا فقل علينا السلام !

وعندما تجاورا مرة ثانية عند كوم الأثرية كانا قد الفا الموقف بعض الشيء فعاودتهما الروح حتى أنهما لم يتمالكا أن ابتسما وهما يملآن مقطفيهما بالتراب كعمال البناء فهمس غنيم :

— حسبنا الله ونعم الوكيل على أولاد الكلب .

فهمس السيد باسم :

— أرجو أن يعطونا اجرا مناسباً !

— أين قبض عليك ؟

— أمام البيت .

— طبعاً !..

— وأنت ؟

— كنت بالعا منزولة ، ولكنني أفقت تماما ، الانجليز أقوى

من الكوكابين !

— أقوى من القىء نفسه !

مضى الرجال يذهبون ويجيئون عجلين ما بين طوار الأثرية والحفرة على ضوء المشاعل ، أثاروا التراب حتى انتشر في فراغ القبة خالقا جوا خائفا فعلاهم البهر وتصيب العرق من جباههم واغبرت وجوههم وتتابع من انتشاق الغبار سعالهم فكأنهم أشباح انشقت عنهم الحفرة . على أى حال لم يعد وحده ، هذا الصديق وهؤلاء الرجال من حيه ، جنود البوليس المصريون معهم بقلوبهم ؛ آى ذلك انهم جردوا من سلاحهم .. لم يعد السيف ذو القمد المعدنى يتدلل من أحزمتهم ، اصبر .. اصبر لعل هذه الغمة ان تنكشف ، هل كنت تتصور انك ستعمل حتى مطلع الصبح وربما حتى الضحى ، شد حيلك ؛ ليس ثمة انك ستحمل التراب وتسخر في سد الحفرة ؟ لا تريد الحفرة أن تمتلئ ، لا فائدة ترجى من الشكوى ، ولن تشكو ؟ جسمك قوى صلب العود يستطيع أن يتحمل رغم سكرة الليلة وعيشها ، كم الساعة الآن ؟ ليس من الحيلة

ان تنظر فيها ، لو لم يقع لى هذا لكنت الآن مستلقيا على الفراش منعما بلذيد المنام ، كنت أستطيع أن أغسل رأسى ووجهى وأشرب شربة روية من القلة المعطرة بالزهر ، هنيئا لنا هذه المشاركة في جحيم الثورة ، لم لا ؟ البلد نائر .. كل يوم .. كل ساعة ضحايا وشهداء ، بيد أن قراءة الصحف وتناقل الاخبار شيء أما حمل التراب تحت تهديد البنادق فشيء آخر ، هنيئا لكم أيها النائمون في أسرتكم ، اللهم احفظنا ؛ لست لها .. لست لها ، اللهم اهزم المشركين بقوتك ، نحن ضعفاء .. لست لها ، هل يتصور فهمى أى خطر يتهده ؟ انه يستذكر دروسه الآن غير عالم بما يحقق بأبيه ، قال لى : «لا» لأول مرة في حياته ، قالها بدموعه ولكن سيان عندى المعنى واحد ؛ لم أقل لاهم ، لن أقول لها ، اكشف لها عن عجزى ؟ أستعين بضعفها بعد أن اخفقت بقوتى ؟ كلا .. لتبق جاهلة بكل شيء ، يقول انه لا يعرض نفسه للخطر ، حقا ؟ اللهم استجب ، لولا هذا ما رحمته أبدا ؛ اللهم احفظه ، اللهم احفظنا جميعا من شر هذه الايام ، كم الساعة الآن ؟ ان طلع علينا الصباح أمنا القتل ، لن يقتلونا أمام الخلق ، الصباح ؟

— بصقت على الأرض كى اتخلص من الغبار اللازق بسقف حلقى فرماني أحد الأبالسة بنظرة وقف لها شعر راسى !

— لا تبصق ، تشبه بى ، لقد بلغت من التراب قدرا يكفى لسد هذه الحفرة !.

— لعل زبيدة دعت عليك ؟

— لعلها ...

— ألم يكن سد حفرتها أطيب من سد هذه الحفرة ؟

— بل أشق !

تبادلا ابتسامة سريعة ثم قال غنيم متنهدا :

— انقصم ظهري يا هوه ..

— مثلك ، عزاؤنا انيا نشارك المجاهدين بعض الالمهم .

— ما رايك ان ارمى بالمقطف في وجه الجنود واهتف بأعلى صوتى « يحيى سعد » ؟!

— اشتغلت المنزولة من جديد ؟

— يا للخسارة !.. كانت قطعة « قد فص العين » حركتها بالشأى مرة ومرتين وثلاثا ، ثم ذهبت الى الطمبكشية اسمع الشيخ على محمود في بيت الحمزاوى ، وعدت قبيل منتصف الليل وانا اقول للنفسى « الولىة الآن تنتظر لك لأفلق من خيب لها رجاء » حين طلع على ابن القرد وساقنى من قفاى ...

— ربنا يعوض عليك ..

— آمين ..

جاء الجنود برجال آخرين بعضهم من ناحية الحسينية والبعض الآخر من ناحية النحاسين وسرعان ما انضموا الى «العمال» . اتقى على المكان نظرة فوجده ازدحم بالجمهور أو كاد وقد انتشروا حول الحفرة في جميع الجهات ، يذهبون الى الطوار ويرجعون اليها في حركة لاتنقطع وانوار المشاعل تضىء منهم وجوها لاهثة نال منها الاعياء والذل والخوف كل منال . الكثرة بركة وأمان ، لن يذبحوا هذا الجمع الغفير من الناس ، لن يأخذوا البرى بالمذنب ؛ ترى أين المذنبون ؟ أين هؤلاء الفتوات ؟ هل يعلمون الآن ان اخوانا لهم وقعوا في الحفرة التى حفروا ؟! قاتلهم الله هل حسبوا ان حفر حفرة سيعيد سعدا أو يخرج الانجليز من مصر ! لاتقطعن عن السهر ان كتب الله لى عمرا جديدا ، انقطع عن السهر ؟ لم يعد السهر بمامون ، كيف يكون طعم الحياة ؟ لا طعم للحياة في ظل الثورة ، الثورة .. أى جندى يقبض عليك .. تحمل التراب بكفيك ، فهمى يقول لك ! لا ، متى تعود الدنيا الى اصلها ؟ صداد ؟ .. بل صداد وغشيان دقاتى من الراحة .. لا أطعم في مزيد ! بهيجة في سابع نومة ، أمينة تنتظر كما تنتظر « ولىة » غنيم ، هيهات ان يخطر لكم ما حاق بأبيكم ، رباه ان التراب يملأ أنفى وعينى ، يا سيدنا

الحسين ، امتلئى .. امتلئى .. اما كفك هذا التراب كله ؟! يابن بنت رسول الله ، غزوة الخندق .. هكذا دعاها سيدنا الواعظ ، كان عليه الصلاة والسلام يعمل مع العاملين ويرفع التراب بيديه .. كافرون وكافرون لماذا ينتصر كافرو اليوم !.. فساد الزمن .. فساد الزمن .. فسادى أنا ، هل يسكرون أمام البيت حتى تنتهى الثورة ؟

– الم تسمع الديكة ؟

أرهف السيد أذنيه .. ثم غمغم :

– الديكة تصيح ! الفجر ؟

– نعم .. ولكنها لن تمتلئ قبل الصباح ..

– الصباح !

– المهم انى محصور ، محصور جدا ..

اتجه ذهن السيد الى أسفل فشمع بأنه محصور ايضا ، وبأن جانباً من آلامه يعود بلا شك الى ذلك ، وسرعان ما اشتد ضغط المثانة عليه كأنما هيجها تفكيره فيها ، قال :

– وأنا كذلك ..

– والعمل .. ؟

– ما باليد حيلة ..

– انظر هناك الى ابن القرد الذى وقف يبول امام دكان على

الزجاج !...

– آه ...

– اخراج شوية بول أهم الآن عندي من اخراج الانجليز من

مصر كلها ...

– اخراج الانجليز من مصر كلها ؟! ليخرجوا أولا من النحاسين .

– رباه .. انظر .. لا يزال الجنود ياتون بالناس !

راى السيد جماعة جديدة تشقى طريقها صوب الحفرة ..

استيقظ السيد احمد من نومه حوالى العصر وكان نبأ واقعته قد ذاع في الاهل والاصدقاء فوفدوا على البيت واجتمعوا به مهتئين بالسلامة فراح يقص القصة ويعيدها بأسلوب لم يخل - رقم جدية الأمر - من فكاهة وتهويل حتى أثار شتى التعليقات . كانت امينة أول من سمع القصة ، ألقاها عليها وهو مشئت النفس خائر القوى لا يكاد يصدق حقاً أنه نجا فتلفت وحدها الجانب المفعج خالصاً ، وما كادت تفاديه نائماً حتى استرسلت في البكاء وجعلت تدعو الله أن يرعى أسرته بعنايته ورحمته ، ودعت الله طويلاً حتى كل لسانها . ولكنه حينما وجد نفسه مخوطاً بأصدقائه خاصة المقربين منهم أمثال ابراهيم الفار وعلى عبد الرحيم ومحمد عفت ، استرد الكثير من روحه المصنوية فتعذر عليه أن يغفل الجانب انفكاهى من الحادث حتى غلب على ما عداه فأنتهى الحديث الى نوع من المزاح كأنما كان يقص عليهم مغامرة من مغامراته . وبينما حفل الدور الأعلى بالزائرين اجتمع شمل الأسرة بالدور التحتاني فيما عدا الام التى شغلت مع ام حنفى بتهيئة القهوة والاشربة . شهدت الصالة من جديد اجتماع ياسين وفهمى وكمال وخديجة وعائشة في مجلس الام التقليدى ، وقد انضم اليهم خليل شوكت وابراهيم شوكت سحابة النهار ولكنهما صعدا الى حجرة الاب عقب استيقاظه بقليل فخلا الجو للأخوة ، وكان الحزن الذى غشيهم طوال النهار على ما اصاب والدهم قد زایلهم بعودة الطمانينة الى نفوسهم فنبضت قلوبهم بالعواطف الاخوية وتوثبوا للسمر والمرح كمهدم في الأيام الخوالي . علي أن الطمانينة لم

تستقر بنفوسهم حتى راوا والدهم بأعينهم ، أقبلوا عليه واحدا في أثر واحد فقبلوا يده ودعوا له بطول العمر والسلامة ثم غادروا الحجرة في نظام وأدب عسكريين . ومع أن السيد اكتفى بمد يده لياسين وفهمى وكمال بالتتابع دون أن ينبس بكلمة إلا أنه ابتسم الى خديجة وعائشة وسألها في رقة عن الحال والصحة ، رقة لم تحظيا بها الا بعد زواجهما ، وكان كمال يلاحظها بدهشة مقرونة بسرور كأنما هو الذى يحظى بها . والحق أن كمال كان أسعد الجميع بزيارات شقيقته كلما هلت . كان ينعم في انائها بسعادة عميقة لا يعكر عليه صفوها الا تفكيره في النهاية المتوقعة . ودائما كان يجيء النذير بهذه النهاية من أحد الرجلين - ابراهيم او خليل - اذا تمطى او تشاءب ثم قال « آن لنا أن نذهب » امرمطاع لا يرد ، لم تتكرم احدى شقيقته - ولو مرة واحدة - بأن تجيبه قائلا مثلا « اذهب أنت وسألحق بك غدا » ! بيد أنه بمرور الزمن اعتاد الصلة العجيبة التى تربط بين شقيقته و وزوجيهما وسلم بحكمها وقنع بالزيارة القصيرة تجيء بين الحين والحين فيسعد بها دون طمع في مزيد . وبالرغم من هذا فلم يكن يتمالك أحيانا اذا رآهما مقبلتين من أن يقول متمنيا « لو تعودان الى البيت فتقيمان فيه كما كنتما » ! فتبادره امه قائلا « ربنا يكفيهما شر تمنياتك الطيبة ! » . بيد أن أعجب ما صادفه في حياتهما الزوجية كان ذلك التغير العجيب الذى طرأ على البطن . . وما صاحبه من اعراض بدت تارة مرعبة كالمرض وطورا غريبة كالاساطير ، وفدت على حافظته الفاظا جديدة كالحبل والوحم وما اكتنف الاخير من قىء وتوعل والتهم لحبات الطين الجافة . . ثم ما شأن بطن عائشة ؟ . متى يقف عن النمو الذى جعله كالقربة المنفوخة ؟ . وهذا بطن خديجة بدا - فيما يبدو - يخطو نفس الخطوات ، واذا كانت عائشة ذات البشرة العاجية والشعر الذهبى قد وحثت على الطين فعلى أى شيء توحم خديجة ؟ . . غير أن خديجة لم

تحقق مخاوفه فتوحمت على المخلل حتى استثارت منه أسئلة لا حصر لها لم يظفر احدها بجواب مقنع ! . وتقول امه ان بطن عائشة - وبطن خديجة بالتالى - سيتمخض عن طفل صغير سوف يكون قرّة لعينه . . ولكن : أين يقيم هذا الطفل ، وكيف يعيش . وهل يسمع ويرى ، وماذا يسمع وماذا يرى ؟ وكيف وجد . ومن أين جاء ؟ . على أن هذه الأسئلة لم تهمل ، ظفر عنها بأجوبة جديدة حقا بأن تلحق بمعارفه عن الأولياء والعفاريث والرقى والتعاويد وغير ذلك من المواد التى تزخر بها دائرة معارف امه . . لذلك سأل عائشة استطلما باهتمام :

- متى يخرج الطفل ؟

فأجابته ضاحكة :

- اصبر لم يبق الا قليل . .

فتساءل ياسين :

- أظنك في شهرك التاسع ؟

فأجابته :

- نعم ولو ان حماتى تصر على انى في الثامن !

فقالت خديجة بحدة :

- اصل حماتك تصر دائما على أن يكون لها رأى مخالف ، هذا

كل ما هنالك !

- ولما كان الجميع على علم بما ينشب كثيرا بين خديجة

وحماتها من نزاع فقد تبادلوا النظرات ثم ضحكوا .

وقالت عائشة :

- اود ان اقترح عليكم أن تنتقلوا الى بيتنا فتبقوا معنا حتى

يجلو الانجليز عن شارعكم . .

فقالت خديجة بحماس :

- اجل ، لم لا ؟ . ان البيت كبير وستنزلون على الرحب

والسعة ، فيقيم بابا ونينة عند عائشة لأنها في الدور الأوسط ،
وتقيمون انتم عندي ..

رحب كمال بالاقتراح فتساءل بلهجة تنم على التحريض :
- من يقول لبابا ؟

ولكن فهمي قال وهو يهز منكبيه :

- انكما تعلمان حق العلم ان بابا لا يمكن ان يوافق ..
فقال خديجة بأسف :

- ولكنه يحب السهر فيكون عرضة لتحرش الجنود ، يا لهم
من مجرمين ! .. ساقوه في الظلام وحملوه التراب ! .. آه . راسي
يدور كلما تصورت هذا ..
فقال عائشة :

- كنت انتظر دوري لتقبيل يده وانا انفحص جسمه جزءا
جزءا لاطمئن عليه ، كان قلبي يدق .. وعيناي تغالبان الدمع ..
لعنة الله على الكلاب اولاد الكلاب ! ..
فابتسم ياسين .. وقال لعائشة محذرا وهو يلحظ كمال
غامزا بعينه

- لا تسبى الانجليز هكذا فان لهم بيننا اصدقاء ..
فقال فهمي متهمكا :

- لعله مما يسر له بابا ان يعلم ان الجندى الذى قبض عليه
ايلا ما هو الا صديق من اصدقاء كمال ..
فابتسمت عائشة الى كمال متسائلة :
- الا تزال تحبهم بعد ما كان منهم ؟

فغمغم كمال وقد تورد وجهه حياء وارتباكاً :

- لو عرفوا انه ابى ما تعرضوا له بسوء !

فما تمالك ياسين الا ان ضحك ضحكة عالية حتى انه غطي
فمه بيده وهو ينظر في حذر الى السقف كأنما خاف ان يترامى
صوت ضحكته الى الدور الاعلى .. ثم قال ساخرا :

- الأخرى بك ان تقول : انهم لو عرفوا انك مصرى ما صبوا
العذاب على مصر والمصريين ، ولكنهم لا يعرفون !
فقال له خديجة بلهجة لاذعة :
- دع هذا الكلام لعيرك انت ..! انتكر انك من اصدقائهم
كذلك ؟ !

ثم مخاطبة كمال بلهجة لاذعة :

- اتواتيك الشجاعة بعد ما عرف عن صداقتك لهم على ان
تصلى الجمعة في سيدنا الحسين ؟

فقطن ياسين الى مرمى هجومها وقال مظهرا الاسف :
- يحق لك ان تتطاولى على مادمت قد تزوجت فاكسبت
بعض حقوق الأدميين ..

- ألم يكن لى هذا الحق من قبل ؟!

- الله يرحم أيام زمان ..! ولكنه الزواج يعيد الى البائسات
الروح ..! اسجدى شكرا للأولياء .. ولتعاويد وأقراص أم حنفى .
فقال خديجة وهى تغالب ضحكة :

- يحق لك أنت أن تتهجم على الناس بالحق وبالباطل بعد أن
ورثت المرحومة وصرت في عداد الملاك .

فقال عائشة بفرح صبياني كأنما لم تدر من الأمر شيئا :
- أخى في عداد الملاك ! .. ما اجمل ان اسمع هذا ! .. أنت
غنى حقا يا سى ياسين ؟!
فقال خديجة :

- دعيني أعد لك أملاكه ، اسمعى ياستى : دكان الحمزاوى
وربع الغورية وبيت قصر الشوق ..

فقال ياسين وهو يهز رأسه مغمضا عينيه :

- ومن شر حاسد اذا حسد ..

فتابعت خديجة حديثها دون مبالاة بمقاطعته :

- وما خفى من الخلى والنقود المخبأة اعظم ..

فهتف ياسين في أسف صادق :

— اختفت كلها وحياتك ، سرت ، سرقتها ابن الكلب . جمعت
أبى يسأله عما إذا كانت تركت حليا أو نقودا فقال اللص « ابحتوا
بأنفسكم ، علم الله أنى كنت أنفق عليها في أثناء مرضها من جيبى
الخاص » .. اسمعوا يا هوه .. جيبه الخاص ابن الفسالة ..
فقالت عائشة بتأثر :

— يا ولداه !.. مريضة طريحة الفراش تحت رحمة رجل
طامع في مالها !.. لا صديق ولا حبيب ، غادرت الدنيا من دون
أن يحزن عليها أحد .

فتساءل ياسين :

— من دون أن يحزن عليها أحد ؟ !

فأشارت خديجة من خلال باب موارب الى ملابس ياسين
المعلقة بالمشجب وقالت محتجة احتجاجا ساخرا :

— وهذا البايون الأسود ؟ ! .. اليس آية على الحزن ؟ !

فقال ياسين جادا :

— لقد حزنتم عليها حقا ، ربنا يرحمها ويغفر لها ، ألم تكن
تصافينا في آخر لقاء ؟ الله يرحمها ويغفر لها ولنا ..

فخفضت خديجة رأسها قليلا رافعة حاجبيها ثم نظرت اليه
من أعلى كمن ينظر من فوق نظارته وهى تقول :

— احم .. احم .. اسمعوا سيدنا الواعظ (ثم وهى ترميه
بنظرة شك) ولكن لم يبد عليك فيما اظن حزن شديد ؟ !

فرماها بنظرة مغيظة قائلا :

— ما قصرت في واجبى نحوها والحمد لله ، اقمتم لها مأتمين
استمر ثلاث ليال ، وكل جمعة أزور القرافة محملا بالرياحين
والفواكه .. أم تريدنى أن الطم وأعول وأحثو التراب على
رأسى !.. أن للرجال حزنا غير حزن النساء .

فهزت رأسها كأنما تقول « ادفنتى أفادك الله » ثم قالت
متتهدة :

— آه من حزن الرجال !.. ولكن خبرنى وحياتى عندك ألم
يخفف الدكان والربع والبيت من لوعة الحزن !!
فقال متأففا :

— صدق من قال : ان قبح اللسان من قبح الوجه ..

— من قائل هذا ؟ ..

أجابها باسم :

— حماتك ! ..

فضحكت عائشة ، وضحك فهمى وهو يسأل خديجة :

— ألم تتحسن العلاقات بينكما ؟

فأجابته عائشة بالنيابة عنها قائلة :

— سوف يتحسن ما بين الانجليز والمصريين قبل أن يتحسن
ما بينهما ..

فقال خديجة بحنق لأول مرة :

— امرأة قوية ، ربنا عليها ، والله أنا بريئة ومظلومة ..

فقال ياسين متهمكا :

— نصدقك يا أختى بلا قسم ، هذا شيء نشهد به أمام الله في

يوم العذاب !

فعاد فهمى يسأل عائشة :

— وأنت كيف خالك معها ؟

فقالت عائشة وهى تلحظ خديجة باشفاق :

— على ما يرام ..

فهتفت خديجة :

— آه من أختك عائشة .. تعرف كيف تسوس وتطاطىء

الرأس .. اتفوخص ..

فقال ياسين متصنعا الجذ :

- على أى حال فلحمانك الرحمة ولك صادق التهنية !
 فقالت بسخرية :
 - التهنية الحق لك انت قريبا ان شاء الله حين تزف الى
 عروسك الثانية !.. أليس كذلك ؟..
 فما تمالك الا ان ضحك .. ثم قال :
 - ربنا يسمع منك ..
 فتساءلت عائشة باهتمام :
 - حقا ؟..
 ففكر قليلا .. ثم قال في شيء من الجد :
 - المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، ولكن من يعلم بما يأتى به
 الغد ؟! ربما ثانية وثالثة ورابعة ..
 فهتفت خديجة :
 - هذا ما أتوقعه ، الله يرحم جدك !
 فضحكوا جميعا حتى كمال ، ثم عادت عائشة تقول بصوت
 اسيف :
 - مسكينة زينب ! .. كانت فتاة لطيفة وطيبة ..
 - كانت ..! وكانت حمقاء أيضا ، أبوها - مثل أبى - لا يطاق
 .. لو رضيت بمعاشرتي كما احب ما فرطت فيها أبدا .
 - لا تعترف بهذا ، حافظ على كرامتك ، لا تشمت بك خديجة ..
 قال باستهانة :
 - نالت الجزاء الذى تستحقه ، فلينعها أبوها ويشرب ماءها .
 فغمضت عائشة :
 - ولكنها حبلى يا ولداه !.. اترضى لوليدك بأن ينمو بعيدا
 عن رعايتك حتى تسترده غلاما ؟!..
 آه ، أصابت مقتلا ، ينمو في حضانة امه كما نما أبوه من قبل .
 ربما كابد تعاسة كتعاسته أو أشد . ربما نمت معه كراهية لأمه
 أو لأبيه ، تعاسة على أى حال . قال عابسا :

- ليكن حظه كحظ ابيه ، ما باليد حيلة .
 وساد الصمت قليلا حتى سأل كمال خديجة :
 - وانت يا ابله متى يخرج الطفل ؟..
 فأجابته ضاحكة وهي تتحسس بطنها :
 - أنه لا يزال في سنة اولى .
 فعاد يقول لها ببراءة وهو يتفرس في وجهها :
 - نحفت جدا يا ابله وصار وجهك قبيحا !..
 ضحكوا جميعا وهم يغطون افواههم بأيديهم ، ضحكوا حتى
 شعر كمال بالحياء والارتباك ، اما خديجة التى لم يكن الاستياء
 من كمال مما تستطيعه فقد مالت الى ان تجارى التيار فقالت
 ضاحكة :
 - اعترف لكم بانى خسرت في ايام الوحم كل اللحم الذى
 تعبت ام حنفى اعواما في جمعه وله ، نحفت وبرز انفى وغارت
 عيناى وخيل الى ان « الرجل » يقلب عينيه مفتشا غبثا عن
 العروس التى زفوها اليه !..
 ثم ضحكوا ثانية حين قال ياسين :
 - الحق ان زوجك مظلوم لانه على غباوته البادية وسيم الطلعة
 فسبحان من جمع الشامى على المغربى ..
 تجاهلته خديجة وخاطبت فهمى قائلة وهى تومئ الى
 عائشة :
 - كلاهما - زوجى وزوجها - في الغباء سواء !. لا يكادان
 يبرحان البيت ليل نهار ، لا هم ولا عمل ، اما زوجها فوقته كله
 ضائع بين التدخين وعزف العود كأنه شحاذ من الشحاذين الذين
 يعمرون على البيوت في الأعياد ، واما زوجى فلا تراه الا مستلقيا
 يدخن ويثرثر حتى يدوخ دماغى ..
 قالت عائشة بالمعتذرة :
 - الاعيان لا يعملون !

فقال خديجة هائلة :

— العفو !.. يحق لك ان تدافعي عن هذه الحياة ، الحق ان الله لم يجمع بين متشابهين كما جمع بينكما ، كلاكما في الكسل والدعة والخمول شخص واحد ، والنبي يا سى فهمى يمر اليوم كله وهو يدخن ويعزف وهى تزوق نفسها وتذهب وتجيء امام المرأة ..

تساءل ياسين :

— لم لا ما دامت ترى منظرا حسنا ..؟!

وقبل ان تفتح خديجة فاهها سألها مستعجلا :

— خبريني يا اختاه ماذا تصنعين لو جاء وليدك شبيها بك ؟ كانت شبت من مهاجمته فأجابته جادة :

— سيجيء باذن الله شبيها بأبيه او جده او جدته او خالته ، اما .. ثم ضاحكة :

— اما اذا ابى الا ان يجيء شبيها بأمه فالنفي يكون احق به من سعد باشا !.

ولكن كمال قال لها بلهجة خير عليم :

— الانجليز لا يهمهم الجمال يا آبلأ ، انهم يعجبون كثيرا براسى وانفى ..

فضربت خديجة صدرها بيدها هائفة :

— يدعون صداقتك وهم يعبتون بك !.. ربنا يسلط عليهم زبلن من جديد .

ورمت عائشة فهمى بنظرة رقيقة وهى تقول :

— كم يسر دعاؤك بعض الناس ..

فابتسم فهمى مغفما :

— كيف اسر ولهم في بيتنا اصدقاء مغفلون ؟

— يا خسارة تربيتك له ..

— من الناس من لا تنفع فيه التربية .

فتساءل كمال محتجا :

— الم ارج جوليون ان يعيد سعد باشا ؟

فقال خديجة ضاحكة :

— في المرة القادمة حلفه براسك الذى يعجب به ..

شمر فهمى اكثر من مرة بأن من حوله يسعون كلما بدت فرصة الى استدراجه الى الحديث والتسلية ، بيد ان ذلك لم يجد شيئا في التخفيف من الاحساس بالغربة الذى غشيه طوال الوقت . هو احساس كثيرا ما يفصله عن آله وهو بينهم فيشعر بالغربة او الوحدة رغم زحمة المجلس ، يتفرد بقلبه وحزنه وحاسه بين اناس لاهين ضاحكين ، حتى نفى سعد يتخذون منه دعابة اذا لزم الامر . اختلس منهم النظرات تباعا فوجدهم راضين ، عائشة .. هائلة وان تكن تعبت قليلا بسبب الحمل ولكنها سعيدة بكل شيء حتى بتعبها ، خديجة .. مترثية ضاحكة ، ياسين .. صحة وعافية وغبطة ، من من هؤلاء يكثرث لحوادث هذه الايام !. من منهم يهمه بقى سعد ام نفى ، جلا الانجليز ام مكثوا !. انه غريب ، او غريب على الأقل بين هؤلاء . ومع ان هذا الاحساس كان يلقي منه عادة نفسا مسماحة فانه لم يلق هذه المرة الا حنقا وامتعاضا ، ربما كان ذلك لما عاناه في الايام الأخيرة . كثيرا ما توقع ان يسمع عن زواج مريم ، كان ذلك همه وكرهه بيد انه سلم به سلفا تسليم اليأس ، وكاد يألغه بكرور الايام ، الا ان حبه نفسه تراجع عن بؤرة شعوره الذى شغلته الشواغل الكبرى ، حتى وقعت واقعة جوليون فزلزل زلزالا . تغازل انجليزيا لامطمع لها في الزواج منه فأتى معنى تتضمنه هذه المغازلة ؟. هل تصدر الا عن متهتكة ؟. مريم متهتكة ؟. وفيم كانت احلامه الماضية ؟. ولم يكن يخلو بكمال حتى يدعوه الى اعادة القصة من جديد محتما عليه ان يصف التفاصيل بدقة ، كيف لاحظ ما يدور ، واين كان موقف الجندي ، واين كان موقفه هو ؛ وهل هو متأكد من ان مريم نفسها

التي كانت في الكوة ؟ وانها كانت تنظر حقا الى الجندي ؟. وهل
رآها تبتسم اليه ، وهل وهل وهل ، ثم يسأله وهو يعرض على
اسنانه كأنها يهرس الشقاء الذي يعذبه : وهل تراجعت في خوف
حين وقعت عينها عليك ؟. ثم يضي متخيلا المواقف والمناظر ،
موقفا موقفا ، ومنظرا منظرا ؛ ويتخيل الابتسامة طويلا حتى
كأنه يرى الشفتين المفترتين كما رآهما يوم زفاف عائشة
وصاحبتهما تتبع العروس في فناء بيت آل شوكت .

— يبدو ان نينة لن تجالسنا اليوم .

قالت عائشة بصوت يدل على الأسف .

فقلت خديجة :

— الزوار يملأون البيت ..

ياسين ضاحكا :

— اخاف ان يشبه الجنود في كثرة القادمين فيظنوا ان

اجتماعا سياسيا ينعقد في بيتنا ..

خديجة في مباهاة :

— ان اصدقاء بابا يحجبون عين الشمس ..

فقلت عائشة :

— رايت السيد محمد عفت نفسه على رأس القادمين ..

فأمنت خديجة على قولها قائلة :

— كان صديقا حميما لبابا من قبل ان نرى نور الدنيا .

فقال ياسين وهو يهز راسه :

— اتهمني بابا ظلما بأنني قطعت ما بينهما .

— الا يفرق الطلاق بين اعز الاصدقاء ؟!

ياسين باسم :

— الا اصدقاء ابيك !

عائشة بفخر :

— من ذا تطاوعه نفسه على مخاصمة بابا ؟. والله ما في الدنيا
كلها نظير له ..

ثم وهي تنهد :

— كلما تصورت ما وقع له امس شاب شعر راسي .

اخيرا ضاقت خديجة بوجوم فهمي فعزمت على ان تعالجه
بطريقة مباشرة بعد ان اخفقت — فيما رات — الطرق غير
المباشرة ، فالتفتت اليه متسائلة :

— ارايت يا اخي كيف ان ربنا اكرمك يوم لم يأذن بتحقيق

رغبتك نحو .. مريم ؟!

نظر فهمي اليها بين الدهشة والحياء ، سرعان ما تركزت فيه
الابصار حتى كمال تطلع اليه باهتمام ، وساد صمت نم عمقه عن
شعور مكبوت طال في الصدر تجاهله او اخفاؤه حتى افصحت
عنه خديجة بجراة فتطلعوا الى الشاب في صمت المنتظر للجواب
كأنما هو نفسه الذي طرح السؤال ، غير ان ياسين رأى ان ينهي
الصمت قبل ان يستفحل فيبعث على الألم فقال متظاهرا بالسرور :

— اصل اخيك ولي . والله يحب اوليائه ..

وكان فهمي يكابد حرجا وحياء فقال باقتضاب :

— هذه مسألة قديمة عفاها النسيان ..

فقلت عائشة بلهجة المعتذر :

— لم يكن سي فهمي وحده الذي خدع بها ، كلنا خدعنا بها ..

فقلت خديجة مدافعة عن نفسها — بأقصى ما في وسعها —

تهمة الغفلة :

— على اي حال انا لم اقتنع لحظة واحدة فيما مضى ، حتى

مع اعتقادي ببراءتها ، بأنها جديرة به ..

فعاد فهمي يقول متظاهرا بالاستهانة :

— هذه مسألة قديمة عفاها النسيان ، انجليزى .. مصرى

.. سيان ، دعونا من هذا كله ..

وجد ياسين نفسه تعاود التفكير في « مسألة » مريم ..
 مريم .. لم يكن ينظر اليها فيما مضى - ان مرت في مجال
 بصره - الا عابرا ، ثم زاده زهدا فيها تعلق فهمى بها ، حتى ذاعت
 فضيحتها في الاسرة .. هناك ثار اهتمامه ، تساءل طويلا : اى
 فتاة هي ؟ ود لو كان ملاً عينيه منها ، تمنى لو كان سير الفتاة
 التى استرعت تشوق « انجليزى » .. انجليزى جاء الحى مقاتلا
 لا مغازلا ، لم يبد سخطة عليها الا مجازاة للحديث كلما تناولها
 اما في الباطن فقد اطربه غاية الطرب وجود « مقضوحة » جريئة
 مثلها على كتب منه فلا يفصله عنها الا جدار ، شاع في صدره
 انعريض المكتنز ذاك الطرب البهيمى الذى يدعوه الى الصيد وان
 وقف - اكراما لحزن فهمى الذى يحبه - عند حد الشعور واللذة
 السلبية المجردة ، لم يعد في الحى من يستثير اهتمامه كمریم .
 - آن اوان الذهاب .

قالت خديجة ذلك وهى تنهض على حين ترمى اليهم صوتا
 ابراهيم و خليل وهما يتحدثان قادمين من الردهة الخارجية . قام
 الجميع ، من يتمطى ومن يحبك ملابسه ، الا كمال فقد لزم
 مجلسه وهو يتطلع الى باب الصالة بحزن وقلب خافق ..

- ٦٧ -

جلس السيد احمد الى مكتبه ، مكبا على دفاتره ، يراول
 عمله اليومى الذى يتناسى به - ولو الى حين - همومه الشخصية
 والهموم العامة التى تتطاير بها الأنباء الدامية . غدا يحب الدكان
 حبه مجالس الأتس والطرب لانه على الحالين يظهر بما ينتزعه من
 جحيم الفكر ، الا ان جو الدكان حافل بالمساومة والبيع والشراء

والزيج وغير ذلك من شئون الحياة العادية ، حياة كل يوم ، فلا تخلو
 من ان تبعث في نفسه شيئا من الثقة الموحية بإمكان عودة كل شيء
 الى اصله ، الى حالته الاولى من الاستقرار والسلام . السلام ؟ .
 اين ذهب ومتى يأذن بالعودة ؟ .. حتى في هذا الدكان تجرى
 احاديث الدماء همسا مفاجعا ، لم يعد الزبائن يقنعون بالمساومة
 والشراء فما تألو السنتهم ان تردد الأنباء وتندب الاحداث ، فوق
 زكائب الأرز والبن سمع عن معركة بولاق ومذابح اسبيوط
 والجنازات التى تشيع فيها النعوش بالعشرات والشباب الذى
 انتزع من العدو مدفعا رشاشا اراد ان يدخل به الأزهر لولا ان
 سبقته المنية فانغurst في جسمه عشرات المقذوفات ، هذه
 الأنباء وغيرها مما يصطبغ بلونها القانى تفرغ اذنيه بين حين وآخر
 في المكان الذى يلوذ به ناشدا انسيان . ما اتعس الحياة في ظل
 الموت ، هلا عجلت الثورة بتحقيق غاياتها من قبل ان يمتد اذاها
 اليه او الى أحد من ذويه ! .. انه لا يبخل بمال ولا يرضى بعاطفة
 اما بذل الحياة فأمر آخر ، اى عذاب صبه الله على العباد فهانت
 النفوس وجرت الدماء ! .. لم تعد الثورة « فرجة » حماسية ،
 انها تهدد أمنه في الذهاب والاياب ، وتتوعد ابنه « العاصى » ؛ فتر
 حماسه لها ، لها هى دون غايتها ، يحلم بالاستقلال ويعودة سعد
 ولكن دون ثورة أو دماء أو دعر ، يهتف قلبه مع الهاتفين ويتحمس
 مع المتحمسين ولكن عقله يقاوم التيار متعلقا بالحياة فمكث وحده
 في المجرى كأصل شجرة اقتلعت العواصف اغصانها ، لن يوهن
 شيء وان جل من حبه للحياة : فلتبق له الى آخر العمر ، وليؤمن
 فهمى ايمانه لتبقى له حياته الى آخر العمر كذلك ، فهمى العاق
 الذى رمى بنفسه الى التيار بلا حزام نجاة ..

هل السيد احمد موجود ؟

سمع السيد صوت السائل وهو يشعر بان دفاع شخص داخل
 الدكان كأنه مقذوف آدمى فرفع راسه عن مكتبه فرائى الشيخ

متولى عبد الصمد يتوسط المكان رامشا بعينيه المتهبتين مدققا
النظر - عشا - صوب المكتب فهش قلبه وابتمت اساريره
ثم هتف بالقادم :

- تفضل ياشيخ متولى ، حلت البركة ..

فلاح الاطمئنان في وجه الشيخ وتقدم بهتزا اعلاه ما بين الورا
والامام كانه راكب جملا ، فمال السيد فوق مكتبه ومد يده حتى
التقت بيد الرجل وشد عليها متمتما « الكرسي على يمينك ،
تفضل بالجلوس » فأسند الشيخ متولى عصاه الى المكتب وجلس
على الكرسي ثم اعتمد بيديه على ركبتيه وهو يقول :

- الله يحفظك ويصونك ..

فقال السيد من قلبه :

- ما اطيب دعائك وما احوجنى اليه ..

ثم ملتفتا صوب جميل الحمزاوى الذى كان يزن أرزا لزبون :

- لا تنس ان تهنيء لفة سيدنا الشيخ ..

فجاء صوت جميل الحمزاوى قائلا :

- من ذا الذى ينسى سيدنا الشيخ !

فبسط الشيخ راحتيه ورفع راسه وهو يحرك شفتيه
بالدعاء في هينة لم يسمع منها الا وسوسة متقطعة ، ثم عاد الى
وضعه الاول فصمت لحظة ثم قال بلهجة الافتتاح :

- ابدا بالصلاة على نور الهدى .

فقال السيد بحرارة :

- عليه اركى الصلاة والسلام .

- واثنى بالترحم على ابيك طيب الذكر ..

- رحمه الله رحمة واسعة .

- ثم اسأل الله ان يقر عينيك بامر الله وفوريته وذرية ذريته
وذرية ذرية ذريته .

- آمين .

منتهذا :

- وادعوه ان يعيد الينا افتدينا عباس ومحمد فريد وسعد

زغلول ..

- اللهم استجب .

- وان يخرب بيت الانجليز بما اثموا وبما ياثمون ..

- سبحان المنتقم الجبار .

عند ذاك تنحنج الشيخ ومسح على وجهه بكفه ثم قال :

- اما بعد فقد رايتك في منامى تلوح بيدك فما فتحت

عينى حتى صبح عزمى على زيارتك ..

فابتسم السيد ابتسامة لا تخلو من حزن وقال ..

- لا اعجب لذلك فانى في ميسس الحاجة الى بركتك ، زادك

الله بركة على بركة ..

فمال وجه الشيخ نحو السيد في عطف وتساءل :

- احق ما بلغنى عن حادث بوابة الفتوح ؟

فاجاب السيد مبتسما :

- نعم .. من ابغاك يا ترى ؟

- كنت مارا بمعصرة حميدو غنيم فاستوقفنى وقال لى

« الم يبلغك ما فعل الانجليز بحبيبك السيد احمد وبى ؟ »

فاستوضحته منزعا ققص على العجب العجاب .. قص على

السيد الحادث بتفاصيله ، لم يكن يمل ترديده ، ولعله قصه في

الايام القلائل الاخيرة عشرات المرات .

واصفى الشيخ اليه وهو يتلو همسا آيات الكرسي . افزعته

يا بنى ؟ .. كيف كان فزعك .. خبرنى .. لا حول ولا قوة

الا بالله .. ولكن هل قنعت بالسلامة ؟ انسى ان الفرع لا يضى

الى حال سبيله ؟ .. صليت طويلا وسألت الله النجاة ! هذا جميل

ولكن يلزمك حجاب ..

- كيف لا !!.. يزيدنا بركة يا شيخ متولى . والاولاد وامهم ،
 الم يدرهم الفزع ؟
 - طبعا .. قلوب ضعيفة لا عهد لها بالقسوة والارهاب ،
 الحجاب .. الحجاب .. وفيه الشفاء ..
 - انت الخير والبركة يا شيخ متولى .. لقد نجاني الله من
 شر كبير ، ولكن ثمة شر لا يزال يتهددني ويقض مضجعي .
 مال وجه الشيخ نحو السيد في عطف مرة اخرى وتساءل :
 - ماذا بك يا بنى عفا الله عنك ؟
 فرنا السيد اليه بطرف واجم وغمغم في ضجر :
 - ابني فهمي ..
 فرفع الشيخ حاجبيه الاشبيين متسائلا او منزعا ثم قال
 برجاء :
 - محفوظ باذن الرحمن ..
 فهز السيد راسه بأسى وقال :
 - عفى لأول مرة والأمر لله ..
 فبسط الشيخ متولى ذراعيه امامه كأنما يتقى بهما البلاء
 وهتف :
 - معاذ الله ، فهمي ابني ، وانا اعلم علم اليقين انه طبع على البر .
 فقال السيد احمد متسخطا :
 - يابى حضرته الا ان يفعل كما يفعل الشبان في هذه الأيام
 الدامية ..
 فقال الشيخ في دهش واستنكار :
 - انت اب حازم ما في ذلك شك ، ما كنت اتصور ان ابنا
 من ابنائك يجرؤ على ان يرد لك امرا ...
 حر هذا القول في قلبه حتى ادماه وضاق به صدره ، ثم وجد
 من نفسه نزوعا الى التهوين من عصيان ابنه ليدفع عن شخصه
 تهمة الضعف امام الشيخ وامام نفسه معا فقال :

- لم يجرؤ على هذا صراحة طبعا ولكنى دعوته الى ان يحلف
 على المصحف بالا يشترك في اى عمل من اعمال الثورة فبكى ، بكى
 من دون ان يجسر على قول لا ، ماعسى ان اصنع ؟ لا يستطيع
 ان احبسه في البيت ولا يسعنى ان اراقبه في المدرسة ، واخاف
 ان يكون تيار هذه الايام اقوى من ان يقاومه شاب مثله ، ماذا
 اصنع ؟ .. اهدده بالضرب ؟ .. اضره ؟ لكن ماعسى ان يجدى
 التهديد مع شخص لا يبالي تعريض نفسه للموت !
 فمسح الشيخ على وجهه وتساءل بقلق :
 - وهل القى بنفسه في المظاهرات ؟!
 فقال السيد وهو يهز منكبيه العريضين :
 - كلا ولكنه يوزع المنشورات ، لما ضيقت عليه زعم انه
 يكتفى بالتوزيع على خاصة اصدقائه
 - ماله وهذه الأعمال !!.. انه الوديع ابن الوديع ولهذه
 الأعمال رجال من صنف آخر ، الم يعرف ان الانجليز وحوش
 لا تتطرق الرحمة الى قلوبهم الغليظة ؟ .. وانهم يتغذون صباح
 مساء بدماء المصريين المساكين ؟ .. كلمه بالحسنى ، عظه ، بين
 له النور من الظلام ؛ قل له انك ابوه وانك تحبه وتخاف عليه ،
 اما انا فساعمل من ناحيتى على اعداد حجاب من نوع خاص
 وأدعو له في صلاتى وخاصة صلاة الفجر ، والله المستعان من
 قبل ومن بعد ..
 قال السيد بحزن :
 - ان انباء القتلى تتواتر كل ساعة معلنة آى التحذير لمن
 يعتبر فما الذى اصاب عقله ؟ لقد ضاع ابن الفولى اللبان في
 غمضة عين فشهد مآتمه معى وعزى والده المسكين ، كان الشاب
 يوزع سلاطين اللبن الزبادى فصادف في طريقه مظاهرة فانغراه
 القضاء بالاشتراك فيها بلا وعى ، وما هى الا ساعة او نحوها حتى
 خر صريعا في ساحة الأزهر ، لا حول ولا قوة الا بالله .. انا لله

وانا اليه راجعون ، لما تأخر عن ميعاد عودته قلق ابوه فمضى الى زبائنه يسأل عنه ، قال له بعضهم انه جاءهم بالزبادى وذهب وقال آخرون انه لم يمر عليهم كمادته ، حتى بلغ حمروشا بائع الكثافة فوجد عنده الصينية وما تبقى من السلاطين التى لم توزع واخبره الرجل بأنه تركها عنده واشترك في مظاهرة المساء ، فجن جنون المسكين . وقصد من توه قسم الجمالية فوجهوه الى قصر العيني وهناك عثر على ابنه فى المشرحة ، لقد علم بالقصة بحذائرها كما قصها علينا الفولى ونحن في بيته نعزبه ، علم كيف فقد الشاب وكان لم يوجد ولمس حزن ابيه المبرح وسمع صوات اهله ، هلك المسكين فلم يعد سعد ولم يخرج الانجليز ، لو كان جبرا لعقل ولكنه خير ابنائى فله الحمد والشكر ..

فقال الشيخ متولى بصوت اسيف :

- اعرف ذلك الشاب المسكين ، انه اكبر ابناء الفولى اليس كذلك ؟ .. كان جده مكاريا وكنت اكترى حماره للذهاب الى سيدي ابي السعود ، ان للفولى اربعة اولاد ولكن الفقيد كان احبهم الى قلبه ..

هنا اشترك جميل الحمزاوى لأول مرة في الحديث قائلا :

- ايامنا هذه مجنونة وقد تلفت عقول الناس حتى صغارهم ، بالامس قال ابنى فؤاد لامي انه ود او يشترك في مظاهرة !

فقال السيد بقلق :

- يعملها الصغار ويقع فيها الكبار ! .. ابنك فؤاد صديق ابوه كمال وكلاهما في مدرسة واحدة ، الا تحدثه نفسه .. الا تحدثهما نفسيهما مرة بأن يسيرا في مظاهرة ! .. هه .. ما من عجيبة تعد الآن عجيبة ! ..

فقال الحمزاوى وقد ندم على ما فرط منه :

- ليس الى هذا الحد ياسى السيد ، على انى ادبته بلا رحمة

على تمنياته الساذجة ، ان سى كمال لا يخرج الا مصحوبا بأم حنفي حفظه الله ورعاه ..

ساد الضمت نلم يعد يسمع في الدكان الا خشخشة الورقة التى يلف فيها الحمزاوى هدية الشيخ متولى عبد الصمد ، ثم تنهد الشيخ وقال :

- فهمى ولد عاقل ، لا ينبغي ان يمكن الانجليز من نفسه العزيزة ، الانجليز ! .. حسبي الله .. الم نسمع بما فعلوا فى العزيزة والبدرشين ..

كان السيد على حال من القلق لم يجد معها رغبة صادقة في التساؤل ، الا انه لم يتوقع جديدا فوق ما يقرع سمعه هذه الايام ، فاكتفى بأن يرفع حاجبيه متظاهرا بالاهتمام فانشأ الشيخ يقول : - كنت اول امس في زيارة الحسيب النسيب شدداد بك عبد الحميد بسرايه العامرة بالعباسية ، دعانى الى الغداء والعشاء فاتحفته بأحجية له ولآل بيته ، وهناك حدثنى بحديث العزيزة والبدرشين ..

سكت الشيخ قليلا فتساءل السيد احمد :

- تاجر الاقطان المعروف ؟

- شدداد بك عبد الحميد اكبر تاجر قطن ، لعلك عرفت ابنه عبد الحميد بك شدداد فقد كان يوما على صلة وثيقة بالسيد محمد عفت ؟ ..

فقال السيد ببطء ليملى لنفسه في التذكر :

- اذكر انى رابته مرة في مجلس السيد محمد عفت قبل نشوب الحرب ، ثم سمعت عن ابعاده عن القطر عقب عزل افندينا ، اما من جديد عنه .. ؟

فقال الشيخ متولى بلهجة سريعة عابرة كأنما يضع كلامه بين قوسين . ليعود الى حديثه الاول :

- لا يزال مبعدا عن البلاد ، وهو يقيم في بلاد فرنسا ومعه

فوجه واولاده ، لشد ما يخاف شداد بك ان يموت قبل ان يرى
ابنه في هذه الدنيا ..

وسكت مرة أخرى ، ثم مضى يهز رأسه يمينة ويسرة ويقول
بصوت منغوم كأنما ينشد مطلع توشيح نبوى :

— بعد انتصاف الليل بساعتين أو ثلاث والناس نيام حاصر
البلدتين بضغ مئات من الجنود البريطانيين مدججين بالسلاح ..
انتبه السيد انتباهة قاسية . حاصروا البلدتين والناس نيام ؟
.. اليس اولئك المحاصرون من جنس هؤلاء الذين يعسكرون امام
البيت ؟ .. بدعوا بالاعتداء على فأى خطوة تالية يضمرون ؟ ..
ضرب الشيخ على ركبتيه كأنما انشاده بنوع من الايقاع ثم
استطرد قائلا :

— واقتحموا على العمدتين داريهما فأمروهما بتسليم السلاح
ثم مرقوا الى الحرم فنهبوا الحلى واهانوا النساء وجروهن من
شعورهن الى الخارج وهن يولولن ويستغثن وما من مغيث ،
عطفك اللهم على المستضعفين من عبادك ..

دار العمدتين ! .. العمدة شخصية حكومية اليس كذلك ؟ ..
لست عمدة ولا دارى بدار عمدية ، ما انا الا رجل كسائر الناس ،
ما عسى ان يصنعوا بأمثالنا ؟ .. تصور امينة مجرورة من شعرها ،
ايقضى على بأن اتمنى الجنون ! .. الجنون ؟ ..
واصل الشيخ حديثه وهو يهز رأسه قائلا :

— واجبروا العمدتين على ان يدلوهما على بيوت مشايخ
البلدتين واعيانهما ثم اقتحموا البيوت محطمين الأبواب ، نهبوا
كل ثمين ، اعتدوا على النساء اعتداء اجراميا بعد ان قتلوا اللاتي
حاولن الدفاع عن انفسهن ، وضربوا الرجال ضربا مبرحا ، ثم
غادروهما بعد ان لم يبقوا فيهما على ثمين لم يسلب أو عرض
لم يثلم ..

ليذهب كل ثمين الى الجحيم .. « أو عرض لم يثلم » .. اين

رحمة الله ؟ اين انتقامه ؟ .. الطوفان .. نوح .. مصطفى كامل .
تصور .. ! كيف يمكن ان تبقى معه بعد ذلك تحت سقف واحد !
اي ذنب جنت ! .. وهو باى وجه ؟ .. !

ضرب الشيخ بيده ثلاثا على ركبتيه ثم عاد الى الحديث وقد
تهدج صوته فصار بالنواح اشبه ، قال :

— واضرموا النار في البلدتين مستعينين بما على اسقف الدور
من حطب وقش وبما صبوا عليها من بترول ، استيقظت القرى
في فزع رهيب وفر اهلوها عن بيوتهم كالمجانين ، وغلا الصراخ
والأنين ، وامتدت السنة اللهب في كل مكان حتى استحال
البلدتان شعلة من النيران ..

هتف السيد بلا وعى :

— يارب السموات والأرض !

فمضى الشيخ قائلا :

— وضرب الجنود نطاقا حول البلدتين المشتعلتين من بعيد
يتربصون بالأهالى البؤساء الذين انطلقوا هائمين على وجوههم
تبعهم الأغنام والكلاب والقطط يرومون سبيلا للنجاة من النار ،
فما ان بلغوا مواقف الجنود حتى انهال هؤلاء على الذكور ضربا
وركلا ، ثم حجزوا النساء ليسلبوا حليهن ويهتكوا اعراضهن ،
فاذا قاومت احداهن قتلت ، واذا ندت عن زوج او اب او اخ
حركة دفاع رمى بالرصاص ..

ثم التفث الشيخ متولى الى السيد الداهل وضرب كفا على كف
وهو يهتف .. وساقوا بقية الضحايا الى معسكر قريب وهناك
اجبروهم على التوقيع على مكتوب يتضمن اعترافهم بجرائم لم
يرتكبوها واقرار بأن ما انزله الانجليز بهم جزاء حق على ما فعلوا ،
هذا ما حصل يا سيد احمد للمريزية والبدرشين ، هذا مثل
من امثلة التنكيل التى نسامها بلا رحمة ولا شفقة ، اللهم
فاشهد ، اللهم فاشهد ..

وساد صمت كئيب اليم خلا فيه كل الى افكاره وتخیلاته حتى
قطعه جميل الحمزاوى وهو يهتف متاوها :
- ربنا موجود ..

فهتف السيد مؤمنا على قوله :
- نعم ! (ومشيئا الى الجهات الأربع) في كل مكان ..
وخاطب الشيخ متولى السيد قائلا :

- قل لفهمي : ان الشيخ متولى ينصح بالابتعاد عن موارد
التهلكة ، قل له سلم الى الله ربك فهو القادر وحده على اهلاك
الانجليز كما اهلك من قبلهم ممن شقوا عصا طاعته ..

ثم مال الشيخ نحو عصاه ليتناولها فأشار السيد الى جميل
الحمزاوى فجاءه بالهدية ووضعها في يده ثم ساعده على النهوض .
صافح الشيخ الرجلين ومضى وهو يقول :

- « غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيفلون »
.. صدق الله العظيم ..

- ٦٨ -

عند الغلس ، ونور الصباح يولد رويدا من ظلمة الفجر ، طرقت
خادم من السكرية بيت السيد فأخبرت امينة بأن عائشة قد
جاءها المخاض . كانت امينة في حجرة القرن فعهدت بالعمل
الى ام حنفى وهرعت الى باب السلم . بدا على ام حنفى الاستياء
ربما لأول مرة في تاريخ خدمتها الطويل بهذا البيت ، اما كان يحق
لها ان تشهد ولادة عائشة ؟ لها كل الحق .. كأمينه سواء بسواء ،
فتحت عائشة عينها في حجرها ، كل ابن في هذا البيت له امان .
امينة وام حنفى ، كيف يحال بينها وبين ابنتها في هذه الساحة

الرهيبة !.. هل تذكرين ولادتك ؟.. وربيع الطمبكشية ، كان
المعلم في الخارج كعادته وكانت وحيدة بعد منتصف الليل ، وجدت في
ام حسنية صديقة وقابلة معا !.. ترى اين ام حسنية الآن ؟..
الا زالت على قيد الحياة ؟.. ثم جاء حنفى بين تأوهات الألم ، ذهب
بين تأوهات الألم ايضا ، وهو في المهد ، لو عاش لكان ابن عشرين
الآن !.. سيدتى الصغيرة تتألم وانا هنا اهيمى الطعام . امتلا قلب
امينة بفرح موصول باشفاق ، هو الاحساس الذى خفق به قلبها
اول مرة يوم استقبلت التجربة بنفسها . ها هى عائشة تتأهب
لاستقبال اول مولود تستهل به امومتها ، كما استهلته هى امومتها
بخديجة ، هكذا تمتد الحياة التى ائبثقت منها الى غير نهاية .
ومضت الى الاب فزفت اليه البشرى بنبرات رقيقة مهدبة ، مبالغة
هذه المرة في حيائها وتهذيبها ان يستشف وراء صوتها رغبتها
الحارة في الانطلاق الى ابنتها غير ان السيد تلقى الخبر في هدوء ثم
امرها بالذهاب دون ابطاء !.. راحت ترندى ملابسها على عجل
وقد شعرت بأن المزايا التى تكسبها امرأة ضعيفة مثلها بانجاب
الأطفال خليقة بصنع المعجزات احيانا . وعلم الأخوة بالخبر عند
استيقاظهم عقب ذهاب الأم بقليل . علت وجوههم ابتسامة
وتبادلوا نظرة متسائلة . عائشة ام !.. اليس ذلك غريبا ؟.. ماوجه
الغربة فيه . كانت نينة اصغر منها يوم ولدت خديجة . هل
ذهبت نينة لتخرج الطفل بيديها ؟.. ابتسامتان . هذا نذير لى ،
عما قليل تلد بنت الكلب ايضا .. من تعنى ؟! زينب . آه لو سمعت
بابا . عائشة ام ، وانا اب . وانا خال وعم ، ستكون انت ايضا
عما وخالا يا سى كمال ، يجب ان اتخلف اليوم عن المدرسة لاذهب
الى آيلا عائشة . جميل جدا ، استأذن بابا ان استطعت على
المائدة !.. اوووه . نحن في حاجة الى مزيد من المواليد لنسد
العجز الذى اوقعه الانجليز بنا . لو تخلفت عن المدرسة ما حدث
شئ غير عادى ، ثلاثة ارباع التلاميذ مضربون منذ اكثر من شهر .

قل هذا لبابا وسيقتنع حتما بحجتك فيضربك بطبق الغول في وجهك . أووه . مولود جديد ، بعد ساعة أو ساعتين يصير بابا جدا وبنينة جدة ونحن أخوالا ، شيء خطير ، كم مولودا ياترى يرى نور الدنيا في هذه اللحظة ؟ . وكما انسانا يغيب عنه هذا النور في هذه اللحظة ؟ . يجب أن نبلغ جدتى . استطيع أن أذهب الى الحرنفش لابلأغاها اذا تخلفت عن المدرسة ! . قلنا لك لا شأن لنا بمدرستك ، قل لبابا وسرحب بفكرتك . أووه . لعل عائشة تتألم الآن . مسكينة المحبوبة ، ان الطلق لا يلين للشعر الذهبى والاعين الزرق ربنا يقومها بالسلامة ، عند ذاك نشرب المغات ونشعل الشموع ، ذكر أم اثنى ؟ . ابهما تفضل ؟ . الذكر طبعاً ، ربما بدأت بانثى كامها . لم لا تبدأ بذكر كأيها ؟ . هاها ، عند ما يحين ميعاد انصراف المدرسة يكون الطفل قد خرج فلن أتمكن من مشاهدة خروجه . أتريد أن تراه وهو يخرج ؟ . طبعاً . أجل هذه الرغبة حتى يكون المولود ابنك أنت ! . كان كمال أشد الجميع تأثراً بالخبر ، شغل به عقلا وقلبا وخيالاً . لولا شعوره برقابة ضابط المدرسة عليه وأنه يحصى حركاته وسكناته ليلفها أول فأول الى أبيه لما كان في وسعه أن يقاوم الاغراء الذى يناديه للذهاب الى السكرية . ومكث في المدرسة جسدا بلا روح ، هامت روحه في السكرية تتساءل عن القادم الجديد الذى ترقب مقدمه أشهرا وهو يمنى النفس بالاطلاع على سره المكنون . شهد مرة ولادة قطة وهو دون السادسة اذ استرعت انتباهه بموائها الحاد فهرع اليها تحت عرش اللبلاب فوق السطح فوجدها تتلوى الما وقد جحظت عيناها ، ثم رأى جسمها يتصدع عن فلذة ملتبهة فتراجع متقززا وهو يصرخ بأعلى صوته . طافت هذه الذكرى بمخيلته والحت عليه حتى عاوده تقززه القديم وانتشرت حوله مضجرة مقلقة كالضباب . غير أنه لم يستسلم للخوف ، أبى أن يتصور أن ثمة علاقة بين القطة وعائشة الا ما يكون بين الحيوان والانسان وهو

— في ايمانه — أبعد مما بين الأرض والسماء ، ولكن ماذا يحدث في السكرية اذن ؟ . ماذا طرا على عائشة من غرائب الامور ؟ . ثمة أسئلة حيارى لا تنعم بجواب . ما كاد يفادر المدرسة عصرا حتى اندفع يقطع الطريق عدوا الى السكرية .

دخل فناء بيت آل شوكت وهو يلهث ، ومضى الى باب الحريم فلاحته منه التفاتة الى النظرة فما يدري الا وعيناها تلتقيان بعيني والده الذى جلس شابكا راحتيه على مقبض عصاه القائمة بين رجلبيه . تسمر في مكانه جامدا محملا كأنما نوم تنويما مغناطيسيا ، لم يطرف ولم يبد حراكا ، ركه شعور بالذنب لا يدريه فليث يترقب انقضاخ العقاب عليه وبرودة الخوف تسرى في اطرافه حتى اشتبك السيد أحمد في حديث مع شخص يجلس الى جانبه فالتفت نحوه فاسترد كمال عينيه وهو يزدرد ريقه ، عند ذاك لمح في داخل النظرة ابراهيم شوكت وياسين وفهمى قبل أن يفر الى الداخل ، رقى في السلم وثبا حتى انتهى الى دور عائشة فدفع بابا مواربا ودخل فالتقى بخليل شوكت زوج اخته واقفا في الصالة ، ورأى باب حجرة النوم مغلقا وقد ترامى من ورائه الى سمعه أصوات تتحدث ميز منها أمه وحرم المرحوم شوكت وصوتا ثالثا لا يعرفه ، سلم على زوج اخته ثم سألوه وهو يتطلع اليه بطرف باسم :

— آبلأ عائشة ولدت ؟

فرفع الرجل سبابته الى شفثيه محذرا وهو يقول :

— هس . .

ادرك كمال أنه لم يرحب بالسؤال ، بل أنه لم يرحب بمقدمه كسالف عادته فخبج وعانى قلعا لم يدرك له سببا ، وأراد أن يتقدم من الباب المغلق ولكن صوت خليل اوقفه وهو يهتف باقتضاب ينم عن الضجر :

— لا . . .

فتحول نحوه متسائلا ولكن الرجل قال له في عجلة ولهوجة:

— انزل يا شاطر والعيب تحت ..

انكسرت نفس الغلام فتقهقر متثاقلا باثخا وقد عز عليه أن يجزى على عذاب انتظاره طوال اليوم هذا الجزاء البخس ، ولما بلغ عتبة الصالة صك أذنيه صوت غريب آت من الحجرة المغلقة ، بدأ رفيعا حادا عاليا ، ثم غلظ وترهل حتى بح ، وانتهى بحشرجة طويلة قاسية ، ثم غاب لحظة مقدارها تردد النفس المقطوع ، ثم بعث آهة عميقة شاكية ، بدأ له غريبا أول الامر كأنه لم يعرف صاحبه ؛ ولكن نبرة من نبراته المعذبة تميزت وسط الحدة والغلظة والحشرجة فوشت بهوية مصدره ، صوت عائشة بلا ريب ، أو هو عائشة مذابة منصهرة ، ثم تأكد من ظنه عند تردد الآهة العميقة الشاكية ، فارتعشت جوارحه ، وخيل اليه انه يراها تتلوى على حال من الألم دعت الى مخيلته بصورة النقطة القديمة ؛ وعطف رأسه صوب خليل فألفاه يقبض راحته ويسطها وهو يتمتم « يا لطيف يارب » فخيل اليه مرة أخرى أن جسم عائشة ينقبض ويتبسط مثل راحة الرجل ، لم يعد يملك من نفسه شيئا فركض الى الخارج مفحما في البكاء . وعند ما انتهى الى باب الحريم استرعى سمعه وقع أقدام هابطة وراءه فرفع رأسه فرأى الجارية سويدان نازلة على عجل فمرت به دون أن تنتبه اليه حتى وقفت على عتبة باب الحريم ثم نادى سيدها ابراهيم فجاء الرجل مسرعا فقالت له « الحمد لله ياسيدى » ، لم تزد على ذلك شيئا ولم تنتظر حتى تسمع ما يقول ولكنها دارت على عقبها وهرعت الى السلم فرقيت فيه دون تردد ، رجع ابراهيم الى النظرة مهمل الوجه فلبث كمال وحده لا يدرى ما يفعل ولكن لم تمض دقيقة حتى عاد ابراهيم يتبعه السيد احمد فياسين ثم فهمى فتنحى الغلام جانبا حتى مروا ثم صعد في أعقابهم خافق القلب ، وقابل خليل الآتين أمام مدخل الشقة فسمع أباه وهو يقول له :

— الحمد لله على السلامة ..

فغمغم خليل في وجوم :

— الحمد لله على كافة الاحوال ..

فسأله السيد احمد باهتمام :

— مالك ..؟

فقال بصوت منخفض :

— انى ذاهب لاستدعاء الطبيب ..

فتساءل السيد قلعا :

— المولود ..؟

فأجابه وهو يهز رأسه سلبا :

— عائشة !.. ليست على ما يرام ، سأجىء بالطبيب حالا ..

وذهب مخلفا وراءه وجوما وقلقا واضحين ، ثم دعاهم

ابراهيم شوكت الى حجرة الاستقبال فمضوا اليها صامتين .

وجاءت حرم المرحوم شوكت بعد قليل فسلمت وهى تبسم

لتدخل الطمأنينة الى قلوبهم ثم جلست وهى تقول :

— قاست المسكينة طويلا حتى انهكت قواها ، ولكنها حال

عارضة وستزول وشيكا ، انى واثقة مما أقول ولكن ابنى بدأ

اليوم خوفا على غير عادته ، على انه لا ضرر البتة من معجىء

الطبيب (ثم مناجية نفسها بصوت خفيض) الطبيب ربنا وربنا

وهو الطبيب ..

لم يعد السيد يطبق ما يلتزم عادة من وقار وبرود أمام

أبنائه فسألها في قلق غير خاف :

— ماذا بها ؟ .. الا أستطيع أن أراها ؟

فابتسمت المرأة وقالت :

— ستراها عما قريب وهى بخير وعافية ، الحق على ابنى

المجنون هو الذى أزعجكم بغير موجب ..

كان وراء الصدر العريض القوى والوقار الحازم الهيب قلب
يتعذب أشد العذاب ، كان وراء العينين الواجبتين الرزيتتين دمع
متجمد .. ماذا دهم الصغيرة ؟. الطبيب ؟! لماذا تحول المعجوز
ببنى وبينها ؟! ابتسامة رقيقة او كلمة حنونة منى انا ، منى انا
خاصة ، حقيقة بأن تخفف من آلامها ، زواج وزوج والم ، لم تدق
في بيتى مرارة الألم قط ؛ العزيرة الجميلة الصغيرة رحمتك اللهم ،
فسد طعم الحياة ، انه ليفسد لاهون اذى يتهددهم ؛ فهمى ..
اراه واجما متألما .. هل ادرك معنى الألم ؟. من اين له ان يعرف
قلب الأم ؛ المعجوز مطمئنة وواقعة مما تقول ، ابنا أزعجنا بغير
موجب ، اللهم استجب ؛ أنت أعلم بحالى بأن تنجيتها كما نجيتنى
من الانجليز ، قلبى لا يطيق هذا العذاب ، عند الله الرحمة ؛ وهو
قادر على حفظ ابنائى من كل سوء ، لا طعم للحياة بغير ذلك ،
لا طعم للسرور والطرب واللهو اذا انغرس فى جنبى شوك حادة ،
قلبي يدعو لهم بالسلامة ، لانه قلب اب ؛ ولانه لا تطيب المسرات
الا لخلق ، هل ألقى سمار الليل بقلب سعيد ؟. احب اذا ضحك
ان تنطلق الضحكة من أعماق قلبى صافية ، القلب القلق كالوتر
المختل ، حسبى فهمى ؛ انه يلح على كوجع الأسنان ، ما أبفض
الألم ، دنيا بلا ألم ؛ لا شيء على الله بكثير ، دنيا بلا ألم ولو تكون
قصيرة ، دنيا تفر فيها عينى بهم جميعا . هنالك أضحك وأغنى
والهو ؛ يا أرحم الراحمين ، عائشة يا أرحم الراحمين !
بعد غيبة ثلث ساعة عاد خليل مصحوبا بالطبيب فدخل الحجر
من فورهما ثم أغلق الباب وراءهما ، وعلم السيد بمقدمهما فقام
واتجه الى باب حجرة الاستقبال ووقف على العتبة قليلا وهو
يبد البصر الى الباب المغلق ثم عاد الى مجلسه فجلس . قالت
حرم المرحوم شوكت :

- لتعلمن صدق رأى حالما يتكلم الطبيب ..

فغمغم السيد وهو يرفع رأسه الى اعلى :

- عنده العفو ..

عما قليل يعرف الحقيقة فيمرق من ضباب الشك مهما تكن
العواقب . ان قلبه يخفق خفقانا سريعا متواصلا ، فليصبر ، لم
يبق الا قليل . ان ايمانه بالله قوى عميق لا يتزعزع فليسلم اليه
أمره ، سيخرج الطبيب طال مكثه في الداخل ام قصر وعند ذاك
يسأله عما وراءه ، الطبيب ؟. لم يفكر في ذلك من قبل ، طبيب
عند نساء !.. مع الرحم وجها لوجه ، اليس كذلك ؟ ولكنه
طبيب !. ما الحيلة ؟! اللهم ان ربنا يأخذ بيدها فلنسأله السلامة ،
وجد السيد الى قلقه حياء وامتعاضا . واستمر الفحص زهاء
ثلث ساعة ثم فتح الباب فنهض السيد ومضى من توه الى الصالة ،
وتبعه الأبناء حتى تجمعوا حول الطبيب . كان الطبيب من
معارف السيد فصافحه باسمائهم قال :

- بخير وعافية ..

ثم فى شيء من الجد :

- جاءوا بى للوالدة ولكنى وجدت أن التى فى حاجة الى
العناية حقا هى المولودة ..

تنفس السيد بارتياح لأول مرة منذ حوالى الساعة فتسأله
ووجهه يشرق بابتسامة لطيفة :

- أطمئن اذن على عهدتك ؟

فقال الطبيب وهو يتظاهر بالدهش :

- نعم ، ولكن ألا تهتمك حفيدتك ؟!

فقال السيد باسماء :

- لا عهد لى بعد بواجبات الجد ..

وتسأله خليل :

- أليس ثمة أمل فى حياتها ؟

فقال الرجل وهو يزوى ما بين حاجبيه :

– الأعمار بيد الله ، ولكنى وجدت قلبها ضعيفا ، من المحتمل أن تموت الليلة ؛ وإذا مرت الليلة بسلام جازت الخطر المائل ولكنى لا أظن أنها تعمر طويلا ، في تقديري أنه لا يمكن أن يمتد بها العمر الى ما بعد العشرين ، ولكن من يعلم ؟. الأعمار بيد الله وحده .. ولما ذهب الطبيب الى طيته التفت خليل نحو امه وعلى

شفتيه ابتسامة خفيفة تنم عن أسف وقال :

– كان في نيتي أن أسميها نعيمة باسمك ..

فقال المرأة وهي تلوح بيدها مؤنبة :

– الطبيب نفسه قال : أن الأعمار بيد الله أف تكون انت

أضعف أيمانا منه ، سمها نعيمة ، يجب أن تسميها نعيمة أكراما

لي ، وسيكون عمرها باذن الله مديدا كعمر جدتها !

كان السيد يحدث نفسه : دعا الاحمق الطبيب ليطلع على

زوجه بغير موجب ، بغير موجب !.. يا له من أحمق . ولم

يستطع أن يكتم غيظه فقال وهو يداريه بلهجة رقيقة :

– حقا الخوف يفقد الرجال حسن الروية ، أما كان يجمل

بك أن تفكر قليلا قبل أن تبادر الى احضار رجل غريب ليري

زوجك بملء عينيه ؟!

لم يجب خليل ، ولكنه نظر فيمن حوله وقال بجذ :

– لا يجوز أن تعلم عائشة بما قال الطبيب ..

- ٦٩ -

ماذا في الطريق ؟..

تسأل السيد أحمد وهو ينهض في عجلة من وراء مكتبه ،

فذهب صوب باب الدكان يتبعه جيل الحمزاوى وبعض الزبائن .

لم يكن طريق النحاسين طريقا هادئا ، كان أبعد مايكون عن الهدوء ،

صوته الجهير لا يخفت من الفجر الى ما قبيل الفجر ، حناجره عالية

هتافة بنداوات الباعة ومساومات الشارين ودعوات المجذوبين

ودعابات السابلة ، يتحادثون وكانهم يخطبون ، حتى أخص الشئون

تترامى الى جوانبه وتطير حتى مآذنه ، الى ضوضاء شاملة تصدر

عن صليل سوارس حينما وطققة الكارو حينما آخر ، لم يكن طريقا

هادئا بحال ولكن تعالت ضجة فجائية وفدت من بعيد في بادئ

الأمر كهدير الأمواج ثم غلظت واشتدت حتى صارت بعزيف الريح

أشبه وقد لفت الحى كله قربه وبعيده ، بدت غريبة شاذة حتى

في هذا الطريق الصاخب ، ظنها السيد أحمد مظهرة نائرة كما

ينبغي لرجل عاش في تلك الأيام ولكن جلجلت في طياتها زغاريد

مبشرة بالأفراح ، فمضى الرجل متسائلا الى الباب ، ولم يكد

يلفغه حتى اصطدم بشيخ الحارة الذى أقبل مندفعا وهو يهتف

بوجه طفر منه البشر :

– أبلغك الخبر ؟

فقال السيد وعيناه تلمعان تفاؤلا من قبل أن يسمع شيئا :

– كلا ، ماذا وراءك ؟

قال الرجل بحماس :

– سعد باشا أفرج عنه ..

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

فما تمالك السيد أن تسأل صائحا :
- حقا ؟؟

فقال شيخ الحارة بيقين :

- اذاع النبي الساعة بيانا بهذه البشرى ..

في اللحظة التالية كانا يتعانقان ، واشتد التأثير بالسيد احمد
فاغرورقت عيناه ثم قال وهو يضحك مداراة لتأثره :

- كان العهد به دائما أن يذيع الانذارات لا البشرىات فماذا
غيره ابن الهرمة ؟!

فقال شيخ الحارة :

- سبحان الذى لا يتغير ..

وصافح السيد ثم غادر الدكان وهو يصيح « الله اكبر : الله
اكبر ، النصر للمؤمنين ! » .

وقف السيد على عتبة الدكان مقلبا عينيه في انحاء الطريق
بقلب ارتد الى براءة الطفولة وبهجتها ، طالع اثر الخبر السعيد في
كل مكان .. في الدكاكين التى سدت مداخلها بأصحابها وزبائنهم
وهم يتبادلون التهاني ، في النوافذ التى تراحمت فيها الاحداث
وانطلقت الزغاريد من وراء خصاصها ، في المظاهرات التى تألفت
ارتجالا ما بين النحاسين والصاغة وبيت القاضي هاتفة قلوبها
لسعد ، وسعد وسعد ثم سعد ، في المآذن التى اعتلى المؤذنون
شرفاتها يشكرون ويدعون ويهتفون ، في العربات الكارو التى
تجمعت بالعشرات حاملة المئات من النسوة المتلفعات بالملاءات اللف
وهن يرقصن ويرددن الاغاني الوطنية ، لم يعد يرى الا آدميين
او بالاحرى هاتفين ، اختفت الأرض وتوارثت الجدران وتعالى
التهافت لسعد في كل مكان كأنما الجو قد انقلب اسطوانة هائلة تدور
بلا توقف مرددة اسمه . وجرى نبا فوق الرؤوس الحاشدة ان
الانجليز يجمعون معسكراتهم القائمة عند مفترق الطرق تاهبا
للرحيل الى العباسية فاستمر الحماس وحمست النشوات ،

لم ير السيد احمد منظرا كهذا من قبل فراح يقلب عينين
متالقتين وفؤاده يخفق وثبا وباطنه يردد مع النسوة الراقصات
« يا حسين .. حملة وانشالت ! » حتى اذنى جميل الحمزاوى
راسه من اذنه قائلا :

- الدكاكين توزع الشربات وترفع الاعلام ..

فقال له بحماس :

- اصنع كما يصنعون واكثر ، أرني همتك ..!

ثم بصوت متهدج :

- علق صورة سعد تحت البسطة ..

فنظر اليه جميل الحمزاوى كالمتردد ثم قال محذرا :

- هذا موضع ترى فيه الصورة من الخارج الا يحسن بنا

ان نثريث حتى تستتب الامور ؟

فقال السيد باستهانة :

- مضى عهد الخوف والدماء الى غير رجعة ، الا ترى ان

المظاهرات تمر تحت أعين الانجليز دون ان يتعرضوا لها بسوء ؟

علق الصورة وتوكل على الله ..

غار عهد الخوف والدماء ، اليس كذلك ؟ سعد حر طليق

ولعله في طريقه الآن الى أوروبا ، لم يعد بيننا وبين الاستقلال

الا خطوة أو كلمة ، مظاهرات الزغاريد بدلا من مظاهرات

الرصاص ، الاحياء منا قوم سعداء ، اخترقوا النيران وخرجوا

سالمين ، رحمة الله على الشهداء ؛ فهمى ؟! نجا من خطر لم

يقدره ، نجا والحمد لله والشكر لله ، أجل نجا فهمى ، ماذا تنتظر ؟!

صل الى الله ربك . لما اجتمعت الاسرة مساء وشت الحناجر

المبحوحة بيوم ملئ بالهتاف . كان مساء سعيدا ، تمت عن سعادته

الاعين والثغور والحركة والكلام حتى امينة قهل قلبها من نخب

السعادة المبدول مشاركة للأبناء واستبشارا بعودة السلام

وفرحا بالافراج عن سعد .

— من المشربية رأيت ما لم تر عين من قبل ، هل قامت
القيامة ونصب الميزان؟! . وأولئك النساء هل جنن؟! لا يزال
صدى ترديدهن يرن في أذنى « يا حسين .. حملة وانشالت » .
قال ياسين ضاحكا وهو يعبث بشعر كمال :
— تحية شيعوا بها الانجليز الراحلين كما يشيع الضيف
الثقيل بكسر القلة وراءه!..
نظر اليه كمال من دون أن ينبس على حين عادت أمينة
تتساءل :

— أرضى الله عنا أخيرا ..؟

فأجابها ياسين قائلا :

— بلا ريب (ثم مخاطبا فهمى) ماذا تظنين ؟

قال فهمى الذى بدا في فرج الأطفال :

— لو لم يسلم الانجليز بمطالبتنا لما أفرجوا عن سعد ، سوف
يسافر الى أوروبا ثم يعود بالاستقلال ، هذا ما يؤكد الجميع ،
ومهما يكن من أمر فسيبقى يوم ٧ أبريل سنة ١٩١٩ رمزا
لانتصار الثورة .

فعاد ياسين يقول :

— ياله من يوم! . اشترك الموظفون في المظاهرات علانية ،
ما كنت أظن أن بى هذه القدرة العظيمة على السير المتواصل
والهتاف العالى!..
فضحك فهمى قائلا :

— وددت لو رأيتك وأنت تهتف متحمسا ، ياسين يتظاهر
ويتحمس ويهتف!.. يا له من منظر فريد!

يوم عجيب في الأيام حقا ، اكتسحه سيله الزاخر فحملة بين
امواجه العاتية كوريقة لا وزن لها حتى طار به كل مطار ، لا يكاد
يصدق أنه ثاب الى رشده وأنه آوى الى برج المراقبة الهادى
يشاهد من منظاره الحوادث في هدوء وعدم اكتراث!.. جميل

يستحضر الحال التى تلبسته في المظاهرة على ضوء ملاحظة فهمى
حتى قال بغرابة :

— الواحد منا ينسى نفسه وهو بين الناس نسيانا غريبا
فكأنه يبعث شخصا جديدا ..

سأله فهمى باهتمام :

— اكنت تشعر بحماس صادق ؟

— هتفت لسعد حتى يح صوتى واغرورقت عيناي مرة
أو مرتين .

— كيف اشتركت في المظاهرة ؟

— بلغنا نبا الافراج عن سعد ونحن في المدرسة ففرحت فرحا
عظيما حقا ، اكنت تتوقع غير هذا ؟. واذا بالمدرسين يقترحون
الانضمام الى المظاهرة الكبيرة في الخارج فلم أجد من نفسى ميلا
الى مجاراتهم وفكرت في التسلل الى البيت ، غير انى اضطررت
الى السير معهم حتى تسنح لى فرصة للزيقان ، ماذا حصل بعد
ذلك ؟. وجدت نفسى في بحر متلاطم من الناس وجو مكهرب من
الحماس فما ملكت أن ذهلت عن نفسى واندمجت في التيار كأشد
ما يكون المرء — صدقنى في هذا — حماسا وأملا!..
فهز فهمى رأسه وهو يغمغم :

— شئ عجيب ..

ضحك ياسين عاليا ثم قال :

— أحسبتنى فاقد الوطنية؟! المسألة انى لا احب الزياط
والعنف ، ولا أجد حرجا في التوفيق بين حب الوطن وحب
السلامة ..

— واذا شق التوفيق بينهما ..؟

فقال مبتسما ولكن دون تردد :

— قدمت حب السلامة!.. نفسى أولا .. الا يستطيع الوطن

أن يسعد إلا بالتهام حياتي ؟! . يفتح الله ، أنا لا أفرط في حياتي
ولكني سأحب الوطن ما دمت « حيا » ..
قالت أمينة :

— هذا عين العقل (ثم متطلعة الى فهمي) هل عند سيدي
راى آخر ؟ ..

قال فهمي بهدوء :

— كلا طبعاً ، انه عين العقل كما قلت ..

ولم يرض كمال أن يبقى بمعزل عن الحديث لا سيما انه كان
مقتنعا بأنه لعب في يومه دورا خطيرا حقا فقال :

— واضربنا نحن كذلك ولكن الناظر قال لنا : اننا مازلنا
صغارا .. واننا اذا خرجنا من المدرسة داستنا الاقدام ،
ثم سمح لنا بالتظاهر في فناء المدرسة فتجمعنا فيه وهتفنا
(هنا هتف عاليا : يحيا سعد) طويلا جدا ، ثم لم نعد الى
القصور لأن المدرسين كانوا قد غادروا المدرسة منضمين الى
التظاهرين في الخارج ! ..

رماه ياسين بنظرة ساخرة وقال :

— ولكن أصدقاءك ذهبوا ! ..

— في داهية ..

ندت عنه هذه العبارة بلا تفكير وهي أبعد ما تكون عن حقيقة
شعوره ، لأن الحال تقتضيها من ناحية ، ولانه أراد أن يدارى بها
هزيمته أمام سخرية ياسين من ناحية أخرى ، أما قلبه فكان يكابد
دهشة وغمزا ، لم ينس كيف وقف لدى عودته من المدرسة في
المكان المهجور الذي كان يحتله المسكر يقرب عينيه في أرجائه في
صمت اليم وعيناه مغروقتان . سوف يمضي وقت طويل قبل أن
ينسى مجلس الشاي على طوار سبيل بين القصرين ، والاعجاب
الذي كان يحظى به غناؤه ، والمودة التي كان يلقاها من الجنود

خاصة جوليون ، والصدقة التي ربطته بالسادة المتفوقين
الذين يعلون في اعتقاده على سائر البشر ! . قالت أمينة :

— سعد باشا رجل سعيد الحظ ، الدنيا كلها تهتف باسمه ،
ولا أفندينا في زمانه ، رجل مؤمن بلا رب لأن الله لا ينصر
الا المؤمنين . نصره على الانجليز الذين غلبوا زبلن نفسه ، اى فوز
وراء هذا ؟! .. لقد ولد الرجل في ليلة القدر .

سألها فهمي باسم :

— أرحبته ..

— أحبه ما دمت تحبه ..

بسط فهمي راحتيه ورفع حاجبيه مستنكرا ثم قال :

— لا يعنى هذا شيئا ! ..

فتنهدت فيما يشبه الارتباك ثم قالت :

— كنت كلما بلغنى نبأ أسيف تقطع قلبي حزنا وقلت لنفسى
« ترى أكان يقع هذا لو لم يقم سعد قومته ؟! » على أن رجلا
يجمع الكل على حبه لا بد أن الله يحبه كذلك ..

ثم متنهدة بصوت مسموع :

— أسفى على الهالكين ، كم أما تبكى الآن بحرارة ؟ .. كم أما
لم تزدها فرحة اليوم الا حسرة على حسرة ..

قال لها فهمي وهو يغمز ياسين بطرفه :

— الأم الوطنية حقا تزغرد لاستشهاد ابنها ..

فوضعت اصبعيها في اذنيها وهتفت :

— اللهم انى أشهدك على ما يقول سيدي الصغير ! . أم تزغرد
لاستشهاد ابنها ! . اين ؟! . على هذه الأرض ؟ . ولا تحت الأرض
في عالم الشياطين ! ..

قهقه فهمي عاليا ومضى يفكر مليا ، ثم قال وعيناه تلمعان
باسميتين :

- نينة ..! سأبوح لك بسر خطير أن له ان يداع ، لقد
اشتركت في المظاهرات وقابلت الموت وجها لوجه ..!
سهمت اليه غير مصدقة ثم قالت وعلى شفيتها ابتسامة
باهتة :

- انت ؟! .. محال .. انك من لحمى ودمى وقلبك من قلبي ،
لست كالأخرين ..

فقال بيقين وهو يتسم اليها :

- أقسم لك على ذلك بالله العظيم ..

اختفت الابتسامة واتسعت العينان في ذهول ، ثم رددت
بصرها بينه وبين ياسين الذى حذجه بدوره بنظرة متسائلة ،
ثم غمضت وهى تزدرد ريقها :

- رباه ..! كيف أصدق أذننى !

ثم بعد أن هزت رأسها في حيرة اليمه :

- أفت ..!

كان يتوقع انزعاجها ولكن ليس - بالنظر لمجئ اعترافه بعد
زوال الخطر - الى الحد الذى بدا عليها ، فبادرها قائلا :

- ذاك تاريخ مضى وانتهى ، لا داعى الآن للانزعاج ..

فقالت باصرار ونرفزة :

- صه ، انت لا تحب أمك ، سامحك الله ..

فضحك فهمى في شيء من الارتباك . قال كمال لأمه وهو

يتسم بمكر :

- أتذكرين يوم دكان البسبوسة وضرب النار ؟. رأيت وانا

عائد في الطريق المقر فنبه على بالآ أخبر احداً بأنى رأيت ..

ثم نظر الى فهمى وسأله باهتمام وتشوق :

- قص علينا يا سى فهمى ما لقيت في المظاهرات ، كيف كانت

تقع المعارك ؟ وكيف يصرع القتلى ؟ ألم تطلق النار قط ..؟

فندخل ياسين في الحديث قائلا للأم :

- ذاك تاريخ مضى وانتهى ، اشكر الله على نجاته ، هذا
أولى بك من الانزعاج :

سألته بجقاء :

- أكنت تعلم بذلك ..؟

فبادرها قائلا :

- لا وحياة تربة أمى (ثم مستدركا) ودينى وإيمانى وربى ..

ثم نهض من مجلسه ، منتقلا الى جوارها فوضع يده على
منكبها وقال برقة :

- أطمئنين حين كان ينبغى الانزعاج وتنزعجين حين ينبغى

الاطمئنان ! وحدى الله ، زال الخطر وعاد السلام ، ها هو فهمى

بين يديك .. (وضاحكا) ابتداء من الغد سنقطع القاهرة طولا

وعرضا ، ليلا ونهارا ، بلا خوف أو قلق ..

وقال فهمى جادا :

- نينة ، رجائى اليك ألا تكدرى صفونا بحزن لا موجب له .

تنهدت .. فتحت فاهها لتتكلم ولكنها حركت شفيتها دون

أن تنبس . ابتسمت ابتسامة شاحبة لتعلن استجابتها لرجائه ،

ثم نكست وجهها لتخفى عينيها المغرورتين ..

- ٧٠ -

بات فهمى تلك الليلة وهو عاقد العزم على استرضاء ابيه

مهما كلفه الأمر وفي صباح اليوم التالى صمم على تنفيذ عزمه

دون تردد . ومع أنه لم يضمّر لايه - طول فترة العصيان - أى

احساس بالغضب أو التحدى فان ضميره كابد شعورا بالذنب

ناب به قلبه الحساس المشرب بالطاعة والولاء . حقا لم يتحده بلسانه

ولكنه خالف ارادته بالفعل ، بل خالفها مرارا وتكرارا ، فضلا عن امتناعه عن القسم يوم دعاه اليه في حجرته واعلانه بالبقاء تمسكه برأيه رغم ارادة الرجل ، كل أولئك أحله - على حسن نيته - موقفا عاقا شريرا لا يرضاه لنفسه ولا يحتمله . ولم يكن سعى الى استرضائه من قبل خشية أن ينكأ الجرح دون أن يسعه أن يلامه ، لأنه قدر أن يدعوه السيد الى القسم تكفيرا عما بدر منه فيضطر مرة أخرى الى الامتناع مؤكدا عصيانه من حيث اراد أن يعتذر عنه . الحال اليوم غيرها بالأمس ، انتشى قلبه بالسرور والظفر ، الوطن كله مثل بخمر السعادة والفوز ؛ فلا يطيق أن يقوم بينه وبين أبيه حجاب من سوء الظن ولو لحظة واحدة ، الاسترضاء ، فالعفو الذي يهفو اليه ، ثم السعادة الحقة التي لا تشوبها شائبة .

دخل حجرة أبيه قبيل ميعاد الفطور برقع ساعة فوجده يطوى سجادة الصلاة مغمما بالدعاء ، لمح الرجل بلا ريب ولكنه تجاهله فمضى الى الكنبة دون أن يلتفت صوبه وجلس . عند ذلك تراءى فهمى بموقفه عند الباب ملفوفا بالارتباك والحياء فحججه بنظرة جافة مستنكرة كأنما تتساءل « من هذا الواقف وماذا جاء به ؟ » فتغلب فهمى على ارتبائه وتقدم من مجلس أبيه في خطى خفيفة حتى انحنى على يده فتناولها ولثمها باحترام لا حد له ، وصمت مليا ثم قال بصوت لا يكاد يسمع :

- صباح الخير يا بابا .

واصل التحديق فيه صامتا كأنه لم يسمع تحيته حتى غص الشاب بصره ارتباكاً وغمغم في نبرات نمت عن اليأس :

- انى آسف ..

صمت واصرار على الصمت ..

- آسف جدا ، لم أذق طعم السكينة منذ ..

وجد أن الكلام كان يستدرجه الى ذكر ما ود من كل قلبه أن يتحاشاه فأمسك ، وما يدرى الا والسيد يسأله بجفاء وتبرم :

- وماذا تريد ؟ ..

رحب باقلاعه عن الصمت ايما ترحيب فتنهَّد بارتياح كأنه لم يستشعر جفاءه وقال برجاء : أريد أن تكون راضيا عنى .. قال السيد بضجر :

- غر من وجهى .

فقال فهمى وهو يشعر بقبضة اليأس تتراخى قليلا عن عنقه :
- عندما أنال رضاك ..

تساءل السيد متحولا فجأة الى التهكم :

- رضائى ! .. لم لا ؟ .. هل فعلت لا سمح الله ما يستوجب السخط ؟ !

رحب بالتهكم أضعاف ترحيبه بالاقلع عن الصمت ، التهكم عند أبيه أول خطوة نحو الصفع . غضبه الحقيقي صفع أو لكم أو ركل أو سب أو كل أولئك جميعا ، التهكم أول بشر بالتجول ، انتهز الفرصة وتكلم ؛ تكلم كما ينبغي لرجل قد يعمل في المحاماة غدا أو بعد غد ، هذه فرصتك ! وتكلم ، الاستجابة لنداء الوطن لا تعد عصيانا لارادة حضرتك ، لم أفعل شيئا يحسب بين الأعمال الوطنية حقا ، توزيع منشورات على الأصدقاء .. وما توزيع المنشورات على الأصدقاء ؟ أين أنا ممن بذلوا الحياة رخيصة ؟ فهمت من كلام حضرتك أنك تخاف على حياتى لا لأنك تستنكر حقا الواجبات الوطنية ، فقامت بشيء من الواجب وأنا مطمئن الى انى - في الواقع - لا أخالف لك ارادة ، الخ الخ ..

- علم الله أنه لم يخطر ببالى قط أن أعصى لك امرا .
قال السيد بعدة :

- كلام فارغ ، تتظاهر بالطاعة الآن لأنه لم يعد ثمة داع الى العصيان ، لم لم تطلب رضائى قبل اليوم ؟ ..

قال فهمى بحزن :

- كانت الدنيا في دم وكرب وكنت من الحزن في شغل شاغل .

- شغلك عن طلب رضاي ؟!

قال بحرارة :

- شغلني عن نفسي لا عن طلب رضاك ..

ثم بصوت منخفض :

- لن أستطيع أن أعيش بغير رضاك ..

قطب السيد ، لا غضبا كما تظاهر ، ولكن ليخفي الأثر اللطيف الذي بعثه كلام الشاب في نفسه . هكذا يكون الكلام والا فلا ، يجيد صناعة الكلام حقا ، هذه هي البلاغة اليس كذلك ؟ سأعيد أقواله على مسامع الأصدقاء الليلة لامتحن أثره في نفوسهم ، ترى ما عسى أن يقولوا ؟ ، الولد سر أبيه .. هذا ما ينبغي أن يقال ، قديما قيل لى اننى لو أتممت مراحل التعليم لكنت أبلغ المحامين ، انى أبلغ الناس بغير التعليم والحاماة ، الحديث اليومى كالتانون سواء بسواء في الكشف عن موهبة البلاغة ، كم من محام أو موظف كبير ينكمش في المجلس امامى كالعصفور ! ولا فهمي نفسه بمستطيع أن يسد مكانى يوما ما ، سيقولون لى وهم يضحكون حقا الولد سر أبيه ، امتناعه عن القسم لا يزال يحز في نفسي . لكن اليس من دواعي الفخر لى انه اشترك في الثورة ولو من بعيد ؟ ليت اشترك في الأعمال الكبيرة ما دام الله قد كتب له العمر حتى اليوم ، سأقول من الآن فصاعدا انه خاض غمار الثورة ، اتظنون انه اكتفى بتوزيع المنشورات كما كان يؤكد لى ؟ . لقد رمى ابن الكلب بنفسه في التيار الدامى ، يا سيد احمد ينبغي أن نشهد لابنك بالوطنية والشجاعة .. لم نشأ أن نقول لك هذا في ابان الخطر أما وقد استقر السلام فلا حرج من قوله .. أتكر أنت شعورك الوطنى ؟ .. ألم يشن عليك جامعو التبرعات من مندوبى الوفد .. والله لو كنت شابا لفعلت ما لم يفعله ابنك ولكنه عصانى ! عصى لسانك وأطاع قلبك ! الآن ما عسى أن أفعل ؟ يريد قلبى أن يهبه العفو ولكنى أخاف أن يستهين بمخالفتى !

- وأنا لن أستطيع أن أنسى أنك خالفت ارادتى ، أحسبت ان الخطبة الفارغة التى صبحتنى بها على غيار الريق يمكن أن تؤثر في ؟!

هم فهمى بالكلام ولكن امه دخلت في تلك اللحظة وهى تقول :

- الفطور جاهز يا سيدى ..

وقد دهشت لوجود فهمى على غير انتظار فرددت عينيها بينهما ، وتلكأت قليلا لعلها تسمع شيئا مما يدور ولكنها رأت في الصمت - الذى خافت أن يكون مجيئها باعثه - ما دعاها الى مغادرة الحجرة على عجل . نهض السيد للانتقال الى حجرة المائدة فتنحى فهمى جانبا وقد علاه حزن شديد لم يخف أثره عن عيني الرجل فتردد لحظات ثم قال أخيرا بصوت سلمى :

- أريد مستقبلا ألا تصر على حماقتك وأنت تخاطبنى ..

وسار فتبعه الشاب ممثنا باسم الأسارير ، ثم سمعه يقول متهمكا وهما يقطعان الصالة :

- أظنك حاسب نفسك على رأس الذين أفرجوا عن سعد ! غادر فهمى البيت قرير العين فمضى من توه الى الأزهر حيث اجتمع بزملائه أعضاء لجنة الطلبة العليا للنظر في تنظيم المظاهرات السلمية الكبرى التى سمحت السلطة بقيامها للأعراب عن ابتهاج الشعب والتى تقرر أن يشترك فيها ممثلو الأمة بكافة طبقاتها . دام الاجتماع وقتا غير قصير ، ثم تفرق المجتمعون كل الى وجهته فركب الشاب الى ميدان المحطة بعد أن عرف الدور الذى عهد به اليه وهو الاشراف على تجمعات طلبة المدارس الثانوية . لئن كان يعد ما يعهد عادة اليه - بالقياس الى غيره - من الأدوار الثانوية الا انه كان يقوم به بدقة وعناية وغبطة كأنما هو اسعد ما يحظى به في حياته غير انه لم يكن يخلو في جهاده من تعاسة خفيفة لم يعلم بها أحد سواه ، منشؤها ما اقتنع به من أنه دون الكثيرين من أقرانه جرأة واقداما . أجل لم ينكص عن مظاهره من

المظاهرات التي دعت إليها اللجنة ولكنه كان يفقد جنانه عند ظهور
 الثورات المحملة بالجنود وخاصة عند إطلاق الرصاص وتساقط
 الضحايا .. فمرة لأذ بمقهى وهو يرتعد ، ومرة أخرى جرى على
 وجهه شوطا بعيدا حتى وجد نفسه في قرافة المجاورين ، أين هو
 من حامل اللواء في مظاهرة بولاق ، أو مذبحة بولاق كما غدت
 تسمى ، الذي استشهد وبداه قابضتان على اللواء وقدماه ثابتان
 في الطليعة وحجرته تهتف بالثبات ؟! أين هو من اقران ذلك
 الشهيد الذين تبادروا الى اللواء ليرفعوه فسقطوا فوقه وقد
 تقلدت صدورهم نياشين الرصاص ؟! أين هو من ذلك الشهيد
 الذي انتزع المدفع الرشاش من ايدي الجنود في الأزهر ؟! أين هو
 من هؤلاء جميعا وغيرهم ممن تطير الانبياء بأى بطولتهم
 واستشهادهم ؟! كانت أعمال البطولة تتراعى لعينيه رائحة
 باهرة تخطف الأبصار ، وطالما أنصت الى نداء باطنى يهيب به الى
 الاقدام والتأسي بالأبطال ، ولكن كانت تخذه أعصابه في اللحظة
 الحاسمة فما أن تنحصر موجة المعركة حتى يجد نفسه في المؤخرة
 ان لم يكن مختبئا أو هاربا ، ثم يعود الى التصميم على مضاعفة
 البذل والكفاح والتماسك بضمير معذب وقلب حائر ورغبة في
 الكمال لا تحد ، متمزيا أحيانا بقوله « ما انا الا محارب اعزل ، ولئن
 فاتنى الرائع من أعمال البطولة فحسبى اننى لم اتردد مرة واحدة
 عن الالتقاء بنفسى في أتون المعركة » . في طريقه الى ميدان المحطة
 جعل يراقب الطرق والركبات ، كان الجميع يتوجهون - فيما بدا -
 وجهته ، طلبة وعمالا وموظفين واهلين راكبين وراجلين ، تظلم
 جميعا طمأنينة خليقة بقوم ذاهبين الى مظاهرة سلمية مصرح بها ،
 انه مثلهم ، يشعر بشعورهم ، لا كهده القديم حين كان يلتمس
 طريقه الى موعد المظاهرة بنفس نائرة وقلب تثقل ضرباته كلما
 تخاليل لعينيه شبح الهلاك . ذاك عهد مضى ، اليوم يمضى مطمئن
 الجانب باسم الثغر .. انتهى الجهاد ؟ خرج منه سليما لاعليه ولا له .

ولا له ؟! لبتة عانى شيئا مما تعرض له الآلاف كالسجن أو الضرب
 أو اصابة غير مميتة ! ليس من المحزن أن تكون السلامة المطلقة
 جزاء من أوتى قلبا كقلبه وحاسا كحماسه ! كطالب مجتهد لم يتح له
 أن يظفر بأية شهادة .. أنتكر سرورك بالنجاة ؟! أكنت تفضل أن
 تكون من الشهداء ؟ كلا ، أكنت تتمنى لو كنت من المصابين غير
 الهالكين ؟ نعم ، كان ذلك في وسعك فلم تكصت ؟ لم تكن تضمن أن
 تقع الاصابة غير مميتة أو أن يكون السجن عابرا ، أنت لا تكره النجاة
 الراهنة ولكنك تتمنى لو كان أصابك شيء دون أن يغير من هذه
 النهاية الجميلة ، ينبغي اذا جاهدت مرة أخرى أن اطلع على
 الغيب ! امضى الى المظاهرة السلمية بقلب مطمئن وضمير قلق -
 بلغ الميدان زهاء الواحدة بعد الظهر ، قبل الميعاد المحدد لقيام
 المظاهرة بساعتين فاتخذ مكانه في الموضع الذى حدد له ! .. باب
 المحطة . لم يكن بالميدان الا المشرفون وجماعات متفرقة من شتى
 الطوائف ، وكان الجو معتدلا الا أن شمس ابريل صبت على من
 تعرض لأشعتها لظى ، ولم يطل الانتظار فأخذت الجموع تتوافد
 على الميدان من مختلف الطرق المفضية اليه ، ومضت كل جماعة
 صوب علمها ، بذلك شرع فهمى في عمله بلذة وفخار ، بالرغم من
 بساطة العمل الذى لم يعد أن يكون ترتيبا للمدارس كل وراء
 علمها الا أنه ملأ نفسه زهوا وخيلاء سيما وأنه كان يشرف على
 طلبة كثيرين ممن يكبرونه سنا حتى بدت التسعة عشر عاما التى
 يجرها وراءه ذيلا قصيرا في زحمة التلاميذ الذين ناهز كثير منهم
 الثانية والعشرين والرابعة والعشرين وقتلت شواربهم ولاحظ
 اعينا ترمقه باهتمام وشفاهها تنهاس عليه كما سمع اسمه
 - مقرونا بصفته الشعبية - يجرى على بعض اللسان « فهمى
 احمد عبد الجواد مندوب اللجنة العليا » فحرك أوتار قلبه حتى
 اطبق شفثيه دون أن تند عنهما بسمة حياء أو ارتباك من « مهابته »
 اجل ينبغي أن يحافظ على منظر مندوب اللجنة العليا على الجدد

والصرامة الخليقتين بالرعييل الأول من شباب المجاهدين كى
ينفسح المجال لأخيلة المتطلعين لحسد ما يخفى وراءه من أعمال
البطولة والكفاح ، فلتتحقق تلك الأعمال الخارقة - التى عجز عن
تحقيقها في الواقع - في أخيلتهم ، لن تفتقر له رغبة في المزيد منها
وان وخز قلبه احساسه الحاد بالحقيقة العارية . موزع منشورات
وجندى من جنود المؤخرة ! هذا هو بلا زيادة . اليوم يوكل به
قيادة المدارس الثانوية فيواجه زعامة كبيرة ، ترى هل يقدر
الآخرون عمله أكثر مما يقدره هو ؟! لشد ما يحبونه بالاحترام
والمحبة ، لم يعقد اجتماع الا وكان له فيه رأى مسموع ،
والخطابة ؟. ليس من الضروري أن تكون خطيبا .. اليس كذلك ؟
ليس محالا أن تكون عظيما وانت غير خطيب ولكن اى خسارة
ستمنى بها يوم تمثل اللجنة العليا بين يدي الزعيم فيستقبل
الخطباء وتلوذ أنت بالصمت . كلا لن ألوذ بالصمت . سوف اتكلم ،
سأطلق لقلبي العنان أجاد أم لم يجد ، متى تقف بين يدي سعد ؟
متى تراه لأول مرة فتملا منه عينيك ؟ ان قلبى يخفق وعيناي
تحنان للدموع ، سيكون يوما عظيما ستخرج مصر كلها لاستقباله ،
لن يكون يومنا هذا الى ذلك اليوم الا كاقطرة الى البحر ، رباه !
امتلا الميدان امتلات الشوارع المفضية اليه ، عباس نوبار
الفجالة ، لم تسبق كهذه مظاهرة ، مائة ألف ، طرايش عمائم ،
طلبة .. عمال .. موظفون .. الشيوخ والقساوسة ، القضاة
.. من كان يتصور هذا ، لا يبالون الشمس .. هذه مصر ،
لم لم ادع بابا ؟ صدق ياسين .. الواحد منا ينسى بين الناس
نفسه ، يعلو على نفسه ، أين همومي الشخصية ؟.. لا شيء ،
لشد ما يخفق قلبى ، سأحدث عن هذا طويلا الليلة وما بعدها .
ترى هل ترتعد نينة مرة أخرى ؟ منظر جليل تخشع له القلوب
وتطمئن ، أريد أن المس أثره في وجوه الشياطين ! ها هي ثكناتهم
تشرف على الميدان ، الراية اللينة ترفرف ، هناك رعوس في

النوافذ .. فيم تتهامس ؟! الديدبان تمثال لا يرى شيئا ، لم تقض
رشاشاتكم على الثورة ، افقهوا هذا ، سترون عما قريب سعد
في هذا الميدان عائدا مظفرا تنفونه بالسلاح ونعيده بغير سلاح ،
سوف ترون ، سوف ترون قبل الجلاء . تحرك الموكب العظيم
فتدققت موجاته تباعا مرددة الهتافات الوطنية ، بدت مصر
مظاهرة واحدة . بل رجلا وحدا ، بل هتافا واحدا . تتابع طوابير
الطوائف طويلا ، طويلا جدا ، حتى خيل اليه أن الطلائع ستشارف
عابدين قبل أن يتزحزح هو وجماعته عن موضعهم أمام باب
الحطة ، اول مظاهرة تسير دون أن تقطع المدافع الرشاشة
الطريق عليها ، لا رصاص من ناحية ولا زلط من الناحية الأخرى .
واقتر فخره عن ابتسامة . رأى الجماعة التى تعسكر أمامه مباشرة
تتحرك فدار على عقبيه كى يواجه مظهرته « الخاصة » ورفع
يديه فسرت في الصفوف حركة تأهب وتوثب ، ثم هتف بأعلى
صوته وهو يسير مقهقرا . واصل مهمة القيادة والتهاف حتى
مدخل شارع نوبار ثم تخلى عن الثانية لغيره ممن احاطوا به
مترصدين دورهم بأفواه قلقة متحركة كأنما قد جاءها المخاض
والطلق فلا تستريح حتى تقذف بهتافات ، دار على عقبيه مرة
أخرى سائرا بوجهه ، يشرب بعنقه تارة ليشاهد ما تقدم من
جسم المظاهرة التى لم يعد يرى لها أولا ويتلفت يمنة ويسرة تارة
أخرى ليرى من اكتظت بهم الأرصفة والنوافذ والشرفات والأسطح
من جوع المشاهدين الذين جعلوا يرددون الهتافات . امتلات نفسه
بمنظر الألوف الحاشدة قوة الى قوة وطمانينة على طمانينة ، كأنها
دروع منصوبة حواليه ، قوة متماسكة لا ينفذ منها الرصاص ،
ان قوات البوليس تتعهد النظام بعد أن اعيها الطعان والهجوم .
ان منظر هؤلاء الرجال الداهيين الجائين على صهوات جيادهم
كأنهم حراس تابعون للمظاهرة قائمون على خدمتها ، لأبلغ دليل
على انتصار الثورة ، الحكمدار ؟! .. اليس هذا هو رسل بك .

بلى هو انه يعرفه حق المعرفة ، وهذا وكيل الحكمдар يخب وراءه ملقيا على الافق نظرة جامدة مترفعة كأنما تحتج احتجاجا صامتا على السلام الذى احتضن المظاهرة ، ما اسمه ؟ هل يمكن أن ينسى الاسم الذى ملأ الاسماع في الايام السود الدامية ؟! أوله جيم اليس كذلك ؟ جا .. جو .. جى .. يابى أن يستجيب الى الذاكرة ، جوليون ! أوه كيف تسلل هذا الاسم البغيض الى وعيه ؟! هوى عليه كالتراب فاطفا حماسه ، كيف لنا أن نلبى نداء الحماس والظفر مادام القلب ميتا ! قلب ميت ؟! لم يكن ميتا منذ دقيقة ، لا تستسلم للحزن ، لا تدع قلبك يتعد عن المظاهرة ، ألم تعاهد نفسك على النسيان ؟ بل أنك نسيت بالفعل ، مريم .. من هى ؟! ذلك التاريخ القديم ؟! نحن نعيش للمستقبل لا للماضى .. جيز .. جيز .. جيز .. مستر جيز .. مستر جيز .. هذا هو اسم وكيل الحكمدار لعنة الله عليه ، عد الى الهاتف كى تنفض عن نفسك هذا الغبار الطارىء . مضت « مظاهرتة » تقترب رويدا من حديقة الأزبكية التى لاحت أشجارها الباسقة فوق الاعلام المنتشرة بطول الطريق على حين بدا ميدان الأوبرا من بعيد رءوسا متلاصقة كأنها تنبت من جسد واحد ملأ الأرض طولا وعرضا . كان يهتف بقوة وحماس والجمهور يردد هتافه بصوت ملأ الجو كهزيم الرعد . ولما شارفوا سور الحديقة دوت - على حين بقة - فرقة حادة فشلت حنجرتة وتلفت فيما حواليه متسائلا في انزعاج ، صوت معهود كثيرا ما ضك اذنيه في الشهر المنصرم وكثيرا ما تردد صده في ذاكرته في هداة الليل بيد انه لم يستطع أن يألوه فما يكاد يدوى حتى يخطف دمه ويوقف قلبه عن الخفقان ..

- رصاص .. ؟!

- غير معقول ، ألم يصرخوا بالمظاهرة ؟!

- اسقطت من حسيابك الفدر ؟



- ولكن لا أرى جنودا ..!!
- حديقة الأربكية معسكر هائل مكتظ بهم ..
- لعلها فرقة عجلة سيارة ..
- لعلها ..!

- ٧١ -

سمع السيد أحمد عبد الجواد وقع أقدام على مدخل الدكان فرفع رأسه عن مكتبه فرأى ثلاثة شبان يتقدمون نحوه تملوهم سيماء الجد والرزانة حتى وقفوا لصق مكتبه وهم يقولون - السلام عليكم ورحمة الله ..

فنهض السيد قائلاً بأدبه المعبود :

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته (ثم مشيراً إلى الكراسي)
فضلوا ..

ولكنهم لم يلبوا الإشارة شاكرين وقال أوسطهم :

- حضرتك السيد أحمد عبد الجواد ؟

فقال السيد باسماء وان لاح في عينيه التساؤل :

- نعم يا سيدي ..

ماذا يريدون يا ترى ؟ الشراء مستبعد .. ما للشراء والمشية العسكرية التي جاءوا عليها ! ما للشراء واللهجة الجدية التي يتكلمون بها ! ثم الساعة جاوزت الساعة مساء . الأيرون الحمازوى وهو يرفع الزكائب إلى الرفوف ايدانا باغلاق الدكان ؟ يكونون من جامعى التبرعات ، لكن سعد قد أفرج عنه وانتهت الثورة ، وأنا لم أعد صالحاً إلا للسهرة ! يا هؤلاء اعلموا انى لم أغسل رأسى ووجهى بالكولونيا وامشط شعرى وشاربى وأحبك جبتي وقفطاني كى ألقى وجوهكم ! ماذا تريدون ؟ غير انه خيل اليه وهو يرنو الى محدثه أن وجهه ليس غريباً عليه . رآه من قبل ؟ أين ؟ متى ؟ تذكر ، من المؤكد انه لا يراه لأول مرة ، آه .. قال باسماء وقد شاع الارتياح في وجهه :

أرهف أذنيه لما يدور حوله من دون أن يثوب الى السكينة ، وما هى الا لحظات حتى دوت فرقة ثانية .. آه .. لم يعد ثمة شك ، رصاصة كسابقتها ، أين يا ترى استقرت ؟ اليس يوم سلام ؟! شعر بحركة اضطراب تسرى بين المتظاهرين وافدة من الامام كالوجة الثقيلة التى تدفعها الى الشاطئ باخرة تمخر وسط النهر ، ثم تراجع الألوف وانتشروا باعثن في كل ناحية دفعات جامحة جنونية من الاضطراب والارتباك والارتطام ، تملوها صيحات مفزعة من الغضب والخوف ، وسرعان ما انتشرت الصفوف المتناسقة وانهد البنيان المشيد . تلاحقت جملة من الطلقات الحادة فتعالى صراخ الغضب وانين الألم . ماج بحر الخلق وهاج وتدافعت موجاته الى جميع المنافذ لا تبقى على شيء في طريقها ولا تدر . أهرب ، ما من الهرب بد ، ان لم يقتلك الرصاص قتلتك الأذرع والاقدام . هم بالهرب أو بالتراجع أو حتى التحول عن موقفه ولكنه لم يفعل شيئاً ، ما وقوفك وقد تشتت الجمع ؟! في خلاء أنت ، أهرب . صدرت عن ذراعيه وساقيه حركة بطيئة وانية متراخية . ما اشد الضوضاء ، ولكن بم علا صراخها ؟ هل تذكر ؟ ما أسرع ما تغفلت منك الذكريات . ماذا تريد ؟ ان تهتف ؟ اى هتاف ؟ أو هو نداء فحسب .. من ؟ ما ؟ في باطنك يتكلم ، هل تسمع ؟ هل ترى ؟ ولكن أين ؟ لاشيء ، لاشيء ، ظلام في ظلام ، حركة لطيفة تطرد بانتظام كدقات الساعة ينساب معها القلب .. تصاحبها وشوشة ، باب الحديقة .. اليس كذلك ؟ يتحرك حركة تموجية سائلة ، يذوب رويدا ، الشجرة السامقة ترقص في هواده ، السماء .. السماء ؟ منبسطة عالية . لاشيء الا السماء هادئة باسماء يقطر منها السلام .

— اليس حضرتك الشاب النبيل الذى تقدم لانقاذنا في الوقت المناسب يوم حمل الناس علينا في مسجد الحسين رضى الله عنه؟ فقال الشاب بصوت خفيض :

— بلى يا سيدى ..

صدق ظنى ، يقول البلهاء ان الخمر تضعف الذاكرة ؟ لكن ما بالهم ينظرون الى هكذا ؟ انظر ، انظر ! هذه النظرات لا تنبئ عن خير ، اللهم اجعله خيرا : اعوذ بالله من الشيطان الرجيم : قلبى ينقبض لآمر ما ، جاءوا لآمر يتعلق ب ..

— فهمى ؟! .. جئتم تريدونه .. لعلكم ..؟! ..

نكس الشاب عينيه ثم قال بصوت متهدج :

— مهمتنا شاقة يا سيدى ولكنها فرض واجب ، ربنا يلهمك

الصبر ..!

مال السيد فجأة الى الامام معتمدا على حافة المكتب وهتف:

— الصبر ؟! .. علام ..؟! .. فهمى ؟! ..

قال الشاب بحزن بالغ :

— يؤسفنا ان نعى اليك أخانا المجاهد فهمى أحمد ..

صاح بلهجة منكرة وان لاحت في عينيه نظرة قاطعة

بالتصديق والياس :

— فهمى ؟! ..

— استشهد في مظاهرة اليوم ..

وقال الذى الى يمينه :

— انتقل الى جوار الأبرار وطنيا نبيلًا وشهيدا كريما ..

تلقى كلماتهم بأذن اصمها الشقاء على حين ختم الصمت

شفتيه واسترسلت عيناه في نظرة شاردة غائبة . مضت هنيهة

خيم الصمت فيها عليهم أجمعين حتى جميل الحمزاوى تسمر

تحت الرفوف ذاهلا يمد الى الرجل بصرا ملؤه الجزع ، أخيرا

عاد الشاب يفهم :

— لشد ما احزننا فقده ولكن ليس لنا الا ان نتلقى قضاء

الله بصبر المؤمنين ، وانك لمن المؤمنين يا سيدى ..

انهم يعزونك ، لا يعلم هذا الشاب انك اول من يحسن القاء

التعازى في مثل هذا الموقف ! .. ماذا تعنى هى للقلب المصاب ؟

لأشياء ! من اين للكلام ان يطفىء النار ؟ مهلا .. ألم تخطر الرزية

بقلبك قبل أن يتكلم قائلهم ؟ بلى .. تخايل لعينى شبح الموت ،

الآن والموت حقيقة تلقى الى سمعك تأبى ان تصدق ، او تخونك

شجاعتك فلا تريد أن تصدق ، كيف اصدق أن فهمى مات حقا ،

كيف تصدق أن فهمى الذى كان يطلب رضاك من ساعات فتشاققت

عنه . فهمى الذى تركنا هذا الصباح ممتلئا صحة وعافية وأملا

وسرورا ، مات .. مات ! لن اراه بعد اليوم لا في البيت ولا في أى

مكان من ظهر الأرض ؟! .. كيف يكون البيت من غيره ؟ كيف اكون

أبا بعده ؟ اين تذهب الآمال المعقودة عليه ؟ لم يعد ثمة أمل الا في

الصبر .. الصبر ؟ آه .. هل تشعر بوخز الألم الحاد ؟ هذا هو

الألم حقا .. كنت تخدع أحيانا فتزعم انك متألم ، كلا ، لم تتألم

قبل اليوم ، هذا هو الألم حقا ..

— سيدى ، شد حيلك وسلم أمرك الى الله ..

رفع السيد رأسه الى الشاب ، ثم قال بصوت مريض :

— ظننت عهد القتل قد انتهى ..

فقال الشاب بنبرات غاضبة :

— كانت مظاهرة اليوم مظاهرة سلمية ، وقد اذنت بها

السلطات فاشترك فيها صفوة الرجال من شتى الهيئات ،

وسارت اول الامر في امان حتى بلغ منتصفها حديقة الازبكية ،

وما ندرى الا والرصاص ينهال علينا من وراء السور بلا سبب ،

لم يتعرض أحد للجنود لا بخير ولا بشر حتى الهتاف بالانجليزية

ابتنعنا عنه تفاديا من الاستفزاز . ولكن مسيهم جنون القتل

فجأة فعمدوا الى بنادقهم واطلقوا النار . وقد انعقد الاجماع على توجيه احتجاج شديد الى دار الحماية ، بل قيل : ان النبي سيعلم أسفه عما بدر من الجنود ..
قال السيد بنفس اللهجة المريضة :
- ولكنه لن يرد حياة الى ميت ..
- وا أسفاه ..

قال السيد بتفجع :
- لم يشترك في المظاهرات الخطرة ، هذه اول مظاهرة ينضم اليها !..

تبادل الشبان نظرة ذات معنى فلم ينبس احدهم بكلمة ..
وكانما ضاق السيد بالحصار المضروب حوله فقال وهو يزفر :
- الأمر لصاحب الأمر ، أين أجده الآن ؟
قال الشاب :

- في قصر العينى « ثم وهو يشير الى السيد متمهلا لما رآه يتعجل الذهاب » ستشيع جنازته مع ثلاثة عشر شهيدا من اخواننا في تمام الساعة الثالثة من مساء الغد ..
هتف السيد في جزع :

- الا يترك لى تشيع جنازته من بيته !..
فقال الشاب بقوة :

- بل تشيع جنازته مع اخوانه في احتفال شعبى ..
ثم برجاء :

- القصر محاصر الآن بقوات من البوليس ، ولا بأس من الانتظار ما دمنا نحرص على تمكين اهالى الشهداء من توديعهم قبل تشيع الجنازة ، لا يليق ان يشيع فهمى في جنازة عادية كمن قضوا في بيوتهم ..

ثم مد له يده مودعا وهو يقول :
- اصبر وما صبرك الا بالله ..

وصافحه الآخران مكررين له العزاء ، ثم ذهبوا جميعا ..
اسند رأسه الى راحته وهو يغمض عينيه فجاءه صوت جميل الحمزاوى وهو يعزيه بنبرات باكية ولكنه بدا ضيق الصدر بالتمزية ، ولم يعد يحتمل البقاء فزائل موضعه يسير بخطى بطيئة ثقيلة حتى غادر الدكان ، ينبغى ان يخرج من حيرته ، فانه لا يدري حتى كيف يحزن ، يود لو يخلو الى نفسه ولكن أين ؟
سينقلب البيت جحيما بعد دقيقة أو دقيقتين ، وسيلحق به الاصدقاء فلا يدعون له فرصة للتفكير .. متى يتأمل الخسارة التى منى بها .. متى يتهاى له ان يغيب فيها عن الدنيا جميعا ؟
يبدو هذا بعيدا .. ولكنه آت لا ريب فيه ، وهذا قصارى ما يجد من عزاء في رآه .. أجل سيأتى وقت يخلو فيه الى نفسه ويفرغ الى حزنه بكل كيانه ، هنالك ينعم النظر في موقفه على ضوء الماضى والحاضر والمستقبل ، اطوار حياته كلها من طفولته وصباه الى ريق شبابه ، ما أثار من آمال وما خلف من ذكريات مطلقا لدموعه العنان حتى يستنفدها عن آخرها ، حقا ان أمامه فسحة من الوقت يحسد عليها فلا داعى للجزع ، انظر الى ذكرى الملاحة التى نشبت بينهما عقب صلاة الجمعة أو ذكرى ما دار بينهما هذا الصباح من استعطاف وعتاب ، كم يستغرقان من وقته تأملا وتذكرا وشجنا ؟ كم يستهلكان من قلبه ؟ كم يهيجان دموعه ؟ كيف يجزع والايام تدخر له كل هذه السعادة ؟
رفع رأسه المثقل بالفكر فلاح لعينيه المظلمتين مشربيات البيت فذكر امينة لأول مرة حتى أوشكت أن تخونه قدماء .. ما عسى أن يقول لها ؟ كيف تتلقى الخبر ؟ الضعيفة الرقيقة التى تبكى لمصرع عصفور !. انذكر كيف هملت دموعها لمقتل ابن الفولى اللبان ؟! ماذا تصنع لمقتل فهمى ؟.. مقتل فهمى !.. اهذه هى نهايتك حقا يا بنى ؟.. يا بنى العزيز التعميس !.. امينة ..
ابننا قتل ، فهمى قتل .. ياله .. أتأمر بمنع الصوت كما أمرت

بمنع الزغاريد من قبل ؟.. أم تصوت بنفسك ؟.. أم تدعو
النائحات ؟.. لعلها تتوسط الآن مجلس القهوة بين ياسين
وكمال متسائلة عما آخر فهمي ، سوف يتأخر طويلا ، لن تريه
أبدا .. ولا جثته ، ولا نعشه ، يا للقسوة ، سأراه أنا في القصر
أما انت فلن تريه ، لن أسمح بهذا .. قسوة أم رحمة ؟
ما الفائدة ؟.. وجد نفسه أمام الباب فامتدت يده الى المطرقة ثم
تذكر أن المفتاح في جيبه فأخرجه وفتح الباب ثم دخل .. ترامى
عند ذاك الى سمعه صوت كمال وهو يغنى بعذوبة :

زوروني كل سنة مرة حرام الهجر بالمرّة

تمت

((نجيب محفوظ))

للمؤلف

((قصر الشوق))

((السكرية))

وتصوران فترتين آخرين من حياة هذه الأسرة ..

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com